

وحي القلب

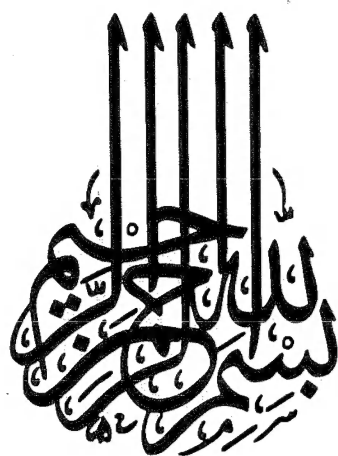
تأليف
مُصطفى صادق الرافعي

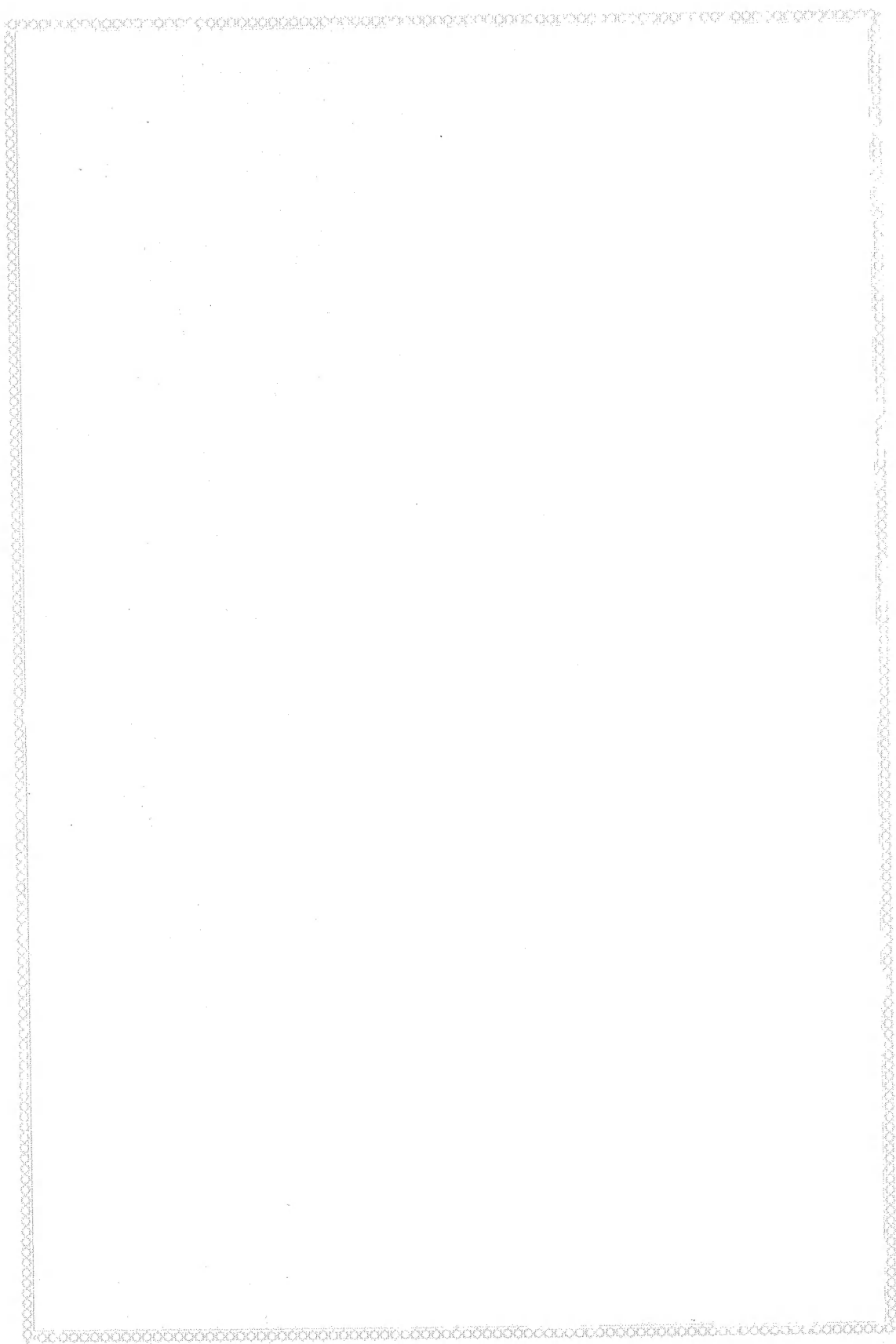
راجعته واعتنى به
د. درويش الجويدي

الجزء الثاني

المكتبة العصرية
بيروت

وَحْيِ الْقَلَمِ





الإشراق الإلهي وفلسفة الإسلام

كما تطلع الشمسُ بأنوارها فتفجرُ ينبوعَ الضوءِ المسمّى النهار، يولّد النبيُّ في الإنسانية ينبوعَ النورِ المسمّى بالدين. وليسَ النهارُ إلا يقظةُ الحياة تُحقّقُ أعمالها، وليسَ الدينُ إلا يقظةُ النفسِ تُحقّقُ فضائلها.

والشمسُ خلقها اللهُ حاملةً طابَعَهُ الإلهيُّ، في عمله للمادةِ تُحوّلُ به وتُغيّرُ، والنبيُّ يرسلُهُ اللهُ حاملاً مثلَ ذلك الطابعِ في عمله تترقّى فيه وتسمو.

وَرَعِشَاتُ الضوءِ مِنَ الشمسِ هي قصّةُ الهدايةِ لِلْكَوْنِ في نورٍ مِنَ الكلامِ.

والعاملُ الإلهيُّ العظيمُ يعملُ في نظامِ النفسِ والأرضِ بأداتينِ متشابهتين: أجرامِ النورِ مِنَ الشُّمُوسِ والكواكبِ، وأجرامِ العقلِ مِنَ الرُّسُلِ والأنبياءِ.

فليسَ النبيُّ إنساناً مِنَ العظماءِ يُقرأ تاريخُهُ بالفكرِ مَعَهُ المنطقُ، ومَعَ المنطقِ الشكُّ، ثم يُدرَسُ بكلِّ ذلك على أصولِ الطبيعةِ البشريةِ العامة، ولكنَّهُ إنسانٌ نجميٌّ يُقرأ بمثلِ «التلسكوب» في الدقة، مَعَهُ العِلْمُ، ومَعَ العِلْمِ الإيمانُ، ثم يُدرَسُ بكلِّ ذلك على أصولِ طبيعتهِ النورانيةِ وحدها.

والحياةُ تُنشِئُ عِلْمَ التاريخِ، ولكنَّ هذه الطريقةُ في درسِ الأنبياءِ - صلواتُ الله عليهم - تجعلُ التاريخَ هو يُنشِئُ عِلْمَ الحياة، فإنَّما النبيُّ إشراقٌ إلهيٌّ على الإنسانية، يُقَوِّمُها في فلَكِها الأخلاقي، ويجذبُها إلى الكمالِ في نظامٍ هو بعينه صورةُ لقانونِ الجاذبيةِ في الكواكبِ.

ويجيءُ النبيُّ فتجيءُ الحقيقةُ الإلهيةُ مَعَهُ في مثلِ بلاغةِ الفنِّ البياني، لِتَكُونَ أقوى أثراً، وأيسرَ فهمًا، وأبدعَ تمثيلًا، وليسَ عليها خِلافٌ مِنَ الجِسِّ. وهذا هو الأسلوبُ الذي يجعلُ إنساناً واحداً فَنَّ الناسِ جميعاً، كما تكونُ البلاغةُ فَنَّ لغةٍ بأكملها، هو الشخصُ المفسَّرُ إذا تعسَّفَ^(١) الناسُ الحياةَ لا يدرون أينَ يؤمُّونَ

(١) تعسَّفَ: اشتط، جاوز الحدَّ المعقول.

منها، ولا كيف يتهدّون فيها، فتضطرب الملايين من البشرية اضطرابها فيما تنقبض عنه وتتهالك فيه من أطماع الدنيا، ثم يُخلَقُ رجلٌ واحدٌ ليكونَ هو التفسيرُ لِمَا مضى وما يأتي، فتظهرُ به حقائقُ الآدابِ العاليةِ في قالبٍ مِنَ الإنسانِ العاملِ المرئيِّ، أبلغُ ممّا تظهرُ في قصةٍ متكلمةٍ مرويةٍ.

وما الشهادةُ لِلنبوةِ إِلَّا أن تكونَ نفسُ النبيِّ أبلغَ نفوسِ قومه، حتى لهُوَ في طباعِهِ وشمائِلِهِ طبيعةٌ قائمةٌ وحدّها، كأنّها الوضعُ النفسانيُّ الدقيقُ الذي يُنصبُ لِتصحيحِ الوضعِ المغلوَطِ للبشريةِ في عالمِ المادّةِ وتنازعِ البقاءِ^(١). وكأنَّ الحقيقةَ الساميةَ في هذا النبيِّ تُنادي الناسَ: أنْ قابِلُوا على هذا الأصلِ وصَحُّوا ما اعترى أنفسكم من غلَطِ الحياةِ وتحريفِ الإنسانيةِ.

* * *

ومن ثَمَّ فنبيُّ البشريةِ كلّها مَنْ بُعثَ بالدينِ أعمالاً مفصّلةً على النفسِ أدقَّ تفصيلٍ وأوفاهُ بمصلحتِها، فهو يُعطي الحياةَ في كلّ عصرٍ عقلها العمليّ الثابت المستقرّ تُنظَّمُ بِهِ أحوالُ النفسِ على مِيزَةٍ وبصيرةٍ، ويدعُ لِلحياةِ عقلها العلميّ المتجددَ المتغيّرَ تُنظَّمُ بِهِ أحوالُ الطبيعةِ على قضدٍ وهُدًى، وهذه هي حقيقةُ الإسلامِ في أخصّ معانيه، لا يُغني عنه في ذلك دينٌ آخر، ولا يؤدّي تأديتهُ في هذه الحاجةِ أدبٌ ولا علمٌ ولا فلسفة، كأنّما هو بُعِثَ في الأرضِ لِمعاني النور، بإزاءِ الشمسِ نبعِ النورِ في السماء.

وكلُّ ذلك تراه في نفسِ محمدٍ ﷺ، فهي في مجموعها أبلغُ الأنفسِ قاطبةً، لا يُمكنُ أن تعرفَ الأرضُ أكملَ منها، ولو اجتمعتْ فضائلُ الحكماءِ والفلاسفةِ والمتألّهينَ وجُعِلَتْ في نِصابِ واحدٍ - ما بلغتْ أن يجيءَ منها مثلُ نفسه ﷺ. ولكأنّما خرّجتْ هذه النفسُ من صيغةٍ كصيغةِ الدُرّةِ في عِرْقِهِ. وهي النفسُ الاجتماعيةُ الكبرى، من أين تدبّرتْها رأيَتها على الإنسانيةِ كالشمسِ في الأفقِ الأعلى تنبسطُ وتضحي.

وتلك هي الشهادةُ لَهُ ﷺ بأنّه خاتمُ الأنبياءِ، وأنّ دينَهُ هو دينُ الإنسانيةِ الأخير، فهذا الدينُ في مجموعِهِ إنّ هو إِلَّا صورةُ تلك النفسِ العظيمةِ في مجموعها: صلابتهُ بمقدارِ الحقِّ الإنسانيِّ الثابتِ، لا بمقدارِ الإنسانِ المتغيّرِ الذي

(١) تنازع البقاء: صراع البقاء.

يَكُونُ عِنْدَ سَبَبِ جَبَلًا صَلْدًا^(١) يَشْمَخُ^(٢)، وَعِنْدَ سَبَبِ آخَرَ مَاءً عَذْبًا يَجْرِي.

وهو دينٌ يعلو بالقوة ويدعو إليها، ويريد إخضاع الدنيا وحكم العالم، ويستفرغ همّه في ذلك، لا لإعزازِ الأقوى وإذلالِ الأضعف، ولكن لارتفاع بالأضعف إلى الأقوى، وفرقٌ ما بين شريعته وشرائع القوة، أنّ هذه إنّما هي قوة سيادة الطبيعة وتحكمها، أمّا هو فقوة سيادة الفضيلة وتغلبها، وتلك تعمل للتفريق، وهو يعمل للمساواة، وسيادة الطبيعة وعملها للتفريق هما أساسُ العبودية، وغلبة الفضيلة وعملها للمساواة هما أعظم وسائل الحرية.

ومن هنا كان طبيعياً في الإسلام ما جاء به من أنه لا فضيلة إلا وهو يطعُ عليها صورة الجنة بنعيمها الخالد، ولا رذيلة إلا وهو يضغُ عليها صورة النار الأبدية وقودها الناس والحجارة، فلا تنظر العين المسلمة إلى أسباب الحياة نظرة الفكر المنازع: يحرص على ما يكون له ويشره^(٣) إلى ما ليس له، ويمكر الحيلة، ويبدع وسائل الخداع، ويزيد بكل ذلك في تعقيد الدنيا - بل نظرة القلب المُسلم: يخلع الدنيا ويسخو بكل مضمون فيها، فيعف عن كثير، ويعرف الإنسانية ويطمع في غاياتها العليا، فيعفو عن كثير، ويدرك أنّ الحلال وإن حلّ فوراءه حسابه، وأنّ الحرام وإن غرّ ليس إلا تعلّل^(٤) ساعة ذاهبة ثم من ورائه عقابُ الأبد.

ويخرج من ذلك أن يكون أكبر أغراض الإسلام هو أن يجعل من خشية الله - تعالى - قانون وجود الإنسان على الأرض، فمن أي عطفيه^(٥) التفت هذا الإنسان وجدّ على يمينته ويسرته ملكين من ملائكة الله يكتبان أعماله بخيرها وشرها، فهو كالمتهّم المستراب^(٦) به في سياسة النفس: لا يمشي خطوة إلا بين جاسوسين يحصيان^(٧) عليه حتى أسباب الآثية، ويجمعان منه حتى نزوات الكبد، ويُترجمان عنه حتى معاني النظر.

وإذا قامت هذه المحكمة الملائكية وتقررت في اعتبار النفس، قام منها على النفس شرع نافذ هو قانون الإرادة المميّزة، وتريد الحسنات وتعمل لها، وتخشى

(١) صلدًا: قاسياً.

(٢) يشمخ: يتسامى.

(٥) عطفيه: جنيبه.

(٦) المستراب: الشاك.

(٧) يحصيان: يعدّان.

(٣) يشره: يسعى للحصول على ما ليس له بطمع.

(٤) تعلّل: تمنى النفس.

السيئات وتنفّر منها، فإذا معاني الجسد يحكم بعضها بعضاً، لا لتحقيق الحكومة والسلطة، ولكن لتحقيق الخير والمصلحة، وإذا نوايس الطبيعة المجنونة في هذا الحيوان، قد نهضت إلى جانبها نوايس الإرادة الحكيمة في الإنسان، وإذا كل صغيرة وكبيرة في النفس هي من صاحبها مادة تهمّة عند قاضها في محكمتها، وإذا كل ما في الإنسان وما حول الإنسان، لا يراود منه إلا سلام النفس في عاقبتها؛ وإذا معنى السلام هو المعنى الغالب المتصرف بالإنسانية في دنياها.

وكل أعمال الإسلام وأخلاقه وآدابه، فتلك هي غايتها، وهذه هي فلسفتها؛ لا يقررها للإنسانية حسب، بل يقرسها في الوراثة غرساً بالأعتياد والميران الدائم، لتكون علماً وعملاً، فتتمكن لسلام النفس بين الأسلحة المسددة إليها من ضرورات الحياة، في أيدي الأعداء المتألبّة^(١) عليها من شهوات الغريزة.

فليس يعلم السلام إلا إذا عمّ هذا الدين بأخلاقه فشمل الأرض أو أكثرها؛ فإن قانون العالم حينئذ يصبح متزجاً من طبيعة التراحم، فإما أنتسخ به قانون التنازع الطبيعي، وإما كسر من شترته؛ ويولد المولود يومئذ وتولد معه الأخلاق الإنسانية.

* * *

تقرير معنى الدوام لكل أعمال النفس حتى مثقال الذرة من الخير والشر، وضبط ذلك برياضة عملية دائمة مفروضة على الناس جميعاً هذا هو أساس العقيدة الإسلامية؛ ولا صلاح للإنسانية بغيره يردها إلى سبيل قصدها^(٢)، فإن من ذلك تكون الصفة العقلية التي تغلب على المجتمع، وتجانس بين أفرادها، فتوجه الإنسانية كلها نحو الممكن من كمالها، ولا تزال توجهها نحو ما هو أعلى، وتحكم فاسدها بصالحها، وتأخذ عاصيها بمطيعها، وتجعل الشرف الإنساني غرضها الأول، لأن الله الحق غرضها الأخير؛ فيصبح المرء - وهذا دينه - كلما تقدّم به العمر كمل فيه أثنان: الإنسان، والشرعية. ولا يعود طالب السعادة النفسية في الدنيا كالمجنون يجري وراء ظلّه ليُمسكه؛ فلا يدرك في الآخر شيئاً غير معرفته أنّه كان في عملٍ باطلٍ وسعي ضائع.

والإسلام يحرص أشد الحرص وأبلغه على تقرير ذلك المعنى الإلهي

(١) الأعداء المتألبّة: المجتمعين المتقضين على من يتخلونه عدواً.

(٢) قصدها: غايتها.

العظيم، لا بالمنطق، ولكن بالعمل؛ ثم في النفس وعواطفها، لا في العقل وآرائه؛ ثم على وجه التعميم، دون الاستثناء والخصوص؛ وذلك هو سرُّ مشقَّتِه على النفس بما يفرضه عليها؛ فإنَّ فلسفته أنَّ هذه النفس هي أساس العالم، وأنَّ النظام الخُلقي هو أساس النفس، وأنَّ العمل الدائم هو أساس النظام، وأنَّ روح العمل الدائم تكونُ فيما يشقُّ بعض المشقة ولا يبلغ العسر والحرَج^(١)، كما تكونُ فيما يسهلُ بعض السهولة ولا يبلغ الكسل والإهمال.

وللنفس وجهان: ما تُعلن، وما تَسِرُّ؛ ولا صدق لإعلانها حتى يصدق ضميرُها، ولا صلاح لِجَهرِها^(٢) حتى يصلح ألسرُّ فيها، ولا يكون الإنسان ألاجتماعي فاضلاً بمشهادِه^(٣) حتى يكون كذلك بغيِّه.

وللعالم كذلك وجهان: حاضره الذي يمرُّ فيه، وآتیه الذي يمتدُّ له؛ ولا يُفلح حاضرٌ منقطع لا يُورث ما بعده كما ورث قبله، وما حاضرُ الإنسانية إلا جزءٌ من عمل الناس في استمرار فضائلهم باقية نامية.

وللنظام أيضاً وجهان: نظام الرغبة على الطاعة والأطمئنان لها، ونظام الرغبة على الخشية^(٤) والثَّقرة منها. ولا يستقيم شأنُ ليس أساسه الطاعة في النفس، ولا يستمرُّ نظامٌ عليه خلافٌ من فكرِ العامل به.

وللعمل الدائم طريقتان: إحداهما طريقة الجاد يعمل للعاقبة يستيقنُها، فلا يجدُ ممَّا يشقُّ عليه إلا لذة المغالبة للنصر: كلُّ مرارة من قبله هي حلاوة فيه من بعد، ولا يعرف للمحنة^(٥) يُبتلى بها إلا معناها الحقيقي وهو إيقاظ نفسه، فيُصبح الصبرُ عنده كصبر المحبِّ على أشياء ممَّن تُحبُّه؛ صبرٌ فيه من السحر ما يكسو الجُرمان في بعض الأحيان خيال الاستمتاع، ويذيق النفس في العجز عن بعض أغراضها - لذة كلذة إدراكه.

تلك هي فلسفة الإسلام؛ لا قِوامٌ للأمر فيها ولا مِساكٌ له إلا بتقرير معنى الدوام لكلِّ أعمال النفس، ووضع طابع الجنة على أعمال الجنة، وطابع النار على

(١) الحرج: الشعور بالضيق والشدة.

(٢) لجهرها: لإعلانها.

(٣) بمشاهده: بحضوره.

(٤) الخشية: الخوف.

(٥) المحنة: المصيبة.

أعمال النار - وحيطة كل فرد من الناس حيطة رياضية عملية بين الساعة والساعة، بل بين الدقيقة والدقيقة، بما يكلف من أعمال جسمه وحواسه، ثم أعمال قلبه ونيتيه - وتعظيم الشخصية الروحية دون الشخصية المادية، فلا يحاول كل إنسان أن يجعل بطنه في حجم مملكة أو مدينة أو قرية، بما ينتقص^(١) من حقوق غيره؛ بل تتسع ذاتية كل فرد بما يجب له على المجتمع من الواجبات الإنسانية؛ وبهذا لا بغيره تتعين مقاييس الأخلاق في الأرض: بالمصلحة لا باللذة؛ فلا يقع الخطأ ولا التزوير، وتنحل المشكلة الاجتماعية ما دامت الحياة لا تجد من أهلها كل ساعة عقداً فيها.

والاستيلاء بذلك المعنى على العقل والعاطفة هو وحده الطريقة لإنشاء طبيعة الخير في الناس على نسقها الطبيعي، كما أنه هو وحده الطريقة لتطهير التاريخ الإنساني من أوبائه الاقتصادية^(٢)، التي جعلته كأثما هو تاريخ الأسنان والأضراس، وترك الناس يهدم بعضهم بعضاً، كما يهدم الجار حائط جاره ليوسع بيته.

وأساس العمل في الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة، فتجعلها العقيدة أقوى من الحاجة، فيكون الفقير مُعْذِماً^(٣) ويتعفف، ويكون الغني موسراً ويتصدق، ويكون الشَّره طامعاً ويُمسك، ويكون القوي قادراً ويُخْجَم^(٤)، وكما قال العرب في تحقيق ناموس الأنفة والحمية وغلبته على الناموس الاقتصادي: «تجوع الحر ولا تأكل بثديها».

* * *

تريد الإنسانية امتداداً غير امتدادها التجاري في الأرض، وتحتاج إلى معنى يقود إنسانها غير الحيوان الذي فيه؛ وإذا قاد الغراب قوماً فإنما هو - كما قال شاعرنا - يمرُّ بهم على جيف الكلاب... والإنسانية اليوم في مثل ليل حوشي^(٥) مظلم أختلط بعضه في بعض، وليست معاني الإسلام إلا الإشراف الإلهي على هذه الكثافة المادية المترامية، وإذا رُفِع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التي تنتهي إليها أشعته.

(١) ينتقص: يأخذ.

(٢) أوبائه الاقتصادية: أمراضه، كالفقر والعوز والجوع... (٤) يحجم: يمسك.

(٣) معدماً: فقيراً لا يملك مالا.

(٥) حوشي: متوحش.

وقد علمنا من طبيعة النفس أن إنسانية الفرد لا تعظم وتسمو وتتخيل وتفرح فرحها الصادق وتحزن حزنها السامي - إلا أن تعيش في محبوب؛ فإنسانية العالم لا تكون مثل ذلك إلا إذا عاشت في نبيها الطبيعي، نبي أخلاقها الصحيحة وآدابها العالية ونظامها الدقيق؛ وأين تجد هذا المحبوب الأعظم إلا في محمد ودين محمد؟

وعجيب أن يجهل المسلمون حكمة ذكر النبي العظيم خمس مرات في الأذان كل يوم، يُنادى بأسمه الشريف ملء الجوّ؛ ثم حكمة ذكره في كل صلاة من الفريضة والسنة والنافلة^(١)، يُهمس بأسمه الكريم ملء النفس! وهل الحكمة من ذلك إلا الفرض عليهم ألا ينقطعوا من نبيهم ولا يوماً واحداً من التاريخ، ولا جزءاً واحداً من اليوم؛ فيمتد الزمن مهما امتد والإسلام كأنه على أوله، وكأنه في يومه لا في دهر بعيد؛ والمسلم كأنه مع نبيه بين يديه تبعته روح الرسالة، ويسطع في نفسه إشراق النبوة، فيكون دائماً في أمره كالمسلم الأول الذي غير وجه الأرض؛ ويظهر هذا المسلم الأول بأخلاقه وفضائله وحميته في كل بقعة من الدنيا مكان إنسان هذه البقعة، لا كما نرى اليوم؛ فإن كل أرض إسلامية يكاد لا يظهر فيها إلا إنسانها التاريخي بجهله وخرافاته وما ورث من القدم؛ فهنا المسلم الفرعوني، وفي ناحية المسلم الوثني، وفي بلد المسلم المجوسي^(٢)، وفي جهة المسلم المعطل... وما يريد الإسلام إلا نفس المسلم الإنساني.

أيها المسلم!

لا تنقطع من نبيك العظيم، وعش فيه أبداً، وأجعل مثلك الأعلى؛ وحين تذكره في كل وقت فكن كأنك بين يديه؛ كن دائماً كالمسلم الأول؛ كن دائماً أبناً المعجزة.

(١) النافل من كل شيء: الزائد.

(٢) المجوسي: عابد النار.

حقيقة المسلم

لا يعرف التاريخ غير محمد ﷺ رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الإنساني كله؛ كما تنصب المادة في المادة، ليمتزج بها فتحوّلها، فتحدث منها الجديد، فإذا الإنسانية تتحوّل به وتنمو، وإذا هو ﷺ وجود سار فيها فما تبرخ هذه الإنسانية تنمو به وتحوّل.

كان المعنى الأدمي في هذه الإنسانية كأنما وهن^(١) من طول الدهر عليه، يتحيّنه^(٢) ويمحوه ويتعاوره^(٣) بالشر والتمكر؛ فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطورها الأعلى من حيث يرتفع الإنسان على ذاته، كما بدأت من حيث يوجد الإنسان في ذاته؛ فكانت الإنسانية دهرها بين اثنين: أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة، والثاني فتح لها طريق العودة إليها: كان في آدم سر وجود الإنسانية، وكان في محمد سر كمالها.

ولهذا سمي الدين (بالإسلام)؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية؛ كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الإنسانية تُصرّفها وتعتملها في كمالها ومعاليها؛ فلا حظ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه، ولكن للإنسانية بها الحظ.

وما الإسلام في جملته إلا هذا المبدأ: مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعة على المنشط^(٤) والمكره لفروضها وواجباتها؛ وكلما نكصت^(٥) إلى منزعتها الحيواني، أسلمها صاحبها إلى وازعها^(٦) الإلهي؛ وهو أبداً يروضها^(٧) على هذه

(١) وهن: ضعف.

(٢) يتحيّنه: يظلمه.

(٣) يتعاوره: يتجاذبه، يتناوشه.

(٤) المنشط: الجذ والحوية والحماس.

(٥) نكصت: تراجعت.

(٦) وازعها: رادعها.

(٧) يروضها: يلربها.

الحركة ما دام حيًّا؛ فيتزعُّها كلُّ يوم من أوهام دنياها، ليضعها ما بين يَدَي حقيقتها الإلهية: يروضها على ذلك كلِّ يومٍ وليلة خمسَ مراتٍ مُسماةٍ في اللغة خمسَ صلوات، لا يكونُ الإسلامُ إسلاماً بغيرها؛ فلا غرو^(١) وكانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي ﷺ هي عماد الدين.

بين ساعاتٍ وساعاتٍ في كلِّ مطلع شمسٍ من حياة المسلم صلاة، أي إسلام النفس إلى الإرادة الاجتماعية الشاملة^(٢) القائمة على الطاعة للفرض الإلهي، وإنكاراً لمعانيتها الذاتية الكفانية التي هي مادة الشرِّ في الأرض، وإقرازها لحظاتٍ في خَيْرِ الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها. ومعنى ذلك كله تحقيقُ المسلم لوجود روجه؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طُرُقاً تشبَّثت فيها الأرواح وتبعثر، حتى تَضِلَّ روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها!

وهذا الوجود الروحي هو مبعثُ الحالة العقلية التي جاء الإسلام لينهدي الإنسانية إليها: حالة السلام الروحاني الذي يجعلُ حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها، ويجعلُ ثروة الإنسان مُقدَّرة بما يعاملُ الله والإنسانية عليه؛ فلا يكونُ ذهابه وفضته ما كتبت عليه الدول: «ضرب في مملكة كذا»، ولكن ما يراه هو قد كتبت عليه: «صنع في مملكة نفسي»؛ ومن ثم لا يكونُ وجوده الاجتماعي للأخذ حسب، بل للعطاء أيضاً، فإنَّ قانونَ المال هو الجمع، أمَّا قانونُ العمل فهو البذل.

بالانصراف إلى الصلاة وجمعِ النية عليها، يستشعرُ المسلم أنه قد حطَّم الحدودَ الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان، وخرَج منها إلى روحانية لا يُحدُّ فيها إلا بالله وحده.

وبالقيام في الصلاة، يُحقِّقُ المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله، ليمتزج بجلال الكون ووقاره، كأنه كائن متَّصِبٌ مع الكائنات يسبح بحمده. وبالتولي شَطْرَ القبلة^(٣) في سمتها^(٤) الذي لا يتغيَّرُ على اختلاف أوضاع

(١) لا غرو: لا شك، لا ريب.

(٢) الشاملة: الجامعة، ويقصد بذلك صلاة الجماعة لأهميتها ولثوابها.

(٣) شطر القبلة: ناحيتها.

(٤) سمتها: وقارها ومظهرها.

الأرض، يَعْرِفُ الْمُسْلِمُ حَقِيقَةَ الرَّمْزِ لِلْمَرْكَزِ الثَّابِتِ فِي رُوحَانِيَّةِ الْحَيَاةِ؛ فَيَحْمِلُ قَلْبُهُ مَعْنَى الْأَطْمِئْنَانِ وَالْأَسْتِقْرَارِ عَلَى جَاذِبِيَّةِ الدُّنْيَا وَقَلْقَهَا.

وبالركوع والسجود بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ، يُشْعِرُ الْمُسْلِمُ نَفْسَهُ مَعْنَى السَّمَوِّ وَالرَّفْعَةِ عَلَى كُلِّ مَا عَدَا الْخَالِقَ مِنْ وَجُودِ الْكَوْنِ.

وبالجلوس في الصلاة وقراءة التحيات الطيبات، يَكُونُ الْمُسْلِمُ جَالِساً فَوْقَ الدُّنْيَا يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُسَلِّمُ عَلَى نَبِيِّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَيَشْهَدُ وَيَدْعُو.

وبالتسليم الَّذِي يَخْرُجُ بِهِ مِنَ الصَّلَاةِ، يُقْبَلُ الْمُسْلِمُ عَلَى الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا إِقْبَالاً جَدِيداً: مِنْ جِهَتِي السَّلَامِ وَالرَّحْمَةِ.

هِيَ لَحَظَاتٌ مِنَ الْحَيَاةِ كُلِّ يَوْمٍ فِي غَيْرِ أَشْيَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ لِجَمْعِ أَشْهُوَاتِ وَتَقْيِيدِهَا بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ بِسَلْسِلِهَا وَأَغْلَالِهَا مِنْ حَرَكَاتِ الصَّلَاةِ، وَلِتَمْزِيقِ الْفَنَاءِ خَمْسَ مَرَّاتٍ كُلِّ يَوْمٍ عَنِ النَّفْسِ؛ فَيَرَى الْمُسْلِمُ مِنْ وَرَائِهِ حَقِيقَةَ الْخُلُودِ، فَتَشْعُرُ أَلْرُوحُ أَنَّهَا تَنْمُو وَتَتَّسِعُ.

هِيَ خَمْسُ صَلَوَاتٍ، وَهِيَ كَذَلِكَ خَمْسُ مَرَّاتٍ يَفْرُغُ فِيهَا الْقَلْبُ مِمَّا أَمْتَلَأَ بِهِ مِنَ الدُّنْيَا، فَمَا أَدَقُّ وَأَبْدَعُ وَأَصْدَقُ قَوْلُهُ ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ».

لَمْ يَكُنِ الْإِسْلَامُ فِي حَقِيقَتِهِ إِلَّا إِبْدَاعاً لِلصُّيْغَةِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي تَنْتَظِمُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهَا؛ وَلِهَذَا كَانَتْ آدَابُهُ كُلُّهَا حُرَّاساً عَلَى الْقَلْبِ الْمُؤْمِنِ، كَأَنَّهَا مَلَائِكَةٌ مِنَ الْمَعَانِي؛ وَكَانَ الْإِسْلَامُ بِهَا عَمَلاً إِصْلَاحِيّاً وَقَعَ بِهِ التَّطَوُّرُ فِي عَالَمِ الْغَرِيزَةِ، فَتَقَلَّهَ إِلَى عَالَمِ الْخُلُقِ، ثُمَّ أَرْتَقَى بِالْخُلُقِ إِلَى الْحَقِّ، ثُمَّ سَمَّا بِالْحَقِّ إِلَى الْخَيْرِ الْعَامِّ؛ فَهُوَ سَمُوٌّ فَوْقَ الْحَيَاةِ بَثَلَاثَةِ طَبَقَاتٍ، وَتَدْرُجُ إِلَى الْكَمَالِ فِي ثَلَاثِ مَنَازِلَ، وَأَبْتَعَاذُ عَنِ الْأَوْهَامِ بِمَسَافَةِ ثَلَاثِ حَقَاقٍ.

وَبَتِلْكَ الْأَعْمَالِ وَالْآدَابِ كَانَتْ الدُّنْيَا الْمُسْلِمَةُ الَّتِي أُسَّسَهَا النَّبِيُّ ﷺ دُنْيَا أَسْلَمَتْ طَبِيعَتُهَا، فَأَصْبَحَتْ عَلَى مَا أَرَادَ الْمُسْلِمُونَ لَا مَا أَرَادَتْ هِيَ؛ وَكَأَنَّهَا قَائِمَةٌ بِنَوَامِيسَ مِنْ أَهْلِهَا، لَا عَلَى أَهْلِهَا؛ وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَغْزُو الْأَمَمَ بِالْعَرَبِ وَيَفْتَتِحُهَا، وَلَكِنَّ الْحَقِيقَةَ أَنَّ إِقْلِيماً مِنَ الدُّنْيَا كَانَ يُحَارِبُ سَائِرَ أَقَالِيمِ الْأَرْضِ بِالطَّبِيعَةِ الْأَخْلَاقِيَّةِ الْجَدِيدَةِ لِهَذَا الدِّينِ.

وَكَأَنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - أَلْقَى فِي رِمَالِ الْجَزِيرَةِ رُوحَ الْبَحْرِ، وَبَعَثَهَا بَعَثَهُ الْإِلَهِيُّ

لأمره، فكان النبي ﷺ هو نقطة المد التي يفور البحر منها، وكان المسلمون أمواجه التي غسّلت بها الدنيا...

لهذا سمع المسلمون الأولون كلام الله - تعالى - في كتابه، وكلام رسوله ﷺ، لا كما يسمعون القول، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضي^(١)؛ ولم يجدوا فيه البلاغة وحدها، بل روعة أمر السماء في بلاغة؛ واتصلوا بنبيهم، ثم بعضهم ببعض، لا كما يتصل إنسان بإنسان، بل كما تتصل الأمواج بقوة المد، ثم كما يمد بعضها بعضاً في قوة واحدة.

وحققوا في كماله ﷺ وجودهم النفسي؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطليها في موضع الحقيقة الذي يرى فيه الشيء لا شيء.

ورأوا في إرادته ﷺ النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس؛ فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض، لا من كتب ولا علم ولا فلسفة، بل من قلب نبيهم وحده.

وعرفوا به ﷺ تمام الرجولة؛ ومتى تمت هذه الرجولة تمامها في إنسان، رجعت له الطفولة في روجه، وأمتلك تلك الطبيعة التي لا يملكها إلا أعظم الفلاسفة والحكماء فأصبح كأنما يمشي في الحياة إلى الجنة بخطوات مسددة لا تزيغ^(٢) ولا تنحرف، فلا شر ولا رذيلة؛ ودنياه هي الدنيا كلها بشمسها وقمرها، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً، ما دامت في قلبه طبيعة السرور، فلا فقر ولا غنى مما يشعر الناس بمعانيه، بل كل ما أمكن فهو غنى كامل، إذ لم تعد القوة في المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها، بل القوة في الروح التي تنصرف بطبيعة الوجود، وتدفع قوى الجسم بمثل دوافع الطفولة النامية المتغلبة، حتى لتجعل من النور والهواء ما يؤتد^(٣) به مع الخبز القفار، كما يؤتد باللحم وأطياب الأطعمة.

وبذلك لا تتسلط ضرورة على الجسم - كالجوع والفقر والألم ونحوها - إلا كان تسلطها كأنه أمر من قوة في الوجود إلى قوة في هذا الجسم: أن تظهر لتعمل عملها المعجز في إبطال هذه الضرورة. وهذا الجنس من الناس كالأزهار على

(١) المقضي: المقدّر.

(٢) لا تزيغ: لا تتحول ولا تنحرف.

(٣) يؤتد: يؤكل من الطعام.

أغصانها الخُضر؛ لو قالت شيئاً لَقَالَتْ: إِنَّ ثروتِي فِي الْحَيَاةِ هِيَ الْحَيَاةُ نَفْسَهَا،
فليس لي فقرٌ ولا غنى، بل طبيعةٌ أولاً طيبة.

ولقد كَانَ الْمُسْلِمُ يُضْرَبُ بِالسِّيفِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَتَقَعُ ضَرَبَاتُ السِّيفِ عَلَى
جَسَمِهِ فْتَمَرُّهُ؛ فَمَا يُجَسِّهَا إِلَّا كَأَنَّهَا قَبْلُ أَصْدِقَاءٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ يَلْقَوْنَهُ وَيَعَانِقُونَهُ!
وكان يُبْتَلَى فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ، فلا يشعرُ في ذلك أَنَّهُ الْمُرَرُّ^(١) الْمُبْتَلَى يُعْرِفُ
فِيهِ الْحُزْنَ وَالْانْكَسَارَ، بل تَظْهَرُ فِيهِ الْإِنْسَانِيَّةُ الْمَتَصِرَةُ كَمَا يَظْهَرُ الْتَارِيخُ الْظَافِرُ فِي
بَطْنِهِ الْعَظِيمِ أَصِيبَ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ مِنْ جَسَمِهِ بِجِرَاحٍ، فَهِيَ جِرَاحٌ وَنَشْوِيَّةٌ وَالْمِ،
وهي شَهَادَةُ الْنَصْرِ!

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقَالاً عَلَى نَفْسِهِ، بل كَانَتْ لَهُ أَسْبَابُ قُوَّةٍ
وَسَمَوٌ؛ كَالنَّسْرِ الْمَخْلُوقِ لِطَبَقَاتِ الْجَوِّ الْعُلْيَا، وَيَحْمِلُ دَائِماً مِنْ أَجْلِ هَذِهِ الطَّبَقَاتِ
ثِقَلَ جَنَاحِيهِ الْعَظِيمِينَ.

وكانت الْحَقِيقَةُ الَّتِي جَعَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ مَثَلَهُمُ الْأَعْلَى، وَأَقْرَاهَا فِي أَنْفُسِهِمْ
بِجَمِيعِ أَخْلَاقِهِ وَأَعْمَالِهِ - أَنَّ الْفَضَائِلَ كُلَّهَا وَاجِبَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ لِنَفْسِهِ، إِذْ إِنَّهَا
وَاجِبَةٌ بِكُلِّ مُسْلِمٍ عَلَى غَيْرِهِ، فلا تَكُونُ فِي الْأُمَّةِ إِلَّا إِرَادَةٌ وَاحِدَةٌ مُتَعَاوِنَةٌ، تَجْعَلُ
الْمُسْلِمَ وَمَا هُوَ رُوحُ أُمَّتِهِ تَعْمَلُ بِهِ أَعْمَالَهَا هِيَ لَا أَعْمَالُهُ وَحْدَهَا.

المسلمُ إِنْسَانٌ مُمْتَدٌّ بِمَنَافِعِهِ فِي مَعْنَاهُ الْاجْتِمَاعِيِّ حَوْلَ أُمَّتِهِ كُلِّهَا، لَا إِنْسَانٌ ضَيِّقُ
مَجْتَمَعٍ حَوْلَ نَفْسِهِ بِهَذِهِ الْمَنَافِعِ؛ وَهُوَ مِنْ غَيْرِهِ فِي صَدَقِ الْمَعَامَلَةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ كَالتَّاجِرِ
مِنَ التَّاجِرِ؛ تَقُولُ الْأَمَانَةُ لِكُلِّهِمَا: لَا قِيَمَةَ لِمِيزَانِكَ إِلَّا أَنْ يُصَدِّقَهُ مِيزَانُ أَخِيكَ.

ولَنْ يَكُونَ الْإِسْلَامُ صَحِيحاً تَاماً حَتَّى يَجْعَلَ حَامِلَهُ مَثَلاً مِنْ نَبِيِّهِ فِي أَخْلَاقِ
اللَّهِ؛ فَمَا هُوَ بِشَخْصٍ يَضْبِطُ طَبِيعَتَهُ: يَقْهَرُهَا مَرَّةً وَتَقْهَرُهُ مَرَاراً؛ وَلَكِنْ طَبِيعَةٌ تَضْبِطُ
شَخْصَهَا فَهِيَ قَانُونٌ وَجُودُهُ.

لا يضطربُ من شيءٍ، وكيف يضطربُ ومعه الاستقرار؟

لا يخافُ من شيءٍ، وكيف يخافُ ومعه الطمأنينة؟

لا يخشى مخلوقاً، وكيف يخشى ومعه الله؟

أيُّهَا الْأَسَدُ، هل أنت بِجَمَلَتِكَ إِلَّا فِي طَبِيعَةِ مَخَالِكَ وَأَنْيَابِكَ...؟

(١) المرزأ: المصاب بالابتلاءات المختلفة.

وحي الهجرة

إِنَّ التَّارِيخَ لَيَتَكَلَّمُ بِلُغَةٍ أَوْسَعَ مِنْ أَلْفَاظِهِ إِذَا قَرَأَهُ مَنْ يَقْرُوهُ عَلَى أَنَّهُ بَعْضُ نَوَامِيسِ الوجود، صُوِّرَتْ فِيهَا النَّفْسُ الْإِنْسَانِيَّةُ كَيْفَ أَعْتَوَرَتْ أَغْرَاضَهَا، وَكَيْفَ مَدَّتْ فِي نَسَقِهَا^(١)، وَكَيْفَ تَغْلَغَلَتْ فِي مَسَالِكِهَا، وَمَا تَأْتَى لَهَا فَجَرَتْ بِهِ مَجْرَاهَا، وَمَا دَفَعَهَا فَأَنحَدَرَتْ مِنْهُ إِلَى مَقَارِهَا^(٢)؛ فَهُوَ لَيْسَ بِكَلَامٍ تَسْتَقْبَلُهُ تَقْرَأُ فِيهِ، وَلَكِنَّهُ أَحْوَالٌ مِنَ الوجود تَعْتَرِضُهَا فَتُغَيِّرُ عَلَيْكَ حِسَّكَ بِإِلْهَامِهَا وَأَحْلَامِهَا، وَتَتَنَاوَلُهَا مِنْ نَاحِيَةٍ فَتَتَنَاوَلُكَ مِنَ الْآخَرَى؛ فَإِذَا أَلَكَلِمَةُ مِنْ وَرَائِهَا مَعْنَى، مِنْ وَرَائِهِ طَبِيعَةٌ، مِنْ وَرَائِهَا سَبَبٌ وَحِكْمَةٌ؛ وَإِذَا كُلُّ حَادِثَةٍ فِيهَا إِنْسَانِيَّتُهَا وَإِلَهِيَّتُهَا مَعًا، وَإِذَا الوجودُ فِي ذَهْنِكَ كَالسَّاعَةِ تَرَسُّمٌ لَكَ حَدٌّ الثَّانِيَّةُ بِخَطَرَتَيْنِ، وَحَدٌّ الدَّقِيقَةُ مِنْ عَدَدٍ مُحَدَّدٍ مِنَ الثَّوَانِي، وَحَدٌّ أَلْسَاعَةٍ إِلَى حَدِّ الْيَوْمِ؛ وَإِذَا الْبَيَانُ فِي نَفْسِكَ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْحَوَاشِي، وَإِذَا التَّارِيخُ فِيمَا تَقْرُوهُ مُفْتَنٌ فِي ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ يَبْقَى عَلَيْكَ مِنَ أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ بَظَلَالٍ هِيَ صِلَتُكَ أَنْتَ أَيُّهَا الْحَيُّ الْمَوْجُودُ بِأَسْرَارٍ مَا كَانَ مَوْجُودًا مِنْ قَبْلِ.

كَذَلِكَ قَرَأْتُ بِالْأَمْسِ تَارِيخَ الْهَجْرَةِ النَّبَوِيَّةِ فِي كِتَابِ أَبِي جَعْفَرٍ الطَّبْرِيِّ لِأَكْتُبَ عَنْهُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ، فَلَمْ أَكُنْ - عَلِمَ اللَّهُ - فِي كِتَابٍ وَلَا فِي حِكَايَةٍ، بَلْ فِي عَالَمٍ أَنْبَثَقَ فِي نَفْسِي مَخْلُوقًا تَامًا بِأَهْلِهِ، وَحَوَادِثَ أَهْلِهِ، وَأَسْرَارِ أَهْلِهِ جَمِيعًا؛ كَمَا يَرَى الْمُحِبُّ حَبِيبَهُ: لَا يَكُونُ الْجَمِيلُ فِي مُحَلٍّ إِلَّا أَمْتَلَأَ مَكَانَهُ بِعَاشِقِهِ، فَهُوَ مَكَانٌ مِنَ النَّفْسِ، لَا مِنَ الدُّنْيَا وَحْدَهَا، وَفِيهِ الْحَيَاةُ كَمَا هِيَ فِي الوجودِ بِمَظْهَرِ الْمَادَةِ، وَكَمَا هِيَ فِي الْحُبِّ بِمَظْهَرِ الرُّوحِ.

وَتِلْكَ حَالَةٌ مِنَ الْقِرَاءَةِ بِالرُّوحِ وَالْكِتَابَةِ بِالرُّوحِ، مَتَى أَنْتَ سَمَوْتَ إِلَيْهَا رَأَيْتَ فِيهَا غَيْرَ الْمَعْنَى يُخْرِجُ مَعْنَى، وَمِنْ لَا شَيْءٍ تُخَلِّقُ أَشْيَاءَ، لِأَنَّكَ مِنْهَا أَتَصَلَّتْ بِأَسْرَارِ نَفْسِكَ، وَمِنْ نَفْسِكَ أَتَصَلَّتْ بِأَسْرَارِ فَوْقِهَا؛ فَيُصْبِحُ التَّارِيخُ مَعَكَ فَنَّ الوجودِ الْإِنْسَانِيَّ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ بِهِ الْحِكْمَةُ إِلَى الْحَيَاةِ لِتَسْتَمِرَّ بِالنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ،

(١) نسقها: طرازها وعلى شكلها.

(٢) مقارها: أماكنها.

لا فَنَ عِلْمِ النَّاسِ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي أَفْضَتْ^(١) بِهِ الْحَوَادِثُ مِمَّا بَيْنَ الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ .

نشأ النبي ﷺ في مكة، وأُسْتُبْنِيَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْبَعِينَ مِنْ سِنِّهِ، وَغَبَرَ^(٢) ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يَدْعُو إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ؛ فَلَمْ يَكُنْ فِي الْإِسْلَامِ أَوَّلَ بَدَايِهِ إِلَّا رَجُلٌ وَأَمْرَأَةٌ وَغُلَامٌ: أَمَّا الرَّجُلُ فَهُوَ هُوَ ﷺ، وَأَمَّا الْمَرْأَةُ فزَوْجُهُ خَدِيجَةُ، وَأَمَّا الْغُلَامُ فَعَلِيُّ ابْنُ عَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ .

ثُمَّ كَانَ أَوَّلُ النَّمُوِّ فِي الْإِسْلَامِ بَحْرٌ وَعَبْدٌ: أَمَّا الْحُرُّ فَأَبُو بَكْرٍ، وَأَمَّا الْعَبْدُ فَبِلَالٌ، ثُمَّ اتَّسَقَ النَّمُوُّ قَلِيلًا قَلِيلًا يَبْطِئُ أَلْهَمُومٌ فِي سِيرِهَا، وَصَبِرَ الْحُرُّ فِي تَجَلِّدِهِ؛ وَكَأَنَّ التَّارِيخَ وَقَفَ لَا يَتَزَحَّزَحُ، ضَيِّقٌ لَا يَتَسَّعُ، جَامِدٌ لَا يَنْمُو؛ وَكَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَخُو الشَّمْسِ: يَطْلُعُ كِلَاهُمَا وَحْدَهُ كُلَّ يَوْمٍ. حَتَّى إِذَا كَانَتِ الْهَجْرَةُ مِنْ بَعْدُ، فَانْتَقَلَ الرَّسُولُ إِلَى الْمَدِينَةِ، بَدَأَتْ الدُّنْيَا تَتَقَلَّقُلُ^(٣)، كَأَنَّمَا مَرَّ بِقَدَمِهِ عَلَى مَرْكَزِهَا فَحَرَّكَهَا؛ وَكَانَتْ خَطَوَاتُهُ فِي هَجْرَتِهِ تَخْطُ فِي الْأَرْضِ، وَمَعَانِيهَا تَخْطُ فِي التَّارِيخِ؛ وَكَانَتْ الْمَسَافَةُ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ، وَمَعْنَاهَا بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ .

لَقَدْ كَانَ فِي مَكَّةَ يَغْرُضُ الْإِسْلَامَ عَلَى الْعَرَبِ كَمَا يُغْرَضُ الذَّهَبُ عَلَى الْمُتَوَحِّشِينَ: يَرُونَهُ بَرِيقًا وَشُعَاعًا ثُمَّ لَا قِيَمَةَ لَهُ، وَمَا بِهِمْ حَاجَةٌ إِلَيْهِ، وَهُوَ حَاجَةٌ بَنِي آدَمَ إِلَّا الْمُتَوَحِّشِينَ، وَكَانُوا فِي الْمَحَادَّةِ^(٤) وَالْمُخَالَفَةِ الْحَمَقَاءِ، وَأَلْبَلَوْغُ بَدْعَوِيَّةٍ مَبْلَغِ الْأَوْهَامِ وَالْأَسَاطِيرِ - كَمَا يَكُونُ الْمَرِيضُ بِذَاتِ صَدْرِهِ مَعَ الَّذِي يَدْعُوهُ فِي لَيْلَةٍ قَارَّةٍ إِلَى مَدَاوِجِ جَسَمِهِ بِأَشْعَةِ الْكَوَاكِبِ؛ وَكَانَتْ مَكَّةُ هَذِهِ صَخْرًا جُغْرَافِيًّا يَتَحَطَّمُ وَلَا يَلِينُ، وَكَأَنَّ الشَّيْطَانَ نَفْسَهُ وَضَعَ هَذَا الصَّخَرَ فِي مَجْرَى الزَّمَنِ لِيَصْدَّ بِهِ التَّارِيخَ الْإِسْلَامِيَّ عَنِ الدُّنْيَا وَأَهْلِهَا .

وَأُوذِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَكُذِّبَ وَأُهِنَ، وَرَجَفَ بِهِ الْوَادِي يَخْطُو فِيهِ عَلَى زَلَّازِلَ تَتَقَلَّبُ، وَنَابِذَةً^(٥) قَوْمُهُ وَتَذَامَرُوا^(٦) فِيهِ، وَحَضَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا عَلَيْهِ، وَأَنْصَفَقَ^(٧) عَنْهُ عَامَةُ النَّاسِ وَتَرَكُوهُ إِلَّا مَنْ حَفِظَ اللَّهَ مِنْهُمْ؛ فَأُصِيبَ كَبِيرًا بِالْيَتِيمِ مِنْ قَوْمِهِ، كَمَا أُصِيبَ صَغِيرًا بِالْيَتِيمِ مِنْ أَبَوَيْهِ .

(١) أردت: أوصلت .

(٢) غبر: مضى .

(٣) تتقلقل: تتململ .

(٤) المحاداة: المعاندة والمخالفة والعداء .

(٥) نابذ: رفض وأخرج وأفرد .

(٦) تذاَمروا: اتحدوا واحتشدوا جماعات

جماعات .

(٧) انصفق: تخلَّى واجتنب .

وكان لا يسمع بقادم يقدم من العرب له أسم وشرف، إلا تصدى^(١) له فدعاه إلى الله وعرض نفسه عليه؛ ومع ذلك بقيت الدعوة تلوح وتختفي كما يسق البرق من سحابة على السماء: ليس إلا أن يرى ثم لا شيء بعد أن يرى!

فهذا تاريخ ما قبل الهجرة في جملة معناه، غير أنني لم أقرأه تاريخاً، بل قرأت فيه فصلاً رائعاً من حكمة إلهية، وضعه الله كالمقدمة لتاريخ الإسلام في الأرض؛ مقدمة من الحوادث والأيام تحيا وتمر في نسق^(٢) الرواية الإلهية المنطوية على رموزها وأسرارها، وتظهر فيها رحمة الله تعمل بقسوة، وحكمة الله تتجلى في غموض؛ فلو أنت حققت النظر لرأيت تاريخ الإسلام يتأله^(٣) في هذه الحقب، بحيث لا تقرأه النفس المؤمنة إلا خاشعة كأنها تُصلي، ولا تتدبره إلا خاضعة كأنها تتعبد.

بدأ الإسلام في رجل وامرأة و غلام، ثم زاد حرّاً وعبداً؛ أليست هذه الخمس هي كل أطوار البشرية في وجودها، مخلوقة في الإنسانية والطبيعة، ومصنوعة في السياسة والاجتماع؛ فهنا مطلع القصيدة، وأول الرمز في شعر التاريخ.

ولبث النبي ﷺ ثلاث عشرة سنة لا يبغيه^(٤) قومه إلا شراً، على أنه دائب^(٥) يطلب ثم لا يجد، ويغرض ثم لا يقبل منه، ويخفق ثم لا يعتريه اليأس، ويجهد ثم لا يتخونه الممل^(٦)، ويستمر ماضياً لا يتحرف^(٧)، ومعزماً لا يتحول؛ أليست هذه هي أسامي معاني التربية الإنسانية أظهرها الله كلها في نبيه، فعمل بها وثبت عليها، وكانت ثلاث عشرة سنة في هذا المعنى كعمر طفل ولد ونشأ وأحكم تهذيبه بالحوادث، حتى تسلمته الرجولة الكاملة بمعانيها من الطفولة الكاملة بوسائلها؟

أفليس هذا فصلاً فلسفياً دقيقاً يعلم المسلمين كيف يجب أن ينشأ المسلم: غناه في قلبه، وقوته في إيمانه، وموضعه في الحياة موضع النافع قبل المنتفع، والمصلح قبل المقلد؛ وفي نفسه من قوة الحياة ما يموت به في هذه النفس أكثر ما في الأرض والناس من شهوات ومطامع؟

(١) تصدى: خرج لمواجهة.

(٢) نسق: نمط منسجم.

(٣) يتأله: يسمو ويعلو كالإله.

(٤) لا يبغيه: لا يريد له.

(٥) دائب: مستمر.

(٦) لا يتخونه الممل: لا يداخله.

(٧) لا يتحرف: لا يميل ولا يتحول.

ثم أليست تلك العوامل الأخلاقية هي التي أليقت في منبع التاريخ الإسلامي ليغيب منها تياره؛ فتدفعه في مجراه بين الأمم، وتجعل من أخصر الخصائص الإسلامية في هذه الدنيا - أثبات على الخطوة المتقدمة وإن لم تتقدم، وعلى الحق وإن لم يتحقق؛ والتبرؤ من الأثرة وإن شحت^(١) عليها النفس، وأحتقار الضعيف وإن حكّم وتسلب، ومقاومة الباطل وإن ساد وغلب، وحمل الناس على مخاض الخير وإن ردوا بالشر، والعمل للعمل وإن لم يأت بشيء، والواجب للواجب وإن لم يكن فيه كبير فائدة، وبقاء الرجل رجلاً وإن حطّمه كل ما حوله؟

ثم هي هي البرهانات القائمة للدهر قيام المنارة في الساحل - على نبوة محمد ﷺ تثبت ببرهان الفلسفة وعلوم النفس أنه روح وغاياتها المحتومة بالقدر، لا جسم ووسائله المتغلبة بالطبيعة؛ ولو كان رجلاً أبتعثته^(٢) نفسه، لتمحل^(٣) الجليل لسياسته، ولأخذت طمعاً من كل مطمع، ولركدت مع الحوادث وهبت، ولما أستمز طوال هذه المدة لا يتجه وهو فرد إلا اتجاه الإنسانية كلها كأنما هو هي.

ولو هو كان رجل المملك أو رجل السياسة، لاستقام والتوى، ولأدرك ما يتغني في سنوات قليلة، ولأوجد الحوادث يتعلق عليها، ولما أفلت ما كان موجوداً منه يتعلق به، ولما أنتزع نفسه من محله في قومه وكان واسطة فيهم، ولا ترك عوامل الزمن تبعده وهي كانت تُدنيه.

قالوا: إن عمّه أبا طالب بعث إليه حين كلمته فريش فقال له: يا ابن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي: كذا وكذا، فأبى عليّ وعلى نفسك. ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا لعمه فيه بداء^(٤)، وأنه خاذله^(٥) ومُسْلِمُهُ، وأنه قد ضُغِفَ عن نصريته وأقيام معه، فقال: يا عمّاه، - والله - لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته. ثم أستعبر ﷺ فبكى!

يا دموع النبوة! لقد أثبت أن النفس العظيمة لن تتعزى عن شيء منها بشيء

(١) شحت: بخلت وقلت.

(٢) ابتعثته: اختارته.

(٣) تمحل: أوجد الأعذار الواهية.

(٤) بداء: رأي جديد.

(٥) خاذله: متخل عنه.

من غيرها كائناً ما كان، لا من ذهب الأرض وفضتها، ولا من ذهب السماء وفضتها إذا وضعت الشمس في يد والقمر في الأخرى.

وكل حوادث ألمدة قبل الهجرة على طولها ليست إلا دليل ذلك الزمن على أنه زمن نبي، لا زمن ملك أو سياسي أو زعيم؛ ودليل الحقيقة على أن هذا اليقين الثابت ليس يقين الإنسان الاجتماعي من جهة قوته، بل يقين الإنسان الإلهي من جهة قلبه؛ ودليل الحكمة على أن هذا الدين ليس من العقائد الموضوعة التي تنشرها عدوى النفس للنفس؛ فها هو ذا لا يبلغ أهله في ثلاث عشرة سنة أكثر مما تبلغ أسرة تتوالد في هذه الحقبة؛ ودليل الإنسانية على أنه وحي الله بإيجاد الإخاء العالمي والوحدة الإنسانية. أفلم يكن خروجه عن موطنه هو تحققه في العالم؟

ثلاث عشرة سنة، كانت ثلاثة عشر دليلاً ثبت أن النبي ﷺ ليس رجل ملك، ولا سياسة، ولا زعامة؛ ولو كان واحداً من هؤلاء لأدرك في قليل؛ وليس مبتدع شريعة من نفسه، وإلا لما غبر في قومه وكأنه لم يجدهم وهم حوله؛ وليس صاحب فكرة تعمل أساليب النفس في انتشارها؛ ولو كانه لحملهم على مخضها ومزوجها؛ وليس رجلاً متعلقاً بالمصادفات الاجتماعية، ولو هو كان لجعل إيمان يوم كفر يوم؛ وليس مصلح عشيرة يهذب منها على قدر ما تقبل منه سياسة ومخادعة، ولا رجل وطنه تكون غايته أن يشمخ في أرضه شموخ جبل فيها، دون أن يحاول ما بلغ إليه من إطلاله على الدنيا إطلال السماء على الأرض، ولا رجل حاضره إذ كان واقعاً دائماً أن معه الغد وآتيه، وإن أدبر^(١) عنه اليوم وذاهبه؛ ولا رجل طبيعته البشرية يلتمس لها ما يلتمس الجائع لبطنه، ولا رجل شخصيته يستهوي بها ويسحر، ولا رجل بطشه يغلب به ويتسلط، ولا رجل الأرض في الأرض، ولكن رجل السماء في الأرض.

هذه هي حكمة الله في تدبيره لنبيه قبل الهجرة: قبض عنه أطراف الزمن، وحصره من ثلاث عشرة سنة في مثل سنة واحدة، لا تصدر به الأمور مصادرها كي ثبت أنها لا تصدر به: ولا تستحق به الحقيقة لتدل على أنها ليست من قوته وعمله.

(١) أدبر: رجعاً.

وكان ﷺ على ذلك - وهو في حدود نفسه وضيق مكانه - يتسع في الزمن من حيث لا يرى ذلك أحد ولا يعلمه، وكأنما كانت شمس اليوم الذي سينتصر فيه - قبل أن تشرق على الدنيا بثلاث عشرة سنة - مشرقة في قلبه ﷺ

والفصل من السنة لا يقدمه الناس ولا يؤخرونه، لأنه من سير الكون كله؛ والسحابة لا تشعلون برقها بالمصابيح، ومع النبي من مثل ذلك برهان الله على رسالته، إلى أن نزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلُوا لَهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الَّذِينَ كَلُمُوا﴾ فصل الفصل، وأنطلقت الصاعقة، وكانت الهجرة.

تلك هي المقدمة الإلهية للتاريخ، وكان طبيعياً أن يطرد التاريخ بعدها، حتى قال الرشيد للسحابة وقد مرّت به: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك!

فلسفة قصة

ماتت خديجة زوج النبي ﷺ ومات عمه أبو طالب في عام واحد، في السنة العاشرة من النبوة، فعظمت المصيبة فيهما عليه، إذ كان عمه هذا يمنعه من أذى قريش، ويقوم دونه فلا يخلصون إليه بمكروه؛ وكان أبو طالب من قريش كالعقيدة السياسية: هي بطبيعتها قوة نافذة على قوة القبيلة؛ فمن ثم كان هو وحده المشكلة النفسية المعقدة التي تعمل قريش جاهدة في حلها، وقامت المعركة الإسلامية الأولى بين إرادتهم وإرادته، وهم أمة تحكمهم الكلمة الاجتماعية التي تسيّر عنهم في القبائل؛ وتاريخهم ما يقال في الألسنة من معاني المدح والذم، فيخشون المقالة أكثر مما يخشون الغارة، وقد لا يبالون بالقتلى والجرحى منهم، ولكنهم يبالون بالكلمات المجرحة.

فكان من لطيف صنع الله للإسلام، وعجيب تدبيره في حماية نبيه ﷺ - وضع هذه القوة النفسية في أول تاريخ النبوة، تشتغل بها سخافات قريش، وتكون عملاً لفراغهم الروحي، وتثير فيهم الإشكال السياسي الذي يعطل قانونهم الوحيي إلى أن يتم عمل الأسباب الخفية التي تكسر هذا القانون، فإن المصنع الإلهي لا يخرج أعماله التامة العظيمة إلا من أجزاء دقيقة.

أما خديجة زوج النبي ﷺ فكانت في هذه المحنة قلباً مع قلبه العظيم، وكانت لنفسه كقول (نعم) للكلمة الصادقة التي يقول لها كل الناس (لا)؛ وما زالت المرأة الكاملة المحبوبة هي التي تُعطي الرجل ما نقص من معاني الحياة، وتلد له الأسرار من عواطفها كما تلد من أحشائها، فالوجود يعمل بها عمليْن عظيمين: أحدهما زيادة الحياة في الأجسام، والآخر إتمام نقصها في المعاني.

ويموت أبي طالب وخديجة، أفرَد النبي ﷺ بجسمه وقلبه، ليتجرد^(١) من الحالة التي يغلب فيها الجس، إلى الحالة التي تغلب فيها الإرادة، ثم ليخرج من

(١) ليتجرد: ليتفرغ، ليتخلص.

أيام الاستقرار في أرضه، إلى الأيام المتحركة به في هجرته، ثُمَّ لِيَتَهَيَّ بِذَلِكَ إِلَى غَايَةِ قَوْمِيَّةِ الصَّغِيرَةِ المحدودة، فيتصل من ذلك بأول عالميَّة الكبرى.

وَأَرَادَ اللَّهُ - تعالى - أَنْ يَبْدَأَ هَذَا الْجَلِيلَ الْعَظِيمَ مِنْ أَسْمَى خِلَالِ الْجَلَالِ وَالْعَظَمَةِ، لِيَكُونَ أَوَّلُ أَمْرِهِ شَهَادَةً بِكَمَالِهِ، فَكَانَتْ الْحَسَنَةُ فِيهِ بِشَهَادَةِ السَّيِّئَةِ مِنْ قَوْمِهِ، فَجِلْمُهُ بِشَهَادَةِ رُغُونَتِهِمْ^(١)، وَأَنَاتُهُ^(٢) بِدَلِيلِ طَيْشِهِمْ، وَحِكْمَتُهُ بِبِرْهَانِ سَفَاهَتِهِمْ^(٣)؛ وَبِذَلِكَ ظَهَرَ الرُّوحَانِيُّ رُوحَانِيًّا فِي لِمَادَةِ.

قَالُوا: فَتَالَتْ مِنْهُ قَرِيشٌ، وَوَصَلُوا مِنْ أَذَاهُ إِلَى مَا لَمْ يَكُونُوا يَصِلُونَ إِلَيْهِ فِي حَيَاةِ عَمِّهِ، حَتَّى نَثَرَ بَعْضُهُمُ التُّرَابَ عَلَى رَأْسِهِ، كَأَنَّمَا يُعْلِمُونَهُ أَنَّهُ أَهْوَنُ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْ يَكُونَ خُرًّا، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ عَزِيزًا، فَضَلَّ عَنْ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا؛ قَالُوا: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْتَهُ وَالتُّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ إِحْدَى بَنَاتِهِ تَغْسِلُ عَنْهُ التُّرَابَ وَهِيَ تَبْكِي!

كَانَتْ تَبْكِي إِذْ لَا تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا التُّرَابَ عَلَى رَأْسِ النَّبِيِّ الْعَظِيمِ هُوَ شَذُوذُ الْحَيَاةِ الْأَرْضِيَّةِ الدُّنْيَا، فِي مَقَابَلَةِ إِنْسَانِيهَا أَشَادَ الْمُنْفَرِدِ. هَذِهِ الْقَبْضَةُ مِنَ التُّرَابِ الْأَرْضِيِّ قَبْضَةٌ سَفِيهَةٌ، تُحَاوِلُ رَدَّ الْمَمَالِكِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ أَنْ تَنْشَأَ نَشْأَتُهَا وَتَعْمَلَ عَمَلُهَا فِي التَّارِيخِ، فَهِيَ فِي مَقَادِرِهَا وَسَخَافَتِهَا وَمَحَاوِلَتِهَا، كَعَقْلِ قُرَيْشٍ حِينَئِذٍ فِي مَقَادِرِهِ وَسَخَافَتِهِ وَمَحَاوِلَتِهِ.

أَمَّا النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ لِبَيْتِهِ: «يَا بَنِيَّةُ لَا تَبْكِي، فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعٌ أَبَاكَ». حَسِبْتَ ذَلِكَ هَوَانًا وَضِيعَةً، فَأَعْلَمَهَا أَنَّ قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ لَا تَطْمُرُ النُّجْمَ، وَأَنَّ هَذِهِ الْحَثْوَةَ التَّرَابِيَّةَ لَا تُسَمَّى مَعْرَكَةً أَثَارَتِهَا الْخَيْلُ فَجَاءَتْ بِنَتِيجَةٍ، وَأَنَّ سَاعَةً مِنَ الْحَزَنِ فِي يَوْمٍ، لَا يُحْكَمُ بِهَا عَلَى الزَّمَنِ كُلِّهِ، وَأَنَّ هَذِهِ الثَّرْوَةَ الَّتِي تَحَرَّكَتِ الْآنَ هِيَ حِمَقُ الْغَبَاوَةِ: قَوَّتُهَا نَهَايَتُهَا.

«يَا بَنِيَّةُ لَا تَبْكِي فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعٌ أَبَاكَ». أَي لَيْسَ لِلنَّبِيِّ كِبَرِيَاءُ يَنَالُهَا النَّاسُ أَوْ يَغْضُونَ^(٤) عَنْهَا فَيَأْتِي أَلْدَمْعُ مَرْتَجِمًا عَنِ الْمَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ النَّاقِصِ مُثْبِتًا أَنَّهُ نَاقِصٌ، إِنَّمَا هِيَ النَّبُوَّةُ: قَانُونُهَا غَيْرُ مَا أَعْتَادَتِ النَّفْسُ مِنْ أَفْرَاحٍ وَأَحْزَانٍ، وَهِيَ النَّبُوَّةُ: تَجْعَلُ الْمُخْتَارَ لَهَا غَيْرَ مَحْدُودٍ بِجَسَدِهِ الْضَعِيفِ، بَلْ حُدُودُهُ الْحَقَائِقُ الَّتِي فِيهَا

(٣) سَفَاهَتِهِمْ: طَيْشِهِمْ وَدَنَاءَتِهِمْ.

(٤) غَضُّ الطَّرَفِ: أَغْمَضَ عَيْنَيْهِ.

(١) رُغُونَتِهِمْ: حِمَاقَتِهِمْ.

(٢) أَنَاتُهُ: تَرَوِيهِ.

قوتها، فهو في مَنَعَةِ الواقع الذي لا بدَّ أن يقع، فلو أمكن أن يُحذف يومٌ من الزمن أو يؤخَّر عن وقته، أمكن أن يؤخَّر النبي أو يُحذف.

«يا بنيَّة لا تبكي إنَّ اللهَ مانعُ أباك». لا - والله - ما يقول هذه الكلمة إلا نبيٌّ وسع التاريخ في نفسه الكبيرة قبل أن يوجد هذا التاريخ في الدنيا، فكلمته هي الإيمان والثقة إذ يتكلم عن موجود.

ترابٌ يثره سفيهٌ على رأس النبي! ويحك يا حقارة المادة؛ إنَّ ارتفاعك لعنة، إنَّ ارتفاعك لعنة.

قالوا: وخرج رسولُ الله ﷺ وحدَهُ إلى الطائف، يلتمس من ثقيف النصر والمنعة له من قومه، فلما انتهى إلى الطائف عمد^(١) إلى نفرٍ من ثقيف هم يومئذٍ سادتهم وأشرفهم، فجلس إليهم فدعاهم إلى الله وكلمهم بما جاءهم له من نصرته والقيام معه في الإسلام على من خالفه من قومه، فلم يفعلوا وأغروا^(٢) به سفهاءهم وعبيدهم يسبونه ويصيحون به، حتى اجتمع عليه الناس وألجأوه إلى حائط^(٣) لعُتْبة ابن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه. ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد ﷺ إلى ظلِّ حُبلة^(٤) من عنبٍ فجلس فيه، وأبنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما لقي من السفهاء.

فلما أطمأن ﷺ في مجليسه قال: «اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس؛ يا أرحم الراحمين، أنت ربُّ المستضعفين وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني^(٥)، أو إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولكن عافيتك هي أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك!».

ألا ما أكمل هذه الإنسانية التي تُثبت أن قوة الخلق هي درجة أرفع من الخلق

(١) عمد: لجأ.

(٢) أغروا: حثوا وشجعوا.

(٣) الحائط: البستان، وجمع على حوائط.

(٤) الحيلة بالضم: الكرم.

(٥) يتجهمني: يستبطني بوجهه كرهه.

نفسه، فهذا فنُّ الصبرِ لا الصبرُ فقط، وفنُّ الحِلْمِ لا الحِلْمُ وحده.

قوةُ الخُلُقِ هي التي تجعلُ الرجلَ العظيمَ ثابتاً في مركزِ تاريخه لا متقلِّباً في توارِيخِ الناسِ، محدوداً بعظائمِ شخصيتهِ الخالدةِ لا بمصالحِ شخصه الفاني، ناظراً في الحياةِ إلى الوضعِ الثابتِ لِلْحَقِيقَةِ لا إلى الوضعِ المتغيِّرِ لِلْمَنْفَعَةِ.

وما كانَ أولئك الأشرافُ وسفهاؤهم وعبيدُهم إلا معانيَ الظلمِ، والشرِّ، والضعفِ، تقولُ لِلنبيِّ العظيمِ الذي جاءَ يمحوها ويُدِيلُ منها: إننا أشياء ثابتةٌ في البشريَّةِ.

لم يكنْ منهمُ الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ، بل كانَ منهمُ العُنفُ^(١)، والرَّق، والطَّيْشُ، تَسَخَّرَ ثلاثُها من نبيِّ العَدْلِ، والحرِّيَّةِ، والعقلِ، فما تَسَخَّرَ إلا من نفسها.

صغائرُ الحياةِ قد أحاطتْ بمجدِ الحياةِ، لِيُثَبَّتَ الصَّغَائِرُ أَنَّهَا الصَّغَائِرُ، وَلِيُثَبَّتَ الْمَجْدُ أَنَّهُ الْمَجْدُ.

كانَ الفريقيانِ هما الفكرتَيْنِ المتعاديَتَيْنِ أبداً على الأرض: إحداهما عِشْ لِتَأْكُلْ وتستمتعْ وإنْ أهلكَتْ، والأخرى عِشْ لِتَعْمَلَ وتنفَعِ النَّاسَ وإنْ هلكَتْ.

كانَتْ الأقدارُ تُبَادِي هذا الروحَ الواسعَ بذلك الروحَ الضيقَ، لينطلقَ الواسعُ من مكانِهِ ويستقبلَ الدنيا التي عليه أنْ يُنْشِئَهَا. فأولئك الأشرافُ والسفهاءُ والعبيدُ إنْ هم إلا الضيقُ، والركودُ، وذُلُّ العِيشِ، حولَ السَّعَةِ الروحيةِ، والسموِ، وطَهارةِ الحياةِ.

وقفَ المعنى السماويُّ بينَ معاني الأرضِ، ولكنَّ نورَ الشمسِ ينبسطُ على الترابِ فلا يُعْفِرُهُ الترابُ^(٢)، وما هو بنورٍ يُضيءُ أكثرَ ممَّا هو قوةٌ تعملُ بالعناصرِ التي من طبيعتها أنْ تحوِّلَ، في العناصرِ التي من شأنِها أنْ تحوِّلَ.

وكانَ بينَ النبيِّ ﷺ وبينَ أولئك المستهزئينَ قوةٌ أخرى، هي القدرةُ التي تعملُ بهذا النبيِّ لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، وبهذه القدرةِ لم ينظرِ النبيُّ إلى قريشٍ وِصُولَتِهِمْ^(٣) عليه إلا كما ينظرُ إلى شيءٍ أنقضى، فكانَ الوجودُ الذي يُحِيطُ بِهِ غيرَ موجودٍ، وكانتْ حقيقةُ الزمنِ الآتي تجعلُ الزمنَ الحاضرَ بلا حقيقةٍ.

(١) العسف: الجور والظلم.

(٢) يعفّره التراب: يلوّثه ويغطّيه.

(٣) صولتهم: جولتهم، تغلبهم.

وإلى هذه القدرة توجّه النبي ﷺ بذلك الدعاء البليغ الخالد، يشكو أنّه إنسان فيه الضعف وقلة الحيلة، فينطق الإنساني فيه بالشّطر^(١) الأول من الدعاء يذكر أنفراذه وآثار أنفراذه، ويتوجّع لما بينه وبين إنسانية قومه، ثم ينطق الروحاني فيه بعد ذلك إلى آخر الدعاء متوجّهاً إلى مصدره الإلهي قائلاً أول ما يقول: إن لم يكن بك عليّ غضب فلا أبالي.

ولعمري لو نظّقت الشمس تدعو الله لما خرجت عن هذا المعنى ولا زادت على قوله: «أعوذ بنور وجهك»، تلتمس^(٢) من مصدر النور الأزلي حياطة وجودها الكامل.

* * *

ولقد هزئوا من قبل بالمسيح (عليه السلام) فقال للساخرين منه: ليس نبيّ بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته. وبهذا ردّ عليهم ردّ من أنسلخ منهم، وقال لهم قول من ليس له حكم فيهم، وأخذهم بالشرعة الأدبية لا العملية؛ إذ كان (عليه السلام) كالحكمة الطائفة ليست لكل قلب ولا لكل عقل، ولكنها لمن أعد لها؛ وشريعته أكثرها في التعبير وأقلها في العمل، ولم تجيء بالقوة العاملة فلم يكن بدّ من أن تضع الموعظة في مكان السيف، وأن تكون قائمة على النهي أكثر مما هي قائمة على الأمر، وأن تكون كشمس الشتاء الجميلة: لا تغلي بها الأرض، وإنما عملها أن تمهد^(٣) هذه الأرض لفصل آخر.

أما نبينا ﷺ فلم يحبّ المستهزئين، إذ كانت القوة الكامنة في بلاد العرب كلها كامنة فيه، وكان صدره العظيم يحمل للعالم كلمة جديدة لا تقبل الدنيا أن تعاملها عليها إلا بطريقتها الحربية؛ فلم يردّ ردّ الشاعر الذي يريد من الكلمة معناها البليغ، ولكنه سكّ سكوت المشتري الذي لا يريد من الكلمة إلا عملها حين يتكلّم؛ وكان في سكوته كلام كثير في فلسفة الإرادة والحريّة والتطور، وأن لا بدّ أن يتحوّل القوم، وأن لا بدّ أن يتفطر^(٤) هذا الشجر الأجرد عن ورق جديد أخضر ينمو بالحياة.

لم يتسخط^(٥) ولم يقل شيئاً، وكان كالصانع الذي لا يردّ على خطأ الآلة بسخط ولا يأس، بل بإرسال يده في إصلاحها.

(١) الشطر: الجانب والقسم.

(٢) تلتمس: تستمدّ، تأخذ.

(٣) تمهد: تفسح المجال وتهيئه.

(٤) يتفطر: يفتح ويستنبط.

(٥) يتسخط: يغضب.

قالوا: ورأى أبنا ربيعة، عُتْبَةُ وشَيْبَةُ ما لقي النبي ﷺ من السفهاء، فتحرَّكَتْ لَهُ رَجْمُهُمَا^(١)، فدَعَوْا غلاماً لهما نَصْرَانِيًّا يُقَالُ لَهُ عَدَّاسٌ، فقالا له: خِذْ قِطْفًا مِنْ هَذَا الْعَنْبِ وَضَعْنَاهُ فِي ذَلِكَ الطَّبَقِ، ثُمَّ أَذْهَبَ بِهِ إِلَى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَقُلْ لَهُ يَأْكُلُ مِنْهُ. ففَعَلَ عَدَّاسٌ ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ حَتَّى وَضَعَهُ بَيْنَ يَدَي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا وَضَعَ يَدَهُ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ» ثُمَّ أَكَلَ؛ فَنَظَرَ عَدَّاسٌ إِلَى وَجْهِهِ ثُمَّ قَالَ: - وَاللَّهِ - إِنَّ هَذَا لَكَلَامٌ مَا يَقُولُهُ أَهْلُ هَذِهِ الْبَلَدَةِ.

فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَمِنْ أَهْلِ أَيْنِ الْبَلَدِ أَنْتَ يَا عَدَّاسُ وَمَا دِينُكَ؟ قَالَ: أَنَا نَصْرَانِيٌّ وَأَنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ نَيْنَوَى. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ قَرْيَةِ الرَّجُلِ الصَّالِحِ يُونُسَ بْنِ مَتَّى؟ قَالَ: وَمَا يُدْرِيكَ^(٢) مَا يُونُسُ بْنُ مَتَّى؟ قَالَ ﷺ ذَلِكَ أَخِي: كَانَ نَبِيًّا وَأَنَا نَبِيٌّ.

فَأَكْبَ عَدَّاسٌ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقْبَلُ رَأْسَهُ وَيَدِيهِ وَرِجْلَيْهِ.

يا عجباً لرموزِ القَدَرِ في هذه القصة!

لَقَدْ أَسْرَعَ الْخَيْرُ وَالْكَرَامَةُ وَالْإِجْلَالُ فَأَقْبَلْتُ تَعْتَذِرُ عَنِ الشَّرِّ وَالسَّفَاهَةِ وَالطُّيْشِ، وَجَاءَتْ الْقَبْلَاتُ بَعْدَ كَلِمَاتِ الْعَدَاوَةِ.

وَكَانَ أَبْنَا رَبِيعَةَ مِنَ الَّذِينَ أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ، وَمِمَّنْ مَشَوْا إِلَى أَبِي طَالِبٍ عَمَّ النَّبِيِّ ﷺ مِنْ أَشْرَافِ قُرَيْشٍ يَسْأَلُونَهُ أَنْ يَكْفَهُ عَنْهُمْ أَوْ يُخَلِّيَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ، أَوْ يُنَازِلُوهُ وَإِيَّاهُ حَتَّى يَهْلِكَ أَحَدُ الْفَرِيقَيْنِ، فَانْقَلَبَتِ الْغَرِيزَةُ الْوَحْشِيَّةُ إِلَى مَعْنَاهَا الْإِنْسَانِيَّةِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الدِّينَ، لِأَنَّ الْمُسْتَقْبَلَ الدِّينِيَّ لِلْفِكْرِ لَا لِلْغَرِيزَةِ.

وَجَاءَتْ النَّصْرَانِيَّةُ تُعَانِقُ الْإِسْلَامَ وَتُعَزِّهِ، إِذِ الدِّينُ الصَّحِيحُ مِنَ الدِّينِ الصَّحِيحِ كَالْأَخِ مِنْ أَخِيهِ، غَيْرَ أَنَّ نَسَبَ الْإِخْوَةِ الدَّمُ وَنَسَبَ الْأَدْيَانِ الْعَقْلُ.

ثُمَّ أَنْتُمْ الْقَدَرُ رَمَزَهُ فِي هَذِهِ الْقِصَّةِ، بِقِطْفِ الْعَنْبِ سَائِفًا عَذْبًا مَمْلُوءًا خَلَاوَةً؛ فَبِاسْمِ اللَّهِ كَانَ قِطْفُ الْعَنْبِ رَمَازًا لِهَذَا الْعَتَقُودِ الْإِسْلَامِيِّ الْعَظِيمِ الَّذِي آمَنَّا حُبًّا كُلُّ حَبَّةٍ فِيهِ مَمْلُوكَةٌ.

(٢) يدريك: يعلمك.

(١) رحمهما: إحساسهما بالقرابة.

فوق الآدمية الإسراء والمعراج

من أعجب ما اتَّفَقَ لي أنني فرغت^(١) من تسويد هذا المقالِ ثمَّ أردتُ نقله، فتعسَّرَ عليَّ وضُرِفَتْ عنه بألمٍ شديدٍ اعتراني^(٢)، ونالني منه ثقلَةٌ في الدماغ؛ ثم كشفه اللهُ بعدَ يومٍ فراجعتُ الْكِتَابَةَ، فإذا قلبي ينبعثُ بهذه الكلمات:

كيف يَسْتَوِطِيءُ الْمُسْلِمُونَ الْعَجَزَ، وفي أولِ دينهم تَسْخِيرُ الطَّيِّعَةِ؟
كيف يَسْتَمْهِدُونَ الرَّاحَةَ^(٣)، وفي صَدْرِ تَارِيخِهِمْ عَمَلُ الْمَعْجَزَةِ الْكُبْرَى؟
كيف يَزْكُونُ إِلَى الْجَهْلِ، وأولُ أمرهم آخِرُ غَايَاتِ الْعِلْمِ؟
كيف لا يحملونَ النُّورَ لِلْعَالَمِ وَنِيَّتُهُمْ هُوَ الْكَائِنُ الْتُورَانِيُّ الْأَعْظَمُ؟

قِصَّةُ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هِيَ مِنْ خِصَائِصِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ ﷺ هَذَا النُّجْمِ الْإِنْسَانِيِّ الْعَظِيمِ؛ وَهُوَ النُّورُ الْمُتَجَسِّدُ لِهَدَايَةِ الْعَالَمِ فِي خَيْرَةِ ظُلُمَاتِهِ النَّفْسِيَّةِ؛ فَإِنَّ سَمَاءَ الْإِنْسَانِ تُظْلِمُ وَتُضِيءُ مِنْ دَاخِلِهِ بِأَغْرَاضِهِ وَمَعَانِيهِ. وَاللَّهُ - تَعَالَى - قَدْ خَلَقَ لِلْعَالَمِ الْأَرْضِيِّ شَمْساً وَاحِدَةً تُنِيرُهُ وَتُحْيِيهِ وَتَتَقَلَّبُ عَلَيْهِ بِلَيْلِهِ وَنَهَارِهِ، بِيَدِ أَنَّهُ تَرَكَ لِكُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَصْنَعَ لِنَفْسِهِ شَمْسَ قَلْبِهِ وَغَمَامَهَا وَسَحَابَتَيْهَا وَمَا تُسْفِرُ بِهِ وَمَا تُظْلِمُ فِيهِ. وَلِهَذَا سُمِّيَ الْقُرْآنُ نُوراً لِعَمَلِ آدَابِهِ فِي النَّفْسِ، وَوُصِفَ الْمُؤْمِنُونَ بِأَنَّهُمْ ﴿يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾، وَكَانَ أَثَرُ الْإِيمَانِ وَالتَّقْوَى فِي تَعْبِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ نُوراً يَمْشُونَ بِهِ.

وقد حازَ الْمُفَسِّرُونَ فِي حِكْمَةِ ذِكْرِ «الليل» فِي آيَةِ «الإسراء» مِنْ قَوْلِهِ - تَعَالَى - :
﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِمُحَمَّدٍ ﷺ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ السَّمَاءِ﴾. فَإِنَّ السُّرَى فِي لُغَةِ الْعَرَبِ لَا يَكُونُ إِلَّا لَيْلاً.

(١) فرغت: انتهيت.

(٢) اعتراني: داخلني وسيطر علي.

(٣) يستمهدون الراحة: يجعلونها مهداً لهم.

والحكمة هي الإشارة إلى أن القصة قصة (النجم) الإنساني العظيم الذي تحول من إنسانيته إلى نوره السماوي في هذه المعجزة، ويتمم هذه العجبة أن آيات «المعراج» لم تجيء إلا في سورة: «النجم».

وعلى تأويل أن ذكر (الليل) إشارة إلى قصة النجم، تكون الآية برهان نفسها، وتكون في نسقها^(١) قد جاءت معجزة من المعجزات البيانية؛ فإذا قيل إن نجماً دار في السماء، أو قطع ما تقطعه النجوم من المسافات التي تُعجز الحساب، فهل في ذلك من عجيب؟ وهل فيه شك أو نظر أو تردّد؟ وهل هو إلا من بعض ما يُسبّح الله بذكره؟ وهل يكون إلا آية اتصلت بالآيات التي نراها اتصال الوجود بعضها ببعض؟

وأنا ما يكاد ينقضي عجب من قوله تعالى: ﴿لَئِيمٌ مِّنْ آيَاتِنَا﴾. مع أن الألفاظ كما ترى مكشوفة واضحة، يُخيل إليك أن ليس وراءها شيء، ووراءها السر الأكبر؛ فإنها بهذه العبارة نص على إشراف النبي ﷺ فوق الزمان والمكان يرى بغير حجاب الحواس ممّا مرجعه إلى قدرة الله لا قدرة نفسه؛ بخلاف ما لو كانت العبارة: «ليري من آياتنا» فإن هذا يجعله لنفسه في حدود قوتها وحواسها وزمانها ومكانها، فيضطرب الكلام، ويتطرق إليه الاعتراض ولا تكون ثم معجزة.

وتحويل فعل (الرؤية) من صيغة إلى صيغة كما رأيت، هو بعينه إشارة إلى تحويل الرائي من شكل إلى شكل كما ستعرفه، وهذه معجزة أخرى يسجد لها العقل؛ فتبارك الله منزل هذا الكلام!

وإذا كان ﷺ نجماً إنسانياً في نوره، فلن يأتي هذا إلا من غلبة روحانيته على مادته؛ وإذا غلبت روحانيته كانت قواه النفسية مهتأة في الدنيا لمثل حالتها في الأخرى؛ فهو في هذه المعجزة أشبه بالهواء المتحرك. فقل الآن: أيعترض على الهواء إذا ارتفع بأنه لم يرتفع في طيارة...؟

ومن ثم كان الإنسان إذا سما درجة واحدة في ثبات قواه الروحية، سما بها درجات فوق الدنيا وما فيها، وسخرت له المعاني التي تسخر غيره من الناس، ونشأت له نواميس أخلاقية غير النواميس التي تسلط بها الأهواء. ومتى وجد الشيء من الأشياء كانت طبائع وجوده هي نواميسه؛ فالنار مثلاً إذا هي تضرمت أوجدت الإحراق فيما

(١) نسقها: نمطها، نموذجها.

يحترق، فإن وُضع فيها ما لا يحترق أبطلَ نواميسها وغلبَ عليها.

وكلُّ معجزةٍ تحدثُ فهذا هو سبيلُها في إيجادِ النواميسِ الخاصةِ بها وإبطالِ النواميسِ المألوفةِ، وبهذا يُقال: إنها حَرَقَتِ العادة. ومنَ النورِ نورٌ لا يَشْفُ^(١) له غيرُ الهواءِ، ومنه أشعةُ (رونجن) التي تشفُ لها الجدرانُ والحُجُبُ؛ فهذه معجزةٌ في ذاك.

والنبيُّ لا يكونُ نبيًّا حتى يكونَ في إنسانِه إنسانٌ آخرُ بنواميسٍ تجعلُهُ أقربَ إلى الملائكةِ في روحانيَّتها، وما ينزلُ إنسانُهُ الظاهرُ مِنَ الإنسانِ الباطنِ فيه إلَّا منزلةٌ مَنْ يتلقَى مِنْ يُعطي؛ فذاك الباطنُ هو للحقائقِ التي لا تحملُها الدنيا، وهذا الظاهرُ لِمَا يُمْكِنُ أَنْ يبلغَ إليه الكمالُ في المثلِ الإنسانيِّ الأعلى، ولولا ذلك الباطنُ ما أَسْتَطَاعَ نبيٌّ مِنَ الأنبياءِ أَنْ يحملَ همومَ أمةٍ كاملةٍ لا تُضنيه ولا تُغَيِّره ولا تُعجزُه. فحقيقةُ النبوةِ أنها قوةٌ مِنَ الوجودِ في إنسانٍ مختارٍ جاءتْ تُصلِحُ الوجودَ الإنسانيَّ به لتَقَرَّرَ في هذه الحيوانيةِ المهذَّبةِ مثَلُها الأعلى، بدلالِتها على طريقِها النفسيِّ مَعَ طريقِها النفسيِّ مع طريقِها الطبيعيِّ؛ فيكونُ مَعَ الانحِطاطِ الرقيُّ، ومَعَ النقصِ الكمالُ، ومَعَ حُكْمِ الغريزةِ التحكُّمُ في الغريزةِ، ومَعَ الظلمةِ الماديةِ الإِشراقُ الروحانيُّ.

وما أَلْمَعِزَاتُ إلَّا شَأْنُ تلكِ القوةِ الباطنةِ لا شَأْنُ إنسانِها الظاهرِ، وَمَنِ الَّذِي يُنْكِرُ أَنَّ قُوَى الوجودِ هي في نفسِها إعجازٌ للعقلِ البشريِّ؟ وهل يُنْكِرُ اليومَ أَحَدٌ شَأْنَ هذه القوةِ في (الراديو) حينَ مَسَّتْهُ فجعلَتِ الكلمةَ التي تُرْسَلُ بينَ الشرقِ والغربِ، كالكلمةِ بينَ اثْنينِ يتحدَثانِ في مجلسٍ واحدٍ؟

ونحنُ نرى معجراتِ التَّنويمِ المَغناطيسيِّ وما يُبَصِّرُهُ النَّائمُ وما يسمَعُهُ، وما ينكشِفُ لَهُ مِمَّا وراءَ الزَّمانِ والمكانِ؛ وليسَ التَّنويمُ شيئاً إلَّا تسلِيطُ الذاتِ الباطنةِ بقواها الروحيَّةِ العَجبيةِ، على الذاتِ الظاهرةِ المقيَّدةِ بحواسِّها المحدودةِ، فتَطْعَى عليها، فتُضَبِّحُ الحواسِّ مطلقَةً شائعةً في الوجودِ بِمقدارِ ما فيها من قواهِ لا بِمقدارِ ما فيها من قوةٍ شخصِها.

وعلى نحوٍ من ذلك يتصلُّ الرجلُ الروحانيُّ بذاتِهِ الباطنةِ، فيوقِعُ شخصَه الظاهرَ في الاستهواءِ^(٢)، فينكشِفُ لَهُ الوجودُ، ويُبَصِّرُ ما يقَعُ على الأبعدِ، ويرى ما

(٢) الاستهواءُ: الاستحالة القلبية.

(١) يَشْفُ: يرق.

هو آتٍ قبل أن يأتي؛ وما ألكون في هذه الحالة إلا كالمعشوق يقول لعاشقه الذي وقع في قلبه الحب: قد آتيتك نوراً تنظر به جمالي.

وفي علماء عصرنا من يفكر في الصعود إلى القمر، وفيهم من يعمل للمخاطبة مع الأفلاك، وفيهم من تقع له العجائب في استحضار الأرواح وتسخيرها؛ وكل ذلك أول البرهان الكوني الذي سيلزم العلم فيضطره في يوم ما إلى الإقرار بصحة الإسراء والمعراج.

ونحن قبل أن نبدي رأينا في القصة نلّم بها الإمامة موجزة؛ فقد اختلفت فيها الأحاديث ووقع فيها تخليط كثير، فجاءت فنونا وأنواعاً من طُرُق شتى، حتى جمعها بعضهم في جزئين، وما تحتل كل ذلك ولا بعضه، ولكن روح الرواية في ذلك الزمن كانت كروح الصحافة في هذا العصر: متى فارت قورها استحدثت من كل عبارة عبارة أخرى، وعلى هذه الطريقة تخرج من العبارتين عبارة ثالثة، فيكون الأصل معنى واحداً وإذا هو يمد من يمينه ويساره.

ولا يرون بذلك بأساً؛ فإنهم يشدون به الرأي، ويضاعفون منه أليقين، ويزيدون ضوءاً في نور المعنى، وما داموا قد أثبتوا الأصل واستيقنوه، فلا خرج أن يؤيد القول بعضه بعضاً، بأجتهاد في عبارة، واستنباط من أخرى، وزيادة في الثالثة مما هو بسبيل منها، على نحو ما نرى من فن الرواية القصصية؛ إذ تعدد الأساليب والعبارات مختلفة متنوعة، وليس تحتها إلا حقيقة واحدة لا تختلف. والقصاص الديني في هذه اللغة العربية فنٌ كامل قائم بنفسه، لا يدع العقل والخيال والعاطفة أقوى منه ولا أعجب ولا أغرب.

هذا في متن القصة، أما في واقعيتها فقد اختلفوا اختلافاً آخر: هل كان الإسراء والمعراج يقظة أو متاماً؟ وبالروح وحدها، أو بالروح والجسم معاً: وإنما ذكرنا هذا الخلاف لأنه الدليل القاطع على أن النبي ﷺ لم يخبر بشيء من ذلك، فلم يعين لهم وجهاً من هذه الأوجه. والحكمة في ذلك أن عقولهم لم تكن تحتل الإدراك العلمي الذي أساسه ما عرّف اليوم من أمر الكهرباء والآثير...
والخلاصة التي تتأدى^(١) من القصة: أنه ﷺ كان مضطجعاً، فأناء جبريل،

(١) تتأدى: تستج.

فأخرجَه مِنَ المسجد، فأركبَه الْبُرَاقَ، فَأَتَى بَيْتَ المقدس، ثُمَّ دَخَلَ المسجدَ فَصَلَّى فيه، ثُمَّ عَرِجَ بِهِ إِلَى السموات، فَأَسْتَفْتَحَهَا جبريلُ واحدةً واحدةً، فرأى فيها من آيَاتِ رَبِّهِ، وَأَجْتَمَعَ بِالْأَنْبياءِ - صلواتُ الله عليهم -، وصعدَ في سماءٍ بعدَ سماءٍ إلى سِدْرَةِ المنتهى، فَعَشِيهَا من أمرِ اللَّهِ ما غَشِيهَا، فرأى ﷺ مظهرَ الْجَمَالِ الْأَزَلِيِّ، ثُمَّ رَجَّ^(١) بِهِ فِي النُّورِ فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ ما أَوْحَى.

أَمَّا وَشْيُ الْقِصَّةِ وَطَرَازُهَا فَبَابٌ عَجِيبٌ مِنَ الرُّمُوزِ الْفَلَسْفِيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يُرْمَزُ بِهَا إِلَى تَجْسِيدِ الْأَعْمَالِ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ: تَكُونُ تَعْباً وَتَقَعُ فَائِدَةٌ، أَوْ تُلْتَمَسُ مَنْفَعَةٌ وَشَهْوَةٌ وَتَقَعُ مُضَرَّةٌ وَحِمَاقَةٌ، ثُمَّ تَفْنَى مِنْ هَذِهِ وَتِلْكَ الصُّوَرُ الزَّمْنِيَّةُ الَّتِي تَوْهَمُهَا أَصْحَابُهَا، وَتَخْلُدُ الْأَصُورُ الْأَبَدِيَّةُ الَّتِي جَاءَتْ بِهَا حَقَائِقُهَا.

وَمِنْ هَذِهِ الرُّمُوزِ الْبَدِيعَةِ قَوْلُهُ: فَجَاءَنِي جبريلُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ جبريلُ: أَخَذْتُ الْفِطْرَةَ. وَأَنَّهُ مَرَّ عَلَى قَوْمٍ يَزْرَعُونَ وَيَحْصُدُونَ فِي كُلِّ يَوْمٍ، كُلَّمَا حَصَدُوا عَادَ كَمَا كَانَ؛ فَسَأَلَ مَا هَذَا؟ قَالَ جبريلُ هَؤُلَاءِ الْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، تُضَاعَفُ لَهُمُ الْحَسَنَةُ سَبْعُمِائَةٍ ضِعْفٍ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ تُرْضَخُ^(٢) رُؤُوسُهُمْ بِالْصَخَرِ، كُلَّمَا رُضِخَتْ عَادَتْ كَمَا كَانَتْ وَلَا يُفْتَرُّ عَنْهُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ؛ فَقَالَ مَا هَذَا؟ قَالَ جبريلُ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَتَاقَلُّ رُؤُوسُهُمْ عَنِ الصَّلَاةِ. ثُمَّ أَتَى عَلَى قَوْمٍ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَحْمٌ نَضِيجٌ فِي قِدْرٍ، وَلَحْمٌ آخَرُ نِيءٌ فِي قِدْرٍ خَبِيثٍ، فَجَعَلُوا يَأْكُلُونَ مِنَ الْنِيءِ الْخَبِيثِ وَيَدْعُونَ النَّضِيجَ؛ فَقَالَ مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالَ جبريلُ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عِنْدَهُ الْأَمْرَاءُ الْحَلَالُ الطَّيِّبُ فَيَأْتِي أَمْرَاءَ خَبِيثَةٍ، وَالْمَرْأَةُ تَقُومُ مِنْ عِنْدِ زَوْجِهَا حَلَالاً طَيِّباً فَتَأْتِي رَجُلًا خَبِيثاً. ثُمَّ أَتَى عَلَى رَجُلٍ قَدْ جَمَعَ حَزْمَةً عَظِيمَةً لَا يَسْتَطِيعُ حَمْلُهَا وَهُوَ يَزِيدُ عَلَيْهَا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا جبريلُ؟ قَالَ: هَذَا الرَّجُلُ تَكُونُ عَلَيْهِ أَمَانَاتُ النَّاسِ لَا يَقْدِرُ عَلَى أَدَائِهَا وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا. ثُمَّ رَأَى نِسَاءً مَعْلَقَاتٍ بِثَدْيَيْهِنَّ؛ فَسَأَلَ، فَقَالَ جبريلُ: هَؤُلَاءِ اللَّاتِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مِنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ.

وَنَحْنُ عَلَى الرَّأْيِ الَّذِي عَلَيْهِ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ: مِنْ أَنَّ الْإِسْرَاءَ وَالْمِعْرَاجَ كَانَا بِالْجِسْمِ وَالرُّوحِ مَعاً عَلَى التَّأْوِيلِ الَّذِي سَنُبَيِّنُهُ؛ وَيُثَبِّتُ ذَلِكَ قَوْلُهُ - تَعَالَى - فِي

(٢) تَرْضَخُ: تَضْرِبُ وَتَشْدَخُ.

(١) رَجَّ بِهِ: أَدْخَلَ.

سورة (النجم): ﴿إِذْ يَنْشَى اللَّيْلُ مَا يَخْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾. فلا يكون البصرُ يزيع^(١) ويطغى إلا في الجسم، ولا ينتفي عنه ذلك إلا وهو في الجسم. ولم يتنبه أحد من المفسرين إلى المعنى المعجز العجيب في قوله: ﴿وَمَا طَغَى﴾: فذلك نص على أنه كان يرى بجسم قد تحوّل عن الطبيعة الآدمية المحدودة فليس فيه منها شيء؛ إذ لا يكون طغيان البصر إلا من تسلط الخيال عليه بأهواء الجسم التي لا يستقيم بها حكم على حقيقته، فما زاع البصر بكونه مقيّد الحاسة، ولا طغى بكونه مُطلق الخيال، بل كان كما يُريه الله من آياته، أي كان حقيقة كونية في غير حالتها الأرضية الناقصة.

والذين قالوا إنّ الإسراء والمعراج كانا رؤيا رآها النبي ﷺ احتجوا لذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾. وقد خلط المفسرون في هذا أيضاً، وإنّما كان التعبير بلفظ «الرؤيا» - وهي التي تكون مناماً - لنفي تأثير الحواس على الرائي، وإثبات أنّ الطبيعة الآدمية بجماليتها كانت فيه كالنائمة عن حياتها الأرضية بحقائقها وأخيلتها معاً، فليس نائماً كالنائم، ولا مستيقظاً كالمستيقظ.

وفي أساس القصة جبريل والبراق، وهما القوة الملائكية والقوة الطبيعية، أو الروح الملائكي والروح الطبيعي؛ ولم يوصف البراق بأنه دابة إلا رمزاً، إذ لا يأتي للعرب أن يفهموا ما يراؤ منه؛ وعندنا أنّه سُمّي البراق من البرق، وما البرق إلا الكهربائية، وهذا هو المراد منه؛ فتلك قوة كهربائية متى نبضت جمعت أول العالم بآخره؛ وهذه هي الحكمة في أنّ آية الإسراء لم تذكر أنّه كان محمولاً على شيء، إذا لم يكن محمولاً إلا على روح الأثير.

وما دامت القوة الملائكية والقوة الطبيعية قد سُخرتا له ﷺ فلا معنى لأن يكون ذلك للروح دون الجسم، بل اجتماعهما معاً في القصة دليل على أنّ سرّ المعجزة إنّما كان في تيسير ملاءمة جسمه الشريف لهاتين الحالتين؛ فيتحول في صورة كونية ملائكية بين سرّ الملك وسرّ الطبيعة، وحينئذ لا تجري عليه أحكام الحواس ولا أحكام المادة.

ومن الممكن أن تتحوّل الأجسام إلى حالتها الأثيرية^(٢) في بعض الأحوال الخارقة، وبهذا يُعلّل طي الأرض لبعض الروحانيين، وتعلّل خوارق كثيرة ممّا

(١) يزيع: يحيد ويتحول.

(٢) الأثيرية: الهوائية.

يَحْدُثُ فِي اسْتِحْضَارِ الْأَرْوَاحِ لِهَذَا الْعَهْدِ، وَمِمَّا يَأْتِيهِ فَقَرَاءُ الْهِنْدِ، وَمِمَّا كَانَ يَصْنَعُهُ «هُودِينِي» الْأَمْرِيكِيُّ: إِذْ كَانُوا يَغْلُلُونَهُ بِالسَّلَاسِلِ وَالْقِيُودِ ثُمَّ يَرُونَهُ طَلِيقًا؛ وَيَحْبِسُونَهُ فِي السَّجُونِ الْمُحَصَّنَةِ يَقُومُ عَلَيْهَا الْحَرَّاسُ وَتُمْسِكُهُ فِيهَا الْأَبْوَابُ وَالْجُدْرَانُ ثُمَّ يَجِدُونَهُ فِي بَعْضِ الْفَنَاقِقِ.

وَلَيْسَ لِلْعَقْلِ أَنْ يُنْكِرَ شَيْئًا مِنْ هَذِهِ وَنَحْوِهَا، فَإِنَّ تَرْكِيبَ الطَّبِيعَةِ رَدُّ عَلَيْهِ، وَنَقْضُهُ هُوَ رَدُّ عَلَى نَفْسِهِ، وَالْمُسْتَحِيلُ عَلَى الْأَعْمَى هُوَ أَيْسَرُ الْمُمْكِنَاتِ عَلَى الْمُبْصِرِ.

فَأَنْتَ تَرَى أَنَّ ذَكَرَ الْبُرَاقِ وَالْمَلِكِ فِي أُسَاسِ قِصَّةِ الْإِسْرَاءِ وَالْمِعْرَاجِ هُوَ صِلَةُ الْقِصَّةِ بِالْمُعْجَزَةِ، وَهُوَ عَيْنُهُ صِلَتُهَا بِالْبَرَهَانِ؛ وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِيهَا لَمَّا كَانَ لَهَا تَفْسِيرٌ.

وَالْقِصَّةُ بَعْدَ ذَلِكَ تُثَبِّتُ أَنَّ هَذَا الْوُجُودَ يَرِقُّ وَيُنْكَشِفُ وَيَسْتَضِيءُ كُلَّمَا سَمَا الْإِنْسَانُ بِرُوحِهِ، وَيَغْلُظُ وَيَتَكَثَّفُ وَيَتَحَجَّبُ كُلَّمَا نَزَلَ بِهَا، وَهِيَ مِنْ نَاحِيَةِ النَّبِيِّ ﷺ قِصَّةُ تَصِفُهُ بِمَظْهَرِهِ الْكُونِيِّ فِي عَظَمَتِهِ الْخَالِدَةِ كَمَا رَأَى ذَاتَهُ الْكَامِلَةَ فِي مَلَكُوتِ اللَّهِ، وَمِنْ نَاحِيَةِ كُلِّ مُسْلِمٍ مِنْ أَتْبَاعِهِ هِيَ كَالدَّرْسِ فِي أَنْ يَكُونَ لِقَلْبِ الْمُؤْمِنِ مِعْرَاجُ سَمَاوِيٍّ فَوْقَ هَذِهِ الدُّنْيَا، لِيَشْهَدَ بِبَصِيرَتِهِ أَنْوَارَ الْحَقِّ، وَجَمَالَ الْخَيْرِ، وَتَجَسَّدَ الْأَعْمَالِ الْإِنْسَانِيَةِ فِي صُورِهَا الْخَالِدَةِ؛ فَيَكُونُ بِتَدْبِيرِ الْقِصَّةِ كَأَنَّمَا يَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ وَيَنْزِلُ؛ فَيَسْتَرِيحُ إِلَى الْحَقَائِقِ الْأَسَاسِيَّةِ لِهَذِهِ الْحَيَاةِ، فَيَدْفَعُ عَنْ نَفْسِهِ بِذَلِكَ تَعَقُّدَ الْأَخِيلَةِ الَّتِي هِيَ أَسَاسُ الْبَلَاءِ عَلَى الرُّوحِ.

وَمَتَى اسْتَنَارَ الْقَلْبُ كَانَ حَيًّا فِي صَاحِبِهِ، وَكَانَ حَيًّا فِي الْوُجُودِ كُلِّهِ. وَمَتَى سَلِمَتِ الْحَيَاةُ مِنْ تَعْقِيدِ الْخَيَالِ الْفَاسِدِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الْحَقُّ وَالْخَيْرُ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ إِلَّا حَيَاةٌ هِيَ الرَّحْمَةُ وَالْحُبُّ.

الإنسانية العليا

من أوصاف النبي ﷺ أَنَّهُ كَانَ متواصلَ الأحزانِ، دائمَ الفكرة، ليست له راحةٌ، طويلَ السَّكْتِ، لا يتكلَّم في غير حاجة، ليس بالجافي^(١) ولا المَهين، يُعْظَمُ النعمة وإن دَقَّتْ لا يذمُّ منها شيئاً، ولا تُغْضِبُهُ الدُّنيا ولا ما كانَ لها، فإذا تُعْذِي الْحَقُّ لم يَقم لِغَضِبِهِ شيءٌ حتى ينتصرَ له، ولا يَغْضِبُ لِنَفْسِهِ ولا ينتصرُ لها؛ وكان خافِضَ الطَّرَفِ^(٢)، نظرُهُ إلى الأرض أطولَ من نظره إلى السَّماء، مَنْ رَأه بديهةً هابَةً، وَمَنْ خالَطَهُ مَعْرِفَةً أَحَبَّهُ، لا يَحْسِبُ جليسهُ أن أحداً أكرمَ عليه منه، ولا يَطوي عن أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ بِشَرِّهِ^(٣)، قد وسَّعَ النَّاسَ بَسْطُهُ وخُلُقُهُ، فصارَ لهم أباً، وصاروا عندهُ في الْحَقِّ سواء؛ يُحَسِّنُ الْحَسَنَ ويقوِّيه، ويُقَبِّحُ الْقَبِيحَ ويُوْهِيه^(٤)، معتدلُ الأمرِ غيرُ مُخْتَلِفٍ؛ وكانَ أَشدَّ النَّاسِ حياءً، لا يَثْبُتُ بَصَرُهُ في وجهِ أَحَدٍ، لَهُ نورٌ يَعْلوهُ كأنَّ الشَّمْسَ تجري في وجهه، لا يُؤَيِّسُ^(٥) راجيَه، ولا يُخَيِّبُ عافيَه^(٦)، وَمَنْ سألَهُ حاجةً لم يردَّهُ إلَّا بها أو بِمَيْسُورٍ مِنَ الْقَوْلِ؛ أجودُ النَّاسِ بِالْخَيْرِ.

صلى اللَّهُ وسلَّمَ على صاحبِ هذه الصِّفاتِ التي لا يجدُ الْكَمالُ الْإِنْسانيُّ مذهباً عنها ولا عن شيءٍ منها، ولا يجدُ النِّقصُ البشريُّ مَساعاً^(٧) إليها ولا إلى شيءٍ منها؛ ففيها الْمَعْنى التَّامُّ لِلْإِنْسانيَّةِ، كما أنَّ فيها الْمَعْنى التَّامَّ لِلْحَقِّ، ومن أَجتماعِ هذينِ يكوُنُ فيها الْمَعْنى التَّامُّ لِلْإيمانِ.

هي صفاتُ إنسانِها العظيمِ، وقد أَجتمعتْ لَهُ لِتأخِذِ عَنْهُ الْحياةُ إِنْسانيَّتِها الْعاليةَ؛ فهي بذلك من بُرهاناتِ نَبَوِّهِ ورسالتِهِ.

(١) الجافي: القاسي الغليظ.

(٢) الطَّرَفُ يسكون الراء: النظر.

(٣) بشرة: سروره وابتسامه وبسطه.

(٤) يُوْهِيه: يضعفه.

(٥) يؤيس: يقنط ويفقد الأمل من رجائه.

(٦) العافي: المحتاج.

(٧) مساعاً: سيلاً.

ولو جمعت كل أوصافه ﷺ ونظمتها بعضها إلى بعض، وأعتبرتها بأسرارها العليمية - لرأيت منها كونا معنويا دقيقا قائما بهذا الإنسان الأعظم، كما يقوم هذا الكون الكبير بسننه وأصول الحكمة فيه، ولا يثبت أن هذا النبي الكريم إن هو إلا مُعْجَمٌ نفسي حي ألفته الحكمة الإلهية بعلم من علمها، وقوة من قوتها، لتخرج به الأمة التي تُبدعُ العالم إبداعاً جديداً، وتُنشئُ النشأة المحفوظة له في أطوار كماله.

ولن ترى في الإنسانية أسمى من اجتماع هذه الصفات بعضها إلى بعض وإنني لأكاد كلما تأملتُها أحسبُ هذا السمو قضاء وقدرأ بإنسان على الإنسانية كلها. وهي دليل على أنه الإنسان الذي خلقَ للدنيا لا لنفسه؛ فهو لا ينمو بما يكون على الناس من الحق، ولكن بما يكون للناس عليه من الواجبات، كأنما هو حقيقة كونية تعيش عيشها، فما تكون في الوجود إلا لتقرّر وجودها هي، ولا تنتهي حين تنتهي بذاتها إلا لتبدأ معانيها في غيرها، فهو ﷺ إنسان غرس في التاريخ غرساً ليكون حداً لزمان وأولاً لزمان بعده، وما كانت حياته تلك إلا طريقة غرسه، وهو أبداً أصبح في الدنيا كأنه جهة من الجهات لا إنسان من الناس، فلن يتغير أو يُمحى إلا إذا تغير أو مُحى المشرق والمغرب.

ونحن حين نقرأ تلك الصفات وما فاضت به كتب الشرائع من أمثالها، لا نقرأها أوصافاً ولا حلية، بل نراها صفحة إلهية مصنفة أبداع تصنيف وأدق، ومن وراء تأليفها تفسير طويل لا يتهدى^(١) ألفكر البشري لأحسن منه ولا أصح ولا أكمل؛ فقد اجتمعت تلك الصفات في إنسانها اجتماع الأجزاء في المسألة الرياضية: لا ينبغي أن تزيد أو تنقص، إذ كان في مجموعها ما وجد له مجموعها.

ويكاد الارتباط بين أجزاء المسألة يكون هو بعينه صورة للارتباط بين أجزاء تلك الصفات الشريفة؛ فإن كل جزء منها موضوع وضعا لا يتم الكل إلا به، حتى لا موضع فيها لقلّة أو كثرة؛ وهذا معنى قوله ﷺ «أدبني ربي فأحسن تأديبي»، وأنت إذا دققت في هذا الحديث أدركت من مغنايته أن هناك طبيعة أخلاقية مفردة^(٢) تجري على قانونها الذي وضعه الله لها وأحكمها به.

وأعجب ما يدهشنا من مجموع صفاته ﷺ أن فيها دليلاً بيناً على أنه مخلوق خلقه متميزة بنفسها، كخلقة القلب الإنساني: نظامه حياته وحياته نظامه، وكأنما

(١) لا يتهدى: لا يعثر.

(٢) مفردة: مميزة.

أَعْتَرَتْهُ حَالَةٌ نَفْسِيَّةٌ كَالَّتِي تَعْتَرِي الْقَلْبَ فِي أَسْتَشْعَارِ الْخَطَرِ فَخُرْجُهُ مِنْ طَبِيعَتِهِ إِلَى أَقْوَى مِنْهَا، فَلَا يَزَالُ يُمَدُّ أَعْضَاءُ الْجَسْمِ بِمَدَدٍ لَا يَنْفَدُ مِنَ الْقُوَّةِ وَالصَّبْرِ، يَجْعَلُ الْحَيَاةَ فِيهَا عَلَى أَضْعَافِهَا كَأَنَّهَا حَيَاةٌ كَانَتْ مَخْبُوءَةً وَظَهَرَتْ بَغْتَةً؛ وَفِي هَذِهِ الْحَالَةِ تَتَجَهُّ غَرَائِزُ النَّفْسِ كُلُّهَا إِلَى جِهَةٍ وَاحِدَةٍ كَأَنَّهَا مَقْدَرَةٌ بِمِيزَانٍ، مُضْبُوطَةٌ بِقِيَاسٍ؛ فَتَرْجِعُ عَلَى تَنَاقُضِهَا وَآخْتِلَافِهَا مُتَعَاوِنَةً يُؤَاوِزُ^(١) بَعْضُهَا بَعْضًا، وَكَانَ قَانُونُهَا الطَّبِيعِيُّ أَنَّ تَتَجَادَبَ وَتَتَسَاقَطَ وَتُفَسِّرَ الْوَاحِدَةُ مِنْهَا عَمَلِ الْآخَرَى، فَيَجِيءُ بِهَا الشَّيْءُ وَضْدَهُ مَعًا: كَالصِّدْقِ وَالْكَذْبِ، وَالطَّمَعِ وَالْقَنَاعَةِ، وَالشَّهَوَاتِ الثَّائِرَةِ وَالْخُمُودِ أَلْسَاكِنَ، إِلَى آخَرِ مَا تَعَدُّ مِنْ هَذِهِ الْغَرَائِزِ؛ وَلَكِنَّهَا فِي أَسْتَشْعَارِ الْخَطَرِ تَكُونُ كَالْأَشْبَاهِ لَا كَالْأَضْدَادِ، فَيَشُدُّ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيُتِمُّمُ التَّقْيِضُ مِنْهَا نَقِيضَهُ، وَتَجْرِي كُلُّهَا فِي قَانُونٍ وَاحِدٍ: هُوَ الدَّفَاعُ بِأَجْزَائِهَا عَنْ مَجْمُوعِهَا؛ فَتَرَى الْكَنَازِعَ مِنْهَا وَإِنَّهُ لَمُسْتَقَرٌّ فِي أَشَدِّ مَنْ أَلْقَيْدٍ، وَكَأَنَّ فِيهِ غَيْرَ طَبِيعَتِهِ.

وَهَلْ يُنْبِتُكَ مَجْمُوعُ صِفَاتِهِ ﷺ إِلَّا أَنَّهُ يَعِيشُ مَعِيشَةَ الْقَلْبِ إِذَا اخْتَلَفَ مَا حَوْلَهُ وَفَجَأَتْهُ بَغْتَاتُ^(٢) الْوُجُودِ فَتَجَاوَزَ أَنْ يَكُونَ مَنبَعًا لِلْحَيَاةِ إِلَى أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْحَيَاةِ فِي مَنبِعِهَا؟

وَتِلْكَ الْحَالَةُ - كَمَا مَرَّرْنَا بِكَ - تَجْعَلُ وَجُودَ الْإِنْسَانِ هُوَ وَجُودَ إِرَادَتِهِ وَعَقْلِهِ، لَا وَجُودَ شَهَوَاتِهِ وَغَرَائِزِهِ؛ وَكَذَلِكَ عَاشَ نَبِيُّنَا ﷺ فَهُوَ مَدَّةَ حَيَاتِهِ فِي وَجُودِ إِرَادَتِهِ لَا غَيْرِهَا، حَتَّى لَيْسَ عَلَيْهِ سَبِيلٌ لِعَمَلِيَّةٍ أَوْ لَائِمَةٍ، كَأَنَّهُ خُلِقَ تَشْدُهُ نِيَّةٌ مُسْتَقِظَةٌ قَدْ نَبَّهَهَا مَا يُنْبِئُ النَّفْسَ مِنَ الْغَرَرِ وَالْخَطَرِ. وَلَعَلَّ هَذَا الشَّعُورَ فِي نَفْسِهِ ﷺ هُوَ التَّفْسِيرُ لِقَوْلِهِ: «نِيَّةُ الْمُؤْمِنِ خَيْرٌ مِنْ عَمَلِهِ». إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مِمَّا يَجْرِي فِي مَعْنَى هَذِهِ الْكَلِمَةِ الْجَامِعَةِ؛ يُرِيدُ بِهَا: أَنَّ نِيَّةَ الْمُؤْمِنِ لَا تَنْطَوِي إِلَّا عَلَى الْخَيْرِ الْكَامِلِ، فَهُوَ - مَا دَامَتْ نِيَّتُهُ عَلَى صَلَاحِهَا وَسِرُّهُ عَلَى إِخْلَاصِهِ - لَا يَعُدُّ أَلَيْسِيرَ مِنَ الشَّرِّ يَسِيرًا، وَلَا يَرَى الْكَثِيرَ مِنَ الْخَيْرِ كَثِيرًا؛ فَالْأَصْلُ الْقَائِمُ فِي تِلْكَ النِّيَّةِ الْمُؤْمِنَةِ أَلَّا يَبْدَأَ الشَّرُّ كَيْ لَا يَوْجَدَ، وَأَلَّا يَنْتَهِيَ الْخَيْرُ كَيْ لَا يَفْنَى؛ فَالْمُؤْمِنُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى الْخَيْرِ وَالْكَامِلِ أَيْدًا، فِي حِينِ أَنْ عَمَلَهُ بِطَبِيعَتِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ يَتَنَاوَلُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ جَمِيعًا، ثُمَّ لَا يَكُونُ إِلَّا عَمَلًا إِنْسَانِيًّا عَلَى نَقْصٍ وَأَضْطِرَابٍ وَأَلْتَوَاءٍ.

وَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ الْمُؤْمِنُ أَنْ يَأْتِيَ الْخَيْرَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِهِ، وَلَكِنَّهُ يَسْتَطِيعُ دَائِمًا

(١) يُؤَاوِزُ: يَعْضُدُ وَيَقْوِي.

(٢) بَغْتَاتٌ: مَفَاجِآتٌ.

أَنْ يَنْوِيَهُ وَيَرْغَبَ فِيهِ وَيَعَزِّمَ عَلَيْهِ، لِيُحَقِّقَ ضَمِيرَهُ فِي كُلِّ مَا يَهْمُ بِهِ؛ وَيَحْصِرَ أَفْكَارَهُ فِي قَانُونٍ نِيَّتِهِ الْمُؤْمَنَةُ. وهذا هو الأساسُ فِي عِلْمِ الْأَخْلَاقِ، لَا أَسَاسٌ مِنْ دُونِهِ.

وَالنِّيَّةُ مِنْ بَعْدِ هِيَ حَارِسُ الْعَمَلِ؛ فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يُذْعِنَ^(١) وَأَنْ يَأْبَى، وَمَنْ ثَمَّ تَكُونُ هَذِهِ النِّيَّةُ رَدًّا وَمَدَافَعَةً مِنْ نَاحِيَةٍ، وَأَسْتِجَابَةً وَمُطَاوَعَةً مِنَ النَّاحِيَةِ الْأُخْرَى؛ فَهِيَ عَلَى الْحَقِيقَةِ مَتَى صَلَحَتْ كَانَتْ أَسْتِقْلَالًا تَامًّا لِلْإِرَادَةِ، وَكَانَتْ مَعَ ذَلِكَ ضَبْطًا لِهَذِهِ الْإِرَادَةِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ هِيَ الَّتِي يَنْتَظِمُ بِهَا قَانُونُ الْمَبْدَأِ السَّامِيِّ.

ثُمَّ إِنَّهُ لَا ضَابِطَ لِصِحَّةِ الْعَمَلِ وَأَسْتِقَامَتِهِ إِلَّا النِّيَّةُ الصَّحِيحَةُ الْمُسْتَقِيمَةُ؛ فَالْتَزْوِيرُ وَالتَّلْبِيسُ كِلَاهُمَا سَهْلٌ ميسورٌ فِي الْأَعْمَالِ، وَلَكِنَّهُمَا مُسْتَحِيلَانِ فِي النِّيَّةِ إِذَا خُلِصَتْ.

وهي كذلك ضابطةٌ لِلْفَضَائِلِ تُرْجِعُهُ الْقُلُوبَ عَلَى اخْتِلَافِهَا وَتَفَاوُتِهَا أَتْجَاهًا وَاحِدًا لَا يَخْتَلِفُ؛ فَيَكُونُ طَرِيقُ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَالْإِنْسَانِ، مِنْ نَاحِيَةِ الطَّرِيقِ مَا بَيْنَ الْإِنْسَانِ وَبَيْنَ اللَّهِ.

وَأَشْوَاقُ الْأَرْوَاحِ بِطَبِيعَتِهَا لَا تَنْتَهِي، فَيُعَارِضُهَا الْجِسْمُ بِجَعْلِ حَاجَاتِهِ غَيْرَ مُنْتَهِيَةٍ؛ يُحَاوِلُ أَنْ يَطْمَسَ^(٢) بِهِذِهِ عَلَى تِلْكَ، وَأَنْ يُغْلِبَ الْحَيَوَانِيَّةَ عَلَى الرُّوحَانِيَّةِ، فَإِذَا كَانَتْ النِّيَّةُ مُسْتَقِظَةً كَفَّتْهُ وَأَمَانَتْ أَكْثَرَ نَزَعَاتِهِ، وَوَضَعَتْ لِكُلِّ حَاجَةٍ حَدًّا وَنِهَایَةً؛ وَبِذَلِكَ تَرْجِعُ النِّيَّةُ إِلَى أَنْ تَكُونَ قُوَّةً فِي الْنَفْسِ يَخْرُجُ بِهَا الْإِنْسَانُ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ جِسْمِهِ، لِيَخْرَجَ بِذَلِكَ عَنْ كَثِيرٍ مِمَّا يَحُدُّهُ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ...

وهي بَعْدَ هَذَا كُلِّهِ تَحْمِلُ الْإِنْسَانَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَاجِبِهِ كَأَنَّهُ رَقِيبٌ حَيٌّ فِي قَلْبِهِ، لَا يُرَائِيهِ وَلَا يُجَامِلُهُ، وَلَا يُخَدِّعُ مِنْ تَأْوِيلٍ، وَلَا يُغَرُّ بِفَلَسَفَةٍ وَلَا تَزْيِينٍ، وَلَا يُسَكِّتُهُ مَا تُسَوِّلُ الْنَفْسُ^(٣)، وَلَا يَزَالُ دَائِمًا يَقُولُ لِلْإِنْسَانِ فِي قَلْبِهِ: إِنَّ الْخَطَأَ أَكْبَرَ الْخَطَأِ أَنْ تَنْظُمَ الْحَيَاةَ مِنْ حَوْلِكَ وَتَتْرَكَ الْقَوَاضِيَ فِي قَلْبِكَ.

وَجَمَلَةُ الْقَوْلِ فِي مَعَانِي النِّيَّةِ أَنَّهَا قُوَّةٌ تَجْعَلُ بَاطِنَ الْجِسْمِ مُتَسَاوِقًا مَعَ ظَاهِرِهِ، فَتَتَعَاوَنُ الْغَرَائِزُ الْمَخْتَلِفَةُ فِي الْنَفْسِ تَعَاوُنًا سَهْلًا طَبِيعِيًّا مُطَرِّدًا، كَمَا تَتَعَاوَنُ أَعْضَاءُ الْجِسْمِ عَلَى اخْتِلَافِهَا فِي أَطْرَادٍ وَسَهْوَلَةٍ وَطَبِيعَةٍ.

(١) يُذْعِنُ: يَخْضَعُ.

(٢) يَطْمَسُ: يَغْطِي.

(٣) تُسَوِّلُ الْنَفْسُ: تَوَسَّسُ.

وكل صفات النبي ﷺ - ممّا ذكرناه وما لم نذكره - متى اعتُبرت بذلك الأصل الذي بيّناه أنظمتها جميعاً، فجاء بعضها تماماً على بعضٍ في نسقٍ رياضيٍّ عجيب، وظهرت حكمة كل منها واضحة مكشوفة، ورأيتها في مجموعها تصف لك عمراً هندسياً دقيقاً قد بلغ الغاية من الكمال والروعة والدقة، لا يعدّ جزء منه جزءاً، بل كلّ أجزاؤه، وأجزاؤه كلّ؛ كالوضع الهندسي: إمّا أن يكون بكّله، وإمّا ألا تكون فيه الهندسة كلّها.

وليس مجموع تلك الصفات في معناه إلا صنعة الإنسان صنعة جديدة تُخرجه موجوداً من ذات نفسه، وتكسرُ القالب الأرضي الذي صُب فيه وتفرّغه في مثل قالب الكون، فإذا هو غير هذا الإنسان الضيق المنحصر في جسمه ودواعي جسمه، فلا تخضعه المادة، ولا يؤتى من سوء نظره لنفسه، ولا تغرّه^(١) الدنيا، ولا يمسكه الزمان؛ إذ كانت هذه هي صفات المستعبد بأهوائه لا الحرّ فيها، والخاضع بنفسه لا المستقل بها، والمقبور في إنسانيته لا الحيّ فوق إنسانيته؛ ومثل هذا المستعبد الخاضع المقبور لا وجود له إلا في حكم حواسه، فعمله ما يعيش به لا ما يعيش من أجله؛ ويتصل بكل شيء اتصالاً مبتوراً^(٢) ينتهي في هوى من أهواء الحيوان الذي فيه.

ومن المقابلة العجيبة أن يكون في الإنسان الاجتماعي حيواناً، تُقابله الحكمة في الحيوان الأليف بإنسان، وحكمها واحد ومنطقهما لا يختلف. فلو أنك سألت حيوان الأعصاب عن صاحبه الإنسان لقال لك: هو غلتي ومزرتي. ولو سألت كلباً عن حبه صاحبه ومبلغ هذا الحب في نفسه لما زاد في جوابه على أنه يحبه حبّ اللقمة والعظمة..

ومتى كان الإنسان في حكم حواسه لم تعد الأشياء عنده كما هي في نفسها بمعانيها الطبيعية المحدودة، وأنقلبَت كما هي في وهمه بمعانٍ متفاوتة مضطربة، فلا يشعر المرء بأتلاف الوجود وتعاونيه، ولكن باختلافه وتناقضه، فمن ثم لا تكون أسباب اللذة إلا من أسباب الألم، ويدخل في كل حب بغض، وفي كل رغبة طمع، وفي كل خير شر، وفي كل صريح خبيء، وهلمّ جزاً؛ إذ لا بدّ من هذا كلّ متى غلب ألفاني على الباقي، ولا بدّ من كلّ هذا في تمثيل رواية الحواس الخادعة

(١) تغرّه: تخدعه.

(٢) مبتوراً: مقطوعاً.

التي أساسها التغير والتقلب، حتى لَكَانَ النَّفْسُ إِنَّمَا تعيشُ بها في ظاهرٍ مِنَ الحَيَاةِ لا في الحَيَاةِ نفسِها.

وهذا الخِداغُ جاعِلٌ كُلَّ شَيْءٍ من أَشْيَاءِ النَّفْسِ لا يَبْدَأُ إِلَّا لِيَنْتَهِيَ، ثُمَّ لا يَنْتَهِي إِلَّا لِيَبْدَأَ؛ فما تَزَالُ هذه النَّفْسُ طامِعَةً فيما لا تَنَالُهُ، ولا يَزَالُ من ذلك مُصَدِّرٌ لآلِمِهَا الْحِسِّيَّةِ؛ ثم إذا هي نَالَتْ مَنَالَتِهَا سَيِّمَتْ، فلا يَزَالُ من ذلك مُصَدِّرٌ آخَرُ لآلِمِهَا الْمَعْنَوِيَّةِ. ولن يَجِيءَ الصَّحِيحُ من غيرِ الصَّحِيحِ؛ فالكَوْنُ كُلُّهُ لَيْسَ إِلَّا كَذِباً في النَّفْسِ الْكَاذِبَةِ بِحَوَاسِّهَا.

ولذا كَانَ أَخْصُ أَوْصَافِهِ ﷺ راجِعاً إلى خُرُوجِهِ من سُلْطَانِ نَفْسِهِ، فلا يَغْضَبُ لَهَا، ولا يُطْلِقُهَا مِنَ الدُّنْيَا فيما تَذُمُّهُ أو تَمْدَحُهُ، ولا يُحِبُّ فِيهَا، ولا يُبْغِضُ من أَجْلِهَا، ولا يُهَاجِرُهَا، ولا يَسْتَلِينُ لَهَا في مَأْكُلٍ ولا مَلْبَسٍ، ولا يَأْخُذُهَا إِلَّا من نَاحِيَةِ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالْإِيمَانِ بِالْإِنْسَانِيَّةِ؛ فَأَفْرَاحُهَا أَحْزَانُهَا، وَأَمَالُهَا أَشْوَاقُهَا، وَأَمَلَاكُهَا أَعْمَالُهَا، وَحِسَابُهَا في طَبِيعَتِهَا، وَحَوَادِثُهَا مِنَ الْعَقْلِ لا مِنَ الْحَوَاسِّ، وَعَظَمَتُهَا إِبْثَاتُ ذَاتِهَا في غَيْرِهَا، لا إِبْثَاتُ غَيْرِهَا في ذَاتِهَا؛ وَغَايَتُهَا في الْبَاقِي لا الْزَائِلِ، وفي الْخَالِدِ لا الْفَانِي، وما دَامَ الْحَاضِرُ مُتَحَرِّكاً فهو طَارِئٌ عَابِرٌ أَوْشَكُ أُمُورِ الدُّنْيَا زَوَالاً، وَالْعَمَلُ لَهُ على مَقْدَارِهِ في قِلَّةِ لُبِّهِ^(١) وَهَوَانِ أَمْرِهِ، وَالْأَهْتِمَامُ أَبَدًا بِمَا وَرَاءَهُ لا بِهِ.

فأولُ النَّفْسِ النِّيَّةُ الْعَامِلَةُ لِآخِرَتِهَا، وَآخِرُ النَّفْسِ ما تُؤَدِّي إِلَيْهِ أَعْمَالُ هذه النِّيَّةِ؛ فَلَيْسَ في إِنْسَانِ الدُّنْيَا إِلَّا إِنْسَانُ الْعَالَمِ الْآخِرِ؛ وبهذا يُقَدَّرُ صَمْتُهُ وَكَلَامُهُ، وَحَرَكَتُهُ وَسُكُونُهُ، وما يَأْتِي وما يَدَعُ، وما يُحِبُّ وما يَكْرَهُ، إذ كُلُّ شَيْءٍ مِنْهُ على ذلك أَلَا عِتَابٌ إِنَّمَا هو صُورَةُ الْحَقِيقَةِ الْعَامِلَةِ فِيهِ.

وَجَمَاعُ الْأَمْرِ^(٢) أَلَا يَكُونُ مُسْتَقْبَلُ الْإِنْسَانِ عِلَامَةً أَسْتَهْزَأُ بِجَانِبِ مَاضِيهِ، ولا عِلَامَةً أَسْتَفْهَمُ، ولا عِلَامَةً أَنْكَارُ.

وتدلُّ صِفَاتُ النَّبِيِّ ﷺ بِاجْتِمَاعِهَا وَتَسَاوُقِهَا^(٣) على حَقِيقَةِ عَظَمَى لِمَ يَتَنَبَّأُ إِلَيْهَا أَحَدٌ؛ وَهِيَ أَنَّ جَمِيعَ خِصَائِصِ النَّفْسِيَّةِ مُرَهَّقَةٌ^(٤) مَتِيقَّةٌ، وَهَذَا مِمَّا يَنْدُرُ

(١) لُبُّهُ: مَكْتَهُ، بَقَانَهُ.

(٢) جَمَاعُ الْأَمْرِ: الْخِلَاصَةُ.

(٣) تَسَاوُقُهَا: تَجَانُسُهَا.

(٤) مُرَهَّقَةٌ: مُتَعَبَةٌ.

وقوعه وإمكانه؛ فإنَّ الرجلَ منَ الناسِ ليَكونَ حيًّا بِالحياة، ولكنَّ جوانبَ كثيرةَ من نفسه قد طاحَ بها الموت، أو هي مريضةٌ وذلك أولُ الموت؛ أو غافلةٌ وذلك شِبهُ الموت؛ أمَّا الحيُّ العَظيمُ فهو الذي يحيا بِأكثَرِ خصائصِ نفسه، وأمَّا الحيُّ الأعظمُ فهو الذي يحيا بِجميعِ خصائصها، تملؤه الحياةُ فيملاً الحياةَ، ويتمدُّ السُرُّ فيه لِيريه حقائقَ الأشياءِ ويَهْدِيه ويدلُّه، فيكونُ بنفسِه رؤيةً لِلناسِ وهدايةً ودلالةً؛ ومثُلُ هذا يعظمُ ثمَّ يعظمُ حتى ليرى الفرقَ بينَهُ وبينَ غيره كالفِرْقِ بينَ نورِ لَبَسِ اللَّحْمِ والدَّمِ، وبينَ ثرابِ لَبَسِ الدَّمِ واللحمِ.

وذلك لا يَكاذُ يَتَفَقُّ إلَّا في مراتبِ أعلاها أَلَمَيازُ في النبوةِ، ثمَّ تدنو إلى النبوةِ؛ ثمَّ تنزِلُ إلى أَلَمَيازُ في الحِكْمَةِ؛ ثمَّ تهبطُ إلى عبقريةِ الشَّعرِ. فأكبرُ الشَّعراءِ قاطبةً كالنبيِّ في معناه إلَّا أنَّه نبيٌّ صغير، وإلَّا أنَّه في حُدودِ قلبه.

وهذه أَلَمَيازُ الثلاثُ هي أَلَمَيازُ أَلَمَيازُ الحِكْمَةِ الإلهيةِ لِتحويلِ الحياةِ والسَّموِّ بها؛ فالشَّاعرُ يستوحي الجمالَ إذا تألَّهَ الجمالُ في قلبه، وألْحِكِمُ يستوحي الحقيقةَ إذا تألَّهَتْ في نفسه، والنَّبِيُّ يستوحي أَلَمَيازُ نفسه.

«كان ﷺ متواصلَ الأَحزانِ» ولكنَّها أَحزانُ النبوةِ تكسو الحياةَ فرحَ النفسِ الكبيرةِ؛ وهو فرحٌ كُلُّهُ حزنٌ وتأمُّلٌ، وفكرةٌ وخشوعٌ، وطَهْرٌ وفضيلةٌ؛ وما فرحُ أعظمِ الشَّعراءِ بِطَرَبِ الوجودِ وجمالِ الموجوداتِ إلَّا شيءٌ قليلٌ من حزنِ النَّبيِّ.

«وكان دائمَ الفِكرَةِ لِسِتِّ لَهُ راحةٍ» إذ هو مكَلَّفٌ أن يصنَعَ الإنسانَ الجَديدَ ويُفَنِّحَ^(١) أَلَمَيازُ فيه. وفكرةُ النَّبيِّ هي معيشتهُ بنفسِه مَعَ الحقائقِ أَلَمَيازُ، إذ لا يرى أَكثَرها تعيشُ في الناسِ، وهي أَلَمَيازُ وأستقلالُها وسَموُّها؛ لأنَّها إِطاعةُ النفسِ الكبيرةِ لِوحدتها، بِخِلَافِ الأَنفُسِ الضَّعيفةِ التي لا تُطيقُها، فدأبُها أَلَمَيازُ أن تبَحَثَ عَمَّا تَسْتَعِيدُ لَهُ، أو تَنسى ذاتها فيه، أو تستريحُ إِلَيهِ من ذاتها. ومتى كَانَتِ النفسُ فارغةً كَانَتِ فِكرُها مضاعفةً لِفراغها، فهي تفرُّ منه إلى ما يُلْهِمها عنه؛ ولكنَّ العَظيمَ يعيشُ في أَمْتلاءِ نفسه؛ وعالمُهُ أَلَمَيازُ تُسمِّيهِ أَلَمَيازُ أَلَمَيازُ: الفِكرةُ؛ وتُسمِّيهِ أَلَمَيازُ: الصمت.

«وكان ﷺ طَوِيلَ السَّكْتِ لا يتكلَّمُ في غيرِ حاجةٍ»، ومنَ الصَّمتِ أنواع:

(١) ينقح: يميّز بين الجيد والردىء.

فَنَوْعٌ يَكُونُ طَرِيقَةً مِنْ طَرِيقِ الْفَهْمِ بَيْنَ الْمَرءِ وَبَيْنَ أَسْرَارِ مَا يُحِيطُ بِهِ ؛ وَنَوْعٌ يَغْشَى الْإِنْسَانَ الْعَظِيمَ لِيَكُونَ عَلَامَةً عَلَى رَهْبَةِ السِّرِّ الَّذِي فِي نَفْسِهِ الْعَظِيمَةِ ؛ وَنَوْعٌ ثَالِثٌ يَكُونُ فِي صَاحِبِهِ طَرِيقَةً مِنْ طُرُقِ الْحُكْمِ عَلَى صَمْتِ النَّاسِ وَكَلَامِهِمْ ؛ وَنَوْعٌ رَابِعٌ هُوَ كَالْفَصْلِ بَيْنَ أَعْمَالِ الْجَسَدِ وَبَيْنَ أَلْسُونِ فِي سَاعَةِ أَعْمَالِهَا ؛ وَنَوْعٌ خَامِسٌ يَكُونُ صَمْتًا عَلَى دَوِيٍّ تَحْتَهُ يُشَبِّهُ نَوْمًا سَاكِنًا عَلَى أَحْلَامٍ جَمِيلَةٍ تَتَحَرَّكُ .

عَلَى هَذَا الَّتَمَطِ يَجِبُ أَنْ تُفَسَّرَ كُلُّ أَوْصَافِهِ ﷺ ؛ فَهِيَ بِمَجْمُوعِهَا طَائِعٌ إِلَهِيٌّ عَلَى حَيَاتِهِ الشَّرِيفَةِ ، يُثَبِّتُ لِلدُّنْيَا بِكُلِّ بَرَاهِنَاتِ الْعِلْمِ وَالْفَلَسَفَةِ أَنَّهُ الْإِنْسَانُ الْأَفْضَلُ ، وَأَنَّهُ الْأَقْدَرُ ، وَأَنَّهُ الْأَقْوَى .

سُمُّ الْفَقْرِ فِي الْمَصْلَحِ الْاجْتِمَاعِيِّ الْأَعْظَمِ

١

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مَا يَصِفُ التَّارِيخُ مِنَ الْفَقْرِ وَالْقِلَّةِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ بِطَبِيعَتِهِ فَوْقَ الْأَسْتِغْنَاءِ، فَهُوَ فَقِيرٌ لَا يَجُوزُ أَنْ يُوصَفَ بِالْفَقْرِ، وَلَا تَنَالُهُ الْمَعَانِي النَّفْسِيَّةُ الَّتِي تَعْلُو بَعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا وَتَنْزِلُ بَعَرَضٍ، فَمَا كَانَتْ بِهِ خَلَّةٌ تُحْدِثُ هَذَا فِي الْحَيَاةِ فَيَرْمُمُهَا أَلْمَالُ^(١)، وَلَا كَانَ يَتَحَرَّكُ فِي سَعْيٍ يُتَّفَقُ فِيهِ مِنْ نَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ لِيَجْمَعَ مِنَ الدُّنْيَا، وَلَا كَانَ يَتَقَلَّبُ بَيْنَ الْبَعِيدِ وَالْقَرِيبِ مِنْ طَمَعٍ أَدْرَكَ أَوْ طَمَعٍ أَخْفَقَ، وَلَا نَظَرَ لِنَفْسِهِ فِي الْحِسْبَةِ وَالتَّدْبِيرِ لِيَتَدَبَّرَ مَعِيشَتَهُ فَيَحْتَلِبَهَا^(٢) ذَهَبًا أَوْ فِضَّةً، وَلَا أَسْتَقَرَّ فِي قَلْبِهِ الْعَظِيمُ مَا يَجْعَلُ لِلدِّينَارِ مَعْنَى الدِّينَارِ وَلَا لِلدَّرْهَمِ مَعْنَى الدَّرْهَمِ؛ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْحَيَّ لِهَذَا الْمَالِ هُوَ إِظْهَارُ النَّفْسِ رَابِئَةً مُتَجَسِّمَةً فِي صُورَةٍ تَكْبُرُ فِي قَدْرِ مِنَ السَّعَةِ وَالْغِنَى؛ وَالْمَعْنَى الْحَيُّ لِلْفَقْرِ مِنَ أَلْمَالِ هُوَ إِبْرَارُ النَّفْسِ ضَائِلَةً مَنْزُوتَةً فِي صُورَةٍ تَصْغُرُ عَلَى قَدْرِ مِنَ الضُّيْقِ وَالْعُسْرَةِ.

إِنْ فَقَرَهُ ﷺ كَانَ مِنْ أَنَّهُ يَتَّسِعُ فِي الْكُونِ لَا فِي أَلْمَالِ، فَهُوَ فَقْرٌ يُعَدُّ مِنْ مُعْجَزَاتِهِ الْكُبْرَى الَّتِي لَمْ يَتَنَبَّأْ إِلَيْهَا أَحَدٌ إِلَى الْآنَ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهِ وَمِنْ أَيْنَ تَدَبَّرْتَهُ رَأَيْتَهُ فِي حَقِيقَتِهِ مُعْجَزَةٌ تَوَاضَعَتْ وَغَيَّرَتْ أَسْمَاءَهَا؛ مُعْجَزَةٌ فِيهَا الْحَقَائِقُ النَّفْسِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ الْكُبْرَى، وَقَدْ سَبَقَتْ زَمَنُهَا بِأَرْبَعَةِ عَشَرَ قَرْنًا، وَهِيَ الْيَوْمَ تُثَبَّتُ بِالْبَرْهَانِ مَعْنَى قَوْلِهِ ﷺ فِي صِفَةِ نَفْسِهِ: «إِنَّمَا أَنَا رَحْمَةٌ مُهْدَاةٌ».

نَحْنُ فِي عَصْرِ تَكَادُ الْفَضِيلَةُ الْإِنْسَانِيَّةُ فِيهِ تَلْحَقُ بِالْأَلْفَاظِ التَّارِيخِيَّةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى مَا كَانَ قَدِيمًا... بَلْ عَادَتْ كَلِمَةٌ مِنْ كَلِمَاتِ الشَّعْرِ تُرَادُّ لِتَحْرِيكِ النَّاسِ

(١) يَرْمُمُهَا الْمَالُ: يَصْلَحُهَا.

(٢) يَحْتَلِبُهَا: يَسْتَخْرِجُ مِنْهَا.

الَّلَّغُوِيَّ الرَّاكِدِ فِي الْخِيَالِ، كَمَا تَقُولُ: السَّحَابُ الْأَزْرَقُ، وَالْفَجْرُ الْأَبْيَضُ، وَالشَّفَقُ الْأَحْمَرُ، وَالَّتَطَارِيفُ^(١) الرُّورْدِيَّةُ عَلَى ذَيْلِ الشَّمْسِ. وَأَصْبَحَ النَّاسُ يَنْظُرُ أَكْثَرُهُمْ إِلَى أَكْثَرِهِمْ بِأَعْيُنٍ فِيهَا مَعْنَى وَحْشِيٌّ لَوْ لَمَسَ لَضَرْبَ أَوْ طَعَنَ أَوْ ذَبَحَ.

وَعَمِلَتِ الْمَدِينَةُ أَعْمَالَهَا فَلَمْ تَزِدْ عَلَى أَنْ أُخْرِجَتِ الشَّكْلَ الشَّعْرِيَّ لِإِنْسَانِهَا الْفَنِّيِّ مُتَهَافِتًا^(٢) تَرْفًا، وَنِعْمَةً، وَأَفْتَتَانًا بَيْنَ ذَلِكَ مِنْ أَيْسَرِ الْحَلَالِ إِلَى الْفُطَيْعِ الْمُتَفَاحِشِ فِي الْإِبَاحَةِ؛ فَكَأَنَّمَا وَضَعَتِ الْمَدِينَةُ عَقْلًا فِي وَحْشٍ، فَجَاءَ وَقَدْ زَاغَتْ^(٣) فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ؛ ثُمَّ قَابَلَتْهُ بِالشَّكْلِ الْوَحْشِيِّ لِإِنْسَانِهَا الْفَقِيرِ، فَكَأَنَّمَا تَزَعَّتْ عَقْلًا مِنْ إِنْسَانٍ، فَجَاءَ وَقَدْ ضَلَّتْ فِيهِ الطَّبِيعَةُ مِنْ نَاحِيَتَيْنِ؛ وَكَانَ مَعَ الْأَوَّلِ سَرَفُ الْهَوَى بِالطَّبِيعَةِ، وَكَانَ مَعَ الثَّانِي بِالطَّبِيعَةِ سَرَفُ الْحِمَاقَةِ.

وَقَدْ أَصْبَحَ مِنْ تَهْكُمِ الْحَيَاةِ بِأَهْلِهَا أَنْ يَكُونَ الْفَقِيرُ فَقِيرًا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ صِنَاعَتَهُ فِي الْمَدِينَةِ عَمَلٌ الْغَنِيِّ لِلْأَغْنِيَاءِ... وَأَنْ يَكُونَ الْغَنِيُّ غَنِيًّا وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّ عَمَلَهُ فِي الْمَدِينَةِ هُوَ صِنْعَةُ الْفَقْرِ لِضَمِيرِهِ!

وُخْرِجَتْ مِنْ هَذَا وَذَلِكَ مَسَائِلُ جَدِيدَةٌ فِي فِلْسَفَةِ الْمُعَايِشَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ الَّتِي يَسْمُونَهَا «الْإِجْتِمَاعُ»؛ إِلَى أَسْئَلَةٍ كَثِيرَةٍ لَوْ ذَهَبْنَا نَعْدُهَا وَنَصِفُهَا لَطَالَ بِنَا الْقَوْلَ، وَكَلَّهَا عَامِلَةٌ عَلَى نَزْعِ الشُّعُورِ الْعَقْلِيِّ مِنْ الْحَيَاةِ لِتُظْهَرَ أَسْخَفَ مِمَّا هِيَ، وَأَقْبَحَ مِمَّنْ كَانَتْ؛ حَتَّى أَصْبَحَتِ الشَّمْسُ تَطْلُعُ تَمَحُّو لَيْلًا عَنِ الْمَادَةِ وَتُلْقِي لَيْلًا عَلَى النَّفْسِ، فِي حِينِ أَنْ الدِّينَ وَالْإِنْسَانِيَّةَ لَا يَعْمَلَانِ غَيْرَ بَثِّ هَذَا النُّورِ الْعَقْلِيِّ فِي الْأَشْيَاءِ وَالْمَعَانِي لِتُظْهَرَ الْحَيَاةُ مُضِيئَةً مُلْتَمِعَةً، فَتُصْبِحُ أَوْضَحَ مِمَّا هِيَ فِي نَفْسِهَا، وَأَجْمَلَ مِمَّا هِيَ فِي الطَّبِيعَةِ.

فِي مِثْلِ هَذِهِ النِّزَعَاتِ الْمُتَقَاتِلَةِ الَّتِي صَعِدَتْ بِالْفِلْسَفَةِ وَنَزَلَتْ، وَجَعَلَتْ مِنَ الْعِلْمِ فِي صَدْرِ الْإِنْسَانِيَّةِ مِلءَ سَمَاءٍ مِنَ الْغُيُومِ بِسَوَادِهَا وَرَغْدِهَا وَصَوَاعِقِهَا، وَتَرَكَّتِ الْعَالَمَ يَضْجُ ضَجِيجُهُ الْمَزْعَجَ فِي قَلْبِ كُلِّ حَيٍّ حَتَّى لَتَدَاعُ الْهَمُومُ إِلَى قُلُوبِ النَّاسِ إِذَاعَةُ الْأَصْوَاتِ إِلَى أَسْمَاعِهِمْ فِي «الرَّادِيُو»... فِي مِثْلِ هَذَا الْبَلَاءِ الْآمَاحِقِ تَتَلَفَّتِ الْإِنْسَانِيَّةُ إِلَى التَّارِيخِ تَسْأَلُهُ دَرْسًا مِنَ الْكِمَالِ الْإِنْسَانِيِّ الْقَدِيمِ تَطْبُ مِنْهُ لِهَذِهِ الْحِمَاقَاتِ الْأَجْدِيدَةِ، وَلَوْ عَلِمَتْ لَعَلِمَتْ أَنَّ دَرْسَ هَذَا الْعَصْرِ فِي عِلَاجِ مَشَاكِلِهِ

(١) التَّطَارِيفُ: الْإِشْعَاعَاتُ.

(٢) مُتَهَافِتًا: مُتَسَارِعًا مُتَهَالِكًا.

(٣) زَاغَتْ: مَالَتْ انْحَرَفَتْ.

الإنسانية هو «محمد» ﷺ، الذي لن يبلغ أحد في وصفه الاجتماعي ما بلغ هو في قوله: «إنما أنا رحمة مهداة».

هذا المصلح الاجتماعي الأعظم يلقي فقره اليوم درساً على الدنيا العلمية الفلسفية، لا من كتاب ولا فكر، ولكن بأخلاقه وعمله وسيرته؛ إذ ليس المصلح من فكر وكتب، ووعظ وخطب، ولكنه الحي العظيم الذي تلمسه الفكرة العظيمة لتحيا فيه، وتجعل له عمراً ذهنيًا مُصرِّفاً على حكمها، فيكون تاريخه ووصفه هو وصف هذه الفكرة وتاريخها.

وما كان محمد ﷺ إلا عمراً ذهنيًا مخضاً، تمر فيه المعاني الإلهية لتظهر للناس إلهية مفسرة. وكل حياته ﷺ دروس مفننة مختلفة المعاني، ولكنها في جملتها تخاطب الإنسان على الدهر بهذه الجملة: أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك: أي إذا كانت الحياة في الحقيقة فلا تكن أنت في الكذب، وإذا كانت الحياة في الرجولة البصيرة فلا تكن في الطفولة النزقة^(١)، فإن الرجل يعرف ويدرك، فهو بذلك وراء الحقيقي؛ ولكن الطفل يجهل ولا يعرف الدنيا إلا بعينه، فهو وراء الوهم، ومن ثم طيشه ونزقه، وإثاره كل عاجل وإن قل، وعمله أن تكون حياته النفسية الضئيلة في مثل توثب أعضاء جسمه، حتى كأنه أبداً يلعب بظاهره وباطنه معاً...

أيها الحي، إذا كانت الحياة هنا فلا تكن أنت هناك: أي الحياة في ذاتك الداخلية وقانون كمالها، فإذا استطعت أن تخرج للأرض معنى سماوياً من ذاتك فهذا هو الجديد دائماً في الإنسانية، وأنت بذلك عائش في القريب القريب من الروح، وأنت به شيء إلهي؛ وإذا لم تستطع وعشت في دمك وأعصابك فهذا هو القديم دائماً في الحيوانية، وأنت بذلك عائش في البعيد البعيد من النفس، وأنت به شيء أرضي كالحجر والتراب.

هنا: أي في الإرادة التي فيك وحدك. ولا هناك: أي في الخيال الذي هو في كل شيء. وهنا، في أخلاقك وفضائلك التي لا تدفعك إلى طريق من طرق الحياة إلا إذا كان هو بعينه طريقاً من طرق الهداية والحكمة؛ وليس هناك، في أموالك ومعاشيك

(١) النزقة: الطائشة المنحرفة.

التي تجعلك كاللصّ مندفعاً إلى كل طريق متى كان هو بعينه طريقاً إلى نَهْبة أو سرقة .
هنا، في الروح، إذ تشعرُ أَلُروحُ أنَّها موجودة، ثم تعملُ لِثَبَّتِ أَنَّها شاعرةٌ بوجودِها،
ماضيةً إلى مصيرِها، منتهيةٌ بجسديها إلى الموتِ الإنساني على سُنَّةِ النفسِ الخالدة؛
وليسَ هناك في أَلَحْسِ، إذ يتعلّقُ أَلَحْسُ بما يتقلّبُ على الجسمِ، فهو مهتاجٌ لِشعوره
بَوَشِكِ فَنائِهِ فلا يُحَدِّثُ إِلَّا أَلَأَمَ إِنْ نَالَ أو لم ينلْ، وهو منتهٍ بجسومِهِ إلى أَلَموتِ
أَلحيوانيّ بينَ أَكَلٍ ومَأْكولٍ على سُنَّةِ الطبيعةِ الفانية .

أيُّها أَلحيّ، إذا كانتِ أَلحياةُ هنا فلا تَكُنْ أنتَ هناك .

إِنَّ أَلْحَكِيمَ الَّذِي ينظرُ إلى ما وراءَ أَلأشياءِ فيتعرّفُ أسرارَها، لا تكونُ لَهُ حياةٌ
الذي يتعلّقُ بظاهرها ولا أخلاقُهُ ولا نظرتُهُ؛ هذا أَلأخيرُ هو في نفسِهِ شيءٌ مِنْ
أَلأشياءِ له مظهرُ أَلَمادةٍ وخِداعُها عنِ أَلْحَقِيقَةِ؛ وذلكَ الأَوَّلُ هو نفسُهُ سرٌّ مِنْ
أَلأسرارِ له رَوْعَةُ السِّرِّ وكشفُهُ عنِ أَلْحَقِيقَةِ . ولهذا كانَ في حياةِ أَلأنبياءِ وأَلحكماءِ ما
لا يُطِيقُهُ أَلنَّاسُ ولا يَضْطِيطُونَهُ إذا تكلّفوه، بل يَنحَرِقُ عليهم فيكونُ منه أَلعجزُ
وَالْعَلَطُ، ويحدثُ مِنْ أَلغلطِ الزَّلَلِ .

ونظرةُ نَبِينِنَا ﷺ إلى هذا الوجودِ نظرةٌ شاملةٌ مدركةٌ لِحَقِيقَةِ أَللأنهايةِ، فيرى
بدايةَ كُلِّ شيءٍ ماديٍّ هي نَهايتُهُ في أَلتَوُّ وأَللحظةِ، فلا وجودَ لَهُ إلا عارِضاً ماراً،
فهو في أَعْتبارِهِ موجودٌ غيرُ موجودٍ، مبتدئٌ مُنتَهٍ معاً؛ وبذلكَ تَبْطُلُ عِنْدَهُ أَلأشياءُ
أَلماديةٌ وتأثيرُها، فلا تتصلُ بنفسِهِ أَلعاليةِ إِلَّا مِنْ أَضْعَفِ جَهاَتِها، ويجدُ لها أَلنَّاسُ
في حياتِهِمُ أَلشجرةَ والفِرْعَ وأَلثمرةَ، وما لَهَا عِنْدَهُ هو جِذْرٌ ولا فرعٌ؛ وبهذا لم يَفْتِنَهُ
شيءٌ ولم يتعلّقَ بِهِ شيءٌ .

وكانتِ أَلدنيا تطولُ أَلنَّاسَ وتتقاصرُ عنه، وكانتِ منقطعةُ النِّماءِ وهو ذاهبٌ في
نموهِ أَلروحيّ، وكأنَّما هو صورةٌ أخرى مِنْ أَدَمَ (عليه السلام)؛ فكلاهما لَمَسَ
بنفسِهِ أَلحياةَ جديدةً خاليةً مِمَّا جمَعَ فيها الزَّمَنُ وأَهْلُهُ مِنْ طمعٍ وشرٍّ، وجاءَ أَدَمُ
لِيُعْطِيَ أَلأَرْضَ ناسَها مِنْ صُلْبِهِ، وجاءَ مُحَمَّدٌ لِيُعْطِيَ أَلنَّاسَ قَوانينَهُمْ مِنْ فضاءِلِهِ؛
فأَدَمُ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَتْ لِتَتَّسِعَ، ومُحَمَّدٌ بشخصِهِ هو دنيا بُعِثَتْ لِتُنْتَظَمَ .

وماذا يُفْهَمُ مِنْ أَلْفَلَسَفَةِ أَلأَخلاقِيَّةِ أَلنَّبَوِيَّةِ أَلْعَظِيمَةِ؟ يُفْهَمُ مِنْها أَنَّ أَلشَّهَواتِ
خُلِقَتْ معَ أَلإنسانِ تتحكَّمُ فيه، لِينقلَبَ بها إنساناً يتحكَّمُ فيها؛ وأنَّ أَلإنسانَ

الصحيح الذي لم تُزَوِّه الدنيا يجب أن يكون ذا روح يمتد فيفيض عن غايات جسمه إلى ما هو أعلى فأعلى حتى يصبح في حكم النور وأنطلاقه وحرية، ولا ينكمش فيحصره جسمه في غاياته وضروراته فيرتد إلى ما هو أسفل أسفل حتى يعود في حكم التراب وأسرِهِ وعبوديته. فالفقير وما إليه، والزاهد وما هو بسبيل منه، والأنصراف عن الشهوات والرذائل - كل ذلك إن هو إلا تراجع النفس العالية إلى ذاتها النورانية حالاً بعد حال، وشيئاً بعد شيء، لتضيء على المادة فتكشف حقائقها الصريحة فلا تُباليها ولا تُقيم لها وزناً. فبينما الناس يرون الأموال والشهوات مادة حياة وعمل وشعور، تراها هي مادة بخت ومعرفة وأعتبار ليس غير؛ وبهذا تكون النفس العظيمة في الدنيا كأستاذ المعلم: تدخل المادة إلى معلمه وهي مادة وفكرة، وتخرج منه وهي حقيقة ومعرفة، وعلى أي أحوالها فهي إنما تُحس في ذلك المعلم بأصابع علمية دقيقة ليس فيها الجمع ولا الجزص، ولكن فيها الذهن والفكر؛ وليس لها طبيعة الرغبة والغفلة، ولكن طبيعة الانتباه والتحرز، وليست في أسر المادة، ولكن المادة في أسرها ما شاءت.

ولا يسمى فقره ﷺ زهداً كما يظن الضعفاء ممن يتعلقون على ظاهر التاريخ ولا يحققون أصوله النفسية؛ وأكثرهم يقرأ التاريخ النبوي بأرواح مظلمة تربهم ما ترى العين إذا ما اختلط الظلام ولبس الأشياء فتراءت مُجَمَّلَةٌ لا تفصيل لها، مُفَرَّغَةٌ لا تبيين فيها؛ وما بها من ذلك شيء، غير أنها تتراءى في بقية من البصر لا تغمرها.

وهل الزهد إلا أن تطرد الجسم عنك وهو معك، وتنصرف عنه وهو بك متعلق؟ فتلك سُخْرِيَةٌ ومُثَلَّةٌ، وفي رأيي تشوية للجسم بروحه، وقد تنعكس فتكون من تشويه الروح بجسمها؛ فليس يعلم إلا الله وحده: أذاك تفسير لإنسانية الزاهد بالنور، أم هو تفسير بالتراب...

ولقد كان ﷺ يملك المال ويجده، وكان أجود به من الريح المرسلة، ولكنه لا يدعه يتناسل^(١) عنده، ولا يتركه يثبت في عمله، وإنما كان عمله ترجمة لإحساسه الروحي؛ فهو رسول تعليمي، قلبه العظيم في القوانين الكثيرة من واجباته، وهو يريد إثبات وحدة الإنسانية، وأن هذا الإنسان مع المادة الصامتة

(١) يتناسل: يتكاثر.

العمياء مادة مفكرة مميزة، وأن الدين قوة روحية يلقي بها المؤمن أحوال الحياة فلا يثبت بإزائها شيء على شئيته، إذ الروح خلود وبقاء، والمادة فناء وتحول، ومن ثم تخضع الحوادث للروح المؤمنة وتتغير معها، فإن لم تخضع لم تخضعها، وإن لم تتغير الروح بها؛ وأساس الإيمان أن ما ينتهي لا ينبغي أن يتصرف بما لا ينتهي. ما قيمة العقيدة إلا بصدقها في الحياة، وأكثر ما يصنع هذا المال: إما الكذب الصراح في الحياة، وإما شبهة الكذب؛ ولهذا تنزه النبي ﷺ عن التعلق به، وزاده بعداً منه أنه نبي الإنسانية ومثلها الأعلى، فحياته الشريفة ليست كما نرى في الناس: إيجاداً لحلّ مسائل الفرد وتعقيداً لمسائل غيره، ولا توسعاً من ناحية وتضييقاً من الناحية الأخرى، ولا جمعاً من هنا ومنعاً من هناك؛ بل كانت حياته بعد الرسالة منصرفة إلى إقرار التوازن في الإنسانية، وتعليم الجميع على تفاوتهم واختلاف مراتبهم كيف يكون لهم عقل واحد من الكون؛ وبهذا العقل الكوني السليم ترى المؤمن إذا عرض له الشيء من الدنيا يفتنه أو يصرفه عن واجبه الإنساني - أثبت نفسه العظيمة إلا أن ترتفع بطبيعتها، فإذا هو في قانون السموات، وإذا المادة في قانون الثقل؛ فيرتفع وتتهاوى^(١) ويصبح الذهب - وإنه ذهب - وليس فيه عند المؤمن إلا روح التراب.

(١) تهاوى: تسقط وترسب.

سمو الفقر في المصلح الاجتماعي الأعظم

٢

قالت عائشة (رضي الله عنها): لم يمتلئ جوف النبي ﷺ شبعاً قط، وإنه كان في أهله لا يسألهم طعاماً ولا يتشبهاء؛ إن أطعموه أكل، وما أطعموه قبل، وما سقوه شرب.

وقالت: ما شبع آل محمد من خبز الشعير يومين متتابعين حتى قبض رسول الله ﷺ.

وعنها: كنا آل محمد نمكث شهراً ما نستوقد بنار، إن هو إلا التمر وألماء. وقالت: ما رفع رسول الله ﷺ قط غداء لعشاء، ولا عشاء لغداء ولا اتخذ من شيء زوجين؛ لا قميصين، ولا ردائين، ولا إزارين، ولا زوجين من النعال. ويروى عنها، قالت: توفي رسول الله ﷺ وليس عندي شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي.

وقالت: توفي رسول الله ﷺ وذرعته مرهونة عند يهودي في ثلاثين صاعاً من شعير.

وعن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يبيت الليالي المتتابعة وأهله طاوياً^(١) لا يجدون عشاء، وإنما كان خبزهم الشعير.

وعن الحسن، قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: «والله ما أمسى في آل محمد صاع من طعام، وإنها لتسعة أبيات!» والله ما قالها استقلالاً، ولكن أراد أن تتأسى به أمته.

(١) طاوياً: جائعاً لم يأكل شيئاً.

وعن ابنِ مجير قال: أصابَ النبي ﷺ جُوعٌ يوماً، فعمد^(١) إلى حجرٍ فوضَعَهُ على بطنِهِ، ثم قال: «ألا رُبَّ نفسٍ طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا، جائعةٌ عاريةٌ يومَ القيامةِ؛ ألا رُبَّ مُكْرِمٍ نفسُهُ وهو مُهِينٌ لها؛ ألا رُبَّ مُهِينٍ نفسُهُ وهو مُكْرِمٌ لها».

وخَيْرٌ ﷺ أن يكونَ لَهُ مثلُ «أُحِدٍ» ذهباً فقال: «لا يا ربُّ؛ أجوعُ يوماً فأدعوك، وأشبعُ يوماً فأحمدُك!».

وكانَ يقولُ في دعائِهِ ويُكثِرُ منه: «اللهمَّ أخِني مُسْكِيناً، وأمِئني مُسْكِيناً، وأحْشُرْني في زُمرَةٍ^(٢) المساكين».

* * *

هذا هو سَيِّدُ الأَمةِ، يُمَسِّكُهُ في الحِياةِ نبياً عظيماً ما يُخرُجُ غيرَهُ منها ذليلاً محتقراً، وكأنَّما أشرقَ صفاءُ نفسِهِ على ترابِ الأَرْضِ فردَهُ أشعةُ نورٍ، على حينِ يُلقِي الناسُ على هذا الترابِ من ظلامِ أنفُسِهِم فلا يَبْقَى تراباً بل يرجعُ ظلاماً، فكأنَّهم إذ يمشونَ عليه يَطَوُّونَ المجهولَ بِخَوْفِهِ ورَوْعَتِهِ؛ ثم لا يستقرُّ ظلاماً بل يرجعُ آلاماً، فكأنَّهم يَنْبُتُونَ على المرضِ لا على الحِياةِ؛ ثم لا يثبتُ آلاماً بل يتحوَّلُ قُوَّةً وتوْباً تكونُ منه نَزَواتُ^(٣) الحَمَقِ والجَنونِ في النفسِ.

هؤلاء الذين تعيشُ أنفُسُهُم في الترابِ، ويتمرَّغون بأخلاقِهِم فيه، ينقلبون على الحِياةِ من صنعِ الترابِ ناساً ذوداً كطبيعِ الدُّودِ لا يَقَعُ في شيءٍ إلَّا أفسدَهُ أو قَدَّرَهُ؛ أو قوماً سُوساً كطبيعِ السُّوسِ لا يَنالُ شيئاً إلَّا نَحَرَهُ أو عابَهُ، فهم يوقِعُونَ الخَلَلَ في نظامِ أنفُسِهِم، فإذا هي طائِسةٌ تُخِيلُ لَهُم كأنما أَخْتَلَّتْ نوااميسُ الدنيا، وكأنَّ اللَّهَ قَبَضَهُم وبَسَطَ غيرَهُم، وشَغَلَهُم وَفَرَّغَ مِنْ عَداهِم، وأَبْتَلَاهُم على مُسْكَةِ الرزقِ^(٤) بالشَّهْوَةِ المَسعُورَةِ^(٥) الَّتِي لا تَحَقِّقُ، فَضَرَبَهُم بالمِجَاهِدَةِ الَّتِي لا تَنْقُطُ؛ وَأَنْعَمَ على غيرِهِم في بَسْطَةِ الرزقِ بالشَّجَرَةِ المَسحُورَةِ الَّتِي لا تُقَطِّعُ منها ثَمرةٌ إلَّا نَبَتَ غيرُها في مَكانِها.

إنَّ ما وصفناه من فقرِ النبي ﷺ، وأنَّهُ لم يكنْ لَهُ عَتِيدٌ حاضِرٌ، وأنَّهُ لم يجعلْ نفسَهُ في هَمِّ أَلَمالٍ، ولا جعلَتهُ نفسُهُ في هَمِّ الْفَقْرِ، وأنَّهُ لَقِيَ الحِياةَ حامِلاً لا

(١) عمد إلى حجر: أتى بحجر.

(٢) زمرة: جماعة.

(٣) نزوات: رغبات.

(٤) مُسْكَة الرزق: ضيق العيش.

(٥) الشهوة المسعورة: الجامحة.

محمولاً، وأستقرَّ فيها هادئاً لا مضطرباً - كلُّ ذلك إنما يُثبتُ لِلدنيا أَنَّهُ خُلِقَ وَبُعِثَ وعاشَ ليكونَ درساً عملياً في حلِّ المشكلات الاجتماعية، يُعلِّمُ الناسَ أَنَّهُ لا تتعقَّدُ بطبيعتها، ولكنَّ بطبائعهم فيها، ولا تستمرُّ بقوتها، ولكنَّ بإمدادِ قواهم لها؛ ولا تَغْلِبُ بصَوْلَتِها^(١)، ولكنَّ بجزعهم^(٢) منها؛ ولا تُعْضِلُ^(٣) من ذاتِ نفسها، ولكنَّ من سوءِ أثرهم عليها وسوءِ نظرهم لأنفسهم ولها.

فإذا قرأتَ الأحاديثَ التي أسلفناها فلا تقرأها زُهْداً وتقللاً، ولا فقراً وجوعاً، ولا اختلالاً وحاجة، كما تُترجمُها نفسك أو تُحسِّسها ضرورتك؛ بل أنظر فيها وأعَبِّرْها بنفسه هو ﷺ، ثم أقرأها شريعةَ اجتماعيةَ مُفضَّلةَ على طبيعةِ النفس، قائمةً على أن تأخذَ نفسُ الإنسانِ من قُوَى الدنيا عناصرَها الحيَّة، لِتُعْطِيَ الحياةَ من ذلك قوَّةَ عناصرها.

والحياةُ العاملةُ غيرُ الحياةِ الوادعة، هما ذكرٌ وأنثى؛ فأما الأولى فهي ما وصَّفنا وحكيها، وأما الثانيةُ فهي تغلُّلُ النعمة، وإطلاقُ قانونِ التناسلِ في المالِ يُنمِّي بعضُهُ بعضاً، ويَنبُتُ بعضُهُ على بعض، ثُمَّ إقامةُ الحياةِ على الزينةِ ومَقوِّماتِها، وقيامُ الزينةِ على الخِداعِ وطِباعه، فيُثْبِلُ المرءُ من دنياه على ما هو جديرٌ أن يصرفه عنها، ويُجِبُّ منها ما كان ينبغي أن يباغضه فيها. وكلُّ ما رأيتَ وعلمتَ في رجلٍ، قُوَّتُه القوَّةُ فهو هناك؛ وكلُّ ما علمتَ ورأيتَ في أنثى، قوتُها الضعفُ فهو هنا.

فالسوادُ الذي تراه في فقره ﷺ هو السوادُ الحيُّ؛ سوادُ الليلِ حولَ الروحِ النُجْميَّةِ الساطعة؛ وذلك الترابُ هو الترابُ الحيُّ؛ ترابُ الزرعِ تحتَ النُصرةِ والخُصرة؛ وتلك الحاجةُ الجسميَّةُ هي الحاجةُ الحيَّةُ الدافعةُ إلى حريَّةِ النفس؛ وذلك الإقلالُ من فَهْمِ اللذةِ هو الإقلالُ الحيُّ الذي يزيدُ قوَّةَ فَهْمِ الجمالِ في السَّماءِ والأرضِ وما بينهما، وذلك الضيقُ في حَيِّزٍ^(٤) المتاعِ للحاسةِ هو الضيقُ الحيُّ الذي يوسِّعُ حَيِّزَ المتاعِ للروحِ. وبالجملَةِ فذلك النقصُ مِنَ المادَّةِ لم يكنْ إلاَّ لنفيِ النقصِ عنِ التفضيلةِ، وذلك الاحتقارُ لِلعَرَضِ الفاني الزائلِ هو أَلَمعنى الآخرُ لِتقدِّيسِ الخالدِ الباقي.

(١) الصولة: الغلبة.

(٢) بجزعهم: تشد وتقوى.

(٣) تعضل: تشد وتقوى.

(٤) حَيِّز: ملك.

فليس هناك حُبُّ الشَّعِيرِ، ولا الجوعُ، ولا رهنُ الدرِّعِ عندَ اليهوديِّ . كلا، كلا، بل هناك حقيقةٌ نفسيَّةٌ عقليَّةٌ، ثابتةٌ متَّزنةٌ، قائمةٌ بعناصرِها السَّاميةِ: مِنَ اليقينِ والعقلِ والحِكمةِ، إلى الرِّفْقِ والجُلْمِ والتَّواضعِ، تُخبرُ هذه الدُّنيا العلميَّةُ الفلسفيَّةُ المفكِّرةُ أنَّ ذلك النَّبيَّ العَظِيمَ هو الرَّجُلُ الاجتماعيُّ التَّامُّ بأخلاقِهِ وفِضائِلِهِ، وهو الَّذي بُعِثَ لِتَنقيحِ غريزةِ تنازعِ البقاءِ، وكَسْرِ هذه الحيوانيَّةِ، وقَمْعِ^(١) نزواتِها، وإماتَةِ دَواعِيها، والسَّمُوِّ بخواطِرِها؛ فهو بِنَفْسِهِ صورةُ الكَمالِ الَّذي بُعِثَ لِتَحقيقِهِ وإثباتِ أنَّه الممكِنُ لا الممتنعُ، والحقيقيُّ لا الخياليُّ.

ليسَ هناك دِرْعٌ مرهونةٌ في ثلاثينَ صاعاً، ولا فقرٌ ولا خِبرُ الشَّعِيرِ . كلا، كلا، بل هناك تقريرٌ أنَّ النَّصرَ في معركةِ الحَيَاةِ لا يأتي مِنَ المَالِ والثَّراءِ والمَتاعِ، ولكنَّ مِنَ المَعاناةِ والشَّدَّةِ والصَّبْرِ؛ وأنَّ التَّقدَّمَ الإنسانيَّ لا يُباعُ بِيَعاً، ولا يُؤخَذُ هَوْناً^(٢)؛ بل هو اتِّزاعٌ مِنَ الحوادثِ بالأخلاقِ التي تتغلَّبُ على الأَزِماتِ ولا تتغلَّبُ الأَزِماتُ عليها، وأنَّ هذا المَالُ وهذه الشَّهوات - في حقائقِ الحَيَاةِ ومَصائِرِها - ككنوزِ الأحلامِ: لا تكونُ كُنوزاً إلَّا في مواضعِها من أرضِ الغفلةِ والنَّومِ، فلا لذَّةَ منها إلَّا بمقدارٍ خفيفٍ من هذه الغفلةِ . وليسَ إلَّا الأحمقُ أو المَخْذولُ أو الضَّائعُ هو الَّذي يقطعُ العَمَرَ نائماً أبداً لِيظلَّ مالِكاً أبداً لِهَذِهِ الكُنوزِ . وهو يَعْلَمُ أنَّه لا بدَّ من سَتيقْظٍ، وأنَّه متى أَنتَبِهَ في آخِرَتِهِ لم يجدَ منها شيئاً «ووجدَ اللَّهُ عِنْدَهُ فَوْقَهُ حِسَابَهُ» .

كلا، كلا، ليسَ هناك فقرٌ ولا جوعٌ وما إِلَيْهِما، بل هناك وَضْعٌ هذه الحَقِيقَةُ: يَنبغي أنْ تَجِدَ نَفْسَكَ، ومَوْضِعَ نَفْسِكَ، وإيمانَ نَفْسِكَ، وعِزَّةَ نَفْسِكَ . فإذا أدركْتَ ذلكَ ورفَعْتَ نَفْسَكَ إلى مَوْضِعِها الحَقِّ، وأقرَّزَتْها فيه، وحَبَسَتْها عليه، وَحَدَدَتْها بِالإنسانيَّةِ من ناحِيَةٍ وباللَّهِ مِنَ الناحِيَةِ المُقابِلَةِ - رَأَيْتَ إِذْنُ أنَّ قِيَمَتَكَ الصَّحيحةَ في أنْ تكونَ وَسيلَةً تُعْطِي وتَعْمَلُ لِتُعْطِي، لا غايَةً تَأْخُذُ وتَعْمَلُ لِتَأْخُذَ، ومَهما ضَيِّقَ عَلَيْكَ فَإِنَّمَا أَنْتَ كَالشَّجَرَةِ الطَّيِّبَةِ تَأْخُذُ تَراباً وتَصْنَعُ حَلاوَةً .

وما قَطُ نَبَتَتْ شَجَرَةٌ في مَكانِها لِتَأْكُلَ وتَشْرَبَ وتَخْتَرِنَ السَّمادَ والترابَ وتحصِّنَهما وتمنَّعَهما عن غَيرِها، ولو قد فَعَلَتْ ذلكَ شَجَرَةٌ لَكَانَ هَلاكُها فيما تَفْعَلُ، إِذْ تُحاولُ أنْ تُضاعِفَ فائِدَتَها من قانونِ العالَمِ، فيكونُ طَعْمُها سَريعاً في

(١) قمع: ضرب وقهر وأذل.

(٢) هونا: سهلاً.

إفساد الصلة بينهما، فلا يجد القانون فيها نظامه، ومن ثم لا تجد في القانون نظامها، فيهلكها الذي كان يحييها، وتستعبد لحظ نفسها، فيفقد ذلك حرية الحياة التي كانت لها في نفسها.

يقول نبينا ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ نَفْسَهُ تُنَزِّعُ مِنْ بَيْنِ جَنِبِهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ». فهذا هو أسمى قانون اجتماعي يمكن أن تظفر به الإنسانية، وما يأتي لها ذلك إلا إذا أصبحت تلك المعاني التي أومأنا^(١) إليها شعوراً اجتماعياً عاماً مقررّاً في النفس، قائماً فيها على إيمانٍ راسخ بأن الفرد هو صورة المجتمع لا صورة نفسه وحدها، وأن الناس كحب القمح في السنبلة، ليس لجميعه إلا قانون واحد، فموضع كل حبة من السنبلة هو ثروتها، علت أو سفلت، وكثر ما تأخذ أو قل؛ وإذا كان أساس الحياة في الحبة منها أن تجد قوامها وكفايتها من مادة الأرض، فتمام الحياة فيها أن يغمرها النور من حولها، وأن يستمر النور من حولها يغمرها.

فالحبة من السنبلة بكل خير على كل حال، وإنها لتنزع وما بها أنها نزع، ولكئها أدت ما تؤدي، وأنقطعت من قانون لتتصل بقانون غيره، وما أغنت ولا أفتقرت، ولا أكثرت ولا أخفت بل حققت موضعها، فإنها ما نبئت لتبقى، وما نمت إلا لينقطع نماؤها. وكذلك المؤمن الصحيح الإيمان، الصادق النظر في الحياة: هو أبدأ في قانون آخرته، فهو أبدأ في عمل ضميره.

والناس في هذه الحياة كحشد عظيم يتدفق من مضيق بين جبلين ينفذ إلى الفضاء؛ فإذا هم أدركوا جميعاً أنهم مفضون^(٢) إلى هذه النهاية مروا آمين وكان في يقينهم السلامة، وفي صبرهم الوقاية، وفي نظامهم التوفيق، وفي تعاونهم الحياة؛ فهم بكل خير على كل حال، ما دام هذا قانون جميعهم؛ فأيا رجل شد منهم فأضطرب فطاش^(٣)، هلك وأهلك من حوله، ومن عكس منهم موضعه ونكص على عقبيه، هلك من حوله وهلك، والموت أشقى الموت هنا في هذا المضيق بين الجبلين - اعتبار الحاضر حاضراً فقط، والضجر منه، وجعل كل إنسان نفسه

(١) أومأنا: أشرنا.

(٢) مفضون: واصلون، متتهون إلى.

(٣) طاش: انحرف.

غاية. والحياةُ أهناً الحياة - أعتبارُ الحاضرِ بما وراءه، والصبرُ على شدّته، وجعلُ الإنسانِ نفسه وسيلة.

فذلك معنى خبزِ الشعير، والقِلّةِ والضيق، ورهنِ الدرعِ عندَ يهوديّ من سيّدِ الخلقِ وأكملهم، ومَنْ لو شاءَ لَمْشَى على أرضٍ مِنَ الذهبِ. فهو ﷺ يُعلِّمُ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنَّ الرَّجُلَ الْعَظِيمَ النَّفْسِ لَا يَكُونُ فِي الْحَيَاةِ إِلَّا ضَيْفًا نَازِلًا عَلَى نَفْسِهِ.

ومن معاني ذلك الفقرِ العظيمِ أَنَّ خَبْزَ الشَّعِيرِ هُوَ رَمَزٌ مِنْ رَمُوزِ الْحَيَاةِ عَلَى التَّحَلُّلِ مِنْ خُلُقِ الْأَثَرَةِ، والبراءَةِ مِنْ هَوَى التَّرَفِّ؛ ورهنُ الدرعِ رَمَزٌ آخَرُ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الْكِبْرِيَاءِ وَالطَّمَعِ؛ والعُسْرَةُ رَمَزٌ ثَالِثٌ عَلَى مُجَاهَدَةِ الْمَلَلِ الْحَيِّ الَّذِي يُفْسِدُ الْحَيَاةَ كَمَا يُفْسِدُ بَعْضُ الْأَنْبَاتِ الْبُيُوتَ. ومجموعُ هذه الرموزِ رَمَزٌ بِحَالِهِ عَلَى وَجوبِ الْإِيقَاطِ النَّفْسِيِّ لِلأُمَّةِ الْعَزِيزَةِ الَّتِي تَقُودُ أَنْفُسَهَا بِمُقَاسَاةِ الشَّدَائِدِ وَمُجَاهَدَةِ الطَّبَاعِ، لِتَكُونَ فِي كُلِّ فَرْدٍ مَادَّةَ الْجَيْشِ، وَلِيُصْلِحَ هَذَا الْجَيْشُ قَائِدًا لِلْإِنْسَانِيَّةِ.

على أَنَّهُ ﷺ حَتَّى عَلَى طَلَبِ الْيَسَارِ^(١)، وَالتَّغْلِيلِ مِنَ الْأَعْمَالِ الْكَشْرِيفَةِ بِالْعِلَّةِ وَالْمَالِ، فَقَالَ: «إِنَّكَ إِنْ تَدْعُ عِيَالَكَ أَغْنِيَاءَ، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدْعَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ^(٢) الْنَّاسَ». وَرَأَى عَابِدًا قَدْ أَنْقَطَعَ لِلْعِبَادَةِ حَتَّى أَكَلَتْ نَفْسُهُ جَسَمَهُ، وَوَصَفُوا لَهُ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ يَعُولُهُ؟» قَالُوا: كُلَّنَا نَعُولُهُ. فَقَالَ: «كُلَّكُمْ خَيْرٌ مِنْهُ!...» إِلَى أَحَادِيثَ كَثِيرَةٍ مَرْوِيَّةٍ، هِيَ تَمَامُ الْقَانُونِ الْأَدَبِيِّ الْأَجْتِمَاعِيِّ فِي الدُّنْيَا، تُثَبِّتُ أَنَّ الْحَيَّ إِنْ هُوَ إِلَّا عَمَلُ الْحَيِّ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ سَيِّدُ الْأُمَّةِ وَصَاحِبُ شَرِيعَتِهَا رَجُلًا فَقِيرًا، عَامِلًا مُجَاهِدًا، يَكْدَحُ^(٣) لِعَيْشِهِ، وَيَجُوعُ يَوْمًا وَيَشْبَعُ يَوْمًا، فَلَمْ يَقْلُبْ يَدَهُ فِي تِلَادٍ^(٤) مِنَ الْأَمْالِ يَرْتُهُ، وَلَمْ يَجْمَعْهُمَا عَلَى طَرِيفٍ^(٥) مِنْهُ يُورِّثُهُ - فَذَلِكَ هُوَ مَا بَيْنَاهُ وَشَرَحْنَاهُ، وَذَلِكَ كَالْأَمْرِ نَافِذًا لَا رُخْصَةَ فِيهِ، عَلَى الْأَلَّا يَتَّخِذُ الْغَنَى مِنَ الْفَقِيرِ عَبْدًا أَجْتِمَاعِيًّا لِفَقْرِ هَذَا وَلِمَالِ ذَاكَ؛ بَلْ هِيَ الْمَسَاوَاةُ النَّفْسِيَّةُ لَا غَيْرُهَا وَإِنْ

(١) اليسار: الغنى.

(٢) يتكففون: يعيشون على الكفاف وشظف العيش.

(٣) يكدح: يتعب ويجد في عمله.

(٤) تلاد المال: المال الموروث.

(٥) طريف المال: حديثه وجديده.

أَخْتَلَفَتْ طَبَقَاتُ الْأَجْتِمَاعِ . وَالْأَكْرَمُ هُوَ الْآتَقَى لِلَّهِ بِمَعْنَى اتَّقَى ، وَالْأَقْوَمُ بِالْوَاجِبِ عَلَى مَعْنَى الْوَاجِبِ ، وَالْأَكْفَى لِلْإِنْسَانِيَّةِ فِي مَعْنَى الْإِنْسَانِيَّةِ .

فَقَرُّ ذَلِكَ السَّيِّدِ الْأَعْظَمِ لَيْسَ فَقْرًا ، بَلْ هُوَ كَمَا رَأَيْتَ : ضَبْطُ السُّلْطَةِ الْكَائِنَةِ فِي طَبِيعَةِ التَّمَلُّكِ ، لِقِيَامِ التَّعَاوُنِ الْإِنْسَانِيِّ عَلَى أَسَاسِهِ الْعَمَلِيِّ ؛ هُوَ الْمَحَاجَزَةُ الْعَادِلَةُ بَيْنَ الْمَصَالِحِ الْأَقْتَصَادِيَّةِ الطَّاعِيَةِ : يَمْنَعُ أَنْ تَأْكُلَ مَصْلَحَةٌ مَصْلَحَةً فَتَهْلِكَ بِهَا ، وَيُوجِبُ أَنْ تَلِدَ الْمَصْلَحَةُ مَصْلَحَةً لِتَحْيَا بِهَا .

وَالنَّبِيُّ الْفَقِيرُ الْعَظِيمُ هُوَ فِي التَّارِيخِ مِنْ وَرَاءِ كُلِّ هَذِهِ الْمَعَانِي ، كَالْقَاضِي الْجَالِسِ وَرَاءَ مَوَادِّ الْقَانُونِ . ﷺ

درس من النبوة

قالوا: إِنَّهُ لَمَّا نَصَرَ اللَّهُ (تعالى) رَسُولَهُ وَرَدَّ عَنْهُ الْأَحْزَابَ وَفَتَحَ عَلَيْهِ قُرَيْظَةً وَالنَّضِيرَ^(١)، ظَنَّ أَزْوَاجَهُ ﷺ أَنَّهُ اخْتَصَّ بِنَفَائِسِ الْيَهُودِ وَذَخَائِرِهِمْ؛ وَكَانَ تِسْعَ نِسَاءَ: عَائِشَةُ، وَحَفْصَةُ، وَأُمُّ حَبِيبَةَ، وَسَوْدَةُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَصَفِيَّةُ، وَمَيْمُونَةُ، وَزَيْنَبُ، وَجُوزَيْيْرَةُ؛ فَقَعَدَنَ حَوْلَهُ وَقُلْنَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، بَنَاتُ كِسْرَى وَقَيْنَصَرٍ فِي الْحَلِيِّ وَالْحُلَلِ، وَالْإِمَاءِ وَالْخَوَلِ^(٢)، وَنَحْنُ مَا تَرَاهُ مِنَ الْفَاقَةِ وَالضِّيقِ . . . وَالْمَنْ قَلْبُهُ بِمِطَالِبَتِهِنَّ لَهُ بِتَوْسِعَةٍ أَلْحَالِ، وَأَنْ يَعَامِلَهُنَّ بِمَا تُعَامِلُ بِهِ الْمَمْلُوكُ وَأَبْنَاءُ الدُّنْيَا أَزْوَاجَهُمْ؛ فَأَمَرَهُ اللَّهُ (تعالى) أَنْ يَتَلَوْا عَلَيْهِنَ مَا نَزَلَ فِي أَمْرِهِنَّ مِنْ تَخْيِيرِهِنَّ فِي فِرَاقِهِ، وَذَلِكَ قَوْلُهُ - تعالى -: ﴿يَتْلُوَنَّا نَزْلَ النَّبِيِّ قُلْ لَا فِرَارَ لَكَ إِنَّ كُنْتَ تَتَرَدَّدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْكَ أَمِيعُكَ وَأَسْرِعُكَ سَرْعًا جَمِيلًا^(٣) وَلَنْ كُنْتَ تَتَرَدَّدُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالْآخِرَةُ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا .

قالوا: وبدأ ﷺ بعائشة - وهي أحبهن إليه - فقال لها: «إني ذاكركَ لِكِ أَمْرًا ما أحبُّ أنْ تعَجَلِي فيه حتى تَسْتَأْمِرِي أبويك». قالت: ما هو؟ فتلا عليها الآية. قالت: أفيكَ أَسْتَأْمِرُ أبوي؟ بل أختارُ اللهَ - تعالى - ورسولَه.

ثم تَتَابَعْنَ كلهن على ذلك، فسمَّاهُنَّ اللهُ «أُمَّهَاتِ الْمُؤْمِنِينَ»، تعظيماً لِحَقِّهِنَّ، وتأكيداً لِحَرَمَتِهِنَّ، وتفضيلاً لَهُنَّ على سائرِ النِّساءِ.

هذه هي القصة كما تُقرأ في التاريخ وكما ظهرت في الزمان والمكان،
فلنقرأها نحن كما هي في معاني الحكمة، وكما ظهرت في الإنسانية العالية؛
فسنجد لها غوراً^(٤) بعيداً، ونعرف فيها دلالة سامية، ونتبين تحقيقاً فلسفياً دقيقاً
للأوهام والحقائق.

(١) قريظة والنضير: هما قبيلتان وحيان من أحياء اليهود في المدينة.

(٢) الخول: الخدم والحشم.

(٣) السراح: الطلاق، أما متعة الطلاق فهي الصداق المتأخر.

(٤) غوراً: عمقاً.

وهي قبل كل هذا ومع كل هذا تنطوي على حكمة رائعة لم يتنبه لها أحد، ومن أجلها ذكرت في القرآن الكريم، لتكون نصّاً تاريخياً قاطعاً يدافع به التاريخ عن هذا النبي العظيم في أمر من أمور العقل والعريضة، فإن جهلة المبشرين في زمننا هذا، وكثيراً من أهل الزيغ^(١) والالحاد، وطائفة من قصار النظر في التحقيق - يزعمون أن محمداً ﷺ إنما استكثر من النساء لإهواء نفسية محضه وشهوات كالشهوات؛ ويتطرقون من هذا الزعم إلى الشبهة، ومن الشبهة إلى سوء الظن، ومن سوء الظن إلى قبح الرأي؛ وكلهم غبيّ جاهل؛ فلو كان الأمر على ذلك أو على قريب منه أو نحو من قريبه، لما كانت هذه القصة التي أساسها نفي الزينة وتجريد نسائه جميعاً منها، وتصحيح النية بينه وبينهنّ على حياة لا تحيا فيها معاني المرأة، وتحت جو لا يكون أبداً جوّ الزهر... وأمره من قبل ربّه أن يخيرهنّ جميعاً بين سراحهنّ فيكنّ كالنساء ويجذّن ما شئن من دنيا المرأة، وبين إمساكينّ فلا يكنّ معه إلا في طبيعة أخرى تبدأ من حيث تنتهي الدنيا وزينتها.

فألقصة نفسها ردّ على زعم الشهوات، إذ ليست هذه لغة الشهوة، ولا سياسة معانيها، ولا أسلوب غضبها أو رضاها. وما ههنا تمليق، ولا إطراء، ولا نعومة، ولا جرض على لذة، ولا تعبير بلغة الحاسة؛ وألقصة بعد مكشوفة صريحة ليس فيها معنى ولا شبه معنى من حرارة القلب، ولا أثر ولا بقيّة أثر من ميل النفس، ولا حرف أو صوت حرف من لغة الدم. وهي على منطقي آخر غير المنطقي الذي تستمال به المرأة، فلم تقتصر على نفي الدنيا وزينة الدنيا عنهنّ، بل نفّت الأمل في ذلك أيضاً إلى آخر الدهر، وأماتت معناه في نفوسهنّ، بقصر الإرادة منهنّ على هذه الثلاثة: الله في أمره ونهيه، والرسول في شوائده ومكابدته^(٢)، والدار الآخرة في تكاليفها ومكاريها. فليس هنا ظرف، ولا رقة، ولا عاطفة، ولا سياسة لطبيعة المرأة، ولا اعتبار لمزاجها، ولا زلّفى^(٣) لأنوثتها، ثم هو تخيير صريح بين ضدين لا تتلون بينهما حالة تكون منهما معاً، ثم هو عام لجميع زوجاته لا يستثني منهنّ واحدة ولا أكثر.

والحريص على المرأة والاستمتاع بها لا يأتي بشيء من هذا، بل يُخاطب في

(١) الزيغ: الانحراف عن الدين والكفر.

(٢) مكابدته: عاش فيه بجهد ومشقة.

(٣) زُلْفَى: تقرب.

المرأة خيالها أول ما يُخاطب، ويُشبعه مُبالغةً وتأكيداً، ويُوسعه رجاءً وأملاً،
ويقرب له الزمن البعيد، حتى لو كان في أول الليل وكان الخلاف على الوقت،
لحقّق له أنّ الظهر بعد ساعة...

وبرهان آخر؛ وهو أنّ النبي ﷺ لم يتزوج نساءه لِمَتاعٍ ممّا يُمتّع الخيال به،
فلو كان وضع الأمر على ذلك لَمَّا استقام ذلك إلّا بالزينة وبالفنّ الأنعم في الثوب
والحليّة والتشكّل كما نرى في الطبيعة الفنّية، فإنّ المُمثّلة لا تمثّل الرواية إلّا في
المسرح المهيأ بمناظره وجوّه... وقد كانت نساؤه ﷺ أعرف به؛ وها هو ذا ينفي
الزينة عنهنّ ويخيرهنّ الطلاق إذا أصرّزن عليها. فهل ترى في هذا صورة فكر من
أفكار الشهوة؟ وهل ترى إلّا الكمال المحض؟ وهل كانت متابعّة أزواجٍ ألتسع
إلا تسعة برّهانات على هذا الكمال؟

وكأنّ النبي ﷺ يُلقِي بهذه القصة درساً مستفيضاً في فلسفة الخيال وسوء
آثره، على المرأة في أنوثتها، وعلى الرجل في رجولته؛ وأنّ ذلك تعقيدٌ في
الشهوات يُقابله تعقيدٌ في الطبع، وكذبٌ في الحقيقة ينشأ عنه كذبٌ في الخلق،
وأنه صرّف للمرأة إلى حياة الأحلام والأمانى والطيش والبطر والفراغ، وتعويدُها
عاداتٍ تُفسد عاطفتها، وتُضيف إليها التّصنع فتُضعف قوتها النفسية القائمة على
إبداع الجمال من حقيقتها لا من مظهرها، وتحقيق الفائدة من عملها لا من شكلها.
وكلُّ محاسن المرأة هي خيالٌ متخيّل ولا حقيقةٌ لشيءٍ منها في الطبيعة،
وإنّما حقيقتها في العين الناظرة إليها فلا تكون امرأةً فاتنةً إلّا للمفتون بها ليس غير.
ولو ردّت الطبيعة على مَنْ يُشَبِّب^(١) بامرأة جميلة فيقول لها: هذه محاسنك وهذه
فتتّك وهذا سحرُك وهذا وهذا؛ لقالت له الطبيعة: بل هذه كلّها شهواتك أنت...
وبهذا يختلف الجمال عند فقد النظر؛ فلا يفتن الأعمى جمال الصورة ولا
سحر الشكل ولا فراهة المنظر، وإنّما يفتنه صوت المرأة ومجسّتها^(٢) ورائحتها.
فلا حقيقة في المرأة إلّا المرأة نفسها؛ ولو أخذت كلُّ أنثى على حقيقتها هذه
لَمَّا فسد رجلٌ ولا شقيت امرأة، ولا انتظمت حياة كلِّ زوجين بأسبابها التي فيها.
وذلك هو المثلّ المضروب في القصة.

(٢) مجسّتها: لمسها.

(١) يشَبِّب: يتغزل.

يُرِيدُ النَّبِيُّ ﷺ لِيُعْلَمَ أُمَّتُهُ أَنَّ حَيْفَ^(١) الْغَرِيزَةِ عَلَى الْعَقْلِ إِفْسَادٌ لِهَذَا الْعَقْلِ، وَأَنَّهُ مَتَى أُخْضِعَتِ الْمَرْأَةُ لِحِظِّ الْغَرِيزَةِ وَأَخْتِيَارِهَا، كَانَتْ حَيَاتُهَا أَسْتِجَابَةً لِحُجُونِ الرَّجُلِ، وَمَلَأَتْهَا مَعَانِي التَّزْيِيدِ وَالتَّصْنُوعِ؛ فَيُوشِكُ أَنْ يَنْقَلِبَهَا هَذَا عَنْ طَبِيعَتِهَا السَّامِيَةِ الَّتِي أَكْثَرُهَا فِي الْجَرْمَانِ وَالْإِيثَارِ وَالصَّبْرِ وَالْإِحْتِمَالِ، وَيَرُدُّهَا إِلَى أَضْدَادِ هَذِهِ الصِّفَاتِ، فَيَقُومُ أَمْرُهَا بَعْدُ عَلَى الْأَثَرِ وَالْمُصْلَحَةِ وَالتَّفَادِي وَالضَّجَرِ وَالتَّبَرُّمِ^(٢) وَالْإِلْحَاحِ وَالْإِزْعَاجِ، وَيُضْعَفُ مَعْنَى السَّلْبِ الرَّاسِخِ فِي نَفْسِهَا مِنْ أَصْلِ الْفِطْرَةِ؛ فَيَتَبَدَّلُ حَيَاوُهَا، وَفِي الْحَيَاءِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءٍ؛ وَيَقِلُّ إِخْلَاصُهَا، وَفِي الْإِخْلَاصِ رَدُّهَا عَنْ أَشْيَاءٍ أُخْرَى؛ وَيَكْثُرُ طَمَعُهَا، وَفِي قَنَاعَتِهَا مُحَاجَزَةٌ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الشَّرِّ.

وبهذا ونحوه يفسد ما بين الرجل والمرأة الممتصّعة؛ فإذا أكثر الممتصّعات لا يكون من النساء مشاكل فقط، بل تكون من حلول المشاكل معهن مشاكل أخرى...

ولباب هذه القصة أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ يجعل نفسه في الزواج المثلَّ الشَّعْبِيَّ الأكمل كما هو دأبه^(٣) في كلِّ صفاته الشريفة، فهو يُريدُ أَنْ تكونَ زوجاته جميعاً كنساء فقراء المسلمين، ليكونَ منهنَّ المثلُّ الأعلى للمرأة المؤمنة العاملة الشريفة التي تَبْرَعُ البراعةَ كُلَّهَا فِي الصَّبْرِ وَالْمُجَاهِدَةِ وَالْإِخْلَاصِ وَالْعِفَّةِ وَالصَّرَاحَةِ وَالْقَنَاعَةِ، فلا تكونَ المرأةُ زِينَةً تَطْلُبُ زِينَةً لِتَتَمَّ بِهَا فِي الْخِيَالِ، وَلَكِنْ إِنْسَانِيَةً تَطْلُبُ كَمَالَهَا الْإِنْسَانِيَّ لِتَتَمَّ بِهِ فِي الْوَاقِعِ.

وهذه الزينة التي تتصنع بها المرأة تكاد تكون صورة المكر والخداع والتعقّد، وكلما أسرفت في هذه أسرفت في تلك، بله الزينة لوجه المرأة وجسمها سلاح من أسلحة المعاني: كالأظافر والمخالب والأنياب، غير أن هذه لوخشية الطبيعة الحيّة المفترسة، وتلك لوخشية الغريزة الحيّة التي تريد أن تفترس. ولا تُتَكَبَّرُ المرأة نفسها أَنَّ الزينة على جسمها ثروة طويلة تقول وتقول وتقول... .

وإنما يكون أساس الكمال الإنساني، في الإنسان العامل المُجاهد: لا يحصر نفسه في شيء يُسمّى متاعاً أو زينة، ولا يقدر نفسه بما يجمع لها أو بما يجمع حولها، ولا يعتد ما يكون من ذلك إلا كالتعبير من عمل الشهوات عن الشهوات.

(١) حيف: ظلم، جور.

(٢) التبرّم: إظهار الملل والضجر.

(٣) دأبه: عادته.

ونبيُّنا ﷺ هو الغاية في هذا. دخلَ عليه مرةً عمرُ بنُ الخطاب، فإذا هو على حصيرٍ وعليه إزارُهُ وليسَ عليه غيره، وإذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبه. قال عمر: وإذا أنا بقبْضةٍ من شعيرِ نحوِ ألصاع، وإذا إهابٌ معلقٌ^(١)، فأبتدرتُ عيناى^(٢)، فقال: ما يُيكيك يا ابنَ الخطاب؟ قال: عمر: يا نبيَّ الله، وما لي لا أبكي وهذا الحصيرُ قد أثرَ في جنبك، وهذه خزائنك لا أرى فيها إلّا ما أرى، وذاك كسرى وقيصرُ في الثمارِ والأنهارِ وأنت نبيُّ الله وصفوته وهذه خزائنك؟

وجاء مرة من سفرٍ فدخل على أبتتهِ فاطمةَ (رضيَ الله عنها) فرأى على بابها سترًا وفي يديها قُلْبَيْنِ^(٣) من فضة، فرجع؛ فدخلَ عليها أبو رافع وهي تبكي، فأخبرتهُ برجوعِ أبيها، فسأله في ذلك فقال ﷺ: من أجلِ الستِرِ والسَّوارين.

فلما أخبرها أبو رافع هتكت^(٤) الستِرَ ونزعتِ السَّوارينِ فأرسلتَ بهما بلالاً إلى النبيِّ ﷺ وقالت: قد تصدَّقْتُ به، فضغهُ حيثُ ترى. فقال ليبال: اذهب فيغهُ وأدفعهُ إلى أهلِ الصُّفَّة^(٥). فباعَ القُلْبَيْنِ بدرهمينِ ونصفٍ (نحو ثلاثة عشر قرشاً) وتصدَّقَ به عليهم.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! وأنتِ أيضاً لا يرضى لك أبوكِ حلية بدرهمينِ ونصفٍ وإنَّ في المسلمِ فقرًا لا يملكونَ مثلها.

أيُّ رجلٍ شُعبيٍّ على الأرضِ كمحمدٍ ﷺ، فيه لِلأمةِ كلُّها غريزةُ الأب، وفيه على كلِّ أحواله اليقينُ الَّذي لا يتحوَّل، وفيه الطَّبيعةُ التَّامةُ التي يكونُ بها الحَقِيقِي هو الحَقِيقِي.

يا بنتَ النبيِّ العظيم! إنَّ زينةَ بدرهمينِ ونصفٍ، لا تكونُ زينةً في رأيِ الحقِّ إذا أمكنَ أن تكونَ صدقةً بدرهمينِ ونصفٍ؛ إنَّ فيها حينئذٍ معنًى غيرَ معناها؛ فيها حقُّ النفسِ غالباً على حقِّ الجماعة؛ وفيها الإيمانُ بالمنفعةِ حاكماً على الإيمانِ بالخير؛ وفيها ما ليسَ بضروريٍّ قد جارَ على ما هو الضروري؛ وفيها خطأ من الكمالِ إنَّ صحَّ في حسابِ الحلالِ والحرامِ لم يصحَّ في حسابِ الثَّوابِ والرحمةِ.

تعالوا أيُّها الاشتراكيُّون فأعرِّفوا نبيَّكمُ الأعظم؛ إنَّ مذهبكم ما لم تُخيه

(١) الإهاب: هو كيس من جلد كان يتخذه العرب وعاء.

(٢) ابتدرت عيناى: دمعت.

(٤) هتكت الستر: مزقته.

(٣) القُلْب، بالضم هو سوار من فضة.

(٥) الصُّفَّة: بالضم، هي الغرفة.

فضائل الإسلام وشرائعه - إن مذهبكم لكالشجرة الذابلة تعلقون عليها الأثمار تشدونها بالخيط . . . كل يوم تجلّون، وكل يوم تربطون، ولا ثمرة في الطبيعة.

ليست قصة التخيير هذه مسألة من مسائل الغني والفقير في معاني المادة، ولكنها مسألة من مسائل الكمال والنقص في معاني الروح؛ فهي صريحة في أن النبي ﷺ أستاذ الإنسانية كلها؛ واجبه أن يكون فضيلة حيّة في كل حياة، وأن يكون عزاء في كل فقر، وأن يكون تهدياً في كل غنى، ومن ثم فهو في شخصه وسيرته القانون الأدبي للجميع.

وكأنه ﷺ يريد ليُعلم الأمة بهذه القصة أن الجماعات لا تصلح بالقوانين والشرائع والأمر والنهي، ولكن بعمل عظمائها في الأمر والنهي؛ وأن الحاكم على الناس لا ينبغي أن يحكم إلا إذا كان في نفسه وطبيعته يحس فتنة الدنيا إحساس المتسلط^(١) لا الخاضع، ليكون أول استقلاله استقلال داخلة.

فليس ذلك فقراً ولا زهداً كما ترى في ظاهر القصة، ولكنها جزأة النفس العظمى في تقرير حقائقها العملية.

وتنتهي القصة في عبارة القرآن الكريم بتسمية زوجاته ﷺ: «أمهات المؤمنين» بعد أن اخترن الله ورسوله والدار الآخرة؛ وعلماء التفسير يقولون: إن الله (تعالى) كافأهن بهذه التسمية؛ وليس ذلك بشيء ولا فيه كبير معنى، وإنما تُشعر هذه التسمية بمعنى دقيق هو آية من آيات الإعجاز؛ فإن الزوجة الكاملة لا تكمل في الحياة ولا تكمل الحياة بها إلا إذا كان وصفها مع رجلها كوصف الأم: ترى ابنها بالقلب ومعانيه، لا بالغريزة وحظوظها؛ فكل حياة حينئذ ممكنة السعادة لهذه الزوجة، وكل شقاء محتمل بصبر، وكل جهاد فيه لذته الطبيعية، إذ يقوم البيت على الحب الذي هو الحب الخالص لا المنفعة، وتكون زينة الحياة وجود الحي نفسه لا وجود المادة، وتبنى النفس على أوفاء الطبيعي كوفاء الأم، وذلك خلق لا يغسر عليه في سبيل حقيقته أن يتغلب على الدنيا وزينتها.

وآخر ما نستخرج من القصة في درس النبوة هذه الحكمة:

بحسب المؤمن إذا دخل داره أن يجد حقيقة نفسه الطيبة، وإن لم يجد حقيقة كسرى ولا قيصر.

(١) المتسلط: المسيطر.

شهرُ للثورة فلسفة الصيام

لم أقرأ لأحدٍ قولاً شافياً في فلسفة الصوم وحكمته؛ أما منفعةُ للجسم، وأنه نوعٌ من الطبِّ له، وبابٌ من السياسة في تدبيره؛ فقد فرغ الأطباء من تحقيق القول في ذلك؛ وكأنَّ أيامَ هذا الشهرِ المباركِ إنَّ هي إلا ثلاثون حبةً تؤخذُ في كلِّ سنةٍ مرةً لتقوية المعدة وتصفية الدم وحيطة أنسجة الجسم؛ ولكنَّا الآنَ لسنَّا بصدِّدٍ من هذا، وإنَّما نستوحي تلك الحقيقةَ الإسلامية الكبرى التي شرَّعت هذا الشرعَ لسياسةِ الحقائق الأرضيةِ الصغيرة، عاملةً على استمرارِ الفكرةِ الإنسانيةِ فيها، كي لا تبدلَ النفسُ على تغيُّرِ الأحداثِ وتبدُّلِها، ولكيلا تجهلَ الدنيا معاني الترقيعِ إذا أتت على هذه الدنيا معاني التمزيقِ.

من معجزاتِ القرآنِ الكريمِ أنه يدَّخرُ^(١) في الألفاظِ المعروفةِ في كلِّ زمنٍ، حقائقَ غيرَ معروفةٍ لكلِّ زمنٍ، فيُجَلِّيها^(٢) لوقتها حينَ يَضُجُّ الزمانُ العلميُّ في مَتَاهَتِهِ وَخَيْرَتِهِ، فيشغَبُ^(٣) على التاريخِ وأهلِهِ مُسْتَخْفًا بالأديانِ، ويذهبُ يتتبَّعُ الحقائقَ، ويستقصي في فنونِ المعرفةِ، ليستخلصَ من بينِ كُفْرٍ وإيمانٍ ديناً طبيعياً سائغاً، يتناولُ الحياةَ أَوَّلَ ما يتناولُ فيضبطُها بأسرارِ العِلْمِ، ويوجِّهُها بالعِلْمِ إلى غايتها الصحيحة، ويضاعفُ قواها بأساليبهِ الطَّبِيعِيَّةِ، ليُحَقِّقَ في إنسانيةِ العالمِ هذه الشَّيْئَةَ المجهولةَ التي تتوهَّمُها المذاهبُ الاجتماعيةُ العلميَّةُ بينَ يدي عُلمائِها: لم يحققوها ولم يَنَأسوا منها، وبقيت تلك المذاهبُ كعقاربِ الساعةِ في دَوْرَتِها: تبدأ من حيثُ تبدأ ثم لا تنتهي إلا إلى حيثُ تبدأ...

يضطربُ الاشتراكيون في أوروبا وقد عجزوا عجزَ مَنْ يُحاولُ تغييرَ الإنسانِ

(١) يدَّخر: يوفِّر ويخترن.

(٢) يجليها: يكشفها.

(٣) يشغَب: يشوش.

زيادة ونقص في أعصابه؛ ولا يزال مذهبهم في الدنيا مذهب كُتِبَ ورسائل؛ ولو أنهم تدبروا حكمة الصوم في الإسلام، لرأوا هذا الشهر نظاماً عملياً من أقوى وأبدع الأنظمة الاشتراكية الصحيحة: فهذا الصوم فقرٌ إجباري تفرضه الشريعة على الناس قرصاً ليتساوى الجميع في بواطنهم، سواء منهم من ملك المليون من الدنانير، ومن ملك القرش الواحد، ومن لم يملك شيئاً؛ كما يتساوى الناس جميعاً في ذهاب كبريائهم الإنسانية بالصلاة التي يفرضها الإسلام على كل مسلم؛ وفي ذهاب تفاوتهم الاجتماعي بالحج الذي يفرضه على من أستطاع.

فقرٌ إجباري يُراد به إشعار النفس الإنسانية بطريقة عملية واضحة كلّ الوضوح، أن الحياة الصحيحة وراء الحياة لا فيها، وأنها إنما تكون على أتمها حين يتساوى الناس في الشعور لا حين يختلفون، وحين يتعاطفون بإحساس الألم الواحد لا حين يتنازعون بإحساس الأهواء المتعددة.

ولو حققت لرأيت الناس لا يختلفون في الإنسانية بعقولهم، ولا بأنسابهم، ولا بمراتبهم، ولا بما ملكوا؛ وإنما يختلفون ببطونهم وأحكام هذه البطون على العقل والعاطفة؛ فمن البطن نكبة الإنسانية، وهو العقل العملي على الأرض؛ وإذا اختلف البطن والدماغ في ضرورة، مدّ البطن مدّه من قوى الهضم فلم يبق ولم يذر.

ومن ههنا يتناول الصوم بالتهذيب والتأديب والتدريب، ويجعل الناس فيه سواء: ليس لجميعهم إلا شعور واحد وحس واحد وطبيعة واحدة؛ ويحكم الأمر فيحول بين هذا البطن وبين المادة، ويبلغ في إحكامه فيمسك حواشيء العصبية في الجسم كله يمنعها تغذيتها ولذتها حتى نَفْثَةً من دخينة^(١).

وبهذا يضع الإنسانية كلها في حالة نفسية واحدة تتلبس بها النفس في مشارق الأرض ومغاربها، ويطلق في هذه الإنسانية كلها صوت الروح يعلم الرحمة ويدعو إليها، فيشبع فيها بهذا الجوع فكرة معينة هي كل ما في مذهب الاشتراكية من الحق، وهي تلك الفكرة التي يكون عنها مساواة الغني للفقير من طبيعته، وأطمئنان الفقير إلى الغني بطبيعته؛ ومن هذين: (الاطمئنان والمساواة)، يكون هدوء الحياة بهدوء النفسين اللتين هما السلب والإيجاب في هذا الاجتماع الإنساني؛ وإذا أنت

(١) الدخينة كلمة استعملها الأستاذ مصطفى صادق الرافعي للسيجارة.

نزعَت هذه الفكرة من الاشتراكية بقي هذا المذهب كله عبثاً من العبث في محاولة جعل التاريخ الإنساني تاريخاً لا طبيعة له .

* * *

من قواعد النفس أن الرحمة تنشأ عن الألم، وهذا بعض السر الاجتماعي العظيم في الصوم، إذ يُبالغُ أشد المبالغة، ويدققُ كل التدقيق، في منع الغذاء وشبه الغذاء عن البطن وحواشيه مدة آخرها آخر الطاعة؛ فهذه طريقة عملية لتربية الرحمة في النفس، ولا طريقة غيرها إلا النكبات والكوارث؛ فهما طريقتان كما ترى: مُبصرة وعمياء، وخاصة وعامة، وعلى نظام وعلى فجأة.

ومتى تحققت رحمة الجائع الغني للجائع الفقير، أصبح للكلمة الإنسانية الداخلية سلطانها النافذ، وحكم الوازع^(١) النفسي على المادة؛ فيسمع الغني في ضميره صوت الفقير يقول: «أعطني». ثم لا يسمع منه طلباً من الرجاء، بل طلباً من الأمر لا مفر من تلبية والاستجابة لمعانيه، كما يؤاسي المبتلى من كان في مثل بلائه.

أية معجزة إصلاحية أعجب من هذه المعجزة الإسلامية التي تقضي أن يُحذف من الإنسانية كلها تاريخ البطن ثلاثين يوماً في كل سنة، ليحل في محله تاريخ النفس؟ وأنا مُستيقن أن هناك نسبة رياضية هي الحكمة في جعل هذا الصوم شهراً كاملاً من كل اثني عشر شهراً، وأن هذه النسبة متحققة في أعمال النفس للجسم، وأعمال الجسم للنفس؛ كأنه أشهر الصحي الذي يفرضه الطب في كل سنة للراحة والاستجمام^(٢) وتغيير المعيشة، لأحداث الترميم العصبي في الجسم، ولعل ذلك آت من العلاقة بين دورة الدم في الجسم الإنساني وبين القمر منذ يكون هلالاً إلى أن يدخل في المحاق؛ إذ تنتفخ العروق وتربو في النصف الأول من الشهر، كأنها في (مد) من نور القمر ما دام هذا النور إلى زيادة، ثم يُراجعها (الجزر) في النصف الثاني حتى كأن للدم إضاءة وظلاماً. وإذا ثبت أن للقمر أثراً في الأمراض العصبية، وفي مد الدم وجزره^(٣)، فهذا من أعجب الحكمة في أن يكون الصيام شهراً قمرياً دون غيره.

(١) الوازع: الزادع.

(٢) الاستجمام: الراحة.

(٣) الجزر: انحسار ماء البحر وانخفاضه عكس المد.

وفي ترائي الهلالِ ووجوبِ الصومِ لِرؤيتهِ معنىً دقيقاً آخر، وهو - مع إثبات رؤية الهلالِ وإعلانها - إثباتُ الإرادةِ وإعلانها، كأنما أتبعْتُ أولَ الشعاعِ السماويِّ في التنبيهِ الإنسانيِّ العامِّ لفروضِ الرحمةِ والإنسانيةِ والبرِّ.

وهنا حِكْمَةٌ كبيرةٌ من حِكَمِ الصومِ، وهي عمله في تربيةِ الإرادةِ وتقويتها بهذا الأسلوبِ العمليِّ، الَّذي يُدَرِّبُ الصائمَ على أن يمنعَ باختياره من شهواتِهِ ولذَّةِ حيوانيتهِ، مُصِراً على الامتناعِ، مُتَهَيِّئاً لَهُ بعزيمتهِ، صابراً عليه بأخلاقِ الصبرِ، مُزاولاً في كُلِّ ذلكِ أفضلَ طريقةٍ نفسيةٍ لاكتسابِ الفكرةِ الثابتةِ ترسخُ لا تتغيَّرُ ولا تتحوَّلُ، ولا تعدو عليها عوادي الغريزةِ.

وإدراكُ هذه القوَّةِ مِنَ الإرادةِ العمليةِ منزلةٌ اجتماعيةٌ ساميةٌ، هي في الإنسانيةِ فوقَ منزلةِ الذكاءِ والعِلْمِ، ففي هذين تعرضُ الفكرةُ مارةً مُرورَها، ولكئُها في الإرادةِ تعرضُ لِتستقرَّ وتحقِّقُ. فانظرُ في أيِّ قانونٍ مِنَ القوانينِ، وفي أيَّةِ أمةٍ مِنَ الأممِ، تجدُ ثلاثينَ يوماً من كُلِّ سنةٍ قد فُرِضَتْ فرضاً لِتربيةِ إرادةِ الشعبِ ومزاوَلتهِ فكرةً نفسيةً واحدةً بخصائصِها ومُلابساتِها حتى تستقرَّ وترسخَ وتعودَ جزءاً من عملِ الإنسانِ، لا خيالاً يمرُّ برأسِهِ مرّاً.

ليستْ هذه هي إتاحةٌ^(١) الفرصةِ العمليةِ التي جعلوها أساساً في تكوينِ الإرادةِ؟ وهل تبلغُ الإرادةُ فيما تبلغُ، أعلى من منزلتها حينَ تجعلُ شهواتِ المرءِ مُدْعنةً لِفكرِهِ، مُنقادةً لِلوازعِ النفسيِّ فيه، مُصَرَّفةً بِالْحَسِّ الدينيِّ المسيطرِ على النفسِ ومشاعِرِها.

أما - والله - لو عَمَّ هذا الصومُ الإسلاميُّ أهلَ الأرضِ جميعاً، لآلَ معناه أن يكونَ إجماعاً مِنَ الإنسانيةِ كُلِّها على إعلانِ الثورةِ شهراً كاملاً في السنة، لِتطهيرِ العالمِ من رذائلِهِ وفسادهِ، وَمَحَقِّ^(٢) الأثرةِ والبخلِ فيه، وطَرْحِ المسألةِ النفسيةِ لِيتدَرَّسَها أهلُ الأرضِ دراسةً عمليةً مدَّةَ هذا الشهرِ بطوله، فيهبطُ كُلُّ رَجُلٍ وكلُّ امرأةٍ إلى أعماقِ نفسِهِ ومَكائِنِها، ليختبرَ في مصنعِ فكرِهِ معنىَ الحاجةِ ومعنى الفقرِ، وليفهمَ في طبيعةِ جسمِهِ - لا في الكتبِ - معانيَ الصبرِ والثباتِ والإرادةِ، وليبلغَ من ذلكِ وذلكِ درجاتِ الإنسانيةِ والمواساةِ والإحسانِ؛ فيُحَقِّقَ بهذهِ وتلكِ معانيَ الإخاءِ والحريةِ والمساواةِ.

(١) إتاحة: إفساح المجال.

(٢) محق: محو.

شهرٌ هو أيامٌ قلبيةٌ في الزمن؛ متى أشرفت على الدنيا قال الزمن لأهله: هذه أيامٌ من أنفسكم لا من أيامي، ومن طبيعتكم لا من طبيعتي؛ فيقبلُ العالمُ كلُّه على حالةٍ نفسيةٍ بالغةِ السمو، يتعهدُ فيها النفسُ برياضتها على معالي الأمورِ ومكارمِ الأخلاق، ويفهمُ الحياةَ على وجهٍ آخرٍ غيرِ وجهها الكالِح، ويراهُ كأنما أُجيعت من طعامها اليوميِّ كما جاعَ هو، وكأنما أفرغت من خَسائسها وشهواتها كما فرغَ هو، وكأنما ألزمت معانيَ التقوى كما ألزمتها هو. وما أجمل وأبدع أن تظهرَ الحياةُ في العالمِ كلِّه - ولو يوماً واحداً - حاملةً في يدها السُّبحة... فكيف بها على ذلك شهراً من كلِّ سنة؟

إنَّها - والله - طريقةٌ عمليةٌ لرسوخِ فكرةِ الخيرِ والحقِّ في النفس؛ وتطهيرِ الاجتماعِ من خَسائسِ العقلِ الماديِّ؛ وردُّ هذه الطبيعةِ الحيوانيةِ المحكومةِ في ظاهرها بالقوانين، والمحرورةِ من القوانين في باطنها - إلى قانونٍ من باطنها نفسه يُطهرُ مشاعرها، ويسمو بإحساسها، ويضربُها إلى معاني إنسانيتها، ويهذبُ من زياداتها، ويحذفُ كثيراً من فضولها، حتى يرجعُ بها إلى نحوٍ من براءةِ الطفولة، فيجعلها صافيةً مُشرقةً بما يجتذبُ إليها من معاني الخيرِ والصفاءِ والإشراق؛ إذ كان من عملِ الفكرةِ الثابتةِ في النفس أن تدعوَ إليها ما يلائمُها ويتصلُ بطبيعتها من الفكرِ الأخرى. والنفسُ في هذا الشهرِ مُحْتَبَسَةٌ في فكرةِ الخيرِ وحدها، فهي تبني بناءها من ذلك ما أستطاعت.

هذا على الحقيقة ليس شهراً من الأشهر، بل هو فصلٌ نفسانيٌّ كفصول الطبيعةِ في دوراتها؛ ولهُوَ - والله - أشبهُ بفصلِ الشتاءِ في حلوله على الدنيا بالجوُّ الذي من طبيعتهِ السُّحبُ والغُيثُ، ومن عمله إمدادُ الحياةِ بوسائلِ لها ما بعدها إلى آخرِ السنة، ومن رياضتهِ أن يُكسبها الصلابةَ والانكماشَ والخِفَّةَ، ومن غايتهِ إعدادُ الطبيعةِ لِلتَفْتِيحِ عن جمالِ باطنها في الربيعِ الذي يتلوهُ.

وعجيبٌ جداً أن هذا الشهرَ الذي يدخُرُ فيه الجسمُ من قِوَاهِ المعنويةِ فيودعُها مَضْرِبَ روحانيتهِ، ليجدَ منها عندَ الشدائدِ مَدَدَ الصبرِ والثباتِ والعزمِ والجلدِ والخشونة - عجيبٌ جداً أن هذا الشهرَ الاقتصاديَّ هو من أيامِ السنةِ كفايةً $\frac{1}{3}$ - ٨ في المائة... فكأنه يُسجَّلُ في أعصابِ المؤمنِ حسابُ قُوَّتِهِ وربحيه فله في كلِّ سنةٍ زيادةً $\frac{1}{3}$ - ٨ من قُوَّتِهِ المعنويةِ الروحانيةِ.

وسخرَ العظامِ في هذه الدنيا إنَّما يكونُ في الأمةِ التي تعرفُ كيفَ تدخُرُ هذه

القوة وتوفرها لتستمدّها عند الحاجة، وذلك هو سرُّ أسلافنا الأولين الذين كانوا يجدون على الفقر في دمائهم وأعصابهم ما تجدُ الجيوش العظمى اليوم في مخازن العتاد والأسلحة والذخيرة.

كلُّ ما ذكرته في هذا المقال من فلسفة الصوم؛ فإنما أستخرجته من هذه الآية الكريمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. وقد فهمها العلماء جميعاً على أنها معنى «التقوى»، أمّا أنا فأولّتها من «الاتقاء»؛ فالصوم يتّقي المرء على نفسه أن يكون كالحيوان الذي شريعته معدّته، وألا يعامل الدنيا إلاّ بموادّ هذه الشريعة؛ ويتّقي المجتمع على إنسانيّته وطبيعته مثل ذلك، فلا يكون إنسان مع إنسان كحمار مع إنسان؛ يبيعه القوة كلّها بالقليل من العلف.

وبالصوم يتّقي هذا وهذا ما بين يديه وما خلفه، فإنّ ما بين يديه هو الحاضر من طباعه وأخلاقه، وما خلفه هو الجيل الذي سيرث من هذه الطبائع والأخلاق، فيعمل بنفسه في الحاضر، ويعمل بالحاضر في الآتي.

وكلُّ ما شرحناه فهو اتقاء ضررٍ لجلب منفعة، واتقاء رذيلةٍ لجلب فضيلة؛ وبهذا التأويل تتوجّه الآية الكريمة جهةً فلسفيّةً عاليّةً، لا يأتي البيان ولا العلم ولا الفلسفة بأوجز^(١) ولا أكمل من لفظها؛ ويتوجّه الصيام على أنّه شريعة اجتماعيّة إنسانيّة عامّة؛ يتّقي بها ألاّ اجتماع ضرور نفسه؛ ولن يتهذب العالم إلاّ إذا كان له مع القوانين النافذة هذا القانون العام الذي أسّمه الصوم، ومعناه «قانون البطن»....

ألا ما أعظمك يا شهر رمضان! لو عرّفك العالم حقّ معرفتك لسمّاك: «مدرسة الثلاثين يوماً».

(١) أوجز: أخصر، أبلغ.

ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ

لو أَنَّنِي سَأَلْتُ أَنْ أَجْمَلَ فلسفة الدين الإسلاميَّ كُلَّهَا في لَفْظَيْنِ، لَقُلْتُ: إِنَّهَا ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ «ولو سَأَلْتُ أَكْبَرَ فلاسفة الدنيا أَنْ يُوجِزَ علاجُ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلُّهُ في حرفَيْنِ، لَمَّا زَادَ عَلَى الْقَوْلِ: إِنَّهُ ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ. وَلَوْ أَجْتَمَعَ كُلُّ عُلَمَاءِ أَوْرَبَا لِيَدْرِسُوا الْمَدِينَةَ الْأَوْرَبِيَّةَ وَيَحْضُرُوا مَا يُعْزِزُهَا فِي كَلِمَتَيْنِ لَقَالُوا: ثَبَاتُ الْأَخْلَاقِ.

فَلَيْسَ يَنْتَظَرُ الْعَالَمُ أَنْبِيَاءَ وَلَا فَلَاسِفَةً وَلَا مُصْلِحِينَ وَلَا عُلَمَاءَ يُدْعَوْنَ لَهُ بِدْعاً جَدِيداً؛ وَإِنَّمَا هُوَ يَتَرَقَّبُ^(١) مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَفْسَرَ لَهُ الْإِسْلَامَ هَذَا التَّفْسِيرَ، وَيُثَبِّتَ لِلدُّنْيَا أَنَّ كُلَّ الْعِبَادَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ هِيَ وَسَائِلُ عَمَلِيَّةٍ تَمْنَعُ الْأَخْلَاقَ الْإِنْسَانِيَّةَ أَنْ تَتَبَدَّلَ فِي الْحَيِّ فَيَخْلَعُ مِنْهَا وَيَلْبَسَ، إِذَا تَبَدَّلَتْ أَحْوَالُ الْحَيَاةِ فَصَعِدَتْ بِإِنْسَانِهَا أَوْ نَزَلَتْ؛ وَأَنَّ الْإِسْلَامَ يَأْتِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانٌ حَالِيهِ الَّتِي هُوَ فِيهَا مِنَ الثَّرْوَةِ أَوْ الْعُلُومِ، وَمِنَ الْارْتِفَاعِ أَوْ الضُّعْفِ^(٢)، وَمِنَ خُمُولِ الْمَنْزِلَةِ أَوْ نِبَاهَتِهَا^(٣)؛ وَيُوجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أَنْ يَكُونَ إِنْسَانٌ الدَّرَجَةِ الَّتِي أَنْتَهَى إِلَيْهَا الْكَوْنُ فِي سَمُوِّهِ وَكَمَالِهِ، وَفِي تَقْلِبِهِ عَلَى مَنَازِلِهِ بَعْدَ أَنْ صُفِّيَ فِي شَرِيعَةٍ بَعْدَ شَرِيعَةٍ، وَتَجَرِبَةٍ بَعْدَ تَجَرِبَةٍ، وَعِلْمٍ بَعْدَ عِلْمٍ.

انْتَهَتْ الْمَدِينَةُ إِلَى تَبَدُّلِ الْأَخْلَاقِ بِتَبَدُّلِ أَحْوَالِ الْحَيَاةِ، فَمَنْ كَانَ تَقِيًّا عَلَى الْفَقْرِ وَالْإِمْلَاقِ^(٤) وَحَرَمَهُ الْإِعْسَارُ^(٥) فَنَوَى اللَّذَّةَ، ثُمَّ أَيْسَرَ مِنْ بَعْدُ؛ جَازَ لَهُ أَنْ يَكُونَ فَاجِراً عَلَى الْغِنَى وَأَنْ يَتَسَمَّحَ لِفُجُورِهِ عَلَى مَدٍّ مَا يَتَطَوَّحُ بِهِ أَلْمَالُ، وَإِنْ أَصْبَحَ فِي كُلِّ دِينَارٍ مِنْ مَالِهِ شِقَاءٌ نَفْسٍ إِنْسَانِيَّةٍ أَوْ فَسَادُهَا.

وَمَنْ وُلِدَ فِي بَطْنِ كُوخٍ، أَوْ عَلَى ظَهْرِ الطَّرِيقِ، وَجَبَ أَنْ يَبْقَى أَرْضاً إِنْسَانِيَّةً؛ كَأَنَّ أَلَّةَ (سَبْحَانَهُ) لَمْ يَبْنِ مِنْ عِظَامِهِ وَلَحْمِهِ وَأَعْصَابِهِ إِلَّا خَرِبَةً أَدْمِيَّةً مِنْ غَيْرِ هِنْدَسَةِ

(١) يَتَرَقَّبُ: يَنْتَظِرُ.

(٢) الضُّعْفُ: الْمَذَلَّةُ.

(٣) نِبَاهَتُهَا: عُلُوُّ مَنَزِلَتِهَا.

(٤) الْإِمْلَاقُ: الْفَقْرُ الشَّدِيدُ الْمَدْفَعُ.

(٥) الْإِعْسَارُ: الْفَقْرُ.

ولا نظام ولا فن... ثُمَّ يُقَابَلُهُ مَنْ وُلِدَ فِي الْقَصْرِ أَوْ شَبِهَ الْقَصْرِ فَلَهُ حَكْمٌ آخَرُ،
كَأَنَّ اللَّهَ (سُبْحَانَهُ) قَدْ رَكَّبَ مِنْ عَظْمِهِ وَدَمِهِ وَتَكْوِينِهِ آيَةً هَنْدَسِيَّةً وَأَعْجُوبَةً فَنٌّ،
وَطُرْفَةً تَدْبِيرٍ، وَشَيْئاً مَعَ شَيْءٍ، وَطَبَقَةً عَلَى طَبَقَةٍ.

ولكنَّ الإسلامَ يُقَرِّرُ ثَبَاتَ الْخُلُقِ وَيُوجِبُهُ وَيُنْشِئُ النَّفْسَ عَلَيْهِ، وَيَجْعَلُهُ فِي
حَيَاطَةِ الْمَجْتَمَعِ وَجِرَاسَتِهِ، لِأَنَّ هُنَاكَ حُدُوداً فِي الْإِنْسَانِيَّةِ تَتَمَيَّزُ بِحُدُودٍ فِي الْحَيَاةِ،
وَلَا بَدْءَ مِنَ الضُّبْطِ فِي هَذِهِ وَهَذِهِ، حَتَّى لَا يَكُونَ وَضْعٌ إِلَّا وَرَاءَهُ تَقْدِيرٌ، وَلَا تَقْدِيرٌ
إِلَّا مَعَهُ حِكْمَةٌ، وَلَا حِكْمَةٌ إِلَّا فِيهَا مَصْلَحَةٌ؛ وَحَتَّى لَا تَعْلُوَ الْحَيَاةُ وَلَا تَنْزَلَ إِلَّا
بِمِثْلِ مَا تَرَى مِنْ كِفَافِ مِيزَانٍ شَدَّتَا فِي عِلَاقَةٍ تَجْمَعُهُمَا وَتَحْرُكُهُمَا مَعاً، فَهِيَ بِذَاتِهَا
هِيَ الَّتِي تَنْزَلُ بِالنَّازِلِ لَتَدُلَّ عَلَيْهِ، وَتَسِيلُ بِالْعَالِي لِتَبَيَّنَ عَنْهُ؛ فَالْإِسْلَامُ مِنَ الْمَدْنِيَّةِ
هُوَ مَدْنِيَّةُ هَذِهِ الْمَدْنِيَّةِ.

إِنَّهَا لَنْ تَتَغَيَّرَ مَادَّةُ الْعَظْمِ وَاللَّحْمِ وَالْدَّمِ فِي الْإِنْسَانِ فَهِيَ ثَابِتَةٌ مَقْدَرَةٌ عَلَيْهِ،
وَلَنْ تَتَبَدَّلَ أَلْسُنُ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي تُوجِدُهَا وَتُنْفِيهَا فَهِيَ مُصَرَّفَةٌ لَهَا قَاضِيَةٌ عَلَيْهَا، وَبَيْنَ
عَمَلِ هَذِهِ الْمَادَّةِ وَعَمَلِ قَانُونِهَا، فِيهَا تَكُونُ أَسْرَارُ التَّكْوِينِ: وَفِي هَذِهِ الْأَسْرَارِ تَجْدُ
تَارِيخَ الْإِنْسَانِيَّةِ كُلَّهُ سَابِحاً فِي الدَّمِ.

هِيَ الْغَرَائِزُ تَعْمَلُ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلَهَا الْإِلَهِيَّ، وَهِيَ مُحَدَّدَةٌ مُحْكَمَةٌ عَلَى مَا
يَكُونُ مِنْ تَعَادِيهَا وَأَخْتِلَافِ بَيْنِهَا، وَكَأَنَّهَا خُلِقَتْ بِمَجْمُوعِهَا لِمَجْمُوعِهَا؛ وَمَنْ ثُمَّ
يَكُونُ الْخُلُقُ الصَّحِيحُ فِي مَعْنَاهُ قَانُوناً إِلَهِيّاً عَلَى قُوَّةِ كَقُوَّةِ الْكُونِ وَضُبْطِ كَضْبِطِهِ.

وَبِهَذِهِ الْقُوَّةِ وَهَذَا الضُّبْطِ يَسْتَطِيعُ الْخُلُقُ أَنْ يَحْوَلَ الْمَادَّةُ الَّتِي تُعَارِضُهُ إِذَا هُوَ
أَشْتَدَّ وَضَلْبٌ، وَلَكِنَّهُ يَتَحَوَّلُ مَعَهَا إِذَا هُوَ لَانَ أَوْ ضَعُفَ. فَهُوَ قَدَرٌ إِلَّا أَنَّهُ فِي
طَاعَتِكَ، إِذْ هُوَ قُوَّةُ الْفَضْلِ بَيْنَ إِنْسَانِيَّتِكَ وَحَيَوَانِيَّتِكَ، كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ الْمَزْجِ بَيْنَهُمَا،
كَمَا أَنَّهُ قُوَّةُ التَّعْدِيلِ فِيهِمَا، وَقَدْ سَوَّغَ^(١) الْقُدْرَةَ عَلَى هَذِهِ الْأَحْوَالِ جَمِيعاً، وَلَوْلَا أَنَّهُ
بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ لَعَاشَ الْإِنْسَانُ طَوْلَ التَّارِيخِ قَبْلَ التَّارِيخِ، إِذْ لَنْ يَكُونَ لَهُ حِينٌ كَوْنٌ
تَوَرَّخُ فُضَائِلُهُ أَوْ رِذَائِلُهُ بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ.

فَلَا عِبْرَةَ^(٢) بِمَظْهَرِ الْحَيَاةِ فِي الْفَرْدِ، إِذْ الْفَرْدُ مُقَيَّدٌ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ بِمَجْمُوعٍ هُوَ

(١) سَوَّغَ: عَلَّلَ وَسَمَحَ.

(٢) عِبْرَةٌ، بِكسر العين: الدرس والأمثلة.

للمجموع وليس له وحده: فإنك ترى الغرائز دائبة^(١) في إيجاد هذا الفرد لنوعه بسُنن من أعمالها، ودائبة كذلك في إهلاكه في النوع نفسه بسُنن أخرى؛ فليس قانون الفرد إلا أمراً عارضاً كما ترى؛ وبهذا يمكن أن يتحوّل الفرد على أسباب مختلفة، ثم تبقى الأخلاق التي بينه وبين المجموع ثابتة على صورتها.

فالأخلاق على أنها لأفراد، هي في حقيقتها حكم المجتمع على أفرادِهِ؛ فقوامها بالاعتبار الاجتماعي لا غير.

وحين يقع الفساد في المُجمَع عليه من آداب الناس، ويلتوي ما كان مستقيماً، وتشتبه العالِيَةُ والسافِلَةُ^(٢)، وتطرح^(٣) المبالاة بالضمير الاجتماعي، ويقوم وزن الحكم في اجتماعهم على القبيح والمنكر، وتجري العبرة فيما يعتبرونه بالذائل والمحرمات، ولا يعجب الناس إلا ما يفسدُهم، ويقع ذلك منهم بموقع القانون ويحل في محل العادة؛ فهناك لا مساك للخلق السليم على فرد، ولا بد من تحوّل الفرد في حقيقته؛ إذ كان لا يجيء أبداً إلا مُتصدّعا^(٤) في كل مظهره الاجتماعي، فأينما وقع من أعمال الناس جاء مكسوراً أو مثلوماً، وكأَنَّهُ منتقل من عالم إلى عالم ثانٍ بغير نوايس الأول.

وما شد من هذه القاعدة إلا الأنبياء وأفراد من الحكماء؛ فأما أولئك فهم قوة التحويل في تاريخ الإنسانية: لا يبعث أحدهم إلا ليهيَج به الهَيْخُ في التاريخ، ويتطرق به الناس إلى سُبُل جديدة كأنما تطردُهم إليها العواصف والزلازل والبراكين، لا شريعته ومبادئه وآدابه؛ وأما الحكماء الناضجون فيهم دائماً في هذه الإنسانية أمكنة بشرية مُحَصَّنة لحفظ كنوزها وإحرازها في أنفسهم، فلهم في ذات أنفسهم عِصْمَةٌ وَمَنَعَةٌ كالجبال في ذات الأرض.

الأخلاق في رأيي هي الطريقة لتنظيم الشخصية الفردية على مقتضى الواجبات العامة، فالإصلاح فيها إنما يكون من عمل هذه الواجبات، أي من ناحية المجتمع والقائمين على حكمه. وعندي أن للشعب ظاهراً وباطناً؛ فباطنه هو الدين

(١) دائبة: مستمرة بطلبها.

(٢) السافلة: الرعاع.

(٣) تطرح: ترمى وتُتجاهل.

(٤) متصدعاً: متهدماً.

الذي يحكم الفرد، وظاهره هو القانون الذي يحكم الجميع، ولن يصلح للباطن المتصل بالغيب إلا ذلك الحكم الديني المتصل بالغيب مثله؛ ومن هنا تتبين مواضع الاختلال في المدنية الأوربية الجديدة؛ فهي في ظاهر الشعب دون باطنه، والفرد فاسد بها في ذات نفسه إذا هو تحلل من الدين، ولكنه مع ذلك يبدو صالحاً منتظماً في ظاهره الاجتماعي بالقوانين والآداب العامة التي تفرضها القوانين، فلا يبرح هائلاً من الأخلاق ساخراً بها؛ لأنها غير ثابتة فيه، ثم لا تكون عنده أخلاقاً يعتد بها إلا إذا درت بها منافعه، وإلا فهي ضارة إذا كانت منها مضرّة، وهي مؤلمة إذا حالت دون الكليات. ولا ينفك هذا الفرد يتحول لأنه مطلق في باطنه غير مقيّد إلا بأهوائه ونزعاته، وكلمات الفضيلة والرذيلة معدومتان في لغة الأهواء والنزعات؛ إذ الغاية أمتاع واللذة والنجاح، وليكن السبب ما هو كائن...

وبهذا فلن تقوم القوانين في أوربا إذا فني المؤمنون بالأديان فيها أو كآثرهم^(١) الملحدون، وهم اليوم يبنصرون بأعينهم ما فعلت عقيلة الحرب العظمى في طوائف منهم قد خربت أنفسهم من إيمانهم فتحولوا ذلك التحول الذي أومأنا إليه، فإذا أعصابهم بعد الحرب ما تزال محاربة مقاتلة ترمي في كل شيء بروح الدم والأشلاء والقبور والتعفن والبلى... وأنتهت الحرب بين أمم وأمم، ولكنها بدأت بين أخلاق وأخلاق.

وقديماً حارب المسلمون، وفتحوا العالم، ودوخوا الأمم؛ فأثبتوا في كل أرض هدي دينهم وقوة أخلاقهم الثابتة، وكان من وراء أنفسهم في الحرب ما هو من ورائها في السلم، وذلك بثبات باطنهم الذي لا يتحول، ولا تستخفه الحياة بنزقها، ولا تسفّه^(٢) المدنيات فتحمله على الطيش.

ولو كانوا هم أهل هذه الحرب الأخيرة بكل ما قدفت به الدنيا. لبقيت لهم العقلية المؤمنة القوية، لأن كل مسلم فإنما هوو عقيلته في سلطان باطنه الثابت القار على حدود بينة محصلة مقسومة، تحوطها وتمسكها أعمال الإيمان التي أحكمها الإسلام أشد إحكام بقرضها على النفوس منوعة مكررة: كالصلاة والصوم والزكاة، ليمنع بها تغيراً ويحدث بها تغيراً آخر، ويجعلها كالحارس للإرادة ما تزال تمر بها وتتعهدها بين الساعة والساعة.

إنما الظاهر والباطن كالموج والساحل؛ فإذا جنّ الموج فلن يضره ما بقي

(١) كآثرهم: فاخرهم بكثرة.

(٢) تسفه: تنزل به إلى الحضيض.

الساحل ركيناً هادئاً مشدوداً بأغضاده في طبقات الأرض . أما إذا ماج الساحل . . .
فذلك أسلوب آخر غير أسلوب البحار والأعاصير ؛ ولا جرم^(١) ألا يكون إلا خسفاً
بالأرض والماء وما يتصل بهما .

في الكون أصل لا يتغير ولا يتبدل ، هو قانون ضبط القوة وتصريفها وتوجيهها
على مقتضى الحكمة . ويُقابله في الإنسان قانون مثله لا بد منه لضبط معاني الإنسان
وتصريفها وتوجيهها على مقتضى الكمال . وكل فروض الدين الإسلامي وواجباته
وآدابه ، إن هي إلا حركة هذا القانون في عمله ؛ فما تلك إلا طرق ثابتة لخلق الحس
الأدبي ، وتثبيته بالتكرار ، وإدخاله في ناموس طبيعي بإجرائه في الأنفس مجرى العادة ،
وجعله بكل ذلك قوة في باطنها ، فتسمى الواجبات والآداب فروضاً دينية ؛ وما هي في
الواقع إلا عناصر تكوين النفس العالية ، وتكون أوامر وهي حقائق .

ومن ذلك أرانا - نحن الشرقيين - نمتاز على الأوروبيين بأننا أقرب منهم إلى
قوانين الكون ؛ ففي أنفسنا ضوابط قوية متينة إذا نحن أقرزنا مدينتهم فيها - وهي
بطبيعتها لا تقبل إلا محاسن هذه المدنية - سبقناهم وتركنا غبار أقدامنا في
وجوههم ، وكنا الطبقة المصفاة التي ينشدونها^(٢) في إنسانيتهم الراهنة^(٣) ولا
يجدونها ، ونمتاز عنهم من جهة أخرى بأننا لم ننشئ هذه المدنية ولم ننشئنا ،
فليس حقاً علينا أن نأخذ سيئاتها من حسناتها ، وحماقتها في حكميتها ، وتزويرها في
حقيقتها ؛ وأن نسيغ^(٤) منها الحلوة والمرّة ، والناضجة والفجة ؛ وإنما نحن نحصلها
ونقتبسها ونرتجع منها الرجعة الحسنة ؛ فلا نأخذ إلا الشيء الصالح مكان الشيء قد
كان دونه عندنا ونُدع ما سوى ذلك ؛ ثم لا نأخذ ولا ندع إلا على الأصول الضابطة
المحكمة في أدياننا وآدابنا ؛ ولسنا مثلهم متصلين من حاضر مدينتهم بمثل
ماضيهم ، بيد أن العجب الذي ما يفرغ عجب منهُ ، أن الموسومين^(٥) مِنَّا بالتجديد
لا يحاولون أول وهلة وآخرها إلا هدم تلك الضوابط التي هي كل ما نمتاز به ،
والتي هي كذلك كل ما تحتاج إليه أوربا لضبط مدينتها ؛ ويسمون ذلك تجديداً ،
ولهو بأن يسمى حماقة وجهلاً أولى وأحق .

(١) لا جرم : لا شك .

(٢) ينشدونها : يطلبونها .

(٣) الراهنة : الحالية .

(٤) نسيغ : نجد طعم .

(٥) الموسومين : المعروفين بطابع التجديد .

أقول ولا أبالي: إننا أثبتنا في نهضتنا هذه بقوم من المترجمين قد احترفوا^(١) النقل من لغات أوربا، ولا عقل إلا عقل ما ينقلونه: فصنعتهم الترجمة من حيث يدرون أو لا يدرون صنعة تقليد مخض ومُتَابَعَة مُسْتَعْبَدَة، وأصبح عقلهم - بحكم العادة والطبيعة - إذا فكر أنجذب إلى ذلك الأصل لا يخرج عليه ولا يتحول عنه. وإذا صح أن أعمالنا هي التي تعملنا - كما يقول بعض الحكماء - فهم بذلك خطر أي خطر على الشعب وقوميته وذاتيته وخصائصه، ويوشك إذا هو أطاعهم إلى كل ما يدعون إليه أن... أن يترجموه إلى شعب آخر...

* * *

إن أوربا ومدنيتها لا تساوي عندنا شيئا إلا بمقدار ما تحقق فينا من اتساع الذاتية بعلومها وفنونها، فإنما الذاتية وحدها هي أساس قوتنا في النزاع العالمي بكل مظاهره أيها كان؛ ولها وحدها، وباعتبار منها دون سواها، نأخذ ما نأخذ من مدينة أوربا ونهمل ما نهمل؛ ولا يجوز أن نترك أثبت في هذا ولا أن نتسامح في دقة المحاسبة عليه.

فالمحافظة على الضوابط الإنسانية القوية التي هي مظاهر الأديان فينا، ثم إدخال الواجبات الاجتماعية الحديثة في هذه الضوابط لربطها بالعصر وحضارته، ثم تنسيق مظهر الأمة على مقتضى هذه الواجبات والضوابط، ثم العمل على اتحاد المشاعر وتمازجها لتقويم هذا المظهر الشعبي في جملته بتقويم أجزائه - هذه هي الأركان الأربعة التي لا يقوم على غيرها بناء الشرق.

والإلحاد والنزعات السافلة وتخانيث المدينة الأوربية التي لا عمل لها إلا أن تظهر الخطر في أجمل أشكاله... ثم الجهل بعلوم القوة الحديثة وبأصول التدبير وحيطة الاجتماع وما جرى هذا المجرى، ثم التذليل^(٢) على الأمة بآراء المقلدين والزائفين والمستعمرين لمحق الأخلاق الشعبية القوية وما اتصل بذلك، ثم التخاذل والشقاق وتدابير الطوائف وما كان بسبيلها - تلك هي المعاول الأربعة التي لا يهدم غيرها بناء الشرق.

فليكن دائما شعارنا - نحن الشرقيين - هذه الكلمة: أخلاقنا قبل مدنيّتهم.

(١) احترفوا: اتخذوا حرفة.

(٢) التذليل: الكذب.

قُلْتُ لِنَفْسِي وَقَالَتْ لِي...

قُلْتُ لِنَفْسِي: ويحك يا نفس! مالي أتحامل عليك؛ فإذا وقَّيت بما في وسعك أردت منك ما فوقه وكلفتك أن تسعي؛ فلا أزال أغيتك^(١) من بعد كمال فيما هو أكمل منه، وبعد الحسن فيما هو الأحسن؛ وما أنفك أجهدك كلما راجعك النشاط، وأضنيك كلما ثابت القوة؛ فإن تكن لك هموم فأنا أكبرها، وإذا ساورتك الأحزان فأكثرها مما أجلب عليك.

أنت يا نفس سائرة على التَّهَج، وأنا أعتسف^(٢) بك أريد الطيران لا السير، وأبتغي عمل الأعمار في عُمر، وأسحَّك من كل هَجَّة^(٣) راحة بفجر تعب جديد، وكأنني لك زمن يمدُّ بعضه بعضاً، فما يبرح ينبثق عليك من ظلام بنور ومن نور بظلام؛ ليُهَيِّءَ لك القوة التي تمتدُّ بك في التاريخ من بعد، فتذهبين حين تذهبين ويعيش قلبك في العالم سارياً بكلمات أفرجه وأحزانه.

وقالت لي النفس: أما أنا فإنني معك ذاباً كالحبيبة الوفيَّة لمن تحبُّه: ترى خضوعها أحياناً هو أحسن المقاومة؛ وأما أنت فإذا لم تكن تتعب ولا تزال تتعب فكيف تُريني أنك تتقدَّم ولا تزال تتقدَّم؟

ليست دُنياك يا صاحبي ما تجده من غيرك، بل ما توجده بنفسك؛ فإن لم تزد شيئاً على الدنيا كنت أنت زائداً على الدنيا؛ وإن لم تدعها أحسن مما وجدتْها فقد وجدتْها وما وجدتْك؛ وفي نفسك أول حدود دُنياك وآخر حدودها. وقد تكون دُنيا بعض الناس حانوتاً صغيراً، ودُنيا الآخر كالقرية المملَّمة^(٤)، ودُنيا بعضهم كالمدينة الكبيرة؛ أما دُنيا العظيم فقارةٌ بأكملها، وإذا أنفرد امتدَّ في الدنيا فكان هو الدنيا.

(١) أعت: أتعِب.

(٢) اعتسف: رقدة.

(٣) هجعة: رقعة.

(٤) المملمة: يقصد بذلك القرية الصغيرة.

وَالْقُوَّةُ يَا صَاحِبِي تُغْتَذَى بِالتَّعَبِ وَالْمُعَانَاةِ؛ فَمَا عَانَيْتَهُ أَيْوَمَ حَرَكَةٍ مِنْ جَسَدِكَ، أَلْفَيْتَهُ^(١) غَدَاً فِي جَسَدِكَ قُوَّةً مِنْ قُوَى اللَّحْمِ وَالْدَّمِ. وَسَاعَةُ الْأَرَاخَةِ بَعْدَ أَيَّامٍ مِنَ التَّعَبِ، هِيَ فِي لَذَّتِهَا كَأَيَّامٍ مِنَ الْأَرَاخَةِ بَعْدَ تَعَبِ سَاعَةٍ. وَمَا أَشْبَهَ الْحَيَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا وَوَشَكَّ أَنْقِطَاعِهِ مِنْهَا، بِمَنْ خُلِقَ لِيَعِيشَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مَعْدُودَةٍ عَلَيْهِ سَاعَاتُهَا وَدَقَائِقُهَا وَثَوَانِيهَا؛ أَفْتَرَاهُ يَغْفُلُ فَيَقْدُرُهَا ثَلَاثَةَ أَعْوَامٍ، وَيَذْهَبُ يُسْرِفُ فِيهَا ضَرْوباً مِنْ لَهْوِهِ وَلَعِبِهِ وَمُجُونِهِ، إِلَّا إِذَا كَانَ أَحْمَقُ أَحْمَقَ إِلَى نَهَايَةِ الْحُمُقِ؟

إِتْعَبْ تَعَبَكَ يَا صَاحِبِي، فِي النَّاسِ تَعَبَ مَخْلُوقٍ مِنْ عَمَلِهِ، فَهُوَ لَيْنٌ هَيِّنٌ مُسَوًى تَسْوِيَةً؛ وَفِيهِمْ تَعَبُ خَالِقٍ عَمَلَهُ، فَهُوَ جَبَّارٌ مَتَمَرِّدٌ لَهُ الْقَهْرُ وَالْعَلْبَةُ. وَأَنْتَ إِنَّمَا تَكْذُ لِتَسْمُوَ بِرُوحِكَ إِلَى هَمُومِ الْحَقِيقَةِ الْعَالِيَةِ، وَتَسْمُوَ بِجَسَدِكَ إِلَى مَشَقَّاتِ الرُّوحِ الْعَظِيمَةِ؛ فَذَلِكَ يَا صَاحِبِي لَيْسَ تَعَباً فِي حَفْرِ الْأَرْضِ، وَلَكِنَّهُ تَعَبٌ فِي حَفْرِ الْكَتْرِ.

إِتْعَبْ يَا صَاحِبِي تَعَبَكَ؛ فَإِنَّ عَنَاءَ الرُّوحِ هُوَ عُمْرُهَا؛ فَأَعْمَالُكَ عُمْرُكَ الرُّوحَانِي، كَعُمْرِ الْجَسَمِ لِلْجَسَمِ؛ وَأَحَدُ هَذَيْنِ عُمْرٌ مَا يَعِيشُ، وَالْآخَرُ عُمْرٌ مَا سَيَعِيشُ.

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَقَدْ مَلَلْتُ أَشْيَاءَ وَتَبَرَّمْتُ بِأَشْيَاءَ. وَإِنَّ عَمَلَ التَّغْيِيرِ فِي الدُّنْيَا لَهُوَ هَذَا لَهَا كُلَّمَا بُنِيَتْ، ثُمَّ بِنَاؤُهَا كُلَّمَا هُدِمَتْ؛ فَمَا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا هُوَ قَائِمٌ فِي السَّاعَةِ أَلَوَّاحِدَةٍ بِصُورَتَيْنِ مَعاً؛ وَكَمْ مِنْ صَدِيقٍ خَلَطْتُهُ بِالنَّفْسِ يَذْهَبُ فِيهَا ذَهَابَ الْمَاءِ فِي الْمَاءِ، حَتَّى إِذَا مَرَّ يَوْمٌ، أَوْ عَهْدٌ كَالْيَوْمِ، رَأَيْتُ فِي مَكَانِهِ إِنْسَاناً خِيَالِيّاً كَمَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ الثُّحَاةِ فِيهَا قَوْلَانِ...! فَهُوَ يَحْتَمِلُ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ تَأْوِيلَ مَا أَظُنُّ بِهِ مِنْ خَيْرٍ، وَمَا أَتَوَقَّعُ بِهِ مِنْ شَرٍّ! وَكَمْ مِنْ أَسْمٍ جَمِيلٍ إِذَا هَجَسَ^(٢) فِي خَاطِرِي قُلْتُ: آه، هَذَا الَّذِي كَانَ...!

أَمَّا - وَاللَّهِ - إِنَّ ثِيَابَ النَّاسِ لَتَجْعَلُهُمْ أَكْثَرَ تَشَابُهاً فِي رَأْيِ النَّفْسِ، مِمَّا تَجْعَلُهُمْ وَجُوهُهُمْ أَلْتِي لَا تَخْتَلِفُ فِي رَأْيِ الْعَيْنِ: وَإِنِّي لَأَرَى الْعَالَمَ أحياناً كَالْقِطَارِ السَّرِيعِ مُنْطَلِقاً بِرَكْبِهِ وَلَيْسَ فِيهِ مَنْ يَقُودُهُ، وَأَرَى الْغَفْلَةَ الْمُفْرِطَةَ^(٣) قَدْ بَلَغَتْ مِنْ هَذَا النَّاسِ مَبْلَغَ مَنْ يَظُنُّ أَنَّهُ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ كَالْمَوْظَفِ تَحْتَ التَّجَرِبَةِ، فَإِذَا قَضَى أَلْمَدَّةَ قِيلَ لَهُ: اِبْدَأْ مِنَ الْآنَ. كَأَنَّهُ إِذَا عَاشَ يَتَعَلَّمُ الْخَيْرَ وَالشَّرَّ، وَيُدْرِكُ مَا يَضْلُحُ وَمَا لَا

(١) أَلْفَيْتَهُ: وَجَدْتَهُ.

(٢) هَجَسَ: طَرَأَ عَلَى الْبَالِي.

(٣) الْمُفْرِطَةُ: الزَّائِدَةُ.

يصلح، وأنتهى من عمره إلى النهاية المحدودة - رَجَعَ من بعدها يعيش منتظماً على استواء واستقامة، وفي إدراك وتميز. مع أنَّ الخرافة نفسها لم تقبل قط أن يُعدَّ منها في أوهام الحياة أن رجلاً بلغ الثمانين أو التسعين وحان أجله فأصبحوا لم يجدوه ميتاً في فراشه؛ بل وجدوه مولوداً في فراشه...!

وقالت لي النفس: وأنت ما شأئك بالناس والعالم؟ يا هذا ليس لمصباح الطريق أن يقول: «إنَّ الطريقَ مظلمٌ». إنّما قوله إذا أرادَ كلاماً أن يقول: «هأنذا مُضيءٌ».

والحكيم لا يضجر ولا يضيق ولا يتملّل، كما أنّه لا يسخف ولا يطيش ولا يسترسل^(١) في كذب ألوههم؛ فإنَّ هذا كله أثر الحياة البهيمية في هذه البهيمية الإنسانية، لا أثر الروح القويّة في إنسانها. والحيوان هو الذي يجوع ويشبع لا النفس. وبين كلَّ شيتين ممّا يَغتَوِرُ الحيوانيّة - كالخلوِّ والامتلاء، واللذة والألم - تعمل قوَى الحيوانِ أشياءَها الكثيرة التي تتسلطُّ بها على النفس، لتخطّها من مرتبة إلى أن تجعلها كنفوسِ الحيوان؛ ولهذا كان أولُ الحِكْمَةِ ضبطَ الأدواتِ الحيوانيّة في الجسم، كما توضع اليدُ العالمُة على مفاتيحِ القطارِ المنطلقِ يتسعرُ مزجلُهُ ويغلي.

إعمل يا صاحبي عملك؛ فإذا رأيتَ في العاملين من يضجر فلا تضجر مثله، بل خذ أطمئنائه إلى اطمئنانك، ودعه يخلو وتضاعف أنت.

إنه ليوشك أن يكونَ في الناسِ ناسٌ (كالبنوك)؛ هذه مستودعاتُ للمالِ تحفظُهُ وتُخرجُ منه وتُثمرُهُ، وتلك مستودعاتُ للفضائلِ تحفظُها وتُخرجُ منها وتزيدها. وإفلاسُ رجلٍ من أهل المال، هو إطلاقُ النكبةِ مُسدِّسها على رجلٍ تقتله؛ ولكنَّ إفلاسَ (بنك) هو إطلاقُ النكبةِ مدفعها الكبير على مدينةٍ تدمرها.

قلتُ لنفسي: فما أشدَّ الألمَ في تحويلِ هذا الجسدِ إلى شبهِ روحٍ مع الروح! تلك هي المعجزة التي لا توجدُ في غير الأنبياء، ولكنَّ العملَ لها يجعلها كأنها موجودة. والأسدُ المحبوسُ محبوسٌ فيه قُوَّتُهُ وطِباعُهُ؛ فإنَّ زالَ الوجودُ الحديديُّ من حوله أو هتَّتْ^(٢) ناحيةٌ منه، انطلقَ ألوحش. والرجلُ الأفاضلُ فاضلٌ ما دامَ في

(٢) وهنت: ضعفت.

(١) استرسل: تمادى واستمر.

فَقَصِبِهِ الْفِكْرِي، وهو ما دامَ في هذا القفصِ فعليه أن يكونَ دائماً نموذجاً معروضاً للتفتيح^(١) المُمكنِ في النفسِ الْإنْسَانِيَّةِ: تُصَيِّهُ السَّيِّئَةُ مِنَ النَّاسِ لِتُخْتَبَرَ فِيهِ الْحَسَنَةُ، وَتَبْلُوهُ الْخِيَانَةُ لِتُجَدَّ الْوَفَاءُ، وَيَكْرَهُ الْبُغْضُ لِيُقَابِلَهُ بِالْحُبِّ، وَتَأْتِيهِ الْلَعْنَةُ لِتُجَدَّ الْمَغْفِرَةُ؛ وَلَهُ قَلْبٌ لَا يَتَعَبُ فَيَبْلُغُ مَنْزِلَةً إِلَّا أَبْتَدَأَ التَّعَبَ لِيَبْلُغَ مَنْزِلَةً أَعْلَى مِنْهَا، وَلَهُ فِكْرٌ كُلَّمَا جَهَدَ فَأَدْرَكَ حَقِيقَةً كَانَتْ الْحَقِيقَةُ أَنْ يَجْهَدَ فَيُدْرِكَ غَيْرَهَا.

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ: إِنَّ مَنْ فَاقَ النَّاسَ بِنَفْسِهِ الْكَبِيرَةِ كَانَتْ عَظَمَتُهُ فِي أَنْ يَفُوقَ نَفْسَهُ الْكَبِيرَةَ؛ إِنَّ الشَّيْءَ الْنَهَائِيَّ لَا يُوجَدُ إِلَّا فِي الصَّغَائِرِ وَالشَّرِّ، أَمَّا الْخَيْرُ وَالْكَمَالُ وَعِظَائِمُ النَّفْسِ وَالْجَمَالُ الْأُسْنَى، فَهَذِهِ حَقَائِقُ أَزَلِيَّةٌ وَجَدَتْ لِنَفْسِهَا: كَالْهَوَاءِ يَتَنَفَّسُهُ كُلُّ الْأَحْيَاءِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ وَلَا يَنْتَهِي، وَلَا يُعْرَفُ أَنْ تَكُونَ تِلْكَ الْأَصْفَاتُ مُنْبَعَثَةً إِلَى النَّفُوسِ مِنْ أَنْوَارِ الْمَلَائِكَةِ، وَبِهَذَا كَانَ أَكْبَرُ النَّاسِ حُظًّا مِنْهَا هُمُ الْأَنْبِيَاءُ الْمُتَّصِلِينَ بِتِلْكَ الْأَنْوَارِ.

وَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ أَنْ جَعَلَ فِي كُلِّ النَّفُوسِ الْإِنْسَانِيَّةِ أَصْلًا صَغِيرًا يَجْمَعُ فِكْرَةَ الْخَيْرِ وَالْكَمَالِ وَعِظَائِمِ النَّفْسِ وَالْجَمَالِ الْأُسْنَى، وَقَدْ تَعَظَّمَ فِيهِ هَذِهِ الصِّفَاتُ كُلُّهَا أَوْ بَعْضُهَا، وَقَدْ تَصَغَّرَ فِيهِ بَعْضُهَا أَوْ كُلُّهَا: أَلَا وَهُوَ الْحُبُّ.

لَا بُدَّ أَنْ تَمُرَّ كُلُّ حَيَاةٍ إِنْسَانِيَّةٍ فِي نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ الْحُبِّ؛ مِنْ رِقَّةِ النَّفْسِ وَرَحْمَتِهَا، إِلَى هَوَى النَّفْسِ وَعِشْقِهَا.

وَإِذَا بَلَغَ الْحُبُّ أَنْ يَكُونَ عِشْقًا، وَضَعَ يَدَهُ عَلَى الْمِفْتَاحِ الْعَصَبِيَّةِ لِلنَّفْسِ، وَفَتَحَ لِلْعِظَائِمِ وَالْمُعْجَزَاتِ أَبْوَابَهَا؛ حَتَّى إِنَّهُ لَيَجْعَلُ الْخُرَافَةَ الْفَارِغَةَ مَعْجَزَةً دَقِيقَةً، وَيَمْلَأُ الْحَيَاةَ بِمَعَانٍ لَمْ تَكُنْ فِيهَا مِنْ قَبْلُ، وَيَصْبِحُ سِرُّ هَذَا الْحُبِّ لَا يَنْتَهِي؛ إِذْ هُوَ سِرٌّ لَا يُدْرَكَ وَلَا يُعْرَفُ.

اجْهَدْ جُهْدَكَ يَا صَاحِبِي، فَمَا هُوَ قَفْصُكَ الْفِكْرِيُّ ذَلِكَ الشِّعَاعُ الَّذِي يَحْبِسُكَ، وَلَكِنَّهُ صَقْلٌ^(٢) النَّفْسِ لِتَتَلَقَّى الْأَنْوَارَ، وَلَا بُدَّ لِلْمَرَاةِ مِنْ ظَاهِرٍ غَيْرِ ظَاهِرِ الْحَجَرِ لِتَكُونَ بِهِ مَرَاةً.

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَمَا أَشَدُّهُ مَضْضًا^(٣) أَعَانِيهِ! إِنَّ أَمْرِي لَيَذْهَبُ فُرْطًا^(٤) أَكَلَمًا

(٣) مَضْضًا: أَلَمًا وَعَذَابًا.

(٤) فُرْطًا: مَجَاوِزًا الْحَدَّ.

(١) التَّنْقِيحُ: التَّمْيِيزُ بَيْنَ الصَّالِحِ وَالطَّالِحِ.

(٢) صَقْلٌ: تَهْذِيبٌ.

أَبْتَغَيْتُ مِنَ الْحَيَاةِ مَرَحاً أَطْرَبُ لَهُ وَأَهْتَرُ، جَاءَتْني الْحَيَاةُ بِفِكْرَةٍ أُسْتَكِدُّ^(١) فِيهَا وَأَدَابُ؟ أَهَذَا السُّرُورُ الَّذِي لَا يَزَالُ يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ هُوَ الَّذِي لَا يَكَادُ يَقَعُ لِي؟ وَهَلْ أَنَا شَجَرَةٌ فِي مَغْرَسِهَا: تَنُمُو صَاعِدَةً بِفُرُوعِهَا، وَنَازِلَةً بِجُذُورِهَا، غَيْرَ أَنَّهَا لَا تَبْرُحُ مَكَانَهَا؟ أَوْ أَنَا تِمَثَالٌ عَلَى قَاعِدَتِهِ: لَا يَتَزَحْزَحُ عَنْهَا إِلَّا سَاعَةً لَا يَكُونُ تِمَثَالاً، وَلَا يَدْعُهَا حَتَّى تَدْعُهُ مَعَانِي الْعِظَمَةِ الَّتِي نُصِبَ لَهَا؟

قَالَتْ لِي النَّفْسُ: وَيْحَكَ! لَا تَطْلُبْ فِي كَوْنِكَ الصَّغِيرِ مَا لَيْسَ فِيهِ؛ إِنَّ النَّاسَ لَوْ أَرْتَفَعُوا إِلَى السَّمَاءِ وَتَقَلَّبُوا فِيهَا كَمَا يَسِيحُ^(٢) أَهْلُ قَارَةٍ مِنَ الْأَرْضِ فِي قَارَةٍ غَيْرِهَا، وَابْتَغَوْا أَنْ يَحْمِلُوا مَعَهُمْ مِمَّا هُنَاكَ تَذْكَاراً صَغِيراً إِلَى الْأَرْضِ - لَوَجَدُوا أَصْغَرَ مَا هُنَاكَ أَكْبَرَ مِنَ الْأَرْضِ كُلِّهَا؛ فَأَنْتَ سَائِحٌ فِي سَمَاوَاتِ.

أَنْتَ كَالنَّائِمِ: لَهُ أَنْ يَرَى وَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَ شَيْئاً مِمَّا يَرَى إِلَّا وَضْفَهُ، وَحِكْمَتَهُ، وَالسُّرُورَ بِمَا أَلْتَدُّ مِنْهُ، وَالْأَلَمَ بِمَا تَوَجَّعَ لَهُ.

لَنْ تَكُونَ فِي الْأَرْضِ شَجَرَةً بِرِجْلَيْنِ تَذْهَبُ هُنَا وَهَهُنَا، وَلَكِنَّ الشَّجَرَةَ تُرْسِلُ أَثْمَارَهَا يَتَقَلَّبُهَا النَّاسُ، وَهِيَ تُبْدِعُ الثَّمَارَ إِبْدَاعَ الْمُؤَلِّفِ الْعَبْقَرِيِّ مَا يُؤْلَفُهُ بِأَشَدِّ الْكَدِّ وَأَعْظَمِ الْجُهْدِ، مُطْلَقَةً ضَمِيرَهَا فِي الْفِكْرَةِ الصَّغِيرَةِ، تَعْقِدُهَا شَيْئاً شَيْئاً، ثُمَّ تَعُودُ عَلَيْهَا بِالزِّيَادَةِ، وَلَا تَزَالُ كُلَّ وَقْتٍ تَعُودُ عَلَيْهَا حَتَّى تَسْتَفْرِغَ^(٣) أَقْصَى الْقُوَّةِ؛ ثُمَّ يَكُونُ سُرُورُهَا فِي أَنْ تَهَبَ فَائِدَتَهَا، لِأَنَّهَا لَذَلِكَ وَجِدَتْ.

إِنَّ فِي الشَّجَرَةِ طَبِيعَةً صَادِقَةً لَا شَهْوَةَ مَكْذُوبَةَ؛ فَالْحَيَاةُ فِيهَا عَلَى حَقِيقَتِهَا، وَأَكْثَرَ مَا تَكُونُ الْحَيَاةُ فِي الْإِنْسَانِ عَلَى مَجَازِهَا؛ وَشَرْطُ الْمَجَازِ الْخَيَالُ وَالْمُبَالَغَةُ وَالْتَلْوِينُ؛ وَلَكِنْ مَتَى اخْتَارَ اللَّهُ رَجُلًا فَأَقَرَّ فِيهِ سِرًّا مِنْ أَسْرَارِ الطَّبِيعَةِ الصَّادِقَةِ، وَوَهَبَ لَهُ الْعَاطِفَةَ الْقَادِرَةَ الَّتِي تَصْنَعُ ثِمَارَهَا - فَقَدْ غَرَسَهُ شَجَرَةً فِي مَثْبِتِهَا لَا مَفْرَ وَلَا مَنْدُوحَةَ^(٤)، وَقَدْ يُخَيَّلُ لَهُ ضَعْفُ طَبِيعَتِهِ الْبَشَرِيَّةِ أحياناً أَنْ نُضْرَةَ الْمَجْدِ الَّتِي تَعْلُوهُ وَتَتَأَلَّقُ كَشِعَاعِ الْكَوْكَبِ، هِيَ تَعْبُهُ وَضَجَرُهُ، أَوْ أَثَرُ انْخِذَالِهِ^(٥) وَالْمِهِ وَمُسْكَنَتِهِ؛ وَهَذَا مِنْ شَقَاءِ الْعَقْلِ؛ فَإِنَّهُ دَائِماً يُضَيِّفُ شَيْئاً إِلَى شَيْءٍ، وَيَخْلِطُ مَعْنَى بِمَعْنَى، وَلَا يَتْرُكُ حَقِيقَةً عَلَى مَا هِيَ؛ كَأَنَّ فِيهِ مَا فِي الطِّفْلِ مِنْ غَرِيزَةِ التَّقْلِيدِ؛

(١) أُسْتَكِدُّ: أُنْعَبُ.

(٢) يَسِيحُ: يَتَقَلَّبُ وَيَتَحَلَّجُ.

(٣) تَسْتَفْرِغُ: تَتَخَلَّصُ.

(٤) لَا مَنْدُوحَةَ: لَا مَلْجَأَ.

(٥) انْخِذَالُهُ: انْهِزَامُهُ.

والعقل لا يرى أمامه إلا الإلهية، فهو يُقلدها في مُدَاخَلَةِ الأشياءِ بعضها في بعض، لإيجادِ الأسرارِ بعضها من بعض.

ومن ثَمَّ كَانَتِ الْحَقِيقَةُ الصَّرِيحَةُ الثَّابِتَةُ مَدْعَاةً لِلْمَلَلِ الْعَقْلِيِّ فِي الْإِنْسَانِ، لَا يَكَادُ يُقِيمُ عَلَيْهَا أَوْ يَتَقَيَّدُ بِهَا، فَمَا نَالَ شَيْئاً إِلَّا لِيَطْمَعَ فِي غَيْرِهِ، وَمَا فَازَ بِلَذَّةٍ إِلَّا لِيَزْهَدَ فِيهَا، وَأَجَلَ مَا أَحَبَّهُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَنَالَهُ، فَإِذَا نَالَهُ وَقَعَ فِيهِ مَعْنَى مَوْتِهِ، وَبَدَأَ فِي النَّفْسِ عُمراً آخَرَ مِنْ حَالَةٍ أُخْرَى، أَوْ مَاتَ وَلَمْ يَبْدَأْ؛ فَلَا بَدْءَ لِهَذَا الْإِنْسَانِ مَعَ كُلِّ صَوَابٍ مِنْ جُزْءٍ مِنَ الْخَطَا، فَإِنَّهُ هُوَ لَمْ يَجِدْ خَطَأً فِي شَيْءٍ أَتَّفَكَ لِنَفْسِهِ^(١) الْخَطَأَ الْمَضْحَكُ فِي شِبْهِ رَوَايَةِ خَيَالِيَّةٍ.

إِنَّهُ لَشِعِرٌ سَخِيفٌ بِالْغُ السَخَافَةِ أَنْ يُتَخَيَّلَ الْغَرِيقُ مَفْكراً فِي صَيْدِ سَمَكَةٍ رَأَاهَا... وَلَكِنَّ هَذَا مِنْ أَبْلَغِ أَلْبَاغَةِ عِنْدَ الْعَقْلِ الَّذِي يَبْحُثُ عَنْ وَهْمٍ يُضِيفُهُ إِلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ لِيُضْحِكَ مِنْهَا، كَمَا يَبْحُثُ لِنَفْسِهِ أحياناً فِي أَجْمَلِ حَقَائِقِ اللَّذَّةِ عَنْ أَلَمٍ يَتَأَلَّمُ بِهِ لِيُغْبَسَ فِيهِ!

قُلْتُ لِنَفْسِي: فَهَلْ يَنْبَغِي لِي أَنْ أُحْرِقَ دَمِي لِأَنِّي أَفْكُرُ، وَهَلْ أَظِلُّ دَائِماً بِهَذَا التَّفَكِيرِ كَالَّذِي يَنْظُرُ فِي وَجْهِ حَسَنَاءَ بِمَنْظَارٍ مَكْبَرٍ: لَا يُرِيهِ ذَلِكَ الْوَجْهَ الْمَعشُوقَ إِلَّا ثُقُوباً وَتَخْرِيماً كَأَنَّهُ خَشَبَةٌ نَزَعَتْ مِنْهَا مَسَامِيرُ غَلِيظَةٌ...! فَلَا يَجِدُ الْمَسْكِينُ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ إِلَّا لِيَفْقَدَ ذَلِكَ الْجَمَالَ؟ وَهَلْ بُدُّ مِنَ الشَّبهِ بَيْنَ بَعْضِ النَّاسِ وَبَيْنَ مَا أُرْتَصَدَ لَهُ مِنْ عَمَلٍ يَحْيَا بِهِ؛ فَلَا يَكُونُ الْحُودِي^(٢) حُودِيّاً إِلَّا لِشَبِّهِ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الْخَيْلِ وَالْبِغَالِ وَالْحَمِيرِ...؟

وَقَالَتْ لِي النَّفْسُ: إِنَّ فَاسَ الْحَطَّابِ لَا تَكُونُ مِنْ أَدَاةِ الطَّبِيبِ؛ فَخُذْ لِكُلِّ شَيْءٍ أَدَاتَهُ، وَكُنْ جَاهِلاً أحياناً، وَلَكِنْ مِثْلَ الْجَهْلِ الَّذِي يَصْنَعُ لَوْجِهِ الْوَجْهَ الْوَجْهَ بِشَاشَتِهِ الدَّائِمَةِ؛ فَهَذَا الْجَهْلُ هُوَ أَكْبَرُ عِلْمِ الْأَشْعُورِ الدَّقِيقِ الْمَرْهَفِ، وَلَوْلَاهُ لَهْلَكَ الْأَنْبِيَاءُ وَالْحُكَمَاءُ وَالشُّعْرَاءُ غَمّاً وَكَمَداً، وَلَكَانُوا فِي هَذَا الْوُجُودِ، عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ، بَيْنَ هَذِهِ الْحَقَائِقِ - كَالَّذِي قَيَّدَ وَحَبَسَ فِي رَهْجٍ^(٣) تُثِيرُهُ الْقَدَمُ وَالْخُفُّ وَالْحَافِرُ: لَا يَتَنَفَّسُ إِلَّا أَلْغَبَارَ يُثَارُ مِنْ حَوْلِهِ إِلَى أَنْ يُقْضَى عَلَيْهِ.

(١) اتَّفَكَ لِنَفْسِهِ: كَذَبَ وَاخْتَرَعَ لِيَسْوِّغَ مَا هُوَ عَلَيْهِ.

(٢) الْحُودِي: سَاقِقُ الْعَرَبَةِ يَجْزُّهَا حِصَانٌ. (٣) رَهْجٌ: شُغْبٌ.

إجهل جهلك يا صاحبي في هذه الشهوات الخسيسة؛ فإنها العِلْمُ الخبيثُ
الذي يُفسدُ الروحَ، وأعرف كيف تقول لِرُوحِكَ الطِّفْلَةِ في ملائكتيها حين تُساوِرُكَ
الشهوات: هذا ليس لي؛ هذا لا ينبغي لي.

إنَّ الروحَ الكبيرةَ هي في حقيقتها الطِفْلُ الملائكي.

وعِلْمُ خسائس الحياة يجعلُ لِلإنسانِ في كلِّ خسيسةٍ نفساً تتعلَّقُ بها، فيكونُ
المسكينُ بينَ نفسينِ وثلاثٍ وأربعٍ، إلى ثلاثينِ وأربعينِ كلُّهُنَّ يتنازَعُنَّ، فيضيقُ بهذه
الكثرة، ويصبحُ بعضُهُ بلاءً على بعضٍ، وتَشغَلُهُ الفُضُولُ، فيعودُ لها كالمزبلةِ لِمَا
أُلقيَ فيها، ويُمَحَقُ^(١) في نفسه الطَّبِيعِيَّةَ حَسَّ الفرحِ بجمالِ الطَّبِيعَةِ، كما يُمَحَقُ في
المزبلةِ معنى النظافةِ ومعنى الحَسِّ بها.

هذه الأنفُسُ الخياليةُ في هذا الإنسانِ المنكودِ، هي الأرواحُ التي يَنفُخُها في
مصائبِهِ، فتجعلُها مصائبَ حيَّةٍ تعيشُ في وجودِهِ وتعملُ فيه أعمالَها، ولولاها
لَمَاتَتْ في نفسه مطامعُ كثيرة، فمَاتَتْ لَهُ مصائبُ كثيرة.

أَنظُرْ بالروحِ الشاعرةِ، تَرِ الكونَ كُلَّهُ في سمائِهِ وأرضِهِ أنسجاماً واحداً ليسَ
فيه إلَّا الجمالُ والسحرُ وفِتْنَةُ الطَّربِ، وأَنظُرْ بالعقلِ العالمِ، فَلَنْ تَرى في الكونِ
كُلَّهُ إلَّا موادَّ عِلْمِ الطَّبِيعَةِ والكيمياءِ.

ومَدَى الروحِ جمالُ الكونِ كُلِّهِ؛ ومَدَى العقلِ قطعةٌ من حَجَرٍ، أو عَظْمَةٌ من
حيوانٍ، أو نَسِيجَةٌ من نباتٍ، أو فِلْدَةٌ من معدنٍ، وما أشَبَهاها.

إجهل جهلك يا صاحبي؛ ففي كلِّ حُسْنٍ غَزَلٌ بشرطٍ ألا تكونَ العاشقُ
أطامعٍ، وإلَّا أَصَبَتْ في كلِّ حَسَنِ هَمًّا ومَشغَلَةً....!

* * *

قُلْتُ لِنَفْسِي: إلى الآنَ لم أَقُلْ لِكَ ذلكَ المعنى الذي كَتَمْتُهُ عنكَ.

وقالَتْ لِي النفسُ: وإلى الآنَ لم أَقُلْ لِكَ إلَّا جوابَ ذلكَ الذي كَتَمْتُهُ عَنِّي..

(١) يمحَق: يمحُو.

الانتحار

١

حَدَّثَ الْمُسَيَّبُ بْنُ رَافِعٍ الْكُوفِيُّ قَالَ: بَيْنَا أَنَا يَوْمًا فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، وَمَعِيَ سَعِيدُ بْنُ عَثْمَانَ، وَمُجَاهِدٌ، وَدَاوُدُ الْأَزْدِيُّ وَجَمَاعَةٌ - أَقْبَلَ فَتَى فَجَلَسَ قَرِيبًا مِنَّا، وَكَانَ تَلْقَاءَ وَجْهِ؛ لَا أُمْدُ نَظَرِي إِلَّا أَنْطَلَقَ فِي سَمْتِهِ^(١) وَوَقَفَ عَلَيْهِ، وَكُنَّا نَتَحَدَّثُ فَرَأَيْتُهُ يَتَسَمَّعُ إِلَى حَدِيثِنَا؛ فَلَمَّا تَكَلَّمَ سَعِيدٌ - وَكَانَ خَافَتِ الصَّوْتِ مِنْ عِلَّةٍ بِهِ، وَكُنَّا نُسَمِّيهِ الْأَنْمَلَةَ الصَّخَّابَةَ - رَأَيْتُ الْفَتَى يَتَزَحَّفُ قَلِيلًا قَلِيلًا حَتَّى صَارَ بِحَيْثُ يَقَعُ فِي سَمَاعِهِ حَسِيسُ نَمَلَتِنَا.

وَكَانَ سَعِيدٌ يَقُولُ: اجْتَزْتُ^(٢) أَنَا وَالشَّعْبِيُّ أَمْسَ بِعِمْرَانَ الْخِيَّاطِ، فَمَارَحَهُ الشَّيْخُ فَقَالَ لَهُ: عِنْدَنَا حَبٌّ^(٣) مَكْسُورٌ، تَخِيْطُهُ؟ قَالَ: نَعَمْ، إِنْ كَانَ عِنْدَكَ خِيْطٌ مِنْ رِيحٍ! فَقُلْتُ أَنَا: فَاذْهَبْ فَجِئْنَا بِالْمِغْزَلِ الَّذِي يَغْزِلُ الْهَوَاءَ لِنُضَعَ لَكَ الْخِيْطُ.

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا لَيْسَ بِشَيْءٍ فِي تَنَادُرِ شَيْخِنَا وَمَا يَتَّفِقُ لَهُ؛ أَخْبَرَنِي أَنَّ رَجُلًا جَاءَهُ فِي مَسْأَلَةٍ، فَدَخَلَ عَلَيْهِ الْبَيْتَ وَهُوَ جَالِسٌ مَعَ أَمْرَأَتِهِ؛ فَقَالَ الرَّجُلُ أَيُّكُمَا الشَّعْبِيُّ...؟ فَأَوْمَأَ الشَّيْخُ إِلَى أَمْرَأَتِهِ وَقَالَ: هَذِهِ...!

قَالَ الْمُسَيَّبُ: وَضَحَكْنَا جَمِيعًا، وَأَخَذَ نَظَرِي الْغَلَامَ فَإِذَا هُوَ نَاكِسٌ حَزَنًا وَهَمًّا، وَكَأَنَّهُ لَا يَتَسَمَّعُ إِلَيْنَا لِيَسْمَعَ، بَلْ لِيَشْغَلَ نَفْسَهُ عَنْ شَيْءٍ فِيهَا، فَتَوَزَّعَ خَوَاطِرُهُ، فَيَتَبَدَّدُ اجْتِمَاعُهَا عَلَى هَمِّهِ بِصَوْتٍ مِنْ هُنَا وَصَوْتٍ مِنْ هُنَا، كَمَا يَفْعَلُ الْمَحْزُونُ فِي مَغَالِبَةِ الْحَزَنِ وَمُدَافَعَتِهِ: يَشْغَلُ عَنْهُ بَصَرُهُ وَقَلْبُهُ وَسَمْعُهُ جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْحَزَنُ فِيهِ وَكَأَنَّهُ بَعِيدٌ مِنْهُ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: أَمْرٌ أَمَاتَ الضَّحِكَ فِي هَذَا الْفَتَى وَكَسَرَ حِدَّتَهُ^(٤) وَشَبَابَهُ.

(١) سَمْتُهُ: حَسَنُ هَيْئَتِهِ وَمَنْظَرُهُ فِي الدِّينِ.

(٢) اجْتَزْتُ: التَّقَيْتُ.

(٣) الْحَبُّ، بِكَسْرِ الْحَاءِ هُوَ الزَّرِيرُ.

(٤) حِدَّتُهُ: قُوَّتُهُ.

ثُمَّ تَحَوَّلْتُ إِلَيْهِ وَقُلْتُ: رَأَيْتُكَ يَا بُنَيَّ مُقْبِلًا عَلَيْنَا كَالْمُنْصَرِفِ عَنَّا؛ فَمَا بِأَلْكَ لِمَ تَضْحَكُ وَقَدْ ضَحَكْنَا جَمِيعًا؟

قال: إليك عني يا هذا؛ فأين مني الضحك وأنا على شفير^(١) القبر، وروحُ الأترابِ ماليءٌ عيني في كلِّ ما أرى، وكأنَّ حُفرتي ابتلعت الدنيا أَلتي أنا فيها لِتأخذني فيها، وأنا الساعة ميتٌ حيٌّ؛ رجلٌ في الدنيا ورجلٌ في الآخرة!

قلت: فأعلمني ما بك يا بني، فلقد احتسبتُ ولدًا لي كان في مثلِ سنِّك وشبابك ولم أرزق غيره، قلبي بعده مريضٌ به، يتوسمه مُفَرَّقًا في لِدَاتِهِ، مُتَوَهِّمًا أنَّ وجوههم تجمعه بملامحه؛ فأنا من ذلك أحبهم جميعاً وأطولُ النظر إليهم وألتأملُ في وجوههم، ولستُ أرى أحداً منهم إلَّا كانَ لَهُ وَلِقَلبي حديث! فإنَّ رأيتهُ حزيناَ مثلك تقطعتُ لَهُ من إشفاقٍ ورحمة، وطالعتني فتاي في مثلِ همِّه وحزنه وأنكساره؛ فيعودُ قلبي كالعين أَلتي غشاها الدمع، تحملُ أثرَ الحزنِ ومعناه وسره؛ فبُثني ما تجدُ يا بني، فلعلَّ لي سبباً إلى كشفِ ضُرِّكَ أو إسعافِكَ بحاجتك؛ ولعلَّكَ تكونُ قد خزنتَ من أمرٍ قريبٍ المتناولِ هَيِّنَ المحاولة، لم يجعله عندكَ كبيراً أَنَّهُ كبير، ولكنَّ أَنتَ صغير.

قالَ الفتى: مهلاً يا عمّ، فإنَّ ما نزل بنا ممَّا تنقطعُ عندهُ الحيلةُ ولا تنقَادُ فيهُ الوسائلُ، ولا علاجٌ منه إلَّا بالموتِ يأخذها ويأخذهُ!

قلت: يا بني، هذه كلمةٌ ما أحسبُ أحداً يقولُها إلَّا من أخذَ للقتلِ بجنايته ولم يَعمُ أهلُ الدَّم، فهل جَنَيْتَ أو جنى أبوك على أحد؟

قال: إنَّ الأمرَ قريبٌ من قريب، فإنِّي تركتُ أبي الساعةَ مُجمِعاً على إزهاقِ نفسه، وقد أغلقَ عليه الدارَ وأستوثقُ^(٢) مِنَ أَلباب!

قالَ المَسيَّب: فكأنَّما لدغتنِي حيةٌ بهذه الكلمة، وأكبرتُ أن يكونَ رجلٌ مسلمٌ يقتلُ نفسه: فتناهضتُ، ولكنَّ الغلامَ أمسكَ بي وقال: إِنَّهُ لا يزالُ حيًّا، وسيقتلُ نفسه متى أظلمَ اللَّيلُ وهَدأتِ الرَّجلُ.

قلت: الحمدُ لِلَّهِ، إنَّ في النورِ عقلاً، ولكنَّ ما الذي صارَ بِهِ إلى ما قلت، وكيف تركتهُ لِقَدَرِهِ وجئتُ؟

(٢) استوثق، تأكد.

(١) شفير: حافة.

قال الفتى: إِنَّهُ قَالَ لِي: يا ولدي، لَيْسَ لَكَ أَبٌ بَعْدِي؛ فَإِنْ أَرَدْتَ الْلِحَاقَ بِي فَارْجِعْ مَعَ اللَّيْلِ لِتُسَلِّمَ أَنْفُسَنَا، وَإِنْ أَثَرْتَ الْحَيَاةَ فَارْجِعْ مَعَ الصُّبْحِ لِتُسَلِّمَنِي إِلَى غَاسِلِي!

قُلْتُ: أَفَأَمِنْ أَنْتَ أَلَّا يَكُونَ أَبُوكَ قَدْ أَخْرَجَكَ عَنْهُ لِأَنَّ عَيْنَكَ تُمَسِّكُ يَدَهُ وَتَرُدُّهُ عَمَّا يَهْمُ بِهِ، حَتَّى إِذَا خَلَا وَجْهُهُ مِنْكَ أَزْهَقَ نَفْسَهُ؟

قال: لَمْ أَدْعُهُ حَتَّى أَقْسَمَ أَنْ يَحْيَا إِلَى اللَّيْلِ، وَحَتَّى أَقْسَمْتُ أَنْ أَرْجِعَ لِأَمُوتَ مَعَهُ؛ فَإِنْ لَمْ تُمَسِّكْهُ يَمِينُهُ أَمَسْكُهُ أَنْتَظَارِي، وَقَدْ فَرَعْتَ الْحَيَاةَ مِثْلًا فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ نَفْرَغَ مِنْهَا؛ وَمَنْ كَانَ فِيمَا كُنَّا فِيهِ ثُمَّ أَحْدَرَ إِلَى مَا أَحْدَرْنَا إِلَيْهِ، لَمْ يَرِ النَّاسَ مِنْ نَفْسِهِ ضَعْفٌ وَلَا أَسْتِكَائَةٌ: وَإِنَّمَا خَرَجْتُ لِأَسْأَلَ هَذَا الْإِمَامَ (الشَّعْبِيَّ) وَجْهًا مِنَ الرَّأْيِ فِيمَنْ يَقْتُلُ نَفْسَهُ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِ الدُّنْيَا، وَنَزَلَتْ بِهِ الْبَازِلَاتُ، وَتَعَذَّرَ الْفُوتُ، وَأَشْتَدَّ الضَّرُّ، وَتَدَلَّتْ بِهِ الْمَسْكَنَةُ إِلَى خَضِيضِهَا، وَأُلْجِئْتُ إِلَى أَحْوَالٍ دَقَّتْهُ دَقُّ الرَّحَى^(١) لِمَا تَدَوَّرَ عَلَيْهِ، وَلَمْ يَعْذَلْهُ إِلَّا رَأْيِي وَاحِدٌ فِي مَعْنَى الدُّنْيَا: هُوَ أَنَّهُ مَكْذُوبٌ مَزُورٌ عَلَى الدُّنْيَا.

قُلْتُ: يَا بَنِي، فَإِنِّي أَرَاكَ أَدِيبًا؛ فَمَنْ أَبُوكَ؟

قال: هُوَ فَلَانُ التَّاجِرِ، ظَهَرَ ظُهُورَ الْقَمَرِ وَمُحِقٌّ^(٢) مُحَاقَهُ، وَهُوَ الْيَوْمَ فِي أَخْلَاقِ اللَّيَالِي وَأَشَدُّهَا أَنْطِمَاسًا؛ جَهْدُهُ^(٣) الْفَقْرَ، وَيَا لَيْتَهُ كَانَ الْفَقْرَ وَحْدَهُ، بَلْ أَنْتَهَكْتُهُ الْعِلَلَ، وَلَيْتَهَا لَمْ تَكُنْ إِلَّا الْعِلَلَ مَعَ الْفَقْرِ، بَلْ أَخَذَ الْمَوْتَ أَمْرَاتُهُ فَمَاتَتْ هَمًّا بِهِ وَبِي، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ غَيْرِي وَغَيْرُهَا، وَكَانَ كُلُّ مَنْ ثَلَاثَتِنَا يَحْيَا لِثَلَاثَتَيْنِ الْآخَرَيْنِ، فَهَذَا مَا كَانَ يَجْعَلُ كَلَامًا مِثْلًا لَا يَفْرُغُ إِلَّا أَمْتَلًا، وَلَمَّا ذَهَبَتْ الْأُمُّ ذَهَبَتْ الْحَقِيقَةُ الَّتِي كُنَّا نَقَاتِلُ الْأَيَّامَ عَنْهَا، وَكَانَتْ هِيَ وَحْدَهَا تُرِينَا الْحَيَاةَ بِمَعْنَاهَا إِنْ جَاءَتْنَا الْحَيَاةُ فَارِغَةً مِنَ الْمَعْنَى، وَكُنَّا مِنْ أَجْلِهَا نَفْهَمُ الْأَيَّامَ عَلَى أَنَّهَا مُجَاهِدَةٌ أَلْبَقَاءُ؛ أَمَّا الْآنَ فَالْحَيَاةُ عِنْدَنَا قَتْلُ الْحَيَاةِ...!

قُلْتُ: يَا بَنِي، فَإِنَّكَ - وَاللَّهِ - مَعَ أَدَبِكَ لِحَكِيمٍ، وَإِنِّي لَأَنْفَسُ^(٤) بِكَ عَلَى الْمَوْتِ، فَكَيْفَ رَدُّكَ حَيَاةَ أُمِّكَ عَنْ قَتْلِ نَفْسِكَ وَلَا تَرُدُّكَ حَيَاةَ أَبِيكَ؟

قال: لَوْ بَقِيَ أَبِي حَيًّا لَبَقِيتُ، وَلَكِنْ أَلْهَرَ قَدْ أَنْتَزَعَ مِنْهُ آخَرَ مَا كَانَ يَمْلِكُ مِنْ

(٣) جهده: أتعبه.

(٤) أنفس: أضن.

(١) الرحى: الطاحون.

(٢) محق: خفي.

أسباب القوة، حين أخذ القلب الشفيق الذي كان يجعله يرتعد إذا فكّر في الموت؛ فهو الآن كالذي يحارب عن نفسه تلقاء عدو لا يرحمه؛ إن عجز عن عدوه فالرأي قتل نفسه ليستريح من تنكيل العدو به.

قال المسيب بن رافع: وأدركت أن الفتى يريد من سؤال الشيخ تحلة يطمئن إليها أن يموت مسلماً إذا قتل نفسه كالمضطر أو المكره؛ فأشفقت^(١) أن أكسر نفسه إذا أنا حدثته أو أفتيته؛ وقلت: هذا مريض يحتاج العلاج لا الفتيا؛ وكان إمامنا (الشعبي) حكيماً لحناً فطناً، سَفَرَ بَيْنَ أمير المؤمنين (عبد الملك) وعاهل الروم^(٢)، فحسدنا العاهل أن يكون فينا مثله. وقلت: لعل الله يحدث به أمراً. فأخذت بيد الفتى إليه، ومشيت أكلمه وأرفه عن نفسه. وقلت له: أما تدري أنك حين فرغت من سرور الحياة فرغت من غرورها أيضاً، وأن الزاهد المنقطع في غُرْعَةِ^(٣) الجبل ينظر من صومعته إلى الدنيا، ليس بأحكم ولا أبصر ممن ينظر من آلامه إلى الدنيا؟

يا بني: إن الزاهد يحسب أنه قد فر من الرذائل إلى فضائله، ولكن فراره من مجاهدة الرذيلة هو في نفسه رذيلة لكل فضائله. وماذا تكون العفة والأمانة والصدق والوفاء والبر والإحسان وغيرها، إذا كانت فيمن أنقطع في صحراء أو على رأس جبل؟ أيزعم أحد أن الصدق فضيلة في إنسان ليس حوله إلا عشرة أحجار؟ وإيم الله إن الخالي من مجاهدة الرذائل جميعاً، لهو الخالي من الفضائل جميعاً!

يا بني: إن من الناس من يختارهم الله فيكونون قَمَحَ هذه الإنسانية: يثبتون ويحصدون ويطحنون ويعجنون ويخبزون، ليكونوا غذاء الإنسانية في بعض فضائلها. وما أراك أنت وأباك إلا من المختارين، كأن في أعراقكما دم نبي يقتل أو يضلب!

قال المسيب: وأنتهينا إلى دار الشعبي، فطرقت الباب، وجاء الشيخ ففتح لنا، وسلمنا وسلم، ثم بدرت فقلت: يا أبا عمرو، إن أبا هذا كان من حاله كنت وكيث، فترادفت^(٤) عليه المصائب، وتوالت النكبات، وتواترت الأسقام^(٥)... ثم

(١) أشفقت: خفت.

(٢) عاهل الروم: قيصر الروم، ملكهم.

(٣) غُرْعَةُ الجبل، بالضم: رأسه ومعظمه.

(٤) ترادفت: تواترت.

أَقْتَصَصْتُ مَا قَالَ أَبْنُهُ حَرْفًا حَرْفًا، ثُمَّ قُلْتُ: وَإِنَّهُ الْآنَ مُوشِكٌ أَنْ يُزْهِقَ نَفْسَهُ
وَسَيَتَّبِعُهُ أَبْنُهُ هَذَا؛ وَقَدْ (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ) فَجَاءَ يَسْأَلُكَ: أَيْمُوثُ مُسْلِمًا مِّنَ الْأَجْيَاءِ
وَأَكْرَهٍ وَأَضْطَرَّ وَأَسْتَضَاقَ وَأَخْتَلَّ، فَتَحَسَّى^(١) سُمًّا فَهَلْكَ أَوْ تَوَجَّأَ^(٢) بِحَدِيدَةٍ فَقَضَى،
أَوْ ذَبَحَ نَفْسَهُ بِنَضْلٍ فَخَفَّتْ، أَوْ حَزَّ فِي يَدِهِ بِسَكِينٍ فَمَا رَقَا دَمُهُ^(٣) حَتَّى مَاتَ، أَوْ
أَخْتَنَقَ فِي حَبْلِ فَفَاضَتْ نَفْسُهُ^(٤)، أَوْ تَرَدَّى^(٥) مِنْ شَاهِقٍ فَطَاحَ...!

وَأَدْرَكَ الشَّيْخَ مَعْنَى قَوْلِي: (هَدَاهُ اللَّهُ إِلَيْكَ)، وَمَعْنَى مَا أَكْثَرْتُ مِنَ الْأَلْفَافِ
الْمُتَرَادِفَةِ عَلَى الْقَتْلِ وَمَا أَسْتَقْصَيْتُ مِنْ وَجْهِهِ؛ فَعَلِمَ أَنِّي لَمْ أَسْأَلْهُ الْفُتْيَا وَالنَّصَّ،
وَلَكِنِّي سَأَلْتُهُ الْحِكْمَةَ وَالسِّيَاسَةَ؛ فَقَالَ: هَذَا - وَاللَّهِ - رَجُلٌ كَرِيمٌ، أَخَذْتُهُ الْأَنْفَةَ
وَعِزَّةَ النَّفْسِ، وَمَا أَنَا السَّاعَةُ بِمَغْزَلٍ عَنْ هَمِّهِ، فَنَذَهَبُ نَكَلْمُهُ وَاللَّهُ أَلْمَسْتَعَانَ.

وَمَشِينَا ثَلَاثَتْنَا، فَلَمَّا شَارَفْنَا أَلْدَارَ قَالَ الْفَتَى: إِنَّهُ لَا يَفْتَحُ لِي إِذَا رَأَى كَمَا، وَرَبُّمَا
أَسْتَفَزَّ^(٦) بِنَفْسِهِ فَأَرْهَقَهَا، وَسَأَتَسَوَّرُ الْحَائِطَ^(٧) وَأَتَدْلِي ثُمَّ أَفْتَحُ لَكُمْ فَتَدْخُلَانِ وَأَنَا عَنْدَهُ.

وَدَخَلْنَا، فَإِذَا رَجُلٌ كَالْمَرِيضِ مِنْ غَيْرِ مَرَضٍ، خَوَّارٌ^(٨) مَسْلُوبُ الْقُوَّةِ، أَنْزَعَ
قَلْبُهُ إِلَى الْمَوْتِ وَمَا بِهِ جُرْأَةٌ، وَإِلَى الْحَيَاةِ وَمَا بِهِ قُوَّةٌ؛ وَصَغَرَ إِلَيْهِ نَفْسُهُ أَنَّهَا
أَصْبَحَتْ فِي مَعَامِلَةِ النَّاسِ كَالدَّرْهِمِ الزَّائِفِ لَا يَقْبَلُهُ أَحَدٌ، وَثَابَرَ عَلَيْهِ دَاءُ الْحُزَنِ
فَاضْنَاهُ وَتَرَكَهُ رُوحًا تَتَقَعَّقُ فِي جِلْدِهَا، فَهِيَ تَهْمُ فِي لَحْظَةٍ أَنْ تَثْبُتَ وَتَنْدَلِقَ.

وَسَلَّمَ الشَّيْخُ وَأَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلَى الرَّجُلِ، ثُمَّ قَالَ: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ،
﴿وَالْقَاصِرِينَ فِي الْإِسَاءِ وَالْفَرَّارِ وَعَيْنَ الْبَاسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾».

فَقَطَعَ عَلَيْهِ الرَّجُلُ وَقَالَ كَالْمَحْنَقِ: أَيُّهَا الشَّيْخُ، قَدْ صَبَرْنَا حَتَّى جَاءَ مَا لَا
صَبَرَ عَلَيْهِ؛ وَقَدْ خَلَوْنَا مِنْ مَعَانِي الْكَلَامِ كُلِّهِ، فَمَا نَقْدِرُ عَلَيْهَا إِلَّا لَفْظَةً وَاحِدَةً نَمْلِكُ
مَعْنَاهَا، هِيَ أَنْ نَنْتَهِيَ!

وَمَدَّ الشَّيْخُ عَيْنَهُ فَرَأَى كُوَّةً^(٩) مَسْدُودَةً فِي الْجِدَارِ، فَقَالَ لِي: افْتَحْ هَذِهِ وَدَعْ

(١) تحسَّى: شرب.

(٢) توجَّأ: ضرب نفسه بالسكين.

(٣) رقاً دمه: توقَّف نزفه.

(٤) فاضت نفسه: مات.

(٥) ترَدَّى: رمى نفسه من عل.

(٦) استَفَزَّ: أثار.

(٧) تسوَّر الحائط: صعد فوقه.

(٨) خَوَّار: ضعيف.

(٩) كُوَّة: فتحة صغيرة في جدار.

ألهواء يتكلم معنا كلامه . فقمْتُ إليها فعالجتها حتى فتحتها، ونفذ منها رَوْحَ الدنيا، وقال الشيخ للرجل: أصغِ إليّ، فإذا أنا فرغتُ مِنَ الكلام فشأنك بنفسك: أعلمتُ أنَّ رجلاً مِنَ المسلمين قد مَرَضَ، فأغضَلَ مَرَضُهُ^(١) فأثبتهُ على سريره ثلاثين سنةً لا يتحرك، وطَوَى فِيهِ الرَّجُلُ الَّذِي كَانَ حَيًّا ونَشَرَ مِنْهُ الرَّجُلُ الَّذِي سَيَكُونُ مَيِّتًا، فبقيَ لا حَيًّا ولا مَيِّتًا ثلاثين سنةً...؟

قال الرجل: وفي الدنيا مَنْ يعيشُ على هذه الحالِ ثلاثين سنةً؟

قال الشيخ: صَحَّحَ الكلامَ وأسألُ. أَيْصَبِرُ على هذه الحالِ ثلاثين سنةً ولا يقول: (جاء ما لا صَبَرَ عَلَيْهِ) وأَيُّ شَيْءٍ لا صَبَرَ عَلَيْهِ عِنْدَ الرَّجُلِ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ الْبَلَاءَ مَا لَا غَيْرَ أَنَّهُ لَا يُوضَعُ فِي الْكَيْسِ بَلْ فِي الْجِسْمِ؟

أفتدري مَنْ كَانَ الصَّابِرَ ثلاثين سنةً على بلاءِ الحياة والموتِ مجتمعين في عظام مُمَدَّدة على سريرها؟ إِنَّهُ إِمَامُنَا (عِمْرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ الْخُزَاعِيُّ) الَّذِي أَرْسَلَهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُفَقِّهُ أَهْلَ الْبَصْرَةِ، وتَوَلَّى قَضَاءَهَا، وَكَانَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَدِمَهَا خَيْرٌ لَهُمْ مِنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ. وَلَقَدْ دَخَلْتُ عَلَيْهِ أَنَا وَأَخُوهُ (العلاء)، فرأيناه مُثَبَّتًا على سرير الجريدِ كَأَنَّمَا شُدَّ بِالْحَبَالِ وَمَا شُدَّ إِلَّا بِانْتِهَالِكِ عَصَبِهِ وَذَوْبَانٍ لَحْمِهِ وَوَهْنٍ^(٢) عِظَامِهِ؛ فبكى أخوه، فقال: لِمَ تَبْكِي؟ قَالَ: لَا تُبَكِّ؛ فَإِنَّ أَحَبَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَحَبُّهُ إِلَيَّ. ثم قال: إِنَّ هَذِهِ الْأَرْضَ تَحْمِلُ الْجِبَالَ فَلَا يَشْعُرُ مَوْضِعُ مِنْهَا بِالْجِبَلِ الْقَائِمِ عَلَيْهِ، إِذْ كَانَ تَمَاسُكُ الْأَرْضِ كُلِّهَا قَدْ جَعَلَ لِكُلِّ مَوْضِعٍ مِنْهَا قُوَّةَ الْجَمِيعِ، وَلَوْ لَا هَذَا لَدَكَ^(٣) الْجِبَلُ مَوْضِعَهُ وَغَارَ بِهِ؛ وَكَذَلِكَ يَحْمِلُ الْمُؤْمِنُ مِثْلَ الْجِبَالِ مِنَ الْبَلَاءِ عَلَى أَعْضَائِهِ لَا يَنْكَسِرُ لَهَا وَلَا يَتَهَدَّمُ؛ إِذْ كَانَتْ قُوَّةُ رُوحِهِ قُوَّةً فِي كُلِّ مَوْضِعٍ، فَالْبَلَاءُ مَحْمُولٌ عَلَى هِمَّةِ الرُّوحِ لَا عَلَى الْجِسْمِ، وَهَذَا مَعْنَى الْخَبَرِ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ بِكُلِّ خَيْرٍ عَلَى كُلِّ حَالٍ، إِنَّ رُوحَهُ لَتُنَزَّعُ مِنْ بَيْنِ جَنْبَيْهِ وَهُوَ يَحْمَدُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ!».

ثُمَّ قَالَ: وَلَكِنْ ذَاكَ هُوَ الْمُؤْمِنُ، فَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ: «أَمْتَحِنِّي!» وَكَيْفَ تَرَاكَ إِذَا كُنْتَ بَطْلًا مِنَ الْأَبْطَالِ مَعَ قَائِدِ الْجَيْشِ، أَمَا تَفْرُضُ عَلَيْكَ شَجَاعَتَكَ أَنْ تَقُولَ لِلْقَائِدِ: «أَمْتَحِنِّي وَأَزِمْ بِي حَيْثُ شِئْتَ!» وَإِذَا رَمَى بِكَ فَرَجَعْتَ مُثَخَّنًا

(١) أغضَلَ مرضه: اشتدَّ حتى صعب الشفاء منه.

(٣) دَكَّ: حَطَّم.

(٢) وهن: ضعيف.

بالجراح^(١) ونالكَ البُترُ والتشويه، أتراها أوصافاً لمصائبك، أم ثناءً على شجاعتك؟
ثم قال: إذا لم يكن الإيمان باللهِ أطمئناناً في النفسِ على زلازلها وكوارثها،
لم يكن إيماناً، بل هو دعوى بالفكرِ أو باللسانِ لا يغدوهما، كدعوى الجبانِ أنَّه
بطل، حتى إذا فجأه الرُّوعُ^(٢) أحدث في ثيابه من الخوف... ومن ثمَّ كان قتلُ
المؤمنِ نفسه لِبلاءٍ أو مرضٍ أو غيرِهما كُفراً باللهِ وتكذيباً لإيمانه، وكان عمله هذا
صورةً أخرى من طيشِ الجبانِ الذي أحدث في ثيابه!

والإيمانُ الصحيحُ هو بشاشةُ الروح، وإعطاءُ اللهِ الرضى من القلب، ثقةٌ
بوعده ورجاءه لما عنده، ومن هذين يكونُ الأطمئنان. وبالبشاشة والرضى والثقة
والرجاء، يُصبحُ الإيمانُ عقلاً ثانياً معَ العقل؛ فإذا ابتلي المؤمنُ بما يذهبُ معه
الصبرُ ويطيشُ له العقل، وصارَ من أمره في مثل الجنون - برزَ في هذه الحالة عقله
الروحاني وتولى سياسةَ جسمه حتى يفيقَ العقلُ الأول. ويجيء الخوفُ من عذابِ
اللهِ ونقمته في الآخرة، فيغمُرُ به خوفَ النفسِ من الفقرِ أو المرضِ أو غيرِهما
فيقتلُ أفواهما الأضعف، ويُخرجُ الأعرُ منهما الأذل.

فالأطمئنانُ بالإيمانِ هو قتلُ الخوفِ الدنيويِّ بالتسليمِ والرضى، أو تحويله
عن معناه بجعلِ البلاءِ ثواباً وحسانات، أو تجريده من أوهامِهِ باعتبارِ الحياةِ سائرةً
بكلِّ ما فيها إلى الموت؛ وهو بهذا عقلٌ روحانيٌّ له شأنٌ عظيمٌ في تصريفِ الدنيا،
يتركُ النفسَ راضيةً مرضيةً، تقولُ لمصائبها وهي مطمئنة: نعم. وتقولُ لشهواتها
وهي مطمئنة: لا.

وما الإنسانُ في هذا الكون؟ وما خيرُهُ وشرُّه؟ وما سخطُهُ ورضاه؟ إن كلَّ
ذلك إلا كما ترى قبضةً من الترابِ تتكبرُ وقد نسيَتْ أنَّه سيأتي من يكنسُها...!

قال الشيخ: وأنظر، أما تُبتلى الشجرةُ الخضراءُ في بعضِ أوقاتها بمثل ما
يُبتلى به الإنسان؟، غيرَ أنَّ لها عقلاً روحانياً مستقراً في داخلها يمسكُ الحياةَ عليها
ويترىصُ^(٣) حالاً غيرَ الحال؛ ومهما يكن من أمرِ ظاهرها وبلائه فالسعادةُ كُلُّها في
داخلها، ولها دائماً ربيعٌ على قدرِها حتى في قُرُ^(٤) الشتاء.

(١) مثخناً بالجراح: ممتلئاً جراحاً في سائر جسده.
(٢) الرُّوع: الخوف الشديد.
(٣) يترىص: ينتظر.
(٤) القُر: البرد الشديد.

فالعقل الروحاني الآتي من الإيمان، لا عمل له إلا أن يُنشئ للنفس غريزة متصرفة في كل غرائزها، تُكَمِّل شيئاً وتُنقِص من شيء. وتوجّه إلى ناحية وتصرف عن ناحية؛ وبهذه الغريزة تسمو الروح فتكون أكبر من مصائبها وأكبر من لذاتها جميعاً.

وتلك الغريزة هي نفسها معنى الرضى بالقدر خيرٍ وشره، وهي تأتي بالتأويل لكل هموم الدنيا، فتضع في النكبات معاني شريفة تنزع منها شرّها وأذاها للنفس؛ وليست المصيبة شيئاً لولا تأذي النفس بها. وإذا وقع التأويل في معاني النكبات أصبحت تعمل عمل الفضائل، وتغيّرت طبيعتها فيعود الفقر باباً من الزهد، والمرض نوعاً من الجهاد، والخيبة طريقاً من الصبر، والحزن وجهاً من الرجاء، وهلمّ جزاً.

والنفس وحدها كنز عظيم، وفيها وحدها الفرح والابتهاج لا في غيرها، وما لذات الدنيا إلا وسائل لإثارة هذا الفرح وهذا الابتهاج، فإن وُجد مع الفقر بطلت عزّة المال وأصبح حجراً من الأحجار؛ والبلبل يتغرّد بحنجريته الصغيرة ما لا تُغني فيه آلات التطريب كلها. وفي النفس حياة ما حولها، فإذا قويت هذه النفس أذلت الدنيا، وإذا ضعفت أذلتها الدنيا!

* * *

قال المسيّب: ثم سكّ الشيخ قليلاً، وكنت أرى الرجل كأنما يغتسل بكلامه، وقد أشرق وجهه وتنصّر وأنقلب إلى روحه التي كان منصرفاً عنها، فعادت مصائبه تضغط روحاً لينّة كما تضغط اليد على الماء، وأيقن أنّ النكبة كلها هي أن ينظر الإنسان إلى الحياة بعين شهواته، فينكبّ أول ما ينكب في صبره ويقينه.

ثم قال الشيخ، ولقد رأيت بعيني رأسي معجزة (العقل الروحاني) وكيف يصنع: رأيت عروة بن الزبير وهو شيخ كبير، عند الوليد بن عبد الملك، وقد وقعت في رجله الأكلة^(١): فأشاروا عليه بقطعها لا تُفسد جسده كله، فدعيت له من يقطعها فلما جاء قال له: نسقيك الخمر حتى لا تجد لها ألماً. فقال عروة: لا أستعين بحرام الله على ما أرجو من عافية! قال: فنسقيك المُرْقِد^(٢). فقال عروة: ما أحب أن أسلب عضواً من أعضائي وأنا لا أجد ألم ذلك فأحتسبه!

(١) الأكلة، بضم الهمزة هي الحكة بكسر الحاء. (٢) المُرْقِد: ما يسمّى بالأجنبية البنج.

ثُمَّ دَخَلَ رِجَالٌ أَنْكَرَهُمْ عُرْوَةً، فَقَالَ: مَا هَؤُلَاءِ؟ قَالُوا: يُمَسْكُونُكَ، فَإِنَّ
الْأَلَمَ رُبَّمَا عَزَبَ^(١) مَعَهُ الْأَصْبِرُ. قَالَ أَرْجُو أَنْ أَكْفِيَكُمْ ذَلِكَ مِنْ نَفْسِي!

قال الشيخ: فانظر أيُّها الضعيفُ الذي يُريدُ قتلَ نفسه كيف صنع عُروَةً،
وكيف استقبلَ ألبلاءَ، وكيف صبرَ وكيف احتملَ. إِنَّهُ أَنْصَرَفَ بِحُسْنِهِ إِلَى النَّفْسِ
فَانْبَسَطَتْ رَوْحُهُ عَلَيْهِ، وَأَخَذَ يَكْبُرُ وَيَهْلُلُ لِيَبْقَى مَعَ رَوْحِهِ وَحْدَهَا، وَخَرَجَ مِنْ دُنْيَا
ظَاهِرِهِ إِلَى دُنْيَا بَاطِنِهِ، وَغَمِرَتْ حَوَاسُّهُ وَأَعْصَابُهُ بِالنُّورِ الْإِلَهِيِّ مِنْ مَعْنَى التَّكْبِيرِ
وَالْتَهْلِيلِ، فَقَطَعَ الْقَاطِعُ كَعْبَهُ بِالسَّكِينِ وَهُوَ لَا يَلْتَفِتُ، حَتَّى إِذَا بَلَغَ الْعِظَمَ وَضَعَ
عَلَيْهَا الْمُنْشَارَ وَنَشَرَهَا وَعُرْوَةً فِي التَّكْبِيرِ وَالتَّهْلِيلِ؛ ثُمَّ جِيءَ بِالزَّيْتِ مَغْلِيًّا فِي
مِغَارِفِ^(٢) الْحَدِيدِ فَحَسِمَ^(٣) بِهِ مَكَانَ الْقَطْعِ، فَغُشِيَ عَلَى عُرْوَةٍ سَاعَةً ثُمَّ أَفَاقَ وَهُوَ
يَمْسُخُ الْعَرَقَ عَنْ وَجْهِهِ، وَلَمْ يُسْمَعْ مِنْهُ فِي كُلِّ هَذِهِ الْأَلَامِ الْمَاحِقَةِ أَنَّهُ وَلَا آهَةٌ،
وَلَمْ يَقُلْ قَبْلَهَا وَلَا بَعْدَهَا وَلَا بَيْنَ ذَلِكَ: «جَاءَ مَا لَا صَبَرَ عَلَيْهِ...!».

قال المصيّب: وَأَرْهَفَ^(٤) بِأَسْرِ الرَّجُلِ الضَّعِيفِ وَقَوِيَّ جَاشُهُ^(٥)، وَأَنْبَعَثَ فِيهِ
الرُّوحُ إِلَى عُمُرٍ جَدِيدٍ، وَنَشَأَ لَهُ الْيَقِينُ مِنْ عَقْلِهِ الرُّوحَانِيِّ، وَعَرَفَ أَنَّ مَا لَا يُمَكِّنُ
أَنْ يُدْرِكَ، يُمَكِّنُ أَنْ يُتْرَكَ.

وجاء هذا العقلُ الروحانيُّ فَمَرَّ بِالْمُنْشَارِ عَلَى الْيَأْسِ الَّذِي كَانَ فِي نَفْسِهِ
فَقَطَعَهُ، فَمَا رَاعَنَا إِلَّا أَنْ وَثَبَ الرَّجُلُ قَائِمًا يَقُولُ: اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، اللَّهُ أَكْبَرُ مِنَ
الدُّنْيَا!.

ثُمَّ أَكَبَ^(٦) عَلَى يَدِ الشَّيْخِ وَهُوَ يَقُولُ: صَدَقْتَ؛ «إِنْ كُلُّ ذَلِكَ إِلَّا كَمَا تَرَى
قَبْضَةً مِنَ التُّرَابِ تَتَكَبَّرُ، وَقَدْ نَسِيتَ أَنَّهُ سَيَأْتِي مَنْ يَكْنُسُهَا!».

ماذا يصنع الإنسانُ إذا غلَطَ في مسألةٍ من مسائل الدنيا إِلَّا أَنْ يَتَحَرَّى^(٧)
الصَّوَابَ، وَيَجْتَهِدَ فِي الرُّجُوعِ إِلَيْهِ، وَيَصْبِرَ عَلَى مَا يَنَالُهُ فِي ذَلِكَ؟ وَمَاذَا يَصْنَعُ
الإنسانُ إذا غلَطَ فِيهِ مُسْأَلَةٌ...؟

(١) عزب: نفد.

(٢) مغارف: ملاعق.

(٣) حسم: سكر.

(٤) أرهف: رقق.

(٥) الجأش: السيطرة على النفس.

(٦) أكب: انحنى.

(٧) يتحرى: يتقصى.

الانتحار

٢

قال المسيّب بن رافع: وقامَ الشعبيُّ إلى الرجلِ فأعْتَنَقَهُ فَرِحاً بما آلَ أمرُهُ إليه، بعدَ إذ رأى النورَ يجري على لونه ويترقُّ في دِياجَتِهِ^(١)؛ كأنَّما وَقَعَ الصلحُ بينَ وجهِهِ وبينَ الحياة. ثُمَّ قالَ لَهُ: نِعَمَ أخو الإسلام أنت، فأستَعِذْ بِاللَّهِ مِنْ خِذْلَانِهِ، فَإِنَّهُ ما خَذَلَكَ إِلَّا وَضَعَكَ نَفْسَكَ بِإِزاءِ اللَّهِ تُعَارِضُهُ أو تُجَارِيهِ في قدرَتِهِ، فَيَكِلُكَ إلى هذه النفسِ، فتنتهي بك إلى العجزِ، وينتهي العجزُ بك إلى السُّخْطِ؛ ومَتى كُنْتَ عاجزاً ساخطاً، محصوراً في نَفْسِكَ؛ مَوْكولاً إلى قدرَتِكَ، كُنْتَ كالأسدِ الجائعِ في القَفْرِ^(٢)، إذا ظَنَّ أَنَّ قُوَّتَهُ تَتناولُ خَلْقَ الفريسة؛ فيدعو ذلك إلى نَفْسِكَ اليأسَ وَالانزعاجَ وَالكَأَبَ؛ وأمثالها من هذه المَهْلِكَاتِ تَفْدُخُ^(٣) في قلبِكَ أَلَشْكَ في الله، وتُثَبِّتُ في رُوعِكَ شَرَّ الحياة، وتُهدي إلى خاطِرِكَ حماقاتِ أَلْعَقْلِ، وتقرِّرُ عندَكَ عَجْزَ الإرادة؛ فتنتهي من كُلِّ ذلك مَيِّتاً قد أَزهَقْتَكَ نَفْسُكَ قَبْلَ أَنْ تُزَهِّقَهَا!

ولو كُنْتَ بَدَلَ إيمانِكَ بِنَفْسِكَ قد آمَنْتَ بِاللَّهِ حقَّ الإيمانِ، لَسَلَّطَكَ اللَّهُ على نَفْسِكَ ولم يسلِّطْها عليك؛ فإذا رَمَتَكَ أَلْمَاطُ مَعُ بالحاجة التي لا تقدرُ عليها، رَمَيْتَها من نَفْسِكَ بالاستغناء الذي تقدرُ عليه؛ وإذا جاءَكَ أَلَشْهُواتُ من ناحية الرغبةِ المقبلة، جِثَّتْها من ناحية الزُّهْدِ أَلْمَنْصَرَفِ، وإذا سَاوَرَتْكَ كبرياءُ الدنيا أَذَلَّتْها بكبرياءِ الآخرة.

وبهذا تنقلبُ أَلْأَحْزانُ والأَلَامُ ضُروباً من فَرَحِ أَلْفُوزٍ وأَلانْتِصارٍ على النفسِ وشهواتِها، وكانتْ فنوناً مِنَ الخِذْلانِ وأَلْهَمَ، وتعودُ موضعَ فخرٍ ومباهاة، وكانتْ أسبابَ خِزْيٍ وأَنْكسارٍ. «وعزيمةُ الإيمانِ إذا هي قَوِيَتْ حَصَرَتْ أَلْبَلَاءَ في مقداره، فإذا حَصَرَتْهُ لم تزلْ تَنْقُصُ من معانيهِ شيئاً شيئاً، فإذا ضَعُفَتْ هذه العزيمةُ جاءَ

(٣) تقدح: تشعل.

(٢) القفر: الصحراء.

(١) دياجته: محياه.

الْبَلَاءُ غَامِراً مُتَفَشِّياً يُجَاوِزُ مَقْدَارَهُ بِمَا يَضْحَبُهُ مِنَ الْخَوْفِ وَالرَّوْعِ، فَلَا تَزَالُ مَعَانِيهِ تَزِيدُ شَيْئاً شَيْئاً بِمَا فِيهِ وَبِمَا لَيْسَ فِيهِ .

وَلِلْإِيْمَانِ ضَوْءٌ فِي النَّفْسِ يُنِيرُ مَا حَوْلَهَا فَتَرَاهُ عَلَى حَقِيقَتِهِ الْفَانِيَةِ وَشَيْكاً أَنْ يَزُولَ؛ فَإِذَا انْطَفَأَ هَذَا الضَّوْءُ انْطَمَسَتْ الْأَشْيَاءُ، فَتَتَوَهَّمُهَا النَّفْسُ أَوْهَاماً مُتَبَايِنَةً^(١) عَلَى أَحْوَالِهَا الْمَخْتَلِفَةِ؛ كَمَا يَرَى الْأَعْمَى بِوَهْمِهِ: لَا عَيْنُهُ مَعَ الْأَشْيَاءِ تَكُونُ فِي طَبِيعَتِهَا، وَلَا أَشْيَاؤُهُ عِنْدَ عَيْنِهِ تَكُونُ فِي حَقِيقَتِهَا .

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَكَانَتْ الشَّمْسُ قَدْ طَفَلَتْ^(٢) لِلْمَغِيبِ؛ فَقَالَ الْإِمَامُ لِلرَّجُلِ: قُمْ فَتَوَضَّأْ وَأَسْبِغِ الْوُضُوءَ، وَسَأُعَلِّمُكَ أَمْرًا تَنْتَفِعُ بِهِ فِي دِينِكَ وَدُنْيَاكَ: فَإِذَا قُمْتَ إِلَى وَضُوءِكَ فَأَيِّقَنَّ فِي نَفْسِكَ وَأَعَزِّمْ فِي خَاطِرِكَ عَلَى أَنْ فِي هَذَا الْمَاءِ سِرًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَسْرَارِ الْغَيْبِ وَالْحَيَاةِ، وَأَنْتَ رَمَزٌ لِلسَّمَاءِ عِنْدَكَ، وَأَنْتَ إِنَّمَا تَتَطَهَّرُ بِهِ مِنْ ظُلُمَاتِ نَفْسِكَ الَّتِي أَمْتَدَّتْ عَلَى أَطْرَافِكَ؛ ثُمَّ سَمَّيَ اللَّهُ (تَعَالَى) مُفِيضاً أَسْمَهُ الْكَادِرِ الْكَرِيمِ عَلَى الْمَاءِ وَعَلَى نَفْسِكَ مَعاً، ثُمَّ تَمَثَّلَ أَنَّكَ غَسَلْتَ يَدَيْكَ مِمَّا فِيهِمَا وَمِمَّا تَتَعَاطَاهُ بِهِمَا مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا، وَأَنْتَ آخِذٌ فِيهِمَا مِنَ السَّمَاءِ لَوَجْهِكَ وَأَعْضَائِكَ؛ وَقَرَّرَ عِنْدَ نَفْسِكَ أَنَّ الْوُضُوءَ لَيْسَ شَيْئاً إِلَّا مَسْحَةٌ سَمَاوِيَّةٌ تُسَبِّغُهَا عَلَى كُلِّ أَطْرَافِكَ، لِيَشْعَرَ بِهَا جِسْمُكَ وَعَقْلُكَ؛ وَأَنْتَ بِهَذِهِ الْمَسْحَةِ السَّمَاوِيَّةِ تَسْتَقْبِلُ اللَّهَ فِي صَلَاتِكَ سَمَاوِيًّا لَا أَرْضِيًّا .

فَإِذَا أَنْتِ اسْتَشْعَرْتَ هَذَا وَعَمِلْتَ عَلَيْهِ وَصَارَ عَادَةً لَكَ، فَإِنَّ الْوُضُوءَ حِينَئِذٍ يَنْزِلُ مِنَ النَّفْسِ مَنْزِلَةَ الدَّوَاءِ، كُلَّمَا أُغْتَمِمْتَ أَوْ تَسَخَّطْتَ أَوْ غَشِيَكَ حَزَنٌ أَوْ عَرَضَ لَكَ وَسْوَاسٌ، فَمَا تَتَوَضَّأُ عَلَى تِلْكَ النِّيَّةِ إِلَّا غَسَلْتَ الْحَيَاةَ وَغَسَلْتَ السَّاعَةَ الَّتِي أَنْتِ فِيهَا مِنَ الْحَيَاةِ. وَتَرَى الْمَاءَ تَحْسَبُهُ هَدِوَاءً لَيْنًا لَيْنَ الرُّضَى، وَإِذَا هُوَ يَنْسَابُ فِي شُعُورِكَ وَفِي أَحْوَالِكَ جَمِيعاً .

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَقُمْتُ أَنَا فَجَدَّدْتُ وَضُوءِي عَلَى هَذِهِ الصِّفَةِ بِتِلْكَ النِّيَّةِ، فَإِذَا أَنَا عِنْدَ نَفْسِي مُسْتَضِيءٌ بِرُوحِ نَجْمِيَّةٍ لَهَا إِشْرَاقٌ وَسَنَاءٌ، وَإِذَا الْوُضُوءُ فِي أَضْعَافِ مَعَانِيهِ هُوَ مَا عَلَّمْنَا مِنْ أَنَّهُ الطَّهَارَةُ وَالنِّظَافَةُ، أَمَّا فِي أَقْوَى مَعَانِيهِ فَهُوَ إِفَاضَةٌ مِنَ السَّمَاءِ فِيهَا التَّقْدِيسُ وَالتَّرَكُّيبُ وَغَسْلُ الْوَقْتِ الْإِنْسَانِيِّ مِمَّا يُخَالِطُهُ كُلَّمَا مَرَّتْ

(١) مُتَبَايِنَةٌ: مُخْتَلِفَةٌ.

(٢) طَفَلَتْ: مَالَتْ.

ساعات ، وأبتداؤه للروح كالنبات الأخضر ناضراً مطولاً مترطباً بالماء .

ثم صلى بنا الشيخ ، وأمرني بالمبيت مع الرجل ، كأنما خشي البدوات^(١) أن تبدو له فتنقص عزمه ، أو هو زادني عليه لأغير شخصه وأبدل وحدته التي كان فيها ، أو كأن الشيخ لم يأمن على الرجل أن يكون إنسانه الروحي قد تنبه بأكمله فوضعني كالتنبيه له .

وجاءنا العشاء من دار الشيخ فطعمنا ، ثم قام الرجل فتوضأ وصلينا العتمة وجلسنا نتحدث ، فاستنبأته نبأه^(٢) ، فقال : مهلاً . ثم نهض فتوضأ الثالثة وقال : تالله ما أعرف الوضوء بعد اليوم إلا ملامسة بين السماء والنفس ، وما أعرف وقته من الروح إلا كساعة الفجر على النبات الأخضر .

* * *

قال المسيب : وأصبحنا فغدونا على الإمام ، ثم لزماني الرجل في بعض أموري ، ثم وافينا المسجد صلاة العصر لحضور درس الشيخ ؛ وكان الناس كالحب المتراصف على العنقود ، لا أدري من ساقهم وجمعهم ؛ كأنما علمت الكوفة أن رجلاً مسلماً كفر بالله كفره صلعاء وأنه سيحضر درس الشيخ ، وسيحضر الشيخ من أجله ، فهبت الرياح الأربع تسوق أهلها إلى المسجد من أقطارها .

وجلس الشيخ مجلس الحديث فقال :

روينا أن رجلاً كانت به جراحة ، فأتى قرناً^(٣) له فأخذ مشقصاً^(٤) فدبح به نفسه ، فلم يصل عليه النبي ﷺ ، وترك جنازته مطرودة تقتحم متلفة الآخرة كما أقتحمت متلفة الدنيا !

روينا في الحديث عن النبي ﷺ أنه قال : «الذي يخنق نفسه يخنقها في النار ، والذي يطعن نفسه يطعن نفسه في النار ، والذي يقتحم يقتحم في النار !»

روينا عنه ﷺ : «من قتل نفسه بشيء عذب به يوم القيامة !»

روينا عنه ﷺ قال : «كان رجل به جراح فقتل نفسه ، فقال الله : بذرني عبدي بنفسه فحرمت عليه الجنة !» .

(١) البدوات : المفاجئات .

(٢) استنبأته نبأه : سأله عنه .

(٣) القرن بالفتح : جعبة الشباب .

(٤) المشقص : سهم ذو نصل عريض .

قال الشعبي: يقول الله: «بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ...» أي بدرني^(١) وتأله فجعل نفسه إله نفسه، فقبضها وتوفاها، فكان ظالماً.

بَدَرْنِي وتأله في آخر أنفاسه لحظة ينقلب إلي، فكان مع ظلمه مغروراً أحمق! بدرني وتأله حين ضاق، فهوَر نفسه^(٢) في الموت من عجزه أن يُمسكها في الحياة، فكان عاجزاً مع ظلمه وغروره وخمفه!

بدرني وتأله على جهله بسر الحياة وحكمتها، فلم يستح هذا المخلوق الظالم المغرور في حمقه وعجزه وجهله - لم يستح أن يجيئي في صورة إله!

بَدَرْنِي وتأله، فطبع نفسه طابعها الأبدي من غي وتمرّد وسفاهة، وأرسلها إلي مقتولة يرُدّها عليّ.

بدرني وتأله كأنما يقول: إنَّ له نصف الأمر ولي النصف: أنا أحييتُ وهو أمات...!

بَدَرْنِي عَبْدِي بِنَفْسِهِ فحرّمت عليه الجنة! قال الشعبي: وإنّما تُحرّم الجنة على مَنْ يقتل نفسه، إذ ينقلب إلى الله وعلى روحه جناية يده ما تُفارقها إلى الأبد: فهو هناك جيفة من الجيف مسمومة أبداً، أو مخنوقة أبداً، أو مذبوحة أبداً، أو مهشّمة أبداً يقول الله له: أنت بدرتني بنفسك، وجريت معي في القدر مجرى واحداً، فستخلد نفسك في الصورة التي هي من عملك، وما قتلت إلا حسّاتك.

قال الشعبي: ولو عرف قاتل نفسه أنّه سيصنع من نفسه جيفة أبدية، فمن ذا الذي يعرف أنه إذا فعل كذا وكذا تحوّل جماراً وبقي جماراً، فيرضى أن يتحوّل ويسرع ليتحوّل؟

من ذلك نظر النبي ﷺ إلى جنازة ذلك الرجل الذي قتل نفسه، كما ينظر إلى ذبابة توجهت بالسب إلى الشمس والكواكب والأفلاك كلها، ثم جاءته تقول: اشهد لي.

قال الشيخ: ومِمَّ يقتل الإنسان نفسه؟ أما إن الموت آت لا ريب فيه ولا مقصّر لحي عنه، وهو الخيبة الكبرى تُلقَى على هذه الحياة؛ فما ضرر الخيبة الصغيرة في أمر من أمور الحياة؟

(٢) هوَر نفسه: أزهقها.

(١) بدرني: سبقني وأتى إليّ.

إنَّ المرءَ لا يقتلُ نفسه من نجاح بل من خيبة، فإنَّ كانتِ الخيبةُ من مالٍ فهي الفقرُ أو الحاجةُ، وإنَّ كانت من عافيةٍ فهي المرضُ أو الاختلالُ، وإنَّ كانت من عزَّةٍ فهي الذلُّ أو البؤسُ، وإنَّ كانت ممَّا سوى ذلك - كالنساءِ وغيرهنَّ - فهي العجزُ عن الشهوةِ وفسادُ التخيُّلِ، كلُّ ذلك موجودٌ في الناسِ، يحملُهُ أهلُهُ راضينَ به صابرينَ عليه، وهو الغبارُ النفسيُّ لهذه الأرضِ على نفوسِ أهلِها. ويا عجباً! إنَّ العميانَ هم بالطبيعةِ أكثرُ الناسِ ضحكاً وابتساماً وعبثاً وسخريةً، أفتريدون أن تُخاطبُكمُ الحياةُ بأفصحَ من ذلك؟

ليستِ الخيبةُ هي الشرُّ، بل الشرُّ كلُّه في العقلِ إذا تبلَّدَ فجمدَ على حالةٍ واحدةٍ من الطمعِ الخائبِ، أو في الإرادةِ إذا وهنت فبقيت متعلِّقةً بما لم يُوجد. أفلا ترونَ أنَّه حينَ لا يُبالي العقلُ ولا الإرادةُ لا يبقى للخيبةِ معنى ولا أثرٌ في النفسِ، ولا يخيبُ الإنسانُ حينئذٍ، بل تخيبُ الخيبةُ نفسها؟

لهذا يأبى الإسلامُ على أهلِهِ التَّرفَ العقليَّ والتخيُّلَ الفاسدَ، ويشدُّ كلَّ الشدَّةِ في أمرِ الإرادةِ، فلا يترخَّصُ في شيءٍ يتعلَّقُ بها، ولا يزالُ يُنمِّيها بأعمالٍ يوميةٍ تشدُّ منها لتكونَ رقيبةً على العقلِ حارسةً له، فإنَّ للعقلِ أمراضاً كثيرةً يقيسُ فيها درجاتٍ من الطيشِ حتى يبلغَ الجنونَ أحياناً؛ فكانتِ الإرادةُ عقلاً للعقلِ؛ هي لينُهُ إذا تصلَّبَ، وهي حركتهُ إذا تبلَّدَ، وهي جِلْمُهُ إذا طاش، وهي رضاهُ إذا سَخِطَ.

الإرادةُ شيءٌ بينَ الروحِ والعقلِ، فهي بينَ وجودينَ؛ ولهذا يكونُ بها الإنسانُ بينَ وجودينِ أيضاً، فيستطيعُ أن يعيشَ وهو في الدنيا كالمنفصلِ عنها، إذ يكونُ في وجودِهِ الأقوى وجودُ روحِهِ، وأكبرُ همِّه نجاحُهُ في هذا الوجودِ.

وهذا النجاحُ لا يأتي من المالِ، ولا تُحقِّقُهُ العافيةُ، ولا تُيسِّرهُ الشهواتُ، ولا يُسَنِّيهُ^(١) التَّخيُّلُ الفاسدُ؛ ولا يكونُ من متاعِ الغرورِ، ولا ممَّا عُمرُهُ خمسونَ سنةً أو مائةُ سنةٍ؛ بل يأتي ممَّا عُمرُهُ الخلودُ وممَّا هو باقٍ أبداً في معانيهِ من الخيرِ والحقِّ والصَّلاحِ؛ فهنا يُعِينُ المرضُ بالصبرِ عليه ممَّا لا تُعِينُ الصَّحةُ، ويُفِيدُ الفقرُ بحقائقِهِ ما لا تُفِيدُ الثروةُ؛ وهنا يكونُ العقلُ الإنسانيُّ عاملاً أكثرَ ممَّا هو متخيُّلٌ، وقانِعاً أكثرَ ممَّا هو طامعٌ؛ وهنا لا موضعٌ لِغلبةِ الشهوةِ، ولا كِبَرِياءِ النفسِ، ولا

(١) يسنيه: يجعله سنياً نبيلاً.

حُبِّ الذات؛ وهذه الثلاث هي جالبةُ الشقاء على الإنسان حتى في أحوال السعادة، وبدونها يكون الإنسان هائلاً حتى في أحوال الشقاء.

بالإرادة المؤمنة القويّة ينصرف ذكاء المؤمن إلى حقائق العالم وصلاح النفس بها، وبغير هذه الإرادة ينصرف الذكاء إلى خيال الإنسان وفساد الإنسان...

وإذا أنصرف الذكاء إلى حقائق الدنيا كان العقل سهلاً مرنًا مطواعاً، وأستحال عليه أن يفهم فكرة قتل النفس أو يُقرّها، فإنّ هذه الفكرة الخبيثة لا تستطرق إلى العقل إلا إذا تحجّر وأنحصر في غرض واحد قد خاب وخابث فيه الإرادة ففرغت الدنيا عنده.

ولو أن أماً تمّ عزّمه على قتل نفسه ثم صابر الدنيا أياماً، لأنفسح عزّمه أو رك^(١)؛ إذ يلين العقل في هذه المدة نوعاً ما، ويجعل الصبر بينه وبين المصيبة مسافة ما، فتتغير حالة النفس هوناً ما؛ فالصبر كالترّوح بالهواء على العقل الذي يكاد يختنق من احتباسه في معنى واحد مُقفل من جوانبه «ومثّل العقل في هذه الحال مثل القائم في إعصار لفته بالتراب لفاً وسدّ عليه منافذ الهواء، وحبسّه في هذا التراب الملتفّ حبس الحشرة في جوف القصبّة؛ فهو على أليقين أنّها حالة ساعية طارئة في الزمن لا حالة الزمن؛ وأنّ الهواء الذي جاء بهذا ألهم هو الذي يذهب بهذا ألهم.

وكما أنّ الأرض هي شيء غير هذا الإعصار الثائر منها، فالحياة كذلك هي أمر آخر غير شقائها.

قال الإمام: وفي كتاب الله آيتان تدلّان على أنّه كتاب الدنيا كلّها، إذ وضع لهذه الدنيا مثالين: أحدهما المثال الروحي للفرد الكامل، والآخر المثال الروحي للجماعة الكاملة.

أما الآية الأولى فهي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾.

وأما الثانية فهي قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾.

(١) رك: ضعف.

ففي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يتسامى الإنسانُ فوقَ هذه الحياةِ الفانية، فتمرُّ همومُها حوله ولا تصدمه، إذ هي في الحقيقة تجري من تحته فكأن لا سلطانَ لها عليه؛ وهذه الهمومُ تجدُ في مثل هذه النفسِ قُوَى بالغة تصرفها كيف شاءت، فلا يجيءُ الهمُّ قوةً تسحقُ ضعفاً، بل قوةً تمتحنُ قوةً أخرى أو تُثيرُها لتكونَ عملاً ظاهراً يقلِّدُه الناسُ ويتفَعُّونَ منه بالأسوةِ الحسنة، والأسوةُ وحدها هي عِلْمُ الحياة. وقد ترى الفقيرَ مِنَ الناسِ تحسُّبُه مسكيناً، وهو في حقيقته أستاذٌ من أكبر الأساتيدِ يُلقي على الناسِ دروسَ نفسه القويّة.

وفي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يبطلُ أكبرُ أسبابِ الشرِّ في الناسِ، وهو نظَرُ الإنسانِ لِمَنْ هو أحظى منه بفتنة الدنيا نظراً لا يَبْعَثُ إِلَّا الْحِقْدَ وَالسُّخْطَ، فينظرُ المؤمنَ حينئذٍ إلى ما في الناسِ مِنَ الخيرِ والصَّلاحِ والإيمانِ والحقِّ والفضيلة، وهذه بطبيعتها لا تبعثُ إِلَّا السرورَ والغبطة. وَمَنْ جعلها في تفكيره أبطلَ أكثرَ الدنيا من تفكيره؛ وبها تسقطُ الفروقُ بينَ الناسِ عاليهم ونازلهم؛ كالرجلِ الفقيرِ العالمِ إذا قَدِمَ على الغنيِّ العالمِ؛ جَمَعَ بينهما الاتفاقُ العقليُّ وسقطَ ما عداه.

وفي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يعيشُ الإنسانُ عُمرَه الطويلَ أو القصيرَ كأنَّه في يومٍ يُصبحُ منه غادياً على الحشرِ والحسابِ؛ فهو متَّصلٌ بالخلودِ غيرُ مَغْنِيٍّ إِلَّا بِأَسْبَابِهِ؛ وبهذا تكونُ أمراضُه وآلامُه ومصابئُه ليستَ مَكَارَةً مِنَ الدنيا، بل هي تلكَ المكارهُ التي حُفَّتِ أَلْجَنَةُ بها؛ ولا يَضُرُّهُ الحِزْمَانُ لَأَنَّهُ قَرِيبُ الزوالِ، ولا يَغُرُّهُ المتاعُ لَأَنَّهُ قَرِيبُ الزوالِ أيضاً.

وفي رجاءِ اللَّهِ واليومِ الآخرِ يَسُودُ الإنسانُ على نفسه؛ وَمَنْ كَانَ سَيِّدَ نَفْسِهِ كَانَ سَيِّدَ مَا حَوْلَهَا يُصَرِّفُهُ بِحَكْمِهِ، وَمَنْ كَانَ عَبْدَ نَفْسِهِ صَرَّفَهُ بِحَكْمِهِ كُلُّ مَا حَوْلَهُ.

قالَ الشعبيُّ: وأما المَثالُ الروحيُّ لِلْجَمَاعَةِ الكاملةِ، فهو في وصفِ الْمُؤْمِنِينَ بأنهم «رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ»؛ فهذا هذا، ما أَحْسَبُهُ يَحْتَاجُ إِلَى بَسْطِ وَبَيَانِ.

إِنَّ أَكْثَرَ مَا يَضِيقُ بِهِ الْإِنْسَانُ يَكُونُ مِنْ قَبْلِ مَنْ حَوْلَهُ مِمَّنْ يُعَايِشُهُمْ وَيَتَّصِلُ بِهِمْ لَا مِنْ قَبْلِ نَفْسِهِ، فإذا قَامَ أَجْتِمَاعُ أُمَّةٍ عَلَى أَنَّهُمْ (رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ) تَقَرَّرَتِ الْعَظَمَةُ النَّفْسِيَّةُ لِلْجَمِيعِ عَلَى السَّوَاءِ؛ وَمَنْ كَانُوا كَذَلِكَ لَمْ يَخْجِرُوا الْفَقِيرَ بِفَقْرِهِ، وَلَمْ يُعْظِمُوا الْغَنِيَّ لِغِنَاهُ، وَإِنَّمَا يُحَقِّرُونَ وَيُعْظِمُونَ لِصِفَاتٍ سَامِيَةٍ أَوْ حَقِيرَةٍ. وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ يَكُونُ الْفَقِيرُ الصَّابِرُ أَعْظَمَ قُدْرَةً مِنَ الْغَنِيِّ الشَّاكِرِ، وَإِعْظَامُ النَّاسِ

لِفَضِيلَةِ الْفَقِيرِ هُوَ الَّذِي يَجْعَلُ فَقْرُهُ عِنْدَ نَفْسِهِ شَيْئاً ذَا قِيَمَةٍ فِي الْإِنْسَانِيَةِ .

وَمَتَى تَصَحَّحْتَ آرَاءَ الْجَمَاعَةِ فِي هَذِهِ الْمَعَانِي الْمُؤَلِّمَةِ لِلنَّاسِ بَطَلَ أَلْمُهَا
وَأَسْتَحَالَتْ مَعَانِيهَا، وَصَارَ لَا يَبْلَى مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْحَيَاةِ فِي إِنْسَانٍ إِلَّا وَضَعَ إِيْمَانُهُ
مَعْنَى جَدِيداً فِي مَكَانِهِ، وَتَصْبِحُ الْفَضِيلَةُ وَحْدَهَا غَايَةَ النَّفْسِ فِي الْجَمِيعِ ؛ وَبِذَلِكَ
يَصْبِرُ الْفَرْدُ عَلَى مَصَائِبِهِ، لَا بِقُوَّتِهِ وَحْدَهُ، وَلَكِنْ بِجَمِيعِ الْقُوَى الَّتِي حَوْلَهُ . أَفَلَا
تَرَوْنَ أَنَّ إِعْجَابَ النَّاسِ بِالشَّجَاعَةِ وَتَعْظِيمَهُمْ صَاحِبَهَا يَضَعُ فِي أَلَمِ السَّلَاحِ لَذَّةً
يُحْسِنُ لَحْمَ الشَّجَاعِ الْبَطْلُ ؟

قَالَ الْمَسِيبُ بْنُ رَافِعٍ : فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمَجْلِسِ، فَقَالَ . أَيُّهَا الشَّيْخُ، وَإِذَا
فَسَدَ النَّاسُ وَغَلِظَتْ قُلُوبُهُمْ، وَتَقَطَّعَتْ بَيْنَهُمُ الْأَسْبَابُ، وَلَمْ يَعُودُوا (رَحَمَاءُ
بَيْنَهُمْ)، وَشَمِتُوا بِالْفَقِيرِ، وَتَهَزَّأُوا بِالْمُبْتَلَى وَطَرَحُوهُ فِي أَلْسِنَتِهِمْ كَمَا يَطْرَحُ الشَّاعِرُ
فِي لِسَانِهِ رَجُلًا يَهْجُوهُ لَا يَكْفُ عَنْهُ - فَمَا عَسَى أَنْ يَصْنَعَ الْمَسْكِينُ حِينَئِذٍ وَكُلُّ شَيْءٍ
يُدْفَعُهُ إِلَى قَتْلِ نَفْسِهِ؟

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ : هُنَا الرَّجَاءُ فِي اللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَهُوَ شَعُورٌ لَا يُشْتَرَى
بِمَالٍ، وَلَا يُلْتَمَسُ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا يَغْسُرُ عَلَى مَنْ أَرَادَهُ؛ وَالْفَقِيرُ وَالْمُبْتَلَى وَغَيْرُهُمَا
إِنَّمَا يَصْنَعُ كُلُّ مِنْهُمْ مِثَالَهُ السَّامِي؛ فَالصَّبْرُ عَلَى هَذَا الْعَنَتِ هُوَ صَبْرٌ عَلَى إِتْمَامِ
الْمِثَالِ، وَإِذَا وَقَعَ مَا يَسُوءُكَ أَوْ يُحْزِنُكَ فَابْحَثْ فِيهِ عَنْ فِكْرَتِهِ السَّامِيَةِ، فَقَلَّمَا يَخْلُو
مِنْهَا، بَلْ قَلَّمَا يَجِيءُ إِلَّا بِهَا .

قَالَ الْمَسِيبُ : فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ : وَكَيْفَ يَصْنَعُ أَمْرُؤُ الْآلِ^(١) أَحْوَالُ الدُّنْيَا إِلَى مَا
يُخِيفُهُ، أَوْ بَلَغَ أَلَمُهُ مَبْلَغَهُ مِنْ قَلْبِهِ فَهَمَّ أَنْ يَقْتُلَ نَفْسَهُ؟

قَالَ الشَّعْبِيُّ : فَلْيَجْعَلِ الْخَوْفَ خَوْفَيْنِ : أَحَدُهُمَا خَوْفُهُ عَذَابَ اللَّهِ خَالِداً
مُخْلِداً فِيهِ أَبَداً؛ فَيَذْهَبِ الْأَقْوَى بِالْأَضْعَفِ . وَإِذَا أَبْتَلِيَ فَلْيُضَمِّ إِلَى نَفْسِهِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ
بَلَاءً مِنْهُ ؛ لِيَكُونَ هُمُّ أَحَدِ هَمَيْنِ، فَيَذْهَبِ الْأَثْقَلُ بِالْأَخْفِ .

إِنَّ الْإِنْسَانَ وَنَفْسَهُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ كَالَّذِي أُعْطِيَ طِفْلاً نَزِقاً طَيَّاشاً عَارِماً مَتَمَرِّداً
لِيُؤَدِّبَهُ وَيُحْكِمَ تَرْبِيَّتَهُ وَتَقْوِيمَهُ فَيُثَبِّتَ بِذَلِكَ أَنَّهُ أَسْتَاذٌ، فَيُعْطَى أَجْرَ صَبْرِهِ وَعَمَلِهِ، ثُمَّ
يُضَيِّقُ الْأُسْتَاذُ بِالطِّفْلِ سَاعَةً فَيَقْتُلُهُ . أَكْذَلِكَ التَّأْدِيبُ وَالتَّرْبِيَّةُ؟

(١) آلت : تَحَوَّلَتْ .

الانتحار

٣

قال المسيبُ بنُ رافع: وكان الإمامُ قد شغلَ خاطره^(١) بهذه القصة فأخذتْ تَمُدُّ مدَّها في نفسه، ومكَّنتْ له من معانيها بِمقدارِ ما مكنَ لها في همِّه، وتفتَّتْ بها ذِهنُهُ عَنْ أساليبِ عجيبةٍ يتهيأُ بعضها من بعضٍ كما يلدُ المعنى المعنى. فلَمَّا قالَ الرَّجُلانِ مقالَهما آنفاً وأجابَهما بتلكِ الحِكْمةِ والموعظةِ الحسنة، أنقَدَحَ له من كلامِهما وكلامِهِ رأيٌ فقال:

يا أهلَ الكوفة: أنشدُكم اللهَ والإسلامَ أيُّما رجلٍ منكم ضاقَ بروحه يوماً فأرادَ إزهاقَها إلَّا كشفَ لأهلِ المجلسِ نفسه وصدَّقنا عن أمرِهِ؛ ولا يَجِدَنَّ في ذلك ثلَباً^(٢) ولا عاباً، فإنَّما النكبةُ مذهبٌ من مذاهبِ القَدَرِ في التعلِيمِ؛ وقد يكونُ ابتداءُ المصيبةِ في رجلٍ هو ابتداءُ الحِكْمةِ فيه لِنَفْسِهِ أو لِغَيْرِهِ؛ وما من حزينٍ إلَّا وهو يشعرُ في بعضِ ساعاتِ حزنِهِ أَنَّهُ قد غُيِّبَتْ فيه أسرارٌ لم تكن فيه، وهذا من إِبَانَةِ الحَقِيقَةِ عن نَفْسِها وموضعِها كما لألَّا^(٣) في سيفِ بريقِهِ.

وعقلُ الهِمِّ عقلٌ عظيمٌ، فلو قد أريدَ استخراجُ عِلْمٍ يَعْلَمُهُ النَّاسُ مِنَ اللَّذاتِ والنَّعمِ؛ لَكَانَ من شرحِ هذا العِلْمِ مِنَ الحَمِيرِ والبغالِ والدَّوَابِّ ما لا يكونُ مثلهُ ولا قُرَابُهُ في العُقلاء، ولا تبلغُهُ القُوى الأَدَمِيَّةُ في أَهْلِهَا؛ بَيَدَ أَنَّهُ لو أريدَ عِلْمٌ مِنَ البُؤْسِ والألَمِ وَالْحَاجَةِ لَمَّا وَجَدَ شَرْحُهُ إلَّا في النَّاسِ، ثُمَّ لا يكونُ الخاصُّ منه إلَّا في الخاصَّةِ منهم.

وما بَانَ أَهلُ النِّعْمَةِ ولا غَمَرُوا المَساكِينَ في تَطَاوُلِهِم بِأَعْناقِهِم إلَّا من أَنَّهُم يَعْلَمُونَ أَكْتَافَ الشَّيَاطِينِ؛ فَالشَّيْطَانُ دَابَّةُ الْغِنَى الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ فِي غِنَاهِ وَيَحْسِبُ نَفْسَهُ مُخَلَّى لِشَهَوَاتِهِ وَنَعِيمِهِ؛ كَمَا هُوَ دَابَّةُ الْعَالَمِ الَّذِي يَجْهَلُ الْحَقَّ عَلَيْهِ

(٣) لألَّا: التمتع وبرق.

(٢) ثلَباً: عاباً وعبياً.

(١) خاطره: باله.

في علمه، ويزعم نفسه مخلى لعقله أو رأيه، وما طال الطويل بذلك ولا عن ذلك
قَصُرَ القصير، وهل يصح في الرأي أن يقال هذا أطول من هذا لأنَّ الأول فوق
السُّلَمِ والآخر فوق رجله...؟

قال المسيب: فقام شيخ من أقصى المجلس وأقبل يتخطى الرقاب والناس
يُفْرَجُونَ^(١) له حتى وقف بإزاء الإمام؛ وتقرسته^(٢) وجعلت عيني تعجمه^(٣)، فإذا
شيخ تبدو طلاقة وجهه شباباً على وجهه، أبلغ الغرة مُتهلِّل عليه بشاشة الإيمان
وفي أساريره أثر من تقطيب قديم، ينطق هذا وذاك أنَّ الرجل فيما أتى عليه من
الدهر قد كان أطفأ المصباح الذي في قلبه مرة ثم أضاءه. وعجبت أن يكون مثل
هذا الشيخ قد هم بقتل نفسه يوماً، وأنا أرى بعيني نفسه هذه مُثَبِّتة في الحياة أثبات
النخلة السحوق.

وتكلم هذا الرجل فقال:

أما إذ ناشدتنا^(٤) الله والإسلام وميثاق العلم ووحى الأقدار في حكميتها، فإنني
محدثك بخبري على وصفه ورضفه: أملت^(٥) منذ ثلاثين سنة ووقف بي من الدهر
ما كان يجري، وأصبحت في مُزاولة الدنيا كعاصر الحجر يُريد أن يشرب منه،
وعجزت يدي حتى لظفر دجاجة في نبشها التراب عن الحبة والحشرة أقدر مني؛
وطرقتني النوائب^(٦) كأنما هي تُساكنني في داري، وأكلني الدهر لحماً ورماني
عظاماً، فما كان يقف عليَّ إلا كلاب الطريق؛ ولي يومئذ امرأة أعقت منها طفلاً،
ويلزمني حقهما ولا أستطيعه؛ وكان بيننا حُب فوق المعاشرة والألفة قد تركني من
أمرأتي هذه كالشاعر الغزل من صاحبتة، غير أن الشعر في دمي لا في لساني.

فلما نهكتني^(٧) المصائب وتناولتني من قريب ومن بعيد؛ قلت للمرأة ذات
يوم وقد شجبت وأنكسر وجهها وتقبض^(٨) من هزاله: وأيم الله يا فلانة لو جاز أن
يؤكل لحم الآدمي لذبخت نفسي لتأكلي وتدرِّي على الصبي؛ ولقد هممت أن
أركب رأسي وأذهب على وجهي لتفقداني فتفقدا شؤمي عليكما؛ ولكن ردني

(١) يفرجون له: يُسحون له الطريق.

(٢) تقرسته: نظرت إليه بإمعان.

(٣) تعجمه: تتفحصه.

(٤) ناشدتنا الله: استحلقتنا.

(٥) أملت: افترقت.

(٦) طرقتني النوائب: حلت بي المصائب.

(٧) نهكتني: أتعبتني وأضعتني.

(٨) تقبض: انكمش.

قلبي، وهو حَبَسَنِي في هذه الدنيا الصغيرة التي بينكما، فليس لي مِنَ الأرضِ مَشْرِقٌ ولا مغربٌ إِلَّا أَنْتِ وهذا الصَّبِيُّ. ولَسْتُ أَدْرِي - واللَّهِ - ما نَصْنَعُ بالحياةِ وقد كُنَّا من نباتِها الأخضرِ فرَجَعْنَا من حَطَبِها اليابس؛ وعادَتِ الشمسُ لا تَغْذُوها بل تمتصُّ منها ما بقي، ولا تستضيءُ لها، ولكن تَسْتَوْقِدُ عليها!

إِنْ مَنْ فَقَدَ الْخَيْرَ ووقعَ في الشرِّ، حَرِيٌّ^(١) أَنْ يَكُونَ قد أصابَ خيراً عظيماً إذا قَتَلَ نَفْسَهُ فخلصَ مِنَ الشَّرِّ والخيرِ جميعاً، لا يُكْدِي^(٢) ولا يَنْجَحُ، ولا يَأْلَمُ ولا يَلْدُ؛ وكما أنكرتُه الدنيا فلينكرها. أما إِنَّهُ إِنْ كَانَ القَبْرُ القَبْرُ ولكن في بطنِ الأرضِ لا على ظهرِها كحالنا؛ وَإِنْ كَانَ أَلَمُوتُ فَأَلَمُوتُ ولكن بمرَّةٍ واحدةٍ وفي شيءٍ واحدٍ لا كهذا الذي نحن فيه أنواعاً أنواعاً. قد مَاتَتْ أَيَّامُنَا، وترَكْنَا نعيشُ كالموتى لا أيامَ لهم، وزادَ علينا أَلَمُوتى في النعمةِ والراحةِ أَنَّهُمْ لا يتطفلون^(٣) على أيامِ غيرِهِمْ فيُطَرِّدُوا عن يومِ هذا ويومِ ذاك.

قال: فَاسْتَعْبِرَتْ^(٤) الْمَرْأَةُ بَاكِيةً، وَلَمَّا فرَغَتْ من كلامِ دموعِها قالت: كَأَنَّكَ تُرِيدُ أَنْ تُفَجِّعَنَا فيكَ؟ قلتُ: ما عَدَوْتُ ما في نفسي؛ ولكن هل بقيَ في مَنْ تُفَجِّعِينَ فيه؟ أما ذهبَ مني ذاك الذي كَانَ لكَ زوجاً وكاسباً، وجاءَ الذي هو هُمُّكَ وهُمُّ هذا الصَّبِيِّ من رجلٍ كالحفرةِ لا تتقلُّ من مكانِها وتأخذُ ولا تُعْطِي؟

أَمْ وَاللَّهِ لَكَأَنِّي خُلِقْتُ إِنْسَاناً خَطِئاً، حتى إذا تَبَيَّنَ الغَلْطُ أريدُ إرجاعي إلى الحيوانِ فلم يَأْتِ لا هذا ولا ذاك، وبقيَتْ بينهما؛ يَمُرُّ النَّاسُ بي فيقولون: إنسانٌ مسكين. وأحسبُ لو نَطَقَتْ أَلَكْلَابُ لَقَالَتْ عَنِّي: كَلْبٌ مسكين. يا عجباً! عجباً لا ينتهي! أصبحتُ الدنيا في يَدِنَا مِنَ العجزِ واليأسِ كأنما هي بَغْرَةٌ نَجْهَدُ في تحويلِها ياقوتةً أو لؤلؤةً...

فقالتِ المرأةُ: وَاللَّهِ لَئِنْ حَيَّيْتُ على هذا إِنَّ هذا لَكَفَرٌ قبيحٌ، وَلَئِنْ مُتُّ عليه إِنَّهُ لَأَقْبَحُ وأشدُّ.

فقلتُ لها: ويحك وماذا تنظرُ العَيْنُ الْمُبْصِرَةُ في الظلامِ الحالِكِ إِلَّا ما تنظرُ الْعَمِيَاءُ؟

قالتُ: وَلِمَ لا تنظرُ كما ينظرُ المؤمنُ بنورِ اللَّهِ؟

(٣) يتطفلون: يعيشون على حساب غيرهم.

(٤) استعبرت: بكيت.

(١) حري: جدير.

(٢) كدَّى: قتل خيره وعطاؤه.

قلتُ: فأنظري أنت وخبريني ماذا ترين. أترين رغيفاً؟ أترين إداماً؟ أترين ديناراً؟

قالت: واللّه إنني لأرى كلّ ذلك وأكثر من ذلك. أرى قمراً سيكشف هذه السُدفة^(١) المظلمة إن لم يطلع فكان قَدْ.

قال: فغاظتني المرأة ورأيتها حينئذٍ أشدَّ عليّ بقلّة ذات عقلها من قلّة ذات يدي؛ ولولا حبّي إياها ورحمتي لها لأوقعتُ بها^(٢). وأستحكم في ضميري أن أزهق نفسي وأدعها لِمَا كُتِبَ لها.

وقلت: إنّ جُبْنَ المرأة هو نصف إيمانها حين لا يكون نصف عقلها، وللقدر يدٌ ضعيفة على النساء تصفعهنّ وتمسح دموعهنّ، وله يدٌ أخرى على الرجال ثقيلة تصفع الرجل وتأخذ بحلقه فتعصره.

قال: وكنت قد سمعت قول الجاهلية في هذه الخليفة؛ أرحام تدفع، وأرض تبلع. فحضرني هذا القول تلك الساعة وشبه لي، وأعتقد أنّ هذا الإنسان شيءٌ حقيرٌ في الغاية من ألوان والضعة: حملته أمه كرهاً، وأثقلت به كرهاً، ووضعت كرهاً؛ وهو من شؤمه عليها إذا دنا لها أن تضع لم يخرج منها حتى يضربها المخاض فتقلب وتصيح وتمزق وتنصدع^(٣)؛ وربما نشب فيها فقتلها، وربما التوى فيبقر بطنها عنه. وإذا هي ولدته على أي حالٍ من عسرٍ وتطريقٍ بمثل المطارق المحطمة، أو سراحٍ ورواحٍ كما يتيسر - فإنما تلده في مشيمةٍ ودماءٍ وقدرٍ من الأخلاط كأنما هو خارجٌ من جرح. ثم تتناوله الدنيا فتضعه من معانيها في أقبح وأقذر من ذلك كلّ. ثم يستوفي مدته فيأخذه القبر فيكون شراً عليه في تمزيقه وتعفيه وإحاليته.

قال: وحضرني مع كلمة الجاهلية قول ذلك الجاهل الزنديق الذي يُعرف (بالبَقْلِي) - إذ كان يزعم أنّ الإنسان كالبقلة، فإذا مات لم يرجع. وقلتُ لِنفسي: إنّما أنت بقلةٌ حمقاء ذاويةٌ في أرضٍ نشاسة^(٤)، فقتلها ملح أرضها أكثر ممّا أحيها.

(١) السُدفة: الظلمة والعمّة.

(٢) أوقعت بها: نزلت بها ضرباً.

(٣) تنصدع: تتكسر.

(٤) الأرض النشاسة: السبخة التي يوجد فيها الماء والملح.

قال: وُثِرْتُ إلى المِديَّة^(١) أريدُ أن أتوجأَ بها، فتبادرنِي المرأةُ وتحولُ بيني وبينها؛ وأكادُ أبطشُ بها مِنَ الغَيْظِ، وكانتُ رُوحُ الجَحِيمِ تَزْفِرُ من حولي لو سَمِعُوا سمعوا لها شهيقاً وهي تَفُورُ؛ فما أدري أَيُّ مَلَكٍ هَبَطَ بوخي الجَنَّةِ في لِسَانِ أَمْرَأَتِي.

قُلْتُ لها: إِنَّها عَزَمَةٌ مِنِّي أن أقتَلَ نفسي.

قَالَتْ: وما أريدُ أن أنقضَّها ولستُ أرُدُّكَ عنها وسَتَمُضيها.

قُلْتُ: فخلِّي بينَ نفسي وبينَ المِديَّةِ.

قَالَتْ: كلُّنا نفسٌ أنا وأنتِ والصبيُّ فلنَنقُضَ معاً؛ وما بنفسي عن نفسك رغبةٌ ولا ندعُ الصبيَّ يتيماً يصفَعُهُ مَنْ يُطْعِمُهُ، ويضربُهُ أبْنُ هذا وأبْنُ ذاكِ إذْ لا يستطيعُ أن يقولَ في أولادِ الناسِ أنا ابنُ ذلك ولا ابنُ هذا.

قُلْتُ: هذا هو الرأي.

قَالَتْ: فتعالِ أذبحِ الطُفْلَ....

قالَ المَسِيَّبُ بنُ رافعٍ: وما بلغَ الرجلُ في قصِّهِ إلى ذبحِ صغِيرِهِ حتى ضجَّ الناسُ ضجةً مُنكَرةً؛ وتوهَّم كلُّ أبٍ منهم أنَّ طِفْلَهُ الصَّغِيرَ مُمدَّدٌ لِلذَّبْحِ وهو يُنادي أباهُ ويشقُّ حَلَقَهُ بالصُّراخِ: يا أباي يا أباي؛ أدركني يا أباي.

أما الإمامُ فدَمَعَتْ عيناهُ وكُنْتُ بينَ يَدَيْهِ فسمَعْتُهُ يقولُ: إِنَّا لِلَّهِ، كيفَ تصنعُ جهنُّمُ حطبَها؟

وأنا فما قَطُ نَسِيتُ هذهَ الكلمةَ، وما قَطُ رأيتُ من بعديها كافراً ولا فاسقاً فأعْتَبَرْتُ أَعْمالَهُ إِلَّا كانَ كلُّ ذلكِ شيئاً واحداً هو طَريقَةُ صَنعَتِهِ حَطَباً... كأنَّ الشَّيْطَانَ لَعَنَهُ اللَّهُ يقولُ لِأَتْباعِهِ؛ جَفَّفُوهُ...

وكانتُ هُنَيْهَاتٍ، ثُمَّ فاءَ الناسُ ورجعوا إلى أنفُسِهِم وصاحوا بالمتكلم: ثم ماذا؟

قالَ الرجلُ: ففتَحْتُ عيني وقلبي معاً ورَمَقْتُ^(٢) الطُفْلَ المَسْكِينَ الذي لا يملكُ إِلَّا يَدَيْهِ الضَّعِيفَتَيْنِ؛ ونظَرْتُ إلى مَجْرَى السَّكِينِ من حَلَقِهِ وإلى مَحْزَها^(٣) في

(١) المِديَّة: السكين.

(٢) رمق: نظر بطرف نظره.

(٣) محزها: موضع الذبح.

رقيبته اللينة؛ ورأيتُهُ كأنما تفرَّق بصرُهُ مِنَ الفزعِ على كلِّ جهةٍ، ورأيتُهُ يتضرَّعُ لي بعينيه الباكيتينِ ألا أدبَحَه، ورأيتُهُ يتوسَّلُ بيديه الصغيرتينِ كأنَّهُ عرفَ أَنَّهُ مِنِّي أَمَامَ قاتله، ثُمَّ خِيلَ إِلَيَّ أَنَّهُ يتلوَّى ويتنفَّضُ ويصرُخُ من ألمِ الذبحِ تحتَ يدِ أبيه؛ تحتَ يدِ أبيه التَّعَسِ.

يا ويلتاه! لقد أخذني ما كَانَ يأخذني لو تَهَدَّمَتِ السَّماءُ على الأرضِ، وحسبْتُ الكونَ كُلَّهُ قد انفَجَرَ صُراخاً من أجلِ الطفلِ الضعيفِ الذي ليسَ لَهُ إِلَّا ربُّهُ أَمَامَ القاتلِ.

فَهَزَوْتُ^(١) مسرعاً وتركتُ الدارَ والمرأةَ والصبيَّ وأنا أقولُ يا أرحمَ الراحمين. يا مَنْ خلقَ الطفلَ عالمُهُ أمُّهُ وأبوه وحدهما وباقي العالمِ هباءً عنده. يا مَنْ دَبَّرَ الرضيعَ فوهبَهُ مُلكاً ومملكةً وغنىً وسروراً وفرحاً، كُلُّ ذَلِكَ في ثُديِ أمِّهِ وصدرِها لا غيرَ يا إلهي: أنسيني مثلَ هذا النسيانِ، وأرزقني مثلَ هذا الرزقِ، وأكفِّلني بمثلِ هذا التدبيرِ فأني منقطعٌ إِلَّا من رحمتِكَ أنقطعَ الرضيعُ إِلَّا من أمِّهِ.

* * *

قالَ الرجلُ: ولقد كنتُ مغروراً كالجيفةِ الراكدةِ تحسبُ أَنَّها هي تفورُ حينَ فارقتُ حشائرها. ولقد كنتُ أحقرُ مِنَ الذبابِ الذي لا يجدُ حقائقه، ولا يلمسُها إِلَّا في أقدرِ القدرِ.

وما كذتُ أمضي كما تسوقُني رجلاي حتى سمعتُ صوتاً ندياً مطلولاً يَرْجِعُ ترجيعَ الورداءِ^(٢) في تخانيتها وهو يُرْتَلِّ هذه الآية:

﴿وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾^(٣).

قال: فوقفتُ أسمعُ وماذا كنتُ أسمعُ؟ هذه شعلٌ لا كلمات، أحرقتُ كُلَّ ما كانَ حولي ولمستُ مصباحَ رُوحِي المنطفئِ فإذا هو يتوهجُ، وإذا الدنيا كُلُّها تتوهجُ في نوره، وأرتفعتُ نفسي عن الجذبِ^(٤) الذي كنتُ فيه وكأنا لفتني سحابةٌ مِنَ السُّحُبِ، ففي رُوحِي نسيمُ الماءِ الباردِ ورائحةُ الماءِ العذبِ.

لَعَنَ اللَّهُ هذا الاضطرابَ الذي يُبتلى الخائفُ به. إننا نحسبه اضطراباً وما هو

(١) هزلت: ركضت.

(٢) الورداء: البمامة.

(٣) فرطاً: تنقاسمه الأهواء.

(٤) الجذب: المحل.

إِلَّا اختلاط الحقائق على النفس وذهاب بعضها في بعض، وتَضَرُّبُ الشرِّ في الخير والخير في الشرِّ حتى لا يَبِينَ جنسٌ من جنس، ولا يُعرَفَ حَدٌّ من حَدٍّ، ولا تمتاز حقيقة من حقيقة. وبهذا يكونُ الزمنُ على المبتلى كالماء الذي جَمَدَ لا يتحرَّك ولا يَتَسَايَرُ. فيلوحُ الشرُّ وكأنَّه دائماً لا يزالُ في أولِهِ يُنذِرُ بالأهوال، وقد يكونُ هَوْلُهُ أنتهى أو يوشِكُ.

قالَ الرجلُ: وكنتُ أرى يَأْسِي قَدِ اغْتَرَى كُلُّ شَيْءٍ، فامتدَّ إلى آخرِ الكونِ وإلى آخرِ الزمنِ؛ فلمَّا سَكَنَ ما بي إذا هو قد كان يَأْسُ يوم أو أيام في مكانٍ مِنَ الأمكنة؛ أمَّا ما وراءَ هذه الأيامِ وما خلفَ هذا المكانِ، فذلك حُكْمُهُ حُكْمُ الشمسِ التي تطلُعُ وتغيبُ على الدنيا لإحيائها، وحكْمُ الماءِ الذي تهجمُ السماءُ بِهِ لِيَسْقِي الأرضَ وما عليها، وحكْمُ استمرارِ هذه الأجرامِ السماويَّةِ في مدَّارِها لا تُمسِكُها ولا تَرْثُها إِلَّا قُوَّةُ خالقِها.

أين أثرُ الإنسانِ الدنيءِ الحَقِيرِ في كُلِّ ذلك؟ وهل الحياةُ إِلَّا بكلِّ ذلك؟ وما الذي في يدِ الإنسانِ العاجِزِ من هذا النظامِ كُلِّهِ فَيَسُوغُ^(١) لَهُ أَنْ يَقُولَ في حادثةٍ من حوادثِهِ إِنَّ الخيرَ لا يَبْتَدِئُ وَإِنَّ الشرَّ لا يَنْتَهِي؟

تَعْتَرِي المصائبُ هذا الإنسانَ لِتَمَحَوَ من نَفْسِهِ الخِصَّةَ والدَّناءةَ، وتَكْسِرَ الشرَّ والكِبْرِيَاءَ، وتَفْشَأَ^(٢) الحِجْدَةُ والطَّيْشُ؛ فلا يكونُ من حُقمِهِ إِلَّا أَنْ يَزِيدَ بها طِيشاً وحِدَّةً، وكِبْرِيَاءً وشرًّا، ودناءةً وخِصَّةً، فهذه هي مصيبةُ الإنسانِ لا تلك. المصيبةُ هي ما يَنْشَأُ في الإنسانِ مِنَ المصيبةِ.

قالَ: وردَّدْتُ الآيةَ الكريمةَ في نفسي لا أشبَعُ منها، وجعلْتُ أرثُلُها أحسنَ ترتيلٍ وأطربَهُ وأشجاءً؛ فكانتُ نفسي تهتَزُّ وترتَجُّ كأنَّما هي تبدأُ تنظيمَ ما فيها لإقرارِ كُلِّ حقيقةٍ في موضعِها بعدَ ذلك الاختلاطِ والأضطرابِ.

صَبِرُ النفسِ معَ الذين يمثُلونَ روحانيَّتها تمثيلاً دائماً بالعَدَاةِ والعِشْيِ، وعلى نورِ الحياةِ وظلامِها، يُريدونَ وَجْهَ اللَّهِ الذي سبيلُهُ الحُبُّ لا غيرُهُ من مالٍ أو متاع. وتقيدُ العينينِ بهذا المثلِ الأعلى كما يكونُ الأمرُ في الجمالِ والحُبِّ؛ والربطُ على

(١) يسوغ: يسمح.

(٢) فشا الغضب: سكنه وكسره.

الإرادة كَيْلًا تَتَفَلَّتْ فَتُسِفٌ^(١) إلى حقائر الدنيا المسماة هُزْأً وتهكماً زينة الدنيا، تلك التي تُشبهُ حقائق الذبابِ العالية... فتكونُ قَذِرَةً نَجِسَةً، ولكنها مع ذلك زينة الحياة لهذا الخَلْقِ الذَّبَابِي.

تلك - واللّه - هي أسباب السعادة والقوة. أمّا المصائبُ كُلُّها، فهي في إغفال القلبِ الإنساني عن ذكرِ الله.

قال: ولَمَّا صَحَّحتُ توبتي، وقَوِي اليقينُ في نفسي، كَبُرَتْ رُوحِي واتَّسَعَتْ، وأنبعثتُ لها بواعثُ من غيرِ حقائقِ الذباب، وأشرقَ فيها الجمالُ الإلهي ساطعاً من كلِّ شيء، وكانَ الصُّبحُ يطلُّ عليَّ كأنَّهُ ولادةٌ جديدة، فأنا دائماً في عُمُرِ طفل، وجاءني الخيرُ من حيثُ أحتسِبُ^(٢) ولا أحتسِب، وكأَنَّمَا نِمْتُ فَأَتَبَهْتُ غنياً وَعَمِلَ القلبُ الحيُّ في الزمنِ الحيِّ.

ولقد أَفْذْتُ مِنَ الآيَةِ طَبِيعَةً لَمْ تَكُنْ فِيَّ، ولا يَثْبُتُ معها الشرُّ أبداً، فأصبحَ من خِصالي أن أرى الحاضرَ كُلَّهُ متحرِّكاً يمرُّ بما فيه من خيرِهِ وشرِّهِ جميعاً، وأُستشعرَ حركتهُ مثلما ترى عيناى من قِطارِ الإبلِ يهتزُّ تحتَ رِحالِهِ وهو يُغْذِي السَّيرَ^(٣).

لم أُنْبعِدُ قليلاً وأنا أمشي مطمئناً تائباً متوَكِّلاً حتى دعاني رجلٌ ذو نعمةٍ ومروءةٍ وجاهٍ، وكأَنَّمَا كَلَّمَهُ قَلْبُهُ أو كَلَّمَهُ وَجْهِي في قلبِهِ فَاسْتَنْبَأَنِي، وبَشَّتهُ^(٤) حالِي وأَقْتَصَصْتُ قِصَّتِي. فقال: سيُحييك اللهُ بالطفلِ الذي كَذَبْتَ تَقْلُلهُ فَارْجِعْ إلى دارِكَ. ثُمَّ وَجَّهَ إِلَيَّ دنائيرَ وقال: ائْجِزْ بهذه على أسمِ الله وبركتهِ فسينمو فيها طفلٌ مِنْ أَمالِ حتى يبلغَ أَشدَّهُ. وقد صدقَ إيمانهُ وإيماني، فباركْ لِي اللهُ ونما طفلُ المالِ وبلغَ وجاوزَ إلى شبابه.

قالَ الْمَسِيَّبُ: وجلسَ الرجلُ وكانَ كالخطيبِ على المنبرِ، فقالَ الإمام: ما أشْبهَ النكبةَ بالبيضةِ تُحْسَبُ سِجْناً لِمَا فيها وهي تحوطُ وتربُّيه وتُعينُهُ على تمامِهِ، وليسَ عليه إِلَّا الصبرُ إلى مدَّة، والرَّضى إلى غاية، ثم تَنْقُفُ أَلْبِيضُهُ فيخرجُ خَلْقاً آخرَ.

وما أَلْمُومُنُ في دنياهُ إِلَّا كالْفَرْخِ في بَيْضَتِهِ، عمله أن يَتَكَوَّنَ فيها، وتَمَامُهُ أن ينبثقَ شَخْصُهُ الكَامِلُ فيخرجَ إلى عَالَمِهِ الكَامِلِ.

(١) تسف: تنحط.

(٣) يغذ السير: يجذ في سيره.

(٢) احتسب: اعتقد وظن وأمل.

(٤) بشته: أعلمته وأطلعته على أمرى.

الانتحار

٤

قال المسيب بن رافع: ومد الإمام عينه وقد رُفِعَ له شخص من المجلس؛ ثم جلى بنظره كأنما يتطلع إلى عجيبة كالحق إذا بطل، والصدق إذا كذب؛ ثم ردَّ بصره عليَّ كأنه يُعجِبُنِي من عجيبة؛ ثم سَجَا^(١) طرفه كأنما أنكر رأي عينيه فهو يلتبس رأي قلبه. وتبينت في وجهه أنقباضاً خيلاً إليَّ أن الشيطان جاءه بهذا الرجل يُفجِّمُه^(٢) به يُريه كيف يجعل أحد المؤمنين الصالحين يتحمس في دينه ليرجع بعد ذلك أصلاً لا غنى عنه في إنشاء قصة كُفراً!

هذا هو ضيفنا (أبو محمد البصري) يتخوَّض^(٣) الناس ليجيء فيحدثنا حديثه في قتل نفسه والاثم بربه؛ فلو قيل لي: إن قوس السماء بأحمره وأصفره وأزرقه وأخضره، قد وقع إلى الأرض وأصطبغ من ألوانه أوحالاً وأقذاراً؛ لكان هذا كهذا في تعاطيه وإنكاره والعجب منه؛ فأبو محمد من الرجال الخمس^(٤) الذين لو كُفِّرَ أحدهم ثم قيل: «إنه كفر»، لقَصَرَ اللفظ أن يبلغ الحقيقة أو يصف شئعتها، كما يقصر لفظ الجنون عن وصف حكيم تألى أن يعمل عملاً يخرج به من الكون، فلا يبقى في أرض ولا سماء ولا تناله يد الله! إن في لفظ الكفر مع ذاك، وفي لفظ الجنون مع هذا - شيئاً من نفاق العقل وتأديبه في أداء المعنى الأخرق الذي لا يشبهه جنون ولا كفر.

ونعود بالله من خذلانه^(٥)؛ فلقد يكون الرجل المؤمن في تشدده وإيغاله في الدين - كالذي يصنع جبلاً يقتله فتلاً شديداً فيمِرُّه على طاقٍ بعد طاقٍ، ليكون أشدَّ

(١) سجا: سكن ودام.

(٢) يفجِّمُه: يقنعه ويتغلب عليه.

(٣) يتخوَّض: يتخطى.

(٤) الخمس: أي المتحمسين في دينهم.

(٥) خذلانه: تخليه.

لَهُ وَأَقْوَى، ثُمَّ يُجَاذِبُهُ الشَّيْطَانُ حَبْلَهُ، فَإِذَا هُوَ كَانَ فِي الْوَهْنِ مِثْلَ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتاً فِي سَقْفِ حَدَادٍ؛ فَرَأَتْهُ يَصُبُّ الْحَدِيدَ الْمَصْهُورَ يَجْعَلُهُ سِلْسِلَةً خَلْقَةً فِي حَلْقَةٍ، فَذَهَبَتْ تَحْكِيهِ وَتُرْسِلُ مِنْ لُعَابِهَا خَيْطاً فِي خَيْطِ تَزْعُمُهُ سِلْسِلَةً...!

إِنَّ مَعَ كُلِّ مُؤْمِنٍ شَيْطَانَهُ يَتَرَبَّصُ^(١) بِهِ، فَلِهَذَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ فِي كُلِّ سَاعَةٍ كَالَّذِي يَشْعُرُ أَنَّهُ لَمْ يُؤْمِنْ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ، فَهُوَ أَبَدًا مُحْتَرَسٌ مَتَهَيِّءٌ مُتَجَدِّدٌ الْحَوَاسِ مُزَهِّفُهَا يَسْتَقْبِلُ بِهَا الدُّنْيَا جَدِيدَةً عَلَى نَفْسِهِ بَيْنَ الْفَتْرَةِ وَالْفَتْرَةِ: وَمِنْ هَذَا حِكْمَتُهُ أَنْ يُؤَذِّنَ الْمُؤَذِّنُ، وَأَنْ تُقَامَ الصَّلَاةُ مِرَاراً فِي الْيَوْمِ، فَكَلَّمَا بَدَأَ وَقْتُ قَالَ الْمُؤْمِنُ: الْآنَ أَبَدًا إِيْمَانِي أَطْهَرَ مَا كَانَ وَأَقْوَى.

* * *

وَقَالَ الْإِمَامُ: هَيْهَ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ! فَقَالَ الْبَصْرِيُّ وَقَدْ رَأَى الْكَرَاهَةَ فِي وَجْهِ الْإِمَامِ: لَا يُفْزِعُكَ أَثَرُ الشَّيْخِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - قَدْ يَجْعَلُ مَا يُحِبُّهُ هُوَ فِيمَا نَكَرَهُ نَحْنُ؛ وَلَيْسَ لِلْأَقْدَارِ لُغَةٌ فَتَجَرِّي عَلَى الْفَاطِنَا؛ وَقَدْ تُسَمَّى النَّازِلَةُ^(٢) تَنْزُلُ بِنَا خُسَاراً وَهِيَ رِيحٌ، أَوْ نَقُولُ مُصِيبَةٌ جَاءَتْ لِتَبْدِيلِ الْحَيَاةِ، وَلَا تَكُونُ إِلَّا طَرِيقَةً تَسِيرُ لِتَبْدِيلِ الْفِكْرِ. إِنَّمَا لُغَةُ الْقَدَرِ فِي شَيْءٍ هِيَ حَقِيقَةُ هَذَا الشَّيْءِ حِينَ تَظْهَرُ الْحَقِيقَةُ؛ وَكَأَيُّنَ مِنْ حَادِثَةٍ لَا تُصِيبُ أَمْرًا فِي نَفْسِهِ إِلَّا لِتَقَعَ بِهَا الْحَرْبُ بَيْنَ هَذِهِ النَّفْسِ وَبَيْنَ غَرَائِزِهَا. فَتَكُونُ أَعْمَالُ الطَّبِيعَةِ الْمَعَادِيَةِ أَسْبَاباً فِي أَعْمَالِ الْعَقْلِ الْمُنْتَصِرِ.

وَكَثِيرٌ مِنْ هَذَا الْبَلَاءِ الَّذِي يُقْضَى عَلَى الْإِنْسَانِ، لَا يَكُونُ إِلَّا وَسَائِلَ مِنَ الْقَدَرِ يُرَدُّ بِهَا الْإِنْسَانُ إِلَى عَالَمِ فِكْرِهِ الْخَاصِّ بِهِ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الدُّنْيَا عَالَمٌ وَاحِدٌ لِكُلِّ مَنْ فِيهَا، وَلَكِنْ دَائِرَةُ الْفِكْرِ وَالنَّفْسِ هِيَ لِصَاحِبِهَا عَالَمُهُ وَحْدَهُ. وَالسَّعِيدُ مَنْ قَرَّ فِي عَالَمِهِ هَذَا وَأَسْتَطَاعَ أَنْ يَحْكَمَ فِيهِ كَالْمَلِكِ فِي مَمْلَكَتِهِ، نَافِذَ الْأَمْرِ فِي صَغِيرَتِهَا وَكَبِيرَتِهَا؛ وَالشَّقِيُّ مَنْ لَا يَزَالُ ضَائِعاً فِي كُلِّ هَذَا كَالْأَجْنَبِيِّ فِي غَيْرِ بَلَدِهِ وَغَيْرِ قَوْمِهِ وَغَيْرِ أَهْلِهِ، إِذْ كُلُّ شَيْءٍ يُصْبِحُ أَجْنَبِيًّا عَنِ الْإِنْسَانِ مَا دَامَ هُوَ أَجْنَبِيًّا عَنْ نَفْسِهِ.

لَقَدْ كُنْتُ ضَالًّا عَنْ نَفْسِي وَعَالَمِهَا، فَكُنْتُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَسْتَشْعِرُ شُعُورَ اللَّصِّ، أَشْيَاؤُهُ هِيَ أَشْيَاءُ النَّاسِ جَمِيعاً؛ وَاللَّصُّ يَنْظُرُ إِلَى أَمْوَالِ النَّاسِ بَعَيْنِي شَاعِرٍ مُتَحَبِّبٍ كَلِفٍ^(٣)، وَهِيَ تَنْظُرُ إِلَيْهِ بَعَيْنِي مُقَاتِلٍ مَتَرَبِّصٍ حَذِرٍ.

(١) يَتَرَبَّصُ بِهِ: يَنْتَحِنُ الْفُرْصَ.

(٢) النَّازِلَةُ: الْمُصِيبَةُ الطَّارِئَةُ.

(٣) كَلِفٌ: عَاشِقٌ.

وَكُنْتُ نَزَقًا^(١) حديدَ الطَّبعِ سريعَ البادرة^(٢)؛ وَمَنْ فَقَدَ عَالَمَ نَفْسِهِ وَكَانَ فِي مَثَلِ اللَّصِّ الَّذِي ذَكَرْتُ؛ فَإِنَّ هَذِهِ الطَّبَاعَ تَكُونُ هِيَ أَسْلِحَتُهُ يَدْفَعُ بِهَا أَوْ يَعْتَدِي. وما قَطُّ تَمَكَّنَ إِنْسَانٌ مِنْ نَفْسِهِ وَأَحَاطَ بِهَا وَنَفَذَ فِيهَا تَصَرُّفَهُ؛ إِلَّا كَانَ رَاضِيًا عَنْ كُلِّ شَيْءٍ إِذْ يَتَّصِلُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِجَهْتِهِ أَلْسَامِيَّةٍ لَا غَيْرَهَا، حَتَّى فِي اتِّصَالِهِ بِأَعْدَائِهِ مِنَ النَّاسِ وَأَعْدَائِهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ؛ فَمَا يَرَى هَوْلًا وَلَا هَوْلًا إِلَّا أَمْتَحَانًا لِفَضَائِلِهِ وَإِثْبَاتًا لَهَا. وَقَدْ يَكُونُ عَدُوُّكَ فِي بَعْضِ الْأُمُورِ عَيْنًا لَكَ فِي رُؤْيَا نَفْسِكَ؛ فَفِيهِ بَرَكَةٌ هَذِهِ الْحَاسَّةُ وَنِعْمَتُهَا.

ولو نحن كُنَّا مُسْلِمِينَ إِسْلَامَ نَبِيِّنَا ﷺ، وَإِسْلَامَ الْمُقْتَدِينَ بِهِ مِنْ أَصْحَابِهِ - لَأَدْرِكُنَا سِرُّ الْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ؛ وَهُوَ أَنْ يَقَرَّ الْإِنْسَانُ فِي عَالَمِ نَفْسِهِ وَيَجْعَلَ بَاطِنَهُ كِبَاطِنِ كُلِّ شَيْءٍ إِلَهِيٍّ، لَيْسَ فِيهِ إِلَّا قَانُونُهُ الْوَاحِدُ الْمُسْتَمَرُّ بِهِ إِلَى جِهَةِ الْكَمَالِ، الْمُرْتَفِعُ بِهِ مِنْ أَجْلِ كَمَالِهِ عَنْ دَوَافِعِ غَيْرِهِ؛ فَتَنْظَرُ الْإِنْسَانُ إِلَى نَقْصِ غَيْرِهِ هُوَ أَوَّلُ نَقْصِهِ. وَالْمُؤْمِنُ كَالْغَصْنِ؛ إِنْ أُمِرَ فَتَلَكَ ثَمَارَ نَفْسِهِ، وَإِنْ عَطَّلَ لَمْ يَشْحَذْ وَلَمْ يَحْسُدْ وَأَسْتَمَرَّ يَعْمَلُ بِقَانُونِهِ.

ولقد نشأتُ فِي مَغْرَسٍ^(٣) كَرِيمٍ، عَلَى صُورَةٍ مِنَ الْحَيَاةِ تُشَبِّهُ صُورَةَ الثَّمَرَةِ الْخُلُوةِ، اجْتَمَعَ لَهَا مِنْ طَبِيعَةِ مَغْرَسِهَا وَمَرْتَبَتِهَا مَا تَتَّعَيْنُ بِهِ مِنْ حِلَاوَةٍ وَنَكْهَةٍ وَمَذَاقٍ؛ فَلَمَّا عَقَلْتُ^(٤) وَعَرَفْتُ النَّاسَ بَعْدَ فَجَارِيَّتِهِمْ^(٥) وَخَالَطْتُهُمْ، رَأَيْتُنِي مِنْهُمْ كَالْتَفَاحَةِ مُلْقَاةً فِي الْبَصْلِ. وَكَانَتْ أَلْتَفَاحَةُ حَمَقَاءَ فَرَادَتْ حُمَقًا، وَكَانَتْ جَدِيدَةً فَرَادَتْ جِدَةً، وَظَنَنْتُ أَنَّ الْحِكْمَةَ قَدْ مَسَخَتْ فِي الدُّنْيَا وَبَدَلَتْ إِذْ خَلَقَتِ الْبَصْلَةَ بَعْدَ أَنْ خَلَقَتِ أَلْتَفَاحَةَ؛ وَمَا عَلِمَتِ الْخُرْقَاءُ أَنَّ الْكَمَالَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مَجْمُوعُ نَقَائِصٍ، وَأَنَّ لِلْجَمَالِ وَجْهَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي أَسْمُهُ الْقُبْحُ؛ لَا يُعْرَفُ هَذَا إِلَّا مِنْ هَذَا؛ وَأَنَّ الْبَصْلَةَ لَوْ أَدْرَكْتُ مَا يُرِيدُ النَّاسُ مِنْ مَعْنَاهَا وَمَعْنَى التَّفَاحَةِ لَسَمَّيْتُ نَفْسَهَا هِيَ التَّفَاحَةَ، وَقَالَتْ عَنْ هَذِهِ إِنَّهَا هِيَ الْبَصْلَةُ!

ولمَّا رَأَيْتُ تَفَاحَتِي أَنَّهَا عَاجِزَةٌ أَنْ تَجْعَلَ الشَّجَرَ كُلَّهُ فِي مِثْلِ مَرْتَبَتِهَا وَمَغْرَسِهَا - قَالَتْ: إِنَّ الْأَمْرَ أَكْبَرُ مِنْ طَبِيعَتِي، وَمَا دَامَ سِرُّ الْكُونِ مُغْلَقًا فَلَا تَعْرِيفَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ

(١) نزقًا: سريع الغضب، طائشًا.

(٢) البادرة: الغضب.

(٣) مغرس: منبت في بيت وعائلة.

(٤) عقلت: أدركت.

(٥) جاريتهن: ماشيتهن ووافقتهن.

سِرٌّ مغلَق، ولْيَبْقَ كُلُّ شَيْءٍ فِي طَبِيعَةِ نَفْسِهِ، فَعَلَى هَذَا يَصْلُحُ كُلُّ شَيْءٍ وَلَوْ فِي نَفْسِهِ وَحْدَهَا.

قال أبو محمد: ولكن بقيت وخشة الدنيا وجفوتها، إذ لم أكن أهتديت إلى عالمي، ولا تأكدت عقيدتي بنفسي؛ فكان كل ما حولي مُنْبِجساً^(١) في رُوحِي بِشْرِهِ، وكانت الدنيا بهذا كالمطابقة في رأيي على معنى واحد، وزادني أنني كنت رجلاً عَزَباً متعَفِّفاً؛ وما أشبه فراغ الرجولة من المرأة بفراغ العقل من الذكاء؛ هذا هو العقل البليد، وتلك هي الرجولة أبليدة!

والمرأة تُضَاعِفُ معنى الحياة في النفس، فلا جرم كان الخلاء منها مضاعفةً لمعنى الموت؛ عِلِمَ هذا مَنْ عِلِمَ وَجْهَهُ مِنْ جَهْلٍ، فكنت أعيش من الكون في فراغ ميت، وكنت أحس في كل ما حولي وحشة عقلية تُشْعِرُنِي أَنَّ الدُّنْيَا غَيْرُ تَامَةٍ؛ وكيف تتيم في عيني دنيا أراها غير الدنيا التي في قلبي؟

وعرفت أن كل يوم يمضي على الرجل العزب المتعفف لا يمضي حتى يهيب في مرض يوم آخر. ومن هذه الأيام المريضة المتهاكة، تُعَدُّ الْحَيَاةُ أَنْتِقَامَهَا مِنْ هَذَا الْحَيِّ الَّذِي نَقَضَ آيَتَهَا وَافْتَاتَ عَلَيْهَا^(٢)، وجعل نفسه كالإله لا زوجة له ولا صاحبة!

وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الزَّانِي وَبِالْمَرْأَةِ الزَّانِيَةِ مَا يَفْرَحُ بِالرَّجُلِ الْعَزَبِ وَبِالْمَرْأَةِ الْعَزْبَاءِ؛ لِأَنَّهُ فِي ذِيكَ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِهَا، أَمَّا فِي هَذَيْنِ فَالشَّيْطَانُ رَذِيلَةٌ فِي أَسْلُوبِ فَضِيلَةٍ...! هُنَاكَ يَلْمُ الشَّيْطَانُ وَيَمْضِي، وَهُنَا يَأْتِي الشَّيْطَانُ وَيُقِيمُ!

وقد عشت ما عشت بقلب مغلق وعقل مفتوح؛ وليتني كنت جاهلاً مغلقاً عقله، وكان قلبي مفتوحاً لأفراح هذا الكون العظيم!

ومضت أيامي يضرب بعضها في بعض، ويمرض بعضها بعضاً حتى انتهت مُتَهَاها، وجاء اليوم المُدْنَفُ^(٣) الهالك الذي سيموت.

أصبحت فقلت لنفسي: كم تعيشين ويحك في أحكام جسدٍ مختلٍ لا تصدق أحكامه، وما أنت معه في طبيعتك ولا هو معك في طبيعته؛ ففيم اجتماعكما إلا على بلائي ونكدي^(٤)؟

(٣) المدنف: المريض مرضاً ثقیلاً.

(٤) نكدي: سوء حظي.

(١) منبجساً: نابتاً.
(٢) افتات عليها: جار عليها في الحكم.

لم تصطلحاً قطّ على واجب ولا لذة، ولا حلالٍ ولا حرام؛ فأنتما عدوّانٍ لا همّ لِكليهما إلّا إفسادُ المَسْرَةِ الّتي تَغْرِضُ لِلآخر. وما أدري بِمَنْ يَسْخَرُ الشَّيْطَانُ منكما؟ فالعابدُ الذي يُوسّوسُ باللذاتِ يتمنّى أقترافها، كالفاجرِ الذي يُواقِعُها ويقتحمُها!

ويحك يا نفس! إنّي رأيتُ هذه الدنيا الخرقاء لم تُقدِّم لي إلّا رغيفاً وقالت: إملاً بهذا بطنك وعقلك وعينيك وأذنيك ومشاعرك. آه، آه! مُمكنٌ واحدٌ معه أربعُ مستحيلات؛ إنّ هذا لا يُلَبِّسُنِي^(١) أن يذهبَ مني بالأربعة التي تُمسِكُنِي على الحياة: الأملِ والعقلِ والإيمانِ والصبرِ.

لقد أَسْتَوَى في هذه الكآبةِ صغيرُ همّي وكبيره، وما أراني إلّا قد أشرفتُ على الهَلَكَةِ الّتي لا باقيةَ لها، فإنّ وجهي المتكلِّحُ^(٢) المتقبّضُ يدُلُّ منّي على أعصابٍ مُحْتَضِرَةٍ نَهَكَتْهَا^(٣) أمراضُها ووساوسُها، وإنّما وجهُ الإنسانِ في قُطُوبِهِ^(٤) أو تَهْلِيلِهِ هو وجهُهُ ووجهُ دُنْيَاهُ تَعَبَسُ أو تَبَسَمَ.

وتألَّلِه لَقد عجزتُ عن كِفاحِ الدنيا بهذه الأعصابِ المريضةِ الواهنة؛ فإنّ جِبَالَةَ الصَّيْدِ - صَيْدِ الوحشِ - لا تكونُ من خِيطِ الإبرة...! وأراني أصبحتُ كإنسانٍ حَجَرِيّ ليسَ في طبيعَتِهِ أَلْتِواءٌ إلى يمينِ الحياةِ ويسارِها؛ ويُخَيَّلُ إليّ من صلابتي أنّي الأسدُ، ولكِنّي أسدٌ من حَجَرٍ، لا تَفْرِضُ قُوَّتُهُ الْفَرَارَ منه على أحد!

قال أبو محمد: ورأيتُ نفسي في هذا الحوارِ كَالْمَيِّتَةِ، لا تُجِيبُ ولا تَعْتَرِضُ ولا تُنْكِرُ، وكنتُ أَظُنُّهَا تُراوِدُنِي على الحياةِ أو ترُدُّني عن غَوَايَتِي^(٥)؛ فَمَلَأَنِي سكونُها جَزَعاً، وأيقنتُ أنّ الشَّيْطَانَ بيني وبينها، وأنّه أخذَ بِمَنَافِذِها، فأردتُ الصلاةَ فَثَقُلْتُ عنها ورأيتُني لا أصلحَ لها، بل خَيَّلَ إليّ أنّي إذا قُمْتُ إلى الصلاةِ فإنّما قُمْتُ لِأَتَهَرَّأَ بالصلاة!

وجعلَ الشَّيْطَانُ يأخذُنِي عن عقلي ويردُّني إليه، ثُمَّ يأخذُنِي ويردُّني، حتى توهَّمتُ أنّي جُنِنْتُ، وكأنّما كانَ يُريدُ اللعينُ بَقِيَّةَ إيماني يُجاذِبُنِي فيها وأُجاذِبُهُ، فلم أَلْبَثُ أنْ مَسَّتْنِي خبالٌ وأَلْقَيْتُ هذه البَقِيَّةَ في يديه!

(١) لا يلبسني: لا يقيني.

(٢) المتكلِّح: المتغير، المصفر.

(٣) نهكتها: أتعبتها.

(٤) قُطُوبُهُ: عبوسه.

(٥) غوايتي: ضلّالتي.

ثُمَّ أَفْقَتْ إِفَاقَةً سَرِيعَةً، فَرَأَيْتُ (المصحفَ) يَرْقُبُنِي قَرِيبًا، فَعُذْتُ بِهِ^(١) وَعَظَفْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: إِمْنَعِ الضَّرْبَةَ عَنْ قَلْبِي. بَيَّنَّدَ أَنِّي أَحْسَسْتُ أَنَّهُ خَصَمِي فِي مَوْقِفِي لَا ظَهِيرِي؛ كَأَنِّي جَعَلْتُهُ مَصْحَفًا عِنْدَ زَنْدِيقٍ، فَكَانَ كُلُّ إِيْمَانِي الَّذِي بَقِيَ لِي فِي تِلْكَ اللَّحْظَةِ أَنِّي ضَعَفْتُ عَنْ حَمْلِ الْمَصْحَفِ كَمَا ثَقُلْتُ عَنِ الصَّلَاةِ، فَبَقِيَ الظَّاهِرُ طَاهِرًا وَالنَّجْسُ نَجَسًا.

وَلَمْ تَكُنْ نَفْسِي فِيَّ وَلَا كُنْتُ فِيهَا؛ فَرَأَيْتُ الدُّنْيَا عَلَى وَجْهِ لَا أَدْرِي مَا هُوَ، غَيْرَ أَنَّهُ هُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ مَعْقُولًا مِنْ تَخَالِيطِ مَجْنُونٍ تَرَكَهُ عَقْلُهُ مِنْ سَاعَةٍ: بَقَايَا شُعُورٍ ضَعِيفٍ، وَبَقَايَا فَهْمٍ مَرِيضٍ، تَتَصَاغَرُ فِيهِمَا الدُّنْيَا، وَيتَحَاقَرُ بِهِمَا الْعَقْلُ.

فَلَمَّا أَنْتَهَيْتُ إِلَى هَذَا لَمْ أَعْقِلْ مَا عَمَلْتُ، وَكَانَتْ أَلْمُوسَى قَدْ أَصَابَتْ مِنْ يَدِي عِزْقًا نَاشِرًا^(٢) مُنْتَبِرًا، فَفَارَ الدَّمُ وَأَنْفَجَرَ مِنْهُ مِثْلُ الْيَنْبُوعِ ضَرِبَ عَنْهُ الصَّخْرُ فَانْشَقَّ فَانْبَثَقَ.

وَتَحَقَّقْتُ حِينَئِذٍ أَنَّهُ الْمَوْتُ فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ

قَالَ الْمَسِيَّبُ رَاوِي الْقِصَّةِ: وَتَجَهَّمُ وَجْهَ الرَّجُلِ فَأَطْرَقَ وَسَكَتَ، وَكَانَ عَلَى وَجْهِهِ شَفَقٌ مُخَمَّرٌ فَأَظْلَمَ بَغْتَةً عِنْدَ مَا قَالَ: «فَنَظَرْتُ فَرَأَيْتُ».

وَأَرْتَجَّ الْمَسْجِدَ بِصِيْحَةٍ وَاحِدَةٍ: فَرَأَيْتُ مَاذَا؟ رَأَيْتُ مَاذَا؟

وَبَعَثَتِ الصَّيْحَةُ أَبَا مُحَمَّدٍ فَقَالَ: رَأَيْتُ ثَلَاثَةً وَجْوهُ أَشْرَفَتْ مِنَ الْمَصْحَفِ تَنْظُرُ إِلَيَّ كَالْعَاتِبَةِ، وَكَانَ أَوْسَطُهَا كَالْقَمَرِ الطَّالِعِ، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَنَّةِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نَضْرَتِهِ وَبِشَاشَتِهِ. وَغَمَغَمَتِ^(٣) أَلْوَجُوهُ الثَّلَاثَةُ بِكَلِمَاتٍ لَمْ أَسْمَعْ مِنْهَا شَيْئًا، وَلَكِنْ نَظَرَهَا إِلَيَّ كَأَن يُوْذِي لِي مَعَانِيَهَا، وَكَأَنَّهَا تَقُولُ: «أَكْذَلِكِ الْمُؤْمِنُ . . . ؟».

ثُمَّ غَابَتْ وَتَخَلَّتْ عَنِّي وَبَرَزَتْ ثَلَاثَةُ وَجْوهٍ أُخْرَى، كَأَنَّهَا نَقَاضُ تِلْكَ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ أَوْسَطُهَا، لَوْ تَمَثَّلَتْ آيَاتُ الْجَحِيمِ كُلُّهَا وَجْهًا لَكَانَتْهُ فِي نُكْرِهِ وَهَوْلِهِ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ الْوَجْهَ الْأَصْغَرَ مِنْهَا وَجْهَ سُورَةِ مِنْ سُورِ الْمَصْحَفِ، فَفَكَّرْتُ، فَوَقَعَ لِي مِمَّا قَامَ فِي نَفْسِي مِنَ اللَّعْنَةِ أَنَّهَا: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ . . .

(١) عذت به: لجأت إليه.

(٢) ناشراً: نافراً.

(٣) غمغمت الوجوه بانث عن ذعر وخوف.

وَطَمَسَ^(١) الظلام هذه الرؤيا وتَغَيَّمَتِ الدنيا، فأيقنْتُ أَنَّ آثامي قد أَقْبَلْتُ علي ظلمة بعد ظلمة، وألتمعتُ شيءَ أحمر، فنظرتُ فإذا الدَّمُ يتخايلُ في عيني كأنَّه شُعْلُ تَلَوَى، فجزعتُ أَشدَّ الجزع، وحسبْتُها طرائقَ ممتدَّة لِرُوحِي تذهبُ بها إلى الجحيم . وماتتُ كُلَّ خواطري بعد ذلك إلا فكرةً واحدةً بقيتَ حيَّةً تأكلُ في قلبي أَكْلَ النار، وهي: «كيفَ تجرأتُ فوضعتُ بيني وبينَ اللَّهِ حُمَقي؟» .

ويقولون: إِنَّ أختي قد رأتني أَتَشَحَّطُ^(٢) في دمي فصاحت، وجاءَ الناسُ على صوتِها، وكانَ فيهم طبيب، فبعدَ لأيٍ ما، أَستطاعَ حَبَسَ الدم، وأحتالَ حيلَتُهُ حتى أَسَفَّ^(٣) الجُرحَ دواءً وَضَمَدَهُ؛ فجعلتُ أَثُوبُ نَفْساً بعدَ نَفْسٍ، وراجعتُ قليلاً قليلاً... ثم طافَتِ الحَياءُ على عيني ففتحتُها، فإذا الأشياءُ تبدو لي وليسَ فيها حقائق ولا معانٍ، كأنَّها تَتَخَلَّقُ^(٤) جديدةً تحتَ بصري، وكأنَّها خارجةٌ لِساعاتِها من يدِ اللَّهِ! وتماثلتُ شيئاً بعدَ ساعات، فأحسنتُ أَنَّ نفسي قد رجعتُ إِلَيَّ ساخرةً مِنِّي تقولُ: كيفَ رأيتَ العَقلَ أيَّها العاقلُ؟

وبدأتَ الحَياءُ تتجددُ، فأقسمتُ بيني وبينَ نفسي أَنَّ أَجددَ إيماني بِاللَّهِ . ولم أَكذُ أَفعلُ حتى أحسنتُ أَنَّ قوَّةَ الوجودِ كُلِّها مستقرَّةٌ في روحي، وَخَيْلٌ إِلَيَّ أَنِّي أَنَا وحدي أَلْقَوِي على هذه الأرضِ قُوَّةَ جبالِها وصخورِها، على حينَ كانَ جسمي ممدداً كالْمِيتِ لا يَتِمَّاسُكَ مِنَ الضَّعْفِ!

فأيقنْتُ حينئذٍ ما أَعْرِفُهُ قَطُّ مِنَ الدنيا ولم أشعرُ به قَطُّ في الحَياءِ ولم يأتيني بِهِ عِلْمٌ ولا فكر: أيقنْتُ أَنَّها مُعْجَزَةُ الإِيمانِ الجَدِيدِ الغَضِّ^(٥)، المَتَّصِلِ بِاللَّهِ لِتَوَهُ كإِيمانِ الأنبياءِ دونَ أَنَّ تَلَمَّسَهُ شَهْوَةً، أو تَعَرَّضَهُ خَاطَرَةً، أو تُكَذِّرُهُ ذَرَّةً واحدةً من فكرٍ أَرْضِي دَنَسَ .

قال المَسِيَّبُ: ثُمَّ جَلَسَ المَتَحَدِّثُ، وكانَ الناسُ في آخِرِ كَلَامِهِ كأنَّما غادروا الدنيا ساعةً، ورجعوا إِلَيْها على مِثْلِ حالَتِهِ ومِثْلِ إيمانِهِ؛ فَسَكَتَ الإِمامُ ولم يتكلم، ليدعَ كُلَّ نفسٍ تُكَلِّمُ صاحبَها.

(١) طمس: غطي.

(٢) أتشخط: أتخط.

(٣) أسف: أسعف الجرح بوضع الدواء فيه لينقطع.

(٤) تتخلق: تبدو على هيئة جديدة.

(٥) الغض: الطريء.

الانتحار

٥

قال المسيَّب بن رافع: وأطرق الناس قليلاً بعدَ خَبَرِ (أبي محمدِ البَصْرِيِّ)؛ إذ كانَ كلُّ منهم قد جَمَعَ باله لِمَا سَمِعَ، وأخذَ يَحْدِسُ^(١)، في نَفْسِهِ وَيُراجِعُها أَلرأيَ، وكانَ المَجْلِسُ قد أَمْتَدَّ بنا منذُ الْعَصْرِ وما يَكادُ النَهارُ يُشْعِرُنَا بِإِدبارِهِ، حتَّى أَعْتَرَضَتْ في شَمْسِهِ الْعُبرَةُ التي تَعْتَرِيها إذا دَنَتْ أَنْ تَغْرُبَ. وكانَ إلى يساري فَتًى رَيَّانُ الشَّبابِ، حَسَنُ الصُّورَةِ، وَضِيءُ مُشْرِقٍ، لَهُ هَيْئَةٌ وَسَمَتٌ، أَقْبَلَ عَلَيَّ الْأَيَّامَ، وَأَقْبَلَتِ الْأَيَّامُ عَلَيهِ.

فسمعتُني أَطِنُ على أُذُنِ (مجاهدِ الأَزْدِيِّ)؛ وكُنْتُ أَعْرِفُهُ شاعِراً في كَلامِهِ وشاعِراً في قَلْبِهِ؛ فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّهُ لَمْ يَبْقَ مِنَ النَهارِ يا مُجاهدُ إِلَّا مِثْلُ صَبْرِ الْمُحِبِّ دِنا لَهُ الْمَوْعِدُ؛ وَلَمْ يَبْقَ مِنَ الشَّمْسِ إِلَّا مِثْلُ ما تَتَلَفَّفُ صاحِبَتُهُ، تَأْخُذُ عَلَيها ثوبَها وَغَلائِلَها، وَلَكِنْ بَعْدَ أَنْ تُسْقِطَها مِنْ هَنا وَمِنْ هَنا، لَتَرى جَمالَ جَسَمِها هَنا وَهَنا!

فأَهْتَرَّ أَلْفَتِي لِهُذِهِ الكَلِماتِ، وَسالَتِ الرِّقَّةُ في أَعْطافِهِ، وَقَالَ: يا عَمِّ، أَمَّا تَرى ما بَقِيَ مِنَ النَهارِ كَأَنَّهُ وَجْهُ بَالِكٍ مَسَحَ دَموعَهُ وَليسَ حَولَهُ إِلَّا كَأَبَةُ الزَمَنِ...؟

قُلْتُ: كَأَنَّ لَكَ خَبِراً يا فَتَى، فَإِنْ كانَ شَأْنُكَ مِمَّا نَحْنُ فِيهِ فَقُصِّهِ عَلَيْنَا وَعَلَّلْنَا بِهِ سائِرَ الوَقْتِ إلى أَنْ تَجِبَ الشَّمْسُ، وَلَعَلَّكَ طائِرٌ بنا طَيرةٌ فَوْقَ الدُنيا.

قال: فَمَهْ^(٢)؟

قلت: تَقومُ فَتَتَكَلَّمُ، فَإِنِّي أَرى لَكَ لِساناً وَبياناً.

قال: أَوْ يَحْسُنُ أَنْ أَتَكَلَّمَ في الْمَسجِدِ عَنِ صَرَعَةِ الْحُبِّ وَصَرِيحِهِ، وَعاشِقَةٍ وَعاشِق؟

(١) يحدس: يفكر ويغلب فكرة على فكرة.

(٢) مه: اسم فعل أمر بمعنى أسكت.

فبادر مجاهد فقال: ويحك يا فتى! لقد تحجرت واسعاً؛ إنَّ المؤمن ليصلي بين يدي الله وكتاب سيئاته في عنقه منشور مقروء. وهل أوقات الصلاة إلا ساعات قلبية لكل يوم من الزمن، تأتي الساعة ممّا قبلها كما تأتي توبة القلب ممّا عمل الجسم؟ إنّما يتلقّى المسجد مَنْ يدخله لساعته التي يدخله فيها، ولو أنّه حاسبه عن أمس وأوّل منه وما خلا من قبل، لطرده من العتبة! إنّ المسجد يا بُنيّ إنّما يقول لداخله: أدخل في زمني ودع زمّنك، وتعال إليّ أيّها الإنسان الأرضي، ليتحقّق أنّ فيك حاسة من السماء، وجثني بقلبك وفكرك، ليَشعرا ساعة أنّهما فيّ لا فيك. ولسنا الآن يا بُنيّ في مُتحدّث كندتي القوم يتطارحون فيه أخبارهم، بل نحن في مجلس عالم تكلمت فيه رقة هذا ورقبة هذا بما سمعت؛ فقم أنت فأذكر علّم قلبك وقصّ علينا خبر طيش الحبّ والشباب الذي يشبه الكلام فيه أن يكون كلاماً عن الصعود إلى القمر والقبض من هناك على البرق!

قال المسيّب: فانتفض الفتى، ورأيت مجاهداً ينتهد كأنما أنصدعت^(١) كبذه: فقلت: ما بالك؟ قال: إنّ شبابي قد مرّ عليّ الساعة فنسّمت منه في برّدة^(٢) هذا الفتى، ثمّ فقدته فقدأ ثانياً فهرمتُ هَرماً ثانياً، وجاءني الحزن من إحساسي بأنّي شيخ، حزن من همّ أن يدخل باب حبيب ثم رُدّ....!

وتحدّث الفتى، فإذا هو يدير بين فكّيه لسان شاعر عظيم، يتكلّم كلامه بنفسين: إحداهما بشريّة تصنع المعنى واللفظ، والأخرى غلوية تُلقِي فيها النّار والنور.

قال: إنّ لي قصة أيّها الشيخ، لم يبقَ منها إلاّ الكلام الذي دُفنت فيه معانيها؛ وقد تأتي القصة من أخبار القلب مُفعمّة بالآلام والأحزان، لا يُراد بالآلام وأحزانها إلاّ إيجاد أخلاقٍ للقلب يعيش بها ويتبدّل. والذي قدّر عليه الحبّ لا يكون قد أحبّ غيره أكثر ممّا يكون قد تعلّم كيف ينسى نفسه في غيره، وهذه كما هي أعلى درجات الحبّ؛ فهي أعلى مراتب الإحسان.

ومنى صدق المرء في حبه كأنّ فكرته فكرتين: إحداهما فكرة، والأخرى عقيدة تجعل هذه الفكرة ثابتة لا تتغيّر؛ وهذه كما هي طبيعة الحبّ فهي طبيعة الدّين.

(٢) برّدة: ثوب.

(١) انصدعت: تحطمت، تكسرت.

ولا شيء في الدنيا غير الحب يستطيع أن ينقل إلى الدنيا ناراً صغيرة وجنة صغيرة، بقدر ما يكفي عذاب نفس واحدة أو نعيمها! وهذه حالة فوق البشرية.

والفضائل عائماتها تعمل في نقل الإنسان من حيوانيته، وقد لا تنقل إلا أقله ويبقى في الحيوانية أكثره: ولكن الحب الصادق يقتلع الإنسان من حيوانيته بمرّة واحدة، بيد أنه لا يكون كذلك إلا إذا قتلته بالأمه؛ فهو كأعلى النسك والعبادة.

كَانَ حَبْرِي أَنِّي دُعِيتُ يَوْمًا إِلَى مَا يُدْعَى لِمِثْلِهِ الشَّبَابُ فِي مَجْلِسٍ غِنَاءٍ وَشَرَابٍ. يَا لَهُ مِنْ مَجْلِسٍ! وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾، والبعوضة في قصتي أَنَا كَانَتْ أَمْرَأَةً نَصْرَانِيَّةً. قَيْنَةُ^(١) فَلَانِ الْمَغْنِيَّةِ الْحَاذِقَةُ الْمُحْسِنَةُ الْمَتَادِبَةِ، تَحْفَظُ الْخَبَرَ وَتُرْوِي الشَّعْرَ، وَتَتَكَلَّمُ بِالْفَاطِ فِيهَا خَلَاوَةً وَجْهِهَا، وَتَخْلُقُ الثَّكَّةَ إِذَا شَاءَتْ خَلَقَ الزَّهْرَةَ الْمَتَفَتِّحَةَ عَلَيْهَا، سَقِيطُ النَّدَى؛ وَتَجِدُ بِالْحَدِيثِ مَا شَاءَتْ وَتَهْزُلُ، فَتَجْعَلُ لِلْكَلامِ عَقْلًا وَشَهْوَةً تُضَاعِفُ بِهِمَا مَنْ تَحْدُثُهُ فِي شَهَوَاتِهِ وَعَقْلِهِ!

وَسَتَجْرِي فِي قِصَّتِهَا أَلْفَاظُ الْقِصَّةِ نَفْسِهَا، لَا أَتَأْتُمْ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَتَذَمُّ؛ فَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ الْخَمْرَ بِلَفْظِ الْخَمْرِ وَلَمْ يَقُلْ: «الْمَاءُ الَّذِي فِيهِ السُّكْرُ»، وَوَصَفَ الشَّيْطَانَ وَلَمْ يَقُلْ: «الْمَلَكُ الَّذِي عَمِلَ عَمَلَ الْمَرْأَةِ الْحَسَنَاءِ فِي تَكْبَرِهَا»، وَذَكَرَ الْأَصْنَامَ بِأَنَّهَا الْأَصْنَامُ، وَلَمْ يُسَمِّهَا: «حَامِلَةُ السَّمَاءِ الَّتِي يَصْنَعُهَا الْإِنْسَانُ بِيَدَيْهِ» وَحِكَايَةُ مَا بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ هِيَ كَلَامٌ يَقْبَلُ بَعْضُهُ بَعْضًا وَيَلْتَزِمُ وَيَتَعَانَقُ!

قَالَ الْمَسِيبُ: فَتَبَسَّمَ إِمَامُنَا وَنَظَرَتْ عَيْنَاهُ تَسْأَلَانِ سَوْالًا. أَمَّا مُجَاهِدُ الْأَزْدِيُّ فَكَانَ مِنْ هَزَةِ الطَّرَبِ كَأَنَّهُ عَلَى قَتَبٍ بَعِيرٍ، وَقَالَ: لِلَّهِ ذَرُهُ فَتَى، إِنَّ هَذَا لَيَأْنُ كَحِيلِ الْعَيْنِ...

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَذَهَبْتُ إِلَى الْمَجْلِسِ وَقَدْ جَعَلْتُهُ هَذِهِ الْمَغْنِيَّةُ مِنْ حَوَاشِيهِ وَأَطْرَافِهِ كَأَنَّهُ تَفْسِيرٌ لَهَا هِيَ. أَمَّا هِيَ فَجَعَلَتْ نَفْسَهَا تَفْسِيرًا لِكَلِمَةٍ وَاحِدَةٍ هِيَ: «اللَّذَّة...»

قَالَ الْمَسِيبُ: وَطَرِبَ مُجَاهِدٌ طَرَبًا شَدِيدًا، وَسَمِعْتُهُ يُخَافِتُ بِصَوْتِهِ يَقُولُ: «لِلَّهِ ذَرُّهَا أَمْرَأَةً؛ هَذِهِ، هَذِهِ عَدْوَةُ الْحُورِ الْعَيْنِ!».

ثُمَّ قَالَ الْفَتَى: وَتَطَرَّبَ جَمَاعَةُ أَهْلِ الْمَجْلِسِ إِلَى الشَّرْبِ، وَمَا ذَفْتُ خَمْرًا

(١) قينة: أمة، بفتح الميم.

قطّ، ولن أذوّقها ولو شربها الناس جميعاً، ولن أذوقها ولو أنقطع الغيث ولم تمطر السماء إلا خمرأ؛ فإني منذ كنت يافعاً رأيت أبي يشربها، وكانت أُمّي تلومهُ فيها وتشتدّ في تعنيفه وتحتدم^(١)، وكانا يتشاحنان^(٢) فينالها بالأذى ويندرى^(٣) عليها بالسبّ وفُخس القول. وسكر مرةً وغلبه السكر حتى ثارت أحشاؤه، فذرعه^(٤) القيّ فتوهمني وعاء، وجاء إليّ وأنا جالس فأمسك بي وقاء في ججري، حتى أفرغ جوفه؛ وثارت أُمّي لنتنرعه وأنشأت تُعالجه عني فتصارع جنونه وعقلها حتى كفّاته^(٥) على وجهه كالإناء؛ فالتوى كالحية بطناً لظهر، وأستجمع كالقنفذ في شوكه، ثم لكرها برجله أسفل بطنها فأنقلبت، وأصاب رأسها إجانة^(٦) العجين فتشلم^(٧) تثليم الإناء كأنما شدخ^(٨) ضرباً بحجر، وانتثر دماغها على الأرض أمام عيني، ورأيتها لم تزد على أن دفعت بإحدى يديها في الهواء، وضمت بالأخرى إلى صدرها، تتوهم أنّها تحميني وتدفعه عني؛ ثم سكنت، ولو لم تمت من الشجّة في رأسها لماتت من الضربة في بطنها!

قال المسيّب: وأطرق ألفتى هنيهةً وأطرق الناس معه؛ فرفع مُجاهدّ صوته وقال: رَحِمَها الله! فقال الناس جميعاً: رَحِمَها الله.

ثم قال الفتى: وكان عامّة من في المجلس يعرفون ذلك مني، ويعرفون أنّه لو ساعَ لإنسان أن يشرب دم أمّه ما شربت أنا الخمر، فقالوا للمغنية: إنّ هذا لا يدخل في ديواننا^(٩) فنظرت إليّ، وهربتُ أنا من نظريتها بإطراقة؛ ثم قالت: تشرب على وجهي؟ فقلتُ لها: إنّ وجهك يقول لي: لا تشرب... فتضاحكت وقالت: أهو يقول لك غير ما يقول لهؤلاء؟ فهربتُ من كلامها بإطراقة أخرى، ووصلت الإطراقتان ما بيني وبين قلبي؛ وتنبّه فيها مثل حنو الأم على طفلها إذا آذته بلسانها فأطرق ساكتاً يشكوها إلى قلبها!

والتفتت لمن حضر وقالت لهم: لستُ أطيّب لكم ولا تنتفعون بي إلا أن

(٦) إجانة: آنية يعجن فيها العجين.

(٧) تشلم: تشقق.

(٨) شدخ: ضرب رأسه.

(٩) إنه تعبير قديم العهد، يريدون به الشرب كأنه

ديوان ملك.

(١) تحتدم: تشتدّ.

(٢) يتشاحنان: يتشاجران.

(٣) يندرى: يندفع ويعنف.

(٤) ذرعه: فاجأه.

(٥) كفّ الإناء: قلبه.

تَشْرَبُوا لِي وَلَهُ وَلِأَنْفُسِكُمْ، وَأَنْحَطْ عَلَيْهِمُ السَّاقِي، فَشَرَبُوا أَرْطَالاً وَأَرْطَالاً، وَهِيَ بَيْنَ ذَلِكَ تُغْنِيهِمْ وَقَدْ أَقْبَلْتُ عَلَيْهِمْ وَخَلَا وَجْهَهَا لَهُمْ مِنْ دُونِي وَإِنَّمَا تُخَالِسُنِي^(١) النَّظْرَةَ بَعْدَ النَّظْرَةِ.

فوسوس لي شيطاني أَنْ تَشَدُّدَ مع هذه بِمَثَلِ عَزَمَتِكَ مَعَ الْخَمْرِ فَإِنَّمَا هُمَا شَيْءٌ وَاحِدٌ. وَلَكِنِّي كُنْتُ أَحَدُ النَّظَرِ^(٢) إِلَيْهَا، فَمَرَّةً أَوَامِقُهَا نَظْرَةُ الْمُحِبِّ لِلْحَبِيبِ، وَمَرَّةً أَغْضِي عَنْهَا بِنَظْرَةٍ لَا تَنْظُرُ؛ وَكَأَنِّي بِذَلِكَ كُنْتُ آخِذُهَا وَأَدْعُهَا، وَأَصِلُهَا وَأَهْجُرُهَا. فَقَالَتْ لِي كَالْمُنْكَرَةِ عَلَيَّ: مَا بِأَلْكَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذَا؟ وَلَكِنَّ هَيْئَةً وَجْهَهَا جَعَلَتْ أَلْمَعْنَى: لَا تَنْظُرْ إِلَيَّ إِلَّا هَكَذَا...!

وَأَسْرَعَ الشَّرَابُ فِي الْقَوْمِ وَأَفْرَطَ عَلَيْهِمُ السُّكْرُ؛ فَبَقِيتُ لِي وَحْدِي وَبَقِيتُ لَهَا وَحْدَهَا؛ ثُمَّ تَنَاوَلْتُ عَوْدَهَا وَضَمَمْتُهُ إِلَيْهَا ضَمًّا شَدِيدًا أَكْثَرَ مِنْ الضَّمِّ... وَالْمَسْتَهْ صَدْرَهَا وَنَهْدِيهَا، ثُمَّ رَنْتُ إِلَيَّ بِمَعْنَى، فَمَا شَكَّكَتُ أَنَّهَا ضَمَّتْ لِي أَنَا وَالْعُودُ؛ ثُمَّ غَنَّتْ هَذَا الصَّوْتُ:

أَلَا قَاتَلَ اللَّهُ الْحَمَامَةَ غُدُوَةً عَلَى الْغَصَنِ؛ مَاذَا هَيَّجَتْ حِينَ غَنَّتِ؟
فَمَا سَكَّتَتْ حَتَّى أَوْنْتُ لِصَوْتِهَا وَقُلْتُ: تُرَى هَذِي الْحَمَامَةُ جُنَّتِ؟

وَمَا وَجَدُ أَعْرَابِيَّةٍ قَذَفَتْ بِهَا صُرُوفَ النَّوَى^(٣) مِنْ حَيْثُ لَمْ تَكْ ظَلَّتْ..
إِذَا ذَكَرَتْ مَاءَ الْعِضَاءِ^(٤) وَطَيْبَهُ وَبَرَدَ الْجَمَى مِنْ بَطْنِ خَبْتِ^(٥)، أَرَنْتِ^(٦)
بِأَكْثَرِ مَنِيِّ لَوْعَةٍ، غَيْرَ أَنَّنِي أَجْمَجُمُ أَحْشَائِي عَلَى مَا أَجُنَّتِ!^(٧)
وَعَنَّتْهُ غِنَاءٌ مِنْ قَلْبٍ يَشْنُ، وَصَدْرٍ يَنْتَهَدُ، وَأَحْشَاءٍ لَا تُخْفِي مَا أَجُنَّتْ^(٨)؛
وَكَأَنَّتْ تَرْتَفِعُ بِالصَّوْتِ ثُمَّ كَأَنَّمَا يَهْمِي^(٩) أَلْدَمْعُ عَلَى صَوْتِهَا، فَيَرْتَعِشُ وَيَتَنَزَّلُ قَلِيلًا
قَلِيلًا حَتَّى يَشْنَ أَنْيْنَ أَلْبَاكِيةٍ، ثُمَّ يَعْتَلِجُ^(١٠) فِي صَدْرِهَا مَعَ الْحُبِّ، فَيَتَرَدَّدُ عَالِيًا
وَنَازِلًا، ثُمَّ يَرْفُضُ الْكَلَامُ فِي آخِرِهِ دَموعاً تَجْرِي.

- | | |
|--|---|
| (١) تخالسنِي: تسارقني. | (٦) أَرَنْتِ، نشطت. |
| (٢) أَحَدُ النَّظَرِ: أَمَعْنُ النَّظَرِ. | (٧) أَجْمَجُمُ: أَخْفِي شَيْئًا فِي صَدْرِي. |
| (٣) صُرُوفُ: مَصَائِبُ. النَّوَى: الْبَعْدُ. | (٨) أَجُنَّتْ: مِنْ أَجْنِ الثَّوْبِ إِذَا دَقَّ. |
| (٤) الْعِضَاءُ: ضَرْبٌ مِنَ الشَّجَرِ، ذُو أَشْوَاك. | (٩) يَهْمِي: يَنْهَمِرُ. |
| (٥) خَبْتِ: اسْمُ مَكَانٍ. | (١٠) يَعْتَلِجُ: يَخْتَلِجُ. |

قال المسيب: فنظر إليّ مُجاهدٌ وقال: عدوّهُ الجنّة - واللّه - هذه يا أبا محمد، لا تقبلُ الجنّة مَنْ يكونُ معها. تقولُ له: كنتُ معَ عدوّتي!

ثمّ قال الفتى: وكان القومُ قد انتَشَوْا، فاعتراهم نصفُ النومِ وبقيَ نصفُ اليَقْظَةِ في حواسِّهم، فكلُّ ما رَأَوْهُ مثلاً رَأَوْهُ كأحلامٍ لا وجودَ لها إلّا خَلْفَ أَجْفَانِهِمُ الْمُثْقَلَةِ سُكْراً ونُعاساً. ووثبتَ المَغْنِيَةُ فجاءتْ إلى جانبي وألتصقتْ بي، وأسرعَ الشَّيْطَانُ فوسوسَ لي: أن أحذرُ فإنَّكَ رجلٌ صِدْقٌ، وإذا صدقتُ في الخمرِ فلا تكذِبَنَّ في هذه، ولئنَ مَسَسَتْهَا إنَّهَا لَضِياعُكَ آخِرَ الدهرِ!

فعجبتُ أشدَّ العجبِ أن يكونَ شيطاني أسلمَ وأُعِنْتُ عليه كما أُعِينَ الأنبياءُ على شياطينهم. ولكنَّ اللعينَ مضى يصدُّني عن المرأةِ دونَ معانيها، وكانَ منِّي كالذي يُدْني الماءَ من عَيْنِي الْقَتِيلِ الْمُتَلَهِّبِ جَوْهُهُ ثُمَّ يجعلُهُ دائماً قَوْتَ فِيهِ، ولقد كنتُ مِنَ الفُحُولَةِ بحيثُ يبدو لي من شِدَّةِ القُورَةِ في دمي وشبابي أنّي أجمعُ في جسمي رجالاً عِدَّةً، ولكنَّ ضَرْبِي الشَّيْطَانُ بالخجلِ فلم أستطعُ أن أكونَ رجلاً معَ هذه المرأةِ.

وعجبتُ هي لذلك وما أسرعَ ما نطقَ الشَّيْطَانُ على لسانِها بالموعظةِ الْحَسَنَةِ...! فقالتُ أحبيتكُ ما لم أحِبَّ أحداً، وأحببتُ خَجَلَكَ أَكْثَرَ منك، فما يسرُّني أن تأثمَ فيّ فتدخلَ النارَ بِحُبِّي، ولو أنّكَ أبتعتني من مولاي؟ فقلتُ: بكم أشتراك؟ قالت: بألفِ دينار! قلتُ: وأين هي مني وأنا لو بعْتُ نفسي ما حصَلْتُ لي؟

فتممَّ الشَّيْطَانُ موعظته، وقالتُ وأشارَتْ إلى قلبِها: إنّ قلبِي هذا قَبْلُكَ غنياً كنتُ أو فقيراً، وأحسُّ بك وَحْدَكَ حُبَّ العذراءِ أَوَّلَ ما تُحِبُّ، وأنا - كما تراني - أعيشُ في السيئاتِ كالمُكْرَهَةِ عليها، فسأعملُ على أن تكونَ أنتَ حَسَنَتِي عندَ الله، أذهبُ إليه حاملةً في قلبي حُبِّي إِيَّاكَ وَعِفَّتِي عنكَ، ولئنَ كانتَ عِفَّةٌ مَنْ لا يشتهي ولا يجدُ تُعَدُّ فضيلةً كاملةً، إنّ عِفَّةً مَنْ يجدُ ويشتهي لَتُعَدُّ ديناً بحالِهِ. ولا يزالُ حُبِّي بِكُراً، ولا أزالُ في ذلك عذراءُ أَلْقَبُ، وهؤلاءِ قد نزعوا أَلْحِياءَ عَنِّي من أَجْلِ أَنفُسِهِمْ، فإلْبَسْنِيهِ أَنْتَ من أَجْلِكَ خَاصَّةً؛ وإنَّ قوَّةَ حُبِّي كالذي سيتألَّمُ بك ويتعذَّبُ منك لِطَوْلِ ما يصبرُ عنكَ، ستكونُ هي بعينِها قوَّةً لِفَضِيلَتِي وَطَهَارَتِي.

ثُمَّ تَنَاوَلْتُ عَوْدَهَا وَسَوَّتَهُ وَغَثَّتْ :

فَلَوْ أَنَا عَلَى حَجَرٍ دُبَحْنَا جَرَى الدَّمِيَانِ بِالْخَبِيرِ الْيَقِينِ^(١)
وَجَعَلْتُ تَتَاوَهُ فِي غِنَائِهَا كَأَنَّهَا تُذْبَحُ ذَبْحًا، ثُمَّ وَضَعْتُ أَلْعُودَ جَانِبًا وَقَالَتْ : مَا
أَشْقَانِي ! إِذَا اتَّفَقْتُ لِي سَاعَةٌ زَوَاجِي فِي غَيْرِ وَقْتِهَا فَجَاءَتْ كَالْحُلُمِ يَأْتِي بِخِيَالِ
الزَّمَنِ فَلَا يَكُونُ فِيهِ مِنَ الْأَشْيَاءِ إِلَّا خِيَالُ الْأَشْيَاءِ .

ثُمَّ سَأَلْتَنِي : مَا بِكَ لَمْ تَشْرَبِ الْخَمْرَ وَلَمْ تَدْخُلْ فِي الدِّيْوَانِ؟ فَبَدَرَ شَيْطَانِي
المؤمن . . . وسَأَقُ فِي لِسَانِي خَبَرَ أُمِّي وَأَبِي، فَأَنْتَضَحَتْ عَيْنَاهَا بَاكِئَةً وَتَمَّ لَهَا رَأْيِي
فِي كِرَائِي أَنَا فِي الْمُسْكِرِ؛ وَكَانَ شَيْطَانُهَا بَعْدَ ذَلِكَ شَيْطَانًا خَبِيثًا مَعَ أَصْحَابِهَا،
وَبَطْرِيْقًا زَاهِدًا مَعِي أَنَا وَحْدِي !

وَرَأَيْتُهَا لَا تُجَالِسُنِي إِلَّا مُتَزَايِلَةً^(٢) كَالْعُذْرَاءِ الْخَفْرَةِ إِذَا أَنْقَبَضَتْ وَغَطَّتْ
وَجَهَّهَا، وَصَارَتْ تَخَافُنِي لِأَنَّهَا تُحْبِنِي، وَهَيَّيْنِي الشَّيْطَانُ إِلَيْهَا فَعَادَتْ لَا تَرَى فِي
الرَّجُلِ الَّذِي هُوَ تَحْتَ عَيْنِهَا الْثَّيْبَتِينَ . . . وَلَكِنَّ الْقَدِيسَ الَّذِي تَحْتَ قَلْبِهَا الْبِكْرَ .

وَلَمْ يَعُدْ جَمَالِي هُوَ الَّذِي يُعْجِبُهَا وَيُضْبِئُهَا، بَلْ كَانَ يُعْجِبُهَا مَنِّي أَنِّي صَنَعْتُ
فَضِيلَتَهَا الَّتِي لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا غَيْرِي

وَأَنْطَلَقَ الشَّيْطَانُ بَعْدَ ذَلِكَ فِيَّ وَفِيهَا بَدَاهَتْهُ وَخُنْكَتِهِ وَبَكَلَ مَا جَرَّبَ فِي النِّسَاءِ
وَالرِّجَالِ مِنْ لُدُنِ آدَمَ وَحَوَاءَ إِلَى يَوْمِي وَيَوْمِهَا! . . . فَكَانَ يَجْذِبُنِي إِلَيْهَا أَشَدَّ
الْجَذْبِ، وَيَدْفَعُهَا عَنِّي أَقْوَى الدَّفْعِ، ثُمَّ يُغْرِينِي بِكُلِّ رِذَائِلِهَا وَلَا يُغْرِيهَا هِيَ إِلَّا
بِفَضَائِلِي . وَأَلْقَى مِنْهَا فِي دَمِي فِكْرَةَ شَهْوَةٍ مَجْنُونَةٍ مُتَقَلِّبَةً، وَأَلْقَى مِنِّي فِي دَمِهَا فِكْرَةَ
حِكْمَةٍ رَزِينَةٍ مُسْتَقِرَّةٍ . وَكُنْتُ أَلْقَاهَا كُلَّ يَوْمٍ وَأَسْمَعُ غِنَاءَهَا؛ فَمَا هُوَ بِالْغِنَاءِ وَلَكِنَّهُ
صَوْتُ كُلِّ مَا فِيهَا لِكُلِّ مَا فِيَّ، حَتَّى لَوْ أَلْتَصَقَ جِسْمُهَا بِجِسْمِي وَسَارَّ الْبَدَنُ الْبَدَنَ،
وَهَمَسَ الدَّمُ لِلدَّمِ، لَكَانَ هُوَ هَذَا الْغِنَاءُ الَّذِي تُغْنِيهِ .

وَأَصْبَحْتُ كُلَّمَا أَسْتَقَمْتُ لِحُبِّهَا تَلَوْتُ عَلَيَّ؛ إِذْ لَسْتُ عِنْدَهَا إِلَّا الْأَمَلَ فِي الْمَغْفَرَةِ
وَالثَّوَابِ، وَكَأَنَّمَا مُسَخَّتُ حَبْلًا طَوْلُهُ مِنْ هُنَا إِلَى الْجَنَّةِ لِيَتَعَلَّقَ بِهِ . وَعَادَ امْتِنَاعُهَا مِنِّي
جَنُونًا دِينِيًّا مَا يُفَارِقُهَا، فَأَبْتَلَانِي هَذَا بِمِثْلِ الْجَنُونِ فِي حُبِّهَا مِنْ كَلْفٍ^(٣) وَشَغَفٍ .

(١) من جميل أساطير العرب، أنه إذا قتل اثنان معاً في وقت واحد وجرى دمياهما والتقيا أنهما
متحابان، فإذا جرى دمياهما باتجاهين متعاكسين أنهما متشاحنان .

(٢) متزايلة : منحاذاة .

(٣) كلف : شغف : شديد الحب .

وأنحصرت نفسي فيها، فرجعت معها أشدَّ غباوةً من الجاهل ينظرُ إلى مدَّ بصره من الأفق فيحكم أنَّ ههنا نهاية العالم، وما ههنا إلا آخرُ بصره وأولُ جهله. وأنفلت مني زمامٌ روحي، وأنكسر ميزانُ إرادتي، وأختلَّ استواءُ فكري، فأصبحتُ إنساناً من النقائص المتعادية أجمع اليقين والشكَّ فيه، والحبَّ والبغضَ له، والأملَ والخيبةَ منه، والرغبةَ والعزوفَ عنها، وفي أقلَّ من هذا يخطفُ العقل، ويتدلَّه من يتدلَّه.

ثمَّ أبليتُ مع هذا اللَمِّ^(١) بجنونٍ الغيظ من ابتذالها لأصحابها وعفتها معي، فكنتُ أنطايرُ قطعاً بينَ السماء والأرض، وأجدُ عليها وأتنكرُ لها، وهي في كلِّ ذلك لا تزيدني على حالةٍ واحدةٍ من الرهبانية؛ فكانَ يطيرُ بعقلي أن أرى جسمها ناراً مشتعلة، ثمَّ إذا أنا رُمْتُ أستحالَ ثلجاً، وقرحتُ الغيرةَ قلبي وفتتُ كبدي من عابدة الشيطان مع الجميع، الراهبة مع رجلٍ واحدٍ فقط!...

ورجعتُ خواطري فيها ممَّا يُعقل وما لا يُعقل؛ فكنتُ أرى بعضها كأنَّه راجع من سفرٍ طويلٍ عن حبيبٍ في آخر الدنيا، وبعضها كأنَّه خارجٌ من دارٍ حبيبٍ في جوارٍ، وبعضها كأنَّه ذاهبٌ إلى المارستان...! ^(٢)

ورأيتُنا كأننا في عالمين لا صلةَ بينهما، ونحن معاً قلباً إلى قلب، فذهب هذا بالبقية التي بقيت من عقلي، ولم أر لي منجاةً إلا في قتل نفسي لأزهرق هذا الوحش الذي فيها.

وذهبتُ فابتغتُ شعيراتٍ من السمِّ الوحيِّ الذي يُعجلُ بالقتل، وأخذتها في كفي وهممتُ أن أقحمها وأبتلعها، فذكرتُ أُمِّي، فظَهَرَتْ لخيالي مشدوخة الرأس في هيئةٍ موتها، وإلى جانبها هذه المرأة في هيئةٍ جماليها، وثبتت على عيني هذه الرؤيا، وأدمنتُ النظرَ فيها طويلاً فإذا أنا رجلٌ آخرٌ غيرُ الأول، وإذا المرأة غيرُ تلك، وطغت عبرة الموت على شهوة الحياة فمحتها، وصحَّ عندي من يومئذ أن لا علاج من هذا الحبِّ إلا أن تُقرن في النفس صورةُ امرأةٍ ميتةٍ إلى صورةِ المرأة الحية، وكلما ذُكرت هذه جيء لها بتلك، فإذا استمرَّ ذلك فإنَّ الميتة تُميتها في النفس وتُميت الشهوة إليها، ما من ذلك بُد، فليجرِّبه من شكَّ فيه.

وأنفتح لي رأيٌ عجيب، فجعلتُ أتأملُ كيف آمنَ شيطاني ثم كَفَرَ بَعْدُ، على

(١) اللَمِّ، محرَّكة بالفتح: الجنون.

(٢) المارستان: مستشفى المجاذيب.

أَنَّ شَيْطَانَهَا هِيَ كَفَرَتْ فِي الْأَوَّلِ ثُمَّ آمَنَ فِي الْآخِرِ؟ فَوَاللَّهِ مَا كُنْتُ إِلَّا غَبِيًّا خَامِدًا
الْفِطْنَةُ^(١)، إِذْ لَمْ يَسْنَخْ لِي الصَّوَابُ حَتَّى كَذْتُ أَزْهَقُ نَفْسِي وَأَخْسِرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ؛
فَإِنَّ الشَّيْطَانَ - لَعْنَةُ اللَّهِ - إِنَّمَا رَدَّنِي عَنِ الْفَاحِشَةِ وَهِيَ ذَنْبٌ وَاحِدٌ، لِيَرْمِينِي بَعْدَهَا
فِي الذُّنُوبِ كُلِّهَا بِالمَوْتِ عَلَى الكُفْرِ!

وَرَدَّ إِلَيَّ هَذَا الْخَاطِرُ مَا عَزَبَ^(٢) مِنْ عَقْلِي . وَمَنْ أَتُبْلَى بِبَلَاءٍ شَدِيدٍ يُزَلْزَلُ
يَقِينُهُ ثُمَّ أَبْصَرَ الْيَقِينَ، جَاءَ مِنْهُ شَخْصٌ كَأَنَّمَا خُلِقَ لِسَاعَتِهِ؛ فَلَعَنْتُ شَيْطَانِي
وَاسْتَعِذْتُ بِاللَّهِ مِنْ مَكْرِهِ، وَالْقَيْتُ أَلَسَّمْ فِي التَّرَابِ وَغَيَّبْتُ فِيهِ، وَقُلْتُ لِنَفْسِي:
وَيْحَكَ يَا نَفْسُ! إِنَّ الْحَيَاةَ تَعْمَلُ عَمَلًا بِالْحَيِّ، أَفَتَرْضَيْنَ أَنْ تَعْمَلَ الْحَيَاةَ بِأَبْطَالِهَا
وَرِجَالِهَا مَا عَرَفْتَ وَمَا عَلِمْتَ، ثُمَّ يَكُونُ عَمَلُهَا بِكَ أَنْتِ الْقَعُودَ نَاحِيَةً وَالبُكَاءَ عَلَى
أَمْرَاءَ؟

أَيُّهَا النَّفْسُ، مَا الْفَرْقُ بَيْنَ سَرَقَةِ لَحْمٍ مِنْ دُكَّانِ قِصَّابٍ، وَبَيْنَ سَرَقَةِ لَحْمٍ
أَمْرَاءَ مِنْ دَارِ أَبِيهَا، أَوْ زَوْجِهَا، أَوْ مَوْلَاهَا...؟

أَيُّهَا النَّفْسُ، إِنَّ إِيمَانَنَا أَسْلَافِنَا مَعَنَا؛ إِنَّ الْإِسْلَامَ فِي الْمُسْلِمِ .

قَالَ الْمَسِيَّبُ: وَهَنَا طَاشَ مُجَاهِدٌ وَأَسْتَخْفَهُ الطَّرِبُ، فَصَاحَ صَيْحَةً النُّصْرَ:
اللَّهُ أَكْبَرُ! وَجَاوَبَهُ أَهْلُ الْمَسْجِدِ فِي صَيْحَةٍ وَاحِدَةٍ: اللَّهُ أَكْبَرُ! وَلَمْ يَكْذُ يَهْتَفُ بِهَا
النَّاسُ حَتَّى أَرْتَفَعَتْ صَيْحَةُ الْمُؤَذِّنِ لِصَلَاةِ الْمَغْرَبِ . اللَّهُ أَكْبَرُ... .

(٢) عزب: ضاع وذهب.

(١) الفطنة: الذكاء.

الانتحار

٦

تتمة

قال المسيب بن رافع: وأنفض^(١) مجلس الشيخ، ودَرَجت^(٢) بعده أعوام في عدة الشهور من حمل المرأة، بلغت فيها أمور الناس مبلغها من خير الدنيا وشرها، مما أعرف وما لا أعرف؛ ودخلت البصرة أنا ومُجاهد الأزدي، نسمع الحسن وناخذ عنه؛ فإننا لسائران يوماً في سكة^(٣) بني سمره، إذ وافقنا الفتى صاحب النصرانية مُقبلاً علينا، وكُنّا فقدناه تلك المدة، فأسرع إليه مُجاهد فالتزمه وقال: مرحباً بذي نسب إلى القلب. وسلّمتُ بعده وعانقته، ثمّ أقبلنا نسأله، فقلتُ له: ما كان آخر أولك؟ قال مُجاهد: بل ما كان آخر أولها هي؟

فضحك الرجل وقال: النصرانية تعني؟ قال: آخرها من أولها كهذا مني؛ وأوماً إلى ظلّه في الأرض ممدوداً مشبوحاً مختلطاً غير متميز؛ كأنّه ثوب منشور ليس فيه لابسُه، وكُنّا في الساعة التي يصير فيها ظل كل شيء مثليه فهو مزج المَسخ بالمشخ...

قال مُجاهد: ما أفظّ جوابك وأثقله يا رجل! كأنك - واللّه - تاجر لا صلة له بالأشياء إلّا من أثمانها؛ فنظره إلى فراهة أدابة من الدوابّ وإلى فراهة الجارية من الرقيق سواء.

قال الرجل: فأنا - واللّه - تاجر، وأنا الساعة على طريق الإيوان^(٤) الذي يلتقي فيه تجار العراق والشام وخراسان؛ وقد ضربت في هذه التجارات وحسنت بها حالي وتأثّلت منها؛ غير أنّ قلب التاجر غير التاجر، فليس يزُن ولا يقبض، ولا

(٣) سكة: طريق.

(٤) هذه المفردة تناسب ما يسمونه اليوم (البورصة).

(١) انفَضّ: تفرّق.

(٢) درجت: مضت.

يَبِيعُ وَلَا يَشْتَرِي. أَمَا «تلك» فَأَصْبَحَتْ نَسِياناً ذَهَبَ لِسَبِيلِهِ فِي الزَّمَنِ!

قَالَ مُجَاهِدٌ: فَكَيْفَ كُنْتَ تَرَاهَا وَكَيْفَ عُدْتَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا؟

قَالَ: كُنْتُ أَنْظُرُ إِلَيْهَا بَعِينِي وَأَفْكَارِي وَشَهَوَاتِي؛ فَكَانَتْ بِذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ أَلْسِنَاءِ، وَكَانَتْ أَلْوَاناً أَلْوَاناً مَا تَنْقُضِي، فَلَمَّا دَخَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهَا الزَّمَنُ وَالْعَقْلُ، أَبْعَدَهَا هَذَا عَنْ قَلْبِي وَأَبْعَدَهَا ذَاكَ عَنْ خِيَالِي؛ فَتَنَظَّرْتُ إِلَيْهَا بَعِينِي وَحَدَّهْمَا، فَرَجَعَتْ أَمْرَأَةً كَكُلِّ أَمْرَأَةٍ؛ وَبَنَزُولِهَا مِنْ نَفْسِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ، رَجَعَتْ أَقْلٌ مِنْ نَفْسِهَا وَمِنْ أَلْسِنَاءِ، وَهَذِهِ الْقِلَّةُ فِيمَا عَرَفْتُ لَا تُصِيبُ أَمْرَأَةً عِنْدَ مُحِبِّهَا إِلَّا فَعَلَتْ بِجَمَالِهَا مِثْلَ مَا تَفْعَلُهُ الشَّيْخُوخَةُ بِجَسَمِهَا، فَأَدْبَرْتُ بِهِ ثُمَّ أَدْبَرْتُ وَأَسْتَمَرْتُ تُذْبِرُ!

وَأَنْتَ فَإِذَا أَبْصَرْتَ أَمْرَأَةً شَيْخَةً قَدْ ذَهَبَتْ الَّتِي كَانَتْ فِيهَا... وَأَخْطَرْتُ فِي ذَهْنِكَ نِيَّةً مِمَّا بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ، فَهَلْ تُرَاكَ وَاجِداً أَلْشَّهْوَةَ وَالْمِيلَ إِلَّا النُّفْرَةَ وَالْمَغْصِيَّةَ؟ إِنَّ هَذَا الَّذِي كَانَ الْحُبَّ وَالْهَوَى وَالْعِشْقَ، هُوَ بَعِينُهُ الَّذِي صَارَ الْإِثْمَ وَالذَّنْبَ وَالضَّلَالََةَ!

قَالَ مُجَاهِدٌ: كَأَنَّكَ لَمَّا ذَهَبَتْ تَقْتُلُ نَفْسَكَ مِنْ حُبِّهَا قَتَلَتْهَا هِيَ فِي نَفْسِكَ؟

قَالَ: يَا رَحِمَةَ قَدْ رَحِمْتُ بِهَا نَفْسِي يَوْمئِذٍ! أَمَا - وَاللَّهِ - إِنَّ الَّذِي يَقْتُلُ نَفْسَهُ مِنْ حُبِّ أَمْرَأَةٍ لَعَنِي. وَبِحَهِ! فَلْيَتَخَلَّصْ مِنْ هَذَا الْجُزْءِ مِنَ الْحَيَاةِ لَا مِنَ الْحَيَاةِ نَفْسِهَا. وَقَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِلْحُبِّ طَرَفَيْنِ: أَحَدُهُمَا فِي اللَّذَّةِ، وَالْآخَرُ فِي الْحِمَاقَةِ؛ مَا مِنْهُمَا بُدٌّ. فَهَذَا الْحُبُّ يُلْقِي صَاحِبَهُ فِي الْأَحْلَامِ وَيُعْشِي بِهَا عَلَى بَصَرِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ هُوَ أَتَجَّهَ بِطَرَفِهِ السَّعِيدِ إِلَى حَظِّهِ الْمَقْبُولِ وَأَتَفَقَّتِ اللَّذَّةُ لِلْمُحِبِّ، أَيْقَظَتْهُ اللَّذَّةُ مِنْ أَحْلَامِهِ؛ وَإِنْ أَتَجَّهَ الْحُبُّ بِطَرَفِهِ الشَّقِيَّ إِلَى حَظِّهِ الْمَذْبُورِ، وَقَعَتْ الْحِمَاقَاتُ فَتَوَنَّا شَتَّى بَيْنَ الْحَبِيبِينَ، وَفَعَلْتُ آخِراً فَعَلْتُ اللَّذَّةَ، فَأَيْقَظَتِ الْعَاشِقَ مِنْ أَحْلَامِهِ أَيْضاً. وَهَذَا تَدْبِيرٌ مِنَ الرَّحْمَةِ فِي تِلْكَ الْقُوَّةِ الْمَدْمُورَةِ الْمَسْمُومَةِ الْحُبِّ. أَفَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ اللَّذَّةَ وَهُمْ مِنَ الْأَوْهَامِ مَا دَامَ تَحَقُّقُهَا هُوَ فَنَاءُهَا؟

خَذْ عَنِّي يَا مُجَاهِدُ هَذِهِ الْكَلِمَةَ: «لَيْسَ الْكَمَالُ مِنَ الدُّنْيَا وَلَا فِي طَبِيعَتِهَا، وَلَا هُوَ شَيْءٌ يُذَرِّكُ، وَلَكِنْ مِنْ عَظَمَةِ الْكَمَالِ أَنَّ أَسْتَمَرَّارَ الْعَمَلِ لَهُ هُوَ إِدْرَاكُهُ».

قَالَ مُجَاهِدٌ: لَقَدْ عَلِمْتُ بَعْدَنَا عِلْماً، فَمِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَعَمَّنْ أَخَذْتَ؟

قَالَ: عَنِ السَّمَاءِ!

قَالَ: وَيْلَكَ! أَيْنَ عَقْلُكَ، فَهَلْ نَزَلَ عَلَيْكَ الْوَحْيُ؟

قَالَ الرَّجُلُ : لا ، وَلَكِنْ تَعَالَيَْا مَعِي إِلَى الدَّارِ فَأُحَدِّثْكُمْهَا .

قَالَ الْمَسِيَّبُ : وَذَهَبْنَا مَعَهُ ؛ فَأَتَيْنَا بِطَعَامٍ نَظِيفٍ فَأَكَلْنَا ، وَأَشْعَرْنَا الدَّارَ أَنَّ رَبَّهَا
قَدْ وَقَعَ فِيهَا شَاءٌ مِنْ دُنْيَاهُ وَتَوَاصَلَتْ عَلَيْهِ النِّعْمَةُ ؛ فَلَمَّا غَسَلْنَا أَيْدِينَا قَالَ مُجَاهِدٌ :
هَيْه يَا أَبَا . . . يَا أَبَا مَنْ ؟ قَالَ : أَبُو عُيَيْدٍ . قَالَ : هَيْه يَا أَبَا عُبَيْدٍ . . .

فَأَفْكَرَ الرَّجُلُ سَاعَةً ثُمَّ قَالَ : عَهْدُ كَمَا بِي مِنْذُ تَسْنَعُ فِي مَجْلِسِ الإِمَامِ الشَّعْبِيِّ
بِالْكُوفَةِ ؛ وَقَدْ كُنْتُ فِي بَقِيَّةٍ مِنَ النِّعْمَةِ أَتَجَمَّلُ بِهَا ، وَكَأَنْتُ تُمَسْكِنِي عَلَى مَوْضِعِي
فِي أَعْيُنِ النَّاسِ ؛ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ الْبَقِيَّةُ تَدِقُّ وَتَنْفُضُ حَتَّى نَكِدَ عَيْشِي وَوَقَعْتُ فِي
الْأَيَّامِ الْمَقْعَدَةِ الَّتِي لَا تَمْشِي بِصَاحِبِهَا ، وَأَنْقَلَبَ الزَّمَنُ كَالْعَدُوِّ الْمُغِيرِ جَاءَ
لِيَضْطَلِمَ^(١) وَيُخْرِبَ وَيُفْسِدَ ، فَأَثَّرَ فِيَّ أَقْبَحُ آثَارِهِ ، فَبِعْتُ مَا بَقِيَ لِي وَتَحَمَلْتُ عَنْ
الْكُوفَةِ إِلَى الْبَصْرَةِ ، وَقُلْتُ : إِنْ لَمْ تَتَغَيَّرْ حَالِي تَغَيَّرْتُ نَفْسِي ، وَلَا أَكُونُ فِي الْبَصْرَةِ
قَدْ أَنْتَهَيْتُ إِلَى الْفَقْرِ ، بَلْ أَكُونُ قَدْ بَدَأْتُ مِنَ الْفَقْرِ كَمَا يَبْدَأُ غَيْرِي ، وَأَدْعُ الْمَاضِيَ
فِي مَكَانِهِ وَأَمْضِي إِلَى مَا يَسْتَقْبِلُنِي .

فَالْتَمَسْتُ رُقَّةً فَالْتَمَنَّا^(٢) عَشْرِينَ رَجُلًا ، فَلَمَّا كُنَّا فِي الطَّرِيقِ ، سَلَبَنَا أَلَلُصُوصُ
وَحَازُوا أَلْقَافَلَةَ وَمَا تَحْوِيهِ ، وَنَجَوْتُ أَنَا رَاكِبًا فَرَسِي وَعُمْرِي ، وَأَدْرَكْتُ حِينَئِذٍ أَنَّ
الْحَيَاةَ وَحَدَهَا مِلْكٌ عَظِيمٌ ، وَأَنَّهَا هِيَ الْأَدَاةُ الْإِلَهِيَّةُ ، وَالْبَاقِي كُلُّهُ هُوَ مِنْ أَنْفُسِنَا
لِأَنْفُسِنَا وَالْأَمْرُ فِيهِ هَيِّنٌ وَالْخَطْبُ يَسِيرٌ .

وَقُلْتُ : لَوْ أَنَّ أَلَلُصُوصَ قَدْ مَرُّوا بِنَا كَمَا يَمُرُّ النَّاسُ بِالنَّاسِ لَمَّا نَكَبُونَا ، وَلَكِنَّهُمْ
عَرَضُوا لَنَا غُرُوضَ اللَّصِّ لِلْمَالِ وَالْمَتَاعِ لَا لِلنَّاسِ ، فَوَضَعُوا فِينَا الْأَيْدِيَ النَّاهِيَةَ ؛ وَمَنْ
هَذَا أَدْرَكْتُ أَنْ لَيْسَ الشَّرُّ إِلَّا حَالَةً يَتَلَبَّسُ بِهَا مَنْ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَخَلَّصَ مِنْهَا . فَإِذَا كَانَ
ذَلِكَ فَأَصْلُ السَّعَادَةِ فِي الْإِنْسَانِ إِلَّا يَعْأ^(٣) بِهِذِهِ الْحَالَاتِ مَتَى عَرَضَتْ^(٤) لَهُ ؛ وَهُوَ لَا
يَسْتَطِيعُ ذَلِكَ إِلَّا إِذَا ، تَمَثَّلَ الشَّرُّ كَمَا يَرَاهُ وَاقِعًا فِي غَيْرِهِ ؛ فَالْمَرَأَةُ الْعَفِيفَةُ إِذَا عَرَضَتْ لَهَا
حَالَةٌ مِنَ الْفُجُورِ ، وَنَظَرَتْ إِلَى نَفْسِهَا وَحَظَّ نَفْسِهَا ، فَقَدْ تَعَمَّى وَتَزَلَّ ؛ وَلَكِنَّهَا إِذَا نَظَرَتْ
إِلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِهَا وَإِلَى أَثَرِهِ عَلَى الْفَاجِرَةِ ، كَأَنَّ كَأَنَّمَا زَادَتْ عَلَى نَفْسِهَا نَفْسًا أُخْرَى
تُرِيهَا أَلْأَشْيَاءَ مَجْرَدَةً كَمَا هِيَ فِي حَقَائِقِهَا .

(١) يَصْطَلِمُ : يَسْتَأْصِلُ .

(٢) التَّمَنَّا : اجْتَمَعْنَا .

(٣) يَعْأُ : يَهْتَمُّ .

(٤) عَرَضَتْ : حَصَلَتْ .

قال: ومضيتُ على وجهي تتقاذفني البِقَاعُ والأمكنةُ: وأنا أعاني الأرضَ والسماءَ، وأخشى الليلَ والنهارَ، وأكابِدُ الأَلَمَ والجوعَ، حتى دخلتُ البَصْرَةَ دخولَ البعيرِ الرّازحِ، قَطَعَ الصّحراءُ تَأْكُلُ منه ولا يَأْكُلُ منها، فأنضاهُ^(١) السّفْرُ وحسره الكَلالُ^(٢) ونَحْتَهُ الثُّقْلُ الَّذِي يَحْمِلُهُ، فجاءَ ببنيةٍ غيرِ التي كانَ قد خرجَ بها. وكانتْ أيّامي هذه عمراً كاملاً مِنَ الشّقاءِ، جعلتْني أوقِنُ أَنَّ هؤلاءِ النَّاسَ في الحَيَاةِ إنْ هم إلا كالِدَوَابِّ تحتَ أحمالها: لا تختارُ الدّابّةُ ما تحملُ ولا مَنْ تحملُ، ولا يَتْرَكُ لها مع هذا أن تختارَ الطّريقَ ولا مدّةَ السّيرِ؛ وليسَ لِلدّابّةِ إلا شيطان: صبرُها وقوَّتُها؛ إنْ فقدتْهما هلكَتْ، وإنْ وهَّنا فيها كانَ ضعفُها بحسبِ ذلك.

إنْ هناك أوقاتاً مِنَ الشّقاءِ والبؤسِ تقدِفُ بالإنسانِ وراءَ إنسانيّتهِ وإنسانيّةِ البشرِ جميعاً، لا تُبالي كيف وقعَ وفي أيِّ وادٍ هلكَ، فلا ينفعُ الإنسانَ حينئذٍ إلا أنْ يعتصمَ^(٣) بأخلاقِ الحيوانِ، في مثلِ رضاهُ الَّذِي هو أحكمُ الحِكْمَةِ في تلكِ الحالِ، وصبرِهِ الَّذِي هو أقوى القوّةِ، وقناعتهِ التي هي أغنى الغنى، وجهلِهِ الَّذِي هو أعلمُ العِلْمِ، وتوكُّلِهِ الَّذِي هو إيمانُ فطرتهِ بفطرتهِ. لا يُبالي الحيوانُ مالاَ ولا نعيماً، ولا متاعاً ولا منزلةً، ولا حظّاً ولا جاهاً، ولنْ تجدَ حمارَ المَلِكِ يعرفُ مِنَ المَلِكِ أكثرَ ممّا يعرفُ حمارُ السّقاءِ مِنَ السّقاءِ؛ ولعلَّكَ لو سألتَهما وأطافا الجوابَ لَقَالَ لك الأوّلُ: إنَّ الَّذِي فوقَ ظهري ثَقِيلٌ مَقِيَّتٌ بغيضٍ؛ ولَقَالَ لك الثّاني: إنَّ الَّذِي يركبُهُ خفيفٌ سهلٌ سَمَح!

ولكنَّ بلاءَ الإنسانِ أَنَّهُ حينَ يُطَوِّحُهُ البؤسُ^(٤) والشّقاءُ وراءَ الإنسانِيّةِ، لا ينظرُ لِغيرِ النَّاسِ، فيزيدهُ ذلكَ بُؤساً وحسرةً، ويمحِقُ^(٥) في نفسه ما بقي مِنَ الصّبرِ، ويقَلِّبُ رضاهُ غيظاً، وقناعتهُ سخطاً، ويبتليه كُلُّ ذلكَ بالفكرةِ المهلكةِ أعجزَها أنْ تُهْلِكَ أحداً فلا تجدُ مَنْ تُدْمِرُهُ غيرَ صاحبِها؛ فإذا هي وجدتْ مَساغاً^(٦) إلى النَّاسِ فأهلكَتْ وعائتْ وأفسدتْ، فجعلتْ صاحبَها إمّا لِيصاً أو قاتلاً أو مُجرماً، أيّ ذلك تيسّر!

(٤) يطوّحه البؤس: أخذه كل مأخذ.

(٥) يمحِق: يمحو.

(٦) مساغاً: سبياً.

(١) أنضاه: أتعبه.

(٢) الكلال: التعب الشديد.

(٣) يعتصم: يلجأ ويتقوى.

قال: وكنتُ أعرفُ في البصرةَ فلاناً التاجرَ من سَراتِها^(١) ووجوه أهلِها، فاستطرقته^(٢)؛ فإذا هو قد تحوّل^(٣) إلى خُراسان، وليسَ يعرفُني أحدٌ في البصرةَ ولا أعرفُ أحداً غيره؛ فكأنما نُكِبْتُ مرةً ثانيةً بغارةٍ شرٍّ من تلك، غيرَ أنَّها قطعتُ عليَّ في هذه المرةِ طريقَ أيّامي، وسلبتني آخرَ ما بقيَ لِنفسي، وهو الأمل!

ورأيتُ أنَّه ما مِن نزولي إلى الأرضِ بُدَّ، فأكونُ فيها إنساناً كالدابةِ أو الحشرة: حياتُها ما اتَّفَقَ لا ما تُريدُ أنْ يتَّفَقَ؛ وأنه لا رأيَ إلا أنْ أسخرَ مِنَ الشهواتِ فأزهدَ فيها وأنا القويُّ الكريم، قبلَ أنْ تسخرَ هي مِنِّي إذا جثَّتها وأنا الطامعُ العاجز!

وفي الأرضِ كِفايةٌ كُلُّ ما عليها ومَن عليها، ولكن بطريقتِها هي لا بطريقةِ الناس؛ وما دامتْ هذه الدنيا قائمةً على التغييرِ والتبديلِ وتحوُّلِ شيءٍ إلى شيءٍ، فهذا الظبيُّ الذي يأكلُهُ الأسدُ لا تعرفُ الأرضُ أنَّه قد أَكِلَ ولا أنَّه أَفْتَرَسَ ومُزَقَ، بل هو عندها قد تحوَّلَ قوَّةً في شيءٍ آخرَ ومضى؛ أمّا عندَ الناسِ فذلك خُطْبُ^(٤) طويلٌ في حِكَايةِ أوهامِ مِنَ الخوفِ والوجلِ^(٥)، كما لو اخترعتُ قصةَ خرافيةً تحكيها عن أسدٍ قد زَرَعَ لحماً... فتعهَّدهُ فأنبتهُ فحصدَهُ فأكلَهُ، فذهبَ الزرعُ يحتجُّ على أَكَلِهِ، وجعلَ يشكو ويقول: ليسَ لِهَذَا زرعَتَني أنتَ، وليسَ لِهَذَا خرجتُ أنا تحتَ الشمسِ، وليسَ من أَجلِ هذا طلعتِ الشمسُ عليَّ وعليك!

والإنسانُ يرى بعينه هذا التغييرَ واقعاً في الإنسانيةِ عامَّتِها وفي الأشياءِ جميعِها؛ فإذا وقعَ فيه هو ضجٌّ وسَخَطٌ، كأنَّ لَهُ حقاً ليسَ لأحدٍ غيره، وهذا هو العجيبُ في قصةِ بني آدم، فلا يزالُ فيها على الأرضِ كلماتٌ مِنَ الجنةِ لا تُقالُ هنا ولا تُفهمُ هنا؛ بل محلُّ الاعتراضِ بها حينَ يكونُ الإنسانُ خالداً لا يقعُ فيه التغييرُ والتبديلُ. ومن هذا كانَ خيالُ اللذةِ في الأرضِ هو دائماً باعثُ الحماقةِ الإنسانيةِ.

قال أبو عبيد: وذهبتُ أعتَمِلُ يديَّ وجسمي على آلامِ مَنْ ألفاقه والضَّرَّ، ومنَ الخيبةِ والإخفاقِ، ومنَ إلجاءِ المسكنةِ، وإحواجِ الخصاصةِ^(٦)؛ فلقد رأيتُني وإنَّ يدي كيدِ العبدِ، وظهري كظهرِ الدابةِ، ورجلي كرجلِ الأسيرِ، وعُنُقِي كعُنُقِ

(٤) خطب: يسكون الطاء: المصيبة.

(٥) الوجل: الخوف.

(٦) الخصاصة: الفقر المدقع وشدته.

(١) سراتها: أغنيائها.

(٢) استطرقته: جثته ليلاً.

(٣) تحوّل: انتقل.

المغلول، ويطلع قرصُ الشمس على الدنيا ويغيبُ عنها وما أعتَمِلُ إلا بقرصٍ من الخبز، ولقد رأيتني أبذلُ في صيانةِ كلِّ قطرةٍ من ماءٍ وجهي سحابةً من العرقِ حتى لا أسألَ الناس، ويا بؤساً لي إن سألتُ وإن لم أسأل!

وما كان يُمكنني على هذه الحياةِ المُرَمَّةِ^(١)، تأتي رَمَقاً بعدَ رَمَقٍ في يومٍ يوم - إلا كلامُ الشعبي - الذي سمعتهُ في مسجدِ الكوفة، وقوله فيمن قتل نفسه؛ فكانَ كلامه نوراً في صدري يُشرقُ منه كلُّ يومٍ مع الصبحِ صبحٌ لإيماني. ولكن بقيت أيامُ نعمتي الأولى ولها في نفسي ضربانٌ من الوجعِ كالذي يجدهُ المجرُوحُ في جرحه إذا ضربَ عليه، فكانَ الشيطانُ لا يجدُ منفذاً إليَّ إلا منها. وفقدتُ الصديقَ وعونه، فما كان يُقبلُ عليَّ صديقٌ إلا في أحلامي من وراءِ الزمنِ الأول!

قال مُجاهد: والحبيب؟

فتبسّم الرجل وقال: إذا فرغتِ^(٢) الحياةُ من الذي هو أقلُّ من الممكن، فكيف يكونُ فيها الذي هو أكثرُ من الممكن؟ إنَّ جوعَ يومٍ واحدٍ يجعلُ هذه الحياةَ حقيقةً جافيةً لا شِعْرَ فيها، ويتركُ الزمنَ وما فيه ساعةً واحدةً مُعْطَرةً... والبؤسُ يَقْطِطُ مؤلمةً في القلبِ الإنساني تُحرِّمُ عليه الأحلامَ؛ وما الحُبُّ من أوَّلِهِ إلى آخرِهِ إلا أحلامُ القلوبِ بعضها ببعض!

قال أبو عبيد: وتَضَعُضْتُ^(٣) لهذه الحياةِ المخزية وأبرمتني^(٤) أيامُها، وحملتُ فيَّ الميتَ والحي، ورأيتُ الشيطانَ - لعنه الله - كأنما أتخذني وعاءً مُطَرَحاً على طريقهِ يُلْقِي فيه القمامةَ^(٥)...، وظهر لي قلبي في وساوسِهِ كالمدينةِ الحَرَبِيةِ ضربَها الوباءُ، فأعمرُ ما فيها مَقْبَرَتُها؛ وعادَ البؤسُ وَقَاحَ الوجهِ لا يستحي، فلا أراه إلا في أرذلِ أشكالِهِ وأبردها؛ ولقد يكونُ البؤسُ لبعضِ الناسِ على شيءٍ من الحياءِ فيأتي في أسلوبٍ معتدٍ كالمراةِ الدميمةِ^(٦) في نقابِها^(٧).

وقلتُ لِنفسي: ما هو - واللّه - إلا القتل، فهذا عُمرُ أراه كالأسيرِ أُقيِمَ على النطعِ^(٨) وسُلَّ عليه السيفُ، فما ينتقمُ منه أَلَمُنتِمُ بأفطعٍ من تأخيرِ الضربةِ، وما يرحمهُ أَلِراحمُ بأحسنٍ من تعجيلِها!

(١) المرمقة: الباقي من الحياة.

(٢) فرغت الحياة: انتهت.

(٣) تضعضعت: تخلخلت.

(٤) أبرمتني: أضجرتني.

(٥) القمامة: الزبالة.

(٦) الدميمة: البشعة.

(٧) نقابها: ما تغطي به وجهها.

(٨) النطع: الآنية ينزل فيها دم من قطع رأسه.

وَبِتُّ أَوَامِرُ هَذِهِ النَّفْسِ فِي قَتْلِهَا وَأَحَدْتُهَا حَدِيثَ الْمَوْتِ، فَسَدَدْتُ رَأْيِي فِيهِ وَقَالَتْ: مَا تَصْنَعُ بِجِسْمٍ كَالْمَتَعَفَّنِ أَصْبَحَ كَالْمَقْبُورِ لَا أَيَّامَ لَهُ إِلَّا أَيَّامُ أَنْقِرَاضِهِ وَتَفْتِيْتُهُ؟ بَيِّدْ أَنِّي ذَكَرْتُ كَلَامَ (الشَّعْبِيِّ) فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَأَنَا أَحْفَظُهُ كُلَّهُ، فَجَعَلْتُ أَهْذُهُ^(١) مَا أَتْرَكُ مِنْهُ حَرْفًا، وَأَتَّخَذْتُهُ مَتَكَلِّمًا مَعَ نَفْسِي لَا كَلَامًا، كُنْتُ كُلَّمَا غَلَبَنِي الضَّعْفُ رَفَعْتُ بِهِ صَوْتِي وَأَصْغَيْتُ كَمَا أَصْغِي إِلَى إِنْسَانٍ يُكَلِّمُنِي فَرَأَيْتُ الشَّيْطَانَ بَعْدَ ذَلِكَ كَاللَّصِّ إِذَا طَمَعَ فِي رَجُلٍ ضَعِيفٍ مُنْفَرِدٍ، ثُمَّ لَمَّا جَاءَهُ وَجَدَ مَعَهُ رَجُلًا ثَانِيًا قَوِيًّا فَهَرَبَ!

قال أبو عبيد: ونالني رَوْحٌ مِنْ الْأَاطِمَتَيْنِ وَجَدْتُ لَهُ السَّكِينَةَ فِي قَلْبِي فَنِمْتُ، فَإِذَا الْفَرْغُ الْأَكْبَرُ الَّذِي لَا يَنْسَاهُ مَنْ سَمِعَ بِهِ، فَكَيْفَ الَّذِي رَأَاهُ بَعِينِيهِ؟

رَأَيْتُنِي مَيِّتًا فِي يَدٍ غَاسِلِهِ يُقَلِّبُهُ وَيَغْسِلُهُ كَأَنَّهُ خِرْقَةٌ؛ ثُمَّ حُمِلْتُ عَلَى النَّعْشِ كَأَنَّ الْحَامِلِينَ قَدْ رَفَعُونِي يَقُولُونَ: أَنْظَرُوا أَيُّهَا النَّاسُ كَيْفَ يَصِيرُ النَّاسُ؛ ثُمَّ صَلَّى عَلَيَّ الْإِمَامُ الشَّعْبِيُّ فِي مَسْجِدِ الْكُوفَةِ، ثُمَّ دُلِّيتُ فِي قَعْرِ مُظْلِمَةٍ وَهَيْلِ التَّرَابِ عَلَيَّ، وَتَرَكْتُ وَحِيدًا وَأَنْصَرَفُوا!

وما أدري كم بقيتُ على ذلك ثُمَّ رَأَيْتُ كَأَنَّمَا تُفَخَّحُ فِي الصُّورِ^(٢) وَبُغِثَرِ الْأَمَوَاتِ جَمِيعًا، فِطْرُنَا فِي الْفَضَاءِ، وَكَانَتْ الْأَنْجُومُ غِبَارًا حَوْلَنَا كَثْرَابِ الْعَاصِفَةِ فِي الْعَاصِفَةِ؛ وَإِذَا نَحْنُ فِي عَرَصَاتِ الْقِيَامَةِ وَفِي هَوْلِ الْمَوْقِفِ!

وَتَوَجَّهْتُ بِكُلِّ شَعْرَةٍ فِي جِسْمِي إِلَى الرَّجَاءِ فِي رَحْمَةِ اللَّهِ؛ وَرَأَيْتُ أَعْمَالِي رُؤْيَا أَحْزَنْتَنِي، فَهِيَ كَمَدِينَةٍ عَظِيمَةٍ كُلُّ أَهْلِهَا صَعَالِيكَ إِلَّا قَلِيلًا مِنَ الْمُسْتَوْرِينَ، أَرَى مِنْهُمْ الْوَاحِدَ بَعْدَ الْوَاحِدِ فِي السَّاعَةِ بَعْدَ السَّاعَةِ نَذَرُوا وَتَبَعَثُوا وَضَاعُوا كَأَعْمَالِي الصَّالِحَةِ!

وَذَكَرْتُ أَنِّي كِدْتُ أَقْتُلُ نَفْسِي فِرَارًا بِهَا مِنَ الْعُمْرِ الْمَوْلَمِ؛ فَنَظَرْتُ فَإِذَا الزَّمَنُ قَدْ ظَهَرَ فِي أَبْدِيَّتِي، وَرَجَعَ الْمَاضِي حَاضِرًا بِكُلِّ مَا حَوَى كَأَنَّهُ لَمْ يَمُضْ، وَإِذَا عَمْرِي كُلُّهُ لَا يَكَادُ يَبْلُغُ طُرْفَةَ عَيْنٍ مِنْ دَهْرٍ طَوِيلٍ، فَحَمَدْتُ اللَّهَ أَنِّي لَمْ أَفْتِدِ الْمَ الْلَحْظَةَ الْقَصِيرَةَ الْقَصِيرَةَ، بَعْدَ الْأَبَدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ الْخَالِدِ.

وَجِيءَ عَلَى أَعْيُنِ الْخَلْقِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا وَأَكْثَرِهِمْ لَذَاتٍ فِي تَارِيخِ الدُّنْيَا كُلِّهِ، فَصَاحَ صَائِحٌ: هَذَا أَنْعَمُ مَنْ كَانَ عَلَى الْأَرْضِ مِنْذُ خَلَقَهَا اللَّهُ إِلَى أَنْ طَوَاهَا. ثُمَّ غُمِسَ هَذَا الْمَنْعَمُ فِي النَّارِ غَمْسَةً خَفِيفَةً كَنَبْضَةِ الْبِرْقِ، وَأُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ،

(١) أَهْذُهُ: أَسْرَعَ فِي قِرَاءَتِهِ.

(٢) الصُّور: الْبُوق.

وقيلَ لَهُ والناسُ جميعاً يسمعون: هل دُفَّتَ نعيماً قط؟ قال: لا - والله - .

ثُمَّ جِيءَ بِأَتْعَسِ أَهْلِ الْأَرْضِ وَأَشَدَّهُمْ بُؤْساً مِنْذُ خُلِقَتِ الْأَرْضُ، فَعُمِسَ فِي
الْجَنَّةِ غَمْسَةً أَسْرَعَ مِنَ النِّسِيمِ تَحْرُكٌ وَمَرٌّ، ثُمَّ أُخْرِجَ إِلَى الْمَحْشَرِ وَقِيلَ لَهُ: هل
دُفَّتَ بُؤْساً قط؟ قال: لا - والله - .

وسمعتنا شهيقَ جهنم وهي تفورُ تكادُ تَمِيْزُ مِنَ الْغَيْظِ؛ فَأَيَقُنْتُ أَنَّ لَهَا نَفْساً
خُلِقَتْ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. وَخَرَجَ مِنْهَا عُنُقٌ عَظِيمٌ هَائِلٌ، لَوْ تَضَرَّعَتْ^(١) أَلْسِمَاءُ كُلُّهَا
نَاراً لِأَشْبَهَتْهُ، فَجَعَلَ يَلْتَقِطُ صِنْفاً صِنْفاً مِنَ الْخَلْقِ، وَبَدَأَ بِالْمُلُوكِ الْجَبَابِرَةِ فَالْتَقَطَهُمْ
مَرَّةً وَاحِدَةً كَالْمَغْنَطِيسِ لِثَرَابِ الْحَدِيدِ؛ وَقَذَفَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ؛ ثُمَّ أَنْبَعَثَ فَالْتَقَطَ
الْأَغْنِيَاءَ الْمُفْسِدِينَ فَطَارَهُمْ إِلَيْهَا؛ ثُمَّ جَعَلَ يَأْخُذُ قَوْماً قَوْماً، وَقَدْ الْجَمْنِي الْعِرْقُ مِنَ
الْفَزَعِ؛ ثُمَّ طَرَزْتُ أَنَا فِيهِ، وَنَظَرْتُ، فَإِذَا أَنَا مُخْتَبِسٌ فِي مُظْلَمَةٍ نَارِيَّةٍ كَالْهَآوِيَةِ، لَيْسَ
حَوْلِي فِيهَا إِلَّا قَاتِلُو أَنْفُسِهِمْ. وَلَوْ أَنَّ بِحَارِ الْأَرْضِ جُعِلَ فِيهَا الْبَحْرُ فَوْقَ الْبَحْرِ فَوْقَ
الْبَحْرِ، إِلَى أَنْ تَجْتَمَعَ كُلُّهَا فَيَكُونَ الْعَمَقُ كَبَعْدِ مَا بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، ثُمَّ
تُسَجَّرُ^(٢) نَاراً تَلْطِئُ، لَكَانَتْ هِيَ الْهَآوِيَةُ الَّتِي نَحْنُ فِي أَعْمَاقِهَا؛ وَكُنْتُ سَمِعْتُ مِنْ
إِمَامِنَا الشَّعْبِيِّ: أَنَّ عَصَاةَ الْمُؤْمِنِينَ الْمُؤَحِّدِينَ إِذَا مَاتُوا عَلَى إِيْمَانِهِمْ كَانُوا فِي النَّارِ
أَحْيَاءَ وَجَوَارِحُهُمْ مَوْتَى؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْجَوَارِحَ قَدْ أَطَاعَتِ اللَّهَ وَسَبَّحَتْهُ فَكُرِّمَتْ بِذَلِكَ
حَتَّى عَلَى جَهَنَّمَ، ثُمَّ يَعَذَّبُونَ عَذَاباً فِيهِ الرَّحْمَةُ، ثُمَّ يُخْرَجُونَ وَيَنْتَظِرُهُمْ إِيْمَانُهُمْ
عَلَى بَابِ النَّارِ، فَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَتَلَ نَفْسَهُ، فَسَمِعَ قَائِلاً مِنْ بَعِيدٍ يَقُولُ
لِمُؤْمِنٍ: أَخْرِجْ فَإِنَّ إِيْمَانَكَ يَنْتَظِرُكَ. فَصَاحَ الَّذِي إِلَى جَانِبِي: وَأَنَا، أَفَلَا يَنْتَظِرُنِي
إِيْمَانِي؟ فَقِيلَ لَهُ: وَهَلْ جِئْتَ بِهِ؟

ورأيتُ رجلاً دَبَحَ نَفْسَهُ يُرِيدُ أَنْ يَصْرَحَ يَسْأَلُ اللَّهَ الرَّحْمَةَ، فَلَا يَخْرُجُ الصَّوْتُ
مِنْ خَلْقِهِ، إِذْ كَانَ قَدْ قَرَأَهُ وَبَقِيَ مَفْرِيئاً! وَأَبْصَرْتُ آخَرَ قَدْ طَعَنَ فِي قَلْبِهِ بِمِدْيَةٍ، فَهُوَ
هَنَّاكَ تَسْلُخُ الزَّبَانِيَّةَ قَلْبُهُ تَبَحُّثُ هَلْ فِيهِ نِيَّةٌ صَالِحَةٌ، فَلَا تَزَالُ تَسْلُخُ وَلَا تَزَالُ تَبْحَثُ!
ورأيتُ آخَرَ كَانَ تَحَسَّى^(٣) مِنَ السَّمِّ فَمَاتَ ظِمَانٌ يَتَلَطَّى^(٤) جَوْفُهُ، فَلَا تَزَالُ
تَنْشَأُ لَهُ فِي النَّارِ سَحَابَةٌ رَوِيَّةٌ تَبْرُقُ بِالمَاءِ، فَإِذَا دَنَتْ مِنْهُ وَرَجَاها، أَنْفَجَرَتْ عَلَيْهِ
بِالصَّوَاعِقِ ثُمَّ عَادَتْ تَنْشَأُ وَتَنْفَجِرُ!

(١) تَضَرَّعَتْ: شَرِبَ.

(٢) تَسَجَّرُ: يَشْتَعِلُ.

(٣) تَحَسَّى: اشْتَدَّ اشْتَعَالُهَا.

(٤) يَتَلَطَّى: يَشْتَعِلُ.

وقال رجل: إنما كنتُ مجنوناً ضعيفاً عاجزاً فأزهقتُ نفسي. فنودي: أو ما علمتُ أن الله يُحاسبُك على أنك عاقلٌ لا مجنونٌ، وقويٌّ لا ضعيفٌ، وقادرٌ لا عاجزٌ؟ كنتَ تعقلُ بالأقلِّ أنك ستَموتُ، وكنتَ تقوى على أن تصبرَ، وكنتَ تقدرُ أن تتركَ الشرَّ.

وقال رجلٌ عالمٌ قد حَزَّ في يديه بسكينٍ فمات: «لم يكنِ الكمالُ مِنَ الدنيا ولا في طبيعتها ولا هو شيءٌ يُدرك». فصرخَ فيه صوتٌ رهيبٌ: «ولكن من عَظَمَةِ الكمالِ أنْ أستمرازَ العملِ لَهُ هو إدراكُهُ!».

قال أبو عبيد: ثُمَّ انتصبَ بإزائي شيطانٌ ماردٌ أحمر، يلتمعُ التماعَ الزجاجَ فيه الخمر، فقامَ في وجهي وقال: بماذا جئتَ إلى هنا يا عدوَّ الخمر؟ فما كانَ إلا أن سمعتُ النداء: شَفَعْتَ فيكَ الخمرُ التي لم تشربها، أخرج، إنَّ إيمانَكَ ينتظركُ.

فصُحَّت: الحمدُ لِلَّهِ! وتحركَ بها لِساني، فانتبهتُ.

لقد علمتُ أنَّ الصبرَ على المصائبِ نعمةٌ كبرى لا يُنعمُ اللَّهُ بها إلا في المصائبِ.

وحي القبور

ذهبتُ في صُبحِ يومِ عيدِ الفطرِ أحملُ نفسي بنفسي إلى المَقْبَرَةِ، وقد ماتَ لي مِنَ الْخَوَاطِرِ مَوْتَى لَا مَيِّتَ وَاحِدٌ؛ فَكُنْتُ أَمْشِي وَفِي جَنَازَةٍ بِمُشِيعِهَا^(١)؛ مِنْ فِكْرٍ يَحْمِلُ فِكْرًا، وَخَاطِرٍ يَتَّبِعُ خَاطِرًا، وَمَعْنَى يَبْكِي، وَمَعْنَى يُبْكِي عَلَيْهِ.

وكذلك دأبي^(٢) كُلَّمَا أَنْحَدَزْتُ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ إِلَى ذَلِكَ الْمَكَانِ الَّذِي تَأْتِيهِ الْعَيُونُ بِدُمُوعِهَا، وَتَمْشِي إِلَيْهِ الْنفُوسُ بِأَحْزَانِهَا، وَتَجِيءُ فِيهِ الْقُلُوبُ إِلَى بَقَايَا. تِلْكَ الْمَقَابِرُ الَّتِي لَا يَتَأَدَّى أَهْلُهَا مِنْ أَهْلِيهِمْ بِالْأَسْمَاءِ وَلَا بِالْأَلْقَابِ، وَلَكِنْ بِهَذَا النِّدَاءِ: يَا أَحِبَّائَنَا، يَا أَحْزَانَنَا!

ذهبتُ أَزُورُ أَمْوَاتِي الْأَعْزَاءَ وَأَتَّصِلُ مِنْهُمْ بِأَطْرَافِ نَفْسِي، لِأَحْيَا مَعَهُمْ فِي الْمَوْتِ سَاعَةً أَغْرَضُ فِيهَا أَمْرَ الدُّنْيَا عَلَى أَمْرِ الْآخِرَةِ، فَأَنْسَى وَأَذْكَرُ، ثُمَّ أَنْظُرُ وَأَعْتَبِرُ، ثُمَّ أَتَعَرَّفُ وَأَتَوَسَّمُ^(٣)، ثُمَّ أَسْتَنْبِطُنُ مِمَّا فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، وَأَسْتَظْهَرُ مِمَّا عَلَى ظَهْرِهَا.

وَجَلَسْتُ هُنَاكَ أَشْرِفُ مِنْ دَهْرٍ عَلَى دَهْرٍ، وَمِنْ دُنْيَا عَلَى دُنْيَا، وَأَخْرَجْتُ الذِّكْرَةَ أَفْرَاحَهَا الْقَدِيمَةَ لِتَجْعَلَهَا مَادَّةً جَدِيدَةً لِأَحْزَانِهَا؛ وَأَنْفَتَحَ لِي الْزَمَنُ الْمَاضِي فَرَأَيْتُ رَجْعَةَ الْأَمْسِ، وَكَأَنَّ دَهْرًا كَامِلًا خُلِقَ بِحَوَادِثِهِ وَأَيَّامِهِ، وَرُفِعَ لِعَيْنِي كَمَا تُرْفَعُ الصُّورَةُ الْمَمْلُوقَةُ فِي إِطَارِهَا.

أَعْرِفُ أَنَّهُمْ مَاتُوا، وَلَكِنِّي لَمْ أَشْعُرْ قَطُّ إِلَّا أَنَّهُمْ غَابُوا؛ وَالْحَبِيبُ الْغَائِبُ لَا يَتَغَيَّرُ عَلَيْهِ الزَّمَانُ وَلَا الْمَكَانُ فِي الْقَلْبِ الَّذِي يُحِبُّهُ مَهْمَا تَرَاخَتْ بِهِ الْأَيَّامُ^(٤)؛ وَهَذِهِ هِيَ بَقِيَّةُ الْרוْحِ إِذَا أَمْتَزَجَتْ بِالْحُبِّ فِي رُوحٍ أُخْرَى: تَتْرُكُ فِيهَا مَا لَا يُمَحَى لِأَنَّهَا هِيَ خَالِدَةٌ لَا تُمَحَى.

ذَهَبَ الْأَمْوَاتُ ذَهَابَهُمْ وَلَمْ يُقِيمُوا فِي الدُّنْيَا؛ وَمَعْنَى ذَلِكَ أَنَّهُمْ مَرُّوا بِالدُّنْيَا

(١) مشيعها: مرافقها.

(٣) توسَّم: استطلع.

(٢) دأبي: بسكون الهمزة: عادتني.

(٤) تراخت به الأيام: امتدت.

ليس غير، فهذه هي الحياة حين تُعبّر عنها النفس بلسانها لا بلسان حاجتها وحرصها.

الحياة مدة عمل، وكأنّ هذه الدنيا بكلّ ما فيها من المتناقضات، إنّ هي إلاّ مَصْنَعٌ يُسَوِّغُ كُلَّ إنسانٍ جانباً منه، ثُمَّ يُقالُ له: هذه الأداة فأصنع ما شئت، فضيلتك أو رذيلتك.

*** (١)

جلستُ في المقبرة، وأطرقتُ أفكُرُ في هذا الموت. يا عجباً للناس! كيف لا يستشعرونه وهو يهدم من كلّ حيّ أجزاء تُحيطُ به قبل أن يهدمه هو بجمليته؛ وما زال كلُّ بُنيانٍ مِنَ الناسِ به كالحائطِ المُسلّطِ عليه خرابه، يتأكّل من هنا ويتناثر من هناك؟!

يا عجباً للناس عجباً لا ينتهي! كيف يجعلون الحياة مدة نزاع وهي مدة عمل، وكيف لا تبرح تنزّو النوازي بهم في الخلاف والباطل، وهم كلّما تدافعوا بينهم قضية من النزاع فضربوا خضماً بخضم وردّوا كيّداً بكيد، جاء حكم الموت تكدياً قاطعاً لِكُلِّ مَنْ يقولُ لشيءٍ: هذا لي؟

أما - والله - إنّهُ ليس أعجبُ في السخرية بهذه الدنيا من أن يُعطى الناس ما يملكونه فيها لإثبات أن أحداً منهم لا يملك منها شيئاً، إذ يأتي الآتي إليها لحماً وعظماً، ولا يرجع عنها الراجع إلاّ لحماً وعظماً، وبينهما سفاهة العظم واللحم حتى على السكّين القاطعة....

تأتي الأيام وهي في الحقيقة تفرّ فرازها؛ فمن جاء من عمره عشرون سنة فإنما مضت هذه العشرون من عمره. ولقد كان ينبغي أن تُصحّ أعمال الحياة في الناس على هذا الأصل البين، لولا الطباع المدخولة والنفوس الغافلة، والعقول الضعيفة، والشهوات العارمة؛ فإنّه ما دام العمر مُقبلاً مُذبراً في اعتبار واحد، فليس للإنسان أن يتناول من الدنيا إلاّ ما يرضيه محسوباً له ومحسوباً عليه في وقتٍ معاً؛ وتكون الحياة في حقيقتها ليست شيئاً إلاّ أن يكون الضمير الإنساني هو الحيّ في الحيّ.

وما هي هذه القبور؟ لقد رجعت عند أكثر الناس مع الموتى أبنية ميتة؛ فما

(١) يقصد إنسانية الحياة.

قط رأوها موجودة إلا لينسوا أنها موجودة؛ ولولا ذلك من أمرهم لكان للقبر معناه الحي المتغلغل في الحياة إلى بعيد؛ فما القبر إلا بناء قائم لفكرة النهاية والانتقطاع؛ وهو في الطرف الآخر رد على البيت الذي هو بناء قائم لفكرة البدء والاستمرار؛ وبين الطرفين المعبّد وهو بناء لفكرة الضمير الذي يحيا في البيت وفي القبر، فهو على الحياة والموت كالقاضي بين خصمين يصلح بينهما صلحاً أو يقضي.

القبر كلمة الصديق مبنية متجسمة، فكل ما حولها يتكذب ويتأول، وليس فيها هي إلا معناها لا يدخله كذب ولا يعتريه تأويل. وإذا ماتت في الأحياء كلمة الموت من غرور أو باطل أو غفلة أو أثر، بقي القبر مذكراً بالكلمة شارحاً لها بأظهر معانيها، داعياً إلى الاعتبار بمدلولها، مبيّناً بما ينطوي عليه أن الأمر كله للنهاية.

القبر كلمة الأرض لمن يندفع فيرى العمر الماضي كأنه غير ماض، فيعمل في إفراغ حياته من الحياة بما يملؤها من رذائله وخسائسه؛ فلا يزال دائماً في معاني الأرض وأستجماعها. والاستمتاع بها، يتلو في ذلك تلو الحيوان ويقتأس به، فشريعتُه جوفه وأعضاؤه؛ وترجع بذلك حيوانيته مع نفسه الروحانية، كالحمار مع الذي يملكه ويعلفه، ولو سئل الحمار عن صاحبه من هو؟ لقال: هو حماري...

القبر على الأرض كلمة مكتوبة في الأرض إلى آخر الدنيا، معناها أن الإنسان حي في قانون نهايته، فلينظر كيف ينتهي.

* * *

إذا كان الأمر كله للنهاية، وكان الاعتبار بها والجزاء عليها، فالحياة هي الحياة على طريقة السلامة لا غيرها؛ طريقة إكراه الحيوان الإنساني على ممارسة الأخلاقية الاجتماعية، وجعلها أصلاً في طباعه، ووزن أعماله بنتائجها التي تنتهي بها، إذ كانت روحانيته في النهايات لا في بداياتها.

في الحياة الدنيا يكون الإنسان ذاتاً تعمل أعمالها؛ فإذا انتهت الحياة أنقَلَبَتْ أعمال الإنسان ذاتاً يخلد هو فيها؛ فهو من الخير خالداً في الخير، ومن الشر هو خالداً في الشر؛ فكان الموت إن هو إلا ميلاد للروح من أعمالها؛ تولد مرتين: آتية وراجعة.

وإذا كان الأمر للنهاية فقد وجب أن تبطل من الحياة نهايات كثيرة، فلا يترك

الشرُّ يمضي إلى نهايته بل يُخَسِّم في بَذْئِهِ ويُقْتَلُ في أولِ أنفاسِهِ، وكذلك الشأنُ في كلِّ ما لا يَحْسُنُ أن يُبدأ، فإنَّهُ لا يجوزُ أن يمتدَّ: كالعداوةِ والبغضاءِ، والبخلِ والأثرةِ، والكِبَرِيَاءِ والغرورِ، والخِداعِ والكذبِ؛ وما شابهَ هذه أو شابهَهَا، فإنَّهَا كَلَّهَا أَنْبَعَاثٌ مِنَ الوجودِ الحيوانيِّ وأنفجارٌ من طبيعَتِهِ؛ ويجبُ أن يكونَ لِكُلِّ منها في الإرادةِ قَبْرٌ كي تَسْلَمَ لِلنفسِ الطيبةِ إنسانيتها إلى النهايةِ.

يا مَنْ لَهم في القُبورِ أموات! إنَّ رؤيةَ القبرِ زيادةٌ في الشعورِ بقيمةِ الحياةِ، فيجبُ أن يكونَ معنى القبرِ من معاني السَّلامِ العَقْلِيِّ في هذه الدنيا.

القبرُ فَمُ يُنادي: أسرعوا أسرعوا، فهي مدَّةٌ لو صُرِّفَتْ كُلُّهَا في الخيرِ ما وَفَّتْ به؛ فكيف يَضِيعُ منها ضياعٌ في الشرِّ أو الإثمِ؟ لو وُلِدَ الإنسانُ ومشى وأيقَعَ وشبَّ وأكْتَهِلَ وهَرِمَ في يومٍ واحدٍ، فما عساهُ كانَ يُضِيعُ من هذا اليومِ الواحدِ؟ إنَّ أطولَ الأعمارِ لا يراهُ صاحِبُهُ في ساعةٍ موتهِ إِلَّا أقصرَ من يومٍ.

يُنادي القبرُ: أصلِحوا عيوبَكم، وعليكم وقتٌ لإصلاحِها؛ فإنَّهَا إنْ جاءتْ إلى هنا كما هي، بقيتْ كما هي إلى الأبدِ، وتركها أَلَوَقْتُ وهرب.

هنا قبر، وهناك قبر، وهنالك القبرُ أيضاً؛ فليسَ ينظرُ في هذا عاقلٌ إِلَّا كانَ نظرهُ كأنَّهُ حَكَمٌ محكمةٌ على هذه الحياةِ كيفَ تنبغي وكيف تكون.

في القبرِ معنى إلغاءِ الزمانِ، فَمَنْ يفهمُ هذا أستطاعَ أن ينتصرَ على أيَّامِهِ، وأن يُسَقِطَ منها أوقاتَ الشرِّ والإثمِ، وأن يُمِيتَ في نفسِهِ خواطرَ السَّوءِ؛ فَمِنْ معاني القبرِ ينشأُ لِلإرادةِ عَقْلُها القويُّ الثَّابِتُ؛ وكلُّ الأيامِ المكروهَةِ لا تجدُ لها مكاناً في زمنِ هذا العقلِ، كما لا يجدُ الليلُ محلاً في ساعاتِ الشَّمْسِ.

ثلاثةُ أرواحٍ لا تَصْلُحُ رُوحُ الإنسانِ في الأرضِ إِلَّا بها:

روحُ الطَّبيعَةِ في جمالِها، وروحُ المَعْبَدِ في طهارَتِهِ، وروحُ القبرِ في

موعظَتِهِ.

عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرها

١

كَانَ عَمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ تُسَمَّى أَيَّامًا.

كَانَ عَمْرُهَا طَاقَةً أَزْهَارٍ يَنْتَسِقُ فِيهِ الْيَوْمُ بَعْدَ الْيَوْمِ كَمَا تَنْبُتُ الْوَرَقَةُ النَّاعِمَةُ فِي الزَّهْرَةِ إِلَى وَرَقَةٍ نَاعِمَةٍ مِثْلِهَا.

أَيَّامُ الصَّبَا الْمَرِحَةِ حَتَّى فِي أَحْزَانِهَا وَهَمُومِهَا؛ إِذْ كَانَ مَجِيئُهَا مِنَ الزَّمَنِ الَّذِي خُصَّ بِشَبَابِ الْقَلْبِ، تَبْدُو الْأَشْيَاءُ فِي مَجَارِي أَحْكَامِهَا كَالْمَسْحُورَةِ؛ فَإِنْ كَانَتْ مُفْرِحَةً جَاءَتْ حَامِلَةً فَرَحَيْنِ، وَإِنْ كَانَتْ مُخْزَنَةً جَاءَتْ بِنَصْفِ الْحُزْنِ.

تِلْكَ الْأَيَّامُ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا الطَّبِيعَةُ لِشَبَابِ الْجِسْمِ بِقُوَى مُخْتَلِفَةٍ: مِنْهَا الشَّمْسُ وَالْهَوَاءُ وَالْحَرَكَةُ، وَمِنْهَا الْفَرَحُ وَالنَّسْيَانُ وَالْأَحْلَامُ!.

وَشَبَّتِ الْعُذْرَاءُ وَأَفْرَعَتْ فِي قَالِبِ الْأَنْوَةِ الشَّمْسِيِّ الْقَمَرِيِّ، وَاكْتَسَى وَجْهُهَا دِيبَاجَةً^(١) مِنَ الزَّهْرِ الْغَضِّ^(٢)، وَأَوْدَعَتْهَا الطَّبِيعَةُ سِرَّهَا النَّسَائِيَّ الَّذِي يَجْعَلُ الْعُذْرَاءَ فَنَّ جَمَالٍ لِأَنْهَا فَنُّ حَيَاةٍ، وَجَعَلَتْهَا تِمَثَالًا لِلظَّرْفِ: وَمَا أَعْجَبَ سِحْرَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَ مَا تُجَمِّلُ الْعُذْرَاءَ بِظَرْفِ كَظْرِفِ الْأَطْفَالِ الَّذِينَ سَتَلِدُهُمْ مِنْ بَعْدِ! وَأَسْبَغَتْ^(٣) عَلَيْهَا مَعَانِي الرِّقَّةِ وَالْحَنَانِ وَجَمَالَ النَّفْسِ؛ وَمَا أَكْرَمَ يَدَ الطَّبِيعَةِ عِنْدَ مَا تَمَهَّرُ الْعُذْرَاءُ مِنْ هَذِهِ الْأَصْفَاتِ مَهَرَهَا الْإِنْسَانِي!

وَحُطِبَتْ الْعُذْرَاءُ لِزَوْجِهَا، وَعُقِدَ لَهُ عَلَيْهَا فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ مِنْ شَهْرِ مَارَسَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ بَعْدَ الظَّهْرِ.

(١) ديباجة: بشرة.

(٢) الغض: الطريء.

(٣) أسبغت: أعطت وشملت.

وماتت عذراء بعد ثلاث سنين، وأنزلت إلى قبرها في اليوم الثالث من شهر
مارس في الساعة الخامسة بعد الظهر!
وكانت السنوات الثلاث عمر قلب يقطع المرض، ينتظرون به العرس،
وينتظر بنفسه الرأس!
يا عجائب القدر! أذاك لحن موسيقي لأين استمر ثلاث سنوات، فجاء آخره
موزوناً بأوله في ضبط ودقة؟
أكانت تلك العذراء تحمل سرّاً عظيماً سيغير الدنيا، فردت الدنيا عليها يوم
التهنئة والابتسام والزينة، فإذا هو يوم الولولة^(١) والدموع والكفن؟

٢

واهاً لك أيها الزمن! من الذي يفهمك وأنت مدة أقدار؟
واليوم الواحد على الدنيا هو أيام مختلفة بعدد أهل الدنيا جميعاً، وبهذا يعود
لكل مخلوق سر يومه، كما أن لكل مخلوق سر روحه، وليس إليه لا هذا ولا
هذا.
وفي اليوم الزمني الواحد أربعمائة مليون يوم إنساني على الأرض! ومع ذلك
يحصيه عقل الإنسان أربعاً وعشرين ساعة؛ يا للغاوة...!
وكل إنسان لا يتعلّق من الحياة إلا بالشعاع الذي يضيء المكان المظلم في
قلبه، والشمس بما طلعت عليه لا تستطيع أن تُنير القلب الذي لا يضيئه إلا وجه
محبوب.
وفي الحياة أشياء مكذوبة تُكبر الدنيا وتُصغر النفس، وفي الحياة أشياء
حقيقية تُعظم بالنفس وتُصغر بالدنيا؛ وذَهَبُ الأرض كله فقرٌ مُدقع حين تكون
المعاملة مع القلب.

أيُّها الدنيا؛ هذا تحقيرك الإلهي إذا أكبرك الإنسان!

(١) الولولة: العويل والبكاء.

ويا عَجَباً لأهل السوءِ الْمُغْتَرِّينَ بحياةٍ لا بدَّ أن تنتهي! فماذا يرتقبونَ إلا أن تنتهي؟ حياةٌ عجيبةٌ غامضةٌ؛ وهل أعجبُ وأغمضُ من أن يكونَ انتهاءُ الإنسانِ إلى آخرها هو أوَّلُ فكرِهِ في حقيقتها؟

فَإِذَا مَا تَحِينُ الدَّقَائِقُ الْمَعْدُودَةُ الَّتِي لَا تَرُقُّمُهَا السَّاعَةُ وَلَكِنْ يَرْقُمُهَا صَدْرُ الْمُخْتَضِرِ^(١)... عِنْدَ مَا يَكُونُ مُلْكُ الْمُلُوكِ جَمِيعاً كَالْتِرَابِ لَا يَشْتَرِي شَيْئاً أَلَبَّةً...

.... ماذا يكونُ أيُّها المجرمُ بعدَها تَقَرَّفُ الْجَنَايَةِ، وَيَقُومُ عَلَيْكَ الدَّلِيلُ، وَتَرَى حَوْلَكَ الْجُنْدَ وَالْقُضَاةَ، وَتَقِفُ أَمَامَكَ الشَّرِيعَةُ وَالْعَدْلُ؟

أَعْمَالُنَا فِي الْحَيَاةِ هِيَ وَحْدَهَا الْحَيَاةُ، لَا أَعْمَارُنَا، وَلَا حُظُوظُنَا. وَلَا قِيَمَةٌ لِلْمَالِ، أَوْ أَلْجَاهِ، أَوْ أَلْعَافِيَةِ، أَوْ هِيَ مَعاً - إِذَا سُلِبَ صَاحِبُهَا الْأَمْنُ وَالْقَرَارُ! وَالْأَمْنُ فِي الدُّنْيَا مَنْ لَمْ تَكُنْ وَرَاءَهُ جَرِيمَةٌ لَا تَزَالُ تَجْرِي وَرَاءَهُ. وَالسَّعِيدُ فِي الْآخِرَةِ مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ جَرِيمَةٌ تُطَارِدُهُ وَهُوَ فِي السَّمَاوَاتِ.

كَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ تَخْدَعُ أَلَالَةُ صَاحِبِهَا وَفِيهَا (الْعَدَاةُ): مَا تَتَحَرَّكُ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَّا أَشْعَرَتْهُ فَعَدَّاهَا؟ وَكَيْفَ يُمَكِّنُ أَنْ يَكْذِبَ الْإِنْسَانُ رَبَّهُ وَفِيهِ الْقَلْبُ: مَا يَعْمَلُ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا أَشْعَرَهُ فَعَدَّهُ؟

٣

وَرَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ.

أَفَرَأَيْتَ أَنْتَ الْغِنَى عِنْدَ مَا يُذْبِرُ عَنْ إِنْسَانٍ لِيَتْرَكَ لَهُ الْحَسْرَةَ وَالذِّكْرَى الْأَلِيْمَةَ؟ أَرَأَيْتَ الْحَقَائِقَ الْجَمِيلَةَ تَذْهَبُ عَنْ أَهْلِهَا فَلَا تَتْرَكَ لَهُمْ إِلَّا الْأَحْلَامَ بِهَا؟ مَا أَتَعَبَ الْإِنْسَانَ حِينَ تَتَحَوَّلُ الْحَيَاةُ عَنْ جَسَمِهِ إِلَى الْإِقَامَةِ فِي فِكْرِهِ!

وَمَا هِيَ الْهَمُومُ وَالْأَمْرَاضُ؟ هِيَ الْقَبْرُ يَسْتَبْطِئُ صَاحِبَهُ أحياناً فَيَنْفَضُ فِي بَعْضِ أَيَّامِهِ شَيْئاً مِنْ تَرَابِهِ....!

رَأَيْتُ الْعُرُوسَ قَبْلَ مَوْتِهَا بِأَيَّامٍ، فَيَالِلَهُ مِنْ أَسْرَارِ الْمَوْتِ وَرَهْبَتِهَا! فَرَعَ

(١) المحتضر: المنازع سكرات الموت.

جسْمُها كما فَرَعَتْ عنْهَا الأشياءُ من معانيها! وتخلَّى هذا الجسْمُ عن مكانِهِ لِلرُّوحِ
تَظْهَرُ لِأَهْلِها وتَقِفُ بَيْنَهُم وَفَقَّةَ الْوَدَاعِ!

وتحوَّلَ الزَّمَنُ إلى فِكْرِ الْمَرِيضَةِ؛ فلم تَعُدْ تعيشُ في نهارٍ وليلٍ، بل في فِكْرِ
مُضِيِّ أو فِكْرِ مَظْلَمٍ!

يا إلهي! ما هذا الجِسمُ المتهدِّمُ الْمُقْبِلُ على الآخرة؛ أهو تمثالٌ بَطَلَ تعبيرُهُ،
أم تمثالٌ بدأ تعبيرُهُ؟

لقد وثَّقتُ أَنَّهُ الموتُ، فكانَ فِكْرُها الإلهيُّ هو الَّذي يتكلَّمُ؛ وكانَ وجهُها كوجهِ
العابد: عليه طَيْفُ الصَّلَاةِ ونورُها. والروحُ الإنسانيةُ متى عبَّرتْ لا تُعبِّرُ إِلَّا بالوجهِ.

ولها ابتسامةٌ غريبةٌ الجمالِ؛ إذ هي ابتسامةُ آلامٍ أيقنَتْ أَنَّها مُوشِكةٌ أنْ تنتهي!
ابتسامةُ روحٍ لها مثلُ فَرَحِ السَّجِينِ قد رأى سَجَانَهُ واقفاً في يَدِهِ الساعةُ يرقُبُ
الدَّيْقَةَ والثَّانِيَةَ ليقولَ له: انْطَلِقْ!

ودخلْتُ أَعُوذُها فرَأْتُ كأَنِّي آتٍ مِنَ الدُّنْيَا...! وَتَنَسَّمْتُ مَنِّي هَوَاءَ الْحَيَاةِ،
كأَنِّي حَديقَةٌ لا شَخْصٌ!

وَمَنْ غَيْرُ الْمَرِيضِ الْمَدْنَفِ^(١)، يَعْرِفُ أَنَّ الدُّنْيَا كَلِمَةٌ لَيْسَ لَهَا مَعْنَى أَبَدًا إِلَّا الْعَاقِبَةُ:
مَنْ غَيْرُ الْمَرِيضِ الْمُشْفَى عَلَى الْمَوْتِ، يَعِيشُ بِقُلُوبِ النَّاسِ الَّذِينَ حَوْلَهُ لَا بِقَلْبِهِ؟
تلكَ حَالَةٌ لا تَنفَعُ فِيهَا الشَّمْسُ وَلَا الْهَوَاءُ وَلَا الطَّبِيعَةُ الْجَمِيلَةُ، وَيَقُومُ مَقَامَ
جَمِيعِهَا لِلْمَرِيضِ أَهْلُهُ وَأَحِبَّاءُهُ!

وكانَ دُؤُوبُها من رَهْبَةِ الْقَدْرِ الدَّانِي كأَنَّهُمْ أُسْرَى حَرْبٍ أَجْلَسُوا تَحْتَ جِدَارٍ
يُرِيدُ أَنْ يَنْقُضَ! وكانتْ قُلُوبُهُمْ من فزعِها تَنْبِضُ نَبْضًا مِثْلَ ضَرْبَاتِ الْمَعَاوِلِ.

وباقْتِرَابِ الْحَبِيبِ الْمُحْتَضَرِّ مِنَ الْمَجْهُولِ، يُصْبِحُ مَنْ يَحِبُّهُ فِي مَجْهُولٍ آخَرَ،
فَتَخْتَلِطُ عَلَيْهِ الْحَيَاةُ بِالْمَوْتِ، وَيَعُودُ فِي مِثْلِ حَيْرَةِ الْمَجْنُونِ حِينَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ الظِّلَّ
الْمُتَحَرِّكَ لِيَمْنَعَهُ أَنْ يَذْهَبَ وَتَعْرُوهُ فِي سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ كَابَةُ عَمْرٍِ كَامِلٍ، تُهَيِّئُ لَهُ جَلَالَ
الْحِسِّ الَّذِي يَشْهَدُ بِهِ جَلَالَ الْمَوْتِ!

(١) المدنف: الشديد المرض.

وحانت ساعة ما لا يفهم، ساعة كل شيء، وهي ساعة ألاشيء في العقل
الإنساني! فالتفتت العروس لأبيها تقول: «لا تحزن يا أبي...» ولأمها تقول: «لا
تحزني يا أمي...!».

وتبسمت للدموع كأنما تحاول أن تكلمها هي أيضاً؛ تقول لها: «لا
تبكي...!» وأشفقت على أحيائها وهي تموت، فاستجمعت روحها ليبقى وجهها
حيًا من أجلهم بضع دقائق! وقالت: «سأغادركم مبتسمة فيعيشوا مبتسمين، سأترك
تذكاري بينكم تذكارة عروس!...».

ثم ذكرت الله وذكروهم به، وقالت: «أشهد أن لا إله إلا الله». وكررتها
عشرًا! وتملاث روحها بالكلمة التي فيها نور السماوات والأرض، ونطقت من
حقيقة قلبها بالاسم الأعظم الذي يجعل النفس منيرة تتلألأ حتى وهي في أحزانها.
ثم استقبلت خالق الرحمة في الآباء والأمهات وفي مثل إشارة وداع من
مسافر أبعت به القطار، ألقت إليهم تحية من ابتسامتها وأسلمت الروح!

٤

يا لعجائب القدر! مشينًا في جنازة العروس التي تُزف إلى قبرها طاهرة
كالطفلة ولم يبارك لها أحد! فما جاوزنا ألدار إلا قليلاً حتى أبصرت على حائط في
الطريق إعلاناً قديماً بالخط الكبير الذي يصيح للأعين؛ إعلاناً قديماً عن (رواية)
هذا هو اسمها: «مبروك...!».

وأخترقنا المدينة وأنا أنظر وأتقصي^(١)، فلم أر هذا الإعلان مرة أخرى!
وأخترقنا المدينة كلها، فلما أنقطع العمران وأشرفنا على المقبرة، إذا آخر حائط
عليه الإعلان: «مبروك...!»

(١) أتقصي: أبحث.

موتُ أم

رجعتُ مِنَ الْجَنَازَةِ بَعْدَ أَنْ غَبِرْتُ قَدَمَيَّ سَاعَةً فِي الطَّرِيقِ الَّتِي تَرَابُهَا تَرَابٌ وَأَشْعَةٌ، وَكَانَتْ فِي النِّعَشِ لَوْلُؤَةٌ أَدْمِيَّةٌ مُحَطَّمَةٌ، هِيَ زَوْجَةُ صَدِيقِ طَحْطَحَتْنَاهَا^(١) الْأَمْرَاضُ فَفَرَّقَتْهَا بَيْنَ عِلَلِ الْمَوْتِ، وَكَانَ قَلْبُهَا يُحْيِيهَا فَأَخَذَ يُهْلِكُهَا، حَتَّى إِذَا دَنَا أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهَا رَحِمَهَا اللَّهُ فَقَضَى فِيهَا قَضَاءَهُ. وَمَنْ ذَا الَّذِي مَاتَ لَهُ مَرِيضٌ بِالْقَلْبِ وَلَمْ يَرَهُ مِنْ قَلْبِهِ فِي عِلَّتِهِ كَالْعَصْفُورَةِ الَّتِي تَهْتَلِكُ تَحْتَ عَيْنِي ثَعْبَانٍ سَلَّطَ عَلَيْهَا سَمُومَ عَيْنِيهِ!

كَانَتْ الْمَسْكِينَةُ فِي الْخَامِسَةِ وَالْعِشْرِينَ مِنْ سِنِّهَا، أَمَّا قَلْبُهَا فَفِي الثَّمَانِينَ أَوْ فَوْقَ ذَلِكَ؛ هِيَ فِي سِنِّ الشَّبَابِ وَهُوَ مَتَهَدِّمٌ فِي سِنِّ الْمَوْتِ.

وَكَانَتْ فَاضِلَةً تَقِيَّةً صَالِحَةً، لَمْ تَتَعَلَّمْ وَلَكِنْ عَلِمَهَا التَّقْوَى وَالْفَضِيلَةُ. وَأَكْمَلُ النِّسَاءِ عِنْدِي لَيْسَتْ هِيَ الَّتِي مَلَأَتْ عَيْنَيْهَا مِنَ الْكُتُبِ فَهِيَ تَنْظُرُ إِلَى الْحَيَاةِ نَظْرَاتٍ تَحِلُّ مَشَاكِلَ وَتَخْلُقُ مَشَاكِلَ وَلَكِنَّهَا تِلْكَ الَّتِي تَنْظُرُ إِلَى الدُّنْيَا بَعَيْنِ مِتْلَالَةٍ بَنُورِ الْإِيمَانِ تُقَرُّ فِي كُلِّ شَيْءٍ مَعْنَاهُ السَّمَاوِيُّ، فَتُؤْمِنُ بِأَحْزَانِهَا وَأَفْرَاجِهَا مَعًا، وَتَأْخُذُ مَا تُعْطَى مِنْ يَدِ خَالِقِهَا رَحْمَةً مَعْرُوفَةً أَوْ رَحْمَةً مَجْهُولَةً. هَذِهِ عِنْدِي تُسَمَّى أَمْرَأَةً، وَمَعْنَاهَا الْمَعْبُدُ الْقُدْسِيُّ؛ وَتَكُونُ الزَّوْجَةَ، وَمَعْنَاهَا الْقُوَّةُ الْمُسْعِدَةُ؛ وَتَصِيرُ الْأُمَّ، وَمَعْنَاهَا التَّكْمِيلَةُ الْإِلَهِيَّةُ لِصِغَارِهَا وَزَوْجِهَا وَنَفْسِهَا.

وَمَهْمَا تَبْلُغِ الْأَمْرَأَةُ مِنَ الْعِلْمِ فَالْرَجُلُ أَعْظَمُ مِنْهَا بِأَنَّهُ رَجُلٌ، وَلَكِنْ الْأَمْرَأَةُ حَقُّ الْأَمْرَأَةِ هِيَ تِلْكَ الَّتِي خُلِقَتْ لِتَكُونَ لِلرَّجُلِ مَادَّةَ الْفَضِيلَةِ وَالصَّبْرِ وَالْإِيمَانِ، فَتَكُونُ لَهُ وَحْيًا وَإِلْهَامًا وَعِزًّا وَقُوَّةً، أَيْ زِيَادَةً فِي سُرُورِهِ وَنَقْصًا مِنْ آلَامِهِ.

وَلَنْ تَكُونَ الْأَمْرَأَةُ فِي الْحَيَاةِ أَعْظَمَ مِنَ الرَّجُلِ إِلَّا بِشَيْءٍ وَاحِدٍ، هُوَ صِفَاتُهَا الَّتِي تَجْعَلُ رَجُلَهَا أَعْظَمَ مِنْهَا.

(١) طحطحتها: أنهكتها.

ومشيتُ مِنَ الْبَيْتِ الَّذِي أَلْبَسَتْهُ أَلْمِيَّةُ معنى القبر، إلى القبرِ الذي أَلْبَسَ أَلْمِيَّةُ معنى أَلْبَيْت وأنا منذُ مشيتُ في جنازةِ أُمِّي (رحمها الله) لا أَسِيرُ في هذه الطريقِ مَعَ الأحياء، ولكن مَعَ أَلْمَوْتِ، فَاتَّبَعُ مِنَ الْمَيِّتِ صَدِيقاً لَيْسَ رَجُلًا وَلَا أَمْرًا، لَأَنَّهُ مِنْ غَيْرِ هذه الدنيا؛ وَأَمْشِي فِي سَاعَةٍ لَيْسَتْ سَتَيْنَ دَقِيقَةً، لِأَنَّهَا خَرَجَتْ مِنَ الزَّمَنِ؛ وَلَا أَرَى الطَّرِيقَ مِنْ طَرَقِ الْحَيَاةِ، لِأَنَّنِي فِي صُحْبَةِ مَيِّتٍ؛ وَتُصْبِحُ لِلْأَرْضِ فِي رَأْيِي جُغْرَافِيَّةً أُخْرَى عَمِيَ النَّاسُ عَنْهَا لِشِدَّةِ وَضُوحِهَا، كَالْأَلُوْهِيَّةِ خَفِيَتْ مِنْ شِدَّةِ مَا ظَهَرَتْ.

يقولون: إِنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ. أَمَّا أَنَا فَأَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ أَنَّ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِ الْأَرْضِ لَا يَغْمُرُهَا الْبَحْرُ الَّذِي وَصَفُوا، وَلَكِنْ خِصْمٌ آخَرُ زَخَّارٌ^(١) مُتَضَرِّبٌ، هُوَ ذَلِكَ الْبَحْرُ التَّرَابِيُّ الْعَظِيمُ الْمَسْمُومُ «المقبرة».

يقولون: إِنَّ الْحَيَاةَ هِيَ... هِيَ مَاذَا - وَيَحْكُمُ - أَيُّهَا الْمَغْرُورُونَ؛ أَفَلَا تَرَوْنَ هَذِهِ الصَّلَاةَ الدَّائِمَةَ بَيْنَ بَطْنِ الْأُمِّ وَبَطْنِ الْأَرْضِ؟

لَعَمْرِي كَيْفَ تَجْعَلُ هَذِهِ الْحَيَاةَ لِلنَّاسِ قُلُوبًا مَعَ قُلُوبِهِمْ، فَيُحِسُّ الْمَرْءُ بِقَلْبٍ، وَيَعْمَلُ بِقَلْبٍ آخَرَ: يَعْتَقِدُ ضَرَرَ الْكَذِبِ وَيَكْذِبُ، وَيَعْرِفُ مَعَرَّةَ الْإِثْمِ وَيَأْتُمُ، وَيُوقِنُ بِعَاقِبَةِ الْخِيَانَةِ ثُمَّ يَخُونُ؛ وَيَمْضِي فِي الْعَمْرِ مُنْتَهِيًا إِلَى رَبِّهِ، مَا فِي ذَلِكَ شَكٍّ، وَلَكِنَّهُ فِي الطَّرِيقِ لَا يَعْمَلُ إِلَّا عَمَلًا مِنْ قَدَرٍ مِنْ رَبِّهِ...؟

هَبَّتِ الرِّيحُ فِي السَّحَرِ عَلَى رَوْضَةٍ غَنَاءَ فَطَابَتْ لَهَا، فَعَقَدَتْ عُقْدَتَهَا أَنْ تَتَّخِذَ لَهَا بَيْتًا فِي ذَلِكَ الْمَكَانِ الطَّيِّبِ لِتَقِيمَ فِيهِ... يَا لَهَا حِكْمَةً مِنَ التَّدْبِيرِ! تَزْعُمُ الرِّيحُ الْإِقَامَةَ عَلَى حِينِ كُلِّ وَجُودِهَا هُوَ لِحْظَةٌ مَرُورِهَا، وَتَحْلُمُ بِالْقَرَارِ فِي الْبَيْتِ وَهِيَ لَا تَمْلِكُ بِطَبِيعَتِهَا أَنْ تَقِفَ.

يَا لَهَا حِكْمَةً سَامِيَةً، لَا يَسْكُنُهَا مِنَ الْمَعْنَى إِلَّا أَسْخَفُ مَا فِي الْحُمُقِ!

هَمَدَ الْحَيُّ وَأَنْطَفَأَتْ عَيْنَاهُ، وَلَكِنَّهُ تَحَرَّكَ فِي تَارِيخِهِ مِمَّا ضَيَّقَ عَلَى نَفْسِهِ أَوْ وَسَّعَ، وَأَصْبَحَ يَنْظُرُ بَعِينَ مِنْ عَمَلِهِ إِمَّا مُبْصِرَةً أَوْ كَالْعَمِيَاءِ؛ فَلَوْ تَكَلَّمَ يَصِفُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَقَالَ: إِنَّ هَذِهِ النُّجُومَ عَلَى الْأَرْضِ مَصَابِيحُ مَاتَمٍ أَقِيمَ بَلِيلٍ. وَمَا أَعْجَبَ أَنْ يَجْلِسَ أَهْلُ الْمَاتَمِ فِي الْمَاتَمِ لِيُضْحَكُوا وَيَلْعَبُوا!

(١) زَخَّارٌ: مَلِيءٌ بِالْحَرَكَةِ وَالضَّجَّةِ.

ولو نطقَ الموتى لقالوا: أيُّها الأحياء، إنَّ هذا الحاضرَ الَّذي يمرُّ فيكونُ ماضيكم في الدنيا، هو بعينه الَّذي يكونُ مستقبلُكم في الآخرة، لا تزيدون فيه ولا تُنقصون. وإنَّ الدنيا تبدأ عندكم من الأعلى إلى الأدنى: من العظماء إلى الفقراء؛ ولكنها تنقلبُ في الآخرة فتبدأ من الفقراء إلى العظماء؛ وأنتم ترسمونها بخطوط المطامع والحظوظ، ويرسمها الله بخطوط الحِزَمَانِ والمُجاهدة؛ إنَّ التأمُّ على الأرض من تمَّ بمتاعها ولذاتها، ولكنَّ التأمُّ في السماء من تمَّ بنفسه وحدها.

يا أسفا! لن يقولَ الميتُ لِلحيِّ شيئاً، ومن يدري؟ لعلنا ونحن نُلحِدُ للموتى وننزلُهم في قبورهم، يرونَ بأرواحهم الخالدة أننا نحن موتاهم المساكين، وأننا مدفونون في القبر الذي يسمونه «الكرة الأرضية»! وهل الكرة الأرضية من اللانهاية إلا حفرة برجلٍ نملةٍ لتُدفنَ فيها نملة... .

الحياة... أتريدُ أن تعرفها على حقيقتها؟ هي المُبهَماتُ الكثيرةُ التي ليس لها في الآخرِ إلا تفسيرٌ واحد: حلالٌ أو حرام.

ورجعنا مع الصديقِ إلى بيته، وله خمسة أطفالٍ صغارٍ لو أنهم همُ الَّذينَ انتزعوا من أمهم لترك كلُّ واحدٍ على قلبها مثلَ المِكْوَةِ المحمى عليها في النارِ إلى أن تحمرَّ؛ ولكنَّ أمهم هي التي نزعَتْ منهم، فكانَ بقاؤهم في الحياة تخفيفاً لِسكرةِ الموتِ عليها. وعَشِيَّتُها الغُشيَّةُ فماتَتْ وهي تضحك، إذ تراهم نائمينَ تحتَ جناحِ الرحمةِ الإلهيةِ الممدود، وقالت: إنها تسمعُ أحلامهم. وكانوا همَ عقلها في ساعةِ الموت!

تبارك الَّذي جعلَ في قلبِ ألامٍ دنيا من خلقه هو، ودنيا من خلقِ أولادها!
تبارك الَّذي أثابَ ألامَ ثوابَ ما تُعاني، فجعلَ فرحها صورةً كبيرةً من فرحِ صغارها!

وجاء أكبرُ الأطفالِ الخمسة، وكأته ثمانية أُرطالٍ من الحياة لا ثمانية أعوامٍ من العمر؛ جاء إلينا كما يجيء الفرعُ لِقلوبٍ مطمئنة، إذ كانَ في عينيه الباكتينِ معنى فقدِ الأم!

وطعَّت عليه الدموعُ فتناولَ منديلَهُ ومسحها بيده الصغيرة، ولكنَّ روحه

اليتيمَة تَأبَى إِلَّا أَنْ تَرْسَمَ بِهِذِهِ الدَّمُوعِ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتِمُّهَا!
وظَهَرَ الْانْكَسَارُ فِي وَجْهِهِ يَعْبُرُ بِبِلَاغَةٍ أَنَّهُ قَدْ أَحْسَسَ حَقِيقَةَ ضَعْفِهِ وَطُفُولَتِهِ بِإِزَاءِ
الْمَصِيبَةِ الَّتِي نَزَلَتْ بِهِ، وَجَلَسَ مُسْتَسْلِمًا تُتَرَجِّمُ هَيْئَتُهُ مَعَانِي هَذِهِ الْكَلِمَةِ: «رِفْقًا
بِي!».

ثُمَّ تَطِيرُ مِنْ عَيْنَيْهِ نَظْرَاتٌ فِي الْهَوَاءِ، كَأَنَّمَا يُحَسُّ أَنَّ أُمَّهُ حَوْلَهُ فِي الْجَوِّ
وَلَكِنَّهُ لَا يَرَاهَا!

ثُمَّ يُرْخِي عَيْنَيْهِ فِي إِغْمَاضَةٍ خَفِيفَةٍ، كَأَنَّمَا يَرْجُو أَنْ يَرَى أُمَّهُ فِي طَوِيلَتِهِ! ^(١)
وَلَا يُصَدِّقُ أَنَّهَا مَاتَتْ، فَإِنَّ صَوْتَهَا حَيٌّ فِي أُذُنَيْهِ لَا يَزَالُ يَسْمَعُهُ مِنْ أَمْسٍ!
ثُمَّ يَعُودُ إِلَى وَجْهِهِ الْانْكَسَارُ وَالْاِسْتِسْلَامُ، وَيَتَمَلَّمُ فِي مَجْلِسِهِ، فَيَنْطِقُ
جِسْمُهُ كُلُّهُ بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ: «يَا أُمِّي!».

أَحْسَسَ - وَلَا رَيْبَ - أَنَّهُ قَدْ ضَاعَ فِي الْوُجُودِ، لِأَنَّ الْوُجُودَ كَانَ أُمَّهُ .
وَلَمَسَ خَشُونَةَ الدُّنْيَا مِنْذُ السَّاعَةِ، بَعْدَ أَنْ فَقَدَ الصَّدَرَ الَّذِي فِيهِ وَحْدَهُ لِيُنْ
الْحَيَاةِ لِأَنَّ فِيهِ قَلْبَ أُمَّهِ وَرُوحَهَا .
وَشَعَرَ بِالذَّلِّ يَنْسَابُ إِلَى قَلْبِهِ الصَّغِيرِ، لِأَنَّ تِلْكَ الَّتِي كَانَ يَمْلِكُ فِيهَا حَقَّ
الرَّحْمَةِ قَدْ أَخَذَتْ مِنْهُ وَتَرَكْتَهُ بِلَا حَقٍّ فِي أَحَدٍ؛ وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَمَانٌ!
وَلَيْسَتْهُ الْمَسْكَنَةُ، لِأَنَّ لَهُ شَيْئًا عَزِيزًا أَصْبَحَ وَرَاءَ الزَّمَانِ فَلَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ!
وَلَيْسَتْهُ الْمَسْكَنَةُ، لِأَنَّهُ صَارَ وَحْدَهُ فِي الْمَكَانِ كَمَا هُوَ وَحْدَهُ فِي الزَّمَانِ!
وَأَرْتَسَمَ عَلَى وَجْهِهِ التَّعْجُبُ، كَأَنَّهُ يَسْأَلُ نَفْسَهُ: «إِذَا لَمْ تَكُنْ أُمِّي هُنَا، فَلِمَاذَا
أَنَا هُنَا؟!».

ثُمَّ تَغْرَغَرَتْ ^(٢) عَيْنَاهُ فَيُخْرِجُ مَنَدِيلَهُ وَيَمْسَحُ دَمْعَهُ بِيَدِهِ الصَّغِيرَةِ، وَلَكِنْ رُوحَهُ
الْيَتِيمَةَ تَأبَى إِلَّا أَنْ تَرْسَمَ بِهِذِهِ الدَّمُوعِ عَلَى وَجْهِهِ مَعَانِي يَتِمُّهَا!

وَنَهَضَ الصَّغِيرُ وَلَمْ يَنْطِقْ بِذَاتِ شَفَةِ؛ نَهَضَ يَحْمِلُ رَجُولَتَهُ الَّتِي بَدَأَتْ مِنْذُ
السَّاعَةِ!

(٢) تَغْرَغَرَتْ: دَمَعَتْ.

(١) طَوِيلَتُهُ: سَرِيرَتُهُ دَاخِلُهُ.

انتَهَتْ - أيُّها الطُفْلُ المسكينُ - أيامُكَ مِنَ الأمِّ؛ هذه الأيامُ السعيدَةُ الَّتِي كُنْتَ
تَعْرِفُ الغَدَّ فِيهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ مَعْرِفَتَكَ أَمْسِ الَّذِي مَضَى؛ إِذْ يَأْتِي الغَدُ وَمَعَكَ أُمُّكَ!
وبدأتُ - أيُّها الطُفْلُ المسكينُ - أيامُكَ مِنَ الزَّمنِ، وسيأتي كُلُّ غَدٍ مُحَجَّباً
مرهوباً؛ إِذْ يَأْتِي لَكَ وَحْدَكَ، ويأتي وَأَنْتَ وَحْدَكَ!
الأم...؟ يا إلهي، أَيُّ صَغِيرٍ عَلَى الأَرْضِ يَجِدُ كِفَايَتَهُ مِنَ الرُّوحِ إِلَّا فِي
الأمِّ؟

قصة أب

حدّثني المسكينُ فيما حدّث وهو يصفُ ما نزلَ به قال :

رأيتُ النَّاسَ قد أنعمَ اللَّهُ عليهم أن يكونوا آباءَ فَنَسًا^(١) بالولَدِ في آثارِهِم، ومدَّ بالنسلِ في وجودِهِم، وزادَ منه في أرواحِهِم أرواحاً، وضمَّ به إلى قلوبِهِم قلوباً، وملاً أعينَهُم من ذلك بما تقرُّ به قُرَّةُ عينٍ كانتَ لم تجدْ ثمَّ وجَدَتْ؛ فهم بهؤلاءِ الأطفالِ يملكونَ القوَّةَ التي تُرجِعُهُم أطفالاً مثلَهُم في كلِّ ما يسرُّهم، فيكبرُ الفرحُ في أنفُسِهِم وإنَّ كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ما يسرُّهم، فيكبرُ الفرحُ في أنفُسِهِم وإنَّ كانَ في ذاتِ نفسِهِ ضئيلاً صغيراً، ويعظمُ الأملُ في أشياءِهِم وإنَّ كانَ هو عن شيءٍ حقيرٍ لا يُؤبَهُ^(٢) له.

وتلك حقيقةٌ من حقائقِ السَّعادةِ لا أسمى ولا أعظمُ منها إلا الحقيقةُ الأخرى: وهي القوَّةُ التي يتحوَّلُ بها الكونُ في قلبِ الوالدينِ إلى كنزٍ مِنَ الحبِّ والرحمةِ وجمالِ العاطفةِ، بسخرٍ من ابتسامةِ طفلٍ أو طفلةٍ، أو بكلمةٍ منهما أو حركةٍ، على حينٍ لا يتحوَّلُ مثلَ ذلك ولا قريباً منه بَمالِ الدُّنيا، ولا بِمُلْكِ الدُّنيا.

رأيتُ النَّاسَ قد أنعمَ اللَّهُ عليهم أن يكونوا آباءَ، ولكِنَّهُ أبتلاني بأنَّ أكونَ أباً، وأُخرجَ لي من أفراحِ قلبي أحزانَ قلبي! ولقد كنتُ كرجلٍ ملكٍ داراً يستمتعُ بها، فتمنَّي أن يُشرَعَ^(٣) في جانبٍ منها غرفةٌ يزخرُفُها، فلمَّا تمَّ لَهُ ذلك وبلغَ المُقترَحُ، أنهدمتِ الدَّارُ وبقيتِ الغرفةُ قائمة!

عَمَرَكَ اللَّهُ، أشعرُ هذا الرجلُ في نكبتهِ بالغرفةِ أم بالدارِ؟ وهل تراه زادَ أو نقص؟ ويا ليتَّهما بيتٌ وغرفةٌ من بيتٍ؛ فإنَّ الحِجارةَ تحيا بالبناءِ إذا ماتت بالهدمِ، ولكنَّ مَنْ ذا يحيي الزوجةَ ماتت بعدَ أن وضعتْ بِكرَها الأولَ والآخِرَ!
إنَّها طفلةٌ وُلِدَتْ وكأَنَّما أُخْرِجَتْ من تحتِ الرُّدمِ، إذ وُلِدَتْ تحتَ ماضٍ من

(١) نسا: زاد.

(٢) يؤبه: يهتَم، يلتفت إليه.

(٣) أي أن يفتح غرفة تؤدِّي إلى الشارع.

أَلْحِيَاةٍ مِنْهُمْ، وَهَلْ فَرْقٌ بَيْنَ هَذَا وَبَيْنَ أَنْ تَكُونَ أُمُّهَا قَدْ وَلَدَتْهَا فِي الصَّحْرَاءِ ثُمَّ أَكْرَهَتْ أَنْ تَدْعَهَا وَحْدَهَا فِي ذَلِكَ الْقَفْرِ تَصْرُخُ وَتَبْكِي! فَالْمَسْكِينَةُ عَلَى الْحَالِينِ مَنْقُطَةٌ أَوَّلَ مَا أَنْقَطَعَتْ مِنْ حَنَانِ الْأُمِّ وَرَحْمَتِهَا.

طِفْلَةٌ وَلَدَتْ صَارِخَةً، لَا صَرْخَةَ أَلْحِيَاةٍ، وَلَكِنْ صَرْخَةَ النُّوحِ وَالنَّدْبِ عَلَى أُمِّهَا.

صَرْخَةُ حَزِينَةٍ مَعْنَاهَا: ضَعُونِي مَعَ أُمِّي وَلَوْ فِي الْقَبْرِ!
صَرْخَةُ تَرْتَعِدُ، كَأَنَّ الْمَسْكِينَةَ شَعَرَتْ أَنَّ الدُّنْيَا خَالِيَةٌ مِنَ الصَّدْرِ الَّذِي يُدْفِنُهَا!
صَرْخَةُ تَرْتَدُّ فِي ضَرَاةٍ^(١)، كَأَنَّهَا جَمَلَةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ: «يَا رَبِّ أَرْحَمْنِي مِنْ حَيَاةٍ بِلَا أُمٍّ!».

* * *

قَالَ الْمَسْكِينُ وَهُوَ يَبْكِي أَمْرَأَتَهُ:

وَلَمَّا ضَرَبَهَا الْمَخَاضُ، ضَاعَفَتْ قُوَّتَهَا مِنْ شَعُورِهَا أَنَّهَا سَتَكُونُ بَعْدَ قَلِيلٍ مَضَاعَفَةً بِمَوْلُودِهَا، وَتَكُونُ رُوحِينَ لَا رُوحاً وَاحِدَةً، وَتَلِدُ لِي أَلْحِيَاةً وَالْحُبَّ الْإِلَهِيَّ مَعاً، وَتَأْتِي لِقَلْبِي بِمِثْلِ طِفْلَتِهِ الْأُولَى الَّتِي يَسْتَحِيلُ أَنْ تَأْتِيَ الرَّجُلَ إِلَّا مِنْ زَوْجِهِ. كُلُّ ذَلِكَ ضَاعَفَ قُوَّاهَا سَاعَةً وَشَدَّ مِنْهَا؛ وَلَكِنْ مَا أَسْرَعَ مَا تَبَيَّنَتْ أَنَّهُ الْمَوْتُ، إِذْ غُضِّلَتْ وَعَسَرَ خُرُوجُ مَوْلُودِهَا.

وَجَاءَهَا الْجِرَاحِيُّ بِمَبْضِعِهِ، وَكَأَنَّهَا رَأَتْهُ ذَابِحاً لَا طَبِيباً، فَجَعَلَتْ تَعْبُرُ بَعَيْنَيْهَا، إِذْ لَمْ تَمْلِكْ فِي آلَمِهَا الْقَاتِلَةَ غَيْرَ لُغَةٍ هَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ.

كَانَتْ بِنَظَرَةٍ تَبْكِي عَلَى وَعَلَى بؤْسِي، وَبِأُخْرَى تَبْكِي عَلَى بؤْسِ مَوْلُودِهَا وَشِقَائِهِ؛ وَبِنَظَرَةٍ تُودِّعُنِي، وَبِأُخْرَى تَدْعُو أَلَلَّةَ لِي جِزَاءَ مَا أَحْسَنْتُ إِلَيْهَا؛ وَبِنَظَرَةٍ تَتَوَجَّعُ لِنَفْسِهَا، وَبِأُخْرَى تَتَأَلَّمُ مِنْ أَنَّهَا تَرَانِي أَكَادُ أَجَنَ.

نَظَرَاتٍ نَظَرَاتٍ . . .

يَا إِلَهِي! لَقَدْ خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّ مَلَكَ الْمَوْتِ وَقَفَ بَيْنَ عَشْرِينَ مَرَّةً تُحِيطُ بِهِ، فَأَنَا أَرَاهُ مَوْتاً مُتَعَدِّداً لَا مَوْتاً وَاحِداً، وَكُلُّ نَظَرَةٍ مِنْ عَيْنِي زَوْجَتِي إِلَيَّ كَأَنَّهَا هِيَ نَظَرَةٌ، وَكَانَتْ عِنْدِي أَنَا مَرَّةً أَلْروحِ لِلروحِ.

(١) ضَرَاةٌ: تَوَسَّلَ.

ولكنّها لم تنسَ أنّها تموتُ لوضع مولودها، وأنّ هذه الآلامُ الدميّةُ الذابحةُ هي الوسيلةُ لأنّ تتركَ لي بقيّةَ حيّةٍ منها؛ فيا للرحمةِ والحنانِ والحُبِّ! لقدِ أبْتَسَمْتُ لي وهي تموتُ؛ وهي تَلِدُ؛ وهي تُذْبَحُ!

ليستَ رحمةُ المرأةِ المحبّةِ خيلاً إلا إذا كانتَ حرارةُ الشّمسِ التي تُحيي الدنيا خيلاً أيضاً؛ إنّ هذا القلبَ النّسويّ المستقرّ فوق أحشاءِ تحملُ الجنينَ صابرةً راضيةً فرحةً بآلامها، وتغذوه وتُقاسِمُهُ حياةَ نفسها - هذا القلبُ يحملُ الحُبَّ أيضاً صابراً راضياً فرحاً بآلامه، ويغذوه ويُقاسِمُهُ حياةَ نفسه.

وللرحمةِ الإلهيّةِ أدلةٌ كثيرةٌ تدلُّ الإنسانَ عليها دلالاتٍ مختلفة؛ فالشمسُ تدلُّ عليها بالضوء الذي تَطْعَمُهُ الحياة، والهواءُ يدلُّ عليها بالضوء الذي تتنفسُهُ الحياة، والماءُ يدلُّ عليها بالضوء الذي تَشْرِبُهُ الحياة، وهكذا إلى أن يأتي في الآخرِ قلبُ المرأةِ فيدلُّ على رحمةِ اللهِ بالحُبِّ الذي تقومُ بهِ الحياة.

إبتسامَةُ الحُبِّ غالبَتِ زفراَتِ الموتِ التي تَعْتَلِجُ من تحتها حتى غلبتها، وأعادَتِ الحياةَ لحظةً إلى وجهِ زوجتي لأراها آخرَ ما أراها في صورةِ المحبّةِ لي، فكانَ كُلُّ جمالِ نفسها منتشراً على ذلك الوجه، وظهرتَ فيه روحها وعواطفها تودّعني وداعاً حزيناً متبمسماً يتكلّمُ بعجزه عن الكلام.

إبتسامَةُ لا ريبَ أنّ فيها أشياءَ ليستَ من جمالِ هذه الدنيا ولا من حقائقها؛ فكأنّما ألتمعتَ بأشعةٍ مِنَ الخُلْدِ تَرَفُّ رفيفها على وجهِ الحبيبِ ليُظهِرَ ساعةَ الموتِ أنّ حبهُ أقوى مِنَ الموتِ.

قال المسكين: ونثر الطيبُ ذا بطنها فكانتَ طفلة، وما كانتَ زوجتي تقترحُ أن يكونَ الجنينُ غيرَها، بل كانتَ مستيقنةً أنّها تضعُها أنثى، وصنعتَ لها ثيابها، ووشّتها بزينةِ الأنوثة، وعرضتَ أسماءَ البناتِ فأختارتَ اسمَها أيضاً، وكنتُ أكرهُ ذلكَ منها وأريدُ ولداً لا بنتاً، فكانتَ تُغايِظُنِي بعملِها وإصرارِها غيظَ دُعابةٍ لا غيظَ جَفَاءٍ.

ومَضَتْ لا تذكرُ إلا بنتها مدةَ الحملِ، ولا تتكلّمُ إلا عن بنتها، وقد كنتُ أعجبُ لذلك؛ فلمّا قضى اللهُ فيها قضاءه، علمتُ أنّ ذلكَ أمرٌ من أمرِ الروحِ، فكانَ الإلهامُ فيها أنّها على بابِ قبرِها، وأنّها لن ترى طِفْلَتَها، ولن تعيشَ لها،

فَعَاشَتْ أَيَّامَ الْحَمْلِ مَعَ ذِكْرَاهَا: تَضُمُّ ثِيَابَهَا إِلَى صَدْرِهَا وَتَحْمِلُهَا عَلَى يَدِهَا،
وَتُنَاقِشُهَا وَتُقَبِّلُهَا، وَتَأْخُذُهَا مِنَ الْوَهْمِ وَتَرُدُّهَا إِلَيْهِ؛ وَكَذَلِكَ نَعِمَتِ الْمَسْكِينَةُ
بِالْمَسْكِينَةِ!

لَكَ اللَّهُ يَا مُعْجَزَةَ الرَّحْمَةِ، يَا نَفْسَ الْأُم!

وَلَمَّا قِيلَ: مَاتَتْ. جَعَلَ يَكَلِّمُنِي الْمَتَكَلِّمُ وَلَا أَعْقِلُ؛ فَإِنَّ الْكَلِمَةَ الَّتِي تَأْتِي
بِالْمَصِيبَةِ الْمَتَوَقَّعَةِ طَالَ أَرْتِقَابُهَا، لَا تَأْتِي بِمَعَانٍ لُغَوِيَّةٍ كَغَيْرِهَا مِنَ الْكَلَامِ، بَلْ
بِأَسْلِحَةٍ تَضْرِبُ فِي النَّفْسِ وَفِي الْعَقْلِ، وَتُخْخِنُهَا جِرَاحاً وَفَتْكاً.

وَجَعَلَنِي مَوْتُهَا كَأَنِّي مَيِّتٌ يَحْمِلُ نَفْسَهُ، مَا حَوْلَهُ إِلَّا الْمَشِيعُونَ؛ وَأَحْسَنْتُ
كَأَنَّ قُوَّةَ أَخَذَتْ بِأَحَدِي رَجُلِيٍّ فَوَضَعَتْهَا فِي الْآخِرَةِ وَتَرَكْتَ الثَّانِيَةَ فِي الدُّنْيَا،
وَلَحِقْنِي مِنَ الْجَزَعِ مَا اللَّهُ عَالِمٌ بِهِ، وَوَجِدْتُ أُخْرِقَ الْوَجْدَ، وَبَكَيْتُ أَحْرَّ الْبَكَاءِ؛
وَجَعَلْتُ أَفْكَارِي تَنْحَدِرُ مِنْ رَأْسِي إِلَى حَلْقِي فَأَخْتَنُقُ بِهَا ثُمَّ لَا يُنْفَسُ عَنِّي إِلَّا
الدَّمْعُ، كَأَنَّ أَعْضَائِي أَخْتَلَّتْ مِمَّا ضَغَطَنِي مِنَ الْحُزَنِ، فَأَنَا أَتَنَفَسُ بِرَيْتِي وَعَيْنِي.

بِمَوْتِهَا شَعَزْتُ بِهَا؛ وَلَعَلَّهُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لَا يَشْعُرُ الْإِنْسَانُ بِلَذَّةِ الْحُبِّ كَامِلَةً إِلَّا
فِي آلامِ الْحُبِّ وَحَدِّهَا، وَكَأَنَّهُ فِي حَيَاتِهَا تَضَعُ مِنْ رَوْحِهَا فِي سُرُورِي، وَهَذَا هُوَ سُرُّ
الْمَرْأَةِ الْمَحْبُوبَةِ: يَجِدُ مُحِبُّهَا فِي كُلِّ سُرُورٍ لِمَحَابِّ رُوحَانِيَّةٍ؛ وَكَذَلِكَ فَعَلْتُ بَعْدَ
مَوْتِهَا، فَجَعَلْتُ رَوْحَهَا فِي أَحْزَانِي؛ وَلَوْلَا أَنَّ رَوْحَهَا فِي أَحْزَانِي لَقَتَلْتَنِي الْمَصِيبَةُ.

وَكَنتُ أَذِلْفُ^(١) وَرَاءَ النَّعْشِ وَقَدْ بَطَلَ فِي نَفْسِي الشَّعُورُ بِالدُّنْيَا، وَكَأَنَّ النَّاسَ
يَمْشُونَ حَوْلِي بِمَا فِيهِمْ مِنَ الْحَيَاةِ، وَكَانُوا ذَاهِبِينَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ عَلَى أَنَّهُمْ سَائِرُونَ
كَمَا يَذْهَبُونَ إِلَى كُلِّ مَكَانٍ؛ أَمَّا أَنَا فَكَنتُ أَمْشِي بِمَا فِيَّ مِنَ الْحُبِّ مِنْكَسِراً مُنْخَذِلاً
مَتَضَعِضِعاً، لِأَنِّي وَحْدِي سَائِرٌ وَرَاءَ مَا لَا يُلْحَقُ.

وَتَقَلَّ النَّاسُ عَلَى قَلْبِي، وَرَجَعَ كُلُّ أَمْرِهِمْ عِنْدِي إِلَى الْعَيْبِ وَالنَّقِيصَةِ، إِذْ
كَأَنَّ لِي عَقْلٌ طَارِئٌ مِنَ الْحَالَةِ الَّتِي أَنَا فِيهَا لَيْسَ مِثْلُهُ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ، وَكَنتُ وَحْدِي
أَلْمَصَابَ بَيْنَهُمْ، فَكَنتُ وَحْدِي بَيْنَهُمُ الْعَاقِلُ.

أَنَا أَمْشِي لِأَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِ مُصِيبَتِي، وَهُمْ يَمْشُونَ لِيَنْتَهَوْا إِلَى آخِرِ الطَّرِيقِ؛
وَشَتَّانَ^(٢) مَا نَحْنُ وَشَتَّانَ!

(٢) شَتَّانَ: اسْمُ فِعْلٍ مَاضٍ بِمَعْنَى بُعْدَ.

(١) ذِلْفٌ: مَشَى.

ولمّا رأيت قبرها أبْتَدَرْتُ عَيْنَايَ تَنْظُرَانِ بِالدُمُوعِ لَا بِالنَّظَرِ، ورَأَيْتُ التُّرَابَ كَأَنَّهُ
غُيُومٌ مَلُونَةٌ بِالْوَانِ السُّحْبِ الدَّاكِنَةِ تَتَهَيَّأُ فِي سَمَايْهَا تَحْتَ الظَّلَامِ لِتُخْفِيَ كَوَكَباً مِنْ
الكواكب؛ وظَهَرَ لِي الْقَبْرُ كَأَنَّهُ فَمٌ الْأَرْضِ يُخَاطَبُ الْإِنْسَانَ بِحَزْمٍ صَارِمٍ، يُخَاطَبُ الْفَقِيرَ
وَالْغَنِيَّ، وَالضَّعِيفَ وَالْقَوِيَّ، وَالْمَلُوكَ وَالصَّعَالِيكَ: «أَنَّ كُلَّ قُوَّةٍ تُنَزَعُ هُنَا».

قال المسكين: وكما يجدُ الإنسانُ في أَيَّامِ الْمَطَرِ رائحةَ النسيمِ المبتلِّ بِالماءِ،
كُنْتُ أُسْتَرْوِحُ^(١) فِي رَجْعَتِي إِلَى الدَّارِ رائحةَ نَسِيمٍ مَبْتَلٍ بِالدُمُوعِ؛ وَحَضَرْتُ الْمَأْتَمَ
وَعَزَانِي النَّاسِ، فَكُنْتُ فِيهِمْ كَالْمَأْسُورِ بَيْنَهُمْ: لَا أَتَمَنَّى إِلَّا أَنْ يَدْعُونِي فَأَنْجُوَ عَلَى
وَجْهِِي، وَلَا أَرَى إِلَّا أَنَّهُمْ يَجْرُعُونَنِي الْوَجُودَ غُصَصاً كَمَا تَجْرَعْتُ الْفَقْدَ غُصَّةً
غُصَّةً؛ إِلَى أَنْ تَفْرُقُوا مَعَ سَوَادِ اللَّيْلِ فَأَنْكَفَأْتُ إِلَى الدَّارِ، فَإِذَا كُلُّ شَيْءٍ قَدْ تَغَيَّرَ
وَلَمَسَهُ الْمَوْتُ لَمَسَةً، وَإِذَا أَلْدَارُ نَفْسِهَا كَالْعَيْنِ الْمَقْرُوحَةِ مِنْ آثَارِ الْبُكَاءِ: مَا تَمَّ
شَيْءٌ إِلَّا لِيُطَالِعَنِي بِأَنْ مَسَرَاتِي قَدْ مَاتَتْ!

وَلَاخَ أَصْبَحُ لِعَيْنِي أَلْسَاهَرَتَيْنِ صُبْحاً فَاتِراً تَبَيَّنَتْ فِيهِ الْخَجَلُ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: «لَمْ
أُطْلَعْ لَكَ»، فَانْسَلَلْتُ مِنَ الْبَيْتِ، وَذَهَبْتُ أَمْشِي فِي دُنْيَا هِيَ أَلْكَابَةُ الْمَضِيئَةِ سَخِرَتْ
أَلْأَقْدَارُ مِنْهَا بِإِظْهَارِهَا فِي هَذَا الضَّوِّ مَظْهَرَ وَجْهِ الْعَجُوزِ الْمُتَصَابِيَةِ فِي زِينَةِ لَا
تَزِيدُهَا إِلَّا قُبْحاً!

ومَضَيْتُ عَلَى وَجْهِِي لَا غَايَةَ لِي، أَضْرَبُ فِي كُلِّ جِهَةٍ كَأَنَّمَا أُرِيدُ أَنْ أَهْرَبَ
مِنْ نَفْسِي! وَمَا خَطَرَ لِي قَطُّ أَنِّي فِي يَوْمٍ جَدِيدٍ، بَلْ كُنْتُ عِنْدَ نَفْسِي لَا أَزَالُ.
أَمْسَ، وَتَغَيَّرَ عِنْدِي الزَّمَانُ وَالْمَكَانُ: فَأَحْدُهُمَا سَاعَةُ مَوْتٍ لَا تَتْرُكُ مَا فِيهَا، وَالْآخَرُ
قَبْرٌ مَيِّتٌ لَا يَرُدُّ مَا فِيهِ.

أَوْ مِنْ أَلَوْقَتِ الَّذِي يَنْتَهِي فِيهِ الْمَوْجُودُ لِيَعْذُبَنَا بِالتَّذَكُّرِ أَنَّهُ كَانَ مَوْجُوداً!

قَالَ الْمَسْكِينُ ثُمَّ أَعَادَتْنِي قَدَمَايَ إِلَى الْبَيْتِ لِأَرَى طِفْلَتِي - وَمَا كُنْتُ رَأَيْتُهَا - وَلَقَدْ
كَانَتْ وَلَادَتْهَا أَوَّلَ الْحَيَاةِ لَهَا، وَأَوَّلَ الْحَيَاةِ لِي أَيْضاً؛ إِذْ لَوْلَاهَا لَأَتَحَرَّضْتُ غَيْرَ شَيْءٍ.
يَا وَيْلَتَا! لَمْ تَلْتَقِ عَيْنِي بِعَيْنِ الطِّفْلِ حَتَّى أَنْفَجَرَتْ تَبْكِي. أَتَبْكِينَ لِي يَا أَبْنَتِي
أَمْ عَلَيَّ؟

(١) أَسْتَرْوِحُ: أَشْتَمُ.

أهذا بكاؤك أيتها المسكينة، أم هو صوت قلبك أليّيم؟
أصوتك أنت، أم هي روح أمك تصرخُ ترثي لي، وتتوجعُ لفرط ما قاسيت!
يا أبنتي، إنما أنت الحقيقةُ الصغيرةُ التي خرجت لي من كل تلك الخيالات
الشعرية الجميلة، خيالات الأيام السعيدة التي مرّت!
يُخلَقُ المواليدُ مِنَ اللَّحْمِ وَالْدَّمِ! وأراكِ أنتِ يا مسكينة، خُلقتِ مِنَ اللَّحْمِ
وَالْدَّمِ! والدموع!

بقيةُ حياةٍ ماتت! فهل معنى ذلك إلا أنك بقيةُ موتٍ يحيا؟
مسكينة، مسكينة؛ لو أن نوايسَ العالم متغيرةٌ لشيءٍ لتغيّرت من أجل بؤسِك
فردت لك الأم؛ ولكئها لن تتغيّر، وما بكاؤنا وآلامنا وتعاستنا إلا ثراث^(١) الحياة
في أجسامنا الأرضية، كل ذلك طبيعةٌ ولكن بقعةً أنظف من بقعة، وأراكِ يا أبنتي
كالبيت الذي هدم أول ما بُني يملؤه تراثه!
لن تتغيّر النوايس، فلن تجدي عطفَ الأم، ولكن لن يتغيّر قلبي أيضاً، فلن
تُحرمني عطفَ الأب.

وإذا صبرَ الناسُ على الحياةِ فمن أجلكِ يا مسكينة! من أجل ضعفِك
وأنقطاعكِ سأعاني الصبرَ لك، وأعاني الصبرَ لي، وأعاني الصبرَ عن أمك، سأصبرُ
على الصبرِ نفسه!

يا أبنتي، يا أبنتي، لماذا وضعتكِ الأقدارُ من هذه الحياةِ في الناحية التي ليس
فيها إلا قبرٌ مظلّمٌ مقفلٌ على أمك، وأبٌ مسكينٌ مقفلٌ على آلامه؟

قال المسكين: وهكذا كُتبتُ من أهلِ البؤسِ والهَمِّ، فلم أتزوج إلا لتصنع لي
حبيبي دموعي، ثم لم تَمُتْ إلا بعد أن تركت لي حبيبةً أخرى ستظلُّ زمناً طويلاً
تصنعُ لي دموعي!

(١) تراث: وراثه.

السَّكَّةُ

حَدَّثَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ الْفَقِيهَ الْبَغْدَادِيَّ قَالَ: حَصَلْتُ فِي مَدِينَةِ (بَلْخ) سَنَةً ثَلَاثِينَ وَمِائَتِينَ، وَعَالِمُهَا يَوْمئِذٍ شَيْخُ خُرَاسَانَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ الزَّاهِدُ صَاحِبُ أَلْمَوَاعِظِ وَالْحِكَمِ؛ وَهُوَ رَجُلٌ قَلْبُهُ مِنْ وَرَاءِ لِسَانِهِ، وَنَفْسُهُ مِنْ وَرَاءِ قَلْبِهِ، وَالْقَلْبُ الْأَعْلَى مِنْ وَرَاءِ نَفْسِهِ، كَأَنَّهُ يُلْقَى عَلَيْهِ فِيمَا زَعَمُوا.

وَكَانَ يُقَالُ لَهُ عِنْدَهُمْ: (لَقَمَانُ هَذِهِ الْأُمَّةِ)؛ لِمَا يُعْجِبُهُمْ مِنْ حِكْمِهِ فِي الزَّهْدِ وَالْمَوْعِظَةِ، وَقَدْ حَضَرْتُ مَجَالِسَهُ وَحَفِظْتُ مِنْ كَلَامِهِ شَيْئًا كَثِيرًا، كَقَوْلِهِ: مَنْ دَخَلَ مَذْهَبَنَا هَذَا (يَعْنِي الطَّرِيقَ) فَلْيَجْعَلْ عَلَى نَفْسِهِ أَرْبَعَ خِصَالٍ مِنَ الْمَوْتِ: مَوْتُ أَبْيَضٍ، وَمَوْتُ أَسْوَدٍ، وَمَوْتُ أَحْمَرٍ، وَمَوْتُ أَخْضَرٍ؛ فَالْمَوْتُ الْأَبْيَضُ الْجُوعُ، وَالْمَوْتُ الْأَسْوَدُ أَحْتِمَالُ الْأَذَى، وَالْمَوْتُ الْأَحْمَرُ مُخَالَفَةُ النَّفْسِ، وَالْمَوْتُ الْأَخْضَرُ طَرْحُ الرِّقَاعِ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ (يَعْنِي لِبْسَ الْمَرْقَعَةِ وَالْخَلْقِ مِنَ الثِّيَابِ).

وَقُلْتُ يَوْمًا لِصَاحِبِهِ وَتَلْمِيزِهِ (أَبِي ثُرَابٍ) وَجَارِئَتُهُ فِي تَأْوِيلِ هَذَا الْكَلَامِ: قَدْ فَهَمْنَا وَجْهَ التَّسْمِيَةِ فِي الْمَوْتِ الْأَخْضَرِ مَا دَامَتِ الْمَرْقَعَةُ خَضْرَاءً؛ فَمَا الْوَجْهُ فِي الْأَبْيَضِ وَالْأَسْوَدِ وَالْأَحْمَرِ؟ فَجَاءَ بِقَوْلٍ لَمْ أَرْضَهُ، وَلَيْسَ مَعَهُ دَلِيلٌ، ثُمَّ قَالَ: فَمَا عِنْدَكَ أَنْتَ؟ قُلْتُ: أَمَّا الْجُوعُ فَيُمِيتُ النَّفْسَ عَنْ شَهَوَاتِهَا وَيَتْرَكُهَا بِيضَاءً نَقِيَّةً، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَبْيَضُ؛ وَأَمَّا أَحْتِمَالُ الْأَذَى فَهُوَ أَحْتِمَالُ سُودِ الْوَجْهِ عِنْدَ النَّاسِ، فَهُوَ الْمَوْتُ الْأَسْوَدُ؛ وَأَمَّا مُخَالَفَةُ النَّفْسِ فَهِيَ كِإِضْرَامِ النَّارِ فِيهَا، فَذَلِكَ الْمَوْتُ الْأَحْمَرُ.

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَكَثُرَتْ ذَاتَ نَهَارٍ فِي مَسْجِدِ (بَلْخ) وَالنَّاسُ مُتَوَافِرُونَ^(١) يَنْتَظِرُونَ (لَقَمَانَ الْأُمَّةِ) لِيَسْمَعُوهُ، وَشَغَلَهُ بَعْضُ الْأَمْرِ فَرَاثُ^(٢) عَلَيْهِمْ، فَقَالُوا: مَنْ يَعْظُنَا إِلَى أَنْ يَجِيءَ الشَّيْخُ؟ فَالْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو ثُرَابٍ وَقَالَ: أَنْتَ رَأَيْتَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ، وَرَأَيْتَ بَشْرًا الْحَافِيَّ وَفُلَانًا وَفُلَانًا، فَقُمْ فَحَدِّثِ النَّاسَ عَنْهُمْ، فَإِنَّمَا هَؤُلَاءِ وَأَمْثَالُهُمْ هُمْ بَقَايَا النَّبِوَّةِ. ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي إِلَى الْأَسْطُوَانَةِ الَّتِي

(١) متوافرون: كثر.

(٢) راث: تأخر.

يجلسُ إليها إمامُ خُرَاسَانَ فأجلسني ثَمَّةً^(١) وقعدَ بينَ يدي.

وتطاوَلَتِ الْأَعْنَاقُ^(٢)، ورماني الناسُ بأبصارِهِمْ^(٣)، وقالوا: البَغْداديُّ! البَغْداديُّ! وكأَنَّمَا ضُوعِفْتُ عِنْدَهُمْ بِمَجْلِسِي مرَّةً وَبَنَسْبَتِي مرَّةً أُخْرَى، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: - وَاللَّهِ - مَا فِي أَلْمُوتِ الْأَحْمَرِ وَلَا الْأَخْضَرِ وَلَا الْأَسْوَدِ مَوْعِظَةٌ، وَلَوْ لَيْسَ عِزْرَائِيلُ قَوْسَ قَزَحٍ لَأَفْسَدَ شَعْرُ هَذِهِ الْأَلْوَانِ مَعْنَاهُ، وَإِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَمَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ؛ وَلَا مَوْعِظَةٌ فِي كَلَامٍ لَمْ يَمْتَلِءْ مِنْ نَفْسٍ قَاتِلَةٍ، لِيَكُونَ عَمَلًا فَيَتَحَوَّلَ فِي النَفُوسِ الْأُخْرَى عَمَلًا وَلَا يَبْقَى كَلَامًا؛ وَإِنَّهُ لَيْسَ أَلْوَعِظُ تَأْلِيفَ الْقَوْلِ لِلْسَامِعِ يَسْمَعُهُ، لَكِنَّهُ تَأْلِيفُ النَفْسِ لِنَفْسٍ أُخْرَى تَرَاهَا فِي كَلَامِهَا، فَيَكُونُ هَذَا الْكَلَامُ كَأَنَّهُ قَرَابَةٌ بَيْنَ النَّفْسَيْنِ، حَتَّى لَكَأَنَّ الدَّمَ الْمُتَجَاذِبَ يَجْرِي فِيهِ وَيَدُورُ فِي أَلْفَاظِهِ.

وكنْتُ رَأَيْتُ رُؤْيَا (بِخَلْج) تَتَّصِلُ بِقِصَّةٍ قَائِمَةٍ فِي بَغْدَادٍ، فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِمْ، فَكَانَتْ الْقِصَّةُ كَمَا حَكَيْتُهَا: أَنِّي أَمْتَحِنْتُ بِالْفَقْرِ فِي سَنَةِ تِسْعٍ عَشْرَةٍ وَمِائَتَيْنِ؛ وَأَنْحَسَمْتُ مَادَتِي^(٤) وَقَحِطَ مَنْزَلِي فَحِطًا شَدِيدًا جَمَعَ عَلَيَّ الْحَاجَةُ وَالضَّرُّ وَالْمُسْكَنَةُ؛ فَلَوْ أَنْكَمَشَتِ الصَّحْرَاءُ الْمُجْدِبَةُ فَصَغُرَتْ ثُمَّ صَغُرَتْ حَتَّى تَرْجِعَ أَذْرُعًا فِي أَذْرَعٍ، لَكَانَتْ هِيَ دَارِي يَوْمئِذٍ فِي مُحَلَّةٍ بَابِ الْبَصْرَةِ مِنْ بَغْدَادِ.

وَجَاءَ يَوْمٌ صَخْرَاوِيٌّ كَأَنَّمَا طَلَعَتْ شَمْسُهُ مِنْ بَيْنِ الرَّمْلِ لَا مِنْ بَيْنِ الشُّجْبِ، وَمَرَّتِ الْشَّمْسُ عَلَى دَارِي فِي بَغْدَادَ مَرُورَهَا عَلَى الْوَرَقَةِ الْجَائِفَةِ الْمَعْلُوقَةِ فِي الشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ؛ فَلَمْ يَكُنْ عِنْدَنَا شَيْءٌ يُسَيِّغُهُ حَلَقُ أَدَمِيٍّ، إِذْ لَمْ يَكُنْ فِي الْدَارِ إِلَّا تَرَابُهَا وَجِجَارَتُهَا وَأَجْدَاعُهَا؛ وَلِيَّ امْرَأَةٌ وَلِيَّ مِنْهَا طِفْلٌ صَغِيرٌ، وَقَدْ طَوَيْنَا عَلَى جَوْعٍ يَخْصِفُ^(٥) بِالْجَوْفِ خَسْفًا كَمَا تَهَيِّطُ الْأَرْضُ؛ فَلَتَمَنَيْتُ حِينَئِذٍ لَوْ كُنَّا جُرْذَانًا فَتَقَرَّضَ الْخَشَبُ! وَكَانَ جَوْعُ الصَّبِيِّ يَزِيدُ الْمَرْأَةَ أَلَمًا إِلَى جَوْعِهَا، وَكنْتُ بِهِمَا كَالْجَائِعِ بِثَلَاثَةٍ بَطُونِ خَاوِيَةٍ.

فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِذَا لَمْ تَأْكُلِ الْخَشَبَ وَالْحِجَارَةَ فَلَنَأْكُلَ بِشْمَنِهَا. وَجَمَعْتُ نَيْتِي عَلَى بَيْعِ الْدَارِ وَالتَّحَوُّلِ عَنْهَا، وَإِنْ كَانَ خُرُوجِي مِنْهَا كَالْخُرُوجِ مِنْ جِلْدِي: لَا

(١) ثَمَّة: ظرف زمان بمعنى هناك.

(٢) تطاولت الأعناق: اشرأبت.

(٣) رماني الناس بأبصارهم: نظروا إلي.

(٤) انحسمت مادتي: افتقرت.

(٥) يخسف: ينهار.

يَسْمَى إِلَّا سَلَخًا وَمَوْتًا؛ وَبْتُ لَيْلَتِي وَأَنَا كَالْمُتَخَنِّ حُمِلَ مِنْ مَعْرَكَةٍ: فَمَا يَتَقَلَّبُ إِلَّا عَلَى جِرَاحٍ تَعْمَلُ فِيهِ عَمَلُ السِّيفِ وَالْأَسِنَّةِ الَّتِي عَمَلْتُ فِيهَا.

ثُمَّ خَرَجْتُ بَغْلَسَ^(١) لِصَلَاةِ الصُّبْحِ؛ وَالْمَسْجِدُ يَكُونُ فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ السَّمَاءُ تَكُونُ فِيهِ، فَرَأَيْتُنِي عِنْدَ نَفْسِي كَأَنِّي خَرَجْتُ مِنَ الْأَرْضِ سَاعَةً. وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ رَفَعَ النَّاسُ أَكْفَهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ (تَعَالَى)، وَجَرَى لِسَانِي بِهَذَا الدُّعَاءِ: «اللَّهُمَّ بِكَ أَعُوذُ أَنْ يَكُونَ فَقْرِي فِي دِينِي، أَسْأَلُكَ الْنَفْعَ الَّذِي يُصْلِحُنِي بِطَاعَتِكَ، وَأَسْأَلُكَ بَرَكَةَ أَرْضِي بِقَضَائِكَ، وَأَسْأَلُكَ الْقُوَّةَ عَلَى الطَّاعَةِ وَالرِّضَا يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ».

ثُمَّ جَلَسْتُ أَتَأَمَّلُ شَأْنِي، وَأَطَلْتُ الْجُلُوسَ فِي الْمَسْجِدِ كَأَنِّي لَمْ أَعُدْ مِنْ أَهْلِ الزَّمَنِ فَلَا تَجْرِي عَلَيَّ أَحْكَامُهُ، حَتَّى إِذَا أَرْتَفَعَ الضُّحَى وَأَبْيَضَتِ الشَّمْسُ جَاءَتْ حَقِيقَةُ الْحَيَاةِ، فَخَرَجْتُ أَتَسَبَّبُ لِبَيْعِ الدَّارِ، وَأَنْبَعَثْتُ وَمَا أَدْرِي أَيْنَ أَذْهَبُ، فَمَا سِرْتُ غَيْرَ بَعِيدٍ حَتَّى لَقِينِي (أَبُو نَصْرٍ الْأَصْيَادُ) وَكُنْتُ أَعْرِفُهُ قَدِيمًا، فَقُلْتُ: يَا أَبَا نَصْرٍ! أَنَا عَلَى بَيْعِ الدَّارِ؛ فَقَدْ سَاءَتِ الْحَالُ وَأَخَوَجَتِ الْخِصَاصَةُ، فَأَقْرِضْنِي^(٢) شَيْئًا يُمَسِّكُنِي عَلَى يَوْمِي هَذَا بِالْقَوَامِ مِنَ الْعَيْشِ حَتَّى أَبِيعَ الدَّارَ وَأَوْفِيكَ.

فَقَالَ: يَا سَيِّدِي! خُذْ هَذَا الْمَنْدِيلَ إِلَى عِيَالِكَ، وَأَنَا عَلَى أَثَرِكَ لِأَحِقُّ بِكَ إِلَى الْمَنْزِلِ. ثُمَّ نَاوَلَنِي مَنَدِيلًا فِيهِ رُقَاقَتَانِ بَيْنَهُمَا حُلُوى، وَقَالَ: إِنَّهُمَا وَاللَّهِ بَرَكَةٌ الشَّيْخِ.

قُلْتُ: مَنِ الشَّيْخُ وَمَا الْقِصَّةُ؟

قَالَ: وَقَفْتُ أَمْسَ عَلَى بَابِ هَذَا الْمَسْجِدِ وَقَدْ أَنْصَرَفَ النَّاسُ مِنْ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَمَرَّ بِي أَبُو نَصْرٍ بَشَرٌ الْحَافِي فَقَالَ: مَالِي أَرَاكَ فِي هَذَا الْوَقْتِ؟ قُلْتُ: مَا فِي الْبَيْتِ دَقِيقٌ وَلَا خَبْزٌ وَلَا دَرَاهِمٌ وَلَا شَيْءٌ يُبَاعُ. فَقَالَ: اللَّهُ الْمُسْتَعَانُ؛ إِحْمِلْ شَبَكَّتَكَ وَتَعَالَ إِلَى الْخَنْدَقِ؛ فَحَمَلْتُهَا وَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَلَمَّا أَنْتَهَيْنَا إِلَى الْخَنْدَقِ قَالَ لِي: تَوَضَّأْ وَصَلِّ رَكَعَتَيْنِ. فَفَعَلْتُ، فَقَالَ: سَمِّ اللَّهَ - تَعَالَى - وَأَلْقِ الشَّبَكَةَ. فَسَمَّيْتُ وَأَلْقَيْتُهَا، فَوَقَعَ فِيهَا شَيْءٌ ثَقِيلٌ، فَجَعَلْتُ أَجْرُهُ فَشَقَّ عَلَيَّ؛ فَقُلْتُ لَهُ: سَاعِدْنِي فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ تَنْقَطِعَ الشَّبَكَةُ، فَجَاءَ وَجَرَّهَا مَعِيَ، فَخَرَجْتُ سَمَكَةً عَظِيمَةً لَمْ أَرْ مِثْلَهَا سَمْنًا وَعِظْمًا وَفَرَاهَةً. فَقَالَ: خُذْهَا وَبِغْهَا وَأَشْتَرِ بِشَمَنِهَا مَا يُصْلِحُ

(١) غَلَسَ: الْهَزِيعُ الْآخِرُ مِنَ اللَّيْلِ الْعَتَمَةِ قَبْلَ الْفَجْرِ.

(٢) أَقْرَضَ: دَيْنٌ.

عيالك. فحملتها فاستقبلني رجلٌ اشتراها، فابتعت لأهلي ما يحتاجون إليه، فلما أكلت وأكلوا ذكرتُ الشيخَ فقلتُ أهدي له شيئاً، فأخذتُ هاتين الرقاقتين وجعلتُ بينهما هذه الحلوى، وأتيتُ إليه فطرقتُ الباب، فقال: من؟ قلتُ: أبو نصر! قال: افتح وضع ما معك في الدهليز وأدخل. فدخلتُ وحدثته بما صنعتُ فقال: الحمد لله على ذلك. فقلتُ: إني هياتُ للبيتِ شيئاً وقد أكلوا وأكلتُ ومعِي رقاقتان فيهما حلوى.

قال: يا أبا نصر! لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة! اذهب كُلْه أنت وعيالك.

قال أحمدُ بنُ مسكين: وكنتُ مِنَ الْجُوعِ بحيثُ لو أصبتُ رغيفاً لحسبته مائدةً أنزلتُ مِنَ السَّمَاءِ، ولكنَّ كلمةَ الشيخِ عَنِ السَّمَكَةِ أشبعني بمعانيها شبعاً ليس من هذه الدنيا، كأنما طعمتُ منها ثمرةً من ثمارِ الجنة؛ وطفقتُ^(١) أردّها لِنَفْسِي وأتأملُ ما تَفْتَقُ الشهواتُ على الناسِ، فأيقنتُ أَنَّ الْبَلَاءَ إِنَّمَا يُصِيبُنَا مِنْ أَنَّنَا نَفْسُ الدُّنْيَا على طولِها وعرضِها بكلماتٍ معدودة، فإذا استقرَّ في أنفسنا لفظٌ من ألفاظِ هذه الشهواتِ، استقرَّتْ به في النَّفْسِ كُلُّ معانيهِ مِنَ المعاصي والذنوبِ، وأخذتُ شياطينَ هذه المعاني تحومُ على قلوبنا، فنصبحُ مُهيَّئِينَ لهذه الشياطينِ، عاملين لها، ثُمَّ عاملين معها، فتدخلُنا مداخلُ السُّوءِ في هذه الحياة، وتُفجِّمُنَا في الْوَرطَةِ^(٢) بعدَ الْوَرطَةِ، وفي الْهَلَكَةِ بعدَ الْهَلَكَةِ.

وما هذه الشياطينُ إِلَّا كالذبابِ وَالْبَعُوضِ وَالْهُوَامِ^(٣)، لا تحومُ إِلَّا على رائحةٍ تجذبُها، فإنَّ لم تجدْ في النَّفْسِ ما تجتمعُ عليه، تفرقتُ ولم تجتمع، وإذا ألَمَّتِ الْوَاحِدَةُ منها بعدَ الْوَاحِدَةِ لم تثبت. فلو أَنَّا طرَدْنَا مِنْ أَنفُسِنَا الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَفْسَدَتْ عَلَيْنَا رُؤْيَا الدُّنْيَا كَمَا خُلِقَتْ. لَكَانَ لِلدُّنْيَا فِي أَنفُسِنَا شَكْلٌ آخَرُ أَحْسَنُ وَأَجْمَلُ مِنْ شَكْلِهَا، وَلَكَانَتْ لَنَا أَعْمَالٌ أُخْرَى أَحْسَنُ وَأَطْهَرُ مِنْ أَعْمَالِنَا.

فالشيخُ لم يكن في نفسه معنىً لِكَلِمَةِ (التلذذ)، وبطرده من نفسه هذا اللفظَ الْوَاحِدَ، طَرَدَ معانيَ الشَّرِّ كُلِّهَا، وَصَلَحَ له دينُهُ، وَخَلَصَتْ نَفْسُهُ لِلْخَيْرِ ومعاني

(١) طفق: شرع، بدأ.

(٢) الورطة: المصيبة.

(٣) الهوام: الحشرات.

الخير. ولو أن رجلاً وضع في نفسه امرأة يعشقها، لصارت الدنيا كلها في نفسه كالمخدع^(١): ما فيه إلا المرأة وحدها بأسبابها إليه وأسبابه إليها...

وقد كنت سمعت في درس شيخنا أحمد بن حنبل هذا الحديث: «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لَنَظَرُوا إلى مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ». فما فهمت - والله - معناه إلا من كلمة الشيخ في السمكة، وقد علمنيها هذا الصياد العامي؛ فالشياطين تنجذب إلى المعاني، والمعاني يوجدها اللفظ المستقر في القلب استقرار غرض أو شهوة أو طمع؛ فإذا خلا القلب من هذه المعاني، فقد أمن مُنَارَعَتَهَا لَهُ وشغلها إِيَّاه، فيصبح فوقها لا بينها؛ ومتى صار القلب فوق الشهوات ولم يجد من ألفاظها ما يغميه ويعترض نظره إلى الحقائق، انكشفت له هذه الحقائق فأنكشف له المَلَكُوت؛ فإذا وقع بعد في واحدة من اللذات ولو (كالرقاقتين والحلوى)، استغلت الأشياء عليه فحجبته^(٢)، وعاد بينها أو تحتها، وعمى العمى اللذة؛ والحجاب على البصر كأنه تعليق العمى على البصر.

وكنْتُ لا أزال أعجب من صبر شيخنا أحمد بن حنبل وقد ضرب بين يدي المعتصم بالسيّاط حتى غشي عليه فلم يتحوّل عن رأيه؛ فعلمتُ الآن من كلمة السمكة أنه لم يجعل في نفسه للضرب معنى الضرب، ولا عرف للصبر معنى الصبر الآدمي؛ ولو هو صبر على هذا صبر الإنسان لَجَزَعَ^(٣) وتحوّل، ولو ضرب ضرب الإنسان لتألّم وتغيّر؛ ولكنّه وَضَعَ في نفسه معنى ثبات السنّة وبقاء الدين، وأنه هو الأُمّة كلها لا أحمد بن حنبل، فلو تحوّل لتحوّل الناس، ولو ابتدع لابتدعوا؛ فكان صبره صبر أُمّة كاملة لا صبر رجل فرد، وكان يُضرب بالسيّاط ونفسه فوق معنى الضرب، فلو قرّضوه بالمقاريض^(٤) ونشروه بالمناشير لَمَا نالوا منه شيئاً؛ إذ لم يكن جسمه إلا ثوباً عليه، وكان الرجل هو الفكر ليس غير.

هؤلاء قوم لا يرون فضائلهم فضائل، ولكنهم يرونها أمانات قد اتّمسكوا عليها من الله ليتبقّى بهم معانيها في هذه الدنيا؛ فهم يُزَرَعُونَ في الأُمم زرعاً بيد الله، ولا يملك الزرع غير طبيعته، وما كان المعتصم وهو يريد شيخنا على غير رأيه، وعقيدته إلا كالأحمق يقول لشجرة التفاح: أثمري غير التفاح.

(١) المخدع: مكان النوم.

(٣) جزع: خاف.

(٢) حجبته: منعته.

(٤) قرّض: قص.

قال أحمدُ بنُ مسكين: وأخذتُ الرُّقَاقَتَيْنِ وأنا أقولُ في نفسي: لعنَ اللهُ هذه الدنيا! إنَّ من هوانها على اللهِ أنَّ الإنسانَ فيها يلبَسُ وجهَهُ كما يلبَسُ نعلَهُ. فلو أنَّ إنساناً كاثتَ لَهُ نظرةٌ ملائكيَّةٌ ثُمَّ أَعْتَرَضَ الخَلْقَ يَنْظُرُ في وجوهِهِم، لَرَأَى عليها وُحُولاً وأقذاراً كالتي في نعالِهِم أو أقذرَ أو أقبح، ولعلَّهُ كان لا يرى أجملَ الوجوهِ الَّتِي تَسْتَهِيهِمُ النَّاسُ^(١) وتَتَصَبَّأها^(٢) مِنَ الرِّجالِ والنِّساءِ، إلَّا كالأحذيةِ العتيقةِ...

ولكنِّي أحسنتُ أنَّ في هاتينِ الرُّقَاقَتَيْنِ سرَّ الشيخ، ورأيتُهُما في يدي كالوثيقتينِ بخيرٍ كثيرٍ؛ فقلتُ: على بركةِ اللهِ. ومضيتُ إلى داري؛ فلما كُنتُ في الطريقِ لقيتُني امرأةٌ معها صبيٌّ، فنظرتُ إلى المنديلِ وقالت: يا سيدي، هذا طفلٌ يتيمٌ جائعٌ ولا صبرَ لَهُ على الجوعِ، فأطعمهُ شيئاً - يرحمك اللهُ -. ونظرتُ إليَّ الطفلُ نظرةً لا أنساها؛ حَسِبْتُ فيها خُشوعَ ألفِ عابِدٍ يعبدونَ اللهَ (تعالى) مُنْقَطِعِينَ عن الدُّنيا؛ بل ما أَظُنُّ ألفَ عابِدٍ يستطيعونَ أن يُروا النَّاسَ نظرةً واحدةً كالتي تكونُ في عينِ صبيٍّ يتيمٍ جائعٍ يسألُ الرَّحمةَ. إنَّ شِدَّةَ ألهمٍ لَتَجْعَلَ وجوهَ الأطفالِ كوجوهِ القَدِيسينَ، في عينِ مَنْ يراها مِنَ الآباءِ والأمهاتِ، لِعَجْزِ هؤلاءِ الصِّغارِ عن الشرِّ الآدميِّ وأنْقِطاعِهِم إلَّا مِنَ اللهِ والقلبِ الإنسانيِّ، فيظهرُ وجهُ أحدهمُ وكأنَّهُ يَصْرُخُ بمعانيهِ يقول: يا ربَّاهُ يا ربَّاهُ!

قالَ أحمدُ بنُ مسكين: وخُيِّلَ إليَّ حينئذٍ أنَّ الجَنَّةَ نزلتْ إلى الأرضِ تَغْرِضُ نَفْسَها على مَنْ يُشْبِعُ هذا الطفلَ وأُمَّه، والنَّاسَ عَمِّي لا يُبْصِرُونَهَا، وكأنَّهُم يمرون بها في هذا الموطنِ مرورَ الحَميرِ بقصرِ أَمَلِك: لو سُلِّتْ فَضَّلْتُ عليه الإِضْطَبالَ الَّذِي هِيَ فِيهِ...

وذكرتُ أمرأتي وأبْنَهَا وهما جائعانِ مُدْ أَمَسَ، غيرَ أنَّي لم أجِدْ لهما في قلبي معنى الزَّوجَةِ والوَلَدِ: بل معنى هذه المرأةِ المُحْتَاجَةِ وطفليها، فأسْقَطْتُهما عن قلبي ودَفَعْتُ ما في يدي لِلْمَرْأَةِ وَقُلْتُ لَهَا: خذي وأطعْمي أَبْنَكَ، و - واللَّهِ - ما أملكُ بيضاءَ ولا صفراءَ، وإنَّ في داري لَمَنْ هو أَحوجُ إلى هذا الطَّعامِ؛ ولولا هذه الخَلَّةُ بي لَتَقَدَّمْتُ فيما يُضِلُّحُك. فَدَمَعَتْ عيناها، وأشرقَ وَجْهُ الصَّبيِّ، ولكنَّ طَمَّ^(٣) على قلبي ما أنا فيه فلم أجِدْ لِلدَّمْعَةِ معنى الدَّمْعَةِ، ولا لِلْبَسْمَةِ معنى البَسْمَةِ.

(١) تستهيم الناس: تستهويهم.

(٢) تتصباها: تتعشقها.

(٣) طم: خيم.

وقلتُ في نفسي: أما أنا فأطوي إن لم أصب طعاماً، فقد كان أبو بكر الصديق يطوي^(١) ستة أيام، وكان ابنُ عمرٍ يطوي، وكان فلانٌ وفلانٌ مِن حفظنا أسماءهم وروينا أخبارهم؛ ولكن من للمرأة وأبناها بمثل عقدي وثيتي؟ وكيف لي بهما؟

ومشيتُ وأنا مُنكسرٌ مُنقبِض، وكأني كنتُ نسيئُ كلمة الشيخ: «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة». فذكرتها وصرفتُ خاطري إليها وشغلتُ نفسي بتدبرها وقلتُ: لو أنني أشبعْتُ ثلاثةَ بجرعِ اثنين لخرمتُ خمسَ فضائلٍ وهذه الدنيا محتاجةٌ إلى الفضيلة، وهذه الفضيلةُ محتاجةٌ إلى مثل هذا العمل، وهذا العملُ محتاجٌ إلى أن يكونَ هكذا، فما يستقيم الأمرُ إلا كما صنعتُ.

وكانتِ الشمسُ قد أنبسطت في السماءِ وذلك وقتُ الضُحى الأعلى، فملتُ ناحيةً وجلستُ إلى حائطٍ أفكرُ في بيع الدارِ ومن يبتاعها، فأنا كذلك إذ مرَّ أبو نصرٍ الصيادُ وكأنَّه مُستطارٌ فرحاً، فقال: يا أبا محمد، ما يُجسِّسُك ههنا وفي دارك الخيرُ والغنى، قلتُ: سبحان الله! من أين خرجتِ السمكةُ يا أبا نصر؟

قال: إني لفي الطريقِ إلى منزلك، ومعِي ضُرورةٌ من القوتِ أخذتها ليعيالك، ودراهمٌ استدنتُها لك، إذا رجلٌ يستدلُّ الناسَ على أبيك أو أحدٍ من أهله، ومعه أثقالٌ وأحمال، فقلتُ له: أنا أدلك. ومشيتُ معه أسأله عن خبره وشأنيه عند أبيك. فقال: إنَّه تاجرٌ من البصرة، وقد كان أبوك أودعه مالا من ثلاثين سنة، فأفلسَ وأنكسرَ المالُ ثم تركَ البصرةَ إلى خراسانَ، فصلَّحَ أمره على التجارة هناك، وأيسرَ بعدَ المِحنة، وأسْتَظْهَرَ بعدَ الخِذلان، وأقبلَ جُده بالثراءِ والغنى؛ فعادَ إلى البصرة، وأرادَ أن يتحلَّلَ، فجاءك بالمالِ وعليه ما كان يربحه في هذه الثلاثين سنة، وإلى ذلك طرائفُ وهدايا.

قال أحمدُ بنُ مسكين: وأنقلبُ إلى داري فإذا مالٌ جمٌّ وحالٌ جميلة! فقلتُ: صدقَ الشيخ: «لو أطعمنا أنفسنا هذا ما خرجتِ السمكة»! فلو أنَّ هذا الرجلَ لم يلقَ في وجهه أبا نصر، في هذه الطريقِ، في هذا اليوم، في هذه الساعة، لما أهتدى إليَّ؛ فقد كان أبي مغموراً لا يعرفه أحدٌ وهو حيٌّ؛ فكيفَ به ميتاً من وراء عشرين سنة؟

والَيْتُ ليعلمَنَّ اللهُ شكري هذه النعمة؛ فلم تكن لي هِمةٌ إلا البحثَ عن

(١) يطوي: ينام بلا عشاء.

المرأة المحتاجة وأبنها، فكفيتُهما وأجريتُ عليهما رزقاً، ثمَّ اتَّجَرْتُ في المال، وجعلتُ أرْبُهُ^(١) بالمعروفِ والصَّنيعةِ والإحسانِ وهو مُقْبِلٌ يزدادُ ولا ينْقُصُ، حتى تمَوَّلتُ وتأنَّلتُ^(٢).

وكأنِّي قد أعجبْتُني نفسي، وسرَّني أنِّي قد ملأتُ سِجِلَاتِ الملائكةِ بحسناتي، ورجوتُ أن أكونَ قد كُتِبْتُ عندَ اللَّهِ في الصالحينَ، فنمتُ ليلةً فرأيتُني في يومِ القيامةِ والخَلْقِ يَمُوجُ بعضهم في بعضٍ، والهُولُ هَوْلُ الْكَوْنِ الْأَعْظَمِ على الإنسانِ الضعيفِ، يُسألُ عن كُلِّ ما مَسَّهُ من هذا الكونِ. وسمِعْتُ الصائِحَ يقولُ: يا معشرَ بني آدم! سَجَدَتِ أَلْبَهائُكُمْ شُكْراً لِلَّهِ أَنَّهُ لَمْ يجعلْها من آدم. ورأيتُ النَّاسَ وقد وُسِّعَتْ أبدانُهم فهمَ يَحْمِلُونَ أوزارَهم على ظُهُورِهِم مخلوقةً مجسَّمةً، حتى لَكَانَ الفاسِقُ على ظَهْرِ مدينَةٍ كُلِّها مُخْزِيَاتٍ!

وقيل: وَضَعَتِ الموازينُ. وجيءَ بي لِوزنِ أعمالي، فَجُعِلْتُ سِثَاتِي في كِفَّةٍ وأُلْقِيَتْ سِجِلَاتُ حَسَنَاتِي في الأُخرى، فَطَاشَتْ^(٣) السَّجِلَاتُ وَرَجَحَتْ أَلْسِنَاتُ، كأَنَّمَا وَزنُوا الْجِبَلَ الصَّخْرِيَّ الْعَظِيمَ الضَّخْمَ بِلُفَافَةٍ مِنَ الْقَطَنِ...

ثمَّ جعلوا يُلْقُونَ الحسنةَ بعدَ الحسنةِ مِمَّا كُنْتُ أَصْنَعُهُ فَإِذَا تَحْتَ كُلِّ حَسَنَةٍ شَهْوَةٌ خَفِيَّةٌ من شهواتِ النَّفْسِ: كالزَّيَاءِ وَالْعُرُورِ وَحُبِّ الْمَخْمَدَةِ عندَ النَّاسِ وغيرِها، فلم يَسْلَمْ لي شيءٌ، وهَلَكْتُ عَنِّي حُجَّتِي، إِذِ الْحِجَةُ ما يُبَيِّنُهُ الْمِيزَانُ، والمِيزَانُ لم يدُلَّ إِلَّا على أَنِّي فارغٌ.

وسمِعْتُ الصَّوْتَ: أَلَمْ يَبْقَ لَهُ شيءٌ؟ فَقِيلَ: بَقِيَ هذا.

وأنظُرُ لِأَرى ما هذا الذي بقي، فَإِذَا الرُّقَاقَتَانِ اللَّتَانِ أَحْسَنْتُ بِهِمَا على المرأةِ وَأَبْنِهَا! فَأَيَقَنْتُ أَنِّي هَالِكٌ؛ فَلَقَدْ كُنْتُ أَحْسَنُ بِمِائَةِ دِينَارٍ ضَرْبَةً وَاحِدَةً فَمَا أَغْنَتْ عَنِّي، ورأيتُها في الْمِيزَانِ مع غيرها شيئاً معلقاً، كالْغَمَامِ^(٤) حينَ يَكُونُ ساقِطاً بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ: لا هُوَ في هذه ولا هُوَ في تلكِ.

وَوُضِعَتِ الرُّقَاقَتَانِ، وسمِعْتُ الْقَائِلَ: لَقَدْ طَارَ نَصْفُ ثَوَابِهِمَا في مِيزَانِ أَبِي نَصْرِ الصَّيَادِ. فَأَنخَذْتُ^(٥) أَنخِذَالاً شَدِيداً، حتى لو كُسِرَتْ نِصْفَيْنِ لَكَانَ أَخْفَ عَلَيَّ

(١) أرْبُهُ: أزيدُه.

(٢) تأنَّلتُ: اغتنيْتُ.

(٣) طاشت: خَفَّتْ وانحرفت.

(٤) الغمام: الغيم.

(٥) انخذلت: شعرت بالخسران والهزيمة.

وأهون. بَيَدَ أَنِّي نَظَرْتُ فَرَأَيْتُ كِفَّةَ الْحَسَنَاتِ قَدْ نَزَلَتْ مِنْزِلَةً وَرَجَحَتْ بَعْضَ
الرُّجْحَانِ.

وسمعتُ الصوتَ: ألم يبقَ له شيءٌ؟ فقليلَ بقيَ هذا.

وأنظرُ ما هذا الذي بقي، فإذا جوعُ أَمْرَاتِي فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ! وإذا هو شيءٌ
يُوضَعُ فِي الْمِيزَانِ، وإذا هو ينزلُ بِكَفَّةٍ وَيَرْتَفِعُ بِالْأُخْرَى حَتَّى أَعْتَدَلْتَنَا بِالسَّوِيَّةِ.
وَبُتِّبَ الْمِيزَانُ عَلَى ذَلِكَ فَكُنْتُ بَيْنَ الْهَلَاكِ وَالنَّجَاةِ.

وأسمعُ الصوتَ: ألم يبقَ لَهُ شيءٌ؟ فقليلَ بقيَ هذا.

ونظرْتُ فإذا دموعُ تِلْكَ الْمَرْأَةِ الْمَسْكِينَةِ حِينَ بَكَتْ مِنْ أَثَرِ الْمَعْرُوفِ فِي
نَفْسِهَا، وَمِنْ إِثَارِي^(١) إِيَّاهَا وَأَبْنَاهَا عَلَى أَهْلِي. وَوَضِعْتُ غَرَّغَرَةً^(٢) عَيْنِهَا فِي
الْمِيزَانِ فَفَارَتْ، فَطَمَّتْ^(٣) كَأَنَّهَا لُجَّةٌ، مِنْ تَحْتِ اللَّجَّةِ بَحْرٍ؛ وَإِذَا سَمَكَةٌ هَائِلَةٌ قَدْ
خَرَجَتْ مِنَ اللَّجَّةِ وَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا رُوحُ تِلْكَ الدَّمْعِ، فَجَعَلْتُ تَعْظُمُ وَلَا تَزَالُ
تَعْظُمُ، وَالْكَفَّةُ تَرْجَحُ وَلَا تَزَالُ تَرْجَحُ، حَتَّى سَمِعْتُ الصَّوْتَ يَقُولُ: قَدْ نَجَا!
وَصَخْتُ صِيحَةً أَنْتَبَهْتُ لَهَا، فَإِذَا أَنَا أَقُولُ: «لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ
السَّمَكَةُ!».

(١) إِيثَارِي: تفضيلي.

(٢) غَرَّغَرَةٌ: دموع.

(٣) طَمَّتْ: فاضت.

الزاهدان

٢

قال أحمدُ بنُ مسكين: انتشر حديثُ السمكةِ في أهلِ (بلخ). وأستفاض^(١) بينهم، وكنتُ قَصَصْتُه عليهم يومَ السبت، فلما دارَ السبتُ من أسبوعِهِ لَقِيتُني شيخُهم حاتمُ بنُ يوسفَ (لقمانُ الأُمّةِ) ومعه صاحبه أبو تراب، فقال: يا أحمد! لكأنّك في هذه المدينة قمرٌ طَلَعَ بَلِيلٌ فلا يَعْظُ الناسَ في يومِ السبتِ غيرُك؛ وَمَنْ سَمِعَ فكَأَنَّهُ عَايَنَ^(٢)، وليسَ على ألسنةِ أهلِ بلخِ منذُ تحدّثتُ إِلَّا بِشَرٍّ وَأَبْنُ حَنْبَلٍ، ولا على بالِ أحدٍ منهم إِلَّا مَوْعِظَتُكَ وحديثُكَ.

والكلامُ عن الصالحينَ في مثلِ ما وصفتُ وحكى قُرْبُ من حقائقهم، وسُمِّوْا إلى معانيهم، وليسَ في القولِ بابٌ لَهُ مَوْقِعٌ كَمَوْقِعِ الْقِصَّةِ عن هؤلاء الذين يخلُقُهُمُ اللَّهُ في البشريّةِ خلقَ النور: يُضِيءُ ما حوله من حيثُ يُرى، ويعملُ فيما حوله من حيث لا يُرى، وفي ظاهره الجمالُ والمنفعة، وفي باطنه القوةُ والحياة. ولستُ أقولُ لك أذهبَ فحدّثِ الناسَ، ولكني أقولُ أذهبَ فأعْطِ الناسَ عقلاً مِنَ الحديثِ.

قال أبْنُ مسكين: فلما صَلَّينا العَصْرَ، قَدَّمَنِي أبو ترابٍ فجلستُ في مجلسي ذاك، وهَتَفَ بِي الناسُ يُريدونَ الحديثَ عن بشرِ الحافي وما سَقَطَ لي من أخبارِهِ، على الطريقةِ التي حدّثُهم بها من قبل، فأبتدأتُ بذكرِ موْتِهِ (رحمَهُ اللَّهُ) وأنَّ يومَهُ كأنّما أَجْتَمَعَ له أهلُ خمسٍ وسبعينَ سنة، إذ خَرَجَتْ جنازَتُهُ بعدَ صلاةِ الصبح، فلم يحصلْ في قبرِهِ إِلَّا في اللَّيْلِ مِمَّا أَحْتَشَدَ^(٣) في طريقِهِ مِنَ الخلقِ، حتى لَكَأَنَّ في نَعِيشِهِ سِرًّا من أسرارِ الجَنَّةِ يُطالِعُهُم بِهِ أَلَمُوتُ فخرجوا ينظرونَ إليه، وكانوا يصيحونَ في جنازَتِهِ: هذا - وَاللَّهِ - شَرَفُ الدُّنْيَا قَبْلَ شَرَفِ الآخِرَةِ.

(١) استفاض: انتشر.

(٢) عاين: رأى.

(٣) احتشد: تجمهر، اجتمع.

ثُمَّ قُلْتُ: حَدَّثَنِي حُسَيْنُ الْمَغَازِلِيِّ: أَنَّ بَشْرًا (رَحِمَهُ اللَّهُ) كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا الْخَبْزَ تَوَرُّعًا عَنِ الشَّبَهَاتِ وَاكْتِفَاءً لِحُضُورَةِ الْحَيَاةِ بِالْأَقْلُ الْأَيْسَرِ، وَكَانَ يَقُولُ فِي ذَلِكَ: يَدٌ أَقْصَرُ مِنْ يَدِي، وَلُقْمَةٌ أَصْغَرُ مِنْ لُقْمَةٍ. وَسُئِلَ مَرَّةً: بِأَيِّ شَيْءٍ تَأْكُلُ الْخَبْزَ؟ فَقَالَ: أَذْكَرُ الْعَافِيَةِ فَأَجْعَلُهَا إِدَامًا. وَقَدْ أَعَانَهُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَتَزَوَّجْ، وَكَانَ يَرَى هَذَا نَقْصًا فِي نَفْسِهِ حَتَّى فَضَّلَ الْإِمَامَ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ بِأَشْيَاءَ: مِنْهَا أَنَّ لَهُ أَهْلًا؛ غَيْرَ أَنَّهُ قِيلَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ: لَوْ تَزَوَّجْتَ تَمَّ نُسُكُكَ. فَقَالَ: أَخَافُ أَنْ تَقُومَ الزَّوْجَةُ بِحَقِّي وَلَا أَقُومَ بِحَقِّهَا. فَكَانَتْ هَذِهِ النِّيَّةُ فِي نَفْسِهِ أَفْضَلَ مِنْ زَوَاجِهِ.

وَكَانَ مَعَ هَذَا لَا يُؤَاكِلُ أَحَدًا، وَلَا يَسْعَى إِلَى لِقَاءِ أَحَدٍ، حَتَّى إِنَّهُ لَمَّا رَغِبَ فِي مُوَاخَاةِ الزَّاهِدِ الْعَظِيمِ (مَعْرُوفِ الْكَرْخِيِّ)، أَرْسَلَ إِلَيْهِ (الْأَسْوَدُ بْنُ سَالِمٍ) وَكَانَ صَدِيقًا لَهُمَا، فَقَالَ لِمَعْرُوفٍ: إِنَّ بَشْرَ بْنَ الْحَارِثِ يُرِيدُ مُوَاخَاةَكَ وَهُوَ يَسْتَحِي أَنْ يُشَافِهَكَ^(١)، بِذَلِكَ، وَقَدْ أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ أَنْ تَعْقِدَ لَهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَكَ أَخُوَّةً يَحْتَسِبُهَا وَيَعْتَدُ بِهَا؛ إِلَّا أَنَّهُ يَشْتَرِطُ فِيهَا شَرْوْطًا: أَوَّلُهَا أَنَّهُ لَا يُحِبُّ أَنْ يَشْتَهَرَ ذَلِكَ، وَثَانِيهَا أَلَّا يَكُونَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ مُزَاوَرَةٌ وَلَا مُلَاقَاةٌ. فَقَالَ مَعْرُوفٌ: أَمَّا أَنَا فإِذَا أَحْبَبْتُ أَحَدًا لَمْ أَحِبَّ أَنْ أَفَارِقَهُ لَيْلًا وَلَا نَهَارًا، وَأَزُورُهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ، وَأَوْثِرُهُ عَلَى نَفْسِي فِي كُلِّ حَالٍ؛ وَأَنَا أَعْقِدُ لِبَشْرِ أَخُوَّةَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ، وَلَكِنِّي أَزُورُهُ مَتَى أَحْبَبْتُ، وَأَمْرُهُ بِلِقَائِي فِي مَوَاضِعَ نَلْتَقِي فِيهَا إِذَا هُوَ كَرِهَ زِيَارَتِي.

قَالَ حُسَيْنُ الْمَغَازِلِيِّ: وَكَانَ هَذَا كُلُّهُ مِنْ أَمْرِ بَشْرِ مَعْرُوفًا فِي بَغْدَادَ، لَا يَجْهَلُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا، إِذْ لَمْ يَكُنْ لِبَغْدَادَ إِمَامٌ غَيْرُهُ وَغَيْرُ أَبِي حَنْبَلٍ؛ فَمَا كَانَ أَكْثَرَ عَجَبِي حِينَ كُنْتُ عِنْدَهُ يَوْمًا وَقَدْ زَارَهُ (فَتَحَّ الْمَوْصِلِي)، فَقَامَ فَجَاءَ بِدَارِهِمْ مَلَأَ كَفَّهُ وَدَفَعَهَا إِلَيَّ وَقَالَ: أَشْتَرِ لَنَا أَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّعَامِ، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الْحُلُوى، وَأَطِيبَ مَا تَجِدُ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا قَالَ لِي مِثْلَ ذَلِكَ قَطُّ، وَهُوَ الَّذِي رَأَى الْفَاكِهَةَ يَوْمًا فَقَالَ: تَرُكْ هَذِهِ عِبَادَةً! وَهُوَ الْقَائِلُ لِأَبِي نَصْرِ الصِّيَادِ: لَوْ أَطْعَمْنَا أَنْفُسَنَا هَذَا مَا خَرَجَتْ أَلْسِمَكَةُ.

فَذَهَبْتُ فَأَشْتَرَيْتُ وَأَنْتَقَيْتُ وَتَخَيَّرْتُ، ثُمَّ وَضَعْتُ الطَّعَامَ بَيْنَ أَيْدِيهِمَا، فَرَأَيْتُهُ يَأْكُلُ مَعَهُ وَمَا رَأَيْتُهُ أَكَلَ مَعَ غَيْرِهِ، وَرَأَيْتُهُ مُنْبَسِطًا إِلَيْهِ وَمَا لِي عَهْدٌ كَانَ بِأَنْبَسَاطِهِ إِلَى أَحَدٍ. وَقَدْ كُنْتُ أَخْبِرْتُهُ فِي ذَلِكَ النَّهَارِ بِخَبْرِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، عَلِمْتُهُ مِنْ أَدْرِيسَ

(١) يَشَافِهَكَ: يَحَدِّثُكَ.

الحداد: فإنه لما زالت المحنة بعد أن ضرب بين يدي المعتصم وصُرف إلى بيته، حُمِلَ إليه مالٌ كثيرٌ من سرّوات^(١) بغداد وأهل الخير فيها، فردّ جميع ذلك ولم يقبل منه قليلاً ولا كثيراً، وهو محتاجٌ إلى أيسره، وإلى الأقلّ من أيسره، وإلى الشيء من أقلّه، فجعل عمّه إسحاق يَحْسَبُ ما ورد ذلك اليوم، فكان خمسين ألف دينار، فقال له الإمام: يا عمّ، أراك مشغولاً بحساب ما لا يُفيدك. قال: قد ردّدت اليوم كذا وكذا ألفاً وأنت محتاجٌ إلى حبة من دائق. فقال الإمام: يا عمّ، لو طلبناه لم يأتنا، وإنّا أتاناً لما تركناه.

قال المغازلي: فَنِمْتُ تلك الليلة وأنا أفكرُ في صنيع الشيخ، وقد تعلّق خاطري به: كيف أنقلبَت الحال معه، وأي شيء هذه الحال؟ وجعلتُ أكيدُ ذهني لأعرف الحقيقة العقلية التي سلّطت عليه هذه الضرورة فتسلّط النعيم على نفسه، وأنا أعلم أن للقوم علوماً روحانية ليست في الكتب، فمنها لا يتعلمونه إلا من الفقر، ومنها ما لا يتعلمونه إلا من البلاء، ومنها، ومنها؛ ولكن ليس منها ما يتعلمونه من اللذات والشهوات؛ وذهب قلبي إلى أوهام كثيرة ليس في جميعها طائل ولا بها معرفة، حتى غلبني عياني، وأنا من وهج الفكر نائمٌ كالمريض، وقد ثقل رأسي واختلط فيه ما يُعقل بما لا يُعقل.

فرأيتُ أول ما رأيتُ ملكاً جباراً يحكمُ مدينةً عظيمة، وقد أطلق المنادي في جمع كل أطفال مدينته، فجيء بهم من كل دار، ثم رأيتُه قد جلس على سريره وفي يده مقراضٍ عظيم، قد أخذهُ على هيئة نصلين^(٢) عريضين لو وُضِعَتْ بينهما رقبة لفصلاها عن جسمها؛ فكان هذا الجبار يتناول الطفل من أولئك فيضع أصابع إحدى قدميه في شِقِّي المقرض فيقرضها، فإذا هي تتناثر أسرع ممّا يقرض المقرض الخيط، ثم يرمي بالطفل مغشياً عليه، ويتناول غيره فيبتر^(٣) أصابعه، والأطفال يصرخون؛ وأنا أرى كل ذلك ولا أملك إلا غيظي على هذا الجبار من حيث لا أستطيع أن أمضي فيه هذا الغيظ فأقرض عنقه بمقراضه.

ثم رأيتُه يأخذ طفلاً صغيراً، فلما جاءت قدم الطفل بين شِقِّي المقرض صاح: يا

(١) السروات: الأغنياء.

(٢) نصل السيف: المكان القاطع منه.

(٣) بتر: قطع.

رب، يا رب. فإذا المِقراض يلتوي فلا يصنع شيئاً، وكأن فيه حجراً صَليداً لا قدماً رَخَصَةً^(١). فتميّز الجبار من الغيظ وقال: مَنْ هذا الطفل؟ فسمعتُ هاتفاً يهتف: هذا بشرٌ الحافي! لا يبلغ تاجُ ملكٍ في الأرض أن يكونَ لقدميه الحافية نعلًا عند الله! وكان إلى يميني رجلٌ يتَوَضَّأُ وجهه صلاحاً وتقوى، فقلتُ له: مَنْ هذا الطاغية^(٢)؟ ولم اتَّخذ المِقراض لإقدام الأطفالِ خاصَّةً؟

فقال: يا حسين! إنَّ هذا الجبار هو ذلُّ العيش، وهذا وَسْمُهُ لِأهلِ الحياة على الأرض، يُحقِّقُ به في الإنسانِ معنى البهيمية أولَ ما يدبُّ^(٣) على الأرض، حتى كأنَّه ذو حافر لا ذو قدم.

قلت: فما بال هذا الطفل لم يعمل فيه المِقراض؟

قال: إنَّ لِلَّهِ عِبَاداً اسْتَخَصَّهُمْ^(٤) لِنَفْسِهِ، أولُ علامته فيهم أنَّ الذلَّ تحت أقدامهم، وهم يجيئون في هذه الحياة لِإثباتِ القُدرةِ الإنسانيَّةِ على حكم طبيعة الشهواتِ التي هي نفسُها طبيعةُ الذلِّ؛ فإذا أطرح أحدهم للشهواتِ وزهد فيها، واستقام على ذلك في عقْدِ نيَّةٍ وقوةٍ إرادة، فليس ذلك بالزاهد كما يصفه الناس، ولكنَّه رجلٌ قويٌّ اختارته القُدرةُ ليحملَ أسلحةَ النفسِ في معاركها الطاحنة، كما يحملُ البطلُ الأروغ أسلحةَ الجسمِ في معاركه الدامية: هذا يتعلَّم منه فنٌّ، وذاك يتعلَّم منه فنٌّ آخر، وكلاهما يرمي به على الموتِ لإيجادِ النوعِ المستمرِّ من الحياة، فأولُ فضائله الشعورُ بالقُوَّة، وآخرُ فضائله إيجادُ القُوَّة.

قال المغازلي: وضربَ النومُ على رأسي ضربةً أخرى. فإذا أنا في أرضٍ خبيثةٍ داخِنةٍ، قد ارتفع لها دُخانٌ كثيفٌ أسودُّ يتضرَّبُ بعضُه في بعضٍ رجعتُ أرى شِعْلاً حمراً تذهب وتجيء كأنها أجسامٌ حيَّة، فوقَّع في وهمي أنَّ هؤلاء هم الشياطينُ: إبليسُ وجنوده، وسمعتُ صارخاً يقول: يا بشرى! قُلتَ السَّماءَ على الأرض، لقد أكلَ بشرٌ الحافي من أطيبِ الطعامِ وأطيبِ الحلوى بعد أن استوى عنقه حَجَرُها ومَدْرُها^(٥)، وذهبها وفَضَّتْها! فعارضه صائحٌ أسمعُ صوته ولا أرى شخصه: عليك يا زَلْتَبُورُ^(٦)! إنَّ هذا شرٌّ علينا من عامَّةِ نُسكِهِ وعبادته؛ فهذا - ويحك - هو الزَّهْدُ الأعلى الذي كان لا

(١) رَخَصَة: طريقة لدنة.

(٤) اسْتَخَصَّهُمْ: استخلصهم.

(٢) الطاغية: الظالم.

(٥) مدرها: مدنها وحضرها.

(٣) يدب: يمشي.

(٦) زَلْتَبُور: هو اسم لبعض ولد إبليس.

يُطِيقُهُ بَشَرٌ؛ إِنَّهُ إِعْنَاتٌ^(١) سَلَطَهُ عَلَى نَفْسِهِ، فَإِنِّي دَفَعْتُ هَذَا (الْمَغَازِلِيَّ) الْأَعْمَى الْقَلْبَ لِيَزِيْنَ لَهُ مَا فَعَلَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ مِنْ رَدِّهِ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ عَلَى حَاجَتِهِ، زَهْدًا وَوَرَعًا، وَقُوَّةَ عَزْمٍ، وَنَفَازَ إِرَادَةٍ؛ وَقُلْتُ: عَسَى أَنْ تَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ شَهْوَةُ الزَّهْدِ فَيَخْسُدَ أَوْ يَغَارَ، أَوْ تَعْجِبَهُ نَفْسُهُ فَيَكُونُ لِي مِنْ ذَلِكَ لَمَّةٌ^(٢) بَقَلْبِهِ فَأَوْسِرَ لِي، فَإِنَّا نَأْتِي هَؤُلَاءِ مِنْ أَبْوَابِ الثَّوَابِ كَمَا نَأْتِي غَيْرَهُمْ مِنْ أَبْوَابِ الْمَعَاصِي، وَنَتَوَرَّعُ مَعَ أَهْلِ الْوَرَعِ كَمَا نَتَسَخَّفُ مَعَ أَهْلِ التَّسَخُّفِ؛ وَلَكِنْ الرَّجُلُ رَجُلٌ وَفِيهِ حَقِيقَةُ الرَّاهِدِ، فَقَدْ أُعْطِيَ الْقُوَّةَ عَلَى جَمْعِ شَهَوَاتِ نَفْسِهِ أَشْخَاصًا صَاحِبَةً يُعَادِيهَا وَيَقَاتِلُهَا، فَإِذَا أَنَا جَعَلْتُ شَهْوَتَهُ فِي اللَّذَّةِ قَتْلَ اللَّذَّةِ، وَإِذَا جَعَلْتُهَا فِي الْكَأَبَةِ قَتْلَ الْكَأَبَةِ، وَلَيْسَ الزَّاهِدُ الْعَابِدُ هُوَ الَّذِي يَتَقَشَّفُ وَيَتَعَفَّفُ، وَيَتَخَفَّفُ وَيَتَلَفَّفُ، فَإِنْ كَثِيرًا مَا تَكُونُ هَذِهِ هِيَ أَوْصَافُ الدُّلِّ وَالْحَمَى، وَيَكُونُ لَهَا عَمَلُ الْعِبَادَةِ فِيهَا إِنَّمَا الْمَعْصِيَةُ. وَلَكِنْ الزَّاهِدُ حَتَّى الزَّاهِدُ مَنْ أَدَارَ فِي هَذِهِ الْأَشْيَاءِ عَيْنًا قَدْ تَعَلَّمَتْ النَّظَرَ بِحَقِّهِ وَالْإِعْضَاءَ^(٣) بِحَقِّهِ؛ فَهَذَا لَا يُخْطِئُ مَعْنَى الشَّرِّ إِنْ لَبَسَتْهُ^(٤) عَلَيْهِ فِي صُورَةِ الْخَيْرِ، وَلَا مَعْنَى الْخَيْرِ إِنْ زُودَتْهُ فِي صُورَةِ الشَّرِّ، وَبِذَلِكَ يَضَعُ نَفْسَهُ فِي حَيْثُ شَاءَ مِنَ الْمَنْزِلَةِ، لَا فِي حَيْثُ شَاءَتْ أَلْمَنِيَا أَنْ تَضَعَهُ مِنْ مَنَازِلِهَا الدُّنْيَا.

وَمَا أَكَلُ بَشَرٌ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ إِلَّا لِيُنَادِرَ بِهَا وَسُوسَتِي وَيُرَدِّي عَنْ نَفْسِي وَعَنِ اللَّمَّةِ بَقَلْبِهِ، فَلَوْ أَنَّهُ أَحْبَبَهُ زَهْدُ ابْنِ حَنْبَلٍ وَنَظَرَ مِنْ ذَلِكَ إِلَى زَهْدِ نَفْسِهِ لَحَبِطَ أَجْرُهُ؛ فِيهِذِهِ الطَّيِّبَاتِ عَالَجَ نَفْسُهُ عِلَاجَ مَرِيضٍ، وَقَدْ غَيَّرَ عَلَى جَرِيدٍ طَعَامًا بِطَعَامٍ، كَمَا يَسْلُ عَلَى جِلْدِهِ ثَوْبًا بِثَوْبٍ؛ وَلَا شَهْوَةَ لِلْجِلْدِ فِي أَحَدِهِمَا.

قَالَ الْمَغَازِلِيُّ: وَثَقُلَ النَّوْمُ عَلَيَّ ثَقَلَةً أُخْرَى، فَرَأَيْتُنِي فِي وَادٍ عَظِيمٍ، وَفِي رِسْطِهِ مِثْلُ الطُّودِ^(٥) مِنَ الْحَجَارَةِ قَدْ رُكِمَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ؛ وَرَأَيْتُنِي مَعَ بَشَرٍ أَقْصَى عَلَيْهِ خَيْرَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ؛ فَقَالَ: أَنْظِرْ - وَيْحَكَ -؛ إِنَّ النَّاسَ يَسْمُونَهَا خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ، وَهِيَ هُنَا فِي وَادِي الْحَقَائِقِ خَمْسُونَ أَلْفَ حَجَرٍ لَوْ أَصَابَتْ أَحْمَدَ لَقَتَلَتْهُ وَلَكَاتَتْ قَبْرَهُ آخِرَ الدَّهْرِ.

إِنَّ أَلْمَالَ يَا بُنَيَّ هُوَ مَا يَعْمَلُهُ أَلْمَالُ لَا جَوْهَرُهُ مِنَ الْذَهَبِ وَالْفِضَّةِ، فَإِذَا كُنْتُ

(١) إعْنَات: إغتاب.

(٢) لَمَّة: مؤهنة.

(٣) الإِعْضَاء: من الجنون.

(٤) لَبَسَتْ: بسكون اللام: العجل.

(٥) الطُّود: بسكون الواو: الجبل.

بِمَفَازَةٍ^(١) لَيْسَ فِيهَا مِنْ يَبِيعُكَ شَيْئاً بِذَهَبِكَ، فَالْتِرَابُ وَالذَّهَبُ هُنَاكَ سَوَاءٌ؛ وَالْفَضَائِلُ هِيَ ذَهَبُ الْآخِرَةِ؛ فَهَنَا تُجَدُّدُ بِالْمَالِ دُنْيَاكَ الَّتِي لَا تَبْقَى أَكْثَرَ مِنْ بَقَائِكَ، وَهَنَاكَ تُجَدُّدُ بِالْفَضَائِلِ نَفْسَكَ الَّتِي تَخْلُدُ بِخُلُودِهَا.

وَمَعْنَى أَلْغَيْنِي مَعْنَى مُلْتَبِسٌ عَلَى الْعُقُولِ الْآدَمِيَّةِ لِاجْتِمَاعِ الشَّهَوَاتِ فِيهِ، فَحِينَ يَرِدُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ خَمْسِينَ أَلْفًا، يَكُونُ هَذَا الْمَعْنَى قَدْ صَحَّحَ نَفْسَهُ فِي هَذَا الْعَمَلِ وَجْهًا مِنَ التَّصْحِيحِ.

قَالَ حُسَيْنُ الْمَغَازَلِيِّ: وَغَطَّنِي^(٢) أَلْنُومٌ فِي أَعْمَاقِهِ غَطَّةٌ أُخْرَى؛ فَإِذَا أَنَا فِي الْمَسْجِدِ فِي دَرَسِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَهُوَ يُحَدِّثُ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا عَظَّمْتَ أُمَّتِي الدِّينَارَ وَالْدِّرْهَمَ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكَوْا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، حُرِّمُوا بَرَكَةُ الْوَحْيِ» وَهَمَّ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي تَفْسِيرِهِ وَلَكِنَّهُ رَأَى فَأَمْسَكَ^(٣) عَنْهُ وَأَقْبَلَ عَلَيَّ فَقَالَ: يَا حُسَيْنُ! إِذَا أَجْتَزَأَ شَيْخُكَ بِالرَّغِيفِ فَهَذَا عِنْدَهُ هُوَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ؛ فَإِنْ أَكَلَ الطَّيِّبَاتِ فَقَدْ عَرَضَتْ حَالٌ جَعَلَتْ هَذِهِ الطَّيِّبَاتِ عِنْدَهُ هِيَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ؛ وَفِي هَذِهِ النُّفُوسِ السَّمَاوِيَّةِ لَا يَكُونُ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ إِلَّا مَحْدُودًا، فَلَا يَكُونُ مَحْصُولُهُ إِلَّا مَا تَرَى مِنْ قَدْرِ الضَّرُورَةِ.

وَلَمَّا صَغُرَ الْجُزْءُ الْأَرْضِيُّ فِي نَفُوسِ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَّلِينَ مَلَكَوْا الْأَرْضَ كُلَّهَا بِقُوَّةِ الْجُزْءِ السَّمَاوِيِّ فِيهَا، إِذْ كَانَتْ إِرَادَتُهُمْ فَوْقَ الْأَطْمَاعِ وَالشَّهَوَاتِ، وَكَانَتْ بِذَلِكَ لَا تَذُلُّ وَلَا تَضَعُفُ وَلَا تَنْكَسِرُ؛ فَالْآدَمِيَّةُ كُلُّهَا تَنْتَهِي إِلَى بَعْضِ صُورٍ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الَّذِينَ مَحَلُّهُمْ فِي أَعْلَاهَا

يَا حُسَيْنُ! أَلَا وَإِنَّ رَدَّ خَمْسِينَ أَلْفَ دِينَارٍ هُوَ كَذَلِكَ قَدْرُ الضَّرُورَةِ.

قَالَ حُسَيْنٌ: وَذَهَبْتُ أَعْتَرِضُ عَلَى الْإِمَامِ بِمَا كَانَ فِي نَفْسِي مِنْ أَنَّ هَذَا الْمَالُ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ مِنْ كَسْبِهِ، فَقَدْ كَانَ يَتَحَوَّلُ فِي يَدِهِ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَيْرِ؛ وَأُنْسِنْتُ أَنَّ هَذِهِ الصَّدَقَاتِ هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ وَأَقْدَارُ نَفُوسِهِمْ، فَلَمْ أَكْذُ أَفْتَحُ فَمِي حَتَّى رَأَيْتُ الْكَلَامَ يَتَحَوَّلُ طِينًا فِي فَمِي لِيَذْكُرَنِي بِهَذَا الْمَعْنَى؛ وَكَذْتُ أَخْتَنُقُ فَأَنْتَفَضْتُ أَنْفَاسًا، فَطَارَ أَلْنُومُ وَالْجِلْمُ.

(١) المفازة: الطريق الضيق.

(٢) غطني النوم: غلبنِي.

(٣) أمسك: توقَّف وانقطع.

إِبْلِيسُ يُعَلِّمُ

٣

قالَ أحمدُ بنُ مسكينٍ: ودارَ ألسببُ الثالثُ، وجلسْتُ مجلسي للناسِ وقد انتظمتُ حَلَقَتَهُمْ؛ فقامَ رجلٌ من عُرضٍ^(١) المجلسِ فقال: إِنَّ الحَسَنَ بنَ شُجاعِ البُلخي تلميذَ الإمامِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، كانَ منذُ قريبٍ يُحدِّثنا بأحاديثٍ عنِ الشيطانِ، حفظنا منها قوله ﷺ: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يُنْضِي^(٢) شَيْطَانَهُ كَمَا يُنْضِي أَحَدُكُمْ بَعِيرَهُ فِي سَفَرِهِ». وكانَ الحَسَنُ يقولُ في تَأْوِيلِهِ: إِنَّ شَيْطَانَ الْكَافِرِ دَهِينٌ سَمِينٌ كَاسٍ، وشَيْطَانَ الْمُؤْمِنِ مَهْزُولٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ عَارٍ. فهل يأكلُ الشيطانُ وَيَدَّهِنُ وَيَلْبَسُ لِيَكُونَ لَهُ أَنْ يَجُوعَ مَعَ الْمُؤْمِنِ وَيَعْرِى وَيَتَشَعَّتْ وَيَغْبَرُ؟

قالَ أبْنُ مسكينٍ: فقلْتُ في نفسي: لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! ما أرى السَّائِلَ إِلَّا شَيْطَانَ هَذَا السَّائِلِ؛ فَإِنَّ إِبْلِيسَ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَنْخَرَّ مِنَ الْعَالَمِ وَيُسْمِعَهُ طَنْزَهُ وَتَهْكِمَهُ^(٣)، حَرَّكَ مَنْ يَسْأَلُهُ عَنْهُ مَا هُوَ وَكَيْفَ هُوَ؛ كَأَنَّمَا يَقُولُ لَهُ: تَنَبَّهْ - وَيَحْكُ - عَلَى مَعْنَايَ، فَأَنْتَ تَتَكَلَّمُ وَأَنَا أَعْمَلُ، وَأَنْتَ صَوْرَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيَّ، وَلَكِنِّي حَقِيقَةٌ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْكَ، وَمَا أَنْتَ فِي مُحَارَبَتِكَ لِي بِالْوَعْظِ إِلَّا كَالَّذِي يُرِيدُ أَنْ يَضْرِبَ عُتْقَ عَدُوِّهِ بِمِائَةِ أَسْمٍ وَضِعَتْ لِلسَّيْفِ...

قالَ: وَكُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ خَبْرًا عَجِيبًا عَنْ أَبِي عَامِرٍ قَبِيصَةَ بنِ عُقْبَةَ الكُوفِيِّ الْمُحَدِّثِ الْحَافِظِ الثَّقَةِ أَحَدِ شُيُوخِ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ؛ وَهُوَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ الْعَابِدُ الَّذِي كَانَ يُقَالُ لَهُ: (رَاهِبُ الْكُوفَةِ)؛ مِنْ زُهْدِهِ وَعِبَادَتِهِ وَأَحْتِسَابِ نَفْسِهِ فِي دَاخِلِهِ كَأَنَّمَا جَسَدُهُ جِدَارٌ بَيْنَ نَفْسِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا، فَقُلْتُ - وَاللَّهِ - لِأَغْيَظَنَّ الشَّيْطَانَ بِهَذَا الْخَبَرِ، فَإِنَّ أَسْمَاءَ الْزُهَّادِ وَالْعَبَادِ وَالصَّالِحِينَ هِيَ فِي تَارِيخِ الشَّيَاطِينِ كَأَسْمَاءِ الْمَوَاقِعِ الَّتِي

(١) عرض، بتسكين الراء: جهة.

(٢) ينضي: يتعب ويهزل.

(٣) الطنز: السخرية والتهكم.

تنهزم فيها الجيوش، وما الرجل العابد إلا صاحب الغمرات^(١) مع الشيطان، وكأنه يحتمل المكاره عن أمة كاملة بل عن البشرية كلها حيث كانت من الأرض، فالناس يحسبونه قد تخلّى من الدنيا ويظنون أن ترك أسر شيء، وما علموا أن الزهد لا يستقيم للزاهد حتى يجعل جسمه كأنه نوع نظام آخر غير نظام أعضائه؛ ولا أشق من ذلك على النفس. ومعجزة الزاهد أنه مكلف أن يخرج للناس أقوى القوة من المعاني التي هي عند الناس أضعف الضعف؛ ولو أن ملكاً عظيماً تعب في جمع الدنيا وفتح الممالك حتى حيزت^(٢) له جوانب الأرض، لكان عمله هذا هو الوجه الآخر لتعب الزاهد في مجاهدة هذه الدنيا وتركها.

قال أحمد بن مسكين: وقصصت عليهم القصة فقلت: كان أبو عامر قبيصة بن عتبة كثير الفكر في الشيطان، يؤد لو رآه وناقله الكلام؛ وكان يتدبر الأحاديث التي صح ورودها فيه، ويفسر معنى الشيطان بأنه الروح الحي للخطأ على الأرض؛ والخطأ يكون صواباً محولاً عن طريقته وجهته، ولهذا كان إبليس في الأصل ملكاً من الملائكة وتحول عن طبيعته حين خلق آدم (عليه السلام)، أي وجد في الكون روح الخطأ حين وجد فيه الروح الذي سيخطئ.

فلما هبط آدم من الجنة وحرمها هو وزوجه وذريته، كان إبليس (لعنه الله) هو معنى بقاء هذا الحرمان واستمراره على الدهر، فكان هذه الأدمية أخرجت من الجنة، وأخرجت معها قوة لا تزال تصدّها عنها، ليضطربا في الكفاح ملياً من زمن هو عمر كل إنسان، وهذا هو العدل الإلهي: لم يعرف آدم حق الجنة، فعوقب ألا يأخذها إلا بحققها، وأن يقا تل في سبيل الخير قوة الشر.

وبات أبو عامر ذات ليلة يفكر في هذا ونحوه بعد أن فرغ من صلاته وقراءته، ثم هوَم^(٣) فكان بين اليقظة والنوم، وذلك حين تكون العين نائمة والعقل لا يزال متنبهاً، فكان العين مترجعة تبصر من تحت أجفانها بصرأ يشاركها فيه العقل.

فراي شيخنا أبو عامر صورة إبليس جاءه في زي رجل زاهد، حسن السمّت^(٤) طيب الريح، نظيف الهيئة، وكاد يشبه عليه لولا أنه قد عرفه من عينه.

(١) الغمرات: الحروب.

(٣) هوَم: تحير.

(٤) السمّت: الهيئة والمظهر.

(٢) حيزت: تحصّلت.

فَإِنْ عَيْنِي الْكَاذِبِ تَصْدُقَانِ عَنْهُ، وَقَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّ الْكَاذِبَ آدَمِيٌّ قَفَرٌ^(١) كَالْمَتَاهَةِ مِنَ الْأَرْضِ، فَجَعَلَ عَيْنِيهِ كَالْعَلَامَاتِ لِمَنْ خَاضَ الْفَلَاةَ.

وظَهَرَ الشَّيْطَانُ زَاهِدًا عَابِدًا تَقِيًّا نَقِيًّا كَأَنَّهُ دِينَ صَحِيحٌ خُلِقَ بَشَرًا، فَصَرَخَ فِيهِ أَبُو عَامِرٍ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! أَمْعَصِيَّةٌ فِي ثَوْبِ اطَّاعَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ! لَوْ لَمْ تَقُلْ: أَلْمَعْصِيَّةُ إِنَّهَا طَاعَةٌ لَمْ يُقَارَفْهَا^(٢) أَحَدٌ. وَهَلْ خُلِقَتِ الشَّهَوَاتُ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ وَغَرِيزَتِهِ إِلَّا لِتَقْرِيبِ هَذِهِ الْمَعَاصِي مِنَ الْنَفْسِ، وَجَعَلَ كُلَّ مِنْهَا طَاعَةً لِشَيْءٍ مَا؛ فَتَقَعُ الْمَعْصِيَّةُ بِأَنَّهَا طَاعَةٌ لَا بِأَنَّهَا مَعْصِيَّةٌ أَوْ لَا تَرَى يَا أَبَا عَامِرٍ أَنَّ الْحِيلَةَ مُحْكَمَةٌ فِي الْدَاخِلِ مِنَ الْجِسْمِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ مُحْكَمَةٌ فِي الْخَارِجِ عَنْهُ، وَأَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذَا الْبَاطِنَ بِهَذَا الْمَعْنَى وَهَذَا الْعَمَلِ لَمَّا كَانَ لِيُظَاهِرَ الْوُجُودَ كُلَّهُ فِي الْإِنْسَانِ مَعْنَى وَلَا عَمَلٌ؟

قَالَ الشَّيْخُ: عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ! فَمَا أَرَى الْمَوْتَ قَدْ خُلِقَ إِلَّا رَدًّا عَلَيْكَ أَنْتَ، لِتُبَيِّنَ النَّاسُ أَنَّكَ أَلْمَمْتَلِيءُ الْمَمْتَلَى، وَلَكِنَّكَ الْفَارِغُ الْفَارِغُ؛ بَلْ كُلُّ شَهَوَاتِكَ سَخَرِيَّةٌ مِنْكَ وَرَدُّ عَلَيْكَ، فَلَا طَعْمَ لِلذَّةِ مِنْ لَذَاتِكَ إِلَّا وَهْيَ تَمُوتُ، وَإِنَّمَا تَمَامُ وَجُودِهَا سَاعَةٌ تَنْقُضِي؛ وَمَتَى قَالَتْ أَلَلَذَّةُ: قَدْ أَتَهَيْتُ. فَقَدْ وَصَفَتْ نَفْسَهَا أَبْلَغَ الْوَصْفِ.

قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ، وَلَكِنَّ أَلَلَذَّةَ لَا تَمُوتُ حَتَّى تَلِدَ مَا يُبْقِيهَا حَيَّةً، فَهِيَ تَلِدُ الْحَيْنَ إِلَيْهَا، وَهُوَ لَا يَسْكُنُ حَتَّى يَعُودَ لَذَّةً تَنْقُضِي وَتَلِدُ.

قَالَ الشَّيْخُ: مَعَانِي أَلْتَرَابِ، مَعَانِي أَلْتَرَابِ؛ كُلُّ نَبْتَةٍ فِيهَا بِذَرَّتُهَا، وَلَكِنْ (عَلَيْكَ لَعْنَةُ اللَّهِ) لِمَاذَا جِئْتَنِي فِي هَذِهِ الصُّورَةِ؟

قَالَ إِبْلِيسُ: لِأَنِّي لَا أَلْبَسُ إِلَّا مُحَبَّةَ الْقَلْبِ الْآدَمِيِّ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَطَرَدْتَنِي أَلْقُلُوبُ كُلُّهَا وَبَطَلَتْ عَمَلِي فِيهَا، وَهَلْ عَمَلِي إِلَّا التَّلْبِيسُ وَالتَّزْوِيرُ؛ أَفْتَدْرِي يَا أَبَا عَامِرٍ أَنِّي لَا أَعْتَرِي أَلْحَيَوَانَ قَطُّ.

قَالَ الشَّيْخُ: لِأَنَّ أَلْحَيَوَانَ لَا يَنْظُرُ إِلَى الشَّيْءِ إِلَّا نَظْرَةً وَاحِدَةً، هِيَ نَظْرُهُ وَفَهْمُهُ مَعًا، فَلَا مَحَلَّ لِلتَّزْوِيرِ مَعَ هَذِهِ النَّظْرَةِ الْوَاحِدَةِ؛ وَصَدَقَ اللَّهُ الْعَظِيمُ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ نَزَّلَ الشَّيْطَانُ نَزَلَ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾. فَأَنْتَ أَيُّهَا الشَّيْطَانُ أَلْتَزْوِيرُ، وَالتَّزْوِيرُ

(٢) يقارفها: يقع فيها.

(١) قفر: صحراء.

موضعه الكذب؛ فمن لم يكذب في الفكر ولا في النظر ولا في الفهم ولا في
الرجاء، فليس لك عنده عمل.

قال إبليس: يا أبا عامر! وهل ترى (رحمك الله) أعجب وأغرب وأدعى إلى
الهزء والسخرية من أن أعظم العقلاء الزهاد العباد، هو في جملة معانيه حيوان ليس
له إلا نظرة واحدة في كل شيء؟

قال الشيخ: عليك وعليك...؛ إن الحيوان شيء واحد، فهو طبيعة مسخرة
بنظامها، ولكن الإنسان أشياء متناقضة بطبيعتها، فالوهيته أن يقر النظام بين هذه
المتناقضات، كأنما أمّتحن فأعطى من جسمه كونا فيه عناصر الأضطراب، وحوله
عناصر الأضطراب، ثم قيل له دبّره.

فضحك إبليس. قال الشيخ: ممّ ضحكك لعنك الله؟

قال: ضحكك من أنك أعلمتني حقيقة الإبلسية، فالزهاد هم الصالحون لأن
يكونوا أعظم الأبالسة...

قال الشيخ: عليك لعنة الله، فما هي تلك الحقيقة التي زعمت؟

قال إبليس: - واللّه - يا أبا عامر، ما غلا إنسان في زعم التقوى والفضيلة إلا
كانت هذه هي الإبلسية؛ وسأعلمك يا أبا عامر حقيقة الزهد والعبادة. فلا تقل إنها
الوهية تقر النظام بين متناقضات الإنسان ومتناقضات الطبيعة.

قال الشيخ: وتسخر مني لعنك الله؟ فمتى كنت تعلم الحقيقة والفضيلة؟

قال إبليس: أو لم أكن شيخ الملائكة؟ فمن أجدر من شيخ الملائكة أن يكون
عالمها ومعلمها؟

قال: عليك لعنة الله؛ فما هي حقيقة الزهد والعبادة؟

قال إبليس: حقيقتها يا أبا عامر، هي التي أعجزتني في نبيكم.

قال الشيخ: ﷺ؛ فما هي؟

قال إبليس: هي ثلاث بها نظام النفس، ونظام العالم، ونظام اللذات
والشهوات: أن تكون لك تقوى، ثم يكون لك فكر من هذه التقوى، ثم يكون لك
نظر إلى العالم من هذا الفكر. ما اجتمعت هذه الثلاث في إنسان إلا قهر الدنيا
وقهر إبليس.

فإن كانت التقوى وحدها - كتقوى أكثر الزهاد والرهبان - فما أيسر أن أجعل
النظر منها نظر الغفلة والجبن والبلادة والفضائل الكاذبة، وإن كان الفكر وحده -
كفكر العلماء والشعراء - فما أهون أن أجعل النظر به نظر الزيف والإلحاد والبهيمية
والرذائل الصريحة.

قال الشيخ: صدق الله العظيم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ
تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

قال إبليس: يا أبا عامر! ما يضرني - والله - أن أفسر لك، فإن قارورة من
الصنغ لا تصبغ البحر، وأنا أعد الزهاد والعلماء المصلحين فأضع في الناس بجانب
كل واحد منهم مائة ألف امرأة مفتونة، ومائة ألف رجل فاسق، ومائة ألف مخلوق
ظالم، فلو أنك صبغت البحر بملء قارورة حمراء لما صبغت البحر الإنساني
بالزاهد والمصلح، ما دام المصلح شيئاً غير السيف، وما دام الزاهد شيئاً غير
الحاكم.

قال الشيخ: لعنك الله من شيطان عارم، فإذا وضعت المصلح بين مائة ألف
فاسد، فهل هذه إلا طريقة شيطانية لإفساده؟
قال إبليس: ومائة ألف امرأة فتانة مفتونة يا أبا عامر، كل واحدة تحسب
جسمها...

فصرخ الشيخ: أغرب عني عليك لعنة الله!
قال إبليس: ولكن الآية الآية يا أبا عمر. لقد لقيت المسيح وجربته وهو كان
تفسيرها.

قال الشيخ: عليه السلام! وعليك أنت لعنة الله! فكيف قال؟ وكيف صنع؟
قال إبليس: ألقيت به جائعاً في الصحراء لا يجد ما يطعمه، ولا يظن أنه
يجد، ولا يرجو أن يظن؛ ثم قلت له: إن كنت روح الله وكلمته كما تزعم فمز
هذا الحجر ينقلب خبزاً. فكان تقياً، فتذكر فإذا هو مبصر، فقال: ليس بالخبز
وحده يحيا الإنسان، فمثل هذا لو مات جوعاً لم يتحول، لأن الموت إتمام حقيقته
السامية فوق هذه الدنيا، ولو ملئت له الدنيا خبزاً وهو جائع لم يتحول، لأن له
بصراً من فوق الخبز إلى حقيقته السماوية؛ فليس بالخبز وحده يحيا؛ بل بمعان
أخرى هي إشباع حقيقته السماوية التي لا شهوة لها.

ثُمَّ ارْتَقَيْتُ^(١) بِهِ إِلَى ذُرْوَةِ جَبَلٍ وَأَرَيْتُهُ مَمَالِكَ الْخَافِقِينَ^(٢)، كَشَفْتُهَا كُلَّهَا لِعَيْنَيْهِ وَقُلْتُ لَهُ: هَذَا كُلُّهُ لَكَ إِذَا أَنْتَ سَجَدْتَ لِي. فَكَانَ مُتَقِيًّا، فَتَذَكَّرَ فَإِذَا هُوَ مُبْصِرٌ: أَبْصَرَ حَقِيقَةَ الْخِيَالِ الَّذِي جَسَّمَتْهُ لَهُ، وَعَلِمَ أَنَّ الشَّيْطَانَ يُعْطِي مِثْلَ مُعَانِي هَذِهِ الْمَمَالِكِ فِي جَرَّةِ خَمْرٍ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي سَاعَةِ لَذَّةٍ، كَمَا يُعْطِيهَا فِي شِفَاءٍ غِيْظٍ بِالْقَتْلِ وَالْأَذَى؛ ثُمَّ لَا يَبْقَى مِنْ كُلِّ ذَلِكَ بَاقٍ غَيْرُ الْإِثْمِ، وَلَا يَصْخُ مِنْهُ صَحِيحٌ إِلَّا الْحَرَامُ. وَمَنْ مَلَكَ الدُّنْيَا نَفْسَهَا لَمْ يَبْقَ لَهَا إِذَا بَقِيََتْ فَهِيَ خَيَالٌ فِي جَرَّةِ الْحَيَاةِ، كَمَا هِيَ خَيَالٌ فِي جَرَّةِ الْخَمْرِ.

يَا أَبَا عَامِرٍ؛ إِنَّ هَذَا النَّظَرَ، الَّذِي وَرَاءَهُ التَّذَكُّرُ، الَّذِي وَرَاءَهُ الَّتَقْوَى، الَّتِي وَرَاءَهَا اللَّهُ - هَذَا وَحْدَهُ هُوَ الْقُوَّةُ الَّتِي تَتَنَاوَلُ شَهَوَاتِ الدُّنْيَا فَتُصَفِّيْهَا أَرْبَعَ مَرَاتٍ حَتَّى تَعُودَ بِهَا إِلَى حَقَائِقِهَا التَّرَابِيَةِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي آخَرُهَا الْقَبْرِ، وَآخَرُ وَجُودِهَا التَّلَاشِي.

فَالْبَصَرُ الْكَاشِفُ الَّذِي يُجَرِّدُ الْأَشْيَاءَ مِنْ سِحْرِهَا الْوَهْمِيِّ، هَذَا هُوَ كُلُّ السِّرِّ.

قَالَ الشَّيْخُ: لَعَنَكَ اللَّهُ؛ فَكَيْفَ مَعَ هَذَا تَفْتَنُ الْمُؤْمِنُ؟
قَالَ إِبْلِيسُ: يَا أَبَا عَامِرٍ، هَذَا سُؤَالٌ شَيْطَانِيٍّ... تُرِيدُ - وَيَحْكُ - أَنْ تَحْتَالَ عَلَى الشَّيْطَانِ؟ وَلَكِنْ مَا يَضُرُّنِي أَنْ أَفْسَرَهَا لَكَ.

لَيْسَ الْإِيمَانُ هُوَ الْأَعْتِقَادُ وَلَا الْعَمَلُ، وَلَوْ كَانَ مِنْ هَذَيْنِ لَمَا شَقَّ عَلَى أَحَدٍ وَلَصَلَحَتْ الدُّنْيَا وَأَهْلُهَا؛ إِنَّمَا الْإِيمَانُ وَضْعُ يَقِينٍ خَفِيِّ يَكُونُ مَعَ الْغَرِيزَةِ فِي مَقَرِّهَا، وَيَصْلُحُ أَنْ يَكُونَ فِي مَقَرِّهَا لِتَصُدَّرَ عَنْهُ أَعْمَالُ الْغَرِيزَةِ؛ وَهَذَا الْيَقِينُ لَا يَصْلُحُ كَذَلِكَ إِلَّا إِذَا كَانَ يَقِينًا ثَابِتًا بِمَا هُوَ أَكْبَرُ مِنَ الدُّنْيَا، فَيَرْجِعُ إِلَيْهِ الْإِنْسَانُ فَيَتَذَكَّرُ فَيُبْصِرُ. هُنَاكَ مِيرَاثٌ مِنَ الْآخِرَةِ لِلْمُؤْمِنِ، فَالْيَقِينُ بِهَذَا الْمِيرَاثِ هُوَ سِرُّ الْإِيمَانِ.

وَالْعَمَلُ الشَّيْطَانِيُّ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي إِفْسَادِ هَذَا الْيَقِينِ وَمُعَارَضَةِ الْخِيَالِ الْعَظِيمِ الَّذِي فِيهِ بِالْحَقَائِقِ الصَّغِيرَةِ الَّتِي تَظْهَرُ لِلْمَغْفَلِ عَظِيمَةً، كَمَا تُشَبُّ نَارٌ أَكْبَرُ مِنْ قُرْصِ الشَّمْسِ ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَبْلَهِ: أَنْظِرْ بَعَيْنَيْكَ، فَيُصَدِّقُ أَنَّهَا أَكْبَرُ مِنَ الشَّمْسِ.

وَمَتَى صَغُرَ هَذَا الْيَقِينُ وَكَانَتْ الْحَقَائِقُ الدُّنْيَوِيَّةُ أَكْبَرَ مِنْهُ فِي النَّفْسِ؛ فَأَيَسُرُّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ حِينَئِذٍ يُفْسِدُ الْمَعْتَقَدَ وَيُسْقِطُ الْفَضِيلَةَ؛ وَبَدْرُهُمْ وَاحِدٌ يُوجَدُ أَلْبَسُ حِينَئِذٍ.

(١) ارتقيت: صعدت.

(٢) الخافقين: المشرق والمغرب.

أما إذا ثَبَتَ اليَقِينُ فَالشَّيْطَانُ مَعَ الْإِنْسَانِ يَصْغُرُ ثُمَّ يَصْغُرُ، وَيَعْجُزُ ثُمَّ يَعْجُزُ.
حتى ليرجعُ مثلَ الدرهمِ إذا طَمِعَ الطامعُ أن يجعلَ الرجلَ الغنيَّ الكثيرَ المالِ لَصًّا
مِنَ اللصوصِ بهذا الدرهمِ.

قالَ الشيخُ: لَعَنَكَ اللهُ! فَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ إِفْسَادَ هَذَا اليَقِينِ فَكَيْفَ تَصْنَعُ فِي فِتْنَةِ
الْمُؤْمِنِ؟

قالَ إبليسُ: يا أبا عامر، إِنَّ لَمْ أُسْتَطِعْ إِفْسَادَ اليَقِينِ زِدْتُهُ يَقِيناً يَفْسُدُ،
وَأَسْتَحْسَنُ الرَّجُلِ لِأَعْمَالِهِ السَّامِيَةِ قَدْ يَكُونُ هُوَ أَوَّلَ أَعْمَالِهِ السَّافِلَةِ؛ وَبِأَيِّ عَجِيبٍ
يَكُونُ الشَّيْطَانُ شَيْطَاناً إِلَّا بِمِثْلِ هَذَا؟

قالَ أحمدُ بْنُ مَسْكِينٍ: وَغَضِبَ الشَّيْخُ، فَمَدَّ يَدَهُ فَأَخَذَ فِيهَا عُقَوَّ إبليسَ وَقَدْ
رَأَهُ دَقِيقاً، ثُمَّ عَصَرَهُ عَصَراً شَدِيداً يُرِيدُ خَنْقَهُ؛ فَقَهَقَهُ الشَّيْطَانُ سَاحِراً مَتَهُ. وَتَنَبَّهَ
الشَّيْخُ، فَإِذَا هُوَ يَشُدُّ بِيَدِهِ الْيَمْنَى عَلَى يَدِهِ الْيُسْرَى

الدنيا والدرهم

٤

قال أحمد بن مسكين: وأزف^(١) ترخلي عن (بلخ)، وتهيأت للخروج، ولم يبق من مدة مقيلي بها إلا أيام يجيء فيها السبت الرابع، وكان قد وقعت مُمارة بيني وبين مفتي (بلخ) أبي إسحاق إبراهيم بن يوسف الباهلي تلميذ أبي يوسف صاحب الإمام أبي حنيفة، ويزعمون أنه شحيح على المال، وأنه يتغلل^(٢) من مُستغلات كثيرة^(٣)، فكأنما غشيته^(٤) غمامتي، فهو لا يرى أن أتكلّم في الزهد، ويحسب هذا الزهد تماوت العباد، ونقض الأيدي من الدنيا، وسوء المصاحبة لما يُنعم الله به على العبد، وخذلان القوة في البدن، وما جرى هذا المجرى من تزوير الحياة بالباطيل التي زعم أنها باطيل الطاعات وما أقربها من باطيل المعصية. ولم يكن هذا المفتي قد سمعني ولا حضر مجلسي، ولولا الذي لم يعرفه من ذلك لقد كان عرف.

وجادلته^(٥) فرأيت أنه واهن^(٦) الدليل، ضعيف الحجة، يُخمن تخمين فقيه، وينظر إلى الخفايا من حقائق النفوس نظر صاحب النص إلى الظاهر، كأن الحقيقة إذا ألقيت على الناس مضت نافذة كفتوى المفتي... ويزعم أن الوعظ وعظ ألقها، يقولون: هذا حرام. فيكون حراماً لا يقارفه^(٧) أحد، وهذا حلال. فيكون حلالاً لا يتركه أحد، وهو كان بعيداً عن حقيقة الوعظ ومدخله إلى النفس وسياسته فيها، ولا يعرف أن الحقيقة كالأنثى: إن لم تُزَيّن بزینتها لم تستهواً أحداً؛ وأن الموعظة إن لم تتأد في أسلوبها الحي كانت بالباطل أشبه، وأنه لا يُغيّر النفس إلا النفس التي فيها قوة التحويل والتغيير، كنفس الأنبياء ومن كان في طريقة رُوحهم،

(١) أزف: حان.

(٢) المستغلات: أصول الأموال.

(٣) غشيته: غطته.

(٤) جادلته: ناقشته.

(٥) واهن: ضعيف.

(٦) يقارفه: يقع فيه.

وَأَنَّ هَذِهِ الصَّنَاعَةُ إِنَّمَا هِيَ وَضْعُ نُورِ الْبَصِيرَةِ فِي الْكَلَامِ، لَا وَضْعُ الْقِيَاسِ وَالْحُجَّةِ،
وَأَنَّ الرَّجُلَ الزَّاهِدَ الْأَصْحِيحَ الزَّهْدِ، إِنَّمَا هُوَ حَيَاةٌ تَلْبَسُهَا الْحَقِيقَةُ لِتَكُونَ بِهِ شَيْئاً فِي
الْحَيَاةِ وَالْعَمَلِ. لَا شَيْئاً غَيْرَ الْقَوْلِ وَالتَّوَهُّمِ، فَيَكُونُ إِلَهَامُهَا فِيهِ كَحَرَارَةِ النَّارِ فِي
النَّارِ: مَنْ وَاتَّاهَا أَحْسَنَهَا.

وَلَعَمْرِي، كَمْ مِنْ فَقِيهٍ يَقُولُ لِلنَّاسِ: هَذَا حَرَامٌ. فَلَا يَزِيدُ هَذَا الْحَرَامَ إِلَّا
ظَهوراً وَانْكَشَافاً مَا دَامَ لَا يَنْطِقُ إِلَّا نَطَقَ الْكِتَابِ، وَلَا يُحَسِّنُ أَنْ يَصِلَ بَيْنَ النَّفْسِ
وَالشَّرْعِ، وَقَدْ خَلَا مِنَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَجْعَلُهُ رُوحاً تَتَعَلَّقُ الْأَرْوَاحُ بِهَا وَتَضَعُهُ بَيْنَ النَّاسِ
فِي مَوْضِعٍ يَكُونُ بِهِ فِي أَعْتَابِهِمْ كَأَنَّهُ آتٍ مِنَ الْجَنَّةِ مِنْذُ قَرِيبٍ، رَاجِعٌ إِلَيْهَا بَعْدَ
قَرِيبٍ.

وَالْفَقِيهَةُ الَّتِي يَتَعَلَّقُ بِالْمَالِ وَشَهَوَاتِ النَّفْسِ، وَلَا يَجْعَلُ هَمَّهُ إِلَّا زِيَادَةَ الرِّزْقِ
وَحِظَّ الدُّنْيَا - هُوَ الْفَقِيهَةُ الْفَاسِدُ الصُّورَةُ فِي خِيَالِ النَّاسِ، يُفْهَمُهُمْ أَوَّلُ شَيْءٍ إِلَّا
يَفْهَمُوا عَنْهُ؛ إِذْ حِزْضُهُ فَوْقَ بَصِيرَتِهِ، وَلَهُ فِي النَّفْسِ رَائِحَةُ الْخَبْزِ، وَلَهُ مَعْنَى:
خَمْسٌ وَخَمْسٌ عَشْرَةٌ... (١) وَكَأَنَّ دُنْيَاهُ وَضَعَتْ فِيهِ شَيْئاً فَاسِداً غَرِيباً يُفْسِدُ الْحَقِيقَةَ
الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا؛ وَلَسْتُ أَدْرِي مَا هُوَ هَذَا الشَّيْءُ، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ فَقَهَاءَ يَعْظُونَ
وَيَتَكَلَّمُونَ عَلَى النَّاسِ فِي الْحَرَامِ وَالْحَلَالِ وَفِي نَصِّ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ،
ثُمَّ لَمْ أَجِدْ لِكَلَامِهِمْ نَفْعاً وَلَا رَدّاً، إِذْ يُلْهِمُونَ النَّاسَ بِأَرْوَاحِهِمْ غَيْرَ الْمَعْنَى الَّتِي
يَتَكَلَّمُونَ فِيهِ؛ وَتَسْخَرُ الْحَقِيقَةُ مِنْهُمْ - عَلَى خَطَرِهِمْ (٢) وَجَلَالِ شَأْنِهِمْ - بِذَاتِ
الْأَسْلُوبِ الَّتِي تَسْخَرُ بِهِ مِنْ لِصٍّ يَعِظُ لِصّاً آخَرَ فَيَقُولُ لَهُ: لَا تَسْرِقْ...

قَالَ أَبْنُ مَسْكِينٍ: فَلَمَّا دَارَ يَوْمُ السَّبْتِ أَقْبَلَ النَّاسُ عَلَى الْمَسْجِدِ أَفْوَاجاً،
وَكَانُوا قَدْ تَعَالَمُوا إِزْمَاعِي الرِّحِيلَ عَنْ بِلَدِهِمْ - وَجَاءَ (لِقِمَانُ الْأُمَّةِ) فِي أَشْيَاعِهِ
وَأَصْحَابِهِ، وَجَاءَ أَبُو إِسْحَاقَ الْمُفْتِي فِي جَمَاعَتِهِ؛ وَأَسْتَقَرَّ بِي الْمَجْلِسُ فَفَقِذْتُ النَّاسَ
بِنَظَرِي، فَكَأَنَّهُمْ مِنْ كَثَرَتِهِمْ نَبَاتٌ غَطَّى الْأَرْضَ، فَأَذْكُرُنِي هَذَا شَيْخَنَا السَّرِيِّ بَنَ
مُغْلَسِ السَّقَطِيِّ (٣)، وَكَانَ قَدْ لَزِمَ دَارَهُ فِي بَغْدَادَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَلَا يَرَاهُ إِلَّا مَنْ قَصَدَ
إِلَيْهِ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَجْعَلَ الْمَوْعِظَةَ فِي شَرْحِ كَلِمَتِهِ الْمَشْهُورَةِ: «لَا تَصِحُّ الْمَحَبَّةُ بَيْنَ

(١) يَقْصِدُ مِنْ ذَلِكَ أَنَّ الْحَيَاةَ عَمَلِيَّةٌ حَسَابِيَّةٌ.

(٢) خَطَرُهُمْ: أَمِّيَّتُهُمْ. (٣) السَّقَطُ: رَدِيءُ الْمَتَاعِ، وَبِائِعُهُ يَسْمَى السَّقَطِي.

أَتَيْنِ حَتَّى يَقُولَ أَحَدُهُمَا لِلْآخَرِ: يَا أَنَا». وَمَا نَقَلُوا عَنْهُ مِنْ أَنَّهُ قَالَ مَرَّةً لِبَعْضِ أَصْحَابِهِ: مِنْذُ ثَلَاثِينَ سَنَةً وَأَنَا فِي الْإِسْتِغْفَارِ مِنْ قَوْلِي: (الْحَمْدُ لِلَّهِ). فَقَالَ صَاحِبُهُ: وَكَيْفَ ذَلِكَ؟ قَالَ: وَقَعَ بِبَغْدَادَ حَرِيقٌ، فَاسْتَقْبَلَنِي رَجُلٌ فَقَالَ: نَجَا حَانُوْتُكَ. فَقُلْتُ: الْحَمْدُ لِلَّهِ فَأَنَا نَادِمٌ مِنْ ذَلِكَ الْوَقْتِ عَلَى مَا قُلْتُ؛ إِذْ أَرَدْتُ لِنَفْسِي خَيْرًا مِنَ النَّاسِ!

قَالَ ابْنُ مُسْكِينٍ: وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ أَكْلِمَ الْمُفْتِي وَمَالَ الْمُفْتِي؛ فَحَدَّثْتُهُمْ حَدِيثَ مَعْرِفَتِي بِالسَّرِيِّ: أَنِّي سَمِعْتُ يَوْمًا (عَيْلَانَ الْخِيَاطِ) يَقُولُ: إِنَّ السَّرِيَّ كَانَ اشْتَرَى كُرًّا^(١) لَوْزٍ بِسِتِينَ دِينَارًا، وَأَثْبَتَهُ فِي رِزْنَامَجِهِ^(٢) وَكَتَبَ أَمَامَهُ: رِبْحُهُ ثَلَاثَةُ دَنَانِيرٍ؛ فَلَمْ يَلْبِثْ أَنْ غَلَا السَّعْرُ فَبَلَغَ تِسْعِينَ دِينَارًا؛ فَأَتَاهُ الدَّلَالُ الَّذِي كَانَ اشْتَرَى لَهُ فَقَالَ: أُرِيدُ ذَلِكَ اللَّوْزَ. قَالَ الشَّيْخُ: خُذْهُ. قَالَ: بَكَمْ؟ فَقَالَ: بِثَلَاثَةِ وَسْتِينَ دِينَارًا. وَكَانَ الدَّلَالُ رَجُلًا صَالِحًا، فَقَالَ لِلشَّيْخِ: إِنَّ اللَّوْزَ قَدْ صَارَ الْكُرُّ بِتِسْعِينَ. قَالَ السَّرِيُّ: وَلَكِنِّي عَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ، فَلَسْتُ أَبِيعُ إِلَّا بِثَلَاثَةِ وَسْتِينَ دِينَارًا. فَقَالَ الدَّلَالُ: وَأَنَا قَدْ عَقَدْتُ بَيْنِي وَبَيْنَ اللَّهِ عَقْدًا لَا أَحُلُّهُ، أَلَا أَغْشَّ مُسْلِمًا، فَلَسْتُ أَشْتَرِيَ مِنْكَ إِلَّا بِتِسْعِينَ؛ فَلَا الدَّلَالُ اشْتَرَى مِنْهُ، وَلَا السَّرِيُّ بَاعَهُ...!

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ مُسْكِينٍ: فَلَمَّا سَمِعْتُ ذَلِكَ لَمْ تَكُنْ لِي هِمَّةً إِلَّا أَنْ أَلْقَى الشَّيْخَ وَأَصْحَبَهُ وَآخَذَ عَنْهُ، فَلَمْ أَعْرِجْ^(٣) عَلَى شَيْءٍ حَتَّى كُنْتُ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ، فَأَجَدُهُ فِي خَلْقَتِهِ وَعِنْدَهُ مِمَّنْ كُنْتُ أَعْرِفُهُمْ: عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، وَإِدْرِيسُ الْحَدَّادَ، وَعَلِيُّ بْنُ سَعِيدٍ الرَّازِي، وَحَوْلَهُ خَلْقٌ كَثِيرٌ وَهُوَ فِيهِمْ كَالشَّجَرَةِ الْخَضِرَاءِ بَيْنَ الْهَشِيمِ تَعْلُوهُ نَضْرَةٌ رَوْحُهُ، وَكَأَنَّمَا يُمَدُّهُ بِالنُّورِ عِرْقٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَهُوَ يَتَلَأَلُ لِلْعَيْنِ؛ وَلَا يَمْلِكُ النَّازِرُ إِلَيْهِ إِلَّا أَنْ يُجَسَّ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّهُ الْأَدْنَى، مِنْ رُؤْيَيْهِ فِي ذَاتِ نَفْسِهِ أَنَّ هَذَا هُوَ الْإِنْسَانُ الْأَعْلَى.

وَرَأَيْتُ عَلَى وَجْهِهِ آلَامًا تَمَسُّحُهُ مِسْحَةً الْأَشْوَاقِ لَا مِسْحَةَ الْأَلَامِ، آثَارُ مَا يَجْلُدُهُ فِي رَوْحِهِ الْقَوِيَّةِ، لَا كَالْآلَامِ الْكَاسِ الْكُتْبِ هِيَ آثَارُ الْجِرْمَانِ فِي أَرْوَاحِهِمْ أَلَوَاهِنِ الضَّعِيفَةِ فَلَا تَمَسُّحُ وَجُوهَهُمْ إِلَّا مِسْحَةُ الْغَمِّ وَالْكَآبَةِ.

(١) الكر، بضم الكاف هو مكيال عظيم يقدرُونَ فيه الحساب، يساوي أربعين إردباً مصرياً.

(٢) رزنامجه: دفتر حساباته.

(٣) أعرج: أمل، ألو.

وما يُخطئُ النظرُ في تمييزِ آلامِ السماءِ على هذه الوجوه السعيدة من آلام الأرض في الوجوه الأخرى، فإنَّ الأولى تتنَدَّى على رُوحِ الناظرِ بِمِثْلِ الطَّلِّ إِذَا قَطَرَهُ الْفَجْرُ، والأخرى تَتَوَّرُّ في رُوحِهِ كما تَهِيْجُ الْعَبْرَةُ إِذَا ضَرَبَتْ الرِّيحُ الْأَرْضَ.

كَانَ الشَّيْخُ فِي وَجُودٍ فَوْقَ وَجُودِنَا؛ فَلَا تَتَلَوَّنُ لَهُ الْأَشْيَاءُ وَلَا تَعْدُو عِنْدَهُ مَا هِيَ فِي نَفْسِهَا، وَلَا يَحْمِلُ الشَّيْءُ لَهُ إِلَّا مَعْنَاهُ مِنْ حَيْثُ يَصْلُحُ أَوْ لَا يَصْلُحُ، وَمِنْ حَيْثُ يَنْبَغِي أَوْ لَا يَنْبَغِي. فَإِنَّمَا تَتَلَوَّنُ الْأَشْيَاءُ عِنْدَ مَا يَضَعُ الشَّيْطَانُ عَيْنَهُ فِي عَيْنِ النَّاطِرِ إِلَيْهَا؛ وَإِنَّمَا تَزِيدُ وَتَنْقُصُ فِي الْقَلْبِ عِنْدَمَا يَكُونُ رُوحُ الشَّيْطَانِ فِي الْقَلْبِ؛ وَإِنَّمَا يَسْتَبِيهُ مَا يَنْبَغِي وَمَا لَا يَنْبَغِي عِنْدَ مَا يَأْتِي الشَّيْءُ مِنْ جِهَتَيْنِ: جِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِهِ هُوَ، وَجِهَتِهِ مِنْ طَبِيعَتِنَا نَحْنُ. وَبِهَذَا قَدْ يَجْمَعُ الْإِنْسَانُ أَلْمَالَ ثُمَّ لَا يَجِدُ فِي أَلْمَالِ مَعْنَى الْغِنَى، وَقَدْ تَتَفَقَّ أَسْبَابُ النِّعَمِ وَلَا يَكُونُ مِنْهَا إِلَّا الدَّلُّ. وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ يَجِدُ وَكَأَنَّهُ لَمْ يَجِدْ إِلَّا عَكْسَ مَا كَانَ يَنْبَغِي، وَآخِرَ لَمْ يَجِدْ شَيْئاً وَوَجَدَ بِذَلِكَ رَاحَتَهُ.

قَالَ أَبْنُ مَسْكِينٍ: وَمَا كَانَ أَشَدَّ عَجَبِي حِينَ تَكَلَّمَ الشَّيْخُ، فَقَدْ أَخَذَ يُجِيبُ عَمَّا فِي نَفْسِي وَلَمْ أَسْأَلْهُ، كَأَنَّ الَّذِي فِي فِكْرِي قَدْ أُنْقَلَ إِلَيْهِ؛ فَرَوَى الْحَدِيثَ: «إِذَا عَظَّمْتَ أَمْتِي الدِّينَارَ وَالْدِرْهَمَ، نُزِعَ مِنْهَا هَيْبَةُ الْإِسْلَامِ؛ وَإِذَا تَرَكَوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، خُرِمُوا بِرَكَّةِ الْوَحْيِ». ثُمَّ قَالَ فِي تَأْوِيلِهِ:

إِنَّ مَلَكَ الْوَحْيِ يَنْزِلُ بِالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ لِيُخْضَعَ صَوْلَةُ^(١) الْأَرْضِ بِصَوْلَةِ السَّمَاءِ، فَإِذَا بَقِيَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، بَقِيَ عَمَلُ الْوَحْيِ إِلَّا أَنَّهُ فِي صُورَةِ الْعَقْلِ، وَبَقِيَتْ رُوحَانِيَّةُ الدُّنْيَا إِلَّا أَنَّهَا فِي صُورَةِ النِّظَامِ، وَكَانَ مَعَ كُلِّ خَطَأٍ تَصْحِيحُهُ؛ فَيُصْبِحُ الْإِنْسَانُ بِذَلِكَ تَنْفِيذاً لِلشَّرِيعَةِ بَيْنَ أَمْرِ مُطَاعٍ وَمَأْمُورٍ مُطَاعٍ، فَيَتَعَامَلُ النَّاسُ عَلَى حَالَةٍ تَجْعَلُ بَعْضَهُمْ أَسْتَاذاً لِبَعْضٍ، وَشَيْئاً مِنْهُمْ تَعْدِيلاً لِشَيْءٍ، وَقُوَّةً سِنْداً لِقُوَّةٍ؛ فَيَقُومُ الْعِزْمُ فِي وَجْهِ التَّعَاوُنِ، وَالشَّدَّةُ فِي وَجْهِ التَّرَاخِي، وَالْقُدْرَةُ فِي وَجْهِ الْعَجْزِ؛ وَبِهَذَا يَكُونُونَ شُرَكَاءَ مُتَعَاوِنِينَ، وَتَعَوَّدُ صِفَاتُهُمُ الْإِنْسَانِيَّةُ وَكَأَنَّهَا جَيْشٌ عَامِلٌ يُنَاصِرُ بَعْضُهُ بَعْضاً، فَتَكُونُ الْحَيَاةُ مَفْسَّرَةً مَا دَامَتْ مَعَانِيهَا السَّامِيَّةُ تَأْمُرُ أَمْرَهَا وَتُلْهِمُ إِلَهَامَهَا، وَمَا دَامَتْ مُمَثَّلَةً فِي الْأَوَاجِبِ الْإِنْفَادِ عَلَى الْكُلِّ.

وَالنَّاسُ أَحْرَارٌ مَتَى حَكَمْتَهُمْ هَذِهِ الْمَعَانِي، فَلَيْسَتْ حَقِيقَةُ الْحُرِّيَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ إِلَّا

(١) صَوْلَةٌ: جَوْلَةٌ.

الْخُضُوعَ لِلْوَجِبِ الَّذِي يَحْكُمُ، وبذلك لا بغيره ويتَّصلُ ما بينَ الْمَلِكِ وَالسُّوقَةِ^(١)، وما بينَ الْأَغْنِيَاءِ وَالْفُقَرَاءِ، اتِّصَالَ الرَّحْمَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَاتِّصَالَ الْقَسْوَةِ فِي التَّأْدِيبِ وَحَدِّهِ. فَبَرَكَةُ الْوَحْيِ إِنَّمَا هِيَ جَعْلُ الْقُوَّةِ الْإِنْسَانِيَّةِ عَمَلًا شَرْعِيًّا لَا غَيْرَ.

أَمَّا تَعْظِيمُ الْأَمَةِ لِلدُّنْيَا وَالْدَّرْهَمِ، فَهُوَ اسْتِبْعَادُ الْمَعَانِي الْحَيَوَانِيَّةِ فِي النَّاسِ بَعْضُهَا لِبَعْضٍ، وَتَقْطُعُ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ التَّشَابُكِ فِي لُحْمَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ، وَجَعْلُ الْكَبِيرِ فِيهِمْ كَبِيرًا وَإِنْ صَغُرَتْ مَعَانِيهِ، وَالصَّغِيرِ فِيهِمْ صَغِيرًا وَإِنْ كَبُرَ فِي الْمَعَانِي؛ وَبِهَذَا تَمُوجُ الْحَيَاةُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَلَا يَسْتَقِيمُ النَّاسُ عَلَى رَأْيٍ صَحِيحٍ؛ إِذْ يَكُونُ الصَّحِيحُ وَالْفَاسِدُ فِي مِلْكِ الْإِنْسَانِ لَا فِي عَمَلِ الْإِنْسَانِ، فَيَكْنُزُ الْغَنَى مَا لَا وَيَكْنُزُ الْفَقِيرُ عَدَاوَةً، كَأَنَّ هَذَا قَتْلَ مَالٍ هَذَا، وَكَأَنَّ أَعْمَالَ قَتَلَتْ أَعْمَالَ، وَتَرْجِعُ الْأَصْفَاتُ الْإِنْسَانِيَّةُ مُتَعَادِيَةً، وَتُبَاعُ الْأَفْضَالُ وَتُشْتَرَى، وَيَزِيدُ مَنْ يَزِيدُ وَلَكِنْ فِي الْقَسْوَةِ، وَيَنْقُصُ مَنْ يَنْقُصُ وَلَكِنْ فِي الْحَرِيَّةِ، وَتَكُونُ الْمَنْفَعَةُ الذَّاتِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَأْمُرُ فِي الْجَمِيعِ وَتَنْهَى، وَيَدْخُلُ الْكَذِبُ فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْنَظَرِ إِلَى الْأَعْمَالِ، فَيَرَى كُلُّ إِنْسَانٍ كَأَنَّمَا دِرْهَمُهُ وَدِينَارُهُ أَكْبَرُ قِيَمَةً مِنْ دِينَارِ الْآخَرِ وَدِرْهَمِهِ، فَإِذَا أُعْطِيَ نَقْصَ فَنَشْأَ، وَإِذَا أَخَذَ زَادَ فَسَرَقَ؛ وَتُصْبِحُ النُّفُوسُ نَفُوسًا تِجَارِيَّةً تُسَاوِمُ قَبْلَ أَنْ تَنْبَعَثَ لِفَضِيلَةٍ، وَتُمَاكِسُ^(٢) إِذَا دُعِيَتْ لِإِدَاءِ حَقٍّ، وَيَتَعَامَلُ النَّاسُ فِي الشَّرَفِ عَلَى أَصُولٍ مِنَ الْمَعْدَةِ لَا مِنَ الْأَرْوَاحِ، فَلَا يُقَالُ حِينَئِذٍ، إِنَّ رَغِيفَيْنِ أَكْثَرُ مِنْ رَغِيفٍ وَاحِدٍ. كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْعَدَدِ، بَلْ يُقَالُ: إِنَّ رَغِيفَيْنِ أَشْرَفُ مِنْ رَغِيفٍ. كَمَا هِيَ طَبِيعَةُ الْإِنْفَاقِ.

أَمَّا التِّجَارَةُ - وَهِيَ التَّفْسِيرُ الظَّاهِرُ لِمَعَانِي النُّفُوسِ - فَتُصْبِحُ بَيْنَ الْغَشِّ وَالضَّرَرِ وَالْمَمَاكَرَةِ، وَتَكُونُ يَقْظَةً التَّاجِرِ مِنْ غَفْلَةِ الشَّارِي، وَتَفْسُدُ الْإِرَادَةُ فَلَا تُحْدِثُ إِلَّا آثَارَهَا الزَّائِغَةَ^(٣). وَمَا التَّاجِرُ فِي الْأَمَّةِ الْقَوِيَّةِ إِلَّا أَسَاطِدُ لِعَلِيمِ الصَّدَقِ وَالْخُلُقِ فِي الْمَوْضِعِ الْمَتَقَلَّبِ، فَكَلِمَتُهُ كَالرَّقْمِ مِنَ الْعَدَدِ لَا يَحْتَمِلُ أَزِيدَ وَلَا أَنْقَصَ مِمَّا فِيهِ، وَيُمْتَحَنُ بِالْدُّنْيَا وَالْدَّرْهَمِ أَشَدَّ مِمَّا يُمْتَحَنُ الْعَابِدُ بِصَلَاتِهِ وَصِيَامِهِ. وَقَدْ شَهِدَ رَجُلٌ عِنْدَ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ فِي قَضِيَّةٍ، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: ائْتِنِي بِمَنْ يَعْرِفُكَ. فَأَنَاهُ بِرَجُلٍ أَتْنَى عَلَيْهِ خَيْرًا، فَقَالَ لَهُ عَمْرٌ: أَنْتَ جَارُهُ الْأَدْنَى الَّذِي يَعْرِفُ مَدْخَلَهُ وَمَخْرَجَهُ؟ قَالَ:

(١) السُّوقَةُ: الْعَامَّةُ مِنَ النَّاسِ.

(٢) تُمَاكِسُ: تَشَاخَى فِي الْبَيْعِ وَالشِّرَاءِ.

(٣) الزَّائِغَةُ: الْمُنْحَرِفَةُ.

لا. قال: فكنت رفيقهُ في السفرِ الَّذي يُستدلُّ بهِ على مكارمِ الأخلاق؟ قال: لا.
قال: فعاملتُهُ بالدينارِ والدرهمِ الَّذي يَسْتَيُنُّ بهِ ورعُ الرجل؟ قال: لا.
قال عمر: أظنُّكَ رأيتهُ قائماً في المسجدِ يَهْمُهُمُ بالقرآن، يَخْفِضُ رأسَهُ طَوَراً
ويرفعُهُ أخرى؟ قال: نعم.

قال: فأذهبِ فلستَ تعرفهُ!

وإنَّما التاجرُ صورةٌ من ثِقَةِ الناسِ بعضهم ببعض، وإرادةُ الخيرِ واعتقادِ
الصدق، وهو في كلِّ ذلكَ مظهرٌ توضعُ أليدُ عليه كما تجسُّ^(١) أليدُ مرضِ المريضِ
وصحته.

فإذا عظمتِ أَلَمَةُ الدينارِ والدرهمِ، فإنَّما عظمتِ النفاقَ والطمعَ والكذبَ
وَالْعداوةَ وَالْقسوةَ والاستعبادَ؛ وبهذا تُقِيمُ الدنانيرُ والدراهمُ حُدُوداً فاصلةً بينَ
أهلِها، حتى لَتَكُونَ الْمَسَافَةُ بينَ غنيٍّ وفَقيرٍ كَالْمَسَافَةِ بينَ بلدينِ قد تَبَاعَدَ ما بينهما.
وإنَّما هيبَةُ الإسلامِ في العِزَّةِ بالنفسِ لا بِالمالِ، وفي بذلِ الْحَيَاةِ لا في الْجِرْصِ
عليها، وفي أخلاقِ الرُّوحِ لا في أخلاقِ أَلِيدٍ، وفي وضعِ حُدُودِ الْفَضَائِلِ بينَ الناسِ
لا في وضعِ حُدُودِ الدِّراهِمِ، وفي إِزَالَةِ النِّقَاطِصِ مِنَ الطَّبَاعِ لا في إِقَامَتِهَا، وفي
تَعَاوُنِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ لا في تَعَادِيهَا، وفي أَعْتَابِ الْغِنَى ما يُعْمَلُ بِالمالِ لا ما
يُجْمَعُ مِنَ الْمَالِ، وفي جَعْلِ أَوَّلِ الثَّرْوَةِ الْعَقْلَ والإرادةَ، لا الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ...
هذا هو الإسلامُ الَّذي غَلَبَ الْأَمَمُ، لأنَّه قَبْلَ ذَلِكَ غَلَبَ النِّفْسَ وَالطَّبِيعَةَ.

(١) تجسُّ: تدسّ.

دُعَابَةُ إِبْلِيسَ (١)

أَمَّا إِنِّي سَأَقْصُ هَذِهِ الْحِكَايَةَ كَمَا اتَّفَقْتُ، لَا أَزِيدُهَا بِخِيَالٍ، وَلَا أَتَزِيدُ فِيهَا بِخَبْرٍ، وَلَا أَوْلِدُ لَهَا مَعْنَى؛ فَإِنَّمَا هِيَ حِكَايَةُ حُبِّ الْخَبِيثِ: فَهِيَ حِذْقُهُ^(٢) وَدَهَاؤُهُ، وَرَقَّتْهَا غِلْظَتُهُ وَشَرُّهُ، وَمَعَانِيهَا بِلَاؤُهُ وَمُحْنَتُهُ؛ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ.

لَمَّا فَكَّرْتُ فِي وَضْعِ مَقَالَةِ (إِبْلِيسَ) مِنْ أَحَادِيثِ (ابْنِ مَسْكِينٍ)، وَأَدْرْتُ رَأْيِي فِي نَهْجِهَا وَحُدُودِهَا وَمَعَانِيهَا، جَعَلْتُ فِكْرِي يَتَقَطَّعُ فِي ذَلِكَ، يَذْهَبُ وَيَجِيءُ كَأَنَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَهُ مَنَازَعَةٌ، أَوْ كَأَنَّهُ فِي نَفْسِي شَيْئًا يَثْنِينِي وَيَقْطَعُنِي عَنِ الْعَزْمِ؛ وَخُلِّلَ إِلَيَّ حِينَئِذٍ أَنَّ (إِبْلِيسَ) هَذَا مُنْفَعَةٌ مِنَ الْمَنَافِعِ... وَأَنَّهُ هُوَ قَانُونُ الطَّبِيعَةِ الَّذِي نَصُّ مَادَّتِهِ الْأُولَى: مَا أَعْجَبَكَ فَهُوَ لَكَ. وَنَصُّ مَادَّتِهِ الْآخِرَةِ: مَا أَحْتَجَّتْ إِلَيْهِ فَحُمَّتْهُ أَنْ تَقْدَرَ عَلَى أَخْذِهِ...

وَهَجَسَ فِي نَفْسِي هَاجِسٌ: أَنَّ (إِبْلِيسَ) قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْحَرِيَّةِ كَمَا هُوَ قَائِمٌ فِي لَفْظِ الْإِثْمِ، وَأَنَّهُ إِنْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ الْفُسَّاقِ فَهُوَ أَيْضًا فِي أَدْمَغَةِ الْفَلَّاسِفَةِ وَإِنْ كَانَ فِي سَقُوطِ أَهْلِ الرَّذِيلَةِ إِلَى الرَّذِيلَةِ، فَهُوَ كَذَلِكَ فِي سَمَوِّ أَهْلِ الْفَنِّ إِلَى الْفَنِّ... قَالَ الْهَاجِسُ^(٣): وَإِنَّ (إِبْلِيسَ) أَيْضًا هُوَ صَاحِبُ الْفَضِيلَةِ الْعَمَلِيَّةِ فِي هَذَا الْعَصْرِ الْمَادِيِّ، فَهُوَ مَنْ تَمَّ حَقِيقٌ أَنْ يَلْقَبُوهُ «صَاحِبَ الْفَضِيلَةِ».

وَلَكِنِّي لَمْ أَحْفَلْ^(٤) بِهَذِهِ الْوَسَاوِسِ وَلَمْ أُعْجِ^(٥) عَلَى شَيْءٍ مِنْهَا، وَأَسْتَعْنْتُ اللَّهَ وَأَمْضَيْتُ نِيَّتِي عَلَى الْكِتَابَةِ، وَأَخَذْتُ أَقْلَبُ الْمَوْضُوعَ، وَأَنْبَتُ فِكْرِي لَهُ، وَأَسْتَشْرِفُ^(٦) لِمَا يُوْدِّي إِلَيْهِ النَّظَرُ، وَأَتَطَّلَعُ لِمَا يَجِيءُ بِهِ الْخَاطِرُ، وَأَلْتَمِسُ مَا أَبْنِي عَلَيْهِ الْكَلَامَ كَمَا هِيَ عَادَتِي؛ فَلَمْ يَقَعْ لِي شَيْءٌ أَلْبَتَ، كَأَنَّمَا ذَهَبَ أَوَّلُ ابْتِدَاءِ

(١) الدعابة: المزاح واللعب.

(٤) أحفل: أهتم.

(٢) حذقه: اتقانه.

(٥) أعج: أمل، أعرج.

(٣) الهاجس: الهاتف.

(٦) أستشرف: أستطلع.

الموضوع فلا أولَ لَهُ ولا سبيلَ إلى اقْتحامِهِ، وكأنَّهُ من وراءَ العِلْمِ فلا يُبلَغُ إليه، وكأنَّهُ منَ التَّعذُّرِ كمحاولةِ تصوُّيرِ حماقةِ الحياةِ كُلِّها في كلمةٍ. وإبليسُ كلمةٌ فيها حماقةُ الحياةِ كُلِّها.

ومن عاداتي في كتابةِ هذه الفصولِ التي تنشرُها (الرسالة)، أن أدعَ الفصلَ منها تقلُّبُهُ الخواطرُ في ذهني أيامَ الثلاثاءِ والأربعاءِ والخميسِ، وأتركُ أمرَهُ للقوةِ التي في نفسي، فتتولدُ المعاني من كلِّ ما أرى وما أقرأ، وتتنالُ^(١) من ههنا وههنا، ويكونُ الكلامُ كأنَّهُ شيءٌ حيٌّ أريدُ لَهُ الوجودَ فوجدَ.

ثمَّ أكتبُ نهارَ الجمعةِ، ومن ورائِهِ ليلُ السبتِ وليلُ الأحدِ كالمددِ من وراءِ الجيشِ إذا نالتني فترةٌ أو كنتُ على سفرٍ أو قطعني عن الكتابةِ شيءٌ مما يعرضُ.

وفي أسبوعِ إبليسَ (لعنةُ الله)، مرَّتْ الأيامُ الثلاثةُ وفيها ثلاثةُ ألوانٍ: صَجَرٌ لا رُوحَ فيه، وكَسَلٌ لا نشاطَ معه، واضطرابٌ لا مساكَ لَهُ. وأطلتُ للتفكيرِ يومَ الخميسِ، فكأنتُ تعتريني خواطرُ مضحكةٍ: فيعرضُ لي مرةً أنْ أصوِّرَ إبليسَ امرأةً ليكونَ إبليسُ الجميلُ... وتارةً أتوهمُ أنْ إبليسَ يُريدُ أنْ يكونَ شيخاً كبعضِ رجالِ الدينِ الذين لا تزالُ تَطْلُعُ على خائنةٍ منهم، يُقالُ إبليسُ التقِيُّ المصلي... وجيئاً أظنُّ أَنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ كاتباً مؤلفاً شهيراً يُقالُ إبليسُ المفكرُ المصلح... وخطرَ لي أخيراً أَنَّهُ يُريدُ أنْ يكونَ حاكماً مُلجداً فاجراً، ليكونَ إبليسُ التامَ لا إبليسُ الناقص... .

ولَمَّا ذهبتِ الأيامُ الثلاثةُ باطلاً، خُيِّلَ إِلَيَّ أنْ إبليسَ (أخزاهُ الله) يسألني عن المقالة: إلى أيِّ شيءٍ انقلبتُ...؟ فسقُّ^(٢) ذلك عَلَيَّ وأغتممتُ بِهِ، غيرَ أَنِّي أطمأننتُ إلى يومِ الجمعةِ وأن وراءَهُ ليلتين. وكأنتُ قد غربتُ شمسُ الخميسِ، فقلْتُ: فَلأخرجُ لِأتفرَّجَ ممَّا بي، وعسى أنْ أجمعَ نفسي للتفكيرِ إذا جلستُ في الناديِ، ولعلَّه يقعُ ما أَسْتَوْحِيهِ أو يَنْفَتِحُ لي بابٌ في القراءةِ.

وخرجتُ، فلم أجاوزِ الدارَ حتى أبْتَدَرَنِي مَنْ هَبَطَ عَلَيْهِ الْخَبَرُ مِنَ الْقَاهِرَةِ أَنَّ نَسِيباً لَنَا مِنَ الْعِظَمَاءِ تَوَفَّى أَخُوهُ الْيَوْمَ. فقلْتُ: لا حولَ ولا قوةَ إِلَّا بِاللَّهِ؛ ضاعَ يومُ الجمعةِ. إذْ لا بدَّ مِنَ السَّفَرِ لِتَشْيِيعِ الْجَنَازَةِ وَحُضُورِ الْمَأْتَمِ ثُمَّ قُلْتُ: لعلَّ في هذا

(٢) شقٌّ: صعبٌ.

(١) تنالُ: تنهمرُ وتتوالى.

السفر استجماماً^(١) ونشاطاً فأستدرك الأسبوع كله في يومين، وإنما الاستكثار بالقوة لا بالزمن، ولا يد للإبليس في الموت والحياة، فليس إلا أطراحه وقلة المبالاة به، وإنما هي خطرات من وساوسه.

وأصبخت في القاهرة، ومشيت في الجنازة قبل الظهر مسيرة ساعة كاملة؛ وكانت الشمس ساطعة تتلألأ، وأنا مثقل بثياب الشتاء وكنت أتوقع أن يكون اليوم من أيام الريح المجنونة، فلما انتهينا إلى الصحراء، هبت الريح هبوباً ليئناً، ثم رقت فكانت إلى الشدة ما هي: ولكنها ماضية تسفي^(٢) الرمل في الأعين فيأخذ في أجفاني أكال^(٣) وتهنيج، وليس معي شيء أتقيها به؛ غير أنني شغلت، فكري برؤية المقابر، وجعلتها في نفسي كالمقالة المكتوبة سطرأ وراء سطر؛ وقلت: ههنا الحقيقة في أول تفسيرها، وغير المفهوم في الحياة يفهم هنا.

ثم رجعت مندئ الجسم بالعرق وعليّ نضج منه، وكان القميص من الصوف، وبصدري أثر من النزلة الشعبية^(٤)، وإذا تندئ الصوف وجب نزعه وإلا فهي العلة ما منها بد.

ثم لم تكن إلا ساعة حتى أنخرقت الريح وجعلت تغصف وبرد الجو، فأيقنت أنه الزكام، وقلت في نفسي: هذا باب على حدة، والمقالة ذاهبة لا محالة، فستخلف الذهن ويتبدل؛ والشيطان كريم في الشر يعطي من غير أن يسأل...

وثقل ذلك عليّ فكان الغم به علة جديدة، بيد أنني لم أزل أرجو الفرصة في أحد اليومين: السبت والأحد. وقلت: إن من البلاء الفكر في البلاء، ولعل من السلامة الثقة بالسلامة؛ فإذا نبهت العزيمة رجوت أن يتغلغل أثرها في البدن كله فيكون علاجاً في الدم يخذل به النشاط ويُرَهَف^(٥) منه الطبع وتجم عليه النفس. وفي قوة العصب كهربائية لها عملها في الجسم إذا أحسن المرء بعثها في نفسه وأحكم إفاضتها وتصريفها على طريقة رياضية؛ ولهي الدواء حين يعجز الدواء، وهي القوة حين تُخذل القوة.

فاعترمت وصممت، وأحتلت على الإرادة، وتكثرت من أسباب الثقة

(١) استجماماً: راحة لتجدد النشاط.

(٢) تسفي الرمل: تنشره.

(٣) الأكال: الحكاك.

(٤) النزلة الشعبية: الرشح والزكام.

(٥) يرهف: يرقق ويلطف.

وترصّدت لها ألسوانح العقليّة التي تَسْنَحُ في النفس، وقلتُ لإبليس: إجهّد جُهدك، فما تذهبُ مذهباً إلاّ كانَ لي مذهب. ولكنّ اللعينَ أخطَرَ في ذهني قولَ القائلِ يسخرُ فيه من ذلك الكاتبِ البغداديّ.

لو قيلَ: كم خمسٌ وخمسٌ؟ لاغتدى يوماً وليلتهُ يعدُّ ويحسبُ ويقول: مُغْضِلَةٌ عجيبٌ أمرُها ولئنْ فهمتُ لها، لأمرّي أعجبُ خمسٌ وخمسٌ ستةٌ، أو سبعةٌ قولانِ قالهما الخليلُ وثعلبُ

ثمّ أجمعتُ الرجوعَ من يومي إلى (طنطا)، لِأَتَقِيَ أَلْبَرَدَ بعلاجِهِ إنْ نالني أثرُهُ، وكانَ عَلَيَّ وقتٌ إلى أنْ يقومَ القطارُ، فذهبتُ فقضيتُ واجباً مِنْ زيارةِ بعضِ أَلْأَقَارِبِ في ضاحيةِ (الجيزة)، ثمّ ركبْتُ أَلْتَرَامَ الَّذي أَعْلَمُ أَنَّهُ ذاهبٌ إلى محطةِ سكةِ الحديدِ.

وجلسْتُ أفكرُ في إبليسَ ومقالتهِ، وألترامُ يبيعُ في طريقهِ نحوَ ثلثِ الساعةِ، حتى بلغَ، أَلْمَوْضِعَ الَّذي ينعرجُ^(١) منه إلى أَلْمَحْطَةِ، وهو بحيالٍ (جمعيةِ الإسعافِ)، حيثُ تنشعبُ^(٢) طرقٌ أخرى؛ وكنتُ منصرفاً إلى التفكيرِ مستغرقاً فيه، طائفةَ النظراتِ على أَلْجَوِّ، فما راعني إلاّ اختلافُ منظرِ الطريقِ؛ وأنتبهُ، فإذا أَلْتَرَامُ يَمُرُّ مروقَ أَلْسَهِمِ في تلكِ السبيلِ أَلصَّاعِدَةِ إلى (الجيزة) . . . من حيثُ جئتُ.

فلعنتُ أَلْشَّيْطَانَ وتلبّثْتُ^(٣) حتى وقفَ هذا أَلْتَرَامُ، فغادرتهُ ورجعتُ مُهْزولاً إلى ذلكِ المُنشَعَبِ، فصاذفتُ تراماً آخرَ، فوثبتُ إليه كَأَنِّي أُحْمَلُ إِلَيْهِ حملاً، ودفعتُ أَلْأَجْرَةَ، وأُنْطَلِقُ، فإذا هو مُنْصَبٌّ في تلكِ الطريقِ عَيْنُهَا أَلْذَاهِبَةُ إلى الجيزةِ من حيثُ جئتُ . . . ولا أستطيعُ أَلْأَنْحِدَارَ مِنْهُ وهو مُنْطَلِقُ، فَتَسَخَّطْتُ^(٤) ولعنتُ أَلْشَّيْطَانَ مرةً أخرى، ورأيتُ أَنَّ عَبْثَهُ قد تَرادَفَ؛ فَلَمَّا سَكَنَ أَلْتَرَامُ رجعتُ مهزولاً إلى ذلكِ المُنشَعَبِ ولم يبقَ مِنْ أَلْوَقْتِ غيرُ قليلٍ.

وأنظرُ ثمّ، فإذا ترامٌ وراءَ ترامٍ، وإذا قد وقعتُ حادثةٌ لأحدى أَلْسَيَّارَاتِ وأجتمَعَ النَّاسُ وسُدَّتْ أَلْطَرِيقُ . . . فجعلتُ أغلي من الغيظِ، ولعنتُ هذا الدَّعَابَةَ الخبيثَ. وأذكرني أَللَّعِينُ نادرةَ الأعرابي الَّذي عضَّه ثعلبُ، فأتى راقياً، فقالَ لَهُ

(١) ينعرج: يتحوّل، يحطّ.

(٢) تنشعب: تفرّق.

(٣) تلبّثت: انتظرت.

(٤) تسخّط: غضب.

الراقي: ما عَصَّكَ؟ فاستَحَى أَنْ يَقُولَ ثَعْلَب، وقال: كَلْب. فَلَمَّا ابْتَدَأَ الرَّجُلُ بَرُقِيَّةَ الْكَلْب، قَالَ لَهُ الْأَعْرَابِيُّ: وَأَخْلَطَ بِهَا شَيْئًا مِنْ رُقِيَّةِ الثَّعَالِبِ...

ثُمَّ إِنِّي لَمْ أَرُ بُدَاً مِنْ بُلُوغِ الْمَحْطَةِ عَلَى قَدَمِي لِأَتَمَّ عَلَى عَزِيمَتِي فِي مُرَاعِمَةِ اللَّعِينِ، فَأَسْرَعْتُ أَطْوَى الْأَرْضِ وَكَأَنَّمَا أُخْرَضُ فِي أَحْشَائِهِ^(١) وَكَانَ بِصَدْرِي الْتِهَابٌ فَهَاجَ بِي، غَيْرَ أَنِّي تَجَلَّدْتُ وَأَتَسَعْتُ لِاحْتِمَالِهِ وَبَلَغْتُ حَيْثُ أَرَدْتُ. ثُمَّ ذَهَبْتُ أَلْتَمِسُ فِي الْقِطَارِ عَرَبَةً خَاصَّةً أَعْرِفُهَا، كَانَتْ مِنْ عَرَبَاتِ الدَّرَجَةِ الْأُولَى فَجَعَلُواهَا فِي الثَّانِيَةِ يَرْفَهُونَ بِهَا بَعْضَ التَّرْفِيهِ عَلَى طَائِفَةٍ مِنَ الْمَسَافِرِينَ؛ وَأَصْبْتُ فِيهَا مَكَانًا خَالِيًا كَأَنَّمَا كَانَ مَهِيًّا لِي بِخَاصَّةٍ... فَأَنْحَطَطْتُ فِيهِ إِلَى جَانِبِ رَجُلٍ أَوْرَبِيٍّ أَحْسَبُهُ أَلْمَانِيَا لِتَفَاوُتِ خَلْقِهِ وَعُنْجُفِيَّتِهِ؛ وَجَلَسْتُ أَنْفُسُ عَنْ صَدْرِي، ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَسْحَرُ مِنْ إِبْلِيسَ وَنِكَايَتِهِ، وَجَعَلْتُ أَتَعْجَبُ مِمَّا اتَّفَقَ مِنْ هَذَا التَّدْبِيرِ.

وَتَحَرَّكَ الْقِطَارُ وَأَنْبَعَثَ، وَكَانَ الْأَوْرَبِيُّ إِلَى جَانِبِي مِمَّا يَلِي النَّاظِدَةَ وَقَدْ تَرَكَهَا مَفْتُوحَةً، فَأَحْسَسْتُ أَلْهَوَاءَ يَنْصُبُ مِنْهَا كَالْمَاءِ الْبَارِدِ وَأَنَا مُتَنَدِّ بِالْعَرَقِ؛ وَتَرَقَّبْتُ أَنْ يَغْلِقَهَا الرَّجُلُ فَلَمْ يَفْعَلْ، فَصَابِرْتُهُ قَلِيلًا فَإِذَا هُوَ سَاكِنٌ مَطْمَئِنٌّ يَتَرَوَّحُ بِالْأَلْهَوَاءِ وَكَأَنَّمَا يَشْرَبُهُ، وَتَأَمَّلْتُهُ فَإِذَا شَيْخٌ فِي حُدُودِ الْاَسْتِينَ أَوْ فَوْقَهَا، غَيْرَ أَنَّهُ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ قُوَّةِ مَصَارِعَ فِي أَكْتَازِ عَضْلِهِ وَاجْتِمَاعِ قُوَّتِهِ وَوِثَاقَةِ تَرْكِيبِهِ، فَأَيَقُنْتُ أَنَّ أَلْهَوَاءَ مِنْ حَاجَتِهِ، وَهَمَمْتُ أَنْ أَنْبِئَهُ أَوْ أَقُومَ أَنَا فَأَغْلِقَ النَّاظِدَةَ، وَلَوْ شِئْتُ أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ فَعَلْتُ، غَيْرَ أَنَّ الشَّيْطَانَ (أَخْرَاهُ اللَّهُ) وَسَّوَسَ لِي: أَنَّ هَذَا رَجُلٌ أَجْنَبِيٌّ غَرِيبِي، وَأَنْتَ مَصْرِيٌّ شَرْقِيٌّ، فَلَا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تُعَلِّمَهُ وَتُعَلِّمَ الْحَاضِرِينَ أَمَامَكُمَا أَنَّكَ أَنْتَ الْأَضْعَفُ عَلَى حِينٍ أَنَّهُ هُوَ الْأَسْنُ، وَكَيْفَ لَا تَقُومُ لِمَا يَقُومُ لَهُ وَقَدْ كُنْتَ تُبَاكِرُ الْمَاءَ الْبَارِدَ فِي صَمِيمِ الشِّتَاءِ، وَكُنْتَ لَا تَلْبَسُ فِي أَشَدِّ أَيَّامِ الْبَرْدِ غَيْرَ ثِيَابِ الْصَيْفِ، وَكُنْتَ تَحْمِلُ كَذَا وَكَذَا ثِقَلًا لِلرِّيَاضَةِ، وَتُعَانِي كَذَا وَكَذَا مِنْ ضُرُوبِ الْقُوَّةِ، وَكُنْتَ تَلْوِي بِبَيْدِكَ عَوْدَ الْحَدِيدِ، وَكُنْتَ وَكُنْتَ... .

فَتَذَمَّمْتُ - وَاللَّهِ - مِمَّا خَطَرَ لِي؛ وَأَنْفَعْتُ أَنْ أَنْبِئَهُ الرَّجُلَ، وَرَأَيْتُ عَمَلِي هَذَا ضَعْفًا وَفُسُولَةً^(٢)، وَلَمْ أَعْبَأْ بِالْأَلْهَوَاءِ وَلَا بِالْعَرَقِ وَلَا بِالنَّزْلَةِ الشَّعْبِيَّةِ وَلَا بِالزَّكَامِ، وَتَرَكْتُ الْأَوْرَبِيَّ وَشَأْنَهُ، وَأَقْبَلْتُ عَلَى كِتَابِ كَانِ فِي يَدِي، وَتَنَاسَيْتُ أَنَّ هَذِهِ النَّاظِدَةَ

(١) أَحْشَائِهِ: جَوْفُهُ.

(٢) فُسُولَةٌ: نَذَالَةٌ لَامْرُوءَةٍ فِيهَا.

جهة من تدبير إبليس؛ وكان القطار مزدحماً بالراجعين من المعرض الزراعي الصناعي، وبعض الناس وقوف فلا مطعم في مكان آخر...

ولبثت ساعة ونصف ساعة في تيار من هواء (فبراير) ينصب أنصباباً، ويغصيف عصفاً، وكأني أسبح منه في نهر تحت ظلمة الليل الماطر، وأناس معجبون بي وبالأوربي، وهذا الأوربي معجب بي أكثر منهم، وقد رأى مكاني وعرف موضعي؛ وكان إلى يميني مجلس بقي خالياً ولم يقدم أحد على أن يجلس فيه خوفاً من الرجل الأوربي...

ثم تراءيت أنوار محطة (طنطا)، ولم يبق من هذه المحنة غير دقيقتين؛ فوالله الذي لا يخلف بغير اسمه - عز وجل -، لقد كان إبليس رقيقاً جلفاً^(١) بارداً ثقیلاً المزاج؛ إذ لم أكذ أنهياً للقيام، حتى رأيت الرجل الأوربي قد مد يده فأغلق النافذة....

ورجعت إلى داري وأنا أقول: ثم ماذا يا إبليس؛ ثم ماذا أيها الدغيب^(٢) وحاولت بجهدتي أن أكتب أو أقرأ فلم أتحرك لشيء من ذلك، وكانت الساعة العاشرة ليلاً، فصليت وأويت إلى مضجعي.

ثم أصبحت يوم السبت، فإذا كتاب من الأستاذ صاحب (الرسالة): أنه سيطبع عددان معاً فيريد لهما مقالتين، إذ تغلق المطبعة في أيام عيد الأضحى. وكان أمني في المقالة الواحدة مخدولاً مما قاسيت، فكيف لي باثنتين؟

وأختلط في نفسي هم. بهم، وما يفسد عليّ أمري شيء مثل الضيق، فإذا تضايقت كنت غير من كنت؛ ولكنني تيقظت وتنهت وأملت العافية مما أجده من ثقل البرد وضعفته، وأحدثت طمعا في النشاط إذا جلست للكتابة في الليل، فإني بالنهار أعمل للحكومة.

فلما كان الليل لم أجد أمري على ما أحب، وجلست متفكراً مغتلاً، وثقل رأسي من ضربة النافذة، وتسلط عليّ ظن المرض والعجز عن الكتابة، وانتفض الأمر كله فرأيتني أشق على نفسي بلا طائل، فكان من صواب التدبير عندي أن

(١) جلفاً: قاسياً فظاً.

(٢) الدغيب والمداغب والدغابة، بالتشديد، كلها بمعنى واحد.

وأحسنْتُ أَنِّي جائع، وَأَنَّ معدتي مَشْحُوذَةٌ^(١)، ونَسِيتُ كُلَّ مَا أَعْرِفُ مِنْ
الطَّبِّ؛ وَجَاءَنِي بِشَوَاءٍ وَحَلَوَى وَمَا بَيْنَهُمَا، فَحَطَطْتُ فِيهِ وَلَفَفْتُ الْآخَرَ بِالْأَوَّلِ، ثُمَّ
قَمْتُ أُرِيدُ النَّوْمَ، فَإِذَا الطَّعَامُ كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ نَافِذَةِ الْقِطَارِ، وَكَانَ الَّذِي فِي الْفِكْرِ
مِنَ الْمَقَالَةِ أَثْقَلَ مِنَ الَّذِي فِي الْمَعْدَةِ مِنَ الطَّعَامِ، وَسَاءَ الْهَضْمُ فِي الدِّمَاغِ وَالْبَطْنِ
جَمِيعًا!

ثُمَّ رَجَعْتُ أَحَاوِلُ النَّوْمَ ، فَمَا كَانَ هَذَا اللَّيْلُ إِلَّا شَيْئًا وَاحِدًا أَوَّلُهُ آخِرُهُ إِلَى أَنْ طَلَعَ الْفَجْرُ .

(٢) الكرى: النعاس والنوم.

(١) مشحوزة : خاوية .

الشیطان...

قال الشیخ أبو الحسن بن الدَّقَاقِ: كَانَ شِیْخِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ الْأَزْهَرِيُّ الْعَجْمِيُّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) رَجُلًا صَاحِبَ آيَاتٍ وَخَوَارِقٍ مِمَّا فَوْقَ الْعَقْلِ، كَأَنَّمَا هُوَ سِرٌّ مِنَ الْأَسْرَارِ الْجَارِيَةِ فِي هَذَا الْكَوْنِ، قَدْ بَلَغَ بِنَفْسِهِ رَتَبَةَ التَّجَمُّ فِي أَفْقِهِ وَلَا لَائِهِ مِنْ إِشْرَاقِ رُوحِهِ وَصَفَائِهَا؛ وَقَدْ أَرْتَفَعَ بِأَدَمِيَّتِهِ فَوْقَ نَفْسِهَا؛ فَأَصْبَحَ فِي النَّاسِ وَمَعَهُ سَمَاوُهُ، يَجْعَلُهَا بَيْنَ قَلْبِهِ وَبَيْنَ الدُّنْيَا.

وَأَلْجُلُ إِذَا بَلَغَ هَذَا الْمَبْلَغَ كَانَ حَيًّا كَالْمَيِّتِ سَاعَةً أَحْتَضَارِهِ: يَنْظُرُ إِلَى كُلِّ مَا فِي الْحَيَاةِ نَظْرَةً مَنْ يَتْرُكُ لَا مَنْ يَأْخُذُ، وَمَنْ يَعْتَبِرُ لَا مَنْ يَغْتَرُّ، وَمَنْ يَلْفِظُ لَا مَنْ يَتَذَوِّقُ، وَمَنْ يُدْرِكُ أَلْسَرُ لَا مَنْ يَتَعَلَّقُ بِالظَّاهِرِ؛ وَيَرَى الشَّهَوَاتِ كَأَنَّهَا مِنْ لُغَةٍ لَا يَعْرِفُهَا، فَهِيَ أَلْفَاظٌ فِيهَا مَعَانِي أَهْلِهَا لَا مَعَانِيهِ، وَإِنَّمَا تَلْبَسُ كَلِمَاتُنَا مَعَانِيهَا مِنْ أَنْفُسِنَا. وَفِي الْأَنْفُوسِ مِثْلُ الْهَشِيمِ^(١): إِذَا وَقَعَتْ فِيهِ الْمَعَانِي الْمَشْتَعَلَةُ اسْتَطَارَ حَرِيقًا وَتَضَرَّمَ، وَفِيهَا عَلَى الْمَجَاهِدَةِ مِثْلُ الْمَاءِ؛ فَإِذَا خَالَطَتْهُ تِلْكَ الْمَعَانِي انْطَفَأَتْ بِهِ وَخَمَدَتْ.

وَقَدْ سَأَلْتُ الشَّيْخَ مَرَّةً: كَيْفَ تَحْدُثُ الْكَرَامَاتُ وَالْحَوَارِقُ لِلْإِنْسَانِ؟ فَقَالَ: يَا وَلَدِي إِنَّ الْإِنْسَانَ مِنَ النَّاسِ الْمَحْجُوبِينَ يَتَصَرَّفُ فِي جِسْمِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لِرُوحَانِيَّتِهِ شَيْئًا، فَإِذَا أُبْلِيَ فِي الْمَجَاهِدَةِ وَوَقَعَ فِي قَلْبِهِ النُّورُ، تَصَرَّفَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ وَلَا يَكَادُ يَمْلِكُ لَجِسْمِهِ شَيْئًا، فَمَنْ أَطَاقَ أَنْ يَنْسَلِخَ مِنْ بَشَرِيَّتِهِ، وَأَتَسَّعَتْ ذَاتُهُ فِي مَعَانِي السَّمَاءِ بِمَقْدَارِ مَا ضَاقَتْ مِنْ مَعَانِي الْأَرْضِ، وَكَانَ مُعَدًّا لِأَنْ يَتَحَقَّقَ فِي رُوحَانِيَّتِهِ، مُعَانًا عَلَى ذَلِكَ بِطَبِيعَةٍ فَوْقَ الْأَعْتِدَالِ - فَقَدْ شَاعَ فِي الْكَوْنِ، وَأَصَابَ لَهُ وَجْهًا وَمَذْهَبًا إِلَى تِلْكَ الْقُوَّةِ الَّتِي تَهْدِمُ فِي الْعَالَمِ وَتَبْنِي، وَتُفَرِّقُ وَتَجْمَعُ، وَتَنْقُلُ الصُّورَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ؛ فَإِنَّ الْكَوْنَ كُلَّهُ جَوْهَرٌ وَاحِدٌ هُوَ النُّورُ، حَتَّى الْجَبَلُ هُوَ نَوْرٌ صَخْرِيٌّ، وَحَتَّى الْبَحْرُ هُوَ نَوْرٌ مَائِيٌّ، وَحَتَّى الْحَدِيدُ وَالذَّهَبُ وَالتُّرَابُ، كُلُّ

(١) الهشيم: الحشيش الجاف.

ذلك نور صرّفته القدرة الإلهية تصريفها المعجز، فكان، على ما نرى: ظاهراً مخيلاً يلائم نقصنا وعجزنا، وحقيقة قازة على غير ما نرى. ومن ذا يعقل أن الصخر نور متجمد إذا لم يكن له إلا عقل عينه وحواسه؟ ومن ذا يطيق أن يفهم بحواسه وعينه قول الله - تعالى -: ﴿ وَنَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُ جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الْبَرِّ الْفَنَ كُلَّ شَيْءٍ ﴾؟ فالجبال جامدة ثابتة، غير أنها تمر بأرضها وتموج في نفسها؛ ومتى تأذن الله أن ينكشف نور كلامه للعقل الإنساني، فستكون هذه الآية علماً جديداً في الأرض، يثبت أن السحاب والجبل مادة واحدة وصنع واحد.

ويا لها سُخرية بالإنسان وجهله! فإنه إذا كانت الحقيقة غير ما نرى، فكل شيء في الدنيا هو ردٌّ على النظر الإنساني، ويكاد الجبل العظيم يكون كلمة عظيمة تقول للإنسان: «كذبت!»

فالشأ في الخوارق والكرامات راجع إلى القدرة أن يسلط الإنسان الروحاني ما فيه من سرّ النور على ما في بعض الأشياء من هذا السرّ، وتلك هي طاعة بعض الكون لمن يتصرف عن المادة ويتصل بخالقها.

فإذا بقي في أرجل الروحاني شيء من أمر جسمه يقول: «أنا...» لم يكن في أرجل من تلك القدرة ذرة؛ فإن هو حاول أن يخرق العادة، أبقى الكون أن يعرفه إلا كما يعرف حجر ملقى يحاول أن يتصرف بالجبل الذي هو منه فيقلعه أو يحرّجه أو يزلزله.

ولا خير على الأرض مطلقاً إلا وهو أخذ من حقوق هذه الـ «أنا...» في إنسانها، ولا سرّ على الأرض مطلقاً إلا وهو إضافة حقوق إليها فحين لا يقي لها حق في شيء عند نفسها، يجب لها الحق عندئذٍ على كل شيء. وهذه هي الكرامة؛ تكريم الخليفة من أكرمه الخالق.

فمن أراد أن تتصل نفسه بالله، فلا يكن في نفسه شيء من حظ نفسه، ولا يؤمن إيمان هؤلاء العامة: يكون إيمانهم بالله فكرة تذكر وتنسى، أما عملهم فهو إيمانهم بالراسخ بالجسم وشهواته يذكر ولا ينسى.

وأنت ترى رجال الروح يأكلون ويشربون ويلبسون، ولكن هذا كله ليس فيه ذرة من أرواحهم، على خلاف غيرهم من أناس؛ فهؤلاء كل أرواحهم في مطاعيمهم؛ ومن ثم لا يجري الشيطان من الأولين إلا في مجار ضيقة أشد الضيق لا

يكاد ينفذ منها إلى فكر أو شهوة أو حلم من أحلام الدنيا، أما الآخرون فالشيطان فيهم هو تيار الدم، يعب عبابه في الأسفل والأعلى.

قال أبو الحسن: وكنا يومئذ في دمشق، فبني كلام الشيخ عن الشيطان إلى ما قرأته عن كثيرين ممن رأوا الشيطان أو حاوروه أو صارعوه؛ فقلت للشيخ: إن من حقك علي أن أسالك حقي عليك، وما في نفسي أحب إلي ولا أعجب من أن أرى الشيطان وأكلمه وأسمعه؛ وأنت قادر أن تقبلي إليه كما نقلتني إلى ما دخلت بي عليه من عوالم الغيب.

قال الشيخ: وماذا يرد عليك أن ترى الشيطان وتكلمه؟

قلت: سبحان الله! لا يجدي علي شيئاً إلا أن أسخر منه.

قال الشيخ: فإني أخشى يا ولدي، أن يكون الشيطان هو الذي يريد أن تراه وتسمعه...

قلت: فأريد أن أسأله عن سره، فيكون علماً لا سخرية.

قال: لو كشف لك عن سره لما كان شيطاناً، فإنما هو شيطان بسره لا بغيره.

قلت: فأريد أن أرى الشيطان لأكون قد رأيت الشيطان!

قال الشيخ: لا حول ولا قوة إلا بالله! لو كنت يا أبا الحسن بأربع أرجل لهرت من الشيطان بثلاث منها وتركته يحرك من واحدة.

قلت: يا سيدي، فلو كنت حماراً لبطل عمل الشيطان في أرجلي الأربع كلها، إذ لا حاجة به إلى إغواء حماراً.

فتسم الشيخ وقال: ولا بد أن ترى الشيطان وتكلمه.

قلت: لا بد.

قال: إنه هو يقرنها، فقم!

قال أبو الحسن: وكان الشيخ إذا مشى إلى أمر خارجي بقيت معه غائباً عن الحسن، كأنه يبطل مني ما أنا به أنا، فأصبح ظلاً آدمياً معلقاً به. ولا تقع الخوارق إلا لمن وجد القوة المكملة لوجهه. وهذه القوة تستمد من الشيخ الواصل. فلا بد

من إمام، كأنها سلسلة نفسية متميزة في الأرض، فتتغير الواحدة منها بالواحدة، إذ تقع في جوفها فتورق وتثمر؛ كالشجرة: جو يسوها، وجو يذبلها، وجو يسلبها سلباً؛ وكذلك تفعل النفس إذا كان لها جو.

وخرجنا من دمشق وأنا خلف الشيخ كالمحمول، فرأيتنا وقد أشرفنا على بناء عظيم، ورأيت أقواماً يتلقون الشيخ ويسلمون عليه ويتبركون بمقدمه؟ فأنكرتهم نفسي ووجدت منهم وحشة، فالتفت إلي الشيخ وقال: هؤلاء من الجن، وما إليهم قصداً، فلا تشتغل بما ترى وأشتغل بي.

ثم انتهي إلى البناء العظيم، فتستقبلنا طائفة أخرى، ويدخلون الشيخ وأنا خلفه، ويمرون بنا على دنيا مخبوءة تعجز الوصف، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت؛ فيقولون: هذه كنوز سليمان وذخائره، ويطوفون بالشيخ يعرضونها عليه كنزاً كنزاً فرأينا ثم^(١) نعيماً وملكاً كبيراً، ثم أنتهينا آخراً إلى مغارة خسيفة كأنها عرق من عروق جسم الأرض، يتفجر منها دوي كالرعد القاصف، إلا أنه في السمع كخوار الثور، إلا أنه ثور خيل إلي أن رأسه في قدر جبل عظيم، يتعلق به غنغ^(٢) في قدر جبل آخر، على جسم يسد الخافقين، فخواره كأنه صراخ الأرض، وإذا أنا بأقبح مكان منظرأ، وأنتنه ريحاً، كأنه سجن بناؤه من الجيف.

فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا سجن إبليس، وهو هنا في هذه المغارة منذ زمن سليمان - عليه السلام -.

قلت: أفمنسجون هو؟

قالوا: وإنه مع ذلك موقرٌ بأمثال الجبال حديداً يزبض به في مخبئه، فلا يتزعزع ولا يتحلل.

قلت: وإنه مع ذلك قد ملأ الدنيا فساداً، فكيف به لو كان طليقاً؟

قالوا: فلو أنه كان طليقاً لاستحوذ^(٣) على الناس كافة؛ فيجتمع أهل الأرض على شهوة واحدة لا شيء غيرها، فيبطل مع هذه الشهوة الواحدة كل تدبير بينهم، فلا تقوم لهم سياسة، ولا يكون بينهم وازع^(٤)؛ فيرجعون كالكلاب أصابها الكلب

(١) ثم بفتح الثاء ظرف مكان بمعنى هناك.

(٢) غنغب الثور وغبيه هو ما تنثى من لحم ذقته من أسفل.

(٣) استحوذ: استمال.

(٤) وازع: رادع.

وهاج بها، فأنيابها في لحمها، لا يزال يعض بعضها بعضاً، فليس لجميعها إلا عمل واحد يسلمها إلى الهلاك، ويصبح ظهر الأرض أغرى من سراً أديم.

وإنما يصلح الناس باختلاف شهواتهم وتنافرهما وتنازعها: فبعضها يحكم بعضاً، وشيء منها يزغ شيئاً، ومن تخلص من نزوة قمع بها نزوة أخرى؛ كالمتزوج المخصن: يحكم بالجلد والرجم على من ليست له امرأة فزنا؛ وكالغني الواجد: يحكم على اللص الذي لم يجد فسرق، وهلم جرا.

وما ينشأ الناس في ثلاثة أعمار، فيشبون ويكتهلون ويهرمون، إلا ليتخلف شهواتهم وتختلف مقادير الرغبة فيها، فتتحقق من ثم تلك الحكمة الإلهية في التدبير ويجد الشرع محله بينهم، كما يجد العصيان بينهم محله.

ولو أن أمة كلها أطفال أو كهول أو شيوخ، لبادت^(١) في جيل واحد؛ وإنه ليس أسمع من الرذيلة تكون وحدها في الأرض إلا الفضيلة تكون وحدها، فلا بد من شيء يظهر به شيء غيره كالضد والضد؛ والمعركة إذا انتصر كل من فيها كانت هزلاً وكانت شيئاً غير المعركة.

قال أبو الحسن: وقلت لهم: فإذا كان الشيطان سجيناً قد ربضت به أثقاله، حتى لهو في سجن من سجن مبالغة في كفه والتضييق عليه - فكيف يفتن الناس في أرجاء الأرض ويؤسوس في قلوبهم، حتى لهو يد بين كل يدين، وحتى لهو العين الثالثة لعيني كل إنسان؟

قالوا: إن في روحه النارية قوة تفصل منها وتنتشر في الأرض، كشعاع الشمس من الشمس: هذه كرة نارية مئة معلقة على الأجسام مرصدة لها، وتلك كرة نارية حية معلقة على النفوس مرصدة لها، وبهذه وتلك عمار الدنيا وأهل الدنيا.

قلت: لعلكم أردتم أن تقولوا: خراب الدنيا وأهل الدنيا. فغلطتم، فكان ينبغي أن يجيء بدل الغلط...

فقال أحدهم: يا أبا الحسن، خرق الثوب المسمار. جاز هنا لأمن اللبس أن يكون المفعول به - وهو الثوب - مرفوعاً وفاعله - وهو المسمار - منصوباً، هل جئت - ويحك - تطلب النحو أو تطلب الشيطان...؟

(١) بادت: فئت.

قال أبو الحسن: فقطعني الجنّي - والله - وأخجلني، ونظرتُ خلسةً إلى الشيخ أراه كيف يسخرُ مني، فإذا الشيخُ وقد أمْلَسَ فلا أراه، وإذا أنا وحدي بين الجنِّ وبإزاء هذا السّاخرِ وُضِعَتْ عينُهُ في جبهتِهِ وشُقَّ فَمُهُ في قفاه..! فَسُرِّي عني وزالَ ما أجده، وقلْتُ في نفسي: الآنَ أبلغُ أربي^(١) مِنَ الشَّيْطَانِ ويكونُ الأمرُ على ما أريد، فلا أجدُ مَنْ أَحْتَشِمُ ولا تَقْطَعُنِي هِيَةُ الشَّيْخِ..!

ووقعَ هذا الخاطرُ في نفسي، فاستعدتُ بالله ولعنتُ الشَّيْطَانَ وقلْتُ: هذا أولُ عَبيثِهِ بي وجعلهُ إِيَّايَ من أهلِ الكُرباءِ، كأنَّ لي شأنًا في حضورِ الشيخِ وشأنًا في غيابه، وكأنَّي مُناقِقُ أَعْلِنُ غيرَ ما أُسِرُّ، وقلْتُ: إِنَّا لِلَّهِ! كَذْتُ يا أبا الحسنِ تَشْطِيطُن! ثُمَّ هَمَمْتُ أَنْ أَنْكَصَ^(٢) على عَقْبِي، فقد أيقنْتُ أَنَّ الشَّيْخَ إِنَّمَا تَخْلَى عَنِّي لِأَكُونَ هُنَا بِنَفْسِي لَابِه، وما أنا هنا إِلَّا بِهِ لا بِنَفْسِي، فَيُوشِكُ إِذَا بَقِيتُ في موضعي أَنْ أَهْلِكَ! بَيَدَ أَنَّ الْمَغَارَةَ أَنْكَشَفَتْ لِي فَجَاءَةً فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَنْظُرَ؛ وَنَظَرْتُ فَمَا مَلَكَتُ أَنْ أَقِفَ، وَوَقَفْتُ أَرَى، فَإِذَا دُخَانٌ قَدْ هَاجَ فَارْتَفَعَ يَثُورُ ثَوْرَانَهُ حَتَّى تَمَلَأَ الْمَكَانُ بِهِ، ثُمَّ رَقَّ وَلَطَفَ.

وَأَسْتَضْرَمْتُ^(٣) مِنْهُ نَارَ عَظِيمَةٍ لَهَا وَهَجَانٌ شَدِيدٌ يَتَضَرَّمُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ، وَيُسْمَعُ مِنْ صَوْتِهَا مَعْمَعَةٌ^(٤) قَوِيَّةٌ، ثُمَّ خَمَلَتْ.

وَأَنْفَجَرَ فِي مَوْضِعِهَا كَالسُّدِّ الْمُنْبَثِقِ مِنْ مَاءٍ كَثِيفٍ أبيضَ أَصْفَرَ أَحْمَرَ، كَأَنَّهُ صَدِيدٌ^(٥) يَتَّقِيحُ فِي دَمٍ، ثُمَّ غَاضَ.

وَتَبَنَعْتُ فِي مَكَانِهِ حَمَاءٌ مَنِينَةٌ جَعَلَتْ تَرُوبُ وَتَعْظُمُ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَبْتَلَعَنِي وَأَذْهَبَ فِيهَا، فَسَمِيتُ اللَّهَ - تَعَالَى - فَغَارَتْ فِي الْأَرْضِ.

ثُمَّ نَظَرْتُ فَإِذَا كَلْبٌ أَسْوَدُ مُحْمَرُّ الْحَمَالِيقِ، هَائِلٌ الْخَلْقَةِ مُسْتَأْسِدٌ^(٦)، قَدْ وَقَفَ عَلَى جِيْفَةٍ قَدِيرَةٍ غَابَ فِيهَا خَطْمُهُ يَعْثُ مِمَّا تَسِيلُ بِهِ.

فَقُلْتُ: أَيُّهَا الْكَلْبُ، أَنْتَ الشَّيْطَانُ؟

وَأَنْظَرُ فَإِذَا هُوَ مَسْخٌ شَائِهٌ كَأَنَّهُ إِنْسَانٌ فِي بَهِيمَةٍ قَدِ امْتَزَجَا وَطَعَى مِنْهُمَا شَيْءٌ عَلَى شَيْءٍ، وَأَمَّا وَجْهُهُ فَأَقْبَحُ شَيْءٍ مَنْظَرًا، تَحْسَبُهُ قَدْ لَيْسَ صُورَةُ أَعْمَالِهِ..

(١) أربي: غايته.

(٢) أنكص: أراجع.

(٣) استضرمت: اشتعلت.

(٤) معمة: معركة.

(٥) صديد: قيح الجراح.

(٦) مستأسد: يتخلق بأخلاق الأسود.

ونطقَ فقال: أنا الشيطان!

قلت: فما تلك الجيفة؟

قال: تلك دنياكم في شهواتها، وأنا ألتقمُ قلبَ الفاسقِ أو ألائمُ منكم، كما ألتقمُ دودةً من هذه الجيفة.

قلت: عليك لعنةُ اللَّهِ وعلى الفاسقينِ وألائمين، فكيف كنتَ دخاناً، ثم أنقلبْتَ ناراً، ثم رجعتَ قيحاً، ثم صرْتَ حمأةً^(١)، ثم كنتَ كلباً على جيفة؟

قال: لا تلعنِ الفاسقينِ وألائمين؛ فإنَّهُم العِبَادُ الصالحون بأحدِ المعنيين، وأنتِ وأمثالك عِبَادُ صالحون بالمعنى الآخر، أليسَ في الدنيا حياةٌ ووقاحة؟ فأولئك يا أبا الحسنِ هم وقاحتي أنا على الله! أنا منكم في زهدكم حرمانُ الحرمان، وفقرُ الفقر، ولقد أهلكتموني بُوساً؛ غيرَ أنني معهم لذةُ اللذة، وشهوةُ الشهوة، وغنى الغنى، لا تتمُّ لذةٌ في الأرض، ولا تحلو لذائقها وإنْ كانتَ حلالاً، إلا إذا وضعتُ أنا فيها معنى من معاني أو وقاحةً من وقاحتي! حتى لأجعلُ الزوجةَ لزوجها مثلَ الشعرِ البليغ إذا استعارَ لها معنى مِنِّي، وكلُّ ما فسدتُ به المرأةُ فهو مجازي وأستعاري لها أجعلُها به بليغة...

وأنتم يا أبا الحسنِ تقطعون حياتكم كلَّها تُجاهدون إثمَ ساعةٍ واحدةٍ من حياةِ عبَّادي، فأنظروا - رحمك الله - لئن كانتَ ساعةٌ من حياتهم هي جهنمُكم أنتم، فكيف تكونُ جهنمُ هؤلاء المساكين؟

إنَّكَ رأيتني دخاناً لأنِّي كذلك أنبعثُ في القلبِ الإنساني، فمتى تحرَّكتُ فيه حركةُ الشرِّ كنتُ كالأحتيالِ لإضرارِ النارِ بالنَّفخِ عليها؛ فمِنْ ثم أكونُ دخاناً، فإذا غفلَ عني صاحبُ القلبِ تضرَّمتُ في قلبه ناراً تطلبُ ما يُطفئُها؛ ثم يُواقعُ الإثمَ والمعصيةَ ويقضي نَهْمَتَهُ^(٢) فأبردُ عن قلبه، فيكونُ في قلبه مثلُ الحرقِ الذي بردَ فتأكَلَ موضعه فتقيحُ، ثم يختلطُ قيحُ أعمالِهِ بمادَّته الترابيةِ الأرضيةِ، فينقلبُ هذا المسكينُ حمأةً إنسانيةً لا تزالُ تربو وتفتحُ كما رأيت.

قلت: أعوذُ باللهِ منك! أفلا تعرفُ شيئاً يردُّكَ عن القلبِ وأنتَ دخانٌ بعد؟
فقهقهَ اللعينُ وقال: ما أشدَّ غفلتَكَ يا أبا الحسن، إذ تسألُ الشيطانَ أنْ يخترعَ

(١) حمأة: ناراً.

(٢) نهمة: جوعته.

التوبة! أما لو أن شيئاً اخترع التوبة في الأرض لآخترعها القبر الذي يذفن فيه بعضكم بعضاً كل طرفة عين من الزمن، فتزولون فيه الميت المسكين قد انقطع من كل شيء وتكونه لآثامه، وحساب آثامه، والهلاك الأبدي في آثامه؛ ثم تعودون أنتم لاقتراف هذه الآثام بعينها!

قلت: عليك وعليك أيها اللعين؛ ولكن ألا يتبدد هذا الدخان إذا ضربته الريح أو انطفأ ما تحته!

قال: أوه! لقد أوجعتني كأنما ضربتني بجبل من نار، إن نبيكم عرفها ولكنكم أغبياء؛ تأخذون كلام نبيكم كأنما هو كلام لا عمل، وكأنه كلام إنسان في وقته لا كلام النبوة للدهر كله وللحياة كلها؛ ولهذا غلبت أنا الأنبياء على الناس، فإنني أضع المعاني التي تعمل، لا الحكمة المتروكة لمن يعمل بها ومن لا يعمل.

أندري يا أبا الحسن، لماذا أعجزني أسلافكم الأولون مثل: عمر وأبي بكر؟ حتى كان إسلامهم من أكبر مصائبهم، فتركوني زمناً - وأنا الشيطان - أرتاب في أنني أنا الشيطان...؟

قلت: لماذا؟

قال: أراك الآن لم تلعن، فليست قائلها إلا إذا ترخمت علي.

قلت: عليك وعليك من لعنات الله! قل لماذا؟

قال: أسألك ويأمر طفيلي ويقترح؟ لا بد أن ترخم!

قلت: يرحمنا الله منك! قل لماذا؟

قال: وهذه لعنة في لفظة رحمة؛ لا، إلا تترخم علي أنا إبليس الرجيم^(١)!

قلت: فيغني الله عن علمك؛ لقد ألهمتنيها روح النبي ﷺ: إن النبوة كانت هي بأعمالها وصفاتها تفسيراً للألفاظ على أسمى الوجوه وأكملها، فكان روح النبي ﷺ لتلك الأرواح كالأم لأبنائها؛ وقد رأوه لا يغضب لنفسه ولا حظ نفسه، وذلك لا يستقيم إلا بالقصد في أمر النفس، وجعل ناحية الإسراف فيها إسرافاً في العمل لسعادة الناس. وكلما ارتد الإنسان لنفسه وحظوظها ارتد إليك - أيها اللعين - وأقبل على شقاء نفسه، وكلما عمل لسعادة غيره ابتعد عنك - أيها الرجيم - وأقبل

(١) الرجيم: المطرود

على سعادة نفسه، وترك الغضب وحفظ النفس هو الصبر؛ وصبر الأنبياء
والصديقين ليس صبراً على شيء بعينه في الحياة، بل هو الصبر على حوادث العمر
كله، كصبر المسافرين إن كان عزيمة مدة الطريق كلها، وإلا كان فساداً في القوة
ووقع به الخذلان.

فهذا الصبر المعتزم المصمم، الذي يوطن به الرجل نفسه أن يكون رجلاً إلى
الآخر - هو تعب الدنيا، ولكنه هو روح الجنة مع الإنسان في الدنيا. والمؤمن
الصابر رجل مقفل عليه بأقفال الملائكة التي لا يفتحها الشيطان ولا تفتحها
مصائب الدنيا؛ ولذلك قال النبي ﷺ: «إن المؤمن ينضي شيطانه كما ينضي^(١)
أحدكم بعيره في سفره». كأنه يقول: لو لم يصبر المسافر دائماً معتزماً مدة سفره
كلها لما أنضى شيطانه.

فصاح الشيطان: أوه، أوه! ولكن قل لي يا أبا الحسن: ما صبر رجل مؤمن
قوي الإيمان، قد استطاع بقوة إيمانه أن يفيق من سُكر الغنى، فتخلص من نزوات
الشياطين الذهبية الصغيرة التي تسمونها الدنانير؛ وقد أردته على أن يكذب، فرأى
الإيمان أن يصدق؛ وجهدت به يغضب، فرأى الحكمة أن يهدأ؛ وحاولت منه أن
يطمع، فرأى الراحة أن يرضى؛ وسئلت له أن يخسد، فرأى الفضيلة ألا يبالى؛
وأخذ لنفسه من كل شيء في الحياة بما يثق أنه الإيمان والصبر والهدوء والرضا
والقناعة؛ وأحاط نفسه من هذه الأخلاق بالسعادة القلبية وأجتزأ بها؛ وقصر نظره
على الحقيقة؛ ووجد الجمال في نفسه الطيبة الصافية؛ وأجرى ما يؤلمه وما يسره
مجرى واحداً؛ ونظر إلى العمر كله كأنه يوم واحد يرقب مغرب شمس؛ وأخذ من
إرادته قوة أنسته ما لم تعطه الدنيا، فلم يخفل بما أعطت الدنيا وما منعت؛ وعاش
على فقره بكل ذلك كما يعيش المؤمن في الجنة: هذا في قصر من لؤلؤة أو ياقوتة
أو زبرجد، وذاك في قصر من الحكمة أو من الإيمان أو من العقل.

قال الشيطان: فلما أعجزني صلاحاً ورضى وصبراً وقناعة وإيماناً واحتساباً،
وكان رجلاً عالماً فقيهاً - سئلت^(٢) له أن يخرج إلى المسجد ليعظ الناس فينتفعوا
به، ويُبصّرهم بدينهم - ويتكلم في نص كلام الله؛ فعقد المجلس ووعظ، وأنصرفوا
وبقي وحده.

(١) ينضي: يهزل، يضعف.

(٢) سئلت: وسوست له.

فجاءت امرأة تسأله عن بعض ما يحتاج إليه النساء في الدين من أمر طبيعتهن؛ وكانت امرأة جزلة غضة رابية، يهتز أعلاها وأسفلها، وتمشي قصيرة الخطو مثاقلة كالمتضايقة من حمل أسرار جمالها وأسرار بدننها الجميل؛ فبعض مشيتها يقظة وبعضها نوم فاتر تخالطه اليقظة؛ ولا يراها الرجل الفحل ألتام الفحولة إلا رأى الهواء نفسه قد أصبح من حولها أنثى، مما تعصف به ريحها العطرة عطر زيتتها وجسمها.

وكان الواعظ قد ترمّل من أشهر، وكانت المرأة قد تأيّم^(١) من سنوات؛ فلما رآها غصّ طرفه^(٢) عنها؛ ولكنها سألته بالفاظها العذبة عن أمور هي من أسرار طبيعتها، وسألته عن طبيعتها بالفاظها؛ فسمع منها مثل صوت البلور، يتكسر بعضه على بعض.

وتحدّث له وكأنها تتحدّث فيه: فسمع بأذنيه ودمه، ثم كان غصّ عينه أقوى لرؤية قلبه وجمع خواطره.

ورأى صوتها يشتهي؛ وعانقته رائحتها العطرية النفاذة؛ وأحاطته بجو كجو الفراش؛ وعادت أنفاسها كأنها وسوسة قبل؛ وصارت زفرائها كالقذر إذا استجمعت غلياناً؛ وطلعت في خيالها غريانة كما تطلع للسكران من كأس الخمر خورية غريانة، لها جسم يبدو من اللين والبضاضة والنعمة كأنه من زبد البحر؟

قال أبو الحسن: وكنت كالنائم، فما شعرت إلا بصوت كصك الحجر بالحجر، لا كتكسر البلور بغضه على بعض، وسمعت شيخي يقول:
أفسقت...

(١) تأيّم: مات عنها زوجها.

(٢) غصّ طرفه عنها: مال بنظره عنها.

تاريخ يتكلم...

أيعرفُ القراءُ أنَّ في الأحلام أحلاماً هي قصصٌ عقليةٌ كاملةُ الأجزاء محكمةُ
الوضع مُتَّسقةُ التركيبِ بديعةُ التأليفِ، تجعلُ المرءَ حينَ ينامُ كأنَّه أسلمَ نفسه إلى
(شركةٍ مِنَ الملائكة)، تسيحُ به في عالمٍ عجيبٍ كأنما سُحِرَ فتحوَّلَ إلى قصة؟

إنَّ يكنِ في القراءِ مَنْ لا يعلمُ هذا فليعلمهُ مِنِّي؛ فإنِّي كثيراً ما أكتبُ وأقرأ في
النوم؛ وكثيراً ما يُلقِي عَلَيَّ من بارعِ الكلام، وكثيراً ما أرى ما لو دوَّنْتُهُ لَعُدَّ مِنَ
الخوارقِ والمعجزاتِ.

وهذه القصةُ التي أرويتها اليومَ، كانتِ المعجزةُ فيها أني مشيتُ في التاريخِ كما
أمشي في طريقٍ ممتدة؛ فتقدَّمتُ إلى أهلِ سنة ٣٩٥ للهجرة وما يليها، فِعِشتُ معهم
وتَخَبَّرْتُ من أخبارِهِم، ثُمَّ رجعتُ إلى زماني لأَقصَّ ما رأيتهُ على أهلِ سنة ١٣٥٣...

أُسيئتُ البارحةَ كالمغمومِ في أحوالٍ ثقيلةٍ على النفسِ ما تَنطَلِقُ النفسُ لها،
أولُّها سوءُ الهضمِ؛ ومتى كانَ ألبَدُّ من هُنا لم تكنِ الحركةُ في النفسِ إلا دائرةً:
تذهبُ ما تذهبُ ثُمَّ لا تنتهي إلا في سوءِ الهضمِ عينه. فجلستُ في اللَّذِي الَّذِي
أُسَمِّرُ^(١) فيه أحياناً، فكانَ لِحِوِّهِ وزَنٌ أَحسَنُهُ كَمَا يُحسُّ الغائِصُ في الماءِ ثَقْلَ الماءِ
عليه؛ ودَخِنتُ الكَرْكَرَةَ^(٢) فلم تكنِ هواءٌ ودُخاناً يَتَرَوَّحُ، بَلْ كانتُ من ثِقَلِها
كَالطعامِ يَدْخُلُ على الطعامِ؛ ونَظَرْتُ ناحِيَةً فأخَذْتُ عيني رَجُلًا فيلبي الخِلقة^(٣)،
مُنْطادَ البَطْنِ^(٤) كأنما تُفَخَّ بطنُهُ بِالآلاتِ، يَحْمِلُ منه مقدارَ أربعةٍ من بطونِ ألبديناتِ
الحواملِ كُلِّ منهنَّ في الشَّهرِ التاسعِ من حَمَلِها... وكانَ معي إلى كُلِّ هذا ألبلاءُ
خمسِ صُحُفٍ يوميةٍ أريدُ قراءَتَها...

ثُمَّ جِئتُ إلى الدارِ والمِعرَكَةِ حاميةٍ في أعصابي؛ وما كانَ سوءُ الهضمِ مَنوَمَةً
فيدعو إلى النومِ، فدَخَلْتُ بيتَ كُتُبِي وأرَدْتُ كتاباً أيَّ كتابٍ تأنلهُ يدي، فخرَجَ لي كتابُ

(٣) فيلي الخِلقة: ضُخها كالْفِيلِ.

(١) أسمر فيه: أَقضي ليالي السمر فيه.

(٤) مُنْطادَ البطن: مَفْتَحَ البطن.

(٢) الكَرْكَرَةُ: النارجيلة.

في خرافات الأولين وأساطيرهم وهذيانهم وسوء هضمهم العقلي . . . كالكلام عن أدونيس وأرطاميس وديونيس وسميراميس وإيسيس وأتوبيس وأثرغيس . . . فاستعدت بالله وقلت: حتى أكتب لها في هذه الليلة أعصاب قد نالتها الثقلة والألم؟

وبات الليل يقظان معي، وبقيت متململاً أتقلب حتى أخذ الصداغ في رأسي، فأنقلب ألتعب نوماً، وجاء من النوم تعب آخر، وقذفت إلى عالم الأحلام في قبلة تستقر بي حيث تريد لا حيث أريد:

ورأيتني في قوم لا أعرف منهم أحداً قد اجتمعوا جماهير، وسمعت قائلاً منهم يقول: «الساعة يمر مولانا العالي». فقلت لمن يليني: «من يكون مولانا العالي؟» قال: «أو أنت منهم؟» قلت: «ممن؟» فألهاه عن جوابي تشوف الناس وأنصرفهم إلى رجل أقبل راكباً حماراً أشهب؟ فصاحوا: «القمر القمر^(١)» ورفع الرجل الذي يناكبني صوته يقول: «البركات والعظماث لك يا مولانا العالي!».

قلت: إنا لله! لقد وقعت في قوم من الزنادقة، يعارضون «التحيات والصلوات والطيبات لله»؛ ثم مر صاحب الحمار بحذائي، وغمره الرجل عليّ، فقال: ما بالك لا تقول مثله؟ قلت: أعود بالله من كفر بعد إيمان. فكأنما أراد أن يطمئني فرفع يده، فصحت فيه: كما أنت - ويليكَ - وإلا قبضت عليك، وأسلمتكَ للبوليس، وشكوتك إلى النيابة، ورفعتك إلى محكمة الجنح^(٢)!

قال: ماذا أسمع؟ الرجل مجنون فخذوه! وأحاط بي جماعة منهم، ولكئه ترجل عن حماره وأخذ بيدي ومشينا، فقلت: من أنت يا هذا؟ قال: أراك من غير هذا البلد؛ أما تعرف الحاكم بأمر الله؟ فانا هو. قلت: أنظر - ويحك - ما تقول. فما أظنك إلا مموراً؛ لقد كتبت أمس كتاباً إلى مجلة (الرسالة) أرخته ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٥٣ و ١٨ من مارس سنة ١٩٣٥، وأرسلت به مقالة «الخروفين».

قال: ماذا أسمع؟ نحن الآن في سنة ٣٩٥؛ فالرجل مجنون، أولاً فأنت أيها الرجل من معجزاتي. لقد جئت بك من التاريخ، فستري وتكتب، ثم تعود إلى التاريخ فتكون من معجزاتي، وتقصر عني وتشهد لي . . .!

قلت: فإني أعرف أعمالك إلى أن قُلت في سنة ٤١١ . . .!

(١) القمر اسم لذلك الحمار.

(٢) الجنح، مفردة جُنحة وهي الجريمة.

قال: أو إله أنت فتخلق ست عشرة سنة بحوادثها؟ لقد كذبت من أفنك
وغاوتك تُفسد عليّ دعوى المعجزة!

وهاج الصداغ في رأسي، وبلغ سوء الهضم حدّه، واشتبكت سينات إيسيس
وأتوبيس إلخ بسين إبليس، ومرّت بين كلّ هذا حوادث الطاغية المعتوه^(١) المتجبر،
فرايته يبتدع في كلّ وقت بدعا، ويخترع أحكاماً يكره الناس على أن يعملوا بها،
ويعاقبهم على الخروج منها، ثمّ يعود فينقض أمره، ويعاقب على الأخذ به، كأنّ
الذي نقض غير الذي أبرم، وكأنّه حين يتبلّد فيعجزه أن يخترع جديداً - يجعل
أختراعه إبطالاً لأختراعه.

ورأيته كأنّما يعتد نفسه مخّ هذه الأمة، فلا بدّ أن يكون عقلاً لعقولها، ثمّ
لا بدّ أن يستعلي الناس ويستبدّ بهم استبداد الشريعة في أمرها ونهيها، فكانت
أعماله في جمليتها هي نقض أعمال الشريعة الإسلامية، وظنّ أنّه مستطيع محو
ذلك العصر من أذهان الناس وقتل التاريخ الإسلامي بتاريخ قاتل سفك.

وسؤل^(٢) له جنونه أنّه خلق تكذيباً للنبوة؛ ثمّ أفرط عليه الجنون فحصل
في نفسه أنّه خلق تكذيباً للالوهية؛ وفي تكذيبه للنبوة والالوهية يحمل الأمة
بالقهر والغلبة على الاتصديق إلّا به هو؛ وفي سبيل إثباته لنفسه صنع ما صنع،
فجاء تاريخه لا ينفي ألوهية ولا نبوة، بل ينفي العقل عن صاحبه؛ وجاء هذا
التاريخ في الإسلام ليتكلّم يوماً في تاريخ الإسلام...

رأيتني أصبحت كاتباً لهذا الحاكم، فجعلت أشهد أعماله وأدوّن تاريخه،
وأقبلت على ما أفرّدني به وقلت في نفسي: لقد وضعتني الدنيا موضعاً عزيزاً لم
يرتفع إليه أحد من كتابها وأدبائها، فسأكتب عن هذا الدهر بعقل بينه وبين هذا
الدهر ٩٦٨ سنة صاعدة في العلم.

ودوّنت عشرة مجلّدات ضخمة أنتبهت وأنا أحفظها كلّها، فإذا هي
جمل صغيرة، جعل الحلم كلّ نبذة منها سِفراً ضخماً كما يُخيّل للنائم أنّه
عاش عمراً طويلاً وأحدث أحداثاً ممتدة، على حين لا تكون الرؤيا إلا
لحظة.

(١) المعتوه: المخبول.

(٢) سؤل: سوغ وأوحى له وسمع.

وهذه هي المجلدات التي قلت: إن التاريخ يتكلم بها في التاريخ...

المجلد الأول

ابن علي هذا الطاغية بنقيصتين: إحداهما من نفسه، والأخرى من غيره؛ فأمّا التي من نفسه فإنني أراه قد خُلِقَ وفي مَخْهِ لُفَاةٌ عَصَبِيَّةٌ من يهودية جدّه رأس هذه الدعوة؛ فهو الحاكم بن العزيز بن المعز بن القاسم المهديّ عبيد الله، ويقولون: إنّ عبيد الله هذا كان أبن امرأة يهوديّة من حداد يهوديّ، فاتفق أن جرى ذكر النساء في مجلس الحسين بن محمد القدّاح، فوصفوا له تلك المرأة اليهوديّة، وأنها آية في الحسن؛ وكان لها من الحداد ولد، فتزوجها الرجل وأدب ابنها وعلمه، ثمّ عرفه أسرار الدعوة العلويّة وعهد إليه بها.

ومن بعض اللّفائف العصبية في المخ ما ينحدر بالوارثة مطبوعاً على خيره أو شرّه، لا يدّ للمرء فيه ولا حيلة له في دفعه أو الانتفاء منه، فيكون قدراً يتسلّسل في الخلْق ليُحدث غاياته المقدورة، فمتى وقع في مخّ إنسان فالدنيا به كالخُبلى ولا بدّ أن تتمخض^(١) عنه.

هذه اللّفاة اليهوديّة في مخّ هذا الطاغية ستحقّق به قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ﴾ فهو لن يكون العدو للإسلام دون أن يكون الأشدّ في هذه العداوة، ولن يكون فيها الأشدّ حتى يفعل بها الأفاعيل المنكرة. وما أرى هذه المآذن القائمة في الجوّ إلا تخرق بمنظرها عينه من بغضه للإسلام وأنطوائه على عدوانه؛ فويل لها منه!

وأما النقيصة الثانية فقد أبّلتها بقوم فتّوه بآرائهم ومذهبهم، وهم حمزة بن عليّ، والأخرم، وفلان، وفلان... وقد لقّقوا للدنيا مذهباً هو صورة عقولهم الطائشة، لا يجيء إلا للهدم، ثمّ لا يضع أول معاوله إلا في قبة السماء ليهدمها...! ولو أنا جمعت هذا المذهب في كلمة واحدة لقلت: هو حماقة حمقاء تريد إخراج الله من الوجود لإدخال الله في بعض الطغاة!

ويتلقّبون في مذهبهم بهذه الألقاب: العقل، الإرادة، الإمام، قائم الزمان، علة العلل...!

(١) تتمخض عنه: تنتج عنه.

المجلد الثاني

أظهر الطاغية أن الله يؤيد به الإسلام، ليتألف أَلْجَنَدَ والشعب ويستميلهم إليه، وكان في ذلك لئيم الكَيْد، دنيء الحيلة، يهودي المكر؛ فأمر بِعِمارة المدارس للفقهِ والتفسير والحديث والفُتيا، وبذل فيها الأموال، وجعل فيها أَلْفَقهاء (والمشايخ)، وبالغ في إكرامهم، والتوسُّع عليهم، والتَّخَضُّع لهم، ودخل في ظلال أَلْعِمام... وأحضر لنفسه فقيهين مالكيين (اثنين لا واحد) يَعْلَمَانِه ويُفْقِهَانِه، وكان أشبه بِمُرِيد مع شيخ الطريقة يَتَسَعَّد^(١) به وَيَتَمَنَّ^(٢)؛ أشرف ألقابه أنه خادم أَلْعِمامة أَلْحَضراء، وأسعد أوقاته اليوم الذي يقول له فيه الشيخ: رأيتك في الرؤيا ورأيت لك...!

وكانت هذه المعاملة الإسلامية أَلْكريمة من هذا الطاغية، هي بعينها ربا أَلْلُفافة أَلْيَهُودية في مُحه؛ تُصْلِح بإقراض مائة، وفيها نية الخراب بالستين في المائة...! فإنه ما كاذ يتمكَّن من الناس ويعرف إقبالهم عليه وثقتهم به، حتى طلبت أَلْلُفافة أَلْيَهُودية رأس المال والزبا؛ فأمرهم بهدم تلك المدارس وإخوابها، وأبطل العيدين وصلاة الجمعة، وقتل أَلْفَقهاء وقتل معهم فقيهيهِ وأستاذيه، وعاد كالمُرِيد أَلْمَنافِق مع شيخ الطريقة، يقول في نفسه: إنَّ هناك ثلاثة تعملُ عملاً واحداً في الصَّيد: الفخ، والعِمامة، واللَّحية...!

إنَّ هذا الطاغية ملك حاكم، يستطيع أن يجعل حماقته شيئاً واقعاً، فيقتل علماء الدين بإهلاكهم، ويقتل مدارس الدين بإخوابها، ولو شاء لاسْتَطَاع أن يشقَّ من أَلْمُسْلِمِينَ كُلِّ ذِي عِمامة في عِمامته. وبلغ من كفره أن يتَّبَجَّح^(٣) ويرى هذا قوة، ولا يعلم أنه لهوانه على الله قد جعله أَلله كالأذباب التي تُصِيبُ أَلنَّاسَ بالمرض، وأَلْبَعوضَة التي تقتل بِالْحَمَى، وأَلْقَملة التي تُضْرِبُ بِالطَّاعُونَ، فلو فَخَرَتْ ذبابة، أو تَبَجَّحَتْ قملة، أو اسْتَطَالَتْ بعوضة، لجازَّ له أن يَطْنَّ طنينه في العالم. وهل فعل أكثر ممَّا تفعل؟

لقد أودى بأناس يقوم إيمانهم على أن أَلْمَوْتَ في سبيلِ أَلْحَقِّ هو أَلَّذِي يُخَلِّدُهم في أَلْحَقِّ، وأنَّ اتِّزاعهم بالسيف من أَلَّذِي يضعهم في حقيقتهم، وأنَّ هذه الروح الإسلامية لا يطمسها أَلطغيان إلا ليجلوها.

(١) يتسعد: يجعله سبب سعادته.

(٢) يتمَّن: يتفاءل.

(٣) تبجَّح: أعلن فرحه وجاهر به مفتخراً.

إِنَّهُ - وَاللَّهِ - مَا قَتَلَ وَلَا شَتَّى وَلَا عَذَبَ، وَلَكِنَّ الْإِسْلَامَ أَحْتَاجَ فِي عَصَرِهِ هَذَا إِلَى قَوْمٍ يَمُوتُونَ فِي سَبِيلِهِ، وَأَعُوذُهُ ذَلِكَ النَّوْعُ السَّامِي مِنَ الْمَوْتِ الْأَوَّلِ الَّذِي كَانَ حَيَاةَ الْفَكْرِ وَمَادَّةَ التَّارِيخِ، فَجَاءَتْ الْقَمَلَةُ تَحْمِلُ طَاعُونَهَا...!

لَقَدْ أَحْيَاهُمْ فِي التَّارِيخِ، أَمَّا هُمْ فَقَتَلُوهُ فِي التَّارِيخِ، وَجَاءَهُم بِالرَّحْمَةِ مِنْ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ، أَمَّا هُمْ فَجَاءَهُ بِاللَّعْنَةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ جَمِيعاً!

المجلد الثالث

يرى هذا الطاغية أَنَّ الدِّينَ الْإِسْلَامِيَّ خُرَافَةٌ وَشَغْوَذَةٌ عَنِ النَّفْسِ، وَأَنَّ مُحَوِّ الْأَخْلَاقِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْعَظِيمَةِ هُوَ نَفْسُهُ إِيْجَادُ أَخْلَاقٍ، وَأَنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ جَرِيئاً حِينَ جَاءَ فَاحْتَلَّ هَذِهِ الدُّنْيَا؛ فَلَا يَطْرُدُهُ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا جَرَاءَةُ شَيْطَانٍ كَالَّذِي تَوَقَّعَ عَلَى اللَّهِ حِينَ قَالَ: ﴿فَعِزَّكَ لِأَعْيُنِهِمْ أَجْمَعِينَ﴾. وَلِهَذَا أَمَرَ النَّاسَ بِسَبِّ الصَّحَابَةِ، وَأَنْ يُكْتَبَ ذَلِكَ عَلَى حِيطَانِ الْمَسَاجِدِ وَالْمَقَابِرِ وَالشُّوَارِعِ!

أَخْزَاهُ اللَّهُ! أَهِيَ رَوَايَةٌ تُمَثِّلِيَّةٌ يُلْصِقُ الْإِعْلَانَ عَنْهَا فِي كُلِّ مَكَانٍ؟ لَوْ سَمِعَ لَسَمِعَ الْمَسَاجِدَ وَالْمَقَابِرَ وَالشُّوَارِعَ تَقُولُ: أَخْزَاهُ اللَّهُ...!

المجلد الرابع

هَذَا الْفَاسِقُ لَا يَرْكَبُ إِلَّا حِمَاراً أَشْهَبَ يُسَمِّيهِ: (القمر)، وَقَدْ جَعَلَ نَفْسَهُ مُحْتَسِباً لِغَايَةِ خَبِيثَةٍ؛ فَهُوَ يَدُورُ عَلَى حِمَارِهِ هَذَا فِي الْأَسْوَاقِ وَمَعَهُ عَبْدٌ أَسْوَدٌ، فَمَنْ وَجَدَهُ قَدْ غَشَّ؛ أَمَرَ الْأَسْوَدَ ف...! وَوَقَفَ هُوَ يَنْظُرُ وَيَقُولُ لِلنَّاسِ: انْظُرُوا...!

وَمِنْ غَلَبَةِ الْفُسُوقِ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى شِيعَتِهِ أَنَّ دَاعِيَتَهُ (حُمَزَةُ بْنُ عَلِيٍّ) نَوَّهَ^(١) بِالْحِمَارِ فِي كِتَابِهِ وَأَوْماً إِلَيْهِ بِالثَّنَاءِ، لِخِصَالٍ: مِنْهَا أَنْ...! وَكَتَبَ حُمَزَةُ هَذَا فِي بَعْضِ رِسَائِلِهِ: أَنَّ مَا يَرْتَكِبُهُ أَهْلُ الْفَسَادِ بِجَوَارِ الْبَسَاتِينِ الَّتِي يَمُرُّ بِهَا (الْفَاسِقُ) مِنَ الْمُنْكَرِ وَالْفَحْشَاءِ - إِنَّمَا يُرْتَكَبُ فِي طَاعَتِهِ...!

هَذِهِ طَبِيعَةُ كُلِّ حَاكِمٍ فَاسِقٍ مُلْحَدٍ، يَرَى فِي نَفْسِهِ رِذَائِلَهُ غُرْبَانَةً، فَلَا يَكُونُ كَلَامُهُ وَعَمَلُهُ وَفِكْرُهُ إِلَّا فُحْشاً يَتَعَرَّى؛ وَإِنَّ فِي هَذَا الرَّجُلِ غَرِيزَةً فَسَقَ بِهَيْمِيَّةٍ مُتَصَلَّةٍ بِطَوْرٍ^(٢) الْحَيَوَانِ الْإِنْسَانِيِّ الْأَوَّلِ؛ فَمَا مِنْ رَيْبٍ أَنَّ فِي جَسَدِهِ خَلِيَّةً عَصَبِيَّةً مُهْتَاجَةً،

(١) نَوَّهَ: ذَكَرَ فُضَائِلَهُ.

(٢) طَوَّرَ بِتَسْكِينِ الْوَاوِ: الْمَرَحَلَةَ.

ما زالت تَسْبَحُ بالوارثَةِ في دماءِ الأحياءِ، متلقِّفةً على خصائصِها، حتى استقرَّت في أعصابِ هذا ألفاسق، فأنفجرت بكلِّ تلك الخصائص.

ولستُ أرى أكثرَ أعمالِه ترجعُ في مرَدِّها إلَّا إلى طغيانِ هذه الغريزةِ فيه؛ فهو يُحاولُ هدمَ الإسلامِ، لأنَّه دينُ العِفَّةِ ودينُ صَوْنِ المرأةِ، يلزمُها حِجابَ عِفَّتِها وإبائِها، ويمنعُها الِابتدالَ والخلاعةَ، ويعينُها أن تتخلَّصَ مِن يشتَهِيها، ولو كانَ الحاكمُ . . . إنَّه يَمَقُّ هذا الدينَ القويَّ، كما يَمَقُّ اللصُّ القانونَ؛ فهو دينٌ يثقلُ على غريزَتِه ألفاسقة، ولكلِّ غريزةٍ في الإنسانِ شعورٌ لامَهناً لها إلَّا أن يكونَ حرّاً حتى في التَّوَهُّمِ؛ وهل يُعجِبُ السَّكِرُ شيءٌ أو يُرضيه أو يَلدُّه، كما يُعجِبُه أن يرى الناسَ كلَّهم سكارى؛ فينشِى هو بالخمرِ، وتسكُرُ غريزَتُه برؤيةِ السَّكرِ؟ وما زالَ رأيُ الفُسَّاقِ في كلِّ زمنٍ أنَّ الحريَّةَ هي حريَّةُ الاستمتاعِ، وأنَّ تقييدَ اللذةِ إفسادٌ لِلذَّةِ.

المجلد الخامس

يزعمُ الطاغيةُ أنَّه يُعزِّزُ قومَه، وما أراه يُعزِّهم، لكنَّه يمتحنُ ذلَّهم وضعفَهم وهوانَهم على الأُممِ؛ يتجرَّأ شيئاً فشيئاً، مُنتظراً ما يَتَسَهَّلُ، مترقباً ما يُمكن؛ وهو يرى أنَّ أخلاقنا الإسلاميَّةَ هي أمواتنا ذفنوا أنفُسَهم فينا؛ فمن ذلك يهدمُ الأخلاقَ ويظنُّ عندَ نفسِه أنَّه يهدمُ قبوراً لا أخلاقاً.

ولقد سَخِرَ منه المصريون بنكتةٍ من ظَرفِهم البديعِ، وجاءوه من غريزَتِه، فصنعوا امرأةً مِنَ الورقِ الَّذي يُشَبِّهُ الجلدَ، وألبسوها حُفَّها وإزارَها، حتى لا يشكَّ مَنْ رآها أنَّها آدميَّة، ثُمَّ وضعوا في يدها قَصَّةً وأقاموها في طريقه؛ فلَمَّا رآها عدَلَ إليها^(١) وأخذَ من يدها القَصَّةَ وقرأها، فإذا فيها سَبُّ لَه وإِبائِه؛ وسخريَّةٌ من جنونِه ورُعونتِه المضحكة؛ فغَضِبَ وأمرَ بقتلِ المرأةِ؛ فكانت هذه سخريةٌ أخرى حينَ تحقَّق أنَّها مِنَ الورقِ، وأخذتُه النكتةُ الظريفةُ بمثلِ البرقِ والرَّعدِ؛ فاستشاط^(٢) وأمرَ عبيدَه مِنَ السودانِ بتحريقِ الدُّورِ ونهبِ ما فيها وسَبِّ النِّساءِ والفُجورِ بهنَّ؛ حتى جاءَ الأزواجُ يشترُون زوجاتِهم مِنَ العبيدِ، بعدَ أن طارتِ الكُزُوبَةُ السوداءُ في بياضِ الأعراضِ.

اندلعتْ ثورةُ الفُجورِ في المدينة، لا مِنَ العبيدِ، ولكنَّ مِنَ الحيوانِ العتيقِ المستقرِّ في هذا الطاغيةِ.

(١) عدل إليها: مال وعزج عليها.

(٢) استشاط: اشتعل غضباً.

المجلد السادس

وهذه رُعوثة من أقبح رُعوناته، كأن هذا الحيوان لا يحسبُ نساءَ الأُمّةِ كلّها إلا نساءه، فيأمرهنّ بأمرِ أمّراته، وكأنّ النساءَ في رأيه إنّ هنّ إلا استجاباتُ عصبيةٍ تُطلَقُ وتُرَدّ.

إنّ لِموجةِ الفِسقِ في الغريزة الطاغيةِ جَزْراً ومدّاً يقعان في تاريخِ الفساق؛ فهذا الطاغيةُ قد جَزَرَتْ فيه الموجة، فأمرٌ أن يُمنَعَ النساءُ مِنَ الخروجِ ليلاً ونهاراً، لا تطأُ أرضَ المدينةِ قَدَمُ امرأةٍ، وأمرُ الخُفّافين ألا يصنعوا لهنّ الأُخفافَ والأُحذية؛ ولَمّا عَلِمَ أن بعضَ النساءِ خرجنَ إلى الحماماتِ هَدَمَ الحماماتِ عليهنّ! ولو مدّتِ الموجةُ في تفسّقِ الفاسقِ لَفَرَضَ على النساءِ الخروجَ والاتصالَ بالرجالِ والتعرّضَ للإباحة.

إنّ الصّلاحَ والفسادَ كلاهما فسادٌ ما لم يكنِ الصّلاحُ نظافةً في الرّوحِ وسمواً في القلبِ.

المجلد السابع

يزعمُ الطاغيةُ أنّه سيهدمُ كلّ قديمٍ؛ وإنّي لأخشى - والله - أن يأمرَ الناسَ في بعضِ سَطَوَاتِ جنونه: أن كلّ مَنْ كانَ له أبٌ أو أمٌ بلغَ السّتينَ فليقتله، ليتخلّصَ الأُمّةُ من قديميها الإنسانِيّ!...

كأنّه لا يعرفُ أنّه إنّما يتسلطُ على أيّامِ مُعاصريه لا على التاريخ؛ ويحكمُ على طاعةِ قومه وعِصيانِهِمْ لا على قلوبِهِمْ وطِباعِهِمْ وميراثِهِمْ مِنَ الأُسلاف؛ فما هو إلا أن يهلكَ حتّى ينبعثَ في الدّنيا شيثان: تَنُنُ رِمْتِهِ^(١) في بطنِ الأرضِ، وتنشُ أعمالُهُ على ظهْرِ الأرضِ. إنّ هذا الرّجلَ المُسلطَ، كالغبارِ المُستطارِ لا يُكَنَسُ إلا بعدَ أن يقعَ...

ولقد رأى المأفونُ أن أكلَ الناسِ الملوخياَ والخضراءَ والفُقّاعَ، والثّرْمَسَ والجرجيرَ، والزبيبَ والعنبَ - هوَى قديمٌ في طِباعِ الناسِ، فنهى عن كلّ ذلك، لا يُباعَ ولا يُؤكلُ، وظهرَ على أن جماعةً باعوا أشياءَ منها فضربَهُمْ بالسِّياطِ، وأمرَ فطيفَ بهم في الأسواقِ، ثمَّ ضَرَبَ أعناقَهُمْ؛ كأنّ الذي يحملُ الملوخياَ والخضراءَ على رأسِهِ لِيبيعَها يلبسُ عِمامةَ خضراءَ...

(١) رِمْتُهُ: جيفته.

أهذا - وَيَحَهُ - تجديد في الأمة، أم تجديد في المعدة...؟

المجلد الثامن

لا يَرْضَى الطاغيةُ إِلَّا أَنْ يَمَحَقَ^(١) روحانيَّةَ الأُمَّةِ كُلِّهَا، فلا يتركُ شيئاً روحانيّاً لَهُ في أعصابِ الناسِ أثرٌ مِنَ الوقارِ، وَيَمْنَنُ يَسْتَظْهَرُ - وَيَلَهُ - إِذَا مُحِقتْ روحانيَّةُ الأُمَّةِ وأشرقتْ نَزْعَتُهَا الدينيَّةُ على الانحلال؟ كأنَّهُ لا يَعْلَمُ أَنَّ حَقِيقَةَ الوجودِ لِأُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ إِنَّمَا تُسْتَمَدُّ من إيمانِها بالمثلِ الأعلى الَّذي يدفعُها في سَلْمِها إلى الحياةِ بِقُوَّةٍ، كما يدفعُها في حربِها إلى الموتِ بِقُوَّةٍ؛ وكأنَّهُ لا يَعْلَمُ أَنَّ التَّاريخَ كُلَّهُ تُقرِّره في الأرضِ بضعةُ مبادئٍ دينيَّةٍ.

هذا الحاكمُ الأخرقُ هو عندي كالَّذي يقولُ لِنَفْسِهِ: لم أستطعُ أَنْ أفتحَ دولةً، فلأفتحَ دولةً في مملكتي... لقد أمرَ بهدمِ الكنائسِ والبُيعِ، حتى بلغَ ما هَدَمَ منها ثلاثين ألفاً ونيّفاً.

أيُّ مجنونٍ أسخفُ جنوناً من هذا الَّذي يحسبُ النفوسَ الإنسانيَّةَ كألْخَشابٍ؛ تَقْبَلُ كُلُّهَا بغيرِ استثناءٍ أَنْ تُدَقَّ فيها المِساميرُ...؟ سيعلمُ إِذَا نشَبَتْ حربٌ بينَهُ وبينَ دولةٍ أخرى، أَنَّهُ كَسَرَ أَشدَّ سِوْفِهِ مِضَاءَ حينَ كَسَرَ الدِّينَ!

المجلد التاسع

هذه هي الطَّامةُ الكُبرى؛ فلا أدري كيف أكتبُ عنها: لقد تطاولَ المَجنونُ إلى الألوهيَّةِ فأدَّعَها، وصارَ يكتبُ عن نَفْسِهِ: بِأَسْمِ الحاكمِ الرَّحمنِ! لو كانَ أغبى الأَغبياءِ في موضِعِهِ لَأَتَقَى شيئاً، لا أقولُ تقوى الدِّينِ والضميرِ، ولكن تقوى التَّفَاقِ السِّياسيِّ؛ فكانَ يحملُ النَّاسَ على أَنْ يقولوا عنه: «أبانا الَّذي في الأرضين...!».

وإِلَّا فَأَيُّ جَهِلٍ وَخَبْطٍ، وَأَيُّ حُمٍ وَتَهوُّرٍ، أَنْ يَكُونَ إِلَهُ على حمارٍ، وإنَّ كانَ أَسْمُ حمارِهِ القَمَرُ!

المجلد العاشر

سَيَأْخُذُهُ اللَّهُ بِأَمْرَةٍ؛ وَلِكُلِّ شَيْءٍ آفَةٌ من جِنْسِهِ؛ لقد بلغَ من وقاحةِ غريزَتِهِ أَنْ

(١) يمحَق: يسحق، يمحو.

أَتَتَفَكَ^(١) أختَهَ الأَمِيرَةَ (ست المُلْك)، ورماها بألفاحشة، وهي من أزكى النساءِ وأفضلِهِنَّ، وأتَّهَمَهَا بالأَمير (سيف الدين بن الدَّوَّاس) وقد علِمْتُ أَنَّهَا تُدَبِّرُ قَتْلَهُ، وَأَنَّهَا أَجْتَمَعَتْ لَدَيْكَ بِسَيْفِ الدِّينِ. فسأَمَسَكَ عَنِ الْكِتَابَةِ فِي هَذَا الْمَجْلَدِ، وَأَدْعُ سَائِرَهُ بِيَاضاً حَتَّى أَذْهَبَ إِلَيْهِمَا فَأُعِينَهُمَا بِمَا عِنْدِي مِنَ الرَّأْيِ، ثُمَّ أَعُوذُ لِتَدْوِينِ مَا يَقَعُ مِنْ بَعْدِ . . .

وَرَأَيْتُ أَنِّي أَجْتَمَعْتُ بِهِمَا وَأَطْمَأَنَّا إِلَيْيَ، فَأَخَذْنَا نُذِيرُ الرَّأْيِ:
قَالَتِ الأَمِيرَةُ لِسَيْفِ الدِّينِ فِيمَا قَالَتْهُ: «وَالرَّأْيُ عِنْدِي أَنْ تُتَّبِعَهُ غِلْمَاناً يَقْتُلُونَهُ إِذَا خَرَجَ فِي غَدٍ إِلَى جَبَلِ الْمَقْطَمِ، فَإِنَّهُ يَنْفِرُ بِنَفْسِهِ هُنَاكَ!».
فَقُلْتُ أَنَا: «لَيْسَ هَذَا بِالرَّأْيِ وَلَا بِالتَّدْبِيرِ».
قَالَتْ: «فَمَا الرَّأْيُ وَالتَّدْبِيرُ عِنْدَكَ؟».

قُلْتُ: «إِنَّ لَنَا عِلْماً يَسْمُونَهُ (علم النفس)، لَمْ يَقَعْ لِعِلْمَائِكُمْ، وَقَدْ صَحَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا الْعِلْمِ أَنَّ الرَّجُلَ طَائِشٌ الْغَرِيزَةُ مَجْنُونُهَا، وَأَنَّ الْأَشْعَةَ اللَّطِيفَةَ الْأَسَاحِرَةَ الَّتِي تَنْبَعُثُ مِنْ جِسْمِ الْمَرْأَةِ هِيَ الَّتِي تَنْفَجِرُ فِي مُحْهِ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ؛ فَإِذَا خَبَتْ^(٢) هَذِهِ الْأَشْعَةُ، وَبَطَلَتِ الْغَرِيزَةُ، بَطَلَتْ دَوَاعِي أَعْمَالِهِ الْخَبِيثَةِ كُلُّهَا، وَكَفَّ^(٣) عَنْ مَحَاوَلَتِهِ أَنْ يَجْعَلَ الْأَمَّةَ مَمْلُوءَةً مِنْ غَرَائِزِ جَسْمِهِ وَشَهَوَاتِهِ، لَا مِنْ فُضَائِلِهَا وَدِينِهَا. فَلَوْ أَخَذْتُمْ بِرَأْيِي وَأَمْضَيْتُمُوهُ فَإِنَّهُ سَيُنَكِّرُ أَعْمَالَهُ إِذَا عَرَضَهَا عَلَى نَفْسِهِ الْجَدِيدَةِ، وَبِهَذَا يُصْلَحُ مَا أَفْسَدَ، وَتَكُونُ حَيَاتُهُ قَدْ نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الصَّحِيحَةِ كَمَا نَطَقَتْ بِكَلِمَتِهَا الْفَاسِدَةِ؛ فَإِذَا . . .».

قَالَ الأَمِيرُ: «فَإِذَا مَاذَا؟».

قُلْتُ: «فَإِذَا خُصِي . . .».

فَضَحَكْتُ سِتُّ الْمَلِكِ ضَحْكَةً رَثَتْ رَيْنًا.

قُلْتُ: «نَعَمْ إِذَا خُصِيَ هَذَا الْحَاكِمُ».

فَغَلَبَهَا الضَّحْكُ أَشَدَّ مِنَ الْأَوَّلِ، وَرَمَتْني بِمَنْدِيلٍ لَطِيفٍ كَانَ فِي يَدِهَا أَصَابَ وَجْهِي، فَأَتَتْهَبْتُ وَأَنَا أَقُولُ:

«نَعَمْ إِذَا خُصِيَ هَذَا الْحَاكِمُ . . .».

(٣) كَفَّ: تَوَقَّفَ.

(٢) خَبَتْ: سَكَتَتْ.

(١) اتَّفَكَ: اتَّهَمَ بِالْفُجُورِ.

كُفْرُ الذُّبَابَةِ . . .

قالَ كَلِيلُهُ وهو يَعِظُ دِمْنَةً وَيُحَذِّرُهُ وَيَقْضِي حَقَّ اللَّهِ فِيهِ؛ وكانَ دِمْنَةُ قد داخلَهُ الغرورُ وزَهاهُ النَّصْرُ، وظَهَرَ مِنْهُ الْجَفَاءُ وَالْعِلْظَةُ، وَلَقِيَ الثَّعَالِبُ مِنْ زِيغِهِ^(١) وإِلْحَادِهِ عَتًّا شَدِيدًا:

. . . وأَعْلَمُ يا دِمْنَةُ أَنَّ ما زَعَمْتَهُ مِنْ رَأْيِكَ تامٌّ لا يَعْتَرِيهِ النِّقْصُ، هو بَعِينُهُ الناقِصُ الَّذِي لم يَتَمَّ؛ والغرورُ الَّذِي تُثَبِّتُ بِهِ أَنَّ رَأْيَكَ صَحيحٌ دُونَ الآراءِ، لَعَلُّهُ هو الَّذِي يُثَبِّتُ أَنَّ غَيْرَ رَأْيِكَ فِي الآراءِ هو الصَّحيحُ.

ولو كانَ الأمرُ على ما يَتَخَيَّلُ كُلُّ ذِي خِيالٍ، لَصَدَقَ كُلُّ إنسانٍ فيما يَزْعُمُ، ولو صَدَقَ كُلُّ إنسانٍ فيما يَزْعُمُ، لَكَذَبَ كُلُّ إنسانٍ؛ وإنَّما يَدْفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بَعْضًا، لِيَجِيءَ حَقُّ الْجَمِيعِ مِنَ الْجَمِيعِ، ويبقى الصَّغِيرُ مِنَ الْخَطَأِ صَغِيرًا فلا يَكْبُرُ، ويثَبُّتُ الْكَبِيرُ مِنَ الصَّوَابِ على مَوْضِعِهِ فلا يُنْتَقِصُ، ويَصْحُحُ الصَّحِيحُ ما دَامَتْ الشَّهادَةُ لَهُ، ويفْسُدُ الْفاسِدُ ما دَامَتْ الشَّهادَةُ عَلَيْهِ، وما مِثْلُ هَذَا إِلَّا مِثْلُ الْأَرْنَبِ والعُلَماءِ.

قالَ دِمْنَةُ: وكيفَ كانَ ذلكَ؟

قالَ: زَعَمُوا أَنَّ أَرْنَبًا سَمِعَتِ الْعُلَماءُ يَتَكَلَّمُونَ في مَصِيرِ هَذِهِ الدُّنْيَا، ومَتى يَتَأَذَّنُ^(٢) اللَّهُ بِانْقِرَاضِهَا، وكيفَ تَكُونُ الْقارِعَةُ^(٣)؛ فَقالُوا: إِنَّ في الْأَنْجُومِ نَجُومًا مُدْنَبَةً، لو أَلْتَفَّ ذَنْبٌ أَحَدِها على جِزْمِ أَرْضِنا هَذِهِ لَطَارَتْ هَوَاءً كَأَنَّها نَفْخَةُ الْنافِخِ، بَلْ أضعَفُ مِنْها كَأَنَّها زَفْرَةُ صَدْرِ مَرِيضٍ، بَلْ أوهى كَأَنَّها نَفْثَةُ مَنْ شَفَتَيْنِ. فَقالَتِ الْأَرْنَبُ: ما أَجْهَلَكُمُ أَيُّها الْعُلَماءُ! قد وَاللَّهِ خَرَفْتُمْ وَتَكَذَّبْتُمْ وَأَسْتَحْمَقْتُمْ؛ ولا تَزَالُ الْأَرْضُ بِخَيْرٍ مَعَ ذَوَاتِ الْأَذْنابِ؛ وَالْدَلِيلُ على جَهْلِكُمُ هو هَذَا - قالُوا: وأَرْتَهُمْ ذَنْبُها. . .!

قالَ كَلِيلَةُ: وكم مِنْ مَغْرُورٍ يُنْزَلُ نَفْسَهُ مِنْ الْأَنْبياءِ مَنْزِلَةً هَذِهِ الْأَرْنَبِ مِنْ

(١) زِيغُهُ: رُوغانُهُ.

(٢) يَتَأَذَّنُ: يَسْمَحُ.

(٣) الْقارِعَةُ: الْقِيامَةُ.

أولئك العلماء؛ فيقول: كذبوا وصدقتُ أنا، وأخطأوا جميعاً وأصبتُ، وألتبسَ عليهم وأنكشَفَ لي، وهم زعموا وأنا المستيقِن. ثم لا دليلَ له إلا مثلُ دليلِ الأرنبِ الخرقاءِ من هتّةٍ تتحرّكُ في ذنبِها.

وكان يُقال: إِنَّهُ لَا يُجَاهِرُ^(١) بالكفرِ في قومٍ إِلَّا رجلٌ هانَ عليهم فلم يعبثوا به، فهو الأذلُّ المستضَف؛ أو رجلٌ هانوا عليه فلم يعبأ بهم، فهو الأعرزُ الطاغية؛ ذاك لا يخشونه فيَدْعُونَهُ لِنَفْسِهِ وعليه شهادةٌ حُقمَ، وهذا يخشونه فيتركون مُعارضَتَهُ وعليه شهادةٌ ظلمَ؛ وما شرٌّ من هذا إِلَّا هذا.

وقالتِ العلماء: إِنْ كُنْتَ حاكماً تَشْتَقُ مَنْ يُخَالِفُكَ في الرَّأي، فليسَ في رأسِكَ إِلَّا عقلُ أَسْمُهُ الْخَبَلُ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَقْتُلُ مَنْ يُنْكَرُ عَلَيْكَ الْخَطَأَ، فليسَ لَكَ إِلَّا عقلُ أَسْمُهُ الْحَدِيدُ؛ وَإِنْ كُنْتَ تَخِيسُ مَنْ يُعَارِضُكَ بِالنَّظَرِ، ففِيكَ عقلُ أَسْمُهُ الْجِدَارُ؛ أَمَا إِنْ كُنْتَ تَنَازَرُ^(٢) وتُجَادِلُ، وتَقْنَعُ وتَقْتَنَعُ، وتدعو النَّاسَ على بَصِيرَةٍ ولا تأخذُهم بِالْعَمَى - ففِيكَ الْعَقْلُ الَّذِي أَسْمُهُ الْعَقْلُ.

قالَ كَلِيلَةُ: وأنا يا دِمْنَةَ، فلو كُنْتُ قائداً مُطاعاً، وأميراً مُتَّبِعاً، لَا يُعَصَى لي أمرٌ، وَلَا يُرَدُّ عَلَيَّ رأيٌ، وَلَا يُنْكَرُ مِنِّي ما يُنْكَرُ مِنَ الْمَخْلُوقِ إِذَا أَخْطَأَ، وَلَا يُقَالُ لي دائماً إِلَّا إِحْدَى الْكَلِمَتَيْنِ: أَصَبْتُ، ثُمَّ هِيَ دَائِماً أَصَبْتُ؛ وَلَا يَلْقَانِي أَحَدٌ مِنْ قَوْمِي بِالْكَلِمَةِ الْآخَرَى، رَهْبَةً مِنْ سَخَطِي^(٣)، رَهْبَةً الْجُبْنَاءِ، أَوْ رَغْبَةً فِي رِضَايَ رَغْبَةَ الْمُنَافِقِينَ، وزعموا أَنَّهُمْ على ذلك قد صَحَّتْ نِيَّاتُهُمْ وَخَلَصَ لي باطنُهُمْ جميعاً - فلو كُنْتُ وكانوا على هذا، لأَحَالَنِي نَقْصُهُمْ إِلَى نَقْصِ الْعَقْلِ بَعْدَ كَمَالِهِ، وَرَدَّتْنِي فُسُولُهُمْ إِلَى فُسُولَةِ الرَّأيِ بَعْدَ جُودَتِهِ، فَأَخْلِقُ^(٤) بِي أَنْ أَعْتَبَرَ وَضَعَهُمْ إِيَّايَ فِي مَوْضِعِ آلِهَةٍ، هُوَ إِنْزَالُهُمْ إِيَّايَ فِي مَنزَلَةِ الْكُشَايَطينَ؛ وَإِلَّا كُنْتُ حَقِيقاً أَنْ يُقْصِبَنِي مَا أَصَابَ الْعَنْزَ الَّتِي زَعَمُوا لَهَا أَنَّهَا أَثْنَى الْفِيلِ...

قالَ دِمْنَةَ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قالَ: زَعَمُوا أَنَّهُ كَانَ فِي إِحْدَى خَرَائِبِ آلِهِنْدِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْعِظَاءِ^(٥)، وَكَانَ

(١) يجاهر: يعلن على الملأ من الناس.

(٢) تناظر: تجادل وتجاوز.

(٣) سخطي: غضبي.

(٤) أخلق بي: أجدر بي.

(٥) العطاء، مفردة عطاء وعظاية، وهي السحلية.

فيها عَضَرَ فُوطٌ كبير^(١)، فمَلَكَتْهُ الْجَمَاعَةُ وَذَهَبَتْ تَأْتِمُرُ^(٢) عَلَى أَمْرِهِ وَتَنْتَهِي. فَمَرَّ
بهذه الْخَرْبَةُ فِيلٌ جَسِيمٌ مِنَ الْفِيلَةِ الْهِنْدِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، لَمْ يُحَسَّ بِالْعَظَاءِ، وَلَمْ يُمَيِّزْ فَرْقاً
بَيْنَ هَذِهِ الْأُمَّةِ مِنَ الْحَشَرَاتِ وَبَيْنَ الْحَصَى مَنثوراً يَلْتَمِعُ فِي الْأَرْضِ هُنَا وَهُنَا؛ قَالُوا
فَغَضِبَ الْعَضْرُفُوطُ، وَكَانَ قَائِداً عَظِيماً، ثُمَّ تَدَبَّرَ أَمْرَ الْفِيلِ يَنْظُرُ كَيْفَ يَصْنَعُ فِي
مُدَافَعَتِهِ^(٣)، وَكَيْفَ يَحْتَالُ فِي هَلَاكِهِ، فَرَأَهُ لَا يَتَحَرَّكُ إِلَّا بِأَقْدَامِهِ يَنْقُلُهَا وَاحِدَةً
وَاحِدَةً؛ فَقَدَّرَ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ لَوْ أَزَالَ قَدَمَ الْفِيلِ عَنِ الْأَرْضِ زَالَ الْفِيلُ نَفْسُهُ؛ فَجَاءَ
فَاعْتَرَضَ الطَّرِيقَ، وَدَبَّ دَبِّبَهُ؛ فَلَمَّا رَفَعَ الْفِيلُ قَدَمَهُ أَهْتَبَلَ^(٤) هَذِهِ الْعُفْلَةَ مِنْهُ.
وَأَنْدَسَ^(٥) تَحْتَهَا، فَأَنْدَسَ مَقْبُوراً فِي التُّرَابِ!

ثُمَّ إِنْ الْعَظَاءُ أَفْتَقَدَتْ أَمِيرَهَا. فَلَمَّا مَضَى الْفِيلُ لِسَبِيلِهِ وَرَأَتْ مَا نَزَلَ بِهَا،
نَفَرَتْ إِلَى أَجْحَارِهَا^(٦)، وَأَسْتَكْنَتْ^(٧) فِيهَا تَرْتَقِبُ وَتَتَرَبَّصُ^(٨)، فَدَخَلَتْ إِلَى الْخَرْبَةِ
عَنْزُ جَعَلَتْ تَتَقَمَّمُ مِنْهَا وَتَرْتَعُ فِيهَا، وَرَأَتْهَا الْعَظَاءُ فَاجْتَمَعْنَ يَأْتِمِرْنَ^(٩)...
فَقَالَ مِنْهَا قَائِلٌ: هَذِهِ أَنْثَى الْفِيلِ. فَسَأَلَتْ عَظَايَةً مِنْهِنَّ: وَأَيْنَ الْأُنَابَانِ
الْعَظِيمَانِ؟

قَالَتِ الْأُولَى: إِنَّ الْإِنَاثَ دُونَ الذَّكَوْرَةِ فِي خَلْقِهَا، وَالْأُنْثَى هِيَ الذَّكَرُ مَقْلُوباً
أَوْ مَخْتَصِراً أَوْ مَشُوهاً، وَلِذَلِكَ هُنَّ يَقْلِبْنَ الْحَيَاةَ أَوْ يَخْتَصِرْنَهَا أَوْ يَشُوْهِنَهَا، أَفَلَا
تَرَيْنَ الْأُنَابِينَ الْعَظِيمِينَ الْبَارِزِينَ فِي ذَلِكَ الْفِيلِ الْجَسِيمِ، كَيْفَ نَبَتَا صَغِيرِينَ مَنقَلِبِينَ
فَوْقَ رَأْسِ أَنْثَاهُ...؟

فَقَالَتْ وَاحِدَةٌ: إِنَّ جَارَ قَوْلِكَ فِي الرَّأْيِ فَأَيْنَ الْخُرْطُومُ؟
قَالَتِ الْآخَرَى: هُوَ هَذِهِ الزَّنْمَةُ الْمَتَدَلِّيَةُ مِنْ حَلْقِهَا، وَذَلِكَ خُرْطُومٌ عَلَى قَدْرِ
أُنُوْثَةِ الْأُنْثَى...!

قَالُوا: ثُمَّ اجْتَمَعَ رَأْيُهُنَّ عَلَى أَنَّ يُمْلَكْنَ أَنْثَى الْفِيلِ هَذِهِ؛ وَأَنَّ يَهْبَنَ لَهَا الْخَرْبَةُ
وَأُمَّتَهَا. وَسَمِعَتِ الْأَمَاعِزُ كَلَامَهُنَّ فَقَالَتْ فِي نَفْسِهَا: لَا جَرَمَ أَنَّ تَكُونُ الْعَنْزُ فِيلَةً فِي
أُمَّةٍ مِنَ الْعَظَاءِ، فَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ: إِنَّهُ لَا كَبِيرَ إِلَّا بِصَغِيرٍ، وَلَا قَوِيَّ إِلَّا بِضَعِيفٍ،

(١) العَضْرُفُوطُ هُوَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَظَاءِ يَكُونُ أَكْبَرَ مِنْهَا.

(٢) تَأْتِمُرُ: تَنْصَاعُ لِأَمْرِهِ.

(٣) مُدَافَعَتُهُ إِعَادَةُ بِالْحِيلَةِ.

(٤) أَهْتَبَلَ: انْتَهَزَ.

(٥) أَنْدَسَ: دَخَلَ خَلْسَةً.

(٦) أَجْحَارُهَا: أَوْكَارُهَا.

(٧) اسْتَكْنَتْ: كَمَنْتَ.

(٨) تَتَرَبَّصُ: تَنْتَظِرُ غَفْلَةً.

(٩) يَأْتِمِرْنَ: يَتَنَاقِشْنَ.

ولا طاغية إلا بذليل؛ وإنَّ العظمة إنَّ هي إلا شهادة الحقارة على نفسها، وإنَّه ربُّ عظيم طاغية متجبر ما قام في الناس إلا كما تقوم الحيلة، ولا عاش إلا كما يعيش الكذب، ولا حكم إلا كما يحكم الخداع. وهذه الدنيا للمحظوظ كأنها دنيا له وحده، فمتى جاءت إليه فقد جاءت، ولو أنها أدبرت^(١) عنه من ناحية لرجعت من ناحية أخرى، ليثبت الحظُّ أنه الحظُّ.

وتقدَّم العطاء إلى العنز، فقلن لها: أيُّها ألفيلة العظيمة، إنَّ قرينك العظيم قد مسَّ أميرنا العصفوفُ بقدميه فغيبه تحت سنبع أرضين، وأنت أنشأه وسيدته، فقد اخترناكِ ملكة علينا، ووهبتنا لك الخبرة وما فيها.

قالت العنز: فإنِّي أتهدُّ منكُنَّ هذه الهبة، ونعمًا صنعنَّ؛ غير أنَّ بينكنَّ وبينني ما بين العظاية والأفيل. وما بين الحصاة والجبل، فإذا أنا قلتُ، فأنا قلتُ؛ وإذا أنا أمرتُ، فأنا أمرتُ؛ وإذا أنا فعلتُ، فأنا فعلتُ. هنا في هذه الأمة كلها (أنا) واحدة ليس معها غيرها؛ لأنَّ ههنا في هذا الرأس دماغ فيلة، وفي هذا الجسم قوة فيلة، وفي الخبرة كلها فيلة واحدة؛ فلا أغرفنَّ منكُنَّ على الصواب والخطأ إلا الطاعة طاعة الأعمى للبصير. ألا وإنَّ أولَّ الحقائق أنِّي فيلة وأنكنَّ عطاء؛ ومتى بدأ أليقين من هنا سقط الخلاف من بيننا وبطل الاعتراض منكُنَّ، وقوتني حقٌّ لأنها قوة، وباطلي كذلك حقٌّ لأنه من قوتي؛ وقد قال أسلافنا^(٢) حكماء ألفيلة: إنَّ القوي بين الضعفاء مشيئة مطلقه، فهو مصلح حتى بالافساد، حكيم حتى بالحماسة، إمام حتى بالحرافة، عالم حتى بالجهالة نبي حتى بالشعوذة....!

قالوا: ونكر عليها عطاية صالحة عالمة كانت ذات رأي ودين في قومها، وكنَّ يُسميها: (العمامة)، ليياضها وصلاحها وطهارتها، فقالت: ولا كلُّ هذا أيُّها ألفيلة؛ لقد تحرَّضت^(٣) غير الحق؛ فإنك تحكيمننا من أجلنا لا من أجلك، وما قولك إلا كلمات تحقُّقها أعمالنا نحن؛ فلك الطاعة فيما يضلُّحنا، وما كان من غيره فهو ردُّ عليك، ورأيك شيء ينبغي أن تكون معه آراؤنا، لتتبين الأسباب أسباب الموافقة والمخالفة، فنأخذ عن بيئة ونترك عن بيئة؛ وقد كان يقال في قديم الحكمة: إنَّه يجب على من يُقدِّم رأياً للأمة الحازمة كي تأخذ به، أو يضع لها شرعاً ليخملها عليه، أو يسن لها سنةً لتتبعها - إنَّه يجب على هذا المتقدم لتحويل

(١) أدبرت: رحلت.

(٢) أسلافنا: أجدادنا.

(٣) تحرَّضت: تقوَّلت.

الْأُمَّةُ أَوْ تَحْرِيرِهَا يَتَقَدَّمُ لِأَهْلِ الشُّوَرَى وَفِي رَأْسِهِ الرَّأْيُ، وَفِي عُنُقِهِ حَبْلٌ؛ ثُمَّ يَتَكَلَّمُ بِرَأْيِهِ وَيَبْسُطُهُ وَيَذْفَعُ عَنْهُ، وَيُجَادِلُهُمْ وَيُجَادِلُونَهُ؛ فَإِنْ كَانَ الرَّأْيُ حَقًّا أَخَذُوا الرَّأْيَ، وَإِنْ كَانَ بَاطِلًا أَخَذُوا الْحَبْلَ فَشَنَقُوا فِيهِ هَذَا الْمَتَهَوِّرَ.

وَفِي دِينِنَا أَنَّ الطَّاعَةَ فِي الْمَعْصِيَةِ مَعْصِيَةٌ أُخْرَى؛ وَلَقَدْ كَانَ لَنَا عَضْرُفُوطٌ بَحَائِثَةٌ فِي الْأَدْيَانِ دَرَّاسَةٌ لِكِتَابِهَا عَلَامَةٌ نَقَّابٌ؛ فَكَانَ مِمَّا عَلَّمَنَا: أَنَّ الْمَخْلُوقَ مَبْنِيٌّ عَلَى النِّقْصِ إِذْ هُوَ مَاضٍ إِلَى الْفَنَاءِ، فَيَجِبُ أَلَّا يَتَمَّ مِنْهُ شَيْءٌ إِلَّا بِمَقْدَارٍ، وَأَلَّا تَكُونَ الْقُوَّةُ فِيهِ إِلَّا بِمَقْدَارٍ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْعَقْلُ الْتَامُ فِي الْأَرْضِ هُوَ مَجْمُوعُ الْعُقُولِ الْعَظِيمَةِ كُلِّهَا، وَكَانَ أَتَمُّ الْأَرَاءِ وَأَصَحُّهَا مَا أُثْبِتَ الْأَرَاءُ نَفْسُهَا أَنَّهُ أَصَحُّهَا وَأَتَمُّهَا. فَلَا أَلَدِينَ اتَّبَعَتْ أَيْتُهَا الْفَيْلَةُ، وَلَا اتَّبَعَتْ أَلْعَقْلَ، وَلَيْسَ إِلَّا هَذَا (الْتَفَيْلُ) الْكَاذِبُ.

فَلَمَّا سَمِعَتْ أَلْعَنْزُ ذَلِكَ تَنْفَقَشَتْ وَغَضِبَتْ، وَقَالَتْ: إِيَّاكُمْ وَهَذِهِ التَّرَهَّاتِ مِنْ أَلْسِنَتِكُمْ، وَهَذِهِ الْأَبَاطِيلَ فِي عُقُولِكُمْ؛ لَا أَسْمَعَنَّ مِنْكُمْ كَلِمَةً أَلَدِينَ وَلَا كَلِمَةً الْأَنْبِيَاءِ وَلَا الْعَصَافِيطِ... فَذَلِكَ وَحْيٌ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا؛ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ وَحْيِي أَنَا فَأَنَا لَسْتُ فِيهِ، وَإِذَا لَمْ أَكُنْ أَنَا فِيهِ فَهُوَ لَا يَصْلُحُ لِلْحَكْمِ الَّذِي شَرْطُهُ أَنَّ الدَّوْلَةَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا أَنَا وَاحِدَةً. وَذَلِكَ إِنْ لَمْ يَجْعَلْكُمْ غُرَبَاءَ عَنِّي جَعَلَنِي غَرِيبَةً عَنْكُمْ، مَا بُدُّ مِنْ إِحْدَى الْغُرَبَتَيْنِ، فَهُوَ أَوَّلُ الْقَطِيعَةِ، وَالْقَطِيعَةُ أَوَّلُ الْفَسَادِ. وَمَا دَامَ فِي أَلَدِينَ أَمْرٌ غَيْرُ أَمْرِي، وَنَهْيٌ غَيْرُ نَهْيِي، وَتَحْلِيلٌ وَتَحْرِيمٌ لَا يَتَغَيَّرَانِ عَلَى مَشِيئَتِي - فَأَنَا مَجْنُونَةٌ إِنْ رَضِيتُ لَكُمْ هَذَا...!

فَضَحِكَتِ (الْعِمَامَةُ) وَقَالَتْ لِلْمَاعِزَةِ: بَلْ قَوْلِي: أَنَا مَجْنُونَةٌ بـ (أَنَا)؛ أَفَلَا يَجُوزُ وَأَنْتِ خَلَقْتَ مِنَ الْخَلْقِ أَنْ يَغْتَرِيَ عَقْلُكَ شَيْءٌ مِمَّا يَعْتَرِي أَلْعُقُولَ؟ وَلَسْنَا نُنْكِرُ أَنَّكَ قُوَّةُ الرَّأْيِ فِي نَاحِيَةِ الْقُوَّةِ، حَسَنَةُ الْتَدْبِيرِ فِي نَاحِيَةِ أَلْشَّجَاعَةِ، مُتَجَاوِزَةُ الْمَقْدَارِ فِي نَاحِيَةِ الْحَزْمِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَصَالِحِ الدَّوْلَةِ؛ وَلَكِنْ أَلَمْ يَقُلِ الْحُكَمَاءُ: إِنَّ الزِّيَادَةَ أَلْمُسْرِفَةَ فِي جِهَةٍ مِنَ أَلْعَقْلِ، تَأْتِي مِنَ النِّقْصِ أَلْمُتَحَيِّفِ^(١) لِيَجِهَةٍ أُخْرَى؛ وَإِنَّهُ رَبُّ عَقْلٍ كَانَ تَامًا عَبَقْرِيًّا فِي أُمُورٍ، لَكِنَّهُ ضَعِيفٌ أَلْبَلُهُ فِي غَيْرِهَا؛ يُحْسِنُ فِي تِلْكَ مَا لَا يُحْسِنُهُ أَحَدٌ، وَيُحْكِمُ مِنْهَا مَا لَا يُحْكِمُهُ أَحَدٌ، ثُمَّ يَغْلُطُ فِي الْأُخْرَى مَا لَا يَغْلُطُ أَحَدٌ فِيهِ؟

قَالُوا: فَجَاشَتْ^(٢) أَلْعَنْزُ وَفَارَتْ مِنَ أَلْغَضَبِ قُوَّةِ الْجَبَّارِ، وَخُيِّلَ إِلَيْهَا مِنْ

(٢) جَاشَتْ: اسْتَشَاظَتْ غَضَبًا.

(١) أَلْمُتَحَيِّفُ: الْجَائِرُ، الظَّالِمُ.

عَمَى الْغَيْظُ أَنَّهَا ذَهَبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، وَأَنَّ زَنْمَتَهَا أَمْتَدَّ مِنْهَا خُرْطُومٌ طَوِيلٌ، وَأَنَّ قَرْنَيْهَا أَنْتَبَعَجَ مِنْهُمَا نَابَانِ عَظِيمَانِ؛ وَقَالَتْ: وَيَحْكُمُ! خَذُوا هَذِهِ (الْعِمَامَةَ) فَاسْتَقْوَاهَا؛ فَإِنَّهَا كَمَا قَالَتْ؛ تَقْدَمَتْ إِلَيْنَا بِالرَّأْيِ وَالْحَلِّ...!

وَكَانَ فِي الْعِظَاءِ ضِعَافٌ وَمَهَازِيلُ وَجُبْنَاءُ، وَمَأْكُولُونَ لِكُلِّ أَكَلٍ؛ فَتَشَبَّحَ^(١) لَهُمْ أَنَّ أَنْثَى الْفِيلِ هَذِهِ... سَتَخْلُقُهُمْ فِيلَةً إِنْ هُمْ أَطَاعُوهَا؛ فَإِذَا مَرَدُّوا^(٢) عَلَيْهَا فَإِنَّهَا مِنْ صِرَامَةِ الْبَاسِ بَحِثُ تَجْعَلُ كُلَّ ظِلْفٍ مِنْ أَظْلَافِهَا جِبَلًا فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظِلَّةٌ فَتَسُوخُ بِهِمْ الْأَرْضُ. ثُمَّ إِنَّهُمْ انْخَزَلُوا وَتَرَاجَعُوا، وَأَخَذَتْ (الْعِمَامَةُ) الصَّالِحَةَ فَشَنِقَتْ، وَحَمَدَ الرَّأْيِ مِنْ بَعْدِهَا، وَانْقَطَعَ الْخِلَافُ وَالذِّينُ وَالْعَقْلُ الْحَرُّ...؛ وَأَقْبَلَتْ دَوْلَةُ الْعِظَاءِ عَلَى الْعَنْزِ تُجَزُّ أَذْيَالُهَا.

قَالُوا: وَاعْتَرَّتِ الْمَاعِزَةُ وَأَحْسَتْ لَهَا وَجُودًا لَمْ يَكُنْ، وَعَرَفَتْ لِنَفْسِهَا وَهِيَ مَاعِزَةٌ نِبَاهَةٌ شَأْنِ الْفِيلِ الْقَوِي، فَلَجَّتْ^(٣) فِي عِمَائِهَا وَكَفَرَتْ بِجَنَسِهَا، وَقَالَتْ: لَمْ يَخْلُقْنِي اللَّهُ فِيلَةً وَخَلَقْتُ نَفْسِي؛ فَأَنَا لَا هُوَ...

وَبَتَّ عِنْدَهَا أَنَّهَا لَيْسَتْ بَعَنْزٍ وَإِنْ أَشْبَهَتْهَا كُلُّ عَنْزٍ فِي الدُّنْيَا؛ وَذَهَبَتْ تُقَلِّدُ وَتَعِيشُ عَلَى مَذَاهِبِ الْفِيلَةِ بَيْنَ الْعِظَاءِ؛ فَإِذَا مَشَتْ أَرْتَجَّتْ وَتَخَطَّرَتْ كَأَنَّهَا بِنَاءٌ يَتَقَلَّقُ، وَإِذَا أَضْطَجَعَتْ أُنْذِرَتْ الْأَرْضُ أَنْ تَتَمَسَّكَ لَا تَدْكُهَا بِجَنَبِهَا...!

وَمَرَّ ذَلِكَ الْفِيلُ بِهَذَا الْخَرَابِ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَاذَتْ الْعِظَاءُ كُلُّهُنَّ بِالْفِيلَةِ... وَتَاهَبَتْ هَذِهِ لِلْقِتَالِ، وَتَحَصَّفَتْ فِي الْمُبَارَزَةِ وَالْمَنَاجَزَةِ... (وَالْمَعَانِزَةِ) فَتَنَصَّبَتْ قَرْنَيْهَا، وَحَرَكَتْ زَنْمَتَهَا، وَطَاطَأَتْ، وَشَدَّتْ أَظْلَافَهَا فِي الْأَرْضِ، وَثَبَّتْ قَوَائِمَهَا، وَصَلَبَتْ عِظَامَهَا، وَنَفَشَتْ شَعْرَهَا، وَتَشَوَّكَتْ^(٤) كَالْقَنْفِذِ، وَأَصْرَتْ بِكُلِّ ذَلِكَ إِصْرَارَهَا، وَكَانَتْ عِزًّا نَاطِحَةً مِنْذُ كَانَتْ تَتَّبِعُ أُمَّهَا وَتَتْلُوهَا، فَكَيْفَ بِهَا وَقَدْ تَفَقَّيْتُ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا ثَبَّتَتْ فِي طَرِيقِ الْفِيلِ لِيَرَى بَعَيْنِيهِ هَذَا الْهَوْلَ الْهَائِلَ... فَأَقْبَلَ فَمَدَّ خُرْطُومَهُ، فَنَالَهَا بِهِ، فَلَفَّهَا فِيهِ، فَقَبَضَهُ، فَرَفَعَهُ، فَطَوَّحَهَا^(٥)، فَكَأَنَّمَا ذَهَبَتْ فِي السَّمَاءِ...!

(١) تشبَّح: خيَّل إليهم أنه شبح.

(٢) مردوا: تَمَرَّدُوا.

(٣) لَجَّت: تَمَادَتْ.

(٤) تشَوَّكَت: أَظْهَرَتْ فِي جِلْدِهَا مَا يُشَبِّهُ الشَّوْكَ.

(٥) طَوَّح: تَحَرَّكَ ذَاتُ الْيَمِينِ وَذَاتُ الْيَسَارِ.

وتَهَارَبَتِ الْعِظَاءُ وَلِذُنَّ^(١) بِأَجْحَارِهِنَّ، ثُمَّ عَدَوْنَ عَلَى رِقْعَيْنِ؛ فَإِذَا جِيفَةُ الْعِزْرِ
غَيْرَ، بَعِيدَ، فَذَبَبْنَ عَلَيْهَا وَأَرْتَعَيْنَ فِيهَا، وَعَلِمْنَ أَنَّهَا كَانَتْ مَاعِزَةً فَيَلَّهَا جَنُوتُهَا،
وَأَدْرَكْنَ أَنَّ الْكَذِبَ عَلَى الْحَقَائِقِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ حَقَائِقَ أُخْرَى تَقْتُلُهُ، وَأَنَّ مَنْ غَلَبَ
أُمَّةَ الْعِظَاءِ عَلَى أَمْرِهَا فَلَيْسَتْ أَلْيَامُ وَاللَّيَالِي عِظَاءً فَيَغْلِبُهَا؛ وَأَنَّ تَغْيِيرَ الْمَخْلُوقَاتِ،
إِنَّمَا يَكُونُ بِتَحْوِيلِ بَاطِنِهَا لَا بِتَحْوِيلِ ظَاهِرِهَا، وَأَنَّ الْإِنَاءَ الْأَحْمَرَ يُرِيكَ أَلْمَاءَ مُحْمَرًا
وَأَلْمَاءَ فِي نَفْسِهِ لَا حُمْرَةَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا أَنْكَسَرَ الْإِنَاءُ ظَهَرَ كَمَا هُوَ فِي نَفْسِهِ؛ وَكُلُّ مَا
يُخْفِي الْحَقُّ هُوَ كَهَذَا الْإِنَاءِ: لَوْ عَلَى الْحَقِّ لَا فِيهِ؛ ثُمَّ أَيْقَنَ أَنَّ مُحَاوَلَةَ إِخْرَاجِ أُمَّةٍ
كَامِلَةٍ مِنْ نَزَعَاتٍ مَاعِزَةٍ مَأْفُونَةٌ^(٢)، هِيَ كَمُحَاوَلَةِ اسْتِيلَادِ الْقَلِيلِ مِنَ الْمَاعِزَةِ...!

قَالَ كَلِيلَةُ: وَأَعْلَمُ يَا دِمْنَةُ أَنَّهُ لَوْلَا أَنَّ هَذِهِ الْعِزَرَ الْحَمَقَاءَ قَدْ كَفَرَتْ كُفْرَ
الذَّبَابَةِ، لَمَا أَخَذَهَا اللَّهُ أَخَذَ الذَّبَابَةُ.

قَالَ دِمْنَةُ: وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

قَالَ: زَعَمُوا أَنَّ ذَبَابَةَ سُودَاءَ كَانَتْ مِنْ حَمَقَى الذَّبَّانِ، فَذَرَّتِ الْحَمَاقَةُ عَلَيْهَا
أَبْدِيَّةً، فَلَوْ أَنْقَلَبَتْ نَقْطَةُ حَبْرٍ فِي دَوَاةٍ لَمَا كُتِبَتْ بِهَا إِلَّا كَلِمَةٌ سُخْفٍ.

وَوَقَّعَتْ هَذِهِ الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ أَمْرَةٍ رَنْجِيَّةٍ ضَخْمَةٍ، فَجَعَلَتْ تُقَابِلُ بَيْنَ نَفْسِهَا
وَبَيْنَ الْمَرْأَةِ؛ وَقَالَتْ: إِنَّ هَذَا لَمِنْ أَدْلُ الدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ الْعَالَمَ فَوْضَى لَا نِظَامَ فِيهِ، وَأَنَّهُ
مُرْسَلٌ كَيْفَ يَتَّفَقُ عَلَى مَا يَتَّفَقُ، عَبَثًا^(٣) فِي عِبْثٍ، وَلَا رَيْبَ أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ قَدْ كَذَّبُوا النَّاسَ،
إِذْ كَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ خَلْقِي (أَنَا) وَخَلَقْتُ هَذِهِ الذَّبَابَةَ الضَّخْمَةَ الَّتِي أَنَا فَوْقَهَا...؟

ثُمَّ نَظَرَتْ لَيْلَةً فِي السَّمَاءِ، فَأَبْصَرَتْ نَجُومَهَا يَتَلَأَلُ وَبَيْنَهَا الْقَمَرُ؛ فَقَالَتْ:
وَهَذَا دَلِيلٌ آخَرُ عَلَى مَا تَحَقَّقَ عِنْدِي مِنْ فَوْضَى الْعَالَمِ، وَكَذِبِ الْأَدْيَانِ، وَعَبْثِ
الْمَصَادِفَاتِ؛ فَمَا الْإِيمَانُ بَعِيْنِهِ إِلَّا الْإِلْحَادُ بَعِيْنِهِ، وَوَضَعَ الْعَقْلُ فِي شَيْءٍ هُوَ إِيجَادُ
الْأَلُوْهِيَّةِ فِيهِ، وَإِلَّا فَكَيْفَ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ وَضْعِي (أَنَا فِي الْأَرْضِ وَرَفَعُ هَذَا
الذَّبَّانِ الْأَبْيَضِ وَيَغْسُوبُهُ^(٤) الْكَبِيرُ إِلَى السَّمَاءِ...؟

(١) لَذُنْ: لِحْجَانُ.

(٢) مَأْفُونَةٌ، الْمَتَمَدِّحَةُ بِمَا لَيْسَ عِنْدَهَا، ذَاتُ الرَّأْيِ الضَّعِيفِ.

(٣) عَبَثًا: لَعْبًا.

(٤) الْيَعْسُوبُ: أَمِيرُ الذَّبَابِ وَالنَّحْلِ وَنَحْوَهُمَا.

ثُمَّ إِنَّهَا وَقَعَتْ فِي دَارِ فَلَاحٍ، فَجَعَلَتْ تَمُورٌ^(١) فِيهَا ذَهَاباً وَجِيئَةً، حَتَّى رَجَعَتْ بَقْرَةُ الْفَلَاحِ مِنْ مَرَعَاهَا، فَهَتَّتِ^(٢) الذَّبَابَةُ وَجَمَدَتْ عَلَى غُرَّتِهَا^(٣) مِنْ أَوَّلِ الْنَهَارِ إِلَى آخِرِهِ، كَأَنَّهَا تُزَاوِلُ عَمَلًا؛ فَلَمَّا أَمَسَتْ قَالَتْ: وَهَذَا دَلِيلٌ أَكْبَرُ الدَّلِيلِ عَلَى فَوْضَى الْأَرْزَاقِ فِي الدُّنْيَا، فَهَاتَانِ ذَبَابَتَانِ قَدْ ثَقَبَتَا ثُقُبَيْنِ فِي وَجْهِ هَذِهِ الْبَقْرِ... وَاکْتَنَتَا فِيهِمَا تَأْكُلَانِ مِنْ شَحْمِهَا فَتَعْظَمَانِ سَمِنًا؛ وَالنَّاسُ مِنْ جَهْلِهِمْ بِالْعِلْمِ الذَّبَابِيِّ يَسْمُونَهَا عَيْنِينَ. وَأَنَا قَضَيْتُ أَلْيَوْمَ كُلَّهُ أَخْمِشُ وَأَعْضُ وَالسَّعُ لِثُقْبٍ لِي ثُقْبًا مِثْلَهُمَا فَمَا أَنْتَزَعْتُ شَعْرَةً؛ فَهَلْ يَسْتَوِي فِي الْحِكْمَةِ رَزْقِي (أَنَا) وَرَزْقُ هَاتَيْنِ الذَّبَابَتَيْنِ فِي وَجْهِ الْبَقْرِ...؟

ثُمَّ إِنَّهَا رَأَتْ خُنْفُسَاءَ تَدِبُ دَبِيبَهَا فِي الْأَرْوَاحِ^(٤) وَالْأَقْدَارِ؛ فَنَظَرَتْ إِلَيْهَا وَقَالَتْ: هَذِهِ لَا تَصْلُحُ دَلِيلًا عَلَى الْكَفْرِ؛ فَإِنِّي (أَنَا) خَيْرٌ مِنْهَا؛ (أَنَا) لِي أَجْنَحَةٌ وَلَيْسَ لَهَا، (وَأَنَا) خَفِيفَةٌ وَهِيَ ثَقِيلَةٌ؛ وَمَا كَأَنَّهَا إِلَّا ذَبَابَةٌ قَدِيمَةٌ مِنْ ذُبَابِ الْقُرُونِ الْأُولَى، ذَلِكَ الَّذِي كَانَ بَلِيدًا لَا يَتَحَرَّكُ فَلَمْ تَجْعَلْ لَهُ الْحَرَكَةَ جَنَاحًا. ثُمَّ إِنَّهَا أَضْغَتْ فَسَمِعَتْ الْخُنْفُسَاءَ تَقُولُ لِأُخْرَى وَهِيَ تُحَاوِرُهَا: إِذَا لَمْ يَجِدِ الْمَخْلُوقُ أَنَّهُ كَمَا يَشْتَهِي فَلْيَكْفُرْ كَمَا يَشْتَهِي؛ يَا وَيْحَنَا! لِمَ لَمْ نَكُنْ جَامُوسًا كَهَذَا الْجَامُوسِ الْعَظِيمِ، وَمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ فَرْقٌ إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ مَنْ يَنْفُخُهُ وَلَمْ نَجِدْ...؟

فَقَالَتِ الذَّبَابَةُ: إِنَّ هَذَا دَلِيلُ الْعَقْلِ فِي هَذِهِ الْعَاقِلَةِ، وَلَعَمْرِي إِنَّهَا لَا تَمْشِي مِثْلَ قِلَّةٍ مِنْ أَنَّهَا بَطِيئَةٌ مُرْهَقَةٌ بَعْجَازِهَا، وَلَكِنْ مِنْ أَنَّهَا وَقُورٌ مُثْقَلَةٌ بِأَفْكَارِهَا، وَهِيَ الدَّلِيلُ عَلَى أَنِّي (أَنَا) الْأَسَابِقَةُ إِلَى كَشْفِ الْحَقِيقَةِ...!

وَجَعَلَتِ الذَّبَابَةُ لَا يُسْمَعُ مِنْ دَنْدَنْتِهَا إِلَّا، أَنَا، أَنَا، أَنَا، أَنَا... مِنْ كُفْرِ إِلَى كُفْرٍ غَيْرِهِ، إِلَى كُفْرِ غَيْرِهِمَا؛ حَتَّى كَأَنَّ السَّمَاوَاتِ كُلَّهَا أَصْبَحَتْ فِي مَعْرَكَةٍ مَعَ ذَبَابَةٍ...!

ثُمَّ جَاءَتِ الْحَقِيقَةُ إِلَى هَذَا الْإِلْحَادِ الْأَحْمَقِ تَسْعَى سَعْيَهَا؛ فَبَيْنَا الذَّبَابَةُ عَلَى وَجْهِ حَائِطٍ، وَقَدْ أَكَلَتْ بِعَوْضَةً أَوْ بِعَوْضَتَيْنِ، وَأَعْجَبَتْهَا نَفْسُهَا، فَوَقَفَتْ تَحَكُّ ذِرَاعَهَا بِذِرَاعِهَا - دَنَّتْ بَطَّةً صَغِيرَةً قَدْ أَنْفَلَقَتْ عَنْهَا الْبَيْضَةُ أَمْسَ، فَمَدَّتْ مِنْقَارَهَا، فَالْتَقَطَتْهَا.

وَلَمَّا أَنْطَبَقَ الْمِنْقَارُ عَلَيْهَا قَالَتْ: آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَ الْبَطَّةَ...!

(١) تمور: تتحرك في كل اتجاه.

(٣) غرّتها: مفاجأتها.

(٢) بهتت: دهشت.

(٤) الأرواح: السواد والسماد.

يا شباب العرب!

يقولون: إنَّ في شبابِ العربِ شيخوخةَ ألهمِّ والعزائم؛ فالشبابُ يمتدُّون في حياةِ الأممِ وهم ينكمشون.

وإنَّ أللهوَّ قد خَفَّ بهم حتى ثَقُلَتْ عليهم حياةُ الجِدِّ، فأهملوا الُممكناتِ فرجَعَتْ لهم كالُمستحيلاتِ.

وإنَّ ألهلَّ^(١) قد هوَّنَ عليهم كلَّ صَغْبَةٍ فأختصروها؛ فإذا هَزَّؤوا بالعدوِّ في كلمةٍ فكأنَّما هَزَمُوهُ في معركةٍ . . .

وإنَّ ألشبابَ منهم يكونُ رجلاً تاماً، ورجولُهُ جسمِهِ تحتجُّ على طفولةِ أعمالِهِ. ويقولون: إنَّ ألأمرَ ألْعَظِيمَ عندَ شبابِ العربِ ألاَّ يحملوا أبداً تَبِيعَةً^(٢) أمرٍ عظيمٍ.

ويزعون أنَّ هذا ألشبابَ قد تَمَّتِ ألأفَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أغلَاطِهِ، فحياتُهُ حياةُ هذه الأغلاطِ فيه.

وأَنَّهُ أبرعُ مُقلِّدٍ للغربِ في ألرذائلِ خاصَّةً؛ وبهذا جعلَهُ ألغربُ كالحيوانِ محصوراً في طعامِهِ وشرابِهِ، ولذاتِهِ.

ويزعمون أنَّ ألزجاجةَ مِنَ ألخمرِ تعملُ في هذا ألشرقِ ألمسكينِ عملَ جنديٍّ أجنبيٍّ فاتحٍ . . .

ويتواصَّونَ بأنَّ أولَ ألسياسةِ في أستعبادِ أُممِ ألشرقِ، أنْ يتركَ لَهُمُ ألأستقلالُ التامُ في حريةِ الرَّذيلةِ . . .

ويقولون: إنَّهُ لا بدَّ في ألشرقِ من ألَّتَيْنِ لِلتخريبِ: قوَّةُ أوربا، ورذائلُ أوربا.

(٢) تبعة: مسؤولية.

(١) الهزل: اللعب والمزاح.

يا شباب العرب! من غيركم يُكذَّب ما يقولون ويزعمون على هذا الشرق
المسكين؟

مَنْ غيرُ الشبابِ يضعُ الْقُوَّةَ بإزاءِ هذا الضَّعْفِ الذي وصفوه لِتكونَ جواباً عليه؟
من غيركم يجعلُ النفوسَ قوانينَ صارمةً^(١)، تكونُ المادَّةُ الأولى فيها: قَدَرنا
لأننا أردنا؟

ألا إِنَّ المَعْرَكَةَ بيننا وبينَ الاستعمارِ معركةٌ نفسيةٌ، إِنَّ لم يُقتلَ فيها الهزلُ قُتِلَ
فيها الواجب! والحقائقُ التي بيننا وبينَ هذا الاستعمارِ إِنما يكونُ فيكم أنتم بحثُها التحليلي،
تَكْذِبُ أو تَصْدُقُ.

الشبابُ هوَ القوةُ؛ فالشمسُ لا تملأُ النهارَ في آخره كما تملؤه في أوله.
وفي الشبابِ نوعٌ مِنَ الحياةِ تَظهرُ كلمةُ الموتِ عندهُ كأنها أَخَتْ كلمةَ النومِ.
ولِلشبابِ طبيعةٌ أولُ إدراكِها الثَّقةُ بالبقاء، فأولُ صفاتها الإصرارُ على العزمِ.
وفي الشبابِ تَصْنَعُ كُلُّ شجرةٍ من أشجارِ الحياةِ أثمارها؛ وبعدَ ذلك لا تصنعُ
الأشجارُ كُلها إلا خَشَباً...
يا شبابَ العرب! اجعلوا رسالتكم: إِمَّا أَنْ يحيا الشرقُ عزيزاً، وإِمَّا أَنْ
تموتوا.

أنقذوا فضائلنا من رذائلِ هذه المدينةِ الأوربيةِ، تُنقِذوا استقلالنا بعدَ ذلك،
وتنقذوه بذلك.
إِنَّ هذا الشرقَ حينَ يدعو إليه الغربُ؛ «يدعو لَمَنْ صَرُّهُ أَقْرَبُ من نفعه؛
لِبَشِ الْمَوْلَى ولِبَشِ الْعَشِيرِ».
لِبَشِ الْمَوْلَى إذا جاءَ بقوتهِ وقوانينه، ولِبَشِ الْعَشِيرِ إذا جاءَ برذائله وأطماعه.
أيُّها الشرقيُّ! إِنَّ الدينارَ الأجنبيَّ فيه رصاصةٌ مخبوءة، وحقوقنا مقتولةٌ بهذه
الدنانير.

(١) صارمة: حازمة.

أَيُّهَا الشَّرْقِيُّ! لَا يَقُولُ لَكَ الْأَجَنبِيُّ إِلَّا مَا قَالَ الشَّيْطَانُ: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي﴾.

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! لَمْ يَكُنِ الْعَسِيرُ يَغْسُرُ عَلَى أَسْلَافِكُمْ الْأَوَّلِينَ، كَأَنَّ فِي يَدِهِمْ مِفْتَاحَ مِنَ الْعُنَاصِرِ يَفْتَحُونَ بِهَا.

أَتُرِيدُونَ مَعْرِفَةَ أَلْسَر؟ السَّرُّ أَنَّهُمْ أَرْتَفَعُوا فَوْقَ ضَعْفِ الْمَخْلُوقِ، فَصَارُوا عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الْخَالِقِ.

غَلَبُوا عَلَى الدُّنْيَا لَمَّا غَلَبُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَعْنَى الْفَقْرِ، وَمَعْنَى الْخَوْفِ، وَالْمَعْنَى الْأَرْضِي.

وَعَلَّمَهُمُ الْاَلْدِينُ كَيْفَ يَعِيشُونَ بِاللَّذَاتِ السَّمَاوِيَّةِ الَّتِي وَضَعَتْ فِي كُلِّ قَلْبٍ عَظَمَتَهُ وَكِبْرِيَاءَهُ.

وَأَخْتَرَعَهُمُ الْإِيمَانُ أَخْتِرَاعًا نَفْسِيًّا، عَلَامَتُهُ الْمَسْجَلَةُ عَلَى كُلِّ مِنْهُمْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ: لَا يَذَلُّ.

حِينَ يَكُونُ الْفَقْرُ قِلَّةَ الْمَالِ، يَفْتَقِرُ أَكْثَرُ النَّاسِ، وَتَنْخَذِلُ^(١) الْقُوَّةُ الْإِنْسَانِيَّةُ، وَتَهْلِكُ أَلْمَوَاهِبُ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ فَقْرُ الْعَمَلِ الطَّيِّبِ، يَسْتَطِيعُ كُلُّ إِنْسَانٍ أَنْ يَغْتَنِي، وَتَنْبَعُثُ الْقُوَّةُ وَتَعْمَلُ كُلَّ مُوَهَبَةٍ.

وَحِينَ يَكُونُ الْخَوْفُ مِنْ نَقْصِ هَذِهِ الْحَيَاةِ وَالْآمَةِ، تَفْسُرُ كَلِمَةُ الْخَوْفِ مَائَةً رَذِيلَةً غَيْرِ الْخَوْفِ.

وَلَكِنْ حِينَ يَكُونُ مِنْ نَقْصِ الْحَيَاةِ الْآخِرَةِ وَعَذَابِهَا، تُصْبِحُ الْكَلِمَةُ قَانُونُ الْفَضَائِلِ أَجْمَعِ.

هَكَذَا أَخْتَرَعَ الْاَلْدِينُ إِنْسَانَهُ الْكَبِيرَ الْاَلْنَفْسِ الَّذِي لَا يُقَالُ فِيهِ: انْهَزَمْتُ نَفْسُهُ.

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ! كَانَتْ حِكْمَةُ الْعَرَبِ الَّتِي يَعْمَلُونَ عَلَيْهَا: أَطْلُبِ الْمَوْتَ تَوَهُّبٌ لَكَ الْحَيَاةِ.

(١) تنخذل: تنهزم.

وَأَنْفُسُ إِذَا لَمْ تَخْشَ الْمَوْتَ كَانَتْ غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ أَوَّلَ غَرَائِزِهَا تَعْمَلُ .
وَلِلْكِفَاحِ غَرِيزَةٌ تَجْعَلُ الْحَيَاةَ كُلَّهَا نَصْرًا ، إِذْ لَا تَكُونُ الْفِكْرَةُ مَعَهَا إِلَّا فِكْرَةٌ مُقَاتِلَةٌ .

غَرِيزَةُ الْكِفَاحِ يَا شَبَابَ ، هِيَ الَّتِي جَعَلَتْ الْأَسَدَ لَا يُسَمَّنُ كَمَا تَسَمَّنُ الْأَشَاءُ لِلذَّبْحِ .

وَإِذَا أَنْكَسَرَتْ يَوْمًا ، فَالْحَجَرُ الصَّلْدُ^(١) إِذَا تَرَضَّرَصَتْ^(٢) مِنْهُ قِطْعَةٌ كَانَتْ دَلِيلًا يَكْشِفُ لِلْعَيْنِ أَنَّ جَمِيعَهُ حَجَرٌ صَلْدٌ .

يَا شَبَابَ الْعَرَبِ ! إِنَّ كَلِمَةَ (حَقِّي) لَا تَحْيَا فِي السِّيَاسَةِ إِلَّا إِذَا وَضَعَ قَائِلُهَا حَيَاتَهُ فِيهَا .

فَالْقُوَّةُ الْقُوَّةُ يَا شَبَابَ ! الْقُوَّةُ الَّتِي تَقْتُلُ أَوَّلَ مَا تَقْتُلُ فِكْرَةَ التَّرَفِّ والتَخُثُّ .
الْقُوَّةُ الْفَاضِلَةُ الْمَتَسَامِيَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَنْصَارِ فِي كَلِمَةِ (نَعَمْ) مَعْنَى نَعَمْ .
الْقُوَّةُ الصَّارِمَةُ الْفَنَازَةُ الَّتِي تَضَعُ لِلْأَعْدَاءِ فِي كَلِمَةِ (لَا) مَعْنَى لَا .
يَا شَبَابَ الْعَرَبِ اجْعَلُوا رِسَالَتَكُمْ : إِمَّا أَنْ يَحْيَا الشَّرْقُ عَزِيزًا ، وَإِمَّا أَنْ تَمُوتُوا .

(٢) تَرَضَّرَصَتْ : تَكَسَّرَتْ .

(١) الصَّلْدُ : الصَّلْبُ ، الْقَاسِي .

لَوْ...!

رأيتني جالساً في مسرح هزلي بمدينة اسكندرية، كما يجلسُ القاضي في جريمةٍ يحملُ أهلها بين يديه أثامهم وأعمالهم، ويحملُ هو عقله وحكمه .
وقد ذهبتُ لأرى كيف يتساحفُ^(١) أهلُ هذه الصناعة؛ فكان حُكمي أنَّ السخافةَ عندنا سخيفةٌ جداً

رأيتهم هناك ينقدون العيوب بما ينشئ عيوباً جديدة، ويسبحون بأيديهم سباحةً ماهرة؛ ولكن على الأرض لا في البحر، وتكادُ نظرُتهم إلى الحقيقةِ الهزليةِ تكونُ عمىً ظاهراً عمّا هي به حقيقةٌ هزليةٌ؛ ولا غايةَ لهم من هذا التمثيلِ إلا الرقاعةُ^(٢) والإسفافُ والخَلْطُ والَهْذيانُ، إذ كانَ هذا هو الأشبهَ بجمهورهم الذي يحضرهم، وكانَ هو الأقربُ إلى تلك الطباعِ العاميةِ البليدةِ التي اعتادتْ من تكلفِ الهزلِ ما جعلها هي في ذاتِ نفسها هزلاً يُسخرُ منه .
ولا أسخفُ من تكلفِ النكتةِ الباردةِ قد خلَّتْ مِنَ المعنى، إلا تكلفُ الضحكِ المصنوعِ يأتي في عقبها كالبرهانِ على أنَّ في هذه النكتةِ معنى .

فالفنُّ المضحكُ عند هؤلاء، إنما هو السخفُ الذي يُوافقون به الروحَ العاميةَ الضئيلةَ الكاذبةَ المكذوبَ عليها، التي يبلغُ من بلايتها أحياناً أن تضحكَ للنكتةِ قبلَ إلقائها، لفرطِ خفتها ورعونتها^(٣)، وطولِ ما تكلفتْ واعتادتْ . فما ذلكَ الفنُّ إلا ما ترى مِنَ التخليطِ في الألفاظِ، والتضريبِ^(٤) بين المعاني، وإيقاعِ الغلطِ في المعقولاتِ؛ ثمَّ لا ثمَّ بعدَ هذا . فلا دِقَّةَ في التأليفِ، ولا عُمقَ في الفكرةِ، ولا سياسةَ في جمعِ النقائضِ، ولا نفاذَ في أسرارِ النفسِ، ولا جدَّ يُؤخذُ من هزليةِ الحياةِ، ولا عظمةَ تُستخرجُ من صغائرها، ولا فلسفةَ تُعرفُ من حماقاتها .

(٣) الرعونة: التصرف بحماقة .

(٤) التضريب: التخليط .

(١) يتساحف: يبدى ما به من حماقة .

(٢) الرقاعة: الحماقة .

والفرق بعيدٌ بينَ ضحكٍ هو صناعةٌ ذهنيٌ لِتَحريكِ النفسِ، وشَحَذِ الطبعِ،
وتصويرِ الحَقيقةِ صورةً أخرى، وبينَ ضحكٍ هو صناعةٌ ألبَلاهَةِ لِلهُوِ وَالْعَبَثِ،
وَالْمَجَانَةِ لا غيرَ .

وكانَ معي قَريبٌ من أَذكِياءِ الطَلبةِ الْمُتَخَصِّصِينَ لِلآدَابِ الْإِنْجِلِيزِيَّةِ، فلم نَلِثُ
إِلَّا يَسِيرًا حَتَّى جَاءَ ثَلَاثَةٌ مِنْ ضَبَاطِ الْأَسْطُولِ الْإِنْجِلِيزِيِّ، فَجَلَسُوا بِحِذَانَا صَفًّا
تَلَوُحٌ عَلَيْهِمْ مَخَايِلُ الظَّفَرِ، وَلَهُمْ وَقَارُ الْبُطُولَةِ، وَفِيهِمْ أَرْوَاحُ الْحَرْبِ؛ وَهُمْ يَبْدُونَ
فِي ثِيَابِهِمُ الْبَيْضِ الْمَطْرَاءَةِ^(١) كَأَنَّهُمْ ثَلَاثَةُ نُسُورٍ هَبَطَتْ مِنَ الْغَمَامِ إِلَى الْأَرْضِ،
فَلَأَعَيْنِيهَا نَظَرَاتٌ تَدُورُ هُنَا وَهَنَاكَ تُنَكِّرُ وَتُعَرِّفُ .

وَأَعَجَبَنِي أَنَّ أَرَاهِمَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْهَزَلِيِّ الْمَمْتَلِيِّ بِالضَّعْفَاءِ، كَأَنَّهُمْ ثَلَاثُ
حَقَائِقَ بَيْنِ الْأَغْلَاطِ، أَوْ ثَلَاثُ أَغْلَاطٍ كَبِيرَةٍ . . . وَكَانَ أَبْدَعُ مَا أَرَاهُ عَلَى هَيْئَةٍ
وَجُوهِهِمْ وَأَسْرُّ لَهُ، تَوَاضَعُ هَذَا الْأَسْتَعْدَادِ الْحَرْبِيِّ وَتَحَوُّلُهُ إِلَى أَسْتَعْدَادٍ لِلْسُخْرِيَّةِ . .
ثُمَّ تَأَمَّلْتُهُمْ طَوِيلًا؛ فَإِذَا صَرَامَةٌ وَشَهَامَةٌ، وَسَكِينَةٌ وَوَدَاعَةٌ، وَحُسْنُ سَمْتٍ
وَحِلَاوَةٌ هَيْئَةٍ فِي جِلْسَةٍ رَزِينَةٍ مَتَوَقِّرَةٍ، لَا يُشَبِّهُهَا فِي حَسَنِ النَّفْسِ الَّتِي تَعْرِفُ مَعَانِي
الْقُوَّةِ إِلَّا وَضَعُ ثَلَاثَةِ مَدَافِعَ مُصَوَّبَةٍ .

وَجَعَلْتُ أَقْلُبُ عَيْنِي فِي النَّاسِ الْمَوْجُودِينَ وَمَلَامِجِهِمْ وَهَيْئَاتِهِمْ، ثُمَّ أَرْجَعُ
الْبَصَرَ إِلَى هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَةِ، فَأَرَى الْمَصْرِيَّ كَالْمَقْتَنَعِ بِأَنَّهُ مَحْدُودٌ بِمَدِينَةٍ أَوْ قَرْيَةٍ لَا
يَعْرِفُ لِنَفْسِهِ مَكَانًا فِي غَيْرِهِمَا، فَهُوَ مِنْ ثَمَّ لَا يَرَحُلُ وَلَا يُغَامِرُ، وَلَا تَتَقَادَّفُهُ أَلَدُنْيَا؛
وَأَرَى الْإِنْجِلِيزِيَّ كَالْمَقْتَنَعِ بِأَنَّ كُلَّ مَكَانٍ فِي الْعَالَمِ يَنْتَظِرُ الْإِنْجِلِيزِيَّ . . .

وَخَيْلٌ إِلَيَّ - وَاللَّهِ - أَنَّ رَجُلًا مِنْ هَؤُلَاءِ الْإِنْجِلِيزِ الْأَقْوِيَاءِ الْمُعْتَدِّينَ
بِأَنْفُسِهِمْ^(٢) لَا يُهَاجِرُ مِنْ بِلَادِهِ إِلَّا وَمَعَهُ نَفْسُهُ وَأَسْتِقْلَالُهُ، وَتَارِيخُهُ وَرُوحُ دَوْلَتِهِ،
وَطَبِيعَةُ أَرْضِهِ؛ فَهُوَ مُسْتَيَقِّنٌ أَنَّ اللَّهَ لَا يَرْزُقُهُ رِزْقًا أَيَّ الرِّزْقِ كَانَ عَلَى مَا يَتَّفِقُ، بَلْ
رِزْقًا إِنْجِلِيزِيًّا: أَيِ فِيهِ كِفَايَتُهُ .

وَرَأَيْتُ شَيْئًا عَجِيبًا مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَ طَابِعِ السَّلَامِ عَلَى وَجْهِهِ، وَبَيْنَ طَابِعِ الْحَرْبِ
عَلَى وَجْهِهِ أُخْرَى؛ فَفِي تِلْكَ مَعَانِي السَّهُولَةِ وَالْمَلَابِنَةِ وَالْحِرْصِ عَلَى مَادَةِ الْحَيَاةِ،

(١) المَطْرَاءَةُ: المَكْوَاةُ .

(٢) الْمُعْتَدِّينَ بِأَنْفُسِهِمْ: الْمُعْتَزِّينَ، الْوَاقِفِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ .

وفي هذه معاني العزم والمقاومة والجِزْص على مجد الحياة لا على ماديتها .
وتبيّنت أسلوبيّن من الأساليب الاجتماعية : أحدهما في فرد قد بنى أمره على
أن أمة تحمله ، فهو يعيش بأضعف ما فيه : والآخر في فرد قد وضع الأمر على أنه
هو يحمل أمة فلا يدع في نفسه قوة إلا ضاعفها .

وعرفت وجهين من وجوه التربية السياسية : أحدهما بالطنطنة ، والتهويل
والصُراخ ، واستعارة ألفاظ غير الواقع للواقع ، وتحميل الألفاظ غير ما تحمل ؛
والآخر بالهدوء الذي يَهْرُ الحوادث ، والصبر الذي يغلب الزمن ، والعقيدة التي
تفرض أعمالها العظيمة على صاحبها وتجعل أعظم أجره عليها أن يقوم بها .

وميّزت بين أثريّن من آثار الأرض في أهلها : أحدهما في المصري السّمح
الواديّ الألوّف الحيّي الذي هو كرم الطبيعة ، والآخر في الإنجليزي العسير المغامر
النفور الملع على الدنيا كأنه تطفل الطبيعة . . .

والقى ابن العم الذي كان معي سمعه إلى هؤلاء الضباط ، وهم من فلاسفة
الرأي على ما يظهر من حديثهم ، ثم نقل إليّ عنهم ، فقال كبيرهم : لقد فرغت من
بحثي الذي وضعته في فلسفة خمول الشرقيين ، وأفضيت منه إلى حقائق عجيبة ،
أظهرها وأخفاها معاً أن أمة من هذه الأمم لا يمكن للأجنبيّ فيها ، ولا تثقل
وطائفة^(١) عليهم ، ولا يطول نواؤه^(٢) في أرضهم ، ولا يحتلها من يطمع فيها ، ما لم
يكن سادتها وأمرؤها وكبرائها كأنهم فيها دولة محتلة .

وهؤلاء الكبراء هم آفة الشرق ؛ فمن أعظم واجباتنا أن نزيد في تعظيمهم ،
وأن نمدّ لهم في المال والجاه ، ونبسّط لهم أكيمن والشمال ، ونوهمهم أن
عظمتهم هكذا ولدت فيهم وهكذا ولدوا بها من أمهاتهم كما ولدوا بأيديهم
وأرجلهم . . . وخاصة عظماء رجال الأديان المفتونين بالدنيا ؛ فإننا نصنع بغرور
الجميع وسخافاتهم وجرصهم وطمعهم أشياء اجتماعية ذات خطر لا يصنع لنا
مثلها إلا الشياطين ومن لنا بالحكم على الشياطين ؟ وهذا ما تنبّه له (غاندي)
ذلك المهزول الهندي الذي تقوّم دنياء بأربعة شلنات ، ولا يزن أكثر من بضعة
أرطال من الجلد والعظم ، ولا بطش عنده ولا قوة فيه ، وهو مع ذلك جبار

(١) وطائفة : سطرته .

(٢) نواؤه : بقاؤه .

سماوي في يده البرق والرعْد يُرى ويُسمَع في أرجاء الدنيا .

قال ضابطُ اليمين: وبصناعة الكبرياء هذه الصناعة يكون رجلُ الشعب من هؤلاء الشرقيين رجلٌ تقليدٍ بالطبيعة، ورجلٌ ذُلُّ بالحالة، ورجلٌ خُضوعٌ بالجُملة؛ فليس في نفسه أنه سيدٌ نفسه ولا سيدٌ غيره، بل أكبرُ معانيه أنْ غيره سيدٌ عليه فيكون معه دائماً خيالٌ استعباده .

وتكلّم ضابطُ اليسار: ولكنّ المترجم لم يميز أقواله، لأنّ ثلاث عشرة امرأة كنّ يصرخن في الرواية الهزلية بلحن طويل يقلن في أوله: «عاوزين رجالة تدلّغنا...» وكانت الموسيقى تصرخ معهن وتولول كأنها هي أيضاً امرأة محرومة . . .

ثمّ أرهف^(١) المترجمُ أذنه فقال كبيرهم: إنّ لِهؤلاء الشرقيين ستّ حواس: الخمسُ المعروفة، وحاسةُ الخمول الذي خدعتهم عنه الطبيعة البليدة فسّموه الترف والهزل واللهو؛ والأمة الأوربية التي تحتلّ بلاداً شرقية تجد فيها لصغائر الحياة جيشاً أقوى من جيشها؛ فعشرة آلاف جنديّ بعثادهم وآلاتهم، لا يصنعون شيئاً إلاّ الاستفزاز^(٢) والتحدّي وإثبات أنّهم غاصبون؛ ولكنّ ما أنت قائل في عشرة آلاف مكان كهذا المسرح براقصاته وموسماته وخموره ورواياته، وبهؤلاء الرجال المخشّين الهزليين الرُقّعاء الذين هم وحدهم مُعاهدةٌ سياسية ناجحة بيننا وبين شباب الأمة . . . ؟

قال ضابطُ اليمين: نعم إنّ فنّ الاحتلال فنٌّ عسكري في الأول، ولكنّه فنٌّ أخلاقي في الآخر؛ ولهذا يجبُ تعيينُ نقطة اتّجاه للشباب تكونُ مضيئةً لامعةً جذابةً مغرية؛ ولكنها في ذات الوقت مُحركةٌ أيضاً، وهذه هي صناعةُ إهلاكِ الشباب بالضوء الجميل، وما على السياسي الحاذق في الشرق إلاّ أن يحمي الرذيلة، فإنّ الرذيلة ستعرف له صنيعه وتحميه . .

فتكلّم ضابطُ اليسار، ولكنّ صوته ذهب في عشرين صوتاً من رجال المسرح ونسائه يصيحون جميعاً: «يا حلوة يا خفافي، يا مجنّته الشبان . . .» .

(١) أرهف السمع: دقق.

(٢) الاستفزاز: إثارة الغضب.

ولمّا ألممت^(١) بحوار الضباط الثلاثة قلت لصاحبي: إस्ताذن لي عليهم أكلهم. ففعل وعرفني إليهم، وترجم لهم مقالة (يا شباب العرب) وكان يحملها. فكأنما رماهم منها بالجيش والأسطول.

ثم قلت لكبيرهم: لست أنكر أن الإنجليزي لو دخل جهنم لدخلها إنجليزياً. ولا أجد أن له في الحياة مثل هداية الحيوان، لأنه رجل عملي: دليل منفعته أنها منفعته وحسب، ثم لا دليل غير هذا ولا يقبل إلا هذا. فإذا قال الشرقي: حقي، وقال الإنجليزي: منفعتي، بطلت الأدلة كلها، ورأى الشرقي أنه مع الإنجليزي كالذي يحاول أن يقنع الذئب بقانون الفضيلة والرحمة.

وقد عرفنا أن في السياسة عجائب، منها ما يشبه أن يلقى إنسان إنساناً فيقول له: يا سيدي العزيز، بكل احترام أرجو أن تتلقى مني هذه الصفة...

وفي السياسة مواعيد عجيبة، منها ما يشبه غرس شجرة للفقراء والمساكين، والتوكيد لهم بالآيمان أنها ستثمر رُغفاناً مخبوزة... ثم بعد ذلك تطعم فتثمر الرغفان المخبوزة حشوها اللحم والإدام...

وفي السياسة محاربة المساجد بالمراقص، ومحاربة الزوجات بالمومسات، ومحاربة العقائد بأساتذة حرية الفكر، ومحاربة فنون القوة بفنون اللذة. ولكن لو فهم الشباب أن أماكن اللهو في كل معانيها ليست إلا غدراً بالوطن في كل معانيه!

ولو عرف الشباب أن محاربة اللهو هي أول المعركة السياسية الفاصلة! ولو أدرك الشباب أن أول حق الوطن عليه أن يحمل في نفسه معنى الشعب لا معنى نفسه!

ولو رجع الدين الإسلامي كما هو في طبيعته آلة حربية تصنع من الشباب رجال القوة!

ولو علم الشباب أن روح هذا الدين ليست: اعتقد ولا تعتقد. ولكن أفعّل ولا تفعل!

ولو أيقن الشباب أن فرائض هذا الدين ليست إلا وسائل عملية لامتلاء النفس بمعاني التقديس!

(١) ألممت: اطلعت.

ولو فَهَمَ الشَّبَابُ أَنْ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ إِلَّا هَذِهِ الْمَعَانِي تَجْعَلُ النَّفْسَ فَوْقَ الْمَادَةِ
وَفَوْقَ الْخَوْفِ وَفَوْقَ الْأَذَلِّ وَفَوْقَ الْمَوْتِ نَفْسِهِ!
ولو بَحَثَ الشَّبَابُ النَّفْسَ الْإِنْجِلِيزِيَّةَ الْقَوِيَّةَ لَيَعْرِفَ بِالْبَرَهَانِ أَنَّهَا نَصْفُ مُسْلِمَةٍ
فَكَيْفَ بِهَا لَوْ كَانَتْ مُسْلِمَةً؟ . . .

وَكَانَ الْمُتَرْجِمُ يَنْقُلُ إِلَيْهِمْ كَلَامِي، فَمَا بَلَغْتُ إِلَى حَيْثُ بَلَغْتُ، حَتَّى شَدَّ
الضَّابِطُ عَلَى يَدَيَّ وَهَزَّهَا؛ فَتَنَظَّرْتُ، فَإِذَا أَنَا قَدْ كُنْتُ نَائِمًا بَعْدَ سَهْرَةٍ طَوِيلَةٍ فِي ذَلِكَ
الْمَسْرَحِ، وَإِذَا يَدُ الْمُتَرْجِمِ نَفْسِهِ هِيَ الَّتِي تَهْزُنِي لِأَنْتَبَهَ . . .

أيها المسلمون!

نهضت فلسطين تحلّ العقدة التي عُقدت لها بين السيف، والمكر، والذهب.
عقدة سياسية خبيثة، فيها لذلك الشعب الحرّ قتلٌ وتخريبٌ، وفقر.
عقدة الحكم الذي يحكم بثلاثة أساليب: الوعد الكذب، والّفناء البطيء،
ومطامع اليهود المتوحشة.

أيها المسلمون! ليست هذه محنة فلسطين، ولكنها محنة الإسلام؛ يريدون
ألا يُثبت شخصيته العزيزة الحرة.
كل قرش يدفع الآن لفلسطين، يذهب إلى هناك ليجاهد هو أيضاً.

أولئك إخواننا المجاهدون؛ ومعنى ذلك أن أخلاقنا هي حلفاؤهم في هذا
الجهاد.

أولئك إخواننا المنكوبون؛ ومعنى ذلك أنهم في نكبتهم امتحان لضمائرينا
نحن المسلمين جميعاً.

أولئك إخواننا المضطهدون؛ ومعنى ذلك أن السياسة التي أدلتهم تسألنا
نحن: هل عندنا إقرارٌ للذل؟

ماذا تكون نكبة الأخ إلا أن تكون أسماً آخر لمروءة سائر إخوته أو مدلتهم؟
أيها المسلمون! كل قرش يدفع لفلسطين، يذهب إلى هناك ليفرض على
السياسة احترام الشعور الإسلامي.

ابتلّوهم باليهود يحملون في دمائهم حقيقتين ثابتتين: من ذلّ الماضي وتشريد
الحاضر.

ويحملون في قلوبهم نقيمتين طاغيتين: إحداهما من ذهبهم، والأخرى من
رذائلهم.

وَيُخَبِّتُونَ فِي أَدْمَغِيهِمْ فِكْرَتَيْنِ خَبِيثَتَيْنِ: أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ أَقْلِيَّةً، ثُمَّ أَنْ يَكُونُوا
بَعْدَ ذَلِكَ خَدَمَ الْيَهُودِ.

فِي أَنْفُسِهِمْ الْحَقْدُ، وَفِي خِيَالِهِمْ الْجَنُونُ، وَفِي عَقُولِهِمْ الْمَكْرُ، وَفِي أَيْدِيهِمْ
الذَّهَبُ الَّذِي أَصْبَحَ لَيْمًا لَأَنَّهُ فِي أَيْدِيهِمْ.
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيَتَكَلَّمَ كَلِمَةً تَرُدُّ
إِلَى هَؤُلَاءِ الْعَقْلِ.

إِبْتَلَوْهُمْ بِالْيَهُودِ يَمْرُونَ مَرُورَ الدَّنَانِيرِ بِالرِّبَا الْفَاجِشِ فِي أَيْدِي الْفُقَرَاءِ.
كُلُّ مَائَةِ يَهُودِيٍّ عَلَى مَذْهَبِ الْقَوْمِ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِي سَنَةٍ وَاحِدَةٍ مَائَةً
وَسَعْبِينَ...

حَسَابُ خَبِيثٍ يَبْدَأُ بِشَيْءٍ مِنَ الْعَقْلِ، وَلَا يَنْتَهِي أَبَدًا وَفِيهِ شَيْءٌ مِنَ الْعَقْلِ.
وَالسِّيَاسَةُ وَرَاءَ الْيَهُودِ، وَالْيَهُودُ وَرَاءَ خِيَالِهِمُ الدِّينِيَّ، وَخِيَالُهُمُ الدِّينِيُّ هُوَ طَرْدُ
الْحَقِيقَةِ الْمُسْلِمَةِ.
أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! كُلُّ قَرَشٍ يُدْفَعُ لِفِلَسْطِينَ، يَذْهَبُ إِلَى هُنَاكَ لِيُثَبَّتَ الْحَقِيقَةُ
الَّتِي يُرِيدُونَ طَرْدَهَا.

يَقُولُ الْيَهُودُ: إِنَّهُمْ شَعْبٌ مُضْطَهَّدٌ فِي جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ.
وَيَزْعَمُونَ: أَنَّ مِنْ حَقِّهِمْ أَنْ يَعِيشُوا أَحْرَارًا فِي فِلَسْطِينَ، كَأَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ
جَمِيعِ بِلَادِ الْعَالَمِ...
وَقَدْ صَنَعُوا لِلْإِنْجِلِيزِ أَسْطُورًا عَظِيمًا لَا يَسْبُحُ فِي الْبَحَارِ، وَلَكِنْ فِي
الْخَزَائِنِ...

وَأَرَادَ الْإِنْجِلِيزُ أَنْ يَطْمِئِنُّوا فِي فِلَسْطِينَ إِلَى شَعْبٍ لَمْ يَتَعَوَّذَ قَطُّ أَنْ يَقُولَ: أَنَا.
وَلَكِنْ لِمَاذَا كَسَسْتُمْ كُلَّ أُمَّةٍ مِنْ أَرْضِهَا بِمَكْنَسَةِ أَيُّهَا الْيَهُودُ؟

أَجْهَلْتُمْ الْإِسْلَامَ؟ الْإِسْلَامُ قُوَّةٌ كَتَلَكِ الَّتِي تُوجَدُ الْأَنْيَابَ وَالْمُخَالَبَ فِي كُلِّ
أَسَدٍ.

قوة تُخرج سلاحها بنفسها، لأن مخلوقها عزيز لم يوجد ليؤكل، ولم يُخلق ليدل.

قوة تجعل الصوت نفسه حين يُزفجر، كأنه يعلن الأسيديّة العزيرة إلى الجهات الأربع.

قوة وراءها قلبٌ مشتعلٌ كالبركان، تتحول فيه كل قطرة دم إلى شرارة دم ولئن كانت الحوافر تُهَيء مخلوقاتِها ليركبها الراكب، إنّ المخالب والأنياب تُهَيء مخلوقاتِها لِمَعْنَى آخر.

لو سُئِلْتُ ما الإسلام في معناه الاجتماعي؟ لَسَأَلْتُ: كم عدد المسلمين؟ فإن قيل: ثلثمائة مليون. قلت: فالإسلام هو الفكرة التي يجب أن يكون لها ثلثمائة مليون قوة.

أيجوع إخوانكم أيها المسلمون وتشبعون؟ إنّ هذا الشبع ذنبٌ يعاقب الله عليه.

والغنى اليوم في الأغنياء المُمسكين عن إخوانهم، هو وصفٌ للأغنياء باللوم لا بالغنى.

كل ما يبذله المسلمون لفلسطين، يدلّ دلالات كثيرة، أقلها سياسة المقاومة.

كان أسلافكم أيها المسلمون يفتحون الممالك، فافتحوا أنتم أيديكم... كانوا يرمون بأنفسهم في سبيل الله غير مكترئين^(١)، فأرموا أنتم في سبيل الحق بالدنانير والدراهم.

لماذا كانت القبلة في الإسلام إلا ليعتاد الوجه كلها أن تتحول إلى الجهة الواحدة؟

لماذا ارتفعت المآذن إلا ليعتاد المسلمون رفع الصوت في الحق؟
أيها المسلمون! كونوا هناك. كونوا هناك مع إخوانكم بمعنى من المعاني.

(١) مكترئين: مهتمين.

لو صَامَ الْعَالَمُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ يَوْمًا وَاحِدًا وَبَذَلَ نَفَقَاتِ هَذَا الْيَوْمِ الْوَاحِدِ
لِفِلَسْطِينَ، لَأَغْنَاهَا.

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ كُلُّهُمْ يَوْمًا وَاحِدًا لِإِعَانَةِ فِلَسْطِينَ، لَقَالَ النَّبِيُّ مُفَاخِرًا
الْأَنْبِيَاءَ: هَذِهِ أُمَّتِي!

لو صَامَ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا يَوْمًا وَاحِدًا لِفِلَسْطِينَ، لَقَالَ الْيَهُودُ الْيَوْمَ مَا قَالَهُ
آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ: إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ...

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! هَذَا مَوْطَنٌ يَزِيدُ فِيهِ مَعْنَى الْمَالِ الْمَبْذُولِ فَيَكُونُ شَيْئًا
سَمَاوِيًّا.

كُلُّ قِرْشٍ يَبْذُلُهُ الْمُسْلِمُ لِفِلَسْطِينَ، يَتَكَلَّمُ يَوْمَ الْحِسَابِ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَنَا
إِيمَانُ فُلَانٍ!

قصة الأيدي المتوضئة...

قال راوي الخبر: ذهبت إلى المسجد لصلاة الجمعة؛ والمسجد يجمع الناس بقلوبهم ليخرج كل إنسان من دنياه، فلا يفكر أحد أنه أسمى من أحد؛ ولقد يكون إلى جانبك الصانع أو الأجير أو الفقير أو الجاهل، وأنت الرئيس أو العظيم أو الغني أو العالم، فتتضرع إليه وإلى نفسك فتحس كأن خواطرك متوضئة متطهرة، وترى كلمة الكبرياء قد فقدت روحها، وكلمة التواضع قد وجدت روحها؛ وتشعر بالنفس المجتمعة قد نصبت الحرب للنفس المنفردة؛ ولو خطر لك شيء بخلاف ذلك رأيت الفقير إلى جانبك توبخاً لك، ونظرت إليه ساكناً وهو يتكلم في قلبك، وشعرت بالله من فوقكما، وأستعنت لك روح المسجد كأنها تهبط بطردك منه، وخيل إليك أن الأرض ستلطم وجهك إذا سجدت عليها، وأيقنت من ذات نفسك أن لست هناك في دنياك وليس صاحبك في دنياه، وإنما أنتما هناك في إنسانية ميزانها بيد الله وحده؛ فلا تدري أيكما الذي يخف وأيكما الذي يثقل.

قال: والعجيب أن هذا الذي لا يجهله أحد من أهل الدين، يعرفه بعض علماء الدين على وجه آخر، فتراه في المسجد يمشي مختلاً، قد تحلى بحليته، وتكلف لزهوه، فليس الحبة تسع اثنين، لا وتطاول كأنه المئذنة، وتصدّر كأنه القبلة، وانتفع كأنه ممتلىء بالفروق بينه وبين الناس؛ وهو بعد كل هذا لو كشف الله تمويهه لأنكشف عن تاجر علم بعض شروطه على الفضيلة أن يأكل بها، فلا يجد دنياه إلا في المسجد، فهو نوع من كذب العالم الديني على دينه.

قال الراوي: وصعد الخطيب المنبر وفي يده سيفه الخشبي يتوكأ عليه؛ فما استقر في الذروة حتى خيل إلي أن الرجل قد دخل في سِر هذه الخشبة، فهو يبدو كالمرضى ثقيمه عصاه، وكألهرم يمسكه ما يتوكأ عليه؛ ونظرت فإذا هو كذب صريح على الإسلام والمسلمين، كهينة سيفه الخشبي في كذبها على السيوف ومعدنها وأعمالها.

وتالله ما أدري كيف يستحلُّ عالمٌ من علماء الدين الإسلامي في هذا العصر، أن يخطبَ المسلمین خطبةً جمعتهم وفي يده هذا السيفُ علامةُ الذلِّ والضعةِ والتراجعِ والآنقلابِ والإدبارِ والهزلِ والسخريةِ والفضيحةِ والإضحاكِ؛ ومتى كان الإسلامُ يأمرُ بنَجْرِ السيفِ مِنَ الخشبِ ونَحْتِهَا وتسويتِها وإرهاقِ حدِّها الذي لا يقطعُ شيئاً، ثُمَّ وضعها في أيدي العلماءِ يَغْتَلُونَ بها ذُؤابةً^(١) كلَّ منبرٍ، ليتعلَّقَ بها الأعيونُ، وتشهدَ فيها الرمزَ والعلامةَ، وتستوجيَ منها المعنويةَ في الدينيةِ التي يجبُ أن تتجسَّم لثرى؟

أفي سيفٍ مِنَ الخشبِ معنويةٌ غيرُ معنى الهزلِ والسخافةِ، وبلاهةِ العقلِ وذلةِ الحياةِ، ومنحِ التاريخِ ألفتاحِ المتصرِّ، والرمزِ لخضوعِ الكلمةِ وصبيانيةِ الإرادة؟ قال: وكانَ تمامُ الهزءِ بهذا السيفِ الخشبيِّ الذي صنَعتهُ وزارةُ أوقافِ المسلمين، أنَّه في طولِ صَمَصامةٍ^(٢) عمرو بنِ مَعْدِيكَرِبِ الزُّبَيْدِيِّ فارسِ الجاهليةِ والإسلامِ، فكانَ إلى صدرِ الخطيبِ، ولولا أنَّه في يده لَظَهَرَ مَقْبِضُهُ في صدرِ الرجلِ كأنَّه وسامٌ مِنَ الخشبِ...

قال: وكانَ الخطيبُ إذا تكلَّفَ وتصنَّعَ وظهرَ منه أنَّه قد حميَ وثارَ ثائرُهُ، ارتجَّ وغفلَ عن يده، فتضطربُ فيها قبضةُ السيفِ فتلكِرُهُ في صدرِهِ كأنَّما تذكرُهُ أنَّ في يده خشبةً لا تصلحُ لهذهِ الحماسة...! (٣)

* * *

قال: وخطبَ العالمُ على الناسِ، وكانَ سيفُهُ الخشبيُّ يخطبُ خطبةً أخرى: فأما الأولى فهي محفوظةٌ معروفةٌ ولا تنتهي حتى ينتهي أثرُها، إذ هي كالقراءةِ لإقامةِ الصلاةِ؛ وكانت في عهدِها الأولِ كالدرسِ لإقامةِ شأنٍ من شؤونِ الاجتماعِ والسياسةِ، فبينَها وبينَ حقيقتها الإسلاميةِ مثلُ ما بينَ هذا السيفِ مِنَ الخشبِ وبينَ حقيقتهِ الأولى. وأما الخطبةُ الثانيةُ فقدَ عقلُها أنا عن تلكِ الخشبةِ وكتبْتُها، وهذه هي عبارتها:

ويحكم أيُّها المسلمون! لو كنْتُ بقيةً من خشبِ سفينةِ نوحٍ التي أنقذَ فيها

(١) ذؤابة: رأس.

(٢) صمصامة: اسم للسيف.

(٣) كانت القاعدة الشرعية تبيح للخطيب المسلم، إذا ما افتتح بلداً غضباً بالسيف أن يخطب ويده سيفه.

الجنسَ البشريّ، لَمَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تَضَعُونِي هَذَا الْمَوْضِعَ؛ وَمَا جَعَلَكُمْ اللَّهُ حَيْثُ أَنْتُمْ إِلَّا بَعْدَ أَنْ جَعَلْتُمُونِي حَيْثُ أَنَا، تَكَادُ شَرَارَةُ تَذْهَبُ بِي وَبِكُمْ مَعًا، لِأَنَّ فِيَّ وَفِيكُمْ الْمَادَّةَ الْخَشَبِيَّةَ وَالْمَادَّةَ الْمُتَخَشَّبَةَ.

ويحكم! لو أَنَّهُ كَانَ لِيْخْطِيْكُمْ شَيْءٌ مِّنَ الْكَلَامِ النَّارِيِّ الْمَضْطَرَمِّ، لَمَّا بَقِيَتْ أَلْخَشْبَةُ فِي يَدِهِ خَشْبَةً. وَكَيْفَ يَمْتَلِئُ الرَّجُلُ إِيمَانًا بِإِيمَانِهِ، وَكَيْفَ يَصْعَدُ الْمَنْبِرَ لِيَقُولَ كَلِمَةَ الدِّينِ مِّنَ الْحَقِّ الْغَالِبِ، وَكَلِمَةَ الْحَيَاةِ مِّنَ الْحَقِّ الْوَاجِبِ - وَهُوَ كَمَا تَرَوْنَهُ قَدْ أَنْتَهَى مِّنَ الْأَذَلِّ إِلَى أَنْ فَقَدَ السِّيفُ رَوْحَهُ فِي يَدِهِ؟

أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ! لَنْ تُفْلَحُوا^(١) وَهَذَا خَطِيْبُكُمْ الْمُتَكَلِّمُ فِيكُمْ، إِلَّا إِذَا أَفْلَحْتُمْ وَأَنَا سَيْفُكُمْ الْمَدَافِعُ عَنْكُمْ. أَيُّهَا الْمُسْلِمُونَ، غَيِّرُوهُ وَغَيِّرُونِي.

قَالَ رَاوِي الْخَبَرِ: وَلَمَّا قُضِيَتْ الصَّلَاةُ مَا^(٢) النَّاسُ إِذْ أَنْبَعَثَ فِيهِمْ جَمَاعَةٌ مِّنَ الشَّبَانِ يَصِيحُونَ بِهِمْ يَسْتَوْقِفُونَهُمْ لِيْخْطُبُوهُمْ؛ ثُمَّ قَامَ أَحَدُهُمْ فَخَطَبَ، فَذَكَرَ فِلَسْطِينَ وَمَا نَزَلَ بِهَا، وَتَغَيَّرَ أَحْوَالُ أَهْلِهَا، وَنَكَبَتْهُمْ وَجِهَادُهُمْ وَأَخْتِلَالَ أَمْرِهِمْ، ثُمَّ اسْتَنْجَدَ وَأَسْتَعَانَ، وَدَعَا الْمَوْسِرَ^(٣) وَالْمُخَفَّ^(٤) إِلَى الْبَذْلِ وَالتَّبَرُّعِ وَإِقْرَاضِ اللَّهِ تَعَالَى؛ وَتَقَدَّمَ أَصْحَابُهُ بِصَنَادِيقَ مَخْتُومَةٍ، فَطَافُوا بِهَا عَلَى النَّاسِ يَجْمَعُونَ فِيهَا الْقَلِيلَ وَالْأَقْلَ مِنْ دَارِهِمْ هِيَ فِي هَذِهِ الْحَالِ دَارُهُمْ أَصْحَابُهَا وَضَمَائِرُهُمْ.

قَالَ: وَكَانَ إِلَى جَانِبِي رَجُلٌ قَرَوِيٌّ مِنْ هَؤُلَاءِ الْفَلَاحِينَ الَّذِينَ تَعْرِفُ الْخَيْرَ فِي وَجُوهِهِمْ، وَالصَّبْرَ فِي أَجْسَامِهِمْ، وَالْقَنَاعَةَ فِي نَفْسِهِمْ، وَالْفَضْلَ فِي سَجَايَاهُمْ؛ إِذْ أَمْتَزَجَتْ بِهِمْ رُوحُ الطَّبِيعَةِ الْخَصْبَةِ فَتَخْرُجُ مِنْ أَرْضِهِمْ زُرْعًا وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ زُرْعًا أُخْرَى - فَقَالَ لِرَجُلٍ كَانَ مَعَهُ: إِنَّ هَذَا الْخَطِيبَ خَطِيبَ الْمَسْجِدِ قَدْ غَشَّنَا وَهَؤُلَاءِ الشَّبَانُ قَدْ فَضَحَوْهُ؛ فَمَا يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ خُطْبَةُ الْمُسْلِمِينَ إِلَّا فِي أَخْصَ أَحْوَالِ الْمُسْلِمِينَ.

قَالَ: وَنَبَّهَنِي هَذَا الرَّجُلُ السَّادِجُ إِلَى مَعْنَى دَقِيقِي فِي حِكْمَةِ هَذِهِ الْمَنَابِرِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَمَا يُرِيدُ الْإِسْلَامُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ كَمَحَطَاتِ الْإِذَاعَةِ، يَلْتَقِطُ كُلُّ مَنْبَرٍ أَخْبَارَ الْجِهَاتِ الْأُخْرَى وَيُذَيِّعُهَا فِي صِيغَةِ الْخُطَابِ إِلَى الرُّوحِ وَالْعَقْلِ وَالْقَلْبِ، فَتَكُونَ

(٣) المومس: الغني.

(٤) المخف: الفقير.

(١) تفلحوا: تنجحوا.

(٢) ما: حاج.

خطبة الجمعة هي الكلمة الأسبوعية في سياسة الأسبوع أو مسألة الأسبوع؛ وبهذا لا يجيء الكلام على المنابر إلا حياً بحياة الوقت، فيصبح الخطيب ينتظره الناس في كل جمعة أنتظار الشيء الجديد؛ ومن ثم يستطيع المنبر أن يكون بينه وبين الحياة عمل.

قال: وخيل إليّ بعد هذا المعنى أن كل خطيب في هذه المساجد ناقص إلى النصف، لأن السياسة تكرهه أن يخلع إسلاميته الواسعة قبل صعوده المنبر، وألا يصعد إلا في إسلاميته الضيقة المحدودة بحدود الكوغط هو مع ذلك نصف وعظ... فالخطبة في الحقيقة نصف خطبة، أو كأنها أثر خطبة معها أثر سيف...

قال: وأخرج القروي كيسه فعزل منه دراهم وقال: هذه لإطعام أتبلغ به ولأوتبي^(١) إلى البلد، ثم أفرغ الباقي في صناديق الجماعة؛ وأقتردت أنا به فلم أخرج من المسجد حتى وضعت في صناديقهم كل ما معي؛ ولقد حسبت أنه لو بقي لي درهم واحد لمضى يسبني ما دام معي إلى أن يخرج عني.

* * *

قال الراوي: ثم دخلت إلى ضريح صاحب المسجد أزوره وأقرأ فيه ما تيسر من القرآن، فإذا هناك رجال من علماء المسلمين، إثنان أو ثلاثة: (الشك في ثالثهم لأنه حليق الحية). ثم توافي^(٢) إليهم آخرون فتموا سبعة؛ ورأيتهم قد خلطوا بأنفسهم صاحب (اللا لحية)، فعلمت أنه منهم على المذهب الشائع في بعض العصرين من العلماء والقضاة الشرعيين، أحسبهم يحتجون بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؛ وكل أمرىء فإنما تبصره مرآته كيف يظهر في أحسن تقويم، أبلحية أم بلا لحية...؟

وأدزت عيني في وجوههم، فإذا وقاراً وسمتاً ونوراً لم أر منها شيئاً في وجه صاحب (اللا لحية)؛ وأنا فما أبصرت قط لحية رجل عالم أو عابد أو فيلسوف أو شاعر أو كاتب أو ذي فن عظيم، إلا ذكرت هذا المعنى الشعري البديع الذي ورد في بعض الأخبار، من أن لله (تعالى) ملائكة يقسمون: والذي زين بني آدم باللحية.

وكان من السبعة رجل ترك لحيته عافية على طبيعتها؛ فامتدت وعظمت حتى

(٢) توافي: جاء.

(١) أوتبي: عودتي.

نَشَرَتْ حَوْلَهَا جَوًّا رُوحَانِيًّا مِنْ أَلْهِيَّةٍ تَشْعُرُ الرِّقِيقَةَ بِتَيَّارِهِ عَلَى بُعْدٍ، فَكَانَ هَذَا أْبْلَغَ رَدٍّ عَلَى ذَلِكَ.

قال؛ وَأَنْصَتَ الشَّيْخُ جَمِيعاً إِلَى خُطْبِ الشَّبَّانِ، وَكَانَتْ أَصْوَاتُ هَؤُلَاءِ جَافِيَةً^(١) صُلْبَةً حَتَّى كَأَنَّهَا صَخَبٌ^(٢) مَعْرَكَةٌ لَا فَنٌّ خُطَابَةٌ، وَعَلَى قَدَرٍ ضَعْفِ الْمَعْنَى فِي كَلَامِهِمْ قَوِيَّ الصَّوْتِ؛ فَهَمَّ يَصْرُخُونَ كَمَا يَصْرُخُ الْمُسْتَغِيثُ فِي صَيْحَاتٍ هَارِبَةٍ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ.

فَقَالَ أَحَدُ الشَّيْخِ الْفَضْلَاءِ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ! جَاءَ فِي الْخَبَرِ: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ تَعَسَّ عَبْدُ الدَّرْهِمِ». وَوَاللَّهِ مَا تَعَسَّ الْمُسْلِمُونَ إِلَّا مِنْذُ تَعَبَّدُوا لِهَٰذِينَ حِرْصاً وَشَحْاحاً؛ ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، وَلَوْ تَعَارَفَتْ أَمْوَالُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْحَوَادِثِ لَمَا أَنْكَرْتَهُمُ الْحَوَادِثُ.

فَقَالَ آخَرُ: وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْلَهْفَانِ»، وَلَكِنْ مَا بَالُ هَؤُلَاءِ الشَّبَّانِ لَا يُورِدُونَ فِي خُطْبِهِمْ أَحَادِيثَ مَعَ أَنَّهَا هِيَ كَلِمَاتُ الْقُلُوبِ؟ فَلَوْ أَنَّهُمْ شَرَحُوا لِلْعَامَةِ هَذَا الْحَدِيثَ: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ إِغَاثَةَ الْلَهْفَانِ» لَأَسْرَعَ الْعَامَّةُ إِلَى مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ.

قَالَ الثَّلَاثُ: وَلَكِنْ جَاءَنَا الْأَثَرُ فِي وَصْفِ هَذِهِ الْأُمَّةِ: «إِنَّهَا فِي أَوَّلِ الزَّمَانِ يَتَعَلَّمُ صِغَارُهَا مِنْ كِبَارِهَا، فَإِذَا كَانَ آخِرُ الزَّمَانِ تَعَلَّمَ كِبَارُهُمْ مِنْ صِغَارِهِمْ». فَنَحْنُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ، وَقَدْ سُلِّطَ الصِّغَارُ عَلَى الْكِبَارِ يُرِيدُونَ أَنْ يَنْقُلُوهُمْ عَنْ طِبَاعِهِمْ إِلَى صِبْيَانِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

قَالَ الرَّاوي: فَقُلْتُ لِصَدِيقٍ مَعِيَ: قُلْ لِهَذَا الشَّيْخِ: لَيْسَ مَعْنَى الْأَثَرِ مَا فَهَمْتُ، بَلْ تَأْوِيلُهُ أَنَّ آخِرَ الزَّمَانِ سَيَكُونُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ زَمَنُ جِهَادٍ وَأَقْتِحَامٍ، وَعَزِيمَةٍ وَمُغَالَبَةٍ عَلَى اسْتِقْلَالِ الْحَيَاةِ؛ فَلَا يَصْلُحُ لِقَايَةِ الْأُمَّةِ إِلَّا شَبَابُهَا الْمُتَعَلِّمُ الْقَوِيُّ الْجَرِيءُ، كَمَا نَرَى فِي أَيَّامِنَا هَذِهِ، فَيَنْزِلُونَ مِنَ الْكِبَارِ تِلْكَ الْمَنْزِلَةَ؛ إِذْ تَكُونُ الْحِمَاسَةُ مُتِمَّةً لِقُوَّةِ الْعِلْمِ. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَمَّتِي كَالْمَطَرِ: لَا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ».

قَالَ الرَّاوي: وَلَمْ يَكِدِ الصَّدِيقُ يَحْفَظُ عَنِّي هَذَا الْكَلَامَ وَيَهْمُ بِتَبْلِيغِهِ، حَتَّى

(١) جافية: قاسية صلبة.

(٢) صخب: ضجيج.

(٣) شح: بخل.

وَقَعَتِ الصَّيْحَةُ فِي الْمَكَانِ؛ فَجَاءَ أَحَدُ الْخُطَبَاءِ وَوَقَفَ يَفْعَلُ مَا يَفْعَلُهُ الرَّعْدُ: لَا يَكْرُرُ إِلَّا زَمْجَرَةً وَاحِدَةً؛ وَكَانَ الشُّيُوخُ الْأَجْلَاءُ قَدْ سَمِعُوا كُلَّ مَا قِيلَ، فَأَطْرَقُوا يَسْمَعُونَهُ مَرَّةً رَابِعَةً أَوْ خَامِسَةً؛ وَفَرَّغَ الشَّبَابُ مِنْ هَدِيرِهِ فَتَحَوَّلَ إِلَيْهِمْ وَجَلَسَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ مَتَأَذِّبًا مَتَخَشُّعًا وَوَضَعَ الصَّنْدُوقَ الْمَخْتُومَ.

فَقَالَ أَحَدُ الشُّيُوخِ: لَمْ يَخَفْ عَلَيْنَا مَكَانُكَ، وَقَدْ بَذَلْتُمْ مَا أَسْتَطَعْتُمْ؛ فَبَارَكَ اللَّهُ فِيكَ وَفِي أَصْحَابِكَ.

وَسَكَتَ الشَّبَابُ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ، وَسَكَتَ الصَّنْدُوقُ أَيْضًا. . .

ثُمَّ تَحَرَّكَ النَّفْسُ بُوخِي الْحَالَةِ؛ فَمَدَّ أَوَّلُهُمْ يَدَهُ إِلَى جِيبِهِ، ثُمَّ دَسَّهَا فِيهِ، ثُمَّ عَيَّثَ^(١) فِيهِ قَلِيلًا؛ ثُمَّ . . . أَخْرَجَ السَّاعَةَ يَنْظُرُ فِيهَا.

وَأَنْتَقَلَتِ الْعُدُوى إِلَى الْبَاقِينَ، فَأَخْرَجَ أَحَدُهُمْ مِندِيلَهُ يَتَمَخَّطُ فِيهِ، وَظَهَرَتْ فِي يَدِ الثَّالِثِ سُبْحَةٌ طَوِيلَةٌ، وَأَخْرَجَ الرَّابِعُ سِوَاكَأً فَمَرَّ بِهِ عَلَى أَسْنَانِهِ، وَجَرَّ الْخَامِسُ كُرَاسَةً كَانَتْ فِي قَبَائِهِ، وَمَدَّ صَاحِبُ اللَّحْيَةِ الْعَرِيضَةِ أَصَابِعَهُ إِلَى لِحْيَتِهِ يُخَلِّلُهَا؛ أَمَّا السَّابِعُ صَاحِبُ (الَلَّاحِيَةِ)، فَتَبَتَّ يَدُهُ فِي جِيبِهِ وَلَمْ تَخْرُجْ، كَأَنَّ فِيهَا شَيْئًا يَسْتَحْيِي إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ، أَوْ يَخْشَى إِذَا هُوَ أَظْهَرَهُ مِنْ تَخْجِيلِ الْجَمَاعَةِ.

وَسَكَتَ الشَّبَابُ، وَسَكَتَ الشُّيُوخُ، وَسَكَتَ الصَّنْدُوقُ أَيْضًا. . .

قَالَ الرَّاوي: وَنَظَرْتُ فَإِذَا وَجُوهُهُمْ قَدْ لَبَسَتْ لِلشَّبَابِ هَيْئَةُ الْمَدْرَسِ الَّذِي يُقَرَّرُ لِتَلْمِيذِهِ قَاعِدَةٌ قَرَّرَهَا مِنْ قَبْلِ أَلْفِ مَرَّةٍ لِأَلْفِ تَلْمِيذٍ؛ فَخَجَلَ الشَّبَابُ وَحَمَلَ صَنْدُوقَهُ وَمَضَى. . .

أَقُولُ أَنَا: فَلَمَّا أَنْتَهَى الرَّاوي مِنْ (قِصَّةِ الْأَيْدِي الْمَتَوَضِّعَةِ)، قُلْتُ لَهُ: لَعَلَّكَ أَيُّهَا الرَّاوي أَسْتَيْقِظْتَ مِنَ الْحُلُمِ قَبْلَ أَنْ يَمْلَأَ الشُّيُوخُ الْأَجْلَاءُ هَذَا الصَّنْدُوقَ، وَمَا خَتَمَ عَقْلُكَ هَذِهِ الرِّوَايَةَ بِهَذَا الْفَصْلِ إِلَّا بِمَا كَدَدْتَ^(٢) فِيهِ ذَهْنَكَ مِنْ فِلَسْفَةٍ تَحَوَّلَ السَّيْفُ إِلَى خَشْبَةٍ؛ وَلَوْ قَدْ أَمْتَدَّ بِكَ النَّوْمُ لَسَمِعْتَ أَحَدَهُمْ يَقُولُ لِسَائِرِهِمْ: بِمَنْ يَنْهَضُ إِخْوَانُنَا الْمَجَاهِدُونَ وَبِمَنْ يَصُولُونَ؟ لِهَذَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «جَاهِلٌ سَخِيٌّ^(٣) أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ عَالِمٍ بَخِيلٍ». ثُمَّ يَمْلِئُونَ الصَّنْدُوقَ. . . .

(١) عَيَّثَ فِيهِ قَلِيلًا: أَيِ بَحَثَ بِأَصْبَعِهِ.

(٢) كَدَدْتَ: أَتَعَبْتَ.

(٣) سَخِيٌّ: كَرِيمٌ.

نجوى التمثال

أَيْهَا الْمَفْتَرِشُ الصَّخْرَةَ يَشُدُّ ذِرَاعِيهِ أَقْوَى الْأَسَدِ كَأَنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يَقْتُلَعَ الصَّخْرَةَ فِيهِمَا،

مُتَنَاهِضاً بِصَدْرِهِ^(١) لِيَدُلَّ عَلَى أَنَّهُ وَإِنْ رَبَضَ فَإِنَّ الْوُثْبَةَ فِي يَدَيْهِ، مُتَمَطِّياً^(٢) بِضُلْبِهِ لِيُشِيرَ مِنْ جِسْمِهِ الْهَادِيءِ إِلَى مَعَانِيهِ الْمَفْتَرِسَةِ، مُقْعِياً عَلَى ذَنْبِهِ^(٣) وَمُتَحَفِزاً بِسَائِرِهِ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ أُنْدَفَاعٍ تَهُمُّ أَنْ تَنْفَلِتَ مِنْ جَاذِبَةِ الْأَرْضِ .

وَأَنْتِ أَيُّهَا الْهَيْفَاءُ^(٤) تَمَثِّلُ الْإِنْسَانِيَّةَ الْمُتَمَدِّنَةَ فِي نَحَافَتِهَا وَهِيَ كَهَذِهِ الْإِنْسَانِيَّةِ ضَارِبَةٌ بِذِرَاعِي أَسَدٍ فِي غِلْظٍ مِذْفَعِينَ

حَكِيمَةٌ فِي الْنَظَرِ كَأَنَّمَا تَمُدُّ فِي سَرَائِرِ الْأُمَمِ نَظْرَةَ الْمُتأملِ، وَلَكِنْ يَدَهَا كَيِّدُ الْحِكْمَةِ السِّيَاسِيَّةِ عَلَى تَرْكِيبِ عَقْلِيٍّ تَحْتَهُ الْمَخَالِبُ . . .

سَاكِنَةٌ كَأَنَّهَا تَمَثِّلُ السَّلَامَ عَلَى أَنَّهَا فِي جِوَارِ الْأَسَدِ كَالسَّلَامِ بَيْنَ الشُّعُوبِ : تَلْمَحُ فِيهِ إِنْسَانُ الْعَالَمِ وَوَحْشُ الْعَالَمِ . . .
يَا أَبَا الْهَوْلِ .

أَنْتِ جَوَابٌ عَنْ ذَلِكَ اللَّغْزِ الْقَدِيمِ الَّذِي هُوَ كَلَامٌ لَا يَتَكَلَّمُ وَسَكُوتٌ لَا يَسْكُتُ .

وَالَّذِي أَشَارَ بِرَأْسِ الْإِنْسَانِ عَلَى جِسْمِ اللَّيْثِ^(٥) أَنَّهُ قُوَّةٌ عَمِيَاءُ كَالضَّرُورَةِ وَلَكِنَّهَا مُبْصِرَةٌ كَالْإِخْتِيَارِ .

وَالَّذِي أَخْرَجَ مِنْ فَنَى الْغَرِيزَةِ وَالْعَقْلِ فَنَاءً ثَالِثاً لَا يَزَالُ فِي الْأَرْضِ يَنْتَظِرُ الْمَرْأَةَ الَّتِي تَلِدُ إِنْسَاناً عِظَامُهُ مِنَ الْحَجَرِ؟

(١) مُتَنَاهِضاً بِصَدْرِهِ : مُرْتَفِعاً .

(٢) مُتَمَطِّياً : مُتَمَدِّداً، وَذَلِكَ بَعْدَ النَّوْمِ .

(٤) الْهَيْفَاءُ : الْفَتَاةُ الْمَمْتَشِقَةُ الطَّوْلَ .

(٥) اللَّيْثُ : الْأَسَدُ .

(٣) مُقْعِياً عَلَى ذَنْبِهِ : جَالِساً .

وَأَنْتِ يَا مِصْرَ:

أَوَاقِفَةُ ثَمَّةٍ لِلشَّرْحِ وَالتَّفْسِيرِ، تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ: إِنَّ أَجْدَادَكَ يَسْأَلُونَكَ مِنْ
آلَافِ الْكُنُوزِ بِهَذَا الرَّمْزِ: أَلَا مَعْجَزَةٌ مِنَ الْقُوَّةِ تَمُطُّ عَضَلَاتِ الْحَجَرِ؟
أَلَا بَسْطَةٌ^(١) مَنْ أَلْعَلَّمَ تَجْعَلُكَ أَيُّهَا الْمِصْرِيُّ وَكَأَنَّكَ رَأْسُ لِحْجَمِ الطَّبِيعَةِ؟ أَلَا فَنٌّ
جَدِيدٌ تَرْفَعُ بِهِ أَبَا الْهَوْلِ فِي الْجَوْ فَتَزِيدُهُ عَلَى قُوَّةِ الْوَحْشِ وَذِكَاةِ الْإِنْسَانِ خِفَّةَ الطَّيْرِ؟
أَمْ تَقُولِينَ لِلْمِصْرِيِّ: إِنَّ أَجْدَادَكَ يُوصُونَكَ بِهَذَا الرَّمْزِ أَنْ تَكُونَ كَالظَّهْرِ
الْأَسَدِيِّ لَا يُرْكَبُ مَطَاةً، وَكَالرَّأْسِ الْإِنْسَانِيِّ لَا تُقَيَّدُ حَرِيئَةً، وَكَالرَّبْضَةِ الْجَبَلِيَّةِ لَا
تَسْهَلُ إِزَاحَتُهَا، وَكَالْإِبْهَامِ الْمُرْكَبِ مِنْ غَامِضَيْنِ لَا يَتَبَسَّرُ بِهِ عَبَثُ الْعَابِثِ،
وَكَالْصَّرَاحَةِ الْمَجْتَمِعَةِ مِنْ عُنْصُرٍ وَاحِدٍ لَا يَغْلُطُ فِي حَقِيقَتِهَا أَحَدٌ؟
أَمْ تَقُولِينَ يَا مِصْرَ: إِنَّ تَفْسِيرَ أَبِي الْهَوْلِ الْأَوَّلِ أَنَّ النِّهْضَةَ الْمِصْرِيَّةَ إِنَّمَا تَكُونُ
يَوْمَ تُخْرَجُ الْبِلَادُ مَنْ يَصْنَعُ أَبَا الْهَوْلِ الثَّانِي؟

تَمَثَّلُ النِّهْضَةُ أَمْ صَفْحَةٌ مِنَ الْحَجَرِ قَدْ صَوَّرَ الشَّعْبُ عَلَيْهَا، وَدَوَّنَ فِيهَا
إِحْسَاسَهُ بِتَارِيخِهِ، وَوَصَفَ بِهَا إِدْرَاكَهُ حَيَاةَ الْمَعْنَانِ السَّامِيَةِ؟
أَمْ هُوَ كِتَابَةٌ فَصَلٍ مِنَ التَّارِيخِ بِقَلَمِ الْحَيَاةِ وَعَلَى طَرِيقَةٍ مِنْ بِلَاغَتِهَا، خَشِيتُ
عَلَيْهِ أَلْفَنَاءَ فَدَوْنَتَهُ فِي أَسْلُوبٍ مِنَ أَسَالِيبِ الْبَقَاءِ الْحَجَرِيِّ الصَّلْدِ؟
أَمْ ذَاكَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الْأُمَّةِ أَحَالَهُ أَلْفَنُ مِنْ زَمَنِ إِلَى مَادَةٍ؛ وَمِنْ مَعْنَى إِلَى
حَسٍّ، وَمِنْ خَبَرٍ إِلَى مَنْظَرٍ، وَكَانُوا يَتَكَلَّمُونَ عَنْهُ فَجَعَلَهُ أَلْفَنُ يَتَكَلَّمُ عَنْ نَفْسِهِ؟
أَمْ هُوَ تَعْبِيرٌ عَنْ تِلْكَ الْمَعْنَانِ الَّتِي خَلَقَتْهَا نَفُوسُ هَذَا الْجِيلِ تُخَاطَبُ بِهِ
الْأَنُفُوسُ الْآتِيَةُ لِتُتِمَّ عَلَيْهَا، وَتُضَيَّفَ فِيهِ إِلَى الْمَعْنَى سِرُّ الْمَعْنَى، وَتَضَعُ الْكَلِمَةُ
الْإِنْسَانِيَّةَ عَلَى لِسَانِ الطَّبِيعَةِ تَتَكَلَّمُ بِالتَّمَثُّالِ كَمَا تَتَكَلَّمُ بِالْجِيلِ؟
أَمْ تَرْكِيبٌ سِيَاسِيٌّ إِذَا فَسَّرْتُهُ أَلْفَنُ كَانَ مَعْنَاهُ أَنَّ الثَّابِتَ إِذَا أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ
يُثَبِّتُهُ... فَلَنْ يَمَحُوهُ مَنْ يُنْكِرُهُ، وَأَنَّ الظَّاهِرَ إِنِ أَحْتَاجَ إِلَى مَنْ يَدُلُّ عَلَيْهِ... فَلَنْ
يُخَفِّيه مَنْ لَا يَرَاهُ؟

(١) بسطة: سعة.

بَلْ أَرَاكَ لَا هَوْلَ^(١) فَيْكَ يَا أَبَا الْهَوْلِ الْجَدِيدِ .
أَفْذَاكَ مِنْ رِقَّةٍ دَاخَلَتْكَ وَرَحْمَةٌ جَاءَتْكَ مِنْ مَسِّ يَدِ الْمَرْأَةِ . . . ؟
أَمْ الْهَوْلُ الْيَوْمَ قَدْ أَصْبَحَ فِي الْعَقْلِ وَالْعَاطِفَةِ وَمَدَّ الْعَيْنِ الْنَسَائِيَّةَ إِلَى
بَعِيدٍ . . . ؟

أَمْ لَا يَتَمُّ فِي هَذِهِ الْمَدِينَةِ رَأْسُ رَجُلٍ وَجَسْمُ سَبْعٍ إِلَّا . . . إِلَّا بِأَنَا مِلِ امْرَأَةٌ ؟
أَلَا مَنْ يُعَلِّمُنِي أَهَذِهِ الْمَرْأَةُ مِنْكَ هِيَ تَهْذِيبٌ لِلْإِنْسَانِ وَالْوَحْشِ أَمْ تَكْمَلَةٌ
عَلَيْهِمَا ؟

أَلَا مَنْ يَأْتِينِي بِالْحِكْمَةِ فَيْكَ مِنْ وَضْعِ الرَّجْلِ الْقَوِيِّ رَأْسًا وَلَا جِسْمًا، وَالْأَسَدِ
الْمَفْتَرَسِ جِسْمًا وَلَا رَأْسًا، ثُمَّ لَا يَكْمَلُ دُونَهُمَا إِلَّا الْمَرْأَةُ وَحْدَهَا .
إِنَّمَا كُنْتُ يَا أَبَا الْهَوْلِ لُغَزَ الصَّمْتِ، فَلَمَّا أَضِيقَتِ الْمَرْأَةُ إِلَيْكَ أَصْبَحْتَ لُغَزَ
النَّطْقِ . . . فَيَا لِلْهَوْلِ !

(١) هَوْلٌ : قُوَّةٌ .

فاتحُ الجوّ المصريّ

يا طيرَ المثلِ الأعلى!

لقدِ انْفَلَتَ^(١) من رذيلةِ الخوفِ وتركتَها في الترابِ مَوْطِئاً الْقَدَمَ، وقلْتَ لها: ويحك، لقد آنَ للشبابِ المصريّ؛ فهو مُغَامِسٌ^(٢) في ماءِ الصواعقِ^(٣)، مُتَطَوِّحٌ^(٤) في اللَّجَّةِ الْأَزَلِيَّةِ^(٥) التي تغوصُ فيها الكواكبُ^(٦)، يطيرُ بروحِ الشَّرارةِ، ويَهْبِطُ بروحِ الغيثِ^(٧)، ويلجِمُ^(٨) الجوَّ ويُسرِّجُه^(٩)، ويتعلَّمُ كيفَ يَشوي عدوّه في عَيْنِ الشَّمْسِ.

وكنْتَ بطلاً مُغامراً فخطوتُ في طريقِ الملائكةِ بهذهِ الْفَضِيلَةِ وحملَكَ الجوّ؛ ولو أَنَّكَ خِفْتَ وكنْتَ على جَنَاحِي جَبْرِيلَ لا على طيَّارةٍ، لَخَافَ جَبْرِيلُ على جَنَاحِيهِ من حَطْمَةِ هذا المعنى الترابيّ الطاغيةِ الَّذِي يَحْكُمُ على الْأَحْيَاءِ بِالْمَوْتِ بلا موتٍ، لِأَنَّهُ الْأَذَلُّ وَالْخَضُوعُ وَالرَّذِيلَةُ.

وحملَكَ الجوّ إلى قُبَةِ السَّماءِ، وهنالكَ نَظَرَ الْعَالَمُ فرأى لِمِصرَ الناهضةِ عَلِمَهَا الْإِنْسَانِيَّ يَتَنَفَّسُ تحتَ الْكواكبِ.

وحملَكَ الجوّ إلينا، فلَمَّا رَفَعْنَا رُؤُوسَنَا لِإِثْرِكَ، رَفَعْنَاهَا في الْوَقْتِ بينِ شعوبِ الْأَرْضِ.

وَضَرَبْتَ يا جَنَاحَ مِصرَ في الْهَوَاءِ، وَأَعْنَانُ السَّماءِ^(١٠) مَمْلُوءَةٌ بِالزَّرْعِ^(١١) وَالْهَوَجَاءِ وَالْعاصِفِ، وَالسَّماءُ في فَصْلِهَا الْمَكْفَهَرِ الَّذِي تَخْلُعُ فِيهِ كُلُّ سَاعَةٍ وَتَلْبَسُ

(١) انفلتَ: تخلّصت.

(٢) مغامس: مبلل.

(٣) تلك كناية عن السحاب.

(٤) متطوّح: متمائل في كل اتجاه.

(٥) اللجة الأزلية: السماء.

(٦) تلك كناية عن أجواز الفضاء.

(٧) الغيث: المطر.

(٨) يلجم: يضع اللجام للحصان.

(٩) يُسرّجه: يضع السرج للحصان.

(١٠) أعنان، مفردة عنان، بالفتح: نواحيها.

(١١) الزرع: تردد الصوت كالجلجلة.

وَتَمَزَّقُ^(١) وَتَطْوِي، فَرِذْتَ بِجُزْأَتِكَ فِي بُرَاهِينِ الْقَضِيَّةِ الْمَصْرِیَّةِ بُرْهَانَ قُوَّةِ
الْمُخَاطَرَةِ، وَأَضَفْتَ إِلَى مَنَظِقِهَا وَضْعاً جَدِيداً مُفْهِماً مِنْ رُوحِ التَّضْحِيَةِ.

وِطَرْتَ بَيْنَ حَيَاةٍ وَمَوْتٍ فَجَعَلْتَهُمَا يَسْتَوِيَانِ فِي أَعْتِقَادِكَ؛ إِذْ وَصَلْتَ فِكْرَةَ
الْمَوْتِ بِسَرِّ الْإِيمَانِ، وَالْحَيَاةِ بِسَرِّ الْعَزِيمَةِ.

وَكُنْتَ رَجُلَ أُمْتِكَ بِإِنْكَارِ ذَاتِ نَفْسِكَ مِنْ أَجْلِهَا.

وَأَسْتَعْتَ لِلتَّارِيخِ بِوَضْعِكَ عُمُرَكَ الْمَحْدُودَ عَلَى الطَّيَّارَةِ، وَقَذَيْكَ بِهَا وَبِهِ فِي
مَسْنَحِ الْأَجَلِ.

وَتَجَرَّدْتَ لِلْأَبَدِيَّةِ لِتُعْطِيَ بِلَادَكَ: إِمَّا شَهِيدَ مَجْدٍ فِي الْآخِرَةِ، وَإِمَّا شَهِيدَةَ فَخْرٍ
فِي الدُّنْيَا.

وَكُنْتَ عَلَى طَيَّارَتِكَ الصَّغِيرَةِ الْمُتَطَارِدَةِ تَحْتَ أَلْرِيحِ، وَحَوْلَكَ رُوحُ الْهَرَمِ
الْأَكْبَرِ الْقَائِمِ بِإِرَادَةِ مِصْرَ وَكَأَنَّهُ مِسْمَارٌ مَدْقُوقٌ فِي كُرَّةِ الْأَرْضِ بَيْنَ الْقُطْبِ وَالْقُطْبِ.

وَأَنْتِ يَا «فَائِزَةٌ» يَا هَذِهِ الصَّغِيرَةُ الْخَارِجَةُ مِنْ مَالٍ صَاحِبِهَا وَجُهِدِهِ وَعَزِيمَتِهِ
كَمَا تَخْرُجُ الْقُوَّةُ مِنْ ضَعْفٍ، أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ تَرْتَفِعِينَ وَتَهْبِطِينَ بَيْنَ السُّحُبِ كَمَا
تَتَوَائِبُ الْفَرَّاشَةُ عَلَى النَّوَّارِ فِي رَوْضَةِ مُزْهَرَةٍ، وَإِذْ أَنْتِ تَفْتَقِينَ وَتُحَوِّكِينَ فِي مَلَاءَةِ
السَّحَابِ كَأَنَّكَ بِمُحَرِّكِكَ الدَّوَّارِ تُنْسِجِينَ فِي السَّمَاءِ بِمَغْزَلٍ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ صَفْقِ
أَلْرِيَّاحِ الْهُوجِ^(٢)، تَحْتَ السَّمَاءِ الْمُدْجَّجَةِ^(٣)، فِي كُبَّةِ الشِّتَاءِ^(٤)، كَأَنَّكَ مُنَاطِرَةٌ
تَجْرِي بَيْنَ الْعَزِيمَةِ فِي الْإِنْسَانِ وَالْعَزِيمَةِ فِي الطَّبِيعَةِ، وَإِذْ أَنْتِ بَيْنَ ذُنَابِ الْأَعَاصِيرِ،
وَنُومِرِ السَّحَابِ^(٥) وَسِبَاعِ الْغَيْمِ ذَوَاتِ اللَّبْدَةِ الْكَثِيفَةِ الْمُتَشَعِّعَةِ، كَأَنَّكَ بِصَوْتِكَ
وَأَزِيرِكَ تُطْلِقِينَ عَلَى وَحْشِ الْجَوِّ مِدْفَعاً رَشَاشاً يَتْرُكُهَا صَرَغِي،

وَإِذْ تَرَاكِ أَلْرِيحُ فَتَقُولُ عَنْكَ: رِيحُ صَنَعِهَا الْإِنْسَانُ. وَيَرَاكِ النَّجْمُ فَيَقُولُ: نَجْمٌ
أَفْلَتَ مِنَ النُّظَامِ الْأَرْضِيِّ. وَتَرَاكِ الْمَلَائِكَةُ فَتَقُولُ: وَيَحْكُ يَا أَبْنَى آدَمَ، كَأَنَّكَ بِمَا

(١) كناية عن المطر وطبيعة الشتاء.

(٢) الهوج، مفردة هوجاء أي المجنونة التي لا تستقر ولا تهدأ.

(٣) المدججة: المفعمة.

(٤) كبة الشتاء: عنفه وغزارته.

(٥) السحاب: الغيم.

خَلَقَهُ الْعَقْلُ تَطْمَعُ مِثًا فِي سَجْدَةٍ أُخْرَى كَالَّتِي سَجَدْنَا لَهَا لِأَدَمَ يَوْمَ خَلَقَهُ اللَّهُ .
... أَعْلَمْتِ إِذْ أَنْتِ كَذَلِكَ يَا «فَائِزَةٌ»، أَنَّ التَّارِيخَ الْمَصْرِيَّ سَيَحُولُكَ مِنْ
طَيَّارَةٍ إِلَى آيَةٍ كَايَةِ بَدْءِ الْخَلْقِ، لِأَنَّ فِيكَ بَدْءَ الطَّيْرَانِ فِي مِصْرَ؟

سلاماً يا فاتحَ الْجَوِّ الْمَصْرِيِّ . لَقَدْ أَجَالَتْ الْأَيَّامُ قِدَاحَهَا^(١) فَخَرَجْتَ الْقُرْعَةُ
عَلَيْكَ، وَأَوْحَى إِلَيْكَ الْوَاجِبُ آيَةً: بِسْمِ اللَّهِ مَضَعُهَا وَمَجْرَاهَا .
وَطُرْتَ فَإِذَا أَنْتِ بِهَا عَابِرٌ فَوْقَ الْحَاضِرِ لِتَجِيئَنَا مِنْ جَانِبِ الْمُسْتَقْبَلِ .
وَهَبَطْتَ عَلَيْنَا كَأَنَّكَ فِي بَرِيدِ السَّمَاءِ كِتَابٌ مَجْدٍ حَيٍّ لِلْوَطَنِيَّةِ الظَّافِرَةِ .
بَلْ كِتَابٌ قِصَّةٌ رَائِعَةٌ أَلْفَتْهَا الْعَوَاصِفُ مِنْ فِتْنَيْنِ: ثَوْرَةَ الْجَوِّ وَثَوْرَةَ نَفْسِكَ
الْمَصْرِيَّةِ . وَحَكَّتْهَا فِي صَوْتَيْنِ: زَفِيفِ الطَّيَّارَةِ وَصُرْخَةِ ضَمِيرِكَ الْوَطَنِيِّ . وَجَعَلَتْهَا
فَصْلَيْنِ: أَنْتِ وَالْمَجْهُولُ . أَلَا حَسْبُكَ مَجْدًا أَنْ يَحْيَا الشَّعْبُ كُلُّهُ بِضِعَةِ أَيَّامٍ فِي قِصَّتِكَ!

فَعَلَى مَهْدِ الْجَوِّ، وَفِي حَرِيرِ الشَّعَاعِ، وَتَحْتَ كِلَةِ السَّحَابِ - وُلِدَ لِمِصْرَ يَوْمٌ
تَارِيخِي .
وَخَرَجْتَ الْتَهَانِيَّةُ الَّتِي طَالَ احْتِبَاسُهَا^(٢) فِي الْقُلُوبِ الْمَصْرِيَّةِ لَا يُفْرَجُ عَنْهَا
لِأَنَّ سَجَانَهَا ظَلَمَ السِّيَاسَةَ .
وَاتَّجَهَتْ أَفْرَاحُ شَعْبٍ كَامِلٍ إِلَى الْفَتَى الْجَرِيءِ الَّذِي رَمَتْ بِهِ هِمَّتُهُ فَوْقَ هَاوِيَةِ
الْمَوْتِ فَتَخَطَّاهَا .
وَتَلَقَّى شَعُورُ الْأُمَّةِ رَسُولَهُ الْمِقْدَامَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لَهُ مُلْجَأٌ فِي خِطَابِهِ إِلَّا
شَعُورُهُ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ .
وَأَرْتَجَّ الْوَادِي كُلَّهُ كَأَنَّهُ غَمْدٌ يَتَقَلَّقُ حِينَ يُسَلُّ مِنْهُ السِّيفُ .
ثُمَّ أُهْدِيَتْ كَلِمَةُ مِصْرَ لِابْنِهَا الَّذِي كَتَبَ فِي جَوْهَا الْكَلِمَةَ السَّمَاوِيَّةَ الْأُولَى .
وَكَانَتْ سَاعَةً تَلَاشَى عِنْدَهَا الزَّمَنُ فَأَرْتَفَعَتْ مِنْهُ أَرْبَعَةُ آلَافِ سَنَةٍ وَهَتَفَ مَعَهَا
الْفَرَاعَنَةُ: بَوْرُكْتَ يَا «صَدُوقِي»!

(١) قِدَاحُهَا: كَأَسْهَا لَتَقْرَعَ فِيهَا عَلَى طَرِيقَةِ الْجَاهِلِيَّةِ . (٢) احْتِبَاسُهَا: سَجْنُهَا .

لِلَّهِ دُرُكٌ أَيُّمَا أَبْنِ عَزِيمَةٍ! كَأَنَّمَا كَشَفْتَ أَهَآوِيلَ الْوُخْيِ وَهَبَطْتَ فِي سَحَابَةٍ
مُجَلِّجِلَةٍ إِنْ لَمْ تَحْمِلْ كِتَابًا مُنْزَلًا فَكَأَنَّمَا حَمَلْتَ شَخْصًا مُنْزَلًا.
وَلَعَلَّكَ رَسُولُ الْغَيْمِ الْعَابِسِ لِهَذَا الْجَوِّ الْمَصْرِيِّ الَّذِي يَضْحَكُ دَائِمًا ضَحْكَةً
الْفِيلَسُوفِ السَّاحِرِ فِي حِينٍ أَصْبَحَتِ الْحَيَاةُ قُوَّةً لَا فِلْسَفَةً...
وَلَعَلَّكَ مَبْعُوثُ الْبَرْقِ وَالرَّعْدِ لِهَذَا السَّكُونِ النَّائِمِ الَّذِي يَطْوِي كُلَّ يَوْمٍ فِي طَيِّ
النَّسْيَانِ مَا حَدَثَ فِي أَيَّامِ الَّذِي قَبْلَهُ...
وَلَعَلَّكَ نَبِيُّ الْجَدْيَةِ وَالْمَرَارَةِ لِهَذِهِ الْحَلَاوَةِ الْنِيلِيَّةِ الْمُفْرِطَةِ الَّتِي كَادَ مِنْهَا
الشَّعْبُ أَنْ يَكُونَ سُكَّرَ أَخْلَاقٍ يُذَابُ وَيُشْرَبُ...
وَلَعَلَّكَ تَفْسِيرُ مَصْحَحٍ لِعَقِيدَتِنَا الْمَغْلُوطَةِ فِي الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ، أَنَّ الْقَضَاءُ أَنْ
تُقَدِّمَ بِلَا خَوْفٍ، وَأَنَّ الْقَدَرَ أَنْ تَتَّقِيَ بِلَا مُبَالَاهِ.
أَمَّا - وَاللَّهِ - لَقَدْ غَمَزْتَ الشَّعْبَ بِمَوْجَةِ هَوَاءٍ جَدِيدَةٍ جِئْتَ بِهَا فِي جَنَاحَيْكَ،
وَنَفَخْتَ رُوحَ طَيَّارَتِكَ الْمَجِيدَةِ فِي الْقُلُوبِ فَجَعَلْتَهَا كُلُّهَا تَرْفِرُ كَأَنَّ لَكَ فِي ضُلُوعِ
كُلِّ مِصْرِيٍّ طَيَّارَةً.

أجنحة المدافع المصرية

استجنحي^(١) يا مدافع مصرَ وطيري، إِنَّ المجدَ يطلبُ مِنّا إنسانَهُ البرقيّ . لقد
مدّت لُغَةُ الْقُوَّةِ في هذا العصرِ مَدَّها حتى أصبحَ الطَّيْرَانُ بعضَ معاني المشي، ولم
يَعِدِ الْعَالَمُ يدري كيفَ تكونُ الصُّورَةُ الْأَخِيرَةُ التي يستقرُّ فيها معنى إنسانِهِ .

فلتتمجّد مصرُ بأنسانها البرقيّ الذي تَخْرُجُ النَّارُ بيدهِ من أغراضِ السحابِ،
وتُفَرِّقُ في أصابعِهِ هَزَاتِ الرُّعْدِ، ويجعلُ في قُبَّةِ السَّمَاءِ صَلَصلةً وجَلْجَلَةً، ويحملُ
الاسمَ المصريَّ إلى مُعلَقِ النّجمِ، فيضعُ لَهُ هناكَ التَّعْرِيفَ النَّاريَّ الذي وضعتهِ
الْكَوَالِدُ الْعَظْمَى لِأَسْمَائِهَا .

ولتتمجّد مصرُ بإنسانها البرقيّ الذي يُشْعِرُهَا حَقِيقَةَ الْعُلُوِّ الْعَالِي، وَالْعُمُقِ
الْعَمِيقِ، وَالسَّعَةِ الَّتِي لَا تُحَدُّ؛ وَيَزِيدُ في معاني أَحْيَائِنَا معنىً جَدِيداً لِأَحْيَاءِ
السُّحُبِ، وفي معاني أَمْوَاتِنَا معنىً جَدِيداً لِمَوْتَى الْكَوَاكِبِ .

إنسانَ برقيّ يُتِمُّ بِشِجَاعَتِهِ في السَّمَاءِ بَطُولَةً فَلَا حِجَا لِلْإِنْسَانِ الشَّمْسِيِّ في
الْأَرْضِ، وَيَعْلُو بِكِبْرِيَاءِ مِصْرَ في ذِرْوَةِ الْعَالَمِ، فَتَظْهَرُ طَيَّارَاتُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً في
الْجَوِّ كَمَا ظَهَرَتْ آثَارُهَا الْعَظِيمَةُ قُدْرَةً في الثَّرَى .

إنّها مصرُ، مِصْرُ الْقَادِرَةِ الَّتِي سَجَرَتِ الْقَدَمَ بِقُوَّتِهَا وَفَتْهَا، فَبَقِيَ فِيهَا عَلَى
حَالِهِ وَجَلَالَتِهِ، وَأَنْهَزَمَ الْدَهْرُ عَنْهُ كَأَنَّهُ قُوَّةٌ عَلَى قُوَّةِ الزَّمَنِ نَفْسُهَا .

فاستجنحي يا مدافع مصرَ وطيري . إِنَّ المجدَ يطلبُ مِنّا إنسانَهُ البرقيّ .

وَلَمَّا فُتِحَ السَّجَلُ ذَاتَ صَبَاحٍ لِتَكْتَبَ مِصْرُ أَسْمَاءَ الْفَوْجِ الْأَوَّلِ مِنْ نُسُورِهَا
الْحَرْبِيِّينَ، صَاحَ مَجْدُهَا الْخَالِدُ مِنْ أَعْمَاقِ التَّارِيخِ :

«أَضْرَمِي الشَّعْلَةَ الْأَدَمِيَّةَ الْأُولَى يَا مِصْرَ، وَأَفْتَحِي الْقَبْرَ الْجَوِّيَّ الْأَوَّلَ، وَالْجِدِي

(١) استجنحي: اجعلي لنفسك جناحين .

فيه من عنصريك المسلمين والأقباط، وضّعي الحياة في أساس الحياة، وأستقبلي عصرك الجديد بأذان المسجد ودق الناقوس ليباركه الله، وليتلق الشعب أول طياريه بقلوب فيها روح المعركة، وأكباد عرفت مس النار؛ ولا ينظرن إلى طياراته الأول إلا بعد أن ينظرن العنشين فيرى مجد الموت في سبيل الوطن، فتسطع نظراته ببريق الكبرياء، ولمعة العزيمة، وشعاع الإيمان؛ ويأتلق فيها النور السماوي الذي يجعل الناس في بعض ساعاتهم كواكب، نور صلاة الشعب على موتاه الشهداء».

وأستجاب القدر لصوت المجد، فالتج^(١) الظلام في وضح الصبح، وأنطفأ سراج في النهار قبة أفلك، وأطبقت نواحي الجو إطباق ليلة تساقطت أركانها وأقبل الضباب يعترض اعتراض جبل عائم يتذبذب^(٢) في بحر، وأستأرض^(٣) السحاب فتخلّى عن طبيعته السماوية الرقيقة، وتدامرت^(٤) العناصر على القتال يحض^(٥) بعضها بعضاً، وتغشت^(٦) السماء بوجه الموت: كلح فازبد^(٧) وأنتفخ، وتكسرت فيه العضون كل غضن كسفة ظلام، وعاد أوسع شيء أضيق شيء، فكان الفضاء كصدر المحتضر: ليس معه إلا عمر ساعة وأنفاسها.

وابتدرت إلى مجد الموت الطيارة المصرية الأولى؛ وكان فيها إنكليزيان يقودانها فأباهما الموت، فذهبت فانتحرت أسفا وتردت متحطمة، وأنسل الرجال من مخالبا الردي^(٨)، وكانا في الطيارة كورقتين من اللب في قم جرادة همت تقضمها...

وتستبق الثانية فإذا فيها وديعة الكرم من عنصري مصر: «حجاج ودوس» وكان سرا من أسرار مصر اجتماعهما في مداحض الغمام ومزالقه، ليكونا هدية مصر الأولى إلى مجدها الحربي، ثم ليكونا هدية المجد إلى إحساس هذا الشعب يحس منهما العالم المنطوي له في مستقبل النصر.

واعتسفت^(٩) طيارة الشهيدين طريق الفناء ومثاه^(١٠) الحياة، فذهبت عنها

(١) التج: أصبح لجة.

(٢) يتذبذب: يتردد لوجوده في الهواء، ويتحرك. (٧) ارتد: تلبّد.

(٣) استأرض: تحول إلى أرض.

(٤) تدامرت: تداعت للاجتماع.

(٥) يحض: يحث.

(٦) تغشت: تغطّت.

(٧) ارتد: تلبّد.

(٨) الردي: الموت.

(٩) اعتسفت: مالت وخطبت على غير هداية.

(١٠) مثاه: صعوبة الحياة ومتطلباتها.

مَعَارِقِ الْأَرْضِ، وَغَمِيَتْ عَلَيْهَا مَعَالِمُ السَّمَاءِ، وَخَرَجَتْ مِنْ تَصْرِيفِ أَيْدِي
الْبَاطِلِينَ إِلَى تَصْرِيفِ أَجْلِهِمَا، وَأَصْبَحَتْ كَأَنَّهَا تَطِيرُ فِي الْأَنْفَاسِ الْبَاقِيَةِ لَهُمَا؛
فَمَا تَتَقَدَّمُ وَلَا تَتَأَخَّرُ؛ وَلَمْ تَكُنْ طَيَّارَةً تَحْمِلُهُمَا، بَلْ جَنَاحًا مَمْدُودًا لَهُمَا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ.

ثُمَّ أَجْتَرَّهَا الْمَوْتُ إِلَى غَوْرٍ، فَأَنْحَطَّتْ مِنَ الْهَوَاءِ جَانِحَةً كَالطَّائِرِ يَطْلُبُ مَلْجَأً
فِي الْعَاصِفَةِ، ثُمَّ أَنْتَهَضَتْ وَاثِبَةً، وَتَمَطَّرَتْ مَنْقَلِبَةً، فَأَشْتَعَلَتْ فَاسْتَعَرَتْ فَانْضَجَتْ
رَاكِبِيهَا، رَحِمَهُمَا اللَّهُ!

وَكثِيراً مَا يَكُونُ مَنْظَرُ الْحَزَنِ فِي الْحَيَاةِ هُوَ أَنَّهُمَا كَ الْحَيَاةِ فِي عَمَلٍ جَدِيدٍ تُبْدِعُ
مِنْهُ الْأَسْرُورَ وَالْقُوَّةَ. أَحْتَرَقَ الْبَطْلَانُ لِتَسَلَّمَ مَصْرُ فِي نَعَشِيهِمَا رَمَاداً لَنْ يُبْنَى تَارِيخُ
الْعِزَّةِ الْوُطَنِيَّةِ إِلَّا بِهِ.

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مَصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَنَّا إِنْسَانُهُ الْبَرَقِي.

صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ، وَوَضَعَتْ لَنَا الْأَسْمَ الْبَدِيعَ الَّذِي نُطْلِقُهُ عَلَى
طَيَّارِنَا الْأَبْطَالِ، فَلَا تُسَمُّوهُمْ نُسُورَ الْجَوِّ، وَلَكِنْ سَمُّوهُمْ «جَمَرَاتِ الْجَوِّ».

صَنَعَتِ نَارُنَا الْحَقِيقَةَ، وَأَوْحَتْ إِلَيْنَا أَنْ نَسْتَبْدِلَ مِنْ أَنْفُسِنَا حَالَةً بِحَالَةٍ، وَأَنْ
نُفَاجِيَّ شَعُورَنَا الْحَالِمَ فَصَدْمُهُ بِالْأَمِّ الْيَقْظَةِ الْمَرَّةَ، وَأَنْ نَغَيِّرَ قَاعِدَةَ الْحَيَاةِ فِي التَّرْبِيَةِ
الْمَصْرِيَّةِ فَلَا تَكُونُ: الْعَيْشُ الْعَيْشُ، وَلَكِنْ الْقُوَّةُ الْقُوَّةُ.

صَنَعَتِ النَّارُ الْحَقِيقَةَ، وَاثْبَتَتْ لَنَا أَنَّ الْحَيَاةَ إِنْ هِيَ إِلَّا أَدَاةٌ لِلْحَيِّ، وَلَيْسَ
الْحَيُّ أَدَاةً لِلْحَيَاةِ، فَلْيَتَصَرَّفْ بِهَا عَلَى قَوَانِينِ الرُّوحِ وَأَمَالِهَا فَيَسْمُوَ وَتَسْمُو، وَلَا
يَدْعُهَا تَتَصَرَّفُ عَلَى مَذَاهِبِ أَقْدَارِ الْمَادَّةِ وَتَصَارِفِهَا فَيُذَلِّهَا وَتُذَلِّهِ. وَفِي قَانُونِ
الرُّوحِ: لَا قِيَمَةَ لِعَالَمِ الْأَشْيَاءِ إِلَّا كَمَا تَصْلُحُ لَنَا؛ وَفِي قَانُونِ الْمَادَّةِ وَضْعُطَةُ الْحَيَاةِ:
كَمَا تَصْلُحُ لَنَا وَكَمَا نَصْلُحُ لَهَا...

بَلَى، قَدْ صَنَعَتِ النَّارُ الْأَدَمِيَّةُ الْحَقِيقَةَ، وَأَعْطَتْنَا قِصَّةَ الْحَرِيَّةِ كَامِلَةً فِي مَعْنَى
وَاحِدٍ: وَهُوَ أَنَّ هَذِهِ الْحَرِيَّةَ لِعَاشِقِيهَا كَأَجْمَلِ الْجَمِيلَاتِ لِلْمُتَنَافِسِينَ عَلَيْهَا: جَمَالُهَا
مَتَوَحِّشٌ، وَخَلَاعُهَا مُفْتَرَسَةٌ، وَظَرْفُهَا سَفَاكٌ لِلْدَمِّ.

فَاسْتَجِنِحِي يَا مَدَافِعَ مَصْرَ وَطِيرِي. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مَنَّا إِنْسَانُهُ الْبَرَقِي.

وإلى السماء يا «جَمَرَاتِ الْجَوْ»، فإذا أَسْتَوَيْتُمْ^(١) على السحاب، فليستِ
الطَّيَّارَةُ ثُمَّ طَيَّارَةٌ، بل حقيقة حَيَّةَ عاملةٍ للمجد، فلتحمل معناها المصريُّ من بَطْلِهَا
المصري.

وإذا سبَّخْتُمْ في مَهْطِ الْقَدَرِ، فليسَ الطَّيَّارُ ثُمَّ طَيَّاراً، بل حياةٌ عبقريةٌ أرسلتها
مصرُ تستنزلُ للحياةِ أقداراً سعيدة.

وإذا خُضَّيْتُمْ في الْمَغْرَكِ الضَّنْكِ^(٢) تتبعثُرُ فيه أَلْجَالُ على الرياح، فليسَ
الجسمُ المصريُّ هناك من لحم ودم، بل ناموساً طبيعياً ماضياً إلى غاية.

وإذا تَقَادَفْتُمْ في بحرِ الشَّمْسِ، فأنتم هناك على شِبَاكِ طَرَحْتُمُوهَا لِصَيْدِ أَيَّامٍ
مضيتِ تَلْتَمِعُ في تاريخِ مصر.

وإذا نَفَذْتُمْ من أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ، فأنظروها بأعينكم معالي مصر، وأفهموها
بقلوبكم ذاتيةِ الوطنِ المصريِّ تعلو وتعلو ولا تزالُ أبداً تعلو.

إنما الطَّيَّارَةُ وسلاحُها وطيارُها تَأْلِيْفٌ مِنَ الْإِنْسَانِيَّةِ وَالْعُنَاصِرِ، معناه في
العزيمة «لا بد». ومتى هَدَرَتِ الطَّيَّارَةُ هَدِيرَهَا فَإِنَّمَا تقولُ للبطلِ منكم: هَلُمَّ من
عالٍ إلى أعلى، إلى أَكْثَرِ علوًا، إلى أَقْصَى حدودِ الواجبِ على النفسِ حينَ يأخذُ
الواجبُ الكُلَّ وحينَ تُعْطِي النفسُ الكُلَّ.

فأستجنحي يا مدافعَ مصرَ وطيري. إِنَّ الْمَجْدَ يَطْلُبُ مِنَّا إِنْسَانَهُ الْبَرَقِيَّ.

(١) استويتم: ركبتم.

(٢) الضَّنْكِ: ضيق العيش.

أحاديث الباشا:

الطماطم السياسي . . .

كَانَ (م) : باشا رَحْمَهُ اللَّهُ - دَاهِيَةً مِنْ دُهَاةِ السِّيَاسَةِ الْمِصْرِيَّةِ، يَلْتَوِي مَرَّةً فِي يَدِهَا التَّوَاءَ الْحَبْلَ، وَيَسْتَوِي فِي يَدِهَا مَرَّةً اسْتَوَاءَ السَّيْفِ، وَلَا يُرَى أَبَدًا إِلَّا مِنْكُمْشًا مُتَحَرِّزًا^(١) كَأَنَّ لَهُ عَدُوًّا لَا يَدْرِي أَيْنَ هُوَ وَلَا مَتَى يَفْتَحِمُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ كَغَيْرِهِ مِنْ أَلْرُؤَسَاءِ الَّذِينَ كَانُوا آلَاتٍ لِلْكَذِبِ بَيْنَ طَالِبِ الْحَقِّ وَغَاصِبِ الْحَقِّ - يَعْرِفُ أَنَّ عَدُوَّهُ كَامِنٌ فِي أَعْمَالِهِ.

وَكَانَ ذَكِيًّا أَرِيبًا^(٢)، غَيْرَ أَنَّ مُلَابَسَتَهُ لِلْسِّيَاسَةِ الدَّائِرَةِ عَلَى مِحْوَرِهَا، جَعَلَتْ نِصْفَ ذِكَائِهِ مِنْ الذِّكَاءِ وَنِصْفَهُ مِنَ الْمَكْرِ؛ فَكَانَ فِي مُرَاوَعَتِهِ كَأَنَّ لَهُ ثَلَاثَةَ عُقُولٍ: أَحَدُهَا مِصْرِيٌّ، وَآخَرُ إِنْجِلِيزِيٌّ، وَالثَّلَاثُ خَارِجٌ مِنَ الْحَالِينِ.

وَبِهَذَا تَقَدَّمَ وَعَاشَ أَثِيرًا عِنْدَ أَلْرُؤَسَاءِ مِنَ الْإِنْجِلِيزِ، وَاسْتَمَرَّتْ مِجَارِيهِ مُطَرِّدَةً^(٣) لَدَيْهِمْ حَتَّى بَلَّغُوا بِهِ إِلَى أَلْوَزَارَةِ، إِذْ كَانَ حَسَنَ الْفَهْمِ عَنْهُمْ، سَرِيعَ الْاسْتِجَابَةِ إِلَيْهِمْ؛ يَفْهَمُ مَعْنَى أَلْفَظِهِمْ، وَمَعْنَى أَلْنِيَّةِ الَّتِي تَكُونُ وَرَاءَ أَلْفَظِهِمْ، وَمَعْنَى آخَرَ يَتَبَرَّعُ هُوَ بِهِ لِأَلْفَظِهِمْ . . . فَكَانَ هُوَ وَأَمثَالُهُ فِي رَأْيِ تِلْكَ السِّيَاسَةِ الْقَدِيمَةِ، رِجَالًا كَالْأَفْكَارِ: يُوضَعُ أَحَدُهُمْ فِي مَكَانِهِ مِنَ الْحَكْمِ كَمَا تُوضَعُ صِيغَةُ الشُّكِّ لِإِفْسَادِ الْيَقِينِ، أَوْ صِيغَةُ الْوَهْمِ لِتَوَلِيدِ الْخِيَالِ، أَوْ صِيغَةُ الْهَوَى لِإِيجَادِ الْفِتْنَةِ.

وَكَانَ صَدِيقِي (فَلَانٌ) - رَحْمَهُ اللَّهُ - صَاحِبَ سِرِّهِ (السَّكْرَتِيرِ)، وَقَدْ وَثِقَ بِهِ أَلْبَاشَا حَتَّى إِنَّهُ كَانَ يُعَالِنُهُ^(٤) بِمَا فِي نَفْسِهِ، وَبَيْئُهُ^(٥) هُمُومُهُ وَأَحْزَانُهُ، وَيَرَى فِيهِ دُنْيَا حُرَّةً يَخْرُجُ إِلَيْهَا كُلَّمَا ضَاقَتْ بِهِ دُنْيَا وَظِيفَتُهُ، وَيَسْتَعِيرُ مِنْهُ الْيَقِينَ أحيانًا بِأَنَّهُ لَا يَزَالُ مِصْرِيًّا لَمْ يَتَمَّ بَعْدُ تَحْوِيلُهُ فِي الْكُرْسِيِّ . . .

(١) مُتَحَرِّزًا: مُحْتَرَسًا.

(٢) أَرِيبًا: ذَكِيًّا.

(٣) مُطَرِّدَةً: مُتَدَاغَةً مُتَوَالِيَةً.

(٤) يُعَالِنُهُ: يَطْلَعُهُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ.

(٥) بَيْئُهُ: يَشْكُو لَهُ مَا يَعْانِيهِ.

فحدّثني الصديق بعد موت هذا الباشا قال: إنّه دعاه يوماً لِيُفَاتِحَهُ الرّأيَ في أمرٍ من أموره، ثمّ قال له: إنّ الرئيسَ الإنجليزي غيرُ مطمئن إليك لأنّ حقيقةً من الحقائق الصريحة ظاهرة على وجهك، فأنت تنظرُ إليه وكأنك تقول له بعينيك إنك مصريّ مستقل.

قال صاحبُ السرّ: لئن كان ذلك ما يُغضبُه إنّ الخطبَ لهيّن، فلستُ أنظرُ إليه بعدَ اليومِ إلّا من وراءِ نظارةٍ سوداء...

فضحك الباشا وقال: يا بُني، هذا الإنجليزي عندنا كالشيطان: ﴿إِنَّهُ يَرْنِكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا رَوْحَهُمْ﴾، ووالله يا بُنيّ إنّي لأشدُّ أنفةً منك، وإنّ صَدْرِي لَشَجِيّ^(١) ممّا أنا فيه من هذا الكُرب^(٢)، ولكُنّا - نحن الشرقيين - قد ضغنّا منذُ فقدنا الشخصيةَ الاجتماعيّة.

أترأكَ تفهمُ شيئاً لو قلتُ لك: رجلٌ، أسدٌ، جبلٌ، مدينةٌ، أسطولٌ؟ إنّ تركيبنا الاجتماعيّ شيءٌ كهذا الكلام: فيه من ضخامة اللفظِ بقدرٍ ما فيه من انحلالِ المعنى وأضحلاله. ولكلّ كلمةٍ إذا أُفردتْ معنى صحيحٌ يقومُ بها وتقومُ به، غيرُ أنّه يتحوّلُ في الجملةِ إلى معنى كلاً معنى.

أصبحَ الشرقيّ يعيشُ في أمّته على قاعدةٍ أنّه منفردٌ لا صلةَ بيّنه وبينَ الأطرافِ لا في الزمانِ ولا في المكانِ، ونسيَ معنى الحديثِ الشريف: «إِعملْ لِدُنْيَاكَ كَأَنَّكَ تَعِيشُ أَبَداً». فماذا كان يُريدُ أعظمُ المصلحينَ الاجتماعيّينَ من قوله: «كأنك تعيش أبداً»؟ إلّا أنّ يقرّرَ لأمّته أنّ الفردَ ينبوعُ الأجيالِ المُقبلةِ كلّها، فليعملَ لها ولنفسه كأنها موقوفةٌ عليه وكأنّه مستمرٌّ فيها.

هذه حكمةٌ إسلاميّةٌ دقيقةٌ، عندنا نحن لفظُها ولنسّا نعرفُ معناها، وعندَ الإنجليزي معناها ولا يعرفون لفظُها. أهُمُ المسلمون أم نحن؟

وعلى قاعدةٍ الانفرادِ أنفردَ كلُّ شيءٍ؛ فآثرَ الشرقيّ حياته على وطنه، وقدّمَ لذّته على واجبه، وتعاملَ بالمالِ في مواضعِ المُعاملةِ بالأخلاق؛ وكان طبيعياً مع هذا أن يختصرَ الدينَ اختصاراً يجعلُه مقداراً بينَ مقدارين، فلا هو دينٌ ولا هو غيرُ دينٍ؛ وبذلك يناسبُ فرديتهُ ويقعدُ تحتَ حكمِهِ وهو خارجٌ عليه؛ فترى الرجلَ من

(٢) الكرب: الضيق.

(١) شجي: حزين.

هذه الملائين يؤمن بالله وهو يحلف به كذباً على درهم، ويصلي ويفجر في يوم واحد، ويتعبد في نفسه ويخون سواه في وقت معاً.

ومتى كانت الحالة النفسية للأمة هي هذه الفردية ومصالحها ودواعيها، كان الكذب أظهر خلال هذه الأمة، إذ هو أنفراد الكاذب بحظه ومصالحه وداعيته؛ ولا يكذب عليك إلا من يرجو أن تكون مغفلاً، أو من قدر في نفسه أن المعاملة العامة في الأمة هي على قاعدة المغفلين. . . ويكذبون في هذا أيضاً فيسمونه حذاقاً وبراعة (وشطارة).

وإذا عم الكذب فشا منه الهزل؛ فكل كاذب هازل، وهل يجد الكاذب وهو يكذب إلا إذا كان مجنوناً؟ ومن الهزل ضرب هو المباشطة بالكذب، ومنه ضرب من كذب الحقائق، ومنه من كذب الخيال، وكيفما دارت الحال لا تجده إلا كذاباً.

ومتى صار الكذب أصلاً يعمل عليه، تقرر عند الناس أن الكلام إنما يقال ليُقَالَ فقط. أفلسنا ترى الرجلين إذا أخبر أحدهما صاحبه بالخبر فيه شيء من الغرابة أو البعد، لا يكلمه الآخر أول ما يتكلم إلا أن يسأله: صحيح؟ صدق؟

ولا أضرب على الأمة من هذه العقيدة - عقيدة أن الكلام يقال ليُقَالَ فقط - فإنها هي طابع الهزل على أخلاق الأمة، وعلى كل أحوالها، وعلى حكومتها أيضاً.

ومن الهزل والكذب ترانا مبالغين في كل شيء، حتى ليكون لنا الواحد كالآحاد في غيرنا فنجعل مائة بصفرين، نجيء بأحدهما من أعتياد الكذب على الحقيقة، ونجيء بالآخر من حقيقة إفلاسنا.

هذه مبالغة خطيرة، وأخطر ما فيها أننا نريد المبالغة في الدلالة على الأشياء، فتنقلب مبالغة في الدلالة علينا نحن، وعلى كذب طباعنا، وعلى قوضى العقل فينا. نعم وحتى تثبت أننا لا عزم لنا، من كونها مبالغة لا تدقيق في معناها؛ وأن لا صبر لنا، من أنها لا ثبات لحقيقتها المهزومة؛ وأن لا شدة لنا في طلب الحق، لأننا بها من أهل الغفلة في وصف الحق؛ وأننا لا نتمثل العواقب إذ نرسل الكلام إرسالاً ولا نخشى ما يكون من عاقبته.

وأيسر ما يفهم من هذه المبالغات التي أصبحت طريقة من طرق الشعب في التعبير، أن هذا الشعب لا يصلح في شيء إلا بالحكومة، فهو نفسه كالمبالغة، والحكومة له كالتصحيح؛ وهذه هي العلة في أن الشعب الكذوب يلجأ إلى حكومته

في كل كبيرة وصغيرة في العمل، كما أنها هي العلة في أن حكومته تكذب عليه بكل صغيرة وكبيرة في السياسة.

ومن أثر الكذب الشعبي والمبالغة الشعبية، ما نراه من اهتمام كل فرد بما يقول الناس عن أعماله، فيديرها على ذلك وإن قلت منفعتها، وإن فسدت حقيقتها، وإن جلبت عليه من الضرر في ماله ونفسه ما هي جالبة؛ فقاعدتهم هي هذه: ليس الشأن في الحياة للعمل في نفسه، ولكن فيما يقال عنه؛ فإن لم يقل شيء فلا تعمل شيئاً...

هذه يا بني أمة لا يكون حكامها إلا مبالغات أيضاً...

قال صاحب السر: وأرتفع من الطريق صوت بائع ينادي على سلعته: أحسن من التفاح يا طماطم...

فضحك الباشا وقال: هكذا يقولون لنا عن الطماطم السياسي العفن: إنه ليس تفاحاً وحسب، بل هو أحسن من التفاح...

إن الأمة لن تكون في موضعها إلا إذا وضعت الكلمة في موضعها، وإن أول ما يدل على صحة الأخلاق في أمة كلمة الصدق فيها، والأمة التي لا يحكمها الصدق لا تكون معها كل مظاهر الحكم إلا كذباً وهزلاً ومبالغة.

البك والباشا

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: جاء يوماً إلى زيارة الباشا رجل دخل عليّ متهللاً مشرق الوجه كأنه مُضَاءٌ من داخله بشمعة... وبترنج عطفاه كأنما تهزه أسرار عظمته؛ ويمشي متخلعاً كالمرأة الجميلة التي أثقلها لحمها وأثقلتها المعاني الكثيرة من أعين الناظرين إليها، وعلى شفثيه خيال من فكرة هؤلاء الكبراء المغرورين الذين لا يأمر أحدهم رجلاً صغيراً إلا ليُعَلِّمَهُ أَنَّهُ هو كبير، فيكون في الأمر شيئان: الأمر واللوم؛ وأقبل عليّ في هيئة شامخة لو نطقت لقلت: سُبِّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى. سُبِّحَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ فِي الْأَسَدِ شعرة جبارة خرج منها الأسد كله.

سُبْحَانَ اللَّهِ ولا إله إلا الله. هذا (فلان باشا) الذي قرأت في الصحف أمس أنهم أنعموا عليه برتبة الباشوية؛ خلقه الله من ترابٍ وحولت الرتبة هذا التراب الذي فيه إلى ذهب خالص... ينظر إليّ وبرغمه أن تقف عيناه عليّ وعلى الحائط؛ ولا تجد نفسه المزهوة سبيلاً إلى التعبير عن الرتبة إلا هذا الأزدراء المنبعث من شخصه العظيم لمن لم يكن كشخصه. ما بين أمس واليوم زاد هذه الزيادة الآدمية، أو كأنما كانت صورته خطوطاً فقط فوضعت فيها الألوان...

(باشا!) هذه ألباء وهذه ألألف وهذه ألشين الممدودة ليست حروفاً خارجة من الأبجدية العامة؛ فإن الأبجدية قد تجعل ألباء في بليد مثلاً، وألألف في أبله، وألشين الممدودة في شاهد زور مثلاً مثلاً... بل تلك حروف من حروف الدولة، منتزعة من قوة قادرة على أن تجعل حياة صاحبها من الشكل ما يسبغ ألفه على الحجر من شكل يمثال ينصب للعظيم.

قال: وكنت أعرف هذا الرجل، وهو رجل أمي لا يحسن إلا كتابة اسمه كما تكتب الدجاجة في الأرض... فكانت الرتبة عليه كإطلاق لفظ الحديقة على صخرة من الصخور الصلدة؛ وهذا مما يحتمله المجاز بعلاقة ما؛ ولكن الذي لا يسوغ في المجاز، ولا في مبالغ الاستعارة، ولا في خرافات المستحيل، أن

تزعَم الصخرة للناس أَنَّ لفظَ الْحَدِيقَةِ الَّذِي أُطْلِقَ عَلَيْهَا قَدْ أَنْبَتَ فِيهَا أَشْجَارَ
الْحَدِيقَةِ . . .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَأَسْتَأْذِنْتُ لَهُ عَلَى أَلْبَاشَا فَسَهَّلَ لَهُ الْإِذْنَ وَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ
أَصْبَحَ كَالْوَرَقَةِ الْمَبْصُومَةِ بِخَاتَمِ الدَّوْلَةِ، فَلَتَكُنْ مَا هِيَ كَائِنَةٌ فَإِنَّ لَهَا أَعْتَابَهَا. ثُمَّ
تَلَقَّاهُ تَلَقَّى الْهَازِلِ الْمُتَهَكِّمِ وَقَالَ لَهُ: أَهْنُتُكَ بِالتَّخْوِيِّ . . . مُبَارَكُونَ يَا بَاشَا. وَأَقْبَلَ
عَلَيْهِ وَبَسَطَ لَهُ وَجْهَهُ.

وَكَانَ فِي أَلْبَاشَا دُعَابَةٌ ظَرِيفَةٌ يُعْرَفُ بِهَا، وَهُوَ كَثِيرُ الْنَوَادِرِ وَالْمُلَحِّحِ، وَلَهُ
خَصِيصَةٌ عَجِيبَةٌ، فَيَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ كُذْسٌ مِنَ الْأَوْرَاقِ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَيْهِ يَنْظُرُ فِيهَا
وَيَقْرُؤُهَا وَيَتَذَبَّرُهَا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ يَسْتَمِعُ إِلَى مُحَدِّثِهِ وَيُرَاجِعُهُ وَيَرُدُّ عَلَيْهِ، فَيُصَرِّفُ
النَّاسَ وَالْأَوْرَاقَ فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ، وَيَسْتَعْمَلُ نَاحِيَتَيْنِ مِنْ فِكْرِهِ اسْتِعْمَالاً وَاحِداً لَا
يُخِلُّ بِالْإِصَابَةِ^(١) فِي شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ وَلَا مِنْ تِلْكَ.

ثُمَّ قَالَ لِلبَاشَا الْحَدِيثِ وَعَيْنُهُ إِلَى مَا بَيْنَ يَدَيْهِ: هَذِهِ أَوْرَاقُ سَرَقَةِ ثَوْرِ عَظِيمٍ،
فَكَمْ يُسَاوِي الثَّوْرُ الْعَظِيمُ الْآنَ . . . ؟

قَالَ صَاحِبُنَا الذَّكِيُّ الْفَطِنُ: إِذَا كَانَ مِنَ الثَّيْرَانِ الَّتِي تُعْرَضُ فِي الْمَعَارِضِ
وَتَنَالُ الْمَدَالِيَاتِ الذَّهَبِيَّةَ فَقَدْ يَنْعُدُ سَعْرُهُ وَيُغَالَى بِهِ.

قَالَ الْبَاشَا: نَعَمْ نَعَمْ، إِنَّ مِنَ الثَّيْرَانِ ثَيْرَاناً يُنْعَمُ عَلَيْهَا بِالْأَوْسَمَةِ، وَلَكِنَّ هَذَا
الثَّوْرَ الَّذِي سَأَلْتُكَ عَنْهُ يَا بَاشَا هُوَ ثَوْرٌ مُحَرَّاثٌ لَا ثَوْرٌ مُعْرَضٌ . . .

قَالَ الْآخَرُ: إِذَا كَانَ ثَوْرٌ مُحَرَّاثٌ فَمِثْلُهُ كَثِيرٌ فَلَا يَكُونُ ثَوْرًا عَظِيمًا كَمَا قُلْتَ
وَلَيْسَتْ لَهُ إِلَّا قِيَمَةٌ مِثْلُهُ.

قَالَ أَلْبَاشَا: أَرَانِي أَخْطَأْتُ، وَلَعَنَ اللَّهُ الْعَجَلَةَ، فَهَذِهِ أَوْرَاقُ سَرَقَةِ حِمَارٍ!

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَأَنْصَرَفْتُ عَنْهُمَا بِأَوْرَاقِي، وَقَدْ رَأَيْتُ يَدَ أَلْبَاشَا مَمْلُوءَةً
لِصَاحِبِنَا بِتَحِيَّاتٍ كُلِّهَا صَفْعَاتٍ؛ فَلَمْ يَكُنْ إِلَّا يَسِيرُ حَتَّى خَرَجَ مُبْتَهَجاً يَمِيدُ السَّرُورِ
بِعِطْفِيهِ. ثُمَّ دَعَانِي أَلْبَاشَا وَدَفَعَ إِلَيَّ بِطَاقَةً بِالْحَاجَةِ الَّتِي جَاءَ فِيهَا الرَّجُلُ، ثُمَّ قَالَ:

(١) لَا يَخِلُّ بِالْإِصَابَةِ: لَا يَخْطِئُ.

يا ليت لنا في ألقاب الدولة لقب (رحمه الله) . . . يُنعم به على مثل هذا.
أتدري يا بُنيَّ أن هذه ألقاب وهذه الألقاب لم تكن في القديم إلا كوضع علامة
الشر على أهل الشر ليها بهم^(١) الناس، حتى كأنما يُكتب على أحدهم من لقب بك
أو باشا: مُلحق بالدولة . . .

وكان الشعب أمياً جاهلاً لا يستطيع الإدراك ولا يُحسن التمييز، فكانت
الألقاب كالألقاب الشخصية الموضوعية في صيغة موجزة مفهومة متعينة الدلالة،
وكان كل من يحمل لقباً من الحكومة يستطيع أن يقول للناس: لقد وضعت
الحكومة كلمة الأمر في شفتي . . .

وكان ألقاب إعلان من الحكومة المستبددة لشعبها الجاهل: إن هذا البك
والباشا من يحق له أن يُحترم.

من الهزل أن يشتري اسم النصر الحربي أو يوهب أو يُعار؛ وأقبح منه في
باب الهزل أن يُنعم على مثل هذا الأمي بلقب باشا. وأنا أعرف أنه قد بذل في
سبيله ما بذل، وأضاع ما أضاع، فكان الذين منحوه إيَّاه لم يفعلوا شيئاً إلا وضع
توقيعهم على أخذ الثمن.

ولقد أصبح الرجل تحت تأثير الكلمة العظيمة مخبولاً بسخرها الوهمي،
فحبس ذلك إدخالاً له في وظيفة كل حاكم، وإشراكاً له في الحكم متى اقتضته
مجاري أمورهِ وأحواله، أو حاجات أسبابه وأتباعه؛ وها هو ذا قد جاء يطلب حقه،
فإن مثله لا يفهم من لقب (باشا) إلا أن الحكومة قد سوَّغت سلطته الظهور
والعمل، فمدت باعه وقوت أمره ونوَّهت^(٢) باسمه لمصالحها وعمَّالها؛ فهو عند
نفسه قد ألتحم منذ اليوم بالنسب الحكومي، وفي كلمة واحدة، هو قد وُلد من
بطن الحكومة . . .

ألا ترى أن الشعب لو استردَّ سلطته الكاملة، وأن الناس لو أيقنوا أن الألقاب
الفاظ فارغة من الأمر والنهي والوسيلة والشفاعة، لَمَا بقي من يعبأ بها، ولكان
حاملها هو أول من يسخر منها؟

فهي إذن شُعْبَةٌ^(٣) من الحكومة وتضليل في مثل هذا الرجل الأمي، وهي

(١) يهاب: يخاف.

(٢) نوّه: دلّ على فضله.

(٣) الشعبة: الشعوذة والدجل.

ضربَ مِنْ التَّهْوِيلِ وَالْمُبَالِغَةِ فِي سِوَاهُ مِنَ الْكِبَرَاءِ وَالْعُظَمَاءِ ، كَأَنَّ الْوَزِيرَ الَّذِي يُلقَّبُ
بِالْبَاشَا، يجعلُ فِيهِ لقبَهُ وَزِيرِينَ ، وكأنَّ مِثْلَ هَذَا الْأَمِيِّ الْمَغْفَلِ ، يجعلُ فِيهِ لقبَهُ
شَخْصاً ، آخَرَ غَيْرَ الْأَمِيِّ الْمَغْفَلِ . .

أنا قُلِّمًا رأيتُ رجلاً يحتاجُ إِلَى الْقَابِ يتعظَّمُ بِهَا إِلَّا وَهُوَ لَا يَحْتَاجُ إِلَيْهَا؛
فأينَ يَكُونُ مَوْضِعُ هَذِهِ الرِّبِّ وَالْأَلْقَابِ؟

ساكنو الثياب ..

قال صاحب سرّ (م) باشا: وجاءني يوماً أثنان من شيوخ الدين من ذوي هياتهم وأصحاب المنزل فيهم، كلاهما هامة وقامة، وجبة وعمامة، ودرجة من الإمامة؛ ولهما نسيم ينفخ عطرًا حسبته من ترويح أجنحة الملائكة؛ وعليهما من الوقار كظل الشجرة الخضراء في لهب الشمس تفيء به يمنة ويسرة. فتوجّهت إليهما بنظري، وأقبلت عليهما بنفسي، ووضعْتُ حواسي كلّها في خدمتهما؛ وقلت: هؤلاء هم رجال القانون الذي مادته الأولى القلب.

ما أسخف الحياة لولا أنّها تدلّ على شرفها وقدرها ببعض الأحياء الذين نراهم في عالم التراب كأنّ مادتهم من السُحب، فيها لغيرهم الظلّ والماء والانسيم، وفيها لأنفسهم الطهارة والعلو والجمال؛ يثبتون للضعفاء أنّ غير الممكن ممكن بالفعل، إذ لا يرى الناس في تركيب طباعهم إلا الإخلاص وإن كان جرماناً، وإلا المروءة وإن كانت مشقة، وإلا محبة الإنسانية وإن كانت الماء، وإلا الجِدُّ وإن كان عناء، وإلا القناعة وإن كانت فقراً.

هؤلاء قوم يؤلّفون بيد القدرة، فهم كالكتب قد أنطوت على حقائقها وخُتمت كما وُضعت، لا تستطيع أن تُخرج للناس من حقيقة نصف حقيقة ولا شبه حقيقة ولا تزويراً على حقيقة.

وما أعجب أمر هذه الحياة الإنسانية القائمة على النواميس^(١) الاقتصادية! فالسماء نفسها تحتاج فيها إلى سماسرة لعرض الجنة على الناس بالثمن الذي يملكه كل إنسان وهو العمل الطيّب.

قال: ونظرْتُ إلى الشيخين على اعتبار أنّها من بقية النبوة العاملة فيها شريعة نفسها. تلك الشريعة التي لا تتغيّر ولا تبدّل كيلا يتغيّر الناس ولا يتبدّلوا. ثمّ سألتُهما عن حاجتهما، فإذا أحدهما قد عمل أبياتاً من الشعر جاء يمدح بها أباشا

(١) النواميس، مفردة ناموس وهو القانون.

لِيَزْدِلِفَ إِلَيْهِ؛ فَقُلْتُ فِي نَفْسِي: «مَا أَشْبَهَ حَجَلَ الْجِبَالِ بِالْوَانِ صَخْرَهَا!» هَذَا عَالَمٌ دُنْيَا يَحْدُثُهَا مِنْ الشَّرْقِ الرَّغِيفُ، وَمِنْ الْغَرْبِ الدِّينَارُ، وَمِنْ الشَّمَالِ الْجَاهُ، وَمِنْ الْجَنُوبِ الشَّيْطَانُ . . .

ثُمَّ نَشَرَ رَقَةً فِي يَدِهِ وَأَخَذَ يَسْرُدُ^(١) عَلَيَّ الْقَصِيدَةَ، وَهِيَ عَلَى رَوِيِّ الْهَاءِ، تَنْتَهِي أَيْبَاتُهَا: هَا. هَا. هَا. فَكَانَ يَقْرُؤُهَا شِعْراً - أَوْ كَمَا يُسَمِّيهِ هُوَ شِعْراً - وَكُنْتُ أَسْمَعُهَا أَنَا قَهْقَهَةً مِنَ الشَّيْطَانِ الَّذِي رَكِبَ أَكْتَافَ هَذَا الْعَالَمِ الدِّينِيِّ: هَا. هَا. هَا. هَا. . .

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَأَدْخَلْتُهُمَا عَلَى أَلْبَاشَا، فَوَقَفَ الْمَدَّاحُ يَمْدَحُ بِقَصِيدَتِهِ، وَأَخَذَتْ لِحِيَّتُهُ الْوَافِرَةَ تَهْتَزُّ فِي إِنْشَادِهِ كَأَنَّهَا مِنْقَضَةٌ يَنْفُضُ بِهَا الْمَلَلُ عَنْ عَوَاطِفِ أَلْبَاشَا. . . وَكَانَ لِلْآخِرِ صَمْتُ عَامِلٍ فِي نَفْسِهِ كَصَمْتِ الطَّبِيعَةِ حِينَ تَنْقَطِرُ^(٢) الْبَذْرَةَ فِي دَاخِلِهَا، إِذْ كَانَتْ الْحَاجَةُ حَاجَتَهُ هُوَ، وَإِنَّمَا جَاءَ بِصَاحِبِهِ رَافِداً وَظَهيراً يَحْمِلُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَاللَّيْلَ وَالْغَيْثَ، لِيَتَقَلَّبَ الْأَشْيَاءَ حَوْلَ الْمَمْدُوحِ فَيَأْخُذَهُ السَّخَرُ، فَيَكُونُ جَوَابُ الشَّمْسِ عَلَى هَذِهِ الَّلُغَةِ أَنْ تُضِيءَ يَوْمَ الشَّيْخِ، وَجَوَابُ الْقَمَرِ أَنْ يَمْلَأَ ظِلَامَهُ، وَجَوَابُ اللَّيْلِ أَنْ يَفْتَرَسَ عَدُوَّهُ، وَجَوَابُ الْغَيْثِ أَنْ يَهْطَلَ عَلَى أَرْضِهِ.

وَأَلْبَاشَا لَا يَدْعُ^(٣) ظَرْفَهُ وَدُعَابَتَهُ، وَكَانَ قَدْ لَمَحَ فِي أَشْدَاقِ الْعَالَمِ الْمَتَشَاعِرِ أَسْنَاناً صِنَاعِيَةً، فَلَمَّا فَرَّغَ مِنْ نَظْمِهِ الرِّكِيكِ قَالَ لَهُ: يَا أَسْتَاذُ، أَحْسِبْنِي لَا أَكُونُ إِلَّا كَاذِباً إِذَا قُلْتُ لَكَ: لَا فَضَّ فُوكَ.

ثُمَّ ذَكَرَ الْآخِرُ حَاجَتَهُ: وَهِيَ رَجَاؤُهُ أَنْ يَكُونَ عِمْدَةُ الْقَرْيَةِ مِنْ ذَوِي قَرَابَتِهِ لَا مِنْ ذَوِي عِدَاوَتِهِ. فَقَالَ لَهُ أَلْبَاشَا: وَلِقَرِيَّتِكُمْ أَيْضاً أَبُو جَهْلٍ . . . ؟

وَلَمَّا أَنْصَرَفَا قَالَ لِي أَلْبَاشَا: لِأَمْرِ مَا جَعَلَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ لِأَنْفُسِهِمْ زِيّاً خَاصّاً يَتَمَيَّزُونَ بِهِ فِي النَّاسِ، كَأَنَّ الدِّينَ بَابٌ مِنَ التَّحَرُّفِ وَالتَّصَرُّفِ، بَعْضُ الْكَيْفِ فِي ثِيَابِهِ؛ فَهَؤُلَاءِ يَسْكُنُونَ الْجُبْنَ وَالْقَفَاطِينَ وَكَأَنَّهَا دَوَاوِينُهُمْ لَا ثِيَابُهُمْ . . .

قَدْ أَفْهَمُ لِهَذَا مَعْنَى صَحِيحاً إِذَا كَانَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ مُحْصِوْراً فِي وَاجِبَاتِ

(١) يسرد: هنا بمعنى ينشد.

(٢) تنقطر: يترك.

(٣) يدع: يترك.

عمله كالجندي في معاني سلاحه، فيكون العظيم والتوقير لثوب العالم الديني كأداء التحية للثوب العسكري: معناه أن في هذا الثوب عملاً سامياً أوله بيع الروح وبذل النفس وترك الدنيا في سبيل المجتمع؛ هذا ثوب الموت يفرض على الحياة أن تعظمه وتجله، وثوب الدفاع تجب له الطاعة والانقياد، وثوب القوة ليس له إلا المهابة والإعزاز في الوطن.

ولكن ماذا تصنع الجبة اليوم؟ إنها تطعم صاحبها...

أثر الجيش معروف في دفاع الأمم العدوّة عن البلاد، فأين أثر جيش العلماء في دفاع المعاني العدوّة عن أهل البلاد، وقد احتلت هذه المعاني وضربت وتملكت وتركت هذا العالم الديني في ثوبه كالجندي المنهزم: يحمل من هزيمته فضيحة ومن ثوبه فضيحة أخرى؟

أنت يا بني قد رأيت (الشيخ محمد عبده) وعرفته؛ فرحم الله هذا الرجل، ما كان أعجب شأنه! لكأنه - والله - سحابة مطوية على صاعقة. ولو قلت إنه قد كان بين قلبه ورأسه طريق لبعض الملائكة. لآشبه أن يكون هذا قولاً.

كان يزورني أحياناً فأراني مرعماً على أن أقدم له مجلسين أحدهما قلبي. وكان له وجه يأمر أمراً، إذ لا تراه إلا شعرت به يرفعك إلى حقيقة سامية.

رجل نبت على أعراق^(١) فيها إبداع المبدع العظيم الذي هيأه لرسالته، فعواصفه كالعطر في شجرة العطر الشديدة، وشمائله كجمال السماء في زرقه السماء الصافية، وعظمته كزوجة البحر في منظر البحر الصاخب. وكثيراً ما كان يتعجب من هذا أستاذه (السيد جمال الدين الأفغاني) فيسأله مندهشاً: بالله قل لي: أبن أي ملك أنت؟

لم يكن ابن ملك ولا ابن أمير، ولكنه ابن القوّات الروحية العاملة في هذا الكون؛ فهي أعدته، وهي ألهمته، وهي أنطقته، وهي أخرجته في قومه إعلاناً غير كتمان، ومُصارحة غير مُخادعة، وهي جعلت فيه أسديّة الأسد، وهي ألقت في كلامه تلك الشهوة الروحية التي تذاق وتُحب، كالحلاوة في الحلوى.

هذا هو العالم الديني: لا بد أن يكون ابن القوّات الروحية، لا ابن الكتب

(١) أعراق: أصول.

وحدها، ولا بد أن يخرج بعمله إلى الدنيا، لا أن يدخل الدنيا تحت سقف الجامع . . .

وأنا فما ينقضي عجبي من هؤلاء العلماء الذين هم بقايا تتضاءل بجانب الأصل؛ يبحثون في سنن النبي ﷺ: كيف كان يأكل ويشرب ويلبس ويمشي ويتحدث؛ كأنهم من الدنيا في قانون المائدة، وآداب الولائم، ورؤوس المجتمعات؛ أما تلك الحقيقة الكبرى، وهي كيف كان النبي ﷺ يقاتل ويحارب لهداية الخلق، وكيف كان يسمو على الدنيا وشهواتها؟ وكيف كان بطباعه القوية الصريحة تعديلاً فعلاً في هذه الإنسانية للنواميس الجائرة؟ وكيف كان يحمل الفقر ليكسر به شرّة^(١) النواميس الاقتصادية التي تقضي بجعل الأخلاق أثراً من آثار السعة والضيق، فتخرج من الغني متعافياً ومن الفقير لصاً؟ وكيف استطاع ﷺ بفقره السامي أن يحول معنى الغنى في نفوس أصحابه، فيجعله ما أستغنى عنه الإنسان من شهوات الدنيا وترك، ما نال منها وجمع؟ أما هذا ونحوه من حقائق النبوة العاملة في تنظيم الحياة، فقد أهملوه، إذ هو لا يوجد في الكتب وشروحيها وحواشيها^(٢)، ولكن في الحياة وأثقالها وأكدارها؛ وبذلك أصبح شيوخنا من الأمة في مواضع لم يضعفهم فيها الدين ولكن وضعفهم فيها الوظيفة.

ألا ليتهم يكتبون على أبواب الأزهر هذه الحكمة: سئل بعض العرب: بم ساد فلان فيكم؟ قالوا: أحتجنا إلى علمه وأستغنى عن دنيانا . . .

(١) شرّة: شدة وقسوة.

(٢) حواشيها، مفردة حاشية، وهي مكان يوجد في ذيل الصفحة، تكتب شروحات على ما غمض من المعاني في الصفحة.

الأخلاقُ المحاربة

وحدّثني صاحبُ سرٍّ (م) باشا بهذا الحديث قال: كُنّا في ثورة سنة ١٩١٩ سنة الهزاهز^(١) وألفِتَن، وقد تفاقمت^(٢) الثورة، وأخذَ الشّبابُ يعملُ ويُفكرُ فيما يستطيعُ أنْ يعملَ، وما يجبُ أنْ يعملَ؛ وكانَ السُّخْطُ العامُّ هو ميراثُ الوقتِ، فكانتْ قلوبُ الشّعبِ تُلهِمُ واجباتها إلهاماً، إذ لم يكنْ في هذه القلوبِ كلّها إلاّ لدعةُ الدّمِ تُعيّنُ اتّجاهَ أعمالها وتحدّده.

كانتِ الثورةُ زلزلةً وقعتْ في التاريخ، فجاءتْ تحتَ زمنٍ راكِدٍ لا يتغيّرُ إلاّ بأنْ يُنسَفَ، ولا ينسِفُهُ إلاّ مادّةُ إلهيّةٌ كالحرّكةِ الكونيّةِ التي تُخرِجُ اليومَ الجديدَ مِنَ اليومِ القديمِ؛ فكانَ القَدَرُ يعملُ بأيدي الإنجليزِ عملاً مصرياً، ويعملُ بأيدي المصريينِ عملاً آخرَ.

وتعلّمَ الشّعبُ من دُفنِ شُهداءِهِ كيفَ يَسْتَنْبِتُ الدّمَ فيُنْبِتُ بِهِ الحريّةَ، وكيفَ يزرعُ الدّمَ فيُخرِجُ منه العزمَ، وكيفَ يَسْتُمِرُّ الحزنَ فيُثمرَ لَهُ المجدَ.

وكانَ رصاصُ الإنجليزِ يُصِيبُ هَدَفينِ معاً: فيصرعُ شهداءُنا، ويقتلُ المَوتَ السّياسيّ الَّذي احتلَّ مَعَهُم هذه البلادَ. وقد أنعموا على الشّعبِ بِالصّدمةِ الأولى، فنشبتِ المعركةُ التي تُقاتلُ فيها الأخلاقُ القوميةُ لِتنتصرَ؛ وشعرتْ مصرُ في جَهادِها بأنّها مصرُ، فالتّمسَّ رُوحُها التّاريخيّ رمزَهُ العَظيمَ في الأمّةِ ليظهرَ فيه عاتياً جباراً؛ فكانَ هذا الرّمزُ الجليلُ العَظيمُ هو سعد زغلول.

قالَ صاحبُ السّرِّ: وكانَ الطّلبةُ قد غَدَوْا من أولِ ألّهارِ يتظاهرونَ، وقد جعلتُهُمُ الثورةُ كألّرواحٍ تخلّصتْ مِنَ المَوتِ بِالمَوتِ فلا تخشاهُ ولا تُبالِيه، واستقلّتْ عَنِ العَقلِ بتحوّلِها إلى شعورٍ مَحضٍ، وخرجتْ عَنِ القَوانينِ كُلّها إلاّ القانونَ الخفّي الَّذي لا يَعْلَمُ ما هو.

(١) الهزاهز: الثورات وعدم الاستقرار السياسي. (٢) تفاقمت: امتدت وعظمت.

كانوا في معاني قلوبهم لا في غيرها، فليست تراهم إلا عظماء في عظمة المبدأ الذي ينتصرون له، أقوياء في قوة الإيمان الذي يعملون به، أجلاء في جلال الوطن الذي يحيون ويموتون في سبيله.

وكانوا في الشعب هم خيال الأمة العامل المدرك، وشعورها الحي المتوثب، وقواها البارزة من أعماقها، وأملها الزاحف ليَقهر الصعوبة.

يَفادُونَ بأنفسهم الغالية ويؤثرون عليها، وليس في أحد منهم ذاته ولا أغراض شخصيه. فما أجل وما أعظم! وما أروع وما أسمى! أيُّها الحياة! هل فيك أشرف من هذه الحقيقة إلا حقيقة النبوة؟

قال: وكان أخي هو زعيم هؤلاء الطلبة في مدينتنا؛ قوي على الزعامة وفي بها؛ يحمل قلباً كالجمرة الملتهبة، وله صوت بعيد تحسب الرعد يُقَعِّعُ^(١) به. إذا مشى في جهاده كان كل ما على الأرض تراباً تحت قدميه، فلا يمشي إلا مُحْتَقِراً هذه الدنيا وما فيها، غير مقدس منها إلا دينه ووطنه؛ وسلاحه أن كل شيء فيه هو سلاح على الظلم وضد الظلم.

وكان في ذلك اليوم يقود «المظاهرة»، وحوله جماعة من خالصته وصفوة إخوانه، يمشون في الطلبة تحت جو متقد كأن فيه غضب الشباب، عنيف كأنما أمتزج به السخط الذي يفورون به، رهيب كأنه متهيب لينفجر؛ فلما بلغوا موضعاً من الطريق ينعطفون عنده أنصب عليهم المدفع الرشاش...

قال: فإني لجالس بعد ذلك في الديوان إذ دخل علي أخي هذا ينتفض غضباً كأن المعاني تنبعث من جسده ليقاقل، ورأيت له عينين ينظر الناظر فيهما إلى النار التي في قلبه؛ فخشيت أن يكون القوم أطلقوا عليهم الجنون والرصاص معاً.

وأستنبأته^(٢) خبر أصحابه فقال: إن الذين كانوا حوله وقعوا يتشخطون^(٣) في دمائهم، فوقف هو شاخصاً إليهم كأنه ميت معهم، وقد أحس كأنما خلع عن جسمه نواويس الطبيعة، فلا يعرف ما هي الحياة ولا ما هو الموت؛ وكان الرصاص يتطاير من حوله كأن أرواح الشهداء تتلقاه وتبعثره لا يناله بسوء. قال: وما أنسى لا

(١) يققع: يصدر أصواتاً عنيفة راعدة.

(٢) استنبأته: سأله عن أصحابه.

(٣) يتشخطون: يتخبطون بدمائهم.

أنسى ما رأيته في تلك الساعة بين الدنيا والآخرة؛ فلقد رأيت بعيني رأسي الدم
المصريّ يسلم على الدم المصريّ، ويسعى إليه فيعانقه عناق الأحاب.

ثم قال: أين هذا الباشا؟ وما باله لم يصنع شيئاً في الاحتياط لهذه الفورة؟
يكاذ الخزي - والله - يكون في هذه الوظائف على مقدار المرتب...

قال صاحب السر: ولم يتم كلمته حتى خرج علينا الباشا متكسراً الوجه من
الحزن قد تغرغرت عيناه، فأخذ بيد أخيه إلى غرفته وتبعتهما، ثم قال: هوناً ما يا
بني، إن العلة فيكم أنتم يا شباب الأئمة، فكل ما أبئلين أو نبئلي به هو مما يستدعيه
خمولكم وتستوجبهُ أخلاقكم المتخاذلة؛ إننا من غيركم كالمدافع الفارغة من
ذخيرتها: لا تصلح إلا شكلاً، وبهذه العلة كان عندنا شكل الحكومة لا الحكومة.

أندري يا فتى ما هي الحكومة الصحيحة في مثل حالتنا؟ هي أن تحكموا أنتم
في الشعب حكومة أخلاقية نافذة القانون، فتضبطوا أخلاق النساء والرجال،
وتردوها كلها أخلاقاً محاربة لا تعرف إلا الجِدَّ والكرامة وصرامة الحق؛ وإلا فكما
تكونون يولى عليكم...

هذا وحده هو الذي يُعيد الأجانب إلى رُشدِهِم وإلى الحقيقة، فما أراهم
يعاملوننا إلا كأننا ثياب معلقة ليس فيها لباسوها...

كيف يتصعلك^(١) المصريّ للأجنبيّ لو أن في المصريّ حقيقة القوة النفسية؟
أترى بارجة حريّة تتصعلك لزورق صيد جاء يرتزق؟

إن في بلادنا المسكينة الأجانب، وأموال الأجانب، وغطرسة^(٢) الأجانب؛ لا
لأن فيها الاحتلال، كلا، بل لأن فيها ضعف أهلها، وغفلة أهلها، وكرم أهلها...
بعض هذا يا بنيّ شبيه ببعض، وإلا فما هو كرم الشاة الضعيفة إلا لذة لحمها...؟

نريد لهذا الشعب طبيعة جدية صارمة، ينظر من خلالها إلى الحياة فيستشعر
ذاته التاريخيّة المجيدة فيعمل في الحياة بقوانينها؛ وهذا شعور لا تحدثه إلا طبيعة
الأخلاق الاجتماعيّة القويّة التي لا تتساهل من ضعف، ولا تتسمخ من كذب، ولا
ترخص من غفلة. والحقيقة في الحياة كالحقيقة في المنطق: إذا لم يصدق البرهان

(١) يتصعلك: يتصاغر.

(٢) غطرسة: تكبر وتجب.

على كلِّ حالاتها، لم يَصْدُقْ على حالةٍ من حالاتها؛ فإذا كنَّا ضعفاءَ كُرماءَ، أعزَّاءَ، سادةً على التاريخِ القديمِ، فنحن ضعفاءٌ فقط . . .

إنَّ الكبراءَ في الشرقِ كلِّه لا يصلحونَ إلَّا للرأي، فلا تُسوموهم غيرَ هذا، فهم قد تلقَّوا الدرسَ من أغلاطهم الكثيرة، وبهذا لَن تفلحَ حكومةٌ سياسيَّةٌ في الشرقِ الناهضِ ما لم يكن شبابُها حكومةً أخلاقيَّةً يُمِدُّها من نفسه ومن الشعبِ في كلِّ حادثةٍ بالأخلاقِ المحاربةِ.

يا بُنَيَّ، إنَّ القويَّ لو اتَّفَقَ معَ الضعيفِ على كلمةٍ واحدةٍ لا تتغيَّر، لكانَ معناها لِأقوى أكثرَ ممَّا هو لِالأضعف؛ فإنَّ هذا الأقويَّ الَّذي يعملُ معَ الضعيفِ يكونُ فيه دائماً شخصٌ آخرٌ مختلفٌ، هوَ الأقويُّ الَّذي يعملُ معَ نفسه.

هكذا هيَ السياسةُ؛ أمَّا في الإنسانيَّةِ فلا، إذ يكونُ الحقُّ دائماً بينَ اثنينِ أقوى مِنَ الاثنينِ.

خضع بخضع . . .

وقال صاحب سر (م) باشا فيما حدثني به: جاء ذات يوم قنصل (الدولة الفلانيّة) من هذه الدول الصغيرة؛ التي لو عَلِمَ الذبابُ في بلادها أن في مصر امتيازات أجنبيّة، لطمعت كل ذبابة أن يكون لها في بلادنا اسم الطيارة الحربيّة

ورأيتُه قد دخل عليّ شامخاً باذخاً متجبّراً، كأنه قبل أن يجرى إلى هذا الديوان لمقابلة الحاكم المصري - قد تكلم في (التلفون) مع إسرافيل يأمره أن يكون مستعداً للتفخ في الصور

جنى ضلوك من رعايا دولته على مصري، فأخذ كما يؤخذ أمثاله، وقضى ساعة أو ساعتين بين أيدي المحققين يسألونه الأسئلة الأليّة التي تحيط بتعريفه من ظاهره، ولا يشبهها في سخافة المعنى إلا أن يسألوه عن ثيابه من أي مصنع هي في أوربا فزعم القنصل أنه كان يجب أن يكون حاضراً يشهد التحقيق، لأنّ جناية أجنبي على مصري تقع أجنبيّة . . . فلها شأن ورعاية وامتياز، وأدعى أنّ المحققين ضايقوا المجرم وعاسروه وتجهّموه بالكلام، ولهذا جاء يحتج .

ورأيتُه جلس متوقفاً كأنما يشعر في نفسه أنه أثقل من مدفع ضخّم، لأنّ في نفسه وهم القوة؛ وخيل إليّ أنه يرى موضعه بين السقف والأرض؛ إذ يحمل في رأسه فكرة أنه الأعلى، وكانت له هيئة صريحة في أن الأجنبي المقيم هنا ليس هو كل الأجنبي، بل لا تزال منه بقيّة تُتمّمها دولته، وفي الجملة كان الرجل كلمة واضحة مفسّرة تنطق بأنّ للقانون المصري قانوناً يحكمه في بلاده!

وأنا قد درستُ القانون الدولي، وعرفت ما هي الامتيازات وما أصلها، وهي لا تعدو كرم الأرنب التي زعموا أنها كانت تملك حماراً وترتفق به، فسألتها أرنب أخرى أن تُرِدَ فها خلفها، فلما اندفع بهما الحمار أستوطأته، فقالت لصاحبتها: يا أختي، ما أفرّة حمارك! ثم سكّت مدة وأعجبها الحمار فقالت: يا أختي، ما أفرّة حمارنا! . . .

وكنّا - نحن الشرقيين - من الضعيف والغفلة؛ بحيث لم نبلغ مبلغ الأرنب في حكميتها وتديبيرها وحذرها، فإنّها أسرع ودفعت صاحبتها وقالت لها: إنزلي - ويلك - قبل أن تقولي: ما أفرّة حماري.

قال: غير أنّي في تلك الساعة نسيت القانون الدولي وكنت في إلهام مصريّ وحدها، فظهر لي ظهوراً بيّناً أن لا شيء أسمه القانون ألحق في هذه الدنيا؛ ولكنّ هناك اتفاقاً بين كلّ خضوع وكلّ تسلط، هو قانون هاتين الحالتين بخصوصيهما. وأسرعّت إلى الباشا فأنبأته، وأسرع الباشا فغيّر وجهه، وتبسّط، وتهلّل، وتهيأ بهذا لاستقبال القدام العزيز، كأنه أخصّ محبيه يتطلّع إلى مؤانسته، وقد جاء يزوره في داره. ثمّ دخل القنصل، ولم أسمع ممّا دار بينهما إلّا الكلمة الأولى، وهي قول الباشا: لنبدأ يا سيدي من الآخر...

وكانت في الباشا موهبة عجيبة في اختلاب^(١) الأجانب خاصّة، يُديرهم بلبّاقة كالخاتم في إصبعه؛ حتى قال لي أحدهم: إنّ لهذا الباشا حاسة زائدة، لو سُميت حاسة الإرضاء لكان هذا أسمها الطبيعي، وإنّه يعمل بها كما يعمل المفكر بتفكيره؛ فهو يبتكر الأساليب الغريبة التي يصعد ويهبط بها ميزان الحرارة النفسية، وإنّ جلسته يكاد يشعر من مهارته في التمثيل أنّ في جو المكان ستاراً يُرفع وستاراً يُسدّل بين الفصول.

فما لبث القنصل أن خرج بغير الوجه الذي دخل به، ولكنّه عبّس في وجهي أنا وتكرّره لي كأنه أضغّر شأنني؛ فأزدرتني عينه، فوثبت إلى رأسه فكرة الامتيازات. وهذه القوة الظالمة (الامتيازات)؛ لو أنّها كانت قوة قاهرة نافذة، وأعين بها طفيلي ليقتحم دور الناس آمناً مطمئناً - لاستحى هذا الطفيلي أن يأكل بها؛ إذ تجمع عليه التطفل والمقت^(٢) معاً، ولو قيل لحسام بتار: إنّ لك امتيازاً على بعض السيوف ألا تقارعك^(٣)، وإنّك محميّ أن تنالك سَطوُتها إذا قارعتها^(٤) - لأنف أن يسمّى سيفاً بهذا أو بمثل هذا، فإنّ القوة الظالمة التي يُعيرُونه إيّاها، ليست إلّا مهانة لشرف القوة العادلة التي هي فيه.

(١) اختلاب: خداع.

(٢) القنصل: تقارعت: تقاتلت.

(٣) القنصل: الكراهة.

(٤) القنصل: غالبتها.

قالَ صاحبُ السِّرِّ: ووصفتُ للبَاشا هِيتَةَ القنصلِ الَّتِي أنصَرَفَ بها، وتقطيعةً في وجهي، وقلتُ لَهُ: إِنَّ الأَذبَابَةَ وَقَعَتْ في صَخْفَتِي أنا من هَذِهِ الأُولِيمةِ... فضحكَ بملءٍ فيه، ثُمَّ قالَ:

ستبطلُ هَذِهِ الأَمْتِيازاتِ، وَلَيْسَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ نَهايتِها إِلَّا أَنْ يَنْتَهِيَ الشَّعْبُ إلى حَقِيقَتِهِ القُومِيَّةِ، فَمَا تَرَكُها في مَكَائِثِها إِلَّا نَزُولَ الشَّعْبِ عَن مَكَائِثِها، وتَأَلَّلِهِ لكَأَنَّ هَؤُلَاءِ الأَجانبَ يَسألوننا بِهَذِهِ الأَمْتِيازاتِ: أَيْنَ مَكَائِكُمْ في بِلادِكُمْ...؟
أُندري ما قالَهُ هَذَا القنصلُ حِينَ تَجاذَبْنَا الحَدِيثَ^(١) فِيها، بَعْدَ أَنْ وَضَعْتُ نَفْسِي مِنْهُ في مَوْضِعِ المَحامِي الَّذِي يَخْذَلُهُ^(٢) الدَّلِيلُ، فَيَحاولُ أَنْ يَسْتَنزِلَ كَرَمَ القُضاةِ بِعَرَضٍ بؤسِ المَتَّهِمِ على شَفَقَتِهِم، لِيَسْتَعِطِفَ القانُونُ الَّذِي في أَيْدِيهِم بِالقانُونِ الَّذِي في أَنْفُسِهِم؟

إنَّهُ قالَ: لا يَلومَنَّ الأَشْرقِيونَ إِلَّا أَنْفُسَهُم، فَهَمَّ عَلمُوا الأَجانبَ أَنَّ نَتَفَ رِيشِ الطَّيْرِ أَوَّلَ أَكَلِهِ. وَهَذِهِ الأَمْتِيازاتُ إِن هِيَ إِلَّا مُعامَلَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَ طَبِيعَةِ الخُضُوعِ في الشَّعْبِ. نَعَم، إِنَّها مَضَرَّةٌ وَمَعَرَّةٌ، وَظَلَمٌ وَقَسوَةٌ؛ وَلَكِنَّها على ذَلِكَ طَبِيعِيَّةٌ في الطَّبِيعَةِ؛ فَمَا دَامَ هَذَا الشَّعْبُ لِيَنَّ المَأْخِذِ، فَإِنَّ هَذَا يُوجِدُ لَهُ مَنْ يَأْخُذُهُ؛ وَمَا دَامَتِ الكَلِمَةُ الأَوَّلَى في مُعْجَمِ لُغَتِهِ السِّياسِيَّةِ هِيَ مادَّةُ (خَضَعَ يَخْضَعُ)، فَهَذِهِ الكَلِمَةُ تَحْمِلُ في مَعناها أَلْواحِدِ أَلْفَ مَعْنَى، مِنْها: ظَلَمَ يَظْلِمُ، وَرَكِبَ بَرَكَبَ، وَمَلَكَ يَمْلِكُ، وَأَسْتَبَدَّ يَسْتَبِدُّ، وَدَجَّلَ يُدْجِلُ، وَخَدَعَ يَخْدَعُ؛ فَهَلْ يَكْثُرُ أَنْ يَكُونَ مِنْها لِلأَجانبِ أَمْتارٌ يَمْتازُ؟

قالَ صاحبُ السِّرِّ: ثُمَّ زَمَّ أَلْباشا فَمَهُ وَسَكَتَ: فَفَهِمْتُ الكَلِماتِ الَّتِي أَنْطَبَقَ فَمُهُ عَلَيْها وَإِنْ لَمْ يَتَكَلَّمْ بها، ثُمَّ غَلَبَهُ الضَّحْكَ فَقالَ: - وَاللَّهِ - يا بُنَيَّ لو أَنَّ بُرْغوثًا طَمَرَ مِنْ ثوبِ صُعلوكِ أَجَنبِيٍّ، فَوَقَعَ في ثوبِ صُعلوكِ وَطَنِي، فَتَقَاتَلَا فَفَقُبِضَ عَلَيْهِما، فَأَخْذا - لَمَّا رَضِيَ بُرْغوثُ الأَجَنبِيِّ أَنْ يُحاكَمَ إِلَّا في المَحاکِمِ المَخْطَلَةِ... .

ثُمَّ سَكَتَ أَلْباشا مَرَّةً أُخْرى كَأَنَّهُ يَقولُ كَلامًا آخَرَ لا يَجوزُ نَشْرُهُ، ثُمَّ قالَ: يا بُنَيَّ، إِنَّ الأَجانبَ لا يَضْعونَ الحِمْلَ إِلَّا على مَنْ يَحْمِلُ؛ فَإِذا نَحْنُ تَوَخَّينا مُرادَهُم

(٢) يَخْذَلُهُ: يَعرِضُهُ.

(١) تَجاذَبْنَا الحَدِيثَ: تَداولَناهُ.

أرادوا لأنفسهم لا لنا؛ وإذا وافقنا لهم غرضاً جعلوه كالدینارِ فيه مائة قرش، وأبوا إلا أن نُصارِفهم عليه بمائة. هم - ويحك - يمتازون في معاملتنا لا في سطور القوانين والمعاهدات، فلنبطل هذه المعاملة نبطل هذا الامتياز.

إن الحق يا بُني أستحقاق لا دعوى؛ وهذا التنازع على الحياة يجعل وسائله الطبيعية الانتزاع والمطالبة والتجرد له والدأب فيه والإصرار عليه. وكل الأقوياء يعلمون أن موضع الاعتدال بين غضب الحق وبين استرداده موضع لا مكان له في الطبيعة: والأجنبي يعتمد علينا نحن في جعله أكبر منا وأوفر حرمة؛ فإذا أسقط الشعب هذه الامتيازات من فكره، وروحه وأعصابه، وثارت فيه كبرياء الوطنية فاستنكف من الاستخذاء، ونفر من الاختضاع، وأبى إلا أن يعلن كرامته، وصرف اهتمامه إلى حقوق هذه الكرامة، وأصر ألا يعامل أجنبياً يرى لنفسه امتيازاً على وطني، وقرر ذلك في نفسه، ومكنه في روعه، وأجمع عليه إجماعه على الدين - إذا جاءت (إذا) هذه بشرطها من الشعب، جاء جواب الشرط من الأجانب بنزولهم عن الامتيازات وأنحلت المشكلة. إننا يا بُني لا نملك ضغط السياسة، ولكننا نملك ما هو أقوى؛ نملك ضغط الحياة.

لهم امتياز بأنهم أجانب عنا، فليكن لنا الامتياز الآخر بأننا أجانب عنهم في المعاملة، مثلاً بمثل، وما يقل الحديد إلا الحديد.

يقولون: النظام الاقتصادي والمال الأجنبي. ولكن رأيت المال في يد الأجنبي إلا مالا وتدبيراً وسلطة وسيادة، من أنه في يد الوطني دين وإسراف ورق وذل؟

لم يظهر لي إلا الساعة أن من حكمة تحريم الربا في شريعتنا الإسلامية، وقاية الأمة كلها في ثروتها وضياعها ومستغلاتها، وحماية الشعب وملوكه من الإسراف والتخريق والكرم الكاذب، ورد الاستعمار الاقتصادي، وشل النفوذ الأجنبي.

أما لو أننا كتبنا من الأول على أبواب «البنك العقاري» وأبواب ذريته: ﴿يَمَحُ اللَّهُ أَرْبَا﴾ فهل كانت تُقرأ هذه الكلمات الثلاث على أبواب تلك البنوك الأجنبية إلا هكذا: «محال خالية للإيجار»...؟

فلتَعْصَبْ...!

وقالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: جاءني يوماً صَحْفِيّ إنْجِلِيزِيّ من هؤلَاءِ الْكُتَّابِ الْمُتَعْصِبِينَ الَّذِينَ تُطْلَقُهُمْ إنْجِلْترا كما تُطْلَقُ مدافعُها؛ غَيْرَ أَنَّ هذه لِلْبَارودِ وَالرَّصَاصِ وَالْقَنَابِلِ وَأَوْلئكِ لِلْكَذِبِ وَالثَّهْمِ وَالْمُغَالَطَاتِ.

وهو أَذُنٌ وَعَيْنٌ^(١) وَلِسَانٌ وَقَلَمٌ لِجريدةٍ إنْجِلِيزِيَّةٍ كَبيرةٍ، معروفةٍ بِثَقَلِ وطأتِها على الشَّرْقِ والإسلام؛ تُضْلِحُ بِإفسادٍ، وتُداوي أَلْحَمَى بِالطَّاعونِ، وتعملُ في نهضةِ الشَّرْقِيِّينَ وَأَسْتِقْلالِهِمْ ما يُشْبِهُ قِطْعَ ثُذي الأُمِّ وهو في شَفَتِي رُضيْعِها الْمُسْكِينِ.

ودخلَ عَلَيَّ هذا الْكَاتِبُ في السَّاعَةِ الَّتِي خَرَجَ فيها من غُرْفَتِي صاحبُ جريدةٍ أسبوعيَّةٍ في مَدِينَتِنَا؛ كانَ قد نَفَخَ الضُّفْدَعَ لِيجْعَلُها ثُوراً، فحوَّلَ صَحيفَتَهُ إلى جريدةٍ يوميةٍ، وهو لا يجدُ مادَّتَها ولا يَسْتَطِيعُ أسبابَها، إِلَّا أَنَّهُ كُذَّابٌ^(٢) النَّاسِ عِنْدَنَا كانَ يحسِبُ الْكَذِبَ في الْعَمَلِ سَهْلاً مَهْلاً^(٣) كَالْكَذِبِ في الْقَوْلِ، فلم يَتَعَاظُمْه الْأَمْرُ الْعَظِيمُ، وأَقْتَرَضَ لِعَمَلِهِ كُلَّ الْفَاطِ الْنَجاحِ مِنَ اللُّغَةِ...

وظَنَّ عِنْدَ نَفْسِهِ أَنَّهُ سَيُخَوِّفُ بِجريدَتِهِ الْكُبراءَ وَالْأعيانَ وَالْمِياسيرَ حَتَّى يَغْلِبَ على جَميعِهِمْ، وَيُشْرِكَ أَصابعَهُ مَعَ أَصابعِهِمْ في اسْتِخْراجِ ما يَحْتَاجُ إِلَيْهِ من جُيوبِهِمْ؛ فلم تَعِشْ جريدَتُهُ إِلَّا أَيَّاماً وَأَتْلَفَ ما جَمَعَ، ورَهَنَ فيها دارَهُ الَّتِي لا يَمْلِكُ غَيرَها؛ وَعَلِمَ آخِراً أَنَّ الَّذِي يَكْذِبُ فيسْمِي الْخُروفَ جَمَلاً، لا يُقْبَلُ مِنْهُ أَنَّ يَكْذِبَ على الْكَذِبِ نَفْسِهِ، فيزعمُ أَنَّ الناقَةَ هي الَّتِي تَنَجَّتْ هذا الْخُروف... .

ولَمَّا انْقَلَبَتْ هذه الْجريدةُ يوميةً كانَ أَلْباشا هو مَلْجَأُ الرِّجْلِ وَوَزْرَهُ، وكانَ لِكُلِّ يومٍ في الْجريدةِ أَخبارٌ عَنِ أَلْباشا لا تَقَعُ في الدُّنيا ولا تُجْمَعُ مِنَ الْحِوادثِ، وَلَكِنْ تَقَعُ في ذِهْنِ الْكَاتِبِ، وتُجْمَعُ من صناديقِ الْحُروفِ؛ حَتَّى قالَ لِي أَلْباشا مرةً: إِنَّ أَسْمِي قد أَصْبَحَ مَوْظُفّاً في هذه الْجريدةِ لِجَمْعِ الْأَشْراكِ...

(١) يقصد بذلك أنه جاسوس.

(٢) دأب، بسكون الهمزة: العادة.

(٣) هذا من الاتباع بلغة العرب.

وتحرّى هذا الصحفي أن يستأذن يوماً على ألباشا وفي مجلسه حشد عظيم من السّراة والأعيان والعُمد، وكان جمعهم لأمر، فما هو إلا أن دخل الصحفي حتى ابتدره ألباشا بهذا السؤال: يا أستاذ، ما هي تلغرافات أوربا عن الحوادث التي ستقع غداً...؟

فضج المجلس بالضحك، وفقد المسكين بهذه النكتة أربعين ديناراً كان يؤمل أن يخرج بها، وأعلن ألباشا في أظرف إعلان وأبلغه كذب الرجل ونفاقه وإسفافه، وأنه من رجال الصحافة المدوّرة تدوير أرغيف...

قال: ونظرت إلى الصحفي الإنجليزي نظرة أكتشفه بها، فإذا أول الفرق بينه وبين أمثاله عندنا - شعوره أن بلاده قد ربّته (للخارج)، فهو عند نفسه كأنه إنجليزي مرتين؛ ويأتي من ذلك إحساسه بعزّة المالك وقوّة المستعمر، فلا يكون حيث يكون إلا في صراحة الأمر النافذ، أو غموض الحيلة المبهمة؛ ويستحكم بهذا وذاك طبعه العملي، فهو بغريزته مُقاتِل من مقاتلة الفكر، يلتمس ميدانه بين القوى المتضاربة لا يُبالي أن يكون فيه الموت ما دام فيه العمل؛ وبهذا كله تراه نافذ البصيرة قائماً على سواء الطريق، لأنّ الإنجليزي ألباطن فيه يوجّه الإنجليزي الظاهر منه ويسانده؛ وفي أعماق الاثنين تجد إنجلترا، وليس غير إنجلترا.

ثم تفرّست في الرجل أريد كنهه^(١) وحقيقته، فإذا له نفس مفتوحة مقفلة معاً، كغرف الدار: الواحدة يفتح بعضها لِمَا فيه كيما يرى، ويُقفل بعضها على ما فيه كيلا يرى.

ولهُ وجه عمليّ يكاد يُحاسبك على نظراتك إليه؛ تدور في هذا الوجه عينا قد اعتادتنا وزن الأشياء والمعاني؛ يتلأل في هاتين العينين شعاع النفس القويّة الممرّنة، قد نقت الثقة بها نصف هموم الحياة عن صاحبها، ثمّ هذه النفس طبيعة مؤمنة بأنّ أكبر سرورها في أعمالها، فواجبها في الحياة أن تعمل كلّ ما يحسن بها وكلّ ما يحسن منها.

لقد خيل إلي، وأنا أنظر إلى نفسيّة هذا الإنجليزي أن كلمة الخيبة عند هؤلاء الإنجليزي غير كلمة الخيبة عندنا - نحن الشرقيين -، فإنّ خيبة النفس لا تتمّ معانيها

(١) كنهه: سرّه وكونه.

أبدأ في النفسِ العاملةِ الدائبة، التي يُشعرُها الواجبُ أنَّه شيءٌ إلهيٌّ لا يخيب، وأنَّ ما يُرفضُ على هذه الأرضِ مِنَ العملِ الطَّيِّبِ لا يُرفضُ في السماءِ.

وكأنَّ الرجلَ قد أدركَ غرضي بملكِيهِ الصحافيَّةِ الدَّقيقة، فأجابني عن السَّؤالِ الَّذي لم أسأله، وقالَ لي مبتدئاً: إنَّ أساسنا الشَّخصيَّةُ وحاسَّةُ الواجب؛ وإنَّ فيكم أنتم كلُّ شيءٍ إلَّا هذين؛ فأخلاقنا تَظهرُ دائماً في العملِ، وأخلاقكم تَظهرُ دائماً في الكلامِ الفارغِ؛ ونحن نطلبُ الحقيقةَ، وأنتم تطلبونَ الألفاظَ، حتى إنَّه لو خَسِرَ المِصريُّ ألفَ دينار، ثُمَّ أعلنَ أنها مائةٌ فقط، وصدَّقَ النَّاسُ أنَّها مائةٌ؛ لكانَ عندَ نفسه كأنَّه ربَّحَ تسعمائةً...

قالَ صاحبُ السَّرِّ: وأستاذتُ له على الباشا فسَهِّلَ ورَحَّبَ؛ ثُمَّ هممتُ بالانصرافِ عنهما، ولكنَّ الإنجليزيَّ قالَ: يا باشا! إنَّه قد تمكَّنَ في روعي أنَّ صاحبَ سِرِّكَ هذا متعصبٌ ديني، وقد علمتُ أنَّه أبْنُ فلانِ القاضي الشرعيِّ، فطربوشُهُ أبْنُ العِمامةِ؛ ولقد كانَ ينظرُ إليَّ، وكأنَّه يتأمَّلُ من أين يذبُّخني...

فضحكَ الباشا وقالَ لي: يا فلانُ إنَّ هذا الكاتِبَ مِنْ تلاميذِ برناردشو، فهو كأستاذِهِ يجعلُ لِكُلِّ حقيقةٍ ذنباً كذيلَ الهَرِّ، ثُمَّ يُمسِكُها منه فإذا هي تَعَضُّ وتتلوَّى...

والتفتُ بعدَ ذلكَ إلى الإنجليزيِّ ثُمَّ قالَ له: جاءني كتابُك فإذا كنتَ تُريدُ رأيي فيما تُسميه التَّعصبُ الدِّينيُّ عندَ المسلمين، فعجيبٌ أن تَضَعُوا أنتم الغلطةَ ثُمَّ تسألونا نحن فيها! إنَّكَ لتعلمُ أنَّ هذا التَّعصبَ الكَذِبَ الَّذي أكثرتمُ الكلامَ فيه، إنَّما هو لفظٌ مِنَ ألفاظِ السِّياسةِ الأوربيَّةِ، أرسلتموه إلينا لِيَقَاتِلَ لفظُ التَّعصبِ الحَقِيقِيِّ؛ ومن قبلَ هذا اخترعتم لفظةَ (الأقليات)، وأجريتُموها في لُغَتِكُم السِّياسية، لتجعلوا بها لتعضِّبنا الوطنيَّ شكلاً آخرَ غيرَ شكلِهِ فتفسدوه علينا بهذه المادَّةِ المُفسدة؛ وبذلك تَضربون أليدَ أليمنى من غيرِ أن تلمسوها، إذ تضربونها بشلِّ أليدِ اليسرى.

إنَّ الإسلامَ في نفسه عدوٌّ شديدٌ على التَّعصبِ الَّذي تفهمونه، فهو يقولُ لأهله في كتابِهِ العزيزِ: ﴿كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ﴾.

فإذا كانَ العدلُ في هذا الدينِ عدلاً صارماً، وحقاً مخضاً لا يُميِّزُ بشيءٍ البتَّةَ،

لا ذاتِ الْنَفْسِ الَّتِي فِيهَا أَشْتَهَاءُ الدَّمِ، وَلَا أَصْلَهَا مِنَ الْأَبْوِينَ الَّذِينَ جَاءَتْ مِنْهُمَا وَرِاثَةُ الدَّمِ، وَلَا أَطْرَافَهَا مِنَ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ يَلْتَفُونَ حَوْلَ نَسَبِ الدَّمِ - إِذَا كَانَ هَذَا، فَأَيْنَ فِي هَذَا الْعَدْلِ مَحَلُّ الظُّلْمِ؟

لَعَلَّكَ تُشِيرُ إِلَى هَذِهِ الرُّعُونَةِ الَّتِي تَعْرِفُهَا فِي الْأَغْمَارِ وَالْأَغْفَالِ مِنَ الْعَامَّةِ، فَهَذِهِ لَيْسَتْ مِنْ أَثَرِ الدِّينِ، بَلْ هِيَ أَثَرُ الْجَهْلِ بِالدِّينِ؛ إِنَّ هَذَا لَيْسَ تَعْصُبًا، بَلْ هُوَ مَعْنَى مِنْ مَعَانِي الْحَمِيَّةِ النَّفْسِيَّةِ الْخَرْقَاءِ لَمْ تَجِدُوا أَنْتُمْ لَهُ لَفْظًا، وَكَانَ أَقْرَبَ الْأَلْفَاظِ إِلَيْهِ عِنْدَكُمْ هُوَ التَّعَصُّبُ، فَأُطْلِقْتُمُوهُ عَلَيْهِ لِلْمَعْنَى الَّتِي فِي نَفْسِهِ وَالْمَعْنَى الَّتِي فِي أَنْفُسِكُمْ. أَلَا فَاعْلَمُوا أَنَّ إِسْلَامَ الْعَامَّةِ الْيَوْمَ هُوَ كَالدَّعْوَى الْمَقْبُولَةِ شَكْلًا وَالْمَرْفُوضَةِ بَعْدَ ذَلِكَ.

قَالَ الْإِنْجِلِيزِيُّ: وَلَكِنْ لِهَؤُلَاءِ الْعَامَّةِ عِلْمَاءٌ دِينِيَن يُدَبِّرُونَهُمْ مِنْ وَرَائِهِمْ. وَهُمْ عِنْدَكُمْ وَرَثَةُ النَّبِيِّ ﷺ أَي مَنبَعُ الْفِكْرَةِ وَقُوَّتِهَا.

قَالَ أَلْبَاشَا: غَيْرَ أَنَّ هَؤُلَاءِ قَدْ أَصْبَحُوا كُلُّهُمْ أَوْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَنْدَسُ^(١) فِيهِمْ عِزُّ مَنْ تِلْكَ الْوَرَاثَةِ، وَذَلِكَ هُوَ الَّذِي بَلَغَ بِنَا مَا تَرَى؛ فَالْقَوْمُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ كَأَلْسَلَاكِ الْكَهْرِبَائِيَّةِ الْمَعْطَلَّةِ: لَا فِيهَا سَلْبٌ وَلَا إِيْجَابٌ؛ وَلَوْ أَنَّ هَؤُلَاءِ الْعِلْمَاءَ كَانَتْ فِيهِمْ كَهْرِبَاءُ الْكِبْوَةِ، لَكَهْرَبُوا الْأُمَمَ الْإِسْلَامِيَّةَ فِي أَقْطَارِهَا الْمَخْتَلِفَةِ. إِذْنِ لَقَامَ فِي وَجْهِهِ الْأَسْتِعْمَارِ الْأَوْرَبِيِّ أَرْبَعُمِائَةِ مِليونٍ مُسْلِمٍ جَلْدٌ^(٢) صَارَ شَدِيدًا، مَتَظَاهِرِينَ مُتَعَاوِنِينَ، قَدْ أَعْدَوْا كُلَّ مَا أَسْتَطَاعُوا مِنْ قُوَّةِ الْعِلْمِ، وَقُوَّةِ النَّفْسِ، وَهُمْ لَوْ قَذَفَ كُلُّ مِنْهُمْ بِحَجَرَيْنِ لَرَدَمُوا الْبَحْرَ.

أَتُرِيدُ مَعْنَى التَّعَصُّبِ فِي الْإِسْلَامِ؟ إِنَّهُ بَعِيْنُهُ كَتَعْصَبِ كُلِّ إِنْجِلِيزِيٍّ لِلْأَسْطُولِ؛ فَهُوَ تَشَابُكُ الْمُسْلِمِينَ فِي أَرْجَاءِ الْأَرْضِ قَاطِبَةً، وَأَخَذَهُمْ بِأَسْبَابِ الْقُوَّةِ إِلَى آخِرِ الْأَسْتَطَاعَةِ، لِدَفْعِ ظُلْمِ الْقُوَّةِ بِآخِرِ مَا فِي الْأَسْتَطَاعَةِ.

وَهُوَ بِذَلِكَ يَعْمَلُ عَمَلَيْنِ: أَسْتِكْمَالُ الْوُجُودِ الْإِسْلَامِيِّ، وَالِدِّفَاعُ عَنْ كِمَالِهِ.

وَإِذَا أَنْتَ تَرَجَمْتَ هَذَا إِلَى مَعْنَاهُ السِّيَاسِيِّ، كَانَ مَعْنَاهُ إِصْرَارُ جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَلَى نَوْعِ الْحَيَاةِ وَكِرَامَتِهَا، لَا عَلَى اسْتِمْرَارِ الْحَيَاةِ وَوُجُودِهَا فَقَطْ. وَذَلِكَ هُوَ مَبْدُوكُمْ أَنْتُمْ أَيُّهَا الْإِنْجِلِيزِيُّ: لَا تَقْبَلُونَ إِلَّا حَيَاةَ السِّيَادَةِ وَالْحُكْمِ وَالْحُرِّيَّةِ، فَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فِي هَذَا الْمَبْدَأِ لَوْ عَدَلْتُمْ.

(١) يَنْدَسُ: يَدْخُلُ فِي السَّرِّ.

(٢) جَلْدٌ: بِسُكُونِ اللَّامِ: صَبُورٌ فِي الْقِتَالِ.

أَلَيْسَ مِنَ الْبَلَاءِ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ الْيَوْمَ لَا يَذَرُسُ بَعْضُهُمْ بِلَادَ بَعْضٍ إِلَّا عَلَى الْخَرِيطَةِ . . . مَعَ أَنَّ الْحَجَّ لَمْ يُشْرَعْ فِي دِينِهِمْ إِلَّا لِتَعَوُّدِهِمْ دِرَاسَةَ الْأَرْضِ فِي الْأَرْضِ نَفْسِهَا لَا فِي الْوَرَقِ، ثُمَّ لِيَكُونَ مِنْ مَبَادِيهِمُ الْعَمَلِيَّةُ أَنَّ الْعَالَمَ مَفْتُوحٌ لَا مَقْفَلٌ؟

إِنَّ التَّعَصُّبَ فِي حَقِيقَتِهِ هُوَ إِعْلَانُ الْأُمَّةِ أَنَّهَا فِي طَاعَةِ الشَّرِيعَةِ الْكَامِلَةِ، وَأَنَّ لَهَا الرُّوحَ الْحَادَّةَ لَا الْبَلِيدَةَ، وَأَنَّ أُسَاسَهَا فِي السِّيَاسَةِ الْإِحْتِرَامُ الذَّاتِي لَا تَقَبُّلُ غَيْرِهِ، وَأَنَّ أَفْكَارَهَا الْأَجْتِمَاعِيَّةَ حَقَائِقُ ثَابِتَةٌ لَا أَشْكَالَ نَظَرِيَّةٍ، وَأَنَّ مَبْدَأَهَا هُوَ الْحَقُّ وَلَا شَيْءٌ غَيْرُ الْحَقِّ، وَأَنَّ قَاعِدَتَهَا «لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ». فَالْهِدَايَةُ أَوَّلًا وَالْهِدَايَةُ آخِرًا: الْهِدَايَةُ فِي الْقُوَّةِ، وَالْهِدَايَةُ فِي السِّيَاسَةِ، وَالْهِدَايَةُ فِي الْأَجْتِمَاعِ. فَقُلْ لِي بِحَيَاتِكَ وَحَيَاةِ إِنْجِلْتِرَا: أُيْعَابُ ذَلِكَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ إِلَّا بِالْأَلْفَاظِ الَّتِي يَعِيبُ اللَّصُّ بِهَا أَهْلَ الدَّارِ لِأَنَّهُمْ يُحْكَمُونَ فِي وَجْهِهِ إِقْفَالُ الْبَابِ . . . ؟

قَالَ: فَوَجَمَ الْإِنْجِلِيزِيُّ حَتَّى ذَهَلَ عَنْ نَفْسِهِ وَصَاحَ:

إِذَا كَانَ هَذَا فَلْتَتَعَصَّبْ، فَلْتَتَعَصَّبْ.

وزن الماضي

وقال صاحب سر (م) باشا: إني لجالس ذات يوم وفي يدي كتاب لبعض المتفلسفة من ملاحدة أوربا الذين يريدون أن يفهموا ما لا يفهم؛ وكان ألباشا قد رأي مرة أنظر فيه وأتدبر مسائله الغامضة، فقال لي: يا بُني، إن أحد الكلاب كان شاعراً فيلسوفاً، فنظر ليلة في النجوم فراعته وحيرته؛ فآلى أن يفهمها بعقله وتفرغ لدرسيها مدة طويلة، ثم وضع فيها كتاباً نفيساً ضخماً، كان أعظم كتب الفلسفة وأشدّها غموضاً عند الكلاب، وكان اسمه: العظام المبعثرة فوقنا.

قال: فانا جالس أقرأ هذا الكلام الذي لا صحيح فيه إلا أنه غير صحيح. إذ دخل علي كاتب متفلسف ملجّد من هؤلاء المدخولين في عقولهم، المفتونين بأوربا ومذاهبها وغلوياتها وسفلياتها... وهو يكتب في الصحف، ويؤلف الرسائل، وقد جاء يستصرخ ألباشا على فلاح شاركه في زراعة أرضه، فزرعه الفلاح فيها وحصده، ودهاه بكيده، وأبتلاه بغلظته، وتهدّده بالثّمة.

وكان هذا الفلاح الساذج الغرير قد سبقه إلي وعرفه لي تعريفاً قاموسياً محيطاً من مادة كفر يكفر... ثم قال بعد ذلك: إنه (بياع كلام) يصدق ويكذب حسب الطلب.. والذمة نفسها ليست عنده إلا (عملية حسابية)؛ وهو في أقوى جهاته لا ينفع الدنيا بما تنفعها به البهيمة من أضعف جهاتها.

أما الكاتب فيقول عن هذا الفلاح: إنه لا يدري أهو يتم بهائمه أم بهائمه هي التي تتيه، وإن الذي يرفع القضية على مثل هذا المخلوق إلى محكمة لا يكون إلا كالذي يقنع بالعصا على جحر فيه الحية السامة.

ورأى المتفلسف الكتاب على يدي، فتهلّل وأستبشر وقال لي: هذا نسب بيننا... فأدركت من كلمته هذه جملته وتفصيله، وخيل إلي أنني أرى فيه نفسه الشرقية كالمرأة المطلقة... فقلت له: أنا أشرت هذا الكتاب من أوربا، ولكني لم أشر منها دماغياً.

وكلَّمْتُهُ أَسْتَخْرِجُ ما عنده؛ فإذا هو في قومِهِ وتاريخِ قومِهِ كَالسَّائِحِ في بلادِ
أجنبيَّة: يفتحُ لها عينَهُ ولا يفتحُ لها قلبَهُ.

وكانَ جريئاً في كلامِهِ مَعَ ألباشا: يَطْرُدُ الْقَوْلَ حيثُ شاءَ حقّاً وباطلاً، ثُمَّ
لا سِنَادَ لِرأْيِهِ ولا تَثْبِيَتَ لِحُجَّتِهِ إِلَّا قَوْلَ فُلانٍ ورأْيَ فُلانٍ، كأنَّ في رأسِهِ عقلاً
شَخَاضاً... ثُمَّ ذَكَرَ آخَرَ الْأَمْرِ ما جاءَ لَهُ، فَخَجَلَهُ ألباشا وقالَ: هَذِهِ مَسْأَلَةٌ كَكُلِّ
مَسْأَلَةٍ: تَحْتَاجُ إلى رَأْيِ فِيلَسُوفٍ أَوْ رَبِّي... وأَعْرَضَ عَنْهُ وَلَمْ يَدْخُلْ في شَيْءٍ
مِنْ أَمْرِهِ.

ولَمَّا أَنْصَرَفَ قالَ ألباشا: يَحْسِبُ هَذَا نَفْسَهُ عَالِماً، وَهُوَ صُעْلُوكٌ عِلْمِي...
وَإِنَّمَا يَكُونُ دِمَاغُهُ وَأَدْمَغُهُ أَمْثالِهِ عِنْدَ الْفَلَسَفَةِ وَالْعُلَمَاءِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَهُمْ كَمَا تَكُونُ
سَلَّةُ الْمَهْمَلَاتِ عِنْدَ الصَّحَافِيِّينَ.

إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ يُتَمُّ ضَعْفَ عَقْلِهِ في الرَّأْيِ بِقُوَّةٍ عِنادٍ فِيهِ، لِيَجْعَلَ لَهُ ثَبَاتَ
الْحَقِيقَةِ فَيُظَنُّ حَقِيقَةً، كَأَنَّ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ بِالْيَدِ في وَعاءٍ صَغِيرٍ يَنْقُلُ إلى هَذَا
الْوَعاءِ طَبِيعَةَ الْمَوْجِ؛ وَعِنْدَ أَمْثالِ هَذَا الْمِفْتُونِ مِنَ الصَّعَالِيكِ الْعِلْمِيِّينَ، أَنَّكَ إِذَا
تَنَاولْتَ مَسْأَلَةً فَأَخْطَأْتَ فِيهَا خَطَأً جَرِيئاً، فَقَدْ جَعَلْتَهَا بِخَطِئِكَ الْجَرِيءِ مَسْأَلَةً مِنَ
الْعِلْمِ... وَأَنَّكَ إِذَا عَانَدْتَ فَتَبَّتِ الْخَطَأُ في وَجهِ النَّاقِذِينَ سَنَةً، كَانَ حَقِيقَةً مَدَّةً
سَنَةً...

هَمُّ مِفْتُونُونَ زَائِعُونَ، وَمَنْ فِتْنَتِهِمْ أَنَّهُمْ يَرَوْنَ الْبَعْدَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ الْفَضَائِلِ
الشَّرِيقَةِ، كَالْبَعْدِ بَيْنَ الْعَالِمِ وَالْجَاهِلِ؛ وَلَوْ حَقَّقُوا لَرَأَوْهُ بُغْداً في الْغَرَائِزِ لا في
الْعَقْلِ، أَي كَالْبَعْدِ بَيْنَ الْفُجُورِ وَما أَشَبَهُ الْفُجُورَ، وَبَيْنَ التَّقْوَى وَما أَشَبَهُ التَّقْوَى.

زَعَمَ الْأَحْمَقُ أَنَّ خِصَمَةَ الْفَلَّاحِ رَجُلٌ راسِخٌ في الْمَاضِي، كَأَنَّهُ باقٍ في أَمْسٍ
لَمْ يَنْتَقِلْ مِنْهُ، مَعَ أَنَّ أَمْسَ قَدْ انْقَطَعَ مِنَ الزَّمَنِ، ثُمَّ خَرَجَ مِنْ ذَلِكَ إلى أَنَّ الْأُمَّةَ
يَجِبُ أَنْ تَنْبِذَ ماضِيَهَا، ثُمَّ ادَّعى أَنَّ الْإِسْلَامَ يَتَعَصَّبُ لِلْمَاضِي. هَذِهِ ثَلَاثُ كَلِمَاتٍ
تَخْرُجُ مِنْهَا الرَّابِعَةُ الَّتِي سَكَتَ عَنْهَا...

وَأَنَا لو شِئْتُ أَنْ أَسْخَرَ مِنْ مِثْلِ هَذَا الصُّعْلُوكِ الْعِلْمِيِّ، لَمَّا وَجِذْتُ في
أَسَالِيبِ السَّخَرِيَّةِ أَبْلَغَ مِنْ أَنْ أَبْعَثَ إِلَيْهِ بِقَارُورَةٍ فارِغَةٍ وَأَقُولُ لَهُ: امْلَأْهَا لي مِنْ آراءِ
أَفْلَاسِفَةٍ...

يَغْفُلُ هذا وأمثاله عن أَنَّ الدينَ الإسلامي لا يعرفُ الماضيَ بمعنى ما مضى على إطلاقه؛ بل هو يشترطُ فيه ألاَّ يُخَالِفَ العقلَ ولا العلمَ، وألاَّ يناقضَ الهدايةَ؛ ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا آلَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْلَوْكَ كَانَتْ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَقُولُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ وفي الآية الأخرى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْلَوْكَ كَانَ ءَابَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾؟ وفي الثالثة: ﴿قَالُوا بَلْ نَنبَغُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا أَوْلَوْكَ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾؟ وفي الرابعة: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ قُلْ أَوْلَوْكُمْ جُنُحُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ ءَابَاءَكُمْ﴾؟

فانظر كيف صَوَّرَ ما نُسَمِّيه اليومَ بالجمودِ في قوله: (حسبنا)، وكيف صَوَّرَ ما نُسَمِّيه بالرجعيةِ في قوله (ننبغ)، وتأمل كيف رفضَ الجمودَ والرجعيةَ معاً في العلمِ والعقلِ والهدايةِ، أي في آثارها من العلومِ والمخترعاتِ والفضائلِ الإنسانيةِ، وكيف أبطلَ في تلكَ الثلاثِ الاحتجاجَ بالماضي بهذا الأسلوبِ الدقيقِ العالِي، وهو قوله في كلِّ آيةٍ أولُو، أولُو. لم يغيِّرْها؛ بل كرَّرها بلفظها أربعَ مراتٍ.

فالمعجِزُ هنا مجيءُ آلياتِ بهذهِ الصورةِ المنطقيةِ لإسقاطِ حُجَّتِهِمْ، ونفيِ معنى التقديسِ عن الماضيِ فيهنَّ؛ إذ كانَ العلمُ دائماً التغيُّرَ، وكانَ العقلُ دائماً التجديدَ والإبداعَ، وكانتِ الهدايةُ شديدةً على الطبيعةِ الحيوانيةِ التي هي ماضي النفسِ؛ فكانتِا جديدةً على النفسِ عندَ كلِّ شهوةٍ.

إنَّ الإنسانَ بماضيهِ وحاضِرِهِ كائنهُ مقسومٌ قسمينَ، يقولُ أحدهما: أريدُ أنْ أكونَ. ويقولُ الآخرُ: أنا قد كنتُ. فالإسلامُ بهذهِ الآياتِ قد أوجبَ وزنَ الكلمتينِ في كلِّ زمنٍ بما هوَ الأصحُّ، وبما هوَ الأنفعُ، وبما هوَ الأهدى؛ وبإشراطِهِ الهدايةَ في جميعِها أشارَ إلى أنَّ الكمالَ النفسيَّ للفردِ يجبُ أنْ يكونَ مرتبطاً بالكمالِ الإنسانيِّ للجنسِ.

وهذا معنى عَجِيبٌ، وأعجبُ منه ما ترى من أنَّ الإسلامَ قد أصلَحَ فكرةَ الماضيِ؛ فنقلها من معنى الآباءِ والأجدادِ للناسِ، إلى المعاني التي هي كآباءِ والأجدادِ لإنسانيةِ الناسِ. وألأخذُ (بالأهدى) في اجتماعِ أُمَّةٍ مِنَ الأممِ، إنما هو بعينه ناموسُ الترقِّي والتطوُّرِ.

ومن أدقِّ الأسرارِ قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا ءَابَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ فكلمة (أُمَّة) هذه لم يعرفها أحدٌ على حقيقتها، ولم تُفسَّرْها إلَّا علومُ هذا الزمنِ، فهي المشاعرُ النفسيةُ

التي يتكوّن منها مزاج الشعب، وفيها يستقرّ الماضي؛ كأنّ آليّة قد عبّرت بآخر ما
أنتهى إليه علماء النفس: من أنّ الإنسان أبْنُ أبويه وأبْنُ شعبه أيضاً.
فالتعصّب في الإسلام هو للعلم النافع، وللمجد الصحيح، وللهداية الباعثة
على الكمال؛ وتعصّب الجيل لمثل هذا في ماضيه، هو في اسمه تعصّب، غير أنّه
في معناه إنّما هو العمل لتسليم مجد الأُمّة إلى الجيل التالي.

المعجم السياسي

وحدثني صاحب سر (م) باشا قال: كُتِّبَ في سنة ١٩٢٠، وهي بنت سنة ١٩١٩؛ وقد اجتمعت الأئمة على مقاطعة لجنة (ملنر) لا تُكَلِّمُها، فجعلت السكوت ثورة، وأعلن الشعب أن كلمته في لسان ألفريد ينطق ألفود بها نطق النبي بما يوحي إليه، فما يكون لأحد غيره أن يقولها، ولا أن يقول أوحى إلي. وأبى اللورد ملنر أن يصدق أن للمصريين إجماعاً يُغتدُّ به، وأنهم دخلوا في السياسة دخولاً ثابتاً فرسخوا^(١) فيها، وأنهم أصبحوا مع الإنجليز كالإنجليز الذين يقولون عن أنفسهم في مثلهم السائر: ينبغي أن نكون أحراراً مثل أعمالنا.

وزعم اللورد لنفسه، أن هذه الأحزاب المصرية لا يتفق منها أثنان أبداً إلا كان بينهما ثالث يختلفان عليه، وهو الطمع في مناصب الحكم؛ وأستخرج من ذلك أن المصري والمصري كَشَقِي المِقْرَاض^(٢): لا يتحركان في عمل إلا على تمزيق شيء بينهما؛ فإن لم يكن بينهما (الشيء) لم يكن منهما شيء.

وذهب الرجل يتظنني ويخدس على ما يُخِيلُ لَهُ الظن، وقد حسب أن إنجلترا يحق لها أن تقول في المصريين ما يقول الله في خلقه كما ورد في الأثر: «إنما يتقبلون في قبضتي». وكما تقول اليوم لأهل فلسطين من العرب: ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾... وكان اللورد هذا رجلاً مُمَارِساً لمشاكل السياسة، دخالاً فيها، ذاهية من ذهابة القوم، له في قلبه عيان وأذنان غير ما في وجهه كحذاق السياسيين؛ وهو يعرف أن سياسة قومه لا تدخل في شيء إلا دخول الإبرة بخيطها في الثوب، إن خرجت هي تركت الخيط وقد جمع وشد... فأراد أن يمتحن مذهب المصريين في إجماعهم على الاستقلال، وقدّر أنه واجد من الفلاحين عوناً له ومادة لمكره السياسي، وحسب ألفود صورة جديدة من طبقة (ألباشوات) القديمة، ينزلون من الشعب منزلة أليد التي تُمنسك القيد، من الرجل التي فيها

(١) رسخوا: استقروا.

(٢) المقراض: المقص.

القيد، ويضعون معنى كلمة الحاجة في كلمة السياسة، ويقولون: الوطن وهم يريدون الجاه، ويقيمون الشعب كالسلم ينتصب قائماً بأيديهم ليحمل أرجلهم الصاعدة عليه.

فجاء اللورد إلى مصر، فوجد الأمة كلها قد حذرت منه وتيقظت له، حتى نصحه رشدي باشا بأنه لن يجد في مصر هرة تفاوضه؛ ولكنه كان مستيقناً أن أذن السياسة الإنجليزية (كالرديو) لصوتين: صوت الدنانير وصوت الجماهير، فمر في البلاد يرسم على الهواء علامات استفهام، وأنصفق^(١) عنه الناس وأهملوه، وكان يسير في دائرة الصمت التي مركزها أبو الهول، فبدأ وظل يبدأ حتى انتهى وما زال يبدأ... وساح في البلاد سياحة طويلة، وكأنه لم يسافر إلا من شفة أبي الهول السفلى إلى شفته العليا.

قال صاحب السر: وجاء اللورد لمقابلة الباشا، فمر علي مرور كتاب مقفل: لا أعرف منه إلا العنوان؛ غير أنه رجل بمقدار الرجل الذي يخالف أمة كاملة تكاد تحسبه مطويًا على زويدة، وترى له قوتين تحس من أثرهما الرهبة والإعجاب، وإذا تأملته قلت إن اللطف والظرف أضعف شمائله، وإن الذهاء والحيلة أقوى مواهبه. فلما لقيت الباشا من الغد، سألتني: كيف رأيت اللورد ملنر؟ فقلت: والله يا باشا إنه كالضرورة: ما يتمناها أحد ولكنها تجيء...

فضحك الباشا وقال: يا ليت لنا - نحن الشرقيين - كل يوم ضرورة تصنع ما صنع اللورد؛ إنه كشف لنا في ذات أنفسنا عن حقيقة من أسمى الحقائق السياسية: وهي أن الشعب الذي يصير ولا يزال يصير يجعل الإغراء لا يغري والخوف لا يخيف.

ويا ليت الأمم الشرقية تتعلم هذا الصمت السياسي عن مجاوبة الكلمة الاستعمارية أحياناً؛ فإن صمت الأمة المصرية عن جواب (ملنر) كان معناه أن قدرة الأمة هي المتكلمة كلامها بدا الصمت، تعلن للعالم أن الواجب الشعبي قد وضع فقله على كل فم.

وقد فسر اللورد هذا السكوت بتفسيره السياسي، فأدرك منه أن في الشعب

(١) انصفق عنه الناس: تفرقوا.

أَنْفَةً وَحَمِيَّةً وَقُوَّةً، وَأَنَّ حِسَابَ الْضَمِيرِ الْوَطْنِيَّ أَصْبَحَ لَهُذِهِ الْأَفْنَدَةُ كَالْحِسَابِ الْإِلَهِيِّ لِلنَّفُوسِ الْمُؤْمِنَةِ: كِلَاهُمَا مُسْتَعْلِنٌ يُخَافُ وَيُتَّقِي، وَكِلاهُمَا كَلِمَةٌ مُحَرَّمَةٌ.

أَيُّهُ مَعْجَزَةٌ هَذِهِ الَّتِي جَعَلْتَ كَلِمَةً الْأَجْنَبِيَّ تَتَّخِذُ فِي أَذْهَانِ أُمَّةٍ كَامِلَةٍ شَكْلَ قَائِلِهَا، فَاجْتَمَعَتْ لَهَا الْأَبْلَادُ عَلَى مَعْنَى الرِّفْضِ، وَأَصْبَحَ كُلُّ فَرْدٍ يَعْرِفُ مَحَلَّهُ مِنَ الْكُلِّ، وَخَضَعَتِ الطَّبَائِعُ بِجَمَلَتِهَا لِقَانُونِ الْعِزَّةِ الْقَوْمِيَّةِ، الَّذِي يُلْزِمُهَا إِلَّا تَخَضُّعَ لِلْأَجْنَبِيِّ؟

إِنَّ الْأُتَمَّ بَعْضُ مَسَائِلَ نَفْسِيَّةِ كَهَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ فَلَوْ أَنَّ لَنَا خَمْسَةَ دُرُوسٍ سِيَاسِيَّةٍ مُخْتَلِفَةٍ كَدُرُوسِ (مَلْنَر)، لَكَانَتْ لَنَا فِي الْإِيمَانِ الْوَطْنِيِّ كَالْصَلَوَاتِ الْخَمْسِ.

وَالآنَ تَعَلَّمْتَ الْأُمَّةُ أَنَّ الشَّعْبَ الْعَزِيزَ هُوَ الَّذِي يَنْظُرُ فِي فَضِّ مَشَاكِلِهِ^(١) إِلَى الْحَلِّ وَإِلَى طَرِيقَةِ الْحَلِّ أَيْضًا، وَقَدْ كَانَ (مَلْنَر) هُوَ أَوَّلَ أُسَاتِذَتِنَا فِي تَعْلِيمِنَا الطَّرِيقَةَ.

وَهَذَا الدَّرْسُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ دَرَسًا لِلشَّرْقِ كُلِّهِ، فَإِنَّ السِّيَاسَةَ الْأَسْتِعْمَارِيَّةَ قَائِمَةٌ فِيهِ عَلَى خِدَاعِ الطَّرِيقَةِ فِي حُلِّ مَشَاكِلِهِ، فَيَحْلُونَهَا وَيُعَقِّدُونَهَا فِي نَصِّ وَاحِدٍ؛ وَيُثَبِّتُ الْكَلَامُ الَّذِي يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُرَادَ مِنْهُ زَوَالُ الْخِلَافِ، وَيُثَبِّتُ الْعَمَلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّ الْمُرَادَ كَانَ زَوَالُ الْمَقَاوِمَةِ.

وَفِي السِّيَاسَةِ الْأَوْرَبِيَّةِ مُوَافَقَاتٌ دَمِيمَةٌ^(٢) كَالنِّسَاءِ الْمَشْهُوَّاتِ، فَإِذَا عَرَضُوا وَاحِدَةً مِنْهَا عَلَى مَنْ يُرِيدُونَ أَنْ يَزَوِّجُوهُ... فَأَبَاهَا وَفَتَحَ لَهَا عَيْنَيْهِ بِكُلِّ مَا فِيهَا مِنْ قُوَّةِ الْإِبْصَارِ، أَعْفَوْهُ مِنْهَا وَقَالُوا لَهُ: سَنَاتِيكَ بِالْجَمِيلَةِ، ثُمَّ يَذْهَبُونَ بِهَا إِلَى مَعْهَدِ التَّجْمِيلِ اللَّغْوِيِّ، فَيَصْقِلُونَهَا وَيَصْبِغُونَهَا، وَيَضَعُونَ لَهَا أَحْمَرَ السِّيَاسَةِ وَأَبْيَضَهَا، ثُمَّ يَعْضُونَهَا جَدِيدَةً عَلَى صَاحِبِهِمْ ذَاكَ، وَمَا صَنَعُوا مَا بِهِ صَارَتْ الدَّمِيمَةُ غَيْرَ دَمِيمَةٍ، وَلَكِنْ مَا بِهِ رَجَعَ غَيْرُ الْأَعْمَى كَالْأَعْمَى.

وَلَهُمْ عَقُولٌ عَجِيبَةٌ فِي اخْتِرَاعِ الْأَلْفَاظِ، حَتَّى لَتَكُونَ شِدَّةُ الْوُضُوحِ فِي عِبَارَةٍ، هِيَ بَعِينُهَا الطَّرِيقَةُ لِإِخْفَاءِ الْغَمُوضِ فِي عِبَارَةٍ أُخْرَى. وَكَثِيرًا مَا يَأْتُونَ بِالْأَلْفَاظِ مُتَفَخَّةٍ تُحَسَّبُ جَزَلَةً بَادِنَةً قَدْ مَلَأَهَا مَعْنَاهَا، وَهِيَ فِي السِّيَاسَةِ الْفَاطَ حُبَالَى، تَسْتَكْمِلُ حَمَلَهَا مَدَّةً ثُمَّ تَلِدُ.

(٢) دَمِيمَةٌ: بَشْعَةٌ.

(١) فَضِّ مَشَاكِلِهِ: حَلِّهَا.

ولهم من بعض الكلمات السياسية، كما لهم من بعض الرجال السياسيين؛
فيكون الرجل من ذهاتهم رجلاً كالناس، وهو عندهم مسمار دقوه في أرض كذا أو
مملكة كذا، ويكون اللفظ لفظاً كاللغة، وهو مسمار دقوه في وثيقة أو معاهدة.

ثم ضحك ألباشا وقال: إن أرضنا تُخرج القطن، وسياستنا تُخرج الفاظاً
كالقطن: لا تُوضع في المغزل إلا مدّت وتحولّت. وإذا ذهبنا نخالفهم في التأويل
والتفسير، لم نجد عندنا المعجم السياسي الذي يملئ النص. أتدري يا بُني ما هو
المعجم السياسي؟

أما إنه لو كان كتاباً يتألف من مليون كلمة، لذهبت كلها عبثاً وباطلاً وهراء،
ولكنه ذلك المعجم الحي، ذلك المعجم الذي يتألف من مليون جندي...

اللسانُ المَرْقَعُ

وقالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: جاء «حضرَةُ صاحبِ السَّعادة» فلانٌ لزيارةِ ألباشا؛ وهو رجلٌ مِصريٌّ وُلِدَ في بعضِ القُرى، ما نعلمُ أنَّ اللَّهَ (تعالى) مَيَّزَهُ بجوهرٍ غيرِ الجَواهر، ولا طَبَعٍ غيرِ الطَبَع، ولا تركيبٍ غيرِ التركيب، ولا زادَ في دميهِ نقطةَ زهَبٍ، ولا وضعَهُ موضِعَ الوَسْطِ بَيْنَ فَتْنِينِ مِنَ الخَلِيقَةِ. غيرَ أَنَّهُ زارَ فرنسا، وطافَ بإنجلترا، وساحَ في إيطاليا، وعاجَ على ألمانيا، ولوَّ نَفْسَهُ ألواناً، فهو مِصريٌّ ملوَّن. ومن ثَمَّ كانَ لا يرى في بِلادِهِ وقومِهِ إِلَّا الفُروقَ بَينَ ما هنا وبَينَ ما هناك. فما يَظهرُ له دينُ قومِهِ إِلَّا مُقابلاً لِشَهِواتِ أَحبِّها وغامرَ فيها، ولا لُغَةَ قومِهِ إِلَّا مقرونةً بِلُغَةٍ أُخرى ودَّ لو كانَ من أَهلِها، ولا تاريخُ قومِهِ إِلَّا مغمى عليه.. كالِمِيتِ بَينَ تَواَرِخِ الأُمَم.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ المَترَفِينَ المَنعَمِينَ: مِصريُّ المالِ فقط، إِذْ كانَتْ أَسبابُهُم ومُستَغَلَّاتُهُم في مِصر؛ عَرَبِيٌّ أَلَسِمَ لا غير، إِذْ كانَتْ أَسماؤُهُم من جِنايةِ أَهلِيهِم بِالطَبِيعَةِ؛ مُسَلِّمٌ ما مَضى دُونَ ما هُوَ حاضِر، إِذْ كانَ لا جِيلةَ في أُنسابِهِم الَّتِي أَنحدروا مِنْها.

هو كغيرِهِ من هؤلاءِ المَترَفِينَ المَنعَمِينَ المَفتونِينَ بِالمَدَنِيةِ: لِكُلِّ مِنْهُم جِنسُهُ المِصرِيُّ وَلِفِكرِهِ جِنسٌ أُخر.

قال: وكانَ حُضرَةُ صاحِبِ السَّعادَةِ يُكَلِّمُ ألباشا بِالعَرَبِيَّةِ الَّتِي تَلعُنُها العَرَبِيَّةُ، مَرْتَفِعاً بِها عَن لُغَةِ أَلفَصيحِ أَرْتِفاعاً. مَنحَطاً... نازلاً بِها عَن لُغَةِ السُّوقَةِ نَزولاً عالِياً... فَكانَ يَرْتَضِخُ لُكْنَةَ أَعْجَمِيَّة^(١)، بَيناً هِيَ في بَعْضِ الأَلْفاظِ جَرَسٌ عالٍ يَطُنُّ، إِذا هِيَ في لَفْظٍ آخَرَ صَوْتُ مَرِيضٍ يَثْنُ، إِذا هِيَ في كَلِمَةٍ ثالِثَةٍ نَغَمٌ مُوسِيقِيٌّ يَرِنُ. ورأيتُهُ يَتَكَلَّفُ نَسِيانَ بَعْضِ الجَمَلِ العَرَبِيِّ لِيلَوِي لِسانَهُ بِغَيرِها مِنَ الأَفرَنْسيَّةِ، لا تَظَرُفاً ولا تَمَلُحاً ولا إِظهاراً لِقدَرَةٍ أو عِلْمٍ، وَلَكِنِ اسْتِجابَةً لِلشَّعورِ الأَجَنَبِيِّ الخَفِيِّ

(١) يَرْتَضِخُ لُكْنَةَ أَعْجَمِيَّة: يَلْهَجُ لَهْجَةً أوروپِيَّة.

المتكبر في نفسه. فكأنَّ وطنيَّة عقله تأبى إلا أن تُكذَّب وطنيَّة لسانه، وهو بإحداهما زائفٌ على قومه، وبالأخرى زائفٌ على غير قومه.

فلما أنصرفَ الرجلُ قال الباشا: أفٌ لهذا وأمثالٍ هذا! أفٌ لهم ولِمَا يصنعون! إنَّ هذا الكبيرَ يُلَقَّبونه «حُضرة صاحب السعادة»، ولأشرفُ منه - واللَّهِ - رجلٌ قرويٌّ ساذجٌ يكونُ لقبه «حُضرة صاحب الجاموسة»... نعم إنَّ أفلأخَ عندنا جاهلٌ عِلْم، ولكنَّ هذا أقبحُ منه جهلاً، فإنَّه جاهلٌ وطنيَّة.

ثمَّ إنَّ الجاموسَةَ وصاحبها عاملانِ دائبانِ مخلصانِ للوطن؛ فما هو عملُ حُضرة (صاحب اللسان المرقع) هذا؟ إنَّ عمله أن يُعلنَ برطانيته^(١) الأجنبيَّة أنَّ لغةَ وطنه ذليلةٌ مهينة، وأنَّه مُتجرَّدٌ مِنَ الروحِ السياسيِّ لِلغةِ قومه؛ إذ لا يظهرُ الروحُ السياسيُّ لِلغةٍ ما، إلا في الحِرْصِ عليها وتقديسها على سواها.

كانَ الواجبُ على مثلِ هذا ألا يتكلَّم في بلاده إلا بلُغته، وكانَ الذي هو أوجبُ أن يتعصَّب لها على كلِّ لغةٍ تُزاحمُها في أرضها، فتركَ هذا وكانَ هو المزاحمُ بنفسه؛ فهو على أنَّه «حُضرة صاحب سعادة»، لا يُنزِلُ نفسه مِنَ اللُّغةِ القوميةِ إلا مَنزلةَ خادمٍ أجنبيٍّ في حانة.

أتدري ما هو سرُّ هؤلاء الكُبراءِ وهؤلاء السُّرَّةِ الَّذِينَ يُطمِطُمون^(٢) إذا تكلموا فيما بينهم؟ إنَّهم عندنا طبقات:

أما واحدة، فإنَّهم يصنعونَ هذا الصنيعَ منجذبينَ إلى أصلٍ راسخٍ في طبائعهم، ممَّا تركَهُ الظلمُ والاستبدادُ والحقُّ في زمنِ الحكمِ التركي؛ فهم يُبدونَ جوهرَ نفوسهم لِأعينهم وأعينِ الناس، كأنَّ اللُّغةَ الأجنبيَّةَ فيما بينهم علامةُ الحكمِ والسلطةِ واحتقارِ الشعبِ واستمرارِ ذلكِ الحقِّ في الدَّم... وهم بها يتنبَّلون^(٣).

وأما طبقة، فإنَّهم يتكلَّفونَ هذا ممَّا في نفوسهم من طِباعٍ أحدثها التَّفاقُ والخضوعُ والذلُّ السياسيُّ في عهدِ الاحتلالِ الإنجليزي؛ فاللُّغةُ الأجنبيَّةُ بينهم تشریفٌ واعتبار، كأنَّهم بها من غيرِ الشعبِ المحكومِ الذي فقدَ السلطة، وهم بها يتمجِّدون.

(١) رطانة: لهجة.

(٢) يطمطمون: يجعلون في ألسنتهم عجمة وكلمات منكرة.

(٣) يتنبَّلون: يرتفعون.

وأما جماعة، فإنهم يتعمّدون هذا يُريدون به عيبَ اللغة العربيّة وتهجينها^(١)، إذ اتخذوا من عداوة هذه اللغة طريقةً اتّحلّوها^(٢) ومذهباً أنتسبوا إليه، وفيهم العالمُ بعلوم أوربا، والأديبُ بأدب أوربا؛ وذلك من عداوتهم للدين الإسلاميّ، إذ جعلَ هذه اللغةَ حكومةً باقيةً في بلادهم معَ كلِّ حكومةٍ وفوقَ كلِّ حكومةٍ؛ وهم يزدرون هذا الدينَ ويسقطونَ عن أنفسهم كلَّ واجباته. وهؤلاء قد خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً، إذ يغفلونَ في مصريّتهم غلواً قبيحاً ينتهي بهم إلى سفه الآراء، وخفّة الأحلام، وطيش النزعات، فيما يتصلُ بالدين الإسلاميّ وآدابه ولُغته. وما أرى الواحدَ منهم إلّا قد غطى وصفه من حيث هو رقيق، على وصفه من حيث هو عالمٌ أو أديبٌ أو ما شاء. إنّ هذا لمقتٌ ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾.

ومن أثر تلك ألفيات الثلاث نشأت فئة رابعة، تحوّل فيهم ذلك الخلطُ من الكلام إلى طريقةٍ نفسيةٍ في النفس؛ فهم يُقحمون^(٣) في كتاباتهم وحديثهم الكلمات الأجنبية، ويحسبون عملهم هذا تظرفاً ومُعابشةً ومُجوناً، على أنّه هو الذي يُظهرُ لعين البصيرِ مواضعَ القطع التاريخي في نفوسهم، وأماكن الفساد القومي في طبيعتهم، وجهات التحلّل الديني في اعتقادهم. هؤلاء يكتب أحدهم: (النرفزة) وهو قادرٌ أن يقولَ الغضب، (والفلير) وهو مستطيعٌ أن يجعلَ في مكانها المُغازلة، (وسكالنس) وهو يعرفُ لفظةً أنواع وألوان، وهكذا وهكذا؛ ولا - والله - أن تكونَ المسافة بين اللفظين إلّا المسافة بعينها بين قلوبهم ورُشد قلوبهم.

وما برحَ اكتليدُ السخيف لا يعرفُ له باباً يلج منه إلى السُخفاء إلّا بابَ التهاونِ والتسامح؛ ونحن قومٌ أبْتَلِينَا بتزويرِ العيوبِ على أنفسنا وعدّها في المحاسنِ والفضائل، من قلة ما فينا من الفضائل والمحاسن. وبهذه الطبيعة المعكوسة نحاولُ أن نقبسَ من مزايا الأوربيين، فلا نأخذُ أكثرَ ما نأخذُ إلّا عيوبهم، إذ كانت هي الأسهلَ علينا، وهي الأشكَلُ بطبعنا الضعيفِ المتسامحِ الكمتهاون.

(١) تهجينها: تقييحها.

(٢) اتحلّوها: اتخذوها بحلة وعمالاً.

(٣) يقحمون: يدخلون بالقوة.

ومن هذا تجدُ مشاكلنا ألاجتماعيَّة - على أنَّها أهونُ وأيسرُ من مشاكلِ
الأوربيين، وعلى أنَّ في ديننا وآدابنا لِكُلِّ مُشكلةٍ حلُّها - تجدُها هي علينا أصعبَ
وأشدَّ، لأنَّنا ضعفاءٌ ومتخاذلون ومقلِّدون ومفتونون، وكلُّ ذلك من شيءٍ واحد:
وهو أنَّ أكثرَ كُبرائنا هم أكبرُ بلائنا.

قالَ صاحبُ السِّرِّ: ثُمَّ ضحكَ الباشا ضحكتهُ الساخرةَ وقال: كيف تصنعُ أُمَّةٌ
يكونُ أكثرُ العاملينَ هم أكبرُ العاطلين، إذ يعملون ولكن بروحٍ غيرِ عاملة.. .

سرُّ القُبَّة

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا، قال: نَجَمْتُ^(١) في مصرَ حركةً بِعَقِبِ أَيَّامِ
الْبِدْعَةِ التُّرْكِيَّةِ، حينَ لم تَبَقْ لشيءٍ هناك قاعدةٌ إِلَّا القَاعَةُ الْوَاحِدَةُ الَّتِي تُقَرَّرُهَا
الْمُشَانِقُ... فَمَنْ أبى أَنْ يَخْلَعَ الْعِمَامَةَ عَنْ رَأْسِهِ خَلَعُوا رَأْسَهُ؛ وَمَنْ قَالَ (لا)
أَنْقَلَبْتُ (لا) هذه مُشَنِّقَةٌ فَعُلِقَ فِيهَا.

وكانتْ فِكْرَةُ اتِّخَاذِ الْقُبَّةِ فِي تَرْكِيا غِطَاءً لِلرَّأْسِ، قَدْ جَاءَتْ بَعْدَ نَزَعَاتٍ مِنْ
مِثْلِهَا كَمَا يَجِيءُ الْجِذَاءُ فِي آخِرِ مَا يَلْبَسُ الْأَلْبَسَ، فَلَمْ يَشْكَ أَحَدٌ أَنَّهَا لَيْسَتْ قُبَّةً
عَلَى الرَّأْسِ أَكْثَرَ مِمَّا هِيَ طَرِيقَةٌ لِتَرْبِيَةِ الرَّأْسِ الْمُسْلِمِ تَرْبِيَةً جَدِيدَةً، لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ
وَلَا سَجْدَةٌ؛ وَإِلَّا فَنَحْنُ نَرَى هَذِهِ الْقُبَّةَ عَلَى رَأْسِ الْأَرْزَنْجِيِّ وَالْهَمْجِيِّ، وَعَلَى رَأْسِ
الْأَبْلِيِّ وَالْمَجْنُونِ، فَمَا رَأَيْنَاهَا جَعَلَتْ الْأَسْوَدَ أَبْيَضَ، وَلَا عَرَفْنَاهَا نَقَلَتْ هَمَجِيًّا عَنْ
طَبِيعِهِ، وَلَا زَعَمَ أَحَدٌ أَنَّهَا أَكْمَلَتْ الْعَقْلَ الْناقِصَ أَوْ رَدَّتْ الْعَقْلَ الْذَاهِبَ، أَوْ أَنْقَلَبَتْ
آلَةً لِحُلِّ مُشْكَلاتِ الرَّأْسِ الْبَلِيدِ، أَوْ غَضَبَتْ الطَّبِيعَةَ شَيْئًا وَقَالَتْ: هَذَا لِحَامِلِي دُونَ
حَامِلِ الطَّرْبُوشِ وَالْعِمَامَةِ.

وَقَدْ أَحْتَجُّوا يَوْمَئِذٍ لِصَاحِبِ تِلْكَ الْبِدْعَةِ أَنَّهُ لَا يَرَى الْوَجْهَ إِلَّا الْمَدْنِيَّةَ، وَلَا
يَعْرِفُ الْمَدْنِيَّةَ إِلَّا مَدْنِيَّةَ أَوْرُبَا، فَهُوَ يَمْتَثِلُهَا كَمَا هِيَ فِي حَسَنَاتِهَا وَسَيِّئَاتِهَا، وَمَا يَحِلُّ
وَمَا يَحْرُمُ وَمَا يَكُونُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ وَمَا يَكُونُ فِي غِنَى عَنْهُ؛ حَتَّى لَوْ أَنَّ الْأَوْرُبِيِّينَ
كَانُوا غُورًا بِالطَّبِيعَةِ، لَجَعَلَ هُوَ قَوْمَهُ غُورًا بِالصَّنَاعَةِ لِيُشَبَّهُوا الْأَوْرُبِيِّينَ. نَعَمْ إِنَّهَا
حُجَّةٌ تَامَّةٌ لَوْ لَا نَقْصُ قَلِيلٍ فِي الْبِرْهَانِ، يُمَكِّنُ تَلَاْفِيَهُ بِإِخْرَاجِ طَبْعَةٍ جَدِيدَةٍ مِنْ كُتُبِ
الْفُتُوحِ الْعُثْمَانِيَّةِ، يَظْهَرُ فِيهَا الْخُلَفَاءُ الْعِظَامُ وَالْأَبْطَالُ الْمَغَاوِيرُ الَّذِينَ قَهَرُوا الْأَوْرُبِيِّينَ
لَا بَسِيْنٌ قُبَّعَاتٍ، لِيُشَبَّهُوا الْأَوْرُبِيِّينَ...

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَتَهَوَّرَ فِي هَذِهِ الضَّلَالَةِ رَهْطٌ مِنْ قَوْمِنَا، وَأَخَذُوا يَدْعُونَ
إِلَى التَّقْبِعِ فِي مِصْرَ احْتِذَاءً لِتَرْكِيا، وَذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى سَعْدِ بَاشَا (رَحِمَهُ اللَّهُ) يَطْلُبُ

(١) نجمت: ظهرت.

رأيه، فكان رأيه (لا) بمدّ الألف . . . وعهد إليّ بعضهم أن أسأل الباشا، فقال:

ويَحْهُمْ! ألا يخجلون أن نكون - نحن المصريين - مقلّدين للتقليد نفسه؟ إن هذه بدعة تنحط عندنا درجة عن الأصل، فكأنها بدعتان. ثم ضحك الباشا وقال: كان في القديم رجل سمع أن البصل بالخل نافع للصفا، فذهب إلى بستان يملكه وقال لوكيله: ازرع لي بصلاً بخل. . . هكذا يريدون من القبعات: أن تُخرَجَ لهم تركاً بأوربيتين.

ليست هذه القبعة في تركيا هي القبعة، بل هي كلمة سب للعرب وردت على الإسلام. ضاقت بها كلّ الأساليب أن تظهرها واضحة بيّنة، فلم يف بها إلا هذا الأسلوب وخده. وهي إعلان سياسي بالمناوأة والمخالفة والانحراف عنّا وأطراحنا. فإن الذي يخرج من أمته لا يخرج منها وهو في ثيابها وشعارها؛ فهذا انتفح لهم باب الخروج في القبعة دون غيرها ممّا يجري فيه التقليد أو يُبدعهُ الابتكار؛ وإلا فأى سرّ في هذه القبعات، ومتى كانت الأمم تُقاس بمقاييس الخياطين . . . ؟

ههنا سيف أراد أن يكون مقصداً لعمل أولاً ما يعمل الخسام البتار، فأجاد وأبدع وأكبره الناس وأعظموه؛ ثم صنع ما يصنع المِقْصُص، فماذا عساه يأتي به إلا ما يُنكره الأبطال والخياطون جميعاً؟

أكتب علينا أن نطلّ دهرنا نبحت في التقليد الأعمى، وألا يخيا الشرقي إلا مستعبداً ينتظر في كلّ أمره من يقول له: اشرع لي . . . ؟ إن بحثنا فلنبحث في زيّ جديد نتميز به، فتكون القوى الكامنة فينا وفي طبيعة أرضنا وجوّنا هي التي اخترعت لإظهارها ما يجعلها ظاهرة. كما يُخرج زور الأسد لبدة الأسد. غاية في المنفعة والجمال والملاءمة.

أنا ألبس ما شئت، ولكنني عند السعة أجد حداً تقف إليه ذاتيتي الفردية، فلا أرى ثمة موضع أنفراد ولكن موضع مُشاكلة، ولا أعرف صفة منفعة لي بل صفة حقيقة متي، ويعترضني من هناك المعنى الذي يصير به النوع إلى الجنس. والواحد بل الجماعة وما دمت مسلماً أصلي وأركع وأسجد، فالقبعة نفسها تقول لي: دعني فلسْتُ لك.

وهؤلاء الرجال الذين لبسوها في مصر، إنما اشتقوها من المصدر نفس

المصدر الذي يخرج منه ألهتك في النساء، وكلاهما منزع من المخالفة، وكلاهما ضد من صفة اجتماعية تقوم بها فضيلة شرقية عامة. وليس يعدم قائل وجهاً من القول في تزيين القبة، ولا مذهباً من الرأي في الاحتجاج لها، غير أن المذاهب الفلسفية لا يعجزها أن تقيم لك البرهان جدلاً^(١) محضاً على أن حياة المرأة وعفتها إن هما إلا رذيلتان في ألفن... وإن هما إلا مرض وضعف، وإن هما إلا كبت وكبت، ثم تنتهي الفلسفة إلى عدهما من البلاهة والغفلة، وما الغفلة والبلاهة إلا أن تريد فلسفة من فلسفات الدنيا أن تفحص في كتاب الصلاة مثلاً فصلاً في... في الدعاة.

لا يهولئك^(٢) ما أقرر لك: من أن القبة الأوربية على رأس المسلم المصري، تهتك أخلاقي أو سياسي أو ديني أو من هذه كلها معاً، فإنك لتعلم أن الذين لبسوها لم يلبسوها إلا منذ قريب، بعد أن تهتك الأخلاق الشرقية الكريمة وتحلل أكثر عقدها، وبعد أن قاربت الحرية العصرية بين النقائص حتى كادت تختلط الحدود اللغوية؛ فحرية المنفعة مثلاً تجعل الصادق والكاذب بمعنى واحد، فلا يقال: إلا أنه وجد منفعة فصدق، ووجد منفعة فكذب؛ وعند الحرية العصرية أنه ما فرق بين اللفظين وجعل لكل منهما حدوداً إلا جهل القدماء، وفضيلة القدماء، ودين القدماء. وهذه الثلاثة: الجهل والفضيلة والدين، هي أيضاً في المعجم اللغوي الفلسفي الجديد مترادفات لمعنى واحد، هو الاستعباد أو ألوههم أو الحرافة.

ومتى أزيلت الحدود بين المعاني، كان طبيعياً أن يلتبس شيء بشيء وأن يحل معنى في موضع معنى غيره، وأصبح الباطل باطلاً بسبب وحقاً بسبب آخر، فلا يحكم الناس إلا مجموعة من الأخلاق المتنافرة، تجعل كل حقيقة في الأرض شبهة مزورة عند من لا تكون من أهوائه ونزعاته، فيحتاج الناس بالضرورة إلى قوة تفصل بينهم فضلاً مسلحاً، فيكسبون القانون بمدنيتهم قوة همجية تضطره أن يعد للوحشية الإنسانية، وتدفع هذه الوحشية أن تعد له.

ومن اختلاط الحدود تجيء القبة على رأس المسلم، وما هي إلا حد يطمس حداً، وفكرة تهزم فكرة، ورذيلة تقول لفضيلة: هانذي قد جئت فاذهي.

(١) جدلاً محضاً: نقاشاً خالصاً.

(٢) لا يهولئك: لا يرعبك.

ما هو الأكبر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الصَّغر؛ وما هو الأصغر من شيئين لا حدَّ بينهما لتعيين الكِبَر؟ إنَّها ألفوضى كما ترى ما دامَ الحدُّ لا موضعَ له في التَّمييز ولا مقرُّ له في العُرف ولا فصلٌ به في العادة؛ ومن هنا كانَ الدينُ عند أقوام أكبرَ كلماتِ الإنسانيَّة في عامَّة لغاتها وأملأها بالمعنى، وكانَ عند آخرين أصغرَها وأفرغها مِنَ المعنى؛ وما كَبُرَ عند أولئك إلَّا من أنَّه يسعُ ألاجتماعَ الإنسانيِّ وهو محدودٌ بغاياته العُلَيَا، وما صَغُرَ عند هؤلاءِ إلَّا بأنَّ ألاجتماعَ لا يسعُه فلا حدَّ له، وكأنَّه معنى مُتوهمٌ لا وجودَ له إلَّا في أحرفِ كلمته.

فجماعةُ القُبعة لا يَرَوْنَ لأنفسهم حدًّا يحدونها به من أخلاقنا أو ديننا أو شرفيتنا، وقد مرَّقوا من كلِّ ذلك وأصبحوا لا يَرَوْنَ في زِينَا ألوطنيِّ ما فيه من قوَّة السِّرِّ الخفيِّ الذي يُلهمنا ما أودعه التاريخُ من قوميتنا ومعاني أسلافنا.

وأنا أعرفُ أنَّ مِنَّا قومًا يرى أحدهم في ظنِّ نفسه أنَّه قانونٌ من قوانين التطوُّر؛ فهو فيما يُلايسُه لا ينظرُ إلى أنَّه واحدٌ مِنَ الناس، بل واحدٌ مِنَ النواميس... ومن هنا الثَّقَلُ والدعوى الفارغة، وما هو أكبرُ مِنَ الثَّقَلِ وفراغ الدعوى. وإنَّه لحقُّ أن يكونَ بعضُ الناسِ أنبياء، ولكنَّ أقبحَ ما في الباطلِ أن يظنَّ كلُّ إنسانٍ نفسه نبيًّا.

وأعلمُ أنَّ كثيراً ممَّا يُزَيَّنونهُ للشرقيِّ من رذائلِ المدنيَّة الأوربيَّة، فترى كلاماً تحته معانٍ ومعانٍ لا يعدُّها غيرُ ألجائعِ إلَّا حماقةً ساعيتها...

سعد زغلول

وقالَ صاحبُ سرٍّ (م) باشا: ألقى إليّ الباشا ذاتَ يومٍ أنَّ (سعداً) مُصَبِّحُنَا زائراً، وكانتَ بينَ الرَّجُلَيْنِ خاصَّةً وأسبابٌ وطيدة^(١). وللباشا موقعٌ أعرَفُهُ من نفسِ سعدٍ كما أعرَفَ الشُّعْلَةَ في بركانِها؛ أمَّا سعدٌ فكانَ قدِ أَنتهى إلى أَلْهَيْهِ التي جعلَتْهُ رجلاً في إحدى يَدَيْهِ السَّحَرُ وفي الأُخْرَى المَعْجِزَةُ، فهو من عَظَمَاءِ هَذِهِ الأَبلَادِ كقاموسِ اللُّغَةِ من كَلِمَاتِ اللُّغَةِ: يُرَدُّ كُلُّ مُفْرَدٍ إِلَيْهِ في تعريفِهِ، ولا تصحُّ أَلْكَلِمَةُ عندَ أَحَدٍ إِلَّا إذا كانتَ فِيهِ الشَّهَادَةُ على صَحَّتِها.

وجاءنا سعدٌ غُدُوَّةً، فأسرَعْتُ إلى تقبيلِ يَدِهِ قَبْلَةَ لا تُشْبِهُها القُبَلاتُ، إذْ مُثِّلْتُ لي من فرحِها كأنَّها كانتَ منفيَّةً ورجَعْتُ إلى وطنِها العَزيزِ حينَ وُضِعَتْ على تلكَ أَلِيدِ.

إنَّ الرَّجُلَ العَظِيمَ إذا كانَ باراً بأبيه عارفاً قَدْرَهُ مُدْرِكاً عَظَمَتَهُ، يشعرُ حينَ يُقْبَلُ يدَ أبيه كأنَّهُ يسجدُ بروحِهِ سَجْدَةً لِلَّهِ على تلكَ أَلِيدِ التي يُقْبَلُها، ويجدُ في نفسِهِ اتِّصالاً كهربائياً بينَ قلبِهِ وبينَ سرِّ وجودِهِ، ويَخُصُّهُ العَالَمُ بلمسةٍ كأنَّ قُبْلَتَهُ نبَضَتْ في الكونِ: وكلُّ هذا قد أَحْسَنَتْهُ أنا في تقبيلي يدَ سعدٍ، وزِدْتُ عليه شعوري بمثلِ أَلْمَعْنَى الَّذِي يَكُونُ في نفسِ البَطلِ حينَ يُقْبَلُ سِيفَهُ المَتَصِيراً.

وضحكَ لي سعدٌ باشا ضحكَتَهُ المَعْرُوفَةَ، التي يبدأها فمُهُ، وتُتَمُّها عِيناهُ، ويشرُحُها وَجْهُهُ كُلُّهُ، فَتَجِدُ جوابَها في رَوحِكَ كأنَّهُ في رَوحِكَ أَلْقَاهَا.

والرَّجُلُ مِنَ النَّاسِ إذا نَظَرَ إلى سعدٍ وهو يبتسمُ، رأى لَهُ أبتِسامَةً كأنَّها كَمالٌ يتواضعُ، فيُحَسُّ كأنَّ شَيْئاً غَيْرَ طَبِيعِيٍّ يَتَّصِلُ مِنْهُ بِشَيْءٍ طَبِيعِيٍّ، فينتعشُ وَيَتَبُّ في وجودِهِ الرُّوحِيَّ وثَبَّةً عَالِيَةً تَكُونُ فَرَحاً أو طَرَباً أو إعجاباً أو خُشوعاً أو كُلِّها معاً. غَيْرَ أنَّ الرَّجُلَ مِنَ الحُكَمَاءِ إذا تَأَمَّلَ وَجْهَ سعدٍ، وهو يضحكُ ضحكَتَهُ المَطْمَئِنَّةَ المَتَمَكِّنَةَ من معناها المَقَرُّ أو المَنكِرِ أو السَّاخِرِ أو أَيْ المَعاني - حَسِبَ نَفْسَهُ يرى

(١) أسباب وطيدة: علائق ووشائج قوية.

شكلاً مِنْ أَلْقَوْلِ لَا مِنْ الضَّحْكِ، وَظَهَرَتْ لَهُ تِلْكَ الْإِبْتِسَامَةُ الْفَلَسْفِيَّةُ مُتَكَلِّمَةً، كَأَنَّهَا
مَرَّةً تَقُولُ: هَذَا حَقِيقِي. وَمَرَّةً تَقُولُ: هَذَا غَيْرُ حَقِيقِي.

إِنَّ سَعْدًا الْعَظِيمَ كَانَ رَجُلًا مَا نَظَرَ إِلَيْهِ وَطَنِيٌّ بَعِينَ فِيهَا دَلَائِلُ أَحْلَامِهَا، كَأَنَّمَا
هُوَ شَخْصٌ فِكْرَةٌ لَا شَخْصٌ إِنْسَانٌ؛ فَإِذَا أَنْتَ رَأَيْتَهُ كَانَ فِي فِكْرِكَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ فِي
نَظْرِكَ؛ فَأَنْتَ تَشْهَدُهُ بِنَظَرَيْنِ: أَحَدُهُمَا الَّذِي تُبْصِرُ بِهِ، وَالْآخَرُ ذَاكَ الَّذِي تُؤْمِنُ بِهِ.

عَبْقَرِيٌّ كَالْجَمْرَةِ الْمَلْتَهَبَةِ لَا تَحْسَبُهُ يَعِيشُ بَلْ يَحْتَرِقُ وَيُحْرَقُ؛ ثَائِرٌ كَالزَّلْزَلَةِ
فَهُوَ أَبَدًا يَرْتَجُّ وَهُوَ أَبَدًا يَرْجُ مَا حَوْلَهُ؛ صَرِيحٌ كَصَرَاحَةِ الرُّسُلِ، تِلْكَ الَّتِي مَعْنَاهَا أَنَّ
الْأَخْلَاقَ تَقُولُ كَلِمَتَهَا.

رَجُلُ الشَّعْبِ الَّذِي يُحْسِنُ كُلُّ مِصْرِيٍّ أَنَّهُ يَمْلِكُ فِيهِ مِلْكًا مِنْ الْمَجْدِ. وَقَدْ بَلَغَ
فِي بَعْضِ مَوَاقِفِهِ مَبْلَغَ الشَّرِيعَةِ، فَاسْتَطَاعَ أَنْ يَقُولَ لِلنَّاسِ: ضَعُوا هَذَا الْمَعْنَى فِي
الْحَيَاةِ، وَأَنْزِعُوا هَذَا الْمَعْنَى مِنَ الْحَيَاةِ.

قَالَ صَاحِبُ أَلْسَرٍ: وَأَنْقَضَتِ الزِّيَارَةُ وَخَرَجَ سَعْدٌ وَالْبَاشَا إِلَى يَسَارِهِ، فَلَمَّا
رَجَعَ مِنْ وَدَاعِهِ قَالَ لِي: - وَاللَّهِ - يَا بُنَيَّ لَكَأَنَّمَا زَادَ هَذَا الرَّجُلُ فِي أَلْقَابِ الدَّوْلَةِ
لِقَابًا جَدِيدًا، ثُمَّ ضَحَكَ وَقَالَ: أَتَدْرِي مَا هُوَ هَذَا أَلْقَابُ؟ قُلْتُ: فَمَا هُوَ يَا بَاشَا؟

قَالَ: - وَاللَّهِ - يَا بُنَيَّ مَا مِنْ (بَاشَا) فِي هَذِهِ الدَّوْلَةِ يَكُونُ إِلَى جَانِبِ سَعْدِ،
إِلَّا وَهُوَ يَشْعُرُ أَنَّ رَتَبَتَهُ (نَصَفُ بَاشَا)...

هَذَا رَجُلٌ قَدْ بَلَغَ مِنَ الْعِظَمَةِ مَبْلَغًا تَصَاغَرَ مَعَهُ الْكَبِيرُ، وَتَضَاعَلَ الْعَظِيمُ،
وَتَقَاعَصَرَ الشَّامِخُ؛ نَعَمْ وَحَتَّى تَرَكَ أَقْوَامًا مِنْ خُصُومِهِ الْعِظَمَاءَ، كَفَلَانٍ وَفَلَانٍ، وَإِنَّ
الْوَاحِدَ مِنْهُمْ لَيَلُوحُ لِلشَّعْبِ مِنْ فِرَاقِهِ وَضَعْفِهِ وَتَطَرُّجِهِ، كَأَنَّهُ ظِلُّ رَجُلٍ لَا رَجُلٍ.

وَقَدْ أَصْبَحَ قُوَّةً عَامِلَةً لَا بَدَّ مِنْ فَعْلِهَا فِي كُلِّ حَيٍّ تَحْتَ هَذَا الْأَفَقِ، حَتَّى كَأَنَّ
مَعَانِي نَفْسِهِ الْكَبِيرَةَ تَتَشَرُّ فِي الْهَوَاءِ عَلَى النَّاسِ، فَهُوَ قُوَّةٌ مَرْسَلَةٌ لَا تُمَسَّكُ، مَاضِيَةٌ
لَا تُرَدُّ، مَقْدُورَةٌ لَا يُحْتَالُ لَهَا بِحِيلَةٍ.

هَذَا وَضَعُ إِلَهِي خَاصُّ لَا يُشَبَّهُهُ أَحَدٌ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ، كَمِيدَانِ الْحَرْبِ لَا تُشَبَّهُهُ
الْأَمَكْنَةُ الْآخَرَى؛ فَقَدْ غَامَرَ سَعْدٌ فِي الثَّوْرَةِ الْعُرَابِيَّةِ وَخَرَجَ مِنْهَا، وَلَكِنَّهَا هِيَ لَمْ
تَخْرُجْ مِنْهُ، بَلْ بَقِيَتْ فِيهِ؛ بَقِيَتْ فِيهِ تَتَعَلَّمُ الْقَانُونَ وَالسِّيَاسَةَ، وَتُصَلِّحُ أَغْلَاطَهَا، ثُمَّ
ظَهَرَتْ مِنْهُ فِي شَكْلِهَا الْقَانُونِيُّ الدَّقِيقُ. وَبِهَذَا تَرَاهُ يَغْمُرُ الرِّجَالُ مَهْمَا كَانُوا أَذْكَاءَ؛

لأن فيه ماليس فيهم، وتراهم يظهرن إلى جانبهِ أشياء ثابتة في معانيها، أما هو فتراه من جميع نواحيه يتلاطم كالأواجِ ألعانية .

وتلك الثورة هي التي تتكلم في فيه أحياناً فتجعل لبعض كلماته قوة كقوة النصر، وشهرة كشهرة موقعة حربية مذكورة .

ولما كان هو المختار ليكون أباً للثورة - حرمة القدرة الإلهية النسل، وصرفت نزعاً الأبوّة فيه إلى أعماله التاريخية، ففيها عنايته وقلبه وهمومه، وهي نسل حي من روجه العظيمة، ويكاد معها يكون أسداً يزار حول أشباله . ولن يذكر السياسيون المصريون مع سعد، ولن يذكر سعد نفسه إذا أنقلب سياسياً، فإن المكان الخالي في الطبيعة الآن هو مكان رجل المقاومة لا رجل السياسة، وهذا هو السبب في أن سعداً يشعر الأمة بوجوده لذة كلذة الفوز والانتصار، وإن لم يفز بشيء ولم ينتصر على شيء؛ فأطمئنان الشعب إلى زعيم المقاومة، هو بطبيعته كأطمئنان حامل السلاح إلى سلاحه .

وسعد وحده هو الذي أفلح في أن يكون أستاذ المقاومة لهذه الأمة؛ فنسخ قوانين، وأوجد قوانين، وحمل الشعب على الإعجاب بأعماله العظيمة، فنبه فيه قوة الإحساس بالعظمة فجعله عظيماً، وصرقه بالمعاني الكبيرة عن الصغائر، فدفعه إلى طريق مستقبله يبدع إبداعه فيه .

إن هذا الشرق لا يحيا بالسياسة ولكن بالمقاومة وما دام ذلك الغرب بإزائه؛ والفرسة لا تتخلص من الحلق الوحشي إلا باعتراض عظامها الصلبة القوية في هذا الحلق .

وكم في الشرق من سياسي كبير يجعلونه وزيراً، فتكون الوظيفة هي الوزير لا نفس الوزير، حتى لو خلعوا ثيابه على خشبة ونصبوها في كرسيه، لكانت أكثر نفعاً منه للأمة، بأنها أقل شراً منه . . .

يا بُني، كل الناس يرضون أن يتمتعوا بالمال والجاء والسيادة والحكم، فليست هذه هي مسألة الشرق، ولكن المسألة: من هو النبي السياسي الذي يرضى أن يضلّب . . . ؟

حماسةُ الشعب

وحدَّثني صاحبُ سرِّ (م) باشا قال: لَمَّا رَجَعَ سعدُ باشا من أوروبا في سنة ١٩٢١، كانتِ الأُمّةُ في استقباليه كأنّها طائرٌ مدّ جناحيه، لا خلافَ لشيءٍ منه على شيءٍ منه، بل كلّهُ هو كلّهُ؛ وكانتِ المعارضةُ في الاستحالةِ يومئذٍ كاستحالةِ وجودِ رُقعةٍ في ريشِ الطائرِ.

على أنّ ثوبَ السياسةِ المصريّةِ كثيرُ الرُّقع دائماً بالجديدِ والخَلَقِ^(١)، فرقعةٌ من المعارضين، وأخرى من المتعتنين^(٢)، وثالثةٌ من المتخاذلين^(٣)، ورابعةٌ من المعادين، وخامسةٌ وسادسةٌ وسابعةٌ من الحاسدين والمنافسين والمختلفين لشهوةِ الخلافِ؛ ورقاعٌ بعدَ ذلكٍ ممّا نعلمُ وما لا نعلمُ، فإنّ من العجيبِ أنّ هذا الجوّ الذي لا يتقلّبُ إلّا بطيئاً، يتقلّبُ أهلهُ بسُرعةٍ؛ وهذهِ الطبيعةُ التي لا تكادُ تختلفُ، لا يكادُ أهلُها يتفقون.

ولكنّ سعداً (رحمه الله) رَجَعَ من أوروبا رجعةً الكرامةِ لأُمّةٍ كاملة، ففازَ بأنّه لم يخسرَ شيئاً من الحقِّ، وانتصرَ بأنّه لم يهزم، ودلّ على ثباته بأنّه لم يتزعزع، وذهبَ صولةً ورجعَ صولةً وعزيمة؛ فكانَ إيمانُ الشعبِ هو الذي يتلقّاه، وكانتِ الثورةُ هي التي تحتفلُ به، وبطلتِ العللُ كلّها فلم يجدِ الاعتراضُ شيئاً يعترضُ عليه، واتّفقتِ الأسبابُ فأجتمعتِ الكلمةُ، وظهرَ سعدٌ كأنّه روحُ الأُمّةِ متمثلاً في قُدرةٍ، حاكماً بقوةٍ، متسلطاً بيقينٍ.

نعم لم ينتصرِ البطلُ، ولكنّ الأُمّةَ احتفتِ بهِ لأنّه يمثلُ فيها كمالاً من نوعٍ آخرٍ هو سرُّ الانتصارِ؛ فكانتِ حماسةُ الشعبِ في ذلكَ اليومِ حماسةً المبدئِ المتمكّنِ: يُظهرُ شجاعةَ الحياةِ، وفورةَ العزائمِ، وفضيلةَ الإخلاصِ، وشدّةَ الصّولةِ، وعنادَ التصميمِ؛ ويثبتُ بقوةَ ظاهره قوةَ باطنه، وكانَ فرحُ الأُمّةِ عناداً

(١) الخلق، بالفتح: البالي.

(٢) المتعتنين: المتشددين.

(٣) المتخاذلين: المنهزمين.

سياسيًا يفرح بأنه لا يزال قويًا لم يضعف، وكان أبتهاجها مجداً يشعر بأنه لا يزال وافرًا لم ينتقص، وكان الاجتماع ردًا على اليأس، وكانت الحماسة ردًا على الضعف.

انبعث صولة الحياة في الشعب كله، وأبتدأ المستقبل من يومئذ، فلو نزلت الملائكة من السماء في سحابة مجلجلة^(١) يسمع تسييحهم ليؤيدوا سعداً - لما زادوه شيئاً؛ فقد كان محلّه من القلوب كأنه العقيدة، وكان التصديق مبدولاً له كأنه الكلمة الأخيرة، وكانت الطاعة موقوفة عليه كأنه الباعث الطبيعي، وكان البطل في كل ذلك يشبه نبياً من قبل أن كلا منهما صورة كاملة للسمو في أفكار أمة.

قال صاحب السر: ورجع ألباشا من القاهرة وقد رأى ما رأى من مسامحة النفوس، وصحة العهد، واجتماع الكلمة، وإعداد الشعب للمراس والمُعانة، فقال:

تالله لقد أثبت (سعد) للدنيا كلها أن مصر الجبارة متى شاءت بنت الرجال على طريقة الهرم الأكبر في العظمة والأشهرة والمنزلة والقوة. ولقد صنع هذا الرجل العظيم ما تصنع حرب كبيرة، فجمع الأمة كلها على معنى واحد لا يتناقض، ودفعها بروح قومية واحدة لا تختلف، وجعل عزق السياسة يفور كما يفور العرق المجروح بالدم.

إن هذه الأمة بين شيئين لا ثالث بينهما: إمّا الحزم إلى الآخر وإمّا الإضاعة. ولا حزم إلا أن يبقى الشعب كما ظهر اليوم: طوفاناً حياً، مستوي الطبيعة، مندفع الحركة، غامراً كل ما يعترضه، إلى أن يقضى الأمر ويقول أعداؤنا: يا سماء أقلعي.

هكذا يعمل الوطن مع أهله كأنه شخص حي بينهم، حين يستوي الجميع في الثقة، ويتآزر الجميع في العمل، ويشارك الجميع في العطف الروحي، ولا يبقى لجماعة منهم حظ في رغبة غير الرغبة الواحدة للجميع؛ وهكذا يعمل الوطن بأهله حين يعمل مع أهله.

كان أعداؤنا يحسبوننا ذباباً سياسياً لا شأن له إلا بفضلات السياسة، ولا عمل

(١) مجلجلة: مدوية.

لَهُ فِي أَزْهَارِهَا وَأَثْمَارِهَا وَعِطْرِهَا وَخَلْوَاهَا؛ فَاسْمَعَهُمُ الشَّعْبُ الْيَوْمَ طِينِ النَّحْلِ، وَأَرَاهُمْ إِبْرَ النَّحْلِ، لِيَعْلَمُوا أَنَّ الْأَزْهَارَ وَالْأَثْمَارَ وَالْعِطْرَ وَالْحُلُوى هِيَ لَهُ بِالطَّبِيعَةِ.

وكانوا يتخَرَّصون^(١) أَنَّ مذهبنا في الْحَيَاةِ لِمَصْلَحَةِ الْمَعَاشِ فَقَطْ، وَأَنَّ الْمِصْرِيَّ، حَاكِمًا أَوْ مُحْكومًا، لَا يَمْدُ أَمَالَهُ الْوَطَنِيَّةَ إِلَى أَبْعَدَ مِنْ مَدَّةِ عَمْرِهِ سَبْعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَةً، فَإِذَا أَطْلَقُوا أَيْدِيَنَا فِي حَاضِرِ الْأُمَّةِ أَطْلَقْنَا أَيْدِيَهُمْ فِي مُسْتَقْبَلِهَا. وَمَنْ ثُمَّ طَمِعُوا أَنْ يَكُونَ الْحَقُّ الْنَاقِصُ فِي نَفْسِهِ حَقًّا تَامًا فِي أَنْفُسِنَا لِهَذِهِ الْعِلَّةِ؛ وَحَسِبُوا أَنَّ الْأَسْيَاسِيَّ الْمِصْرِيَّ لَا يَتَجَرَأُ أَنْ يَقُولَ مَا يَقُولُهُ الْأَسْيَاسِيُّ الْأَوْرَبِيُّ: مَنْ أَنَّهُ لَا يَخْشَى الْمَوْتَ وَلَكِنَّهُ يَخْشَى الْعَارَ. فَإِنَّهُ إِذَا مَاتَ وَحْدَهُ، وَإِذَا جَلَبَ الْعَارَ جَلَبَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أُمَّتِهِ وَعَلَى تَارِيخِ أُمَّتِهِ، يَبْدُ أَنْ سَعْدًا قَالَهَا؛ وَفِي مِثْلِ هَذَا يَكُونُ قَوْلُ (لَا) مَعْرَكَةً.

وَمَا هِيَ ذِي مَعْرَكَةِ الْيَوْمِ التَّارِيخِيَّةِ، فَإِنَّ الذَّرَاتِ الْحَيَّةَ الَّتِي تُخْلَقُ مِنْ دِمَائِنَا - نَحْنُ الْمِصْرِيِّينَ - قَدْ ثَارَتْ فِي هَذِهِ الدَّمَاءِ، فِي هَذَا النَّهَارِ، تُعْلِنُ أَنَّهَا لَا تَرْضَى أَنْ تَوْلَدَ مَقِيدَةً بِقِيُودِ.

أَتُدْرِي مَاذَا عَرَضُوا عَلَى سَعْدٍ؟ إِنَّهُمْ عَرَضُوا عَلَيْهِ مَا يُشْبَهُ فِي السَّخْرِيَّةِ طَاحُونَةً تَامَةً الْأَدَوَاتِ وَالْآلَاتِ مِنْ آخِرِ طَرَاذِ، ثُمَّ لَا تُقَدِّمُ لَهَا إِلَّا حَبَّةَ قَمْحٍ وَاحِدَةً لِنَطْحَتِهَا. . . . نَتِيجَةُ تَسْخَرُ مِنْ أَسْبَابِهَا، وَأَسْبَابُ تَهْزَأُ بِالنَّتِيجَةِ.

إِنَّ أَوْرِبَا لَا تَحْتَرِمُ إِلَّا مَنْ يَحْمِلُهَا عَلَى أَحْتِرَامِهِ، فَمَا أَرَى لِلْإِسْطَاسِيَّينَ فِي هَذَا الْأَشْرِقِ عَمَلًا أَفْضَلَ وَلَا أَقْوَى وَلَا أَرْدَ بِالْفَائِدَةِ مِنْ إِحْيَاءِ الْحَمَاسَةِ الدَّائِمَةِ الْقَوِيَّةِ الْبَصِيرَةِ، هِيَ قُوَّةُ الِرْفُضِ لِمَا يَجِبُ أَنْ يُرْفُضَ، وَقُوَّةُ التَّائِيدِ، لِمَا يَجِبُ أَنْ يُقْبَلَ، وَهِيَ بَعْدَ ذَلِكَ وَسِيلَةُ جَمْعِ الْأَمْرِ، وَإِحْكَامِ الشَّأْنِ، وَإِقْرَارِ الْعَزِيمَةِ فِي الْأَخْلَاقِ، وَتَرْبِيَةِ الثَّقَةِ بِالنَفْسِ، وَبِهَا يَكُونُ إِذْكَاءُ الْحَسِّ وَتَعْوِيدُهُ إِدْرَاكَ الْأَعْمَالِ الْعَظِيمَةِ، وَالتَّحَمُّسَ لَهَا، وَالْبَذَلَ فِيهَا.

وَمَا عِلَّةُ الْعِلَلِ فِينَا إِلَّا ضَعْفُ الْحَمَاسَةِ الشَّعْبِيَّةِ فِي الْأَشْرِقِ، وَسَوْءُ تَدْبِيرِهَا، وَقَبْحُ سِيَاسَتِهَا؛ وَإِنَّا لَنَأْخُذُ عَنِ الْأَوْرَبِيِّينَ مِنْ نِظَامِهِمْ وَأَسَالِيِبِهِمْ وَسِيَاسَتِهِمْ وَعِلُومِهِمْ وَفُنُونِهِمْ؛ فَنَأْخُذُ كُلَّ ذَلِكَ بِرُوحِنَا الْفَاتِرَةِ فِي خُمُولٍ وَإِهْمَالٍ وَتَوَاقُلٍ وَتَفَرُّدٍ بِالْمَصْلَحَةِ وَاسْتِبْدَادٍ بِالرَّأْيِ، فَإِذَا دِينَارُهُمْ فِي أَيْدِينَا دَرَاهِمَ، وَإِذَا نَحْنُ وَإِيَّاهُمْ فِي الْأَشْيَاءِ الْوَاحِدِ كَالنَّحْلَةِ وَالذَّبَابَةِ عَلَى زَهْرَةٍ. . .

(١) يَتَخَرَّصُونَ: يَقُولُونَ.

ليست لنا حماسة الحياة، وبهذا تختلف أعمالنا وأعمالهم، وذلك هو السر أيضاً في أن أكثر حماسنا كلامية مخضّة؛ إذ يكون الصراخ والصياح والتشدق^(١) ونحوها من هذه المظاهر الفارغة - تنقيحاً للطبيعة الساكنة فينا، وتنويعاً منها بغير أن نجهد في التنقيح والتنويع. ومن هذا كانت لنا أنواع من الكلام ينطلق اللسان فيها للخروج من الصمت لا غير... ومنه كثير من هذا الهراء السياسي الذي يدور في المجالس والأحزاب والصحف.

إن حماسة الشعب لا تكون على أعدائه فقط؛ بل على معايبه أيضاً، وعلى ضعفه بخاصة، والشعب الفاتر في حماسه لو نال حقين مغضوبين لعاد فخير أحدهما أو كليهما، أما الشعب المتحمس القوي في حماسه، فلو غصّب حقين ونال أحدهما لعاد فأنز^(٢) الآخر.

(١) التشدق: التصنع في الكلام والتفعر فيه.

(٢) ابتز: استحوذ: وأخذ بقوة.

الجمهور

وقال صاحبُ سرٍّ (م) باشا: كانَ من بعضِ عملي في الحكومةِ سنة ١٩٢٢ أنْ أراقبَ الحركاتِ والسكناتِ، وأبثَّ العيونَ والأزْصادَ، وأعرِفَ المضطربَ والمُنقلبَ في أيَّامِ ألفتنِ ونوازلِ المِحنةِ، محافظةً على الأمنِ، ومُبادرةً لِمَا يُتوقَّعُ؛ فكُنْتُ كالمرصدِ المِهْيأَ بِأَلَاتِهِ لِتدوينِ حركاتِ الزلازلِ.

وانتهى إلينا يوماً أنْ راجفةً من هذه الزلازلِ سترجُفُ بفلانٍ من أهلِ الرأْيِ الحرِّ؛ الَّذي يَسْتَقِيلُ ولا يُتابعُ، وينتقِذُ ولا يُحابي، ويُصرُخُ ولا يُجمِجُ^(١)، وأنَّ قومًا ثوروا عليه الغُبارَ الأدميَّ مِنَ العامَّةِ، وأنَّهم يتحيَّنونَ الوقتَ لِتوجيهِ المكيِّدةِ لَهُ في شكلِها المُفترسِ من هذا الجمهورِ الناقمِ.

أمَّا فلانُ هذا فرجلٌ سياسيٌّ عنيدٌ أضاعَ الحقَّ كُلَّهُ لأنَّه لا يرضى بنصفِ الحقِّ... وكلمتهُ في السياسةِ كأنما تُلقَى على لِسَانِهِ مِنَ الغيبِ؛ فلا يتحوَّلُ عنها ولا يملكُ أنْ يتكلَّمَ إلَّا بما يتكلَّمُ؛ وقد ذهبَ بصوتهِ أنَّه في قومٍ لا يسمعونَ إلَّا ما أَرَدوا، فهو بينهم كالحقِّ المَغلوبِ: لا يموتُ لأنَّه غيرُ باطلٍ، ثُمَّ لا يحيا لأنَّه لا ينتصر. وقد كانَ رجلاً كالمُصباحِ الوهاجِ^(٢) فألقوا عليه الغطاءَ، فإذا هو في طبيعتهِ ويبدو للناسِ بغيرِ طبيعتهِ، وتركه رأيه الحرُّ الصريحُ كالنبيِّ المكذَّبِ يَرُدُّ صدقه؛ لا لأنَّه غيرُ صدقٍ، ولكنَّ لأنَّه غيرُ مستطاعٍ، أو غيرُ ملائمٍ.

ومن آفاتِنَا - نحن الشرقيين - أنَّنا نستمرىءُ العداوةَ، وننقادُ لأسبابها، ونتطاوَعُ لها تطاوَعُ الصُّغارِ بأنفسِهِم لِمَا في أنفسهم؛ كأنَّ المُستبدينَ الَّذين كانوا في تاريخنا قد أنتقلوا إلى طبائِعنا؛ فَرَدُّ الفِكرِ على الفِكرِ في مناقشةِ تجري بيننا - لا يكونُ من دَفْعِ الحقيقةِ لِلحقيقةِ، ولكن من ردِّ الاستبدادِ على الاستبدادِ، ومن توثُّبِ الطغيانِ على الطغيانِ؛ فهو الثُّلبُ^(٣)؛ والطعنُ والتجريحُ، وهو الجَفوةُ والخصومةُ

(١) يُجمِجُ: يتكلم في داخله بما لا يفهم.

(٢) الوهاج: الوضاء.

(٣) الثلب: التجريح بسبب الكلام.

وَاللَّدَد، وهو الْمَنَازَعَةُ وَالْعُنْفُ وَالْتِحَامِل؛ وهو بهذه وتلك شرٌّ وفسادٌ وسقوط .
وَالْجِدَالُ بَيْنَ الْعُقَلَاءِ يَبْعَثُ الْفِكْرَ فَيَنْتَهِي إِلَى الْحَقِّ، وَلَكِنَّهُ فِينَا نَحْنُ يَهْيِجُ الْخُلُقَ
فَيَنْتَهِي إِلَى الْأَشَرِّ، وَالرَّدُّ عَلَى عَظِيمٍ مَثَلُهُ كَأَنَّهُ يَرُدُّ عَلَى مَنْزِلَتِهِ فِي الرَّأْيِ، وَكَشَفُ
الْخَطَا عِنْدَنَا تَعْيِيرٌ بِالْخَطَا لَا تَبْصِيرٌ بِالصَّوَابِ، وَاسْتِلَابٌ^(١) الْحُجَّةِ مِنْ صَاحِبِهَا
وإفسادها عليه كاستلابِ الْمَلِكِ مِنْ مَالِكِهِ وَطَرْدِهِ مِنْهُ . . . وَمَنْ تَمَّ كَانَ الدِّفَاعُ
بِالْمَكَابَرَةِ أَصْلًا مِنْ أَصُولِ الطَّبِيعَةِ فِينَا، وَكَانَ الْأَضْطِهَادُ حُجَّةً لِلْحُجَّةِ الْعَاجِزَةِ،
وَكَانَ الْإِعْنَاتُ^(٢) دَلِيلًا لِلدَّلِيلِ الَّذِي لَا يَنْهَضُ بِنَفْسِهِ، وَوَمَتَّى أَعْتَبَرَ كُلُّ إِنْسَانٍ نَفْسَهُ
إِمْبَرَاطُورًا عَلَى الْحَقِّ . . . فَلَا جَرَمَ لَا تَرُدُّ كَلِمَةً عَلَى كَلِمَةٍ إِلَّا بِحَرْبٍ .

* * *

قَالَ صَاحِبُ السَّرِّ: وَكَبُرَ الْأَمْرُ عَلَى الْبَاشَا، فَجَمَعَ رُؤُوسَ الْمُؤْتَمِرِينَ بِذَلِكَ
الرَّجُلِ الْحَزَّ، وَأَخَذَ يَقْلُبُهُمْ تَقْلِيلَهُ بَيْنَ التَّوَدُّدِ وَالْمَلَاظِفَةِ، وَقَالَ لَهُمْ فِيمَا قَالَ: إِنَّ
فَضِيلَةَ الْجُمْهُورِ هِيَ الَّتِي تَضُمُّ تَرْبِيَةَ الْفَضِيلَةِ وَحِفْظَهَا وَغَلَبَتَهَا عَلَى الْأَرْذَالِ، وَإِنَّ
كُلَّ صَاحِبٍ يَكُونُ فَاسِدًا إِذَا لَمْ يَكُنِ الْجُمْهُورُ صَاحِبًا، وَإِنَّ غَيْرَ الْعُقَلَاءِ هُمُ الَّذِينَ
يَقْبَلُونَ الْحَقِيقَةَ فِي يَوْمٍ ثُمَّ يَرَفُضُونَهَا هِيَ ذَاتَهَا فِي يَوْمٍ آخَرَ، فَإِنَّ ذَهَبَتْ تُجَادِلُهُمْ
وَتَحْتَجُّ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُمْ قَبَلُوهَا - قَالُوا: هَذَا كَانَ أَمْسٍ . . . فَكَأَنَّمَا الْفَاصِلُ بَيْنَ زَمَنَيْنِ
يَجْعَلُ الشَّيْءَ الْوَاحِدَ ضِدَّيْنِ .

ثُمَّ سَأَلَهُمْ: مَا هُوَ ذَنْبُ الرَّجُلِ؟ فَقَالَ مِنْهُمْ قَائِلٌ: إِنَّهُ خَارِجٌ عَلَيْنَا فِي الرَّأْيِ .
فَقَالَ الْبَاشَا: إِنَّ الْأَمْعَى فِي أَنَّهُ يُخَالِفُكُمْ هُوَ أَنْتُمْ تُخَالِفُونَهُ؛ فَقَدْ تَكَافَأَتْ
النَّاحِيَتَانِ، وَخِلَافٌ بِخِلَافٍ؛ فَمَا الَّذِي جَعَلَ حَقَّ رَدِّهِ عَنِ الرَّأْيِ دُونَ أَنْ يَكُونَ لَهُ
مِثْلُ هَذَا الْحَقِّ فِي رَدِّكُمْ أَنْتُمْ؟

قَالُوا: إِنَّا أَلَكْثَرَةُ. قَالَ الْبَاشَا: يَا أَصْدِقَائِي، إِنَّ خَوْفَ الْكَثَرَةِ مِنْ رَأْيٍ فَرَدَّ أَوْ
أَفْرَادٍ هُوَ أَسْوَأُ الْمَعْنَيْنِ فِي تَفْسِيرِ رَأْيِهَا هِيَ؛ وَعَشْرَةُ جَنِيهَاتٍ لَا تَعْبَأُ بِالْجَنِيهِ
الْوَاحِدِ، فَإِنَّهَا تَسْتَغْرِقُهُ؛ بَيِّنْ أُنْ هَذِهِ لَيْسَتْ حَالُ عَشْرَةِ قُرُوشٍ يَا أَصْدِقَائِي . . .

نَعَمْ إِنَّ قِطْعَ الْخِلَافِ ضَرُورَةٌ مِنْ ضَرُورَاتِ الْوَطَنِيَّةِ، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ الْأَمْرُ فِي
ظَاهِرِهِ وَبَاطِنِهِ كَالْخِلَافِ فِي أَيِّهِمَا أَطْوَلُ: الْعَصَا أَوْ الْمِثْدَنَةُ . . .؟ فَذَلِكَ جِدَالٌ
مَحْسُومٌ مِنْ نَفْسِهِ بِلَا جِدَالٍ .

(١) استلاب: سرقة.

(٢) الإعنات: الاتعاب.

إِنَّ أَسَاسَ انْخِذَالِنَا^(١) - نحن الشرقيين - في قلوبنا، إذ لا نعتبر المعاني العامة إلا من جهة أنها قائمة بالرجال، ثُمَّ نعتبر الرجال إلا من ناحية ما في أنفسهم منهم، ثُمَّ لا نعتبر أنفسنا إلا من جهة ما يرضينا أو يَغضبنا، وقد لا يَغضبنا إلا الحق والجِدُّ، وقد لا يرضينا إلا ألباطل وألتهاون، ولكنا لا نبالي إلا ما نرضى وما نغضب.

لَسْتُمْ أحراراً في أن تجعلوا غيركم غير حرّ، فإن يكن الرأي الذي يعارضكم رأياً حقاً وتركتم مُنابذته^(٢) فقد نصرتم الحق؛ وإن يكن باطلاً فإظهاره باطلاً هو بُرهان الحق الذي أنتم عليه؛ ولن تُجردوا^(٣) أحداً من اختيار الرأي إلا إذا تجردتم أنتم من اختيار العدل، فإن فعلتم فهذه كبرياء ظالمة، تدعي أنها الحق، ثُمَّ تدعي لنفسها حُكمه، فقد كذبت مرتين.

إِسمعوا أيها السادة: قامَت بين اثنين من فلاسفة الرأي مناظرة في صحيفة من الصحف، وتَسَاجَلَا^(٤) في مقالاتٍ عدّة، فلما عجزَ أضعفهما حُجّةً وكَعَمَه^(٥) الجدال، كتبَ مقالته الأخيرة فجاءت سقيمة، فلم تُرضِهِ فبيّنها ونامَ عنها على أن يرسلها من الغدّاء بعد أن يُردّدَ نظرَهُ فيها ويصحّحَ آراءَهُ بالحجج التي يفتح بها عليه. قالوا: فلما نامَ تمثّلت له المقالة في أحلامِهِ جسماً حياً موهوناً مترضضاً^(٦)، مخلوعاً من هنا مكسوراً من هناك، مجروحاً ممّا بينهما؛ ثُمَّ كَلَمَتْهُ فقالت له: ويحك أيها الأبله! إن أردت أن تغلبَ صاحبك وتُسكِتَهُ عنك، فأجملْ مقالتك إلى رأسِهِ في العصا لا في الجريدة...

قالَ صاحبُ السّرِّ: وضحكَ القومُ جميعاً، وأذعنوا^(٧) وأنصرفوا مقتنعين، قد خَلَصَتْ دِخْلُهُمْ لِدَلِكِ الرجلِ الحرِّ وتنصّلوا^(٨) من جريمةٍ كانت في أيديهم، وما

(١) انخذالنا: انهزامنا.

(٢) منابذته: مخالفته ومجادلته.

(٣) تجردوا: تعزّوا.

(٤) تساجلا: تحاورا وتجادلا وتارة يربح هذا وتارة أخرى يربح ذاك.

(٥) كعم: شدّ فاه لثلا يعضّ أو يأكل وهو يقصد أسكته.

(٦) مترضضاً: مصاباً بالرضوض في جسمه.

(٧) أذعنوا: خضعوا.

(٨) تنصّلوا: تبرّأوا.

جاء ألباشا بمُعْجَزٍ مِنَ الْقَوْلِ، وَلَكِنْ تَصْوِيرُهُ لِلْمَسْأَلَةِ كَانَ حَلًّا لَهَا فِي نَفْسِهِمْ. فَلَمَّا أَدْبَرُوا^(١) تَنَفَّسَ أَلْبَاشَا كَأَنَّمَا خَرَجَ مِنَ الْبَحْرِ وَكَانَ يَتَعَاطَى إِنْقَادَ غَرِيقٍ وَيُعَانِي فِيهِ حَتَّى نَجَا؛ ثُمَّ قَالَ لِي: إِنَّ هَذَا كَانَ جَوَابًا عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِهِمْ، وَلَكِنَّهُ هُوَ سَوَالٌ عَنْ شَيْءٍ فِي أَنْفُسِنَا: مَا الَّذِي يَجْعَلُ النَّاسَ عِنْدَنَا يَخْشَوْنَ الْمُعَارَضَةَ فِي الرَّأْيِ الْوَطَنِيِّ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُجَازُونَ عَلَيْهَا بِهَذِهِ الْعُقُوبَةِ الشَّعْبِيَّةِ الْمُنْكَرَةِ؟ وَمَا بِهِمْ لَا يُعْطُونَ الرَّأْيَ حُكْمَهُ وَحَقِيقَتَهُ، بَلْ يُعْطُونَهُ مِنْ حُكْمِ أَنْفُسِهِمْ وَحَقَائِقِهَا وَشَهَوَاتِهَا الْمَتَقَلَّبَةِ، حَتَّى لَتَرْجِعَ الْفُرُوقُ الضَّعِيفَةُ الْمَتَجَانِسَةُ فِي أَبْنَاءِ الْوَطَنِ الْوَاحِدِ وَكَأَنَّهَا مِنَ الْخِلَافِ وَالْمَبَايَنَةِ فُرُوقٌ جَنْسِيَّةٌ كَالَّتِي تَكُونُ بَيْنَ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ، وَإِنْسَانٍ مِنْ أُمَّةٍ أُخْرَى تُعَادِيهَا.

قُلْتُ: إِنَّ رَأْيَ الْكَثَرَةِ قَانُونٌ يَا بَاشَا.

قَالَ: هَذَا صَحِيحٌ، وَلَكِنْ بَشَرِطِينَ لَا بَشَرِطٍ وَاحِدٍ: الْأَوَّلُ أَلَّا يَخْرُجَ الرَّأْيُ عَلَى أَلْقَانُونٍ، وَالثَّانِي أَلَّا تَكُونَ الْحَقِيقَةُ فِي الرَّأْيِ الَّذِي يُنَاقِضُهُ؛ وَمُحَاوَلَةُ إِكْرَاهِ الْمُعَارِضَةِ نَقْصٌ لِلْبَشَرِطِينَ مَعًا؛ ثُمَّ إِنَّ أَسَاسَ الْوَطَنِيَّةِ سَلَامَةُ الْقُلُوبِ وَصَفَاءُ النِّيَّاتِ، وَأَسْتَوَاءُ الْمَوْافِقِ وَالْمُخَالَفِ فِي هَذَا الْحُكْمِ، وَمَتَى وَقَعَ الْخِلَافُ بَيْنَ اثْنَيْنِ وَكَانَتْ أَلْنِيَّةُ صَادِقَةً مُخْلِصَةً، لَمْ يَكُنْ اخْتِلَافُهُمَا إِلَّا مِنْ تَنْوَعِ الرَّأْيِ، وَأَنْتَهِيَ إِلَى الْإِتِّفَاقِ بِغَلْبَةِ أَقْوَى الرَّأْيَيْنِ، وَمَا مِنْ ذَلِكَ بَدٌّ.

الْحَقِيقَةُ يَا بُنَيَّ أَنَّ الْجَمَاهِيرَ الشَّرْقِيَّةَ لَيْسَتْ فِي تَرْبِيَّتِهَا مِنَ الْجَمَاهِيرِ السِّيَاسِيَّةِ الَّتِي يُعْتَدُّ بِهَا، إِذْ لَا تَزَالُ فِي أَوَّلِ عَمْرِهَا السِّيَاسِيِّ، وَبِهَذَا السَّبَبِ وَحْدَهُ كَانَ اخْتِلَافُ الْكُبَرَاءِ فِي السِّيَاسَةِ لَا يُشَبَّهُهُ إِلَّا نِزَاعُ الْخَصْمِينَ بِغَيْرِ شُهُودٍ وَلَا قَاضٍ نَافِذٍ الْحُكْمِ، فَهُوَ نِزَاعٌ قُوَّةً تَفُورُ بَوْسَائِلِهَا، لَا نِزَاعٌ حَقٌّ يَسْتَعْلِي بِأَدْلَتِهِ.

وَهَذِهِ الْمَجَالِسُ النِّيَابِيَّةُ الشَّرْقِيَّةُ كُلُّهَا صُورٌ مُمَثِّلَةٌ جَافَّةٌ، مَنَقُطَعَةُ السَّمَاءِ مِنْ أَسْبَابِهَا، كَالْفَرْعِ الْمَقْطُوعِ مِنَ الشَّجَرَةِ، وَإِنَّمَا يَتَنَضَّرُ الْفَرْعُ وَيُثْمِرُ أَثْمَارَهُ إِذَا قَامَ بِشَجَرَتِهِ لَا بِنَفْسِهِ، وَمَا شَجَرَةُ الْفَرْعِ السِّيَاسِيِّ إِلَّا الْجُمْهُورُ السِّيَاسِيُّ.

فَسَبِيلُ الْإِصْلَاحِ فِي كُلِّ مَمْلَكَةٍ شَرْقِيَّةٍ أَنْ يَنْهَضَ أَهْلُ الرَّأْيِ مِنْ كُلِّ مَدِينَةٍ فِيهَا بَيْنَ عَالَمٍ وَأَدِيبٍ وَمُحَامٍ وَسَرِيٍّ، وَمَنْ كَانَ سَبِيلٍ مِنْ هَؤُلَاءِ، فَيَجْعَلُوا لِمَدِينَتِهِمْ دَارَ نَذْوَةٍ لِلْإِجْتِمَاعِ وَالْبَحْثِ وَالْمَشُورَةِ، وَقَوْلُ (نَعَمْ) بِالْحُجَّةِ وَقَوْلُ (لَا) بِالْحُجَّةِ. ثُمَّ

(١) أدبروا: تراجعوا إلى الوراء.

يُعلنون ذلك في جمهورهم وينزلون منه منزلة الأستاذ والأب والصديق في تعليمه وهدايته وإرشاده؛ وتتصل هذه الدور في كل مملكة بعضها ببعض، وتنتهي بالمجالس النيابية. وبغير ذلك لا يملأ الفراغ الذي نراه خاوياً^(١) بين الشعب والحكومة، وبين الكبراء والجماهير، وإنما أكثر مصائبنا من هذا الفراغ؛ فهو الذي يضيع فيه ما يضيع فيه، ويختفي ما يختفي.

منا قوم موظفون في الحكومة؛ لكن أين القوم الذين تكون الحكومة نفسها موظفة عندهم؟

(اعتذار): بهذا المقال أنتهت أحاديث ألباشا؛ فقد أنبأنا صاحب السر أنه سيكتُم السر... .

(١) خاوياً: فارغاً.

المجنون

١

جاء يمشي هادئاً يتخيلُ في مشيته، يَرْجُفُ بينَ الخطوةِ والخطوةِ كأنَّهُ من كِبَرِهِ يُشْعِرُكَ أَنَّ الْأَرْضَ مُدْرِكَةٌ^(١) أَنَّهُ يُمشي فوقها. . . ولا ينقلُ قدمَهُ إذا خَطَا حتى ينهَضَ برأسِهِ يُحَرِّكُهُ إلى أعلى، فما تدري أهو يُريدُ أَنْ يطمئنَّ إلى أَنَّ رأسَهُ معه. . . أم يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّ هذا الرَّأْسَ الْعَظِيمَ قد وُضِعَ على جَسَمِهِ في موضعِ رَايَةٍ الدَّوْلَةِ، فهو يَهْزُهُ هَزَّ الرَّايَةِ. . . .

وأخذتُهُ عيني وليسَ بيني وبينَهُ إِلَّا طُولُ غُرْفَةٍ وعرضُها - فإذا هو زائغُ الْبَصَرِ كأنَّما وَقَعَ في صحراءٍ يُقَلِّبُ عَيْنَهُ في جهاتِها متحيراً متردداً، ثُمَّ كأنَّما رُفِعَ لَهُ في أَقصاها جَبَلٌ فَأَخَذَ إلى نَاحِيَتِهِ. . .

ورَحَّبْتُ بِهِ، وأَجْلَسْتُهُ إلى جانبي، فَأَخَذَ يَسْتَعْرِفُ إِلَيَّ^(٢) بِذِكْرِ أَسْمِهِ وجماعَتِهِ وبلَدِهِ، لا يَزِيدُ على ذلكَ شيئاً، كأنَّهُ عنتَرَةُ بني عَبَسَ: لِأَرْضِهِ من طَبِيعَتِها جُغرافِيا، ومن أَسْمِهِ جُغرافِيا على حِدَةٍ. . . فلَمَّا رَأَيْتُهُ مَعْرِفَةً قال: إِنَّ بكَ نِسِياناً.

قُلْتُ: وكثيراً ما أنسى غيرَ أَنَّ أَسْمَكَ ليسَ من هذه الْأَسْمَاءِ الَّتِي تُذَكِّرُ بتاريخ. قال: هذه غِلْطَةُ الْأَجْرَائِدِ. . ومهما نَسِيتُ من شيءٍ فلا تَنَسَ أَنَّكَ أستاذُ «نابغة القرن العشرين». . .

فسرَّخْتُ فِيهِ نظري^(٣)، فإذا أنا بِمَجْنُونٍ ظَرِيفٍ أَمْرَدٍ أَهِيْفٍ، يَكادُ بِرِخاوَتِهِ وتَفَكُّكِهِ لا يَكُونُ رَجُلًا، وَيَكادُ يَبْدُو أَمْرَأَةً بِجَمالِ عَيْنِيهِ وفتورِهما.

وتَوَسَّمتُ فإذا وَجْهٌ ساكِنٌ مَنْبَسِطٌ الْأَسَارِيرِ مَمْسُوحُ الْمَعَانِي، يُنبِئُ بِانْقِطَاعِ صاحِبِهِ مِمَّا حَوْلَهُ، كأنَّ دُنْيَاهُ لَيْسَتْ دُنْيَا الْنَاسِ، وَلَكِنَّهَا دُنْيَا رَأْسِهِ. . .

(١) مدركة: عارفة.

(٢) يستعرف إلي: يقدم نفسه.

(٣) أي نظرت إليه ملياً تأمله.

وتأملت فإذا طفولةً متلبدةً قد ثبتت في هذا الوجه لِتُخرجَ من بين الرجل
والطفل مجنوناً لا هو طفلٌ ولا رجل .

وتفرست^(١) فإذا آثارُ معركةٍ باديةٍ في هذه الصَّفحة، قتلاها أفكارُ المسكين
وعواطفه .

وتبينتُ فإذا رجلٌ مُستَرخ، مُتَفَتِّرُ البدن^(٢)، حائرُ النفس، كأنه قائمٌ لِتَوَّهٍ مِنَ
النومِ فلا تزالُ في عينه سِنَةٌ، وكأنه يتكلَّم من بقايا حُلُمٍ كان يراه . . .
وحُيِّلَ إليَّ من هذا الخُمولِ في هذا الشاب، أنَّ عليه جِوًّا من تشاؤبه، وأنَّ
المكانَ كُلَّهُ يتشاءبُ، فتشاءمتُ

فلما رأى ذلك متي ضحك وقال: إن «نابغة القرن العشرين» رجلٌ مغناطيسيٌّ
عظيم؛ فها هو ذا قد ألقى عليك النوم . . وحسبك فخراً أن تكونَ أستاذَهُ وأخاهُ
وثِقته، «فليس على ظهرها اليومَ أديبٌ غيري وغيرك . . .» .

قُلْتُ في نفسي: إنا لله، ما يعتقِدُ الرجلُ أنَّ على ظهرها مجنوناً غيره
وغيري، وكأنما ألمَ بذلك فقال: لستُ مجنوناً؛ ولكني كنتُ في أليمارستان . . .

قُلْتُ: أهو أليمارستانُ الذي يسمَّى مستشفى المجاذيب؟

قال: لا؛ إنَّ هذا الذي تُسميه أنت، هو هو مستشفى المجاذيب؛ أمَّا الذي
سميته أنا فهو مستشفى فقط . . .

وذكرتُ عندئذٍ أنَّ مِنَ المجانينِ قوماً ظرفاءَ يَدْخُلُهُمُ الفسادُ في عقولهم من ناحية
فكرةٍ ملازمةٍ لا تَبْرُحُ، فلا يكونُ جنونُهُم جنوناً إلَّا من هذا الوجه، وسائرُ أحوالهم
كأحوالِ العقلاء، غيرَ أنهم بذلك طيَّاشون^(٣) متقلبون، إذا أزدَهِيَ لم يُطْفِئِ النَّاسُ من رَهِوهِ
وكبريائه وتنطَّعه، كأنه واحدُ الدنيا في هذه الفكرة، وكأنَّ بينه وبينَ الله أسراراً؛ ويظنُّ
عندَ نفسه أنَّه أعقلُ النَّاسِ في أرقى طبقاتِ عقله، وما جنونه إلَّا في هذه الطبقة وحدها .

ومثلُ هذا لا بدَّ لَهُ مِمَّنْ يستجيبُ لهذيانه كيما يُحرِّكَ فيه خِفَتَهُ وطيشَهُ وزهوَهُ،
وليكونَ عنده الشاهدُ على هذا الوجودِ الخياليِّ المُبدعِ الذي لا يوجدُ إلَّا في عقله
المختل . فإذا هو ظفِرَ بَمَنٍ يُحاسِنُهُ، أو يُصانِعُهُ، أو يُجارِيهِ، حَسِبَهُ مُدْعِناً^(٤) مؤمناً

(٣) طيَّاشون: لا يتصرفون بوعي .

(٤) مدعناً: خاضعاً، مستلماً .

(١) تفرست: نظر بإمعان .

(٢) متفتِّر البدن: كسول .

مصدقًا، فلا يدَعُهُ من بعدها ويتعلَّقُ بِهِ أَشَدَّ التَّعَلُّقِ، ويراهُ كأنَّهُ في ملكِهِ . . . فيتخذُهُ صفيًّا وهو يعتقدُ أَنَّهُ رقيقٌ، وقد يزَعُمُهُ أستاذُهُ ليفهمَهُ من ذلك بحسابِ عقلِهِ . . . أَنَّهُ تلميذُهُ.

وخشيتُ أَن يكونَ (نابغةُ القرنِ العشرين) لم يُسمني أستاذُهُ إِلَّا بحسابٍ من هذا الحِسابِ، فهو سيعطي الأُستاذيةَ حقَّها، ولكن كما هو حقُّها في لغةِ جنونه . . . فأصبح في رأيه تلميذُهُ وصنيعتهُ، ومحدثُ هذيانِهِ، وثِقَتُهُ وملجأهُ، والمحمي من ورائِهِ.

قلتُ في نفسي: إذا أنا تركتُهُ جالساً كانَ هذا المجلسُ مثابتهُ^(١) من بعدُ، فلا يعرفُ لَهُ محلاً غيرُهُ، ويصبحُ كما يُقالُ في تعبيرِ القانونِ «محلّه المختار»، فيتطرَّأ إليَّ لسببٍ ولغير سببٍ، ويقعُ في أوقاتي وقوعُ السهو لا حسابَ عليه، ويضيعُ فيه ما يضيعُ. فأجمعتُ أَن أصرفهُ راضياً باليأس؛ وقد أنتهتَ نفسُهُ من معرفتي، وأنتهى عقلُهُ إلى الرأي أَنِّي لا أَصلحُ لَهُ أستاذًا، لا بحسابِهِ هو ولا بحسابِ الناسِ.

فقلتُ له: ظني بك أَنك أستاذُ نفسك، ولا يحسنُ بنابغةِ القرنِ العشرين أَن يكونَ لَهُ في القرنِ العشرين أستاذ؛ وأراك قد فرغتَ لِلأدبِ، أمّا أنا فمُشغولٌ بأعمالٍ وظيفتي، وقد جاءَ مِنَ العملِ ما تراه، وتكادُ لا تفي بِهِ الساعاتُ الباقيةُ مِنَ الوقتِ . . .

فقطَعَ عليَّ وقال: إِنَّ الوقتَ ليسَ في الساعة؛ والدليلُ أَنِّي أعطُها فيتعطلُ الوقتُ، ولا يكونُ فيها يومٌ ولا ساعةٌ ولا ثانيةٌ ولا دقيقةٌ.

فقلتُ: ولكنَّكَ إذا عطَلتَها لم تتعطلِ الشمسُ التي تُعينُ منازلَ النهارِ، فسيَمُرُّ الظهْرُ ويحينُ العصرُ . . .

قال: ويأتي غدٌ، وإنَّما أنا معكَ اليومَ فقط . . . ويجبُ أَن تغتبطَ^(٢) بأنَّكَ أستاذُ (نابغةِ القرنِ العشرين)، فقد قرأتُ الكثيرَ في الأدبِ وقرأتُكَ، فما كانَ لي رأيٌ إِلَّا رأيتهُ لك . . . ولا صحَّحتُ عندي نظريَّةً إِلَّا رأيتُكَ قد أبديتها، وأنا لا أعتقدُ أدباً في مصرٍ إِلَّا ما ثوافينا عليه معاً «ولا أسلمُ جدلاً، ولا جدلاً أسلمُ أَن في مصرَ أدباءَ ينالون منِّي شيئاً، فهو أنا وأنا هو»، ولئن لم يُدعِنوا (لنابغةِ القرنِ العشرين) فليعلمنَّ أَنَّهُم «وقعوا منِّي موقعَ نملةٍ على صخرة . . . هذا من جهة، ومن جهةٍ أُريدُ سجنائِرَ وليسَ معي ثمنُها» . . .

(١) مثابته: ملجأه.

(٢) تغتبط: تُسر.

فتهللت وأستبشرت، وقلتُ له: هذا قرشٌ فهلّم فأشترِ به دخائلك، وفي رعاية الله، ثم أَسْتَوِيتُ لِلْقِيَامِ، ولكنه لم يقم؛ بل تمكّن في مجلسه...

وَكَرِهْتُ أَنْ أَتَغَيَّرَ لَهُ وَمَا أَشْكُ أَنَّهُ فِي هَذَا صَحِيحُ التَّمْيِيزِ؛ فَمَا أُسْرِعَ مَا قَالَ: إِنَّ «نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» فَتَى قَوِيَّ الْإِرَادَةِ؛ فَإِذَا هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَنِ التَّدْخِينِ سَاعَاتٍ فَمَا هُوَ بِصَبُورٍ... وَإِذَا لَمْ يُثَبِّتْ لَكَ هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مُعَايِنَةٍ... فَمَا أُعْطِيتُهُ حَقَّهُ.

فقلتُ في نفسي: لقد غرستُ الرجلَ من حيثُ أَرَدْتُ أَقْتْلَاعَهُ، وَأَيَقُنْتُ أَنَّهُ مِنْ عُقْلَاءِ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ تَتَغَيَّرُ فِيهِمُ الْعَاطِفَةُ أحياناً فُتْلَهُمُهَا آيَاتُ مِنَ الذِّكَاةِ لَا يَتَّفَقُ مِثْلُهَا إِلَّا لِنَوَائِغِ الْمُنْطَقِ؛ وَذَكَرْتُ (بِهَلُولِ) الْمَجْنُونِ الَّذِي حَكَّوْا عَنْهُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ الشَّيْبَانِيَّ مَرَّ بِهِ وَهُوَ يَأْكُلُ خَبِيصاً^(١) فَقَالَ لَهُ: أَطْعَمْنِي. قَالَ: لَيْسَ هُوَ لِي، إِنَّمَا هُوَ لِعَائِكَةِ بِنْتِ الْخَلِيفَةِ بَعَثَتْهُ إِلَيَّ لِأَكْلِهِ لَهَا...

وقالوا: إِنَّهُ مَرَّ بِسُوقِ الْبَزَازِينَ فَرَأَى قَوْمًا مُجْتَمِعِينَ عَلَى بَابٍ وَكَانَ قَدْ نُقِبَ، فَنَظَرَ فِيهِ وَقَالَ: أَتَعْلَمُونَ مَنْ عَمَلَ هَذَا؟ قَالُوا: لَا. قَالَ: فَأَنَا أَعْلَمُ.

فقالوا: هَذَا مَجْنُونٌ يَرَاهُمُ بِاللَّيْلِ وَلَا يَتَحَاشَوْنَهُ^(٢)، فَأَلْطَفُوا^(٣) بِهِ لَعَلَّهُ يُخْبِرُكُمْ. ثُمَّ قَالُوا: أَخْبِرْنَا. قَالَ: أَنَا جَائِعٌ. فَجَاءَ وَهُوَ بِطَعَامٍ سَنِيِّ وَحُلْوَاءٍ؛ فَلَمَّا شَبِعَ قَامَ فَنَظَرَ فِي النَّقْبِ وَقَالَ: هَذَا عَمَلُ اللَّصُوصِ...

وكانتُ مجلةُ (الرسالة) في يَدِ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَوَصَلَ الْكَلَامَ بِهَا وَقَالَ: إِنَّهُ يَقْرَأُ كُلَّ مَقَالَاتِي، وَإِنَّهُ وَإِنَّهُ، وَإِنَّهَا وَإِنَّهَا. قلتُ: فَمَا أَتَحَسَّنْتَ مِنْهَا؟ قَالَ: (مَقَالَةُ السَّيْمَا)...

فقلتُ: مَتَى كَانَ آخِرُ عَهْدِكَ بِرُؤْيَا السَّيْمَا؟ قَالَ: أَمْسَ. قلتُ: فَأَنَا لَمْ أَكْتُبْ مَقَالاً عَنِ السَّيْمَا، وَلَكِنَّكَ أَعْجَبْتَ بِمَا رَأَيْتَ أَمْسَ فَتَحَوَّلَ مَا رَأَيْتَهُ حُلُمًا فِي مَقَالَةٍ.

فأعجبتهُ هَذَا التَّأْوِيلُ وَقَالَ: بِمِثْلِ هَذَا أَنَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَأَقْرَأُ مَقَالَاتَكَ فِي الْغَيْبِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَكْتُبَهَا...

(١) الخبيص: ضرب من الأطعمة يصنع من التمر والسمن.

(٢) يتحاشونه: يتجنبونه.

(٣) أَلْطَفُوا: تَلَطَّفُوا وَأَحْسَنُوا مَعَامِلَتَهُ.

قلت: إِنَّكَ تُكثِرُ أَنْ تقولَ عن نفسك (نابعة القرن العشرين)، وهذا يحصرُ نبوغَكَ في قرنٍ بعينه؛ فلو قطعتَ الكلمةَ وقلت: (نابعة القرن)، لصحَّ أَنْ تكونَ نابعةَ القرنِ التاسعَ عشرَ والثامنَ عشر، وما قبلهما وما بعدهما.

فرايتُ به شذّه^(١) كأنه يفكرُ في جنونه، ثم أفاق وقال: لا. لا؛ وإن هاهنا موضعَ نظر، فلو رضيتُ بنابعةَ القرنِ فقط، لَجاءَ مَنْ يقول: إني نابعةُ قرنِ خروف... .

* * *

فقلتُ في نفسي: حمأةٌ مُدَّتْ بماء، وإنَّ هذه الوسائسَ لا تنفكُ تعرّو^(٢) هذا المسكينَ ما وجدَ من يكلمه؛ والأفكارُ في ذهنه مجتمعةٌ مختلطةٌ مسترسلةٌ كأنها ثورةٌ مِنَ الكلامِ لا نظامَ لها، فلاسكتُ عنه ولأتشاغلُ بما بين يدي.

وسكتُ وأعرضتُ عنه؛ فجعلَ طائفُهُ يعتريه، وكانَّ السكوتُ قد سلطَ أفكاره عليه، وكأنَّها أخذتُ تصيحُ به في رأسه كما يصيحُ غلمانُ الطرقِ بالمجنون، لا يزالونَ به حتى يُحرّدوه^(٣) ويفقدوه البقيةَ من صبره وعقله معاً. فغضبَ (نابعة القرن العشرين) ونقله الغضبُ إلى حالةٍ زَمهرتُ فيها عيناه^(٤)، وكَلَحَ وجهه^(٥) حتى خِفْتُ أَنْ يثورَ به الجنون، فأقبلتُ عليه وتعلّلتُ بسؤاله: ألكِ إخوة؟ ألم ينبغِ فيهم نابعة... ؟

قال: إنَّ له أخوا يُعذِّبه، ويوقعُ به ضرباً، ويغلّله بالسلاسل، ويشده «بأمراسٍ كَثانٍ إلى صُمِّ جَنْدَلٍ»، وأنه أنزلَ به العذابَ ما لو أنزلهُ بحجرٍ لتألَّم. قلتُ: فأنت في حاجةٍ إلى راحةٍ، ويحسنُ بك أَنْ تأويَ إلى مكانٍ تتمدّدُ فيه. قال: إني منصرفٌ وسأجلسُ في ندي^(٦) كذا «هذا من جهة، ومن جهةٍ ليسَ معي ثمنُ القهوة».

قلتُ: فهذا قرشٌ تدفعُهُ ثمناً لها، فأذهبِ فاستمتعي بها وبالتدخينِ وبالأراحةِ في ذلك الأندي، فالمكانُ ها هنا كثيرُ الضجيجِ والحركة. وأستوفزتُ للقيام^(٧)؛ ولكئنه لم يتحلّحل من مجلسه.

(١) شذّه: اندهاشاً واستغراباً.

(٢) تعرّو: تصيب.

(٣) يحرّدوه: يشجعوه على فعل ما يستهجن.

(٤) زمهرت عيناه: لمعت غضباً.

(٥) كلح وجهه: تغيّر لونه حتى بدا كالحاً.

(٦) ندي: مقهى.

(٧) استوفزت للقيام: تحفّزت.

ثم قال: أراك الآن مستبصراً أنني (نابغة القرن العشرين) بعينه.

قلت: بل بعينه اليمنى وأيسرى معاً...

قال: لا. لا؛ إنك نسيت أن العرب تقول في التوكيد: عينه ونفسه وذاته.

«أي أنا نابغة القرن العشرين بعينه ونفسه وذاته، فليس غيري نابغة القرن العشرين».

وكادت نفسي تخرج غيظاً، ولكني رأيت الجلم على مثل هذا يجري مجرى

الصدقة؛ وقلت: إن أدباء المجانين كثيراً ما يتفق لهم الإبداع الطريف^(١) إذا عللوا

شيئاً، كذلك القاص الذي كان يقص على العامة سيرة يوسف - عليه السلام -،

فقال لهم فيما قال: إن الذئب الذي أكل يوسف كان اسمه كذا، فردوا عليه: إن

يوسف لم يأكله الذئب. قال: فهذا هو أسم الذئب الذي لم يأكل يوسف.

فقلت للمجنون: فما العللة عندك في أن العرب لم يقولوا في التوكيد: عينه

وأذنه وأنفه وفمه ويده ورجله؟

فنظر نظرة في ألفضاء ثم قال: ليسوا مجانين فيخلطوا هذا الخلط، وإلا

وجب أن يقولوا مع ذلك: وعمامته وثوبه ونعله وبعيره وشاته ودارهم. «هذا من

جهة، ومن جهة ليس معي أجره السيارة إلى بلدي وهي قرشان».

قلت: هذه هي أجره السيارة وصحبك السلامة، ونهضت واقفاً؛ ولكنه لم

يتحرك.

ثم قال: إنك لم تعرف بعد «أني أقول الشعر في الغزل والنسيب والمدح

والهجاء والفخر؛ وأني في الخطابة قس بن ساعدة أو أكثم بن صيفي، وأني صخر

لا يتفجر... يابس لا ينعصر، لست كالحجاج بل كعمر».

قلت: هذا شيء يطول بيننا ولا حاجة لك بهذه البراهين كلها، فقد آمنت

أنك نابغة القرن العشرين في الأدب والشعر والخطابة والترسل.

قال: والفلسفة؟

قلت: والفلسفة وكل معقول ومنقول؛ وقد أنهيتنا على ذلك.

قال: ولكذك تحسبني مجنوناً أو ممروراً «كما حسبتني الجرائد التي زعمت

(١) الطريف: الجديد.

أَنْ أَخْتَفَائِي فِي الْبِيمَارِسْتَانِ كَانَ لِجَنُونِي الْفِكْرِي أَوْ لِذِكَائِي الطَّبِيعِيِّ وَهُوَ الْأَصَحُّ . . . فَبَيْنَ لِهَذِهِ الْجَرَائِدِ أَنِّي خَرَجْتُ ، وَأَنِّي سَاطِعُ الْأَدَبِ بِطَابَعٍ جَدِيدٍ .

قُلْتُ : وَلَكِنِّي لَسْتُ مَرَاوِسَلْ جَرَائِدٍ . وَقَالَ : «فَاجْعَلْنِي رِسَالَةً وَرَاسِلَهَا عَنِّي أَوْ أَكْتُبْ لَكَ أَنَا مَا تُرْسَلُهُ ، وَمَا جِئْتُكَ إِلَّا لِهَذَا ؛ وَيَجِبُ أَنْ تُلَحِقَنِي بِجَرِيدَةٍ كَبِيرَةٍ ، وَهَذِهِ الْجَرَائِدُ تَعْرِفُنِي كُلُّهَا ، وَقَدْ تَنَاوَلْتَنِي مِنْ جَمِيعِ النُّوَاحِي الْأَدَبِيَّةِ ؛ فَضْلاً عَنْ أَنِّي كَاتِبٌ قَدْ ، وَخَطِيبٌ قَدْ ، وَشَاعِرٌ قَدْ ، وَهَذَا قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ ، فَهَلْ أَعُوْلُ عَلَيْكَ فِي صِلَتِي بِالْجَرَائِدِ أَوْ لَا ؟ » .

قُلْتُ : إِنَّكَ تَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونَكَ ، وَقَدْ بَلَّوْتَهُمْ ^(١) وَبَلَّوْا مِنْكَ ، فَلَسْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيَّ عِنْدَهُمْ .

قَالَ : إِنَّهُمْ يَخْشَوْنَ بِأَسِي ، وَقَدْ حَسَبُونِي مَجْنُوناً اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ ؛ وَمَا عَلِمُوا أَنَّ شَيْطَانَ الشَّعْرِ هُوَ الَّذِي اسْتَهْوَانِي ، كَمَا أَنَّ شَيْطَانَ الْحُبِّ هُوَ الَّذِي اسْتَهْوَاكَ . . . هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ لَيْسَ مَعِيَ ثَمَنُ الْغَدَاءِ ، وَلَا أَكْلُكَ شَيْئاً . . . » .

قُلْتُ : فَهَذَا قَرَشٌ لِلْغَدَاءِ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ . وَهُمْ أَلَاَنَ يَتَغَدَّوْنَ وَيُوشِكُ إِذَا أَبْطَأَتْ أَنْ تُوَافِقَهُمْ وَقَدْ اسْتَنْفَدُوا الطَّعَامَ ، وَأَنْتَ لَا تَجْهَلُ أَنَّ الْقَرَشَ فِي مَطْعَمِ الشَّعْبِ هُوَ قَرَشَانِ فِي الْقِيَمَةِ .

قَالَ : صَدَقْتَ ؛ يُوشِكُ أَنْ أُوَافِقَهُمْ وَقَدْ فَرَّغُوا مِنْ طَعَامِهِمْ وَغَسَلُوا أَلَانِيَةَ . فَلَأُبْقِ هَذَا لِلْعِشَاءِ وَسَاطُوِي ^(٢) إِلَى اللَّيْلِ . . .

قُلْتُ : فَمَعَكَ أَلَاَنَ ثَمَنُ الدِّخَانِ ، وَالْقَهْوَةِ ، وَالْغَدَاءِ ، وَأَجْرَةُ السَّيَارَةِ إِلَى بَلَدِكَ . وَقَدْ كَانَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ لِلْهَجْرَةِ وَأَسْمُهُ (طَاقُ الْبَصْلِ) ^(٣) يُغْنِي بِقِرَاطٍ وَلَا يَسْكُتُ إِلَّا بِدَانِقٍ . هَذَا مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ جِهَةٍ فَخِذُ هَذَا الْقَرَشِ ثَمَنٌ لِسُكُوتِكَ وَأَنْصَرِفَ .

فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَقَامَ مُغْضَباً وَتَنَفَّسَتْ بَعْدَهُ الصُّعْدَاءُ الطَّوِيلَةُ . . . وَفَتَحَتْ الْبَاقِيَةَ وَأَسْتَقْبَلَتْ الْهَوَاءَ النَّقِيَّ وَأَخَذَتْ فِي رِيَاضَةِ النَّفْسِ الْعَمِيقِ ، ثُمَّ زَاغَتْ عَيْنِي إِلَى الْبَابِ ؛ فَإِذَا (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) مُقْبِلَةٌ مَعَ نَابِغَةِ قَرْنٍ آخَرَ

(١) بَلَّوْتَهُمْ : اخْتَبَرْتَهُمْ .

(٢) أَطُوِي : أَنَامُ بِلَا عِشَاءِ .

(٣) هَذَا أَحَدُ مَجَانِينِ الْقَرْنِ الثَّلَاثِ فِي الْكُوفَةِ .

المجنون

٢

رَأَيْتُ الْمَجْنُونِينَ يَدْخُلَانِ مَعًا، فَكَأَنَّمَا سَدًّا أَلْبَابَ وَسَوِيَّاهُ بِالْبِنَاءِ وَتَرَكََا الْعُرْفَةَ حَائِطًا مُضْمَتًا لَا بَابَ فِيهِ، مِمَّا أَعْتَرَانِي^(١) مِنَ الضَّيْقِ وَالْحَرَجِ؛ وَقُلْتُ فِي نَفْسِي: إِنَّهُ لَا مَذْهَبَ لِلْعَقْلِ بَيْنَ هَذَيْنِ إِلَّا أَنْ يُعَيَّنَ كِلَاهُمَا عَلَى صَاحِبِهِ، فَأَرَى أَنْ أَدْعُهُمَا وَأَكُونَ أَنَا أَصْرَفُهُمَا؛ وَيَا رَبِّمَا جَاءَ مِنَ النُّوَادِرِ فِي أَجْتِمَاعِ مَجْنُونِينَ مَا لَا يَأْتِي مِثْلُهُ مِنْ عَقْلَيْنِ يَجْتَمِعَانِ عَلَى ابْتِكَارِهِ؛ غَيْرَ أَنِّي خَشِيتُ أَنْ أَكُونَ أَنَا الْمَجْنُونُ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ لَا أَمْنُ أَنْ يَثْبُتَ أَحَدُهُمَا بِالْآخِرِ إِذَا خَطَرَتْ بِهِ الْخَطَرَةُ^(٢) مِنْ شَيْطَانِهِ، فَرَأَيْتُ أَنْ يَكُونَ لِي ظَهِيرٌ عَلَيْهِمَا، إِنْ لَمْ يَحِقَّ بِهِ أَلْعَوْنُ فَلَا أَقْلَ مِنْ أَنْ يَطُولَ بِهِ الصَّبْرُ... وَكَانَ إِلَى قَرِيبٍ مِنِّي الصَّدِيقُ (أ.ش) فَأَرْسَلْتُ فِي طَلْبِهِ.

أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الثَّانِي الَّذِي جَاءَ بِهِ (نَابِغَةُ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ) فَقَدْ رَأَيْتُهُ مِنْ قَبْلِ، وَهُوَ كَالْكِتَابِ الَّذِي خُلِطَتْ صُحُفُهُ بَعْضُهَا فِي بَعْضٍ فَتَدَاخَلَتْ وَفَسَدَ تَرْتِيبُهَا، وَأَنْقَلَبَ بِذَلِكَ أَلْعَلُّمُ الَّذِي كَانَ فِيهَا جَهْلًا وَتَخْلِيطًا، يَثْبُتُ الْكَلَامُ بَعْدَ كُلِّ صَفْحَةٍ إِلَى صَفْحَةٍ غَرِيبَةٍ لَا صِلَةَ لَهَا بِمَا قَبْلَهَا وَلَا مَا بَعْدَهَا.

وَهُوَ طَالِبٌ أَزْهَرِيٌّ كَانَ أَكْبَرَ هَمِّهِ أَنْ يَصِيرَ حَافِظًا كَالْحَفَازِ الْأَقْدَمِينَ مِنَ الرِّوَاةِ وَالْفُقَهَاءِ، فَجَعَلَ يَسْتَظْهِرُ كِتَابًا بَعْدَ كِتَابٍ وَمَثْنًا بَعْدَ مَثْنٍ؛ وَكَانَتْ لَهُ أُذُنٌ وَاعِيَةٌ، فَكُلُّ مَا أُفْرِغَ فِيهَا مِنْ دَرْسٍ أَوْ حَدِيثٍ أَوْ خَبَرٍ، نَزَلَ مِنْهَا كَالنَّقْرِ عَلَى آلَةٍ كَاتِبَةٍ، فَيَنْطَبِعُ فِي ذِهْنِهِ أَنْطَبَاعُ الْكِتَابَةِ: لَا تُمَحَى وَلَا تُنْسَى.

ثُمَّ أَلْتَأَتِ هَذِهِ اللَّوْثَةُ وَهُوَ يَحْفَظُ مَتْنًا فِي فِقْهِ الشَّافِعِيِّ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)، فَغَبَرَ سَنِينَ يَتَحَفَّظُهُ، كُلَّمَا أَنْتَهَى إِلَى آخِرِهِ نَسِيَهُ مِنْ أَوَّلِهِ؛ فَيَعُودُ فِي حَفْظِهِ وَرَبَّمَا هَذَا دَائِبُهُ

(١) اعتراني: أصابني وداخلي.

(٢) الخطرة: الفكرة.

لا يملُ ولا يجدُ لهذا العناءَ معنىً، ولا يزالُ مقبلاً على الكتابِ يجمعه، ثمَّ لا يزالُ الكتابُ يتبدّدُ في ذاكرتهِ .

وتركَ المعهدَ الذي هو فيه وتخلّى في داره^(١) لِلحفظ، وأجمعَ ألا يدعَ هذا الممتنَّ أو يحفظه، وكأنَّ فيه الموضعَ الذي فارقه عقله عنده، وبذلك رجعَ المسكينُ آلةَ حفظٍ ليسَ لها مساك^(٢)؛ وأصبحَ كالذي يرفعُ الماءَ من البحر، ثمَّ يلقيه في البحر، لينزحَ البحر... .

وجاءَ (ا. ش) فقلتُ له، وأوماتُ إلى المجنونِ الأول: هذا نابغةُ القرنِ العشرين .

قال: وهلِ أنتهى القرنُ العشرونَ فيُعرفَ من نابغة؟
فقلتُ للمجنون: أجنهُ أنت. فسأله: وهلِ بدأ القرنُ الواحدُ والعشرون؟ قال: لا .
قال: فإنَّ هذا الذي إلى جانبي نابغةُ القرنِ الواحدِ والعشرين... فكما جاز أن يكونَ هو نابغةُ قرنٍ لم يبدأ، جازَ أن أكونَ أنا نابغةُ قرنٍ لم ينته .
قلتُ: ولكنك زدتِ المشكلةَ تعقيداً من حيثُ توهمتِ حلّها؛ فكيف يكونُ معك في آنٍ وبينك وبينه خمسٌ وستون سنة؟

فنظرَ نظرةً في ألفضاء، وهو كلُّما أرادَ شيئاً عسيراً نظرَ إلى اللاشيء... .
ثمَّ قال: هذه الأمورُ لا تشبهُ إلا على غيرِ العاقل... وكيف لا يكونُ بيني وبينه خمسٌ وستون سنةً وأنا أتقدّمه؛ النبوغُ بأكثرَ من علمِ العلماءِ في خمسٍ وستين سنة... ؟
قلتُ لِلآخر: أكذلك؟

قال: ممّا حفظناه عنِ الحسن: أدركنا قوماً لو رأيتموهم لقلتم: مجانين . ولو أدركوكم لقالوا: شياطين... .
فضحكَ الأولُ وقال: إنّه تلميذي .

قالَ الثاني: لقد صدقَ فهو أستاذي، ولكنّه حين ينسى لا يذكرُهُ غيري... .
قلتُ: لا عَرَوْ «مِمّا حفظناه» عنِ الزُّهرّي: إذا أنكرتَ عقلَكَ فأقدّحه بِعاقل... .
فغضبَ نابغةُ القرنِ العشرينَ وقال: ويخُ لهذا الجاهل، الأحمق، الجاحِدُ لِلفضل،

(٢) مساك: بقية حفظ .

(١) تخلّى في داره: انزوى وانعزل .

ومع جنونه وخبله . أَيْدُكُرْنِي وهو منذُ كذا وكذا سنة يحفظُ متناً واحداً لا يُمْسِكُهُ عقله إلا كما يُمْسِكُ أَلْمَاءُ الْغُرَابِيلُ؟ صدق - والله - مَنْ قال: عدوُّ عاقلٍ خيرٌ؛ خير . فقال الثاني: خيرٌ من صديقٍ جاهلٍ، هأنذا قد ذَكَرْتُكَ من نِسيانٍ، وهأنت ذا رأيت . فضحك النابغة وقال: ولكِنِّي لم أَرِدْ أَنْ أَقُولَ هذا، بل أَرِيدُ أَنْ أُولَفَ كلاماً آخر عدوُّ عاقلٍ خيرٌ، خيرٌ؛ خير من مجنونٍ جاهلٍ

* * *

ورأيتُ أَنَّ التَّقاءَ مجنونين شيءَ طريفٍ غيرُ جنونيهما، وصَحَّ عندي أَنَّ المَجْنُونِ الْوَاحِدَ هُوَ الْمَجْنُونُ؛ أَمَّا الْاِثْنَانِ فَقَدْ يَكُونُ مِنْ أَجْتِمَاعِهِمَا وَتَحَاوُرِهِمَا فَنُ ظَرِيفٌ مِنَ التَّمْثِيلِ، إِذَا وَجَدَا مَنْ يُصَرِّفُهُمَا فِي الْحَدِيثِ، وَيَسْتَخْرِجُ مَا عِنْدَهُمَا، وَيَسْتَكْشِفُ مِنْهُمَا قِصَّتَهُمَا الْعَقْلِيَّةَ

ولم أكنُ أعرفُ أَنَّ (نابغةَ القرنِ العشرين) مِنَ الْمَجَانِينِ الَّذِينَ لَهُمْ أَذُنٌ فِي غَيْرِ الْأَذُنِ، وَعَيْنٌ فِي غَيْرِ الْعَيْنِ، وَأَنْفٌ بغيرِ الْأَنْفِ؛ إِذْ تَتَلَقَّى أَدْمَغَتُهُمْ أَصْوَاتاً وَأَشْبَاحاً وَرَوَائِحَ مِنْ ذَاتِ نَفْسِهَا لَا مِنَ الْوُجُودِ، وَتُدْرِكُهَا بِالتَّوَهُّمِ لَا بِالْحَاسَّةِ، فَتَتَخَلَّقُ^(١) هَوَاجِسُهُمْ خَلْقاً بَعْدَ خَلْقٍ، وَتَخْطُرُ الْكَلِمَةُ مِنَ الْكَلَامِ فِي ذَهْنِ أَحَدِهِمْ فَيَخْرُجُ مِنْهَا مَعْنَاهَا يَتَكَلَّمُ فِي دِمَاغِهِ أَوْ يَمْشِي أَوْ يُلَاطِفُهُ أَوْ يُؤْذِيهِ أَوْ يَفْعَلُ أَعْمَالاً أُخْرَى .

وبينا أنا أديرُ الرَّأْيَ فِي إِخْرَاجِ فَصْلِ مِنَ الْجَوَارِ بَيْنَ هَذَيْنِ الْمَجْنُونَيْنِ، إِذْ قَالَ (نابغةُ القرنِ العشرين): صَهْ، إِنَّ جَرَسَ «التلفون» يدق . قال (أ. ش.): لا أسمعُ صوتاً، وليسَ ههنا «تلفون» .

فَأَعْتَاطَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ وَقَالَ: إِنَّكَ تَتَفَحَّمُ^(٢) عَلَى الْنَوَابِغِ وَلَسْتَ مِنْ قَدَرِهِمْ، وَمَا عَمَلُكَ إِلَّا أَنْ تُنْكِرَ؛ وَالْإِنْكَارُ، وَبِلكَ، أيسرُ شيءٍ عَلَى الْمَجَانِينِ وَأَشْبَاهِ الْمَجَانِينِ، وَالْعَامَّةِ وَأَشْبَاهِ الْعَامَّةِ؛ وَقَدْ أَنْكَرْتَ نَبوغَهُ أَنْفَاءً، وَأَرَاكَ الْآنَ تُنْكِرُ «تلفونه» . . .

قال (أ. ش.): وأين «التلفون» وهذه هي الغرفةُ بِأَعْيُنِنَا؟ فضحك (نابغةُ القرنِ العشرين) وقال: صَهْ - ويحك - لقد خَلَطْتُ عَلَيَّ؛ إِنَّ الْجَرَسَ يدقُ مرةً أُخْرَى، وَأَنَا لَا أَرِيدُ أَنْ أَكْمَلِمَهَا حَتَّى يَطُولَ أَنْتَظَارُهَا، وَحَتَّى تَدُقَّ ثَلَاثَ مَرَاتٍ، وَأَخْشَى أَنْ تَكُونَ قَدْ دَقَّتِ الثَّلَاثَةَ وَذَهَبَ رَنِيئُهَا فِي صَوْتِكَ وَلَعَطِكَ . . .

(٢) تَفَحَّمُ: تحشر نفسك، تدسها.

(١) تَتَخَلَّقُ: تتشكّل.

قَالَ الْمَجْنُونُ الْآخِرُ: هِيَ صَاحِبَتُهُ الَّتِي يَهْوَاهَا وَتَهْوَاهُ؛ وَقَدْ أَسْتَهَامَهَا^(١) وَتَيَّمَهَا وَحَبَّرَهَا وَخَبَلَهَا، حَتَّى لَا صَبْرَ لَهَا عَنْهُ، فَوَضَعَتْ لَهُ تَلْفُونًا فِي رَأْسِهِ

قَالَ «النَّابِغَةُ»: وَهَذَا التَّلْفُونُ لَا يُسْمَعُنِي صَوْتُهَا فَقَطْ، بَلْ هُوَ يُثَبِّتُنِي عِطْرُهَا أَيْضًا. وَقَدْ تَكَلَّمْتُ فِيهِ أَلْمَلَأْتُكَ أَحْيَانًا، وَأَنَا سَاخِطٌ عَلَى هَذِهِ الْحَبِيبَةِ فَإِنَّهَا غَيَّرَتْ خُشْيَ سَطَوَاتِهَا عَلَى أَلَلَائِي تَغَارَ مِنْهُمْ، وَلَوْلَا ذَلِكَ لَكَلَّمْتُ فِي هَذَا التَّلْفُونِ إِحْدَى الْحُورِ الْعَيْنِ
قُلْنَا: أَوْ تَغَارُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ؟

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي: بَلِ الْأَمْرُ فَوْقَ ذَلِكَ، فَإِنَّ الْحُورَ الْعَيْنِ يَشْتُمُّنَهَا وَيَلْعَنُّهَا؛ «فَمِمَّا حَفِظْنَاهُ» هَذَا الْحَدِيثُ: لَا تُؤْذِي أَمْرًا زَوْجَهَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا قَالَتْ زَوْجَتُهُ مِنَ الْحُورِ الْعَيْنِ: لَا تُؤْذِيهِ قَاتِلُكَ اللَّهُ؛ فَإِنَّمَا هُوَ عِنْدَكَ دَخِيلٌ يُوشِكُ أَنْ يَفَارِقَكَ إِلَيْنَا.

قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): وَيَلِي عَلَى الْمَجْنُونِ إِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَخْلُوَ لَهُ مَوْضِعِي فَهُوَ يَتَمَنَّى هَلَاكِي وَأَنْتَقَالِي وَشَيْكَأَ مِنْ هَذِهِ الدُّنْيَا. وَهُوَ يَقُولُ بَغِيرَ عِلْمٍ لِأَنَّهُ أَحْمَقُ لَيْسَ لَهُ عُقْدَةٌ مِنَ الْعَقْلِ، فَيَزْعُمُ أَنَّهَا تُؤْذِينِي، وَلَوْ هِيَ أَذْنَتِي لَغَضِبْتَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَلَوْ غَضِبْتَ لَرَفَعْتَ التَّلْفُونُ. صَهْ إِنَّ الْجَرَسَ يَدُقُّ.

قال ١. ش: إِنَّ لِلنَّوَابِغِ لَشَأْنًا عَجَبًا، فِي مَدِيرِيَّةِ الشَّرْقِيَّةِ رَجُلٌ نَابِغَةٌ مَاتَتْ زَوْجَتُهُ وَتَرَكَتْ لَهُ غُلَامًا، فَتَزَوَّجَ أُخْرَى وَهُوَ يَعِيشُ فِي دَارِ أَبِيهِ. فَلَمَّا كَانَ عِيدُ الْأَضْحَى سَأَلَ أَبَاهُ مَا لَا يَتَنَاقُ بِهِ الْأَضْحَى فَلَمْ يُعْطِهِ. وَهُوَ رَجُلٌ يَحْفَظُ الْقُرْآنَ، فَذَكَرَ إِبْرَاهِيمَ (عَلَيْهِ السَّلَامُ) وَرُؤْيَاهُ فِي الْمَنَامِ أَنَّهُ يَذْبَحُ ابْنَهُ، فَخِيلَ إِلَيْهِ أَنَّ هَذَا بَابٌ إِلَى النَّبُوَّةِ، وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَوْحَى إِلَيْهِ، فَأَخَذَ الْغُلَامَ فِي صَبِيحَةِ الْعِيدِ وَهَمَّ بِذَبْحِهِ، وَلَوْلَا أَنْ صَرَخَ الْغُلَامُ فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فَاسْتَنْقَذُوهُ

قَالَ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): هَذَا مَجْنُونٌ وَلَيْسَ بِنَابِغَةٍ؛ بَلْ هَذَا مِنْ جُهَلَاءِ الْمَجَانِينِ؛ بَلْ هُوَ مَجْنُونٌ عَلَى حَدِّهِ. وَقَدْ رَأَيْتُهُ فِي الْبِيمَارِسْتَانِ فِي حِينِ كُنْتُ أَنَا فِي الْمُسْتَشْفَى . . . فَكَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ أَتَمَرَ فِي ذَبْحِ غُلَامِهِ بِإِرَادَةِ اللَّهِ. وَلَوْ كَانَتْ إِرَادَةُ اللَّهِ لَنَفَذْتُ بِالذَّبْحِ، وَلَوْ كَانَ الْأَمْرُ وَحِيًّا لَنَزَلَ عَلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ كَبِشٌ يَذْبَحُهُ . . . وَهَكَذَا أَنَا فِي الْمَنْطِقِ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ).

(١) استهامها: حملها على حبه.

ثُمَّ إِنَّهُ أَشَارَ إِلَى الْمَجْنُونِ الثَّانِي وَقَالَ: وَأَنَا أَتَقَدَّمُ هَذَا فِي النَّبُوغِ بِأَكْثَرِ مِنْ عِلْمِ الْعُلَمَاءِ فِي خَمْسِ وَسِتِّينَ سَنَةً كَامِلَةً.

قُلْتُ: وَلَكِنَّكَ ذَكَرْتَ هَذَا مِنْ قَبْلُ فَلِمَ عُدْتَ فِيهِ أَلَا نَ؟

قَالَ: إِنَّ السَّبَبَ قَدْ تَغَيَّرَ فَتَغَيَّرَ مَعْنَى الْكَلَامِ؛ وَقَدْ بَدَّلْتُ أَنَّهُ يَتِمَّنِي هَلَاكِي لِيَكُونَ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ. فَمَعْنَى الْكَلَامِ الْآنَ: أَنَّهُ لَوْ عَاشَ خَمْسًا وَسِتِّينَ سَنَةً «يَحْفَظُ أَلْمَتَن» لَمَّا بَلَغَ مَبْلَغِي مِنَ الْعِلْمِ. هَذَا رَجُلٌ نَصَفُهُ مَيِّتٌ جَنُونًا مَوْتًا حَقِيقِيًّا، وَنَصَفُهُ الْآخَرُ مَيِّتٌ جَهْلًا بِأَلْمَوْتِ الْمَعْنَوِيِّ.

قَالَ أ. ش.: حَسْبُهُ أَنْ يَقْلِدَكَ تَقْلِيدَ الْعَامِيِّ لِإِمَامِهِ فِي الصَّلَاةِ وَعَسَى أَلَّا تَسْتَكْثِرَ عَلَيْهِ هَذَا فَإِنَّهُ تَلْمِيزُكَ.

قَالَ الْمَجْنُونُ الثَّانِي «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: لَوْ صَوَّرَ الْعَقْلُ لَأَضَاءَ مَعَهُ اللَّيْلَ، وَلَوْ صَوَّرَ الْجَهْلُ لَأَظْلَمَ مَعَهُ النَّهَارَ... وَنَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هَذَا لَا يَعْرِفُ كَيْفَ يُصَلِّي، فَقَدْ وَقَفَ مِنْذُ أَيَّامٍ يُصَلِّي بِالشَّعْرِ... وَلَمَّا رَأَيْتُهُ نَاسِيًا فَذَكَرْتُهُ وَنَبَهْتُهُ أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَجُوزُ بِالشَّعْرِ، اِلْتَفَتَ إِلَيَّ وَهُوَ رَاكِعٌ فَسَبَّنِي وَشَتَمَنِي وَصَرَخَ فِيَّ وَقَالَ: مَا شَأْنُكَ بِي؟ هَلْ أَنَا أَصَلِّي لَكَ أَنْتَ...؟

فَغَضِبَ «النَّابِغَةُ» وَقَالَ: - وَاللَّهِ - إِنْ تَحْسِبُونِي إِلَّا مَجْنُونًا فَتُرِيدُونَ أَنْ يَقْلِدَنِي هَذَا الْأَحْمَقُ الَّذِي لَيْسَ لَهُ رَأْيٌ يُمَسِّكُهُ. وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمَّا أَعْتَقَدْتُمْ أَنَّ تَقْلِيدِي مِنَ السَّهْلِ الْمُمْكِنِ، وَلَعَرَفْتُمْ أَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ نَفْسَهُ لَمْ يَسْتَطِعْ تَقْلِيدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ.

قُلْنَا: هَذَا عَجِيبٌ، وَكَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟

فَضَحِكَ وَقَالَ: لَا أَعِدُّكُمْ مِنَ الْأَذْكِيَاءِ إِلَّا إِذَا عَقَلْتُمْ كَيْفَ كَانَ ذَلِكَ؟ قَالَ

أ. ش.: هَذَا لَمْ يُعْرِفْ مِثْلَهُ كَيْفَ نَعْرِفُهُ؟ وَلَمْ يَتَوَهَّمْ أَحَدٌ، فَكَيْفَ تَتَوَهَّمُهُ؟

قَالَ: لَوْ لَمْ تَكُنْ أَسَاطِرُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ لَمَّا عَرَفْتَهَا؛ وَهَذَا نَصْفُ الصَّوَابِ؛ وَمَادُمْتُ أَسْتَادِي، فَلَوْ أَنَّنَا اخْتَلَفْنَا فِي رَأْيٍ لَكَانَ خِلَافُكَ لِي صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنْكَ، وَكَانَ خِلَافِي لَكَ صَوَابًا لِأَنَّهُ مِنِّي؛ فَأَنْتَ (غَيْرُ مُخْطِئٍ) وَأَنَا مُصِيبٌ، وَإِذَا أَسْقَطْنَا كَلِمَةَ (غَيْرِ) أَظَلُّ أَنَا مُصِيبًا وَتَكُونُ أَنْتَ مُخْطِئًا...

أَنَا لَمْ أَرَ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) فِي الرُّؤْيَا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُهُ فِي الْمِرَآةِ عِنْدَ الْحَلَّاقِ... وَرَأَيْتُهُ يَقْلِدُنِي فِي كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى فِي الْإِشَارَةِ وَالْقَوْمَةِ وَالْقُعْدَةِ وَلَكِنِّي صَرَخْتُ فِيهِ وَسَبَّيْتُهُ فَفَتَحَ فَمَهُ، ثُمَّ خَافَنِي وَلَمْ يَتَكَلَّمْ...

وأوماً إلى المجنون الآخر وقال: وأنا أتقدم هذا في النبوغ بأكثر من علم العلماء في خمس وستين سنة.

قال ا. ش: لقد قلّتها مرتين كلتاها بمعنى واحد، فما معنك في هذه الثالثة؟
قال: هذا الغرُّ يزعم أنني لا أعرف كيف أصلي، ويستدلُّ لذلك بأنِّي صليتُ بالشعرِ وأنِّي شتمتُهُ وأنا راعٍ؛ ولو كان عاقلاً لعَلِمَ أنَّ شتمي إياه وأنا راعٍ ثوابٌ له... ولو كان نابغةً لعَلِمَ أنَّ الشعرَ كان في مدحِ دولةِ النحاسِ باشا وأولي النُهي.

قلنا: ولكنَّ الشعرَ على كلِّ حالٍ لا تجوزُ به الصلاةُ ولو في مدحِ دولةِ النحاسِ باشا.

قال: لم أصلُ به، ولكن خطرَ لي وأنا أصلي أنني نسيْتُ القصيدةَ فأردتُ أنْ أتحرَّقَ أنني لم أنسها... فإذا أنا نابغةُ القرنِ العشرين في الحفظ، وهي ستُّ أبيات. لا كهذا المعتوه الذي صبرَ على المتنِّ صبرَ الغريبِ على الغربةِ الطويلة، ومع ذلك لم يحفظه.

قال ا. ش: فأملِ علينا هذا الشعر. فأملى عليه.

يا حليفَ الشَّهيدِ قل لي أينَ مَنْ في الدهرِ خالٍ
إنْ تُكُنْ تهوى غزالاً أكحلَ العينينِ مالٍ
أنا أهواها ولكن لا سبيلَ إلى الوصالِ
منذُ ولتُ قلتُ مهلاً منذُ غابَتْ في خيالِ
أنا مجنونٌ بليلي ليلَ ياليلي! تعالِ

قلنا: ولكن ليس هذا مدحاً، فضحك وقال: أردتُ أنْ تعرفوا أنني أقولُ في الغزل، أمّا المديح فهو:

شغفَ أَلورى^(١) بمناصبٍ وأماني وشغِفَتْ يانحاسُ بالأوطانِ
حسبوا الحياةَ تفاخراً وتنعماً وحسبَتْها لِّلْهِ والأوطانِ
ثم أرتج^(٢) عليه فسكت. قالَ المجنونُ الآخر: إنها ستُّ أبيات، وقد نسيْتُ أربعة، ولستُ أريدُ أنْ أذكرك:

(٢) أريج: أغلق.

(١) شغف الورى: اشتدَّ حبُّ الناس.

فقال (النابعة): أظنُّه قد حَانَ وقتُ الصلاة وأريدُ أنْ أصلي... ونظرَ إلى
اللاشيء في ألفضاء، ثُمَّ قال. وألبِثُ الأخير:

لا أبتغي في المَدح غيرَ أولى النُّهى أو صادقٍ أو شوقي أو مطرانٍ
ثُمَّ أمر ا. ش. أن يقرأ عليه الشَّعرَ فقرأه، فقال: أحسنت، انظرْ إلى فوق.
فنظر، ثُمَّ قال: انظرْ إلى تحت. فنظرَ ثُمَّ سكت.

قال ا. ش: وبعد؟ قال: وبعدُ فإنَّ النَّاسَ ينظرون إمَّا إلى فوق وإمَّا إلى
تحت...

وكانَ الضَّجْرُ قد نالَ مِنِّي، فرجوتُ ا. ش. أن يلبثَ مَعهما وأذنتُ لِنابغةِ
القرنِ العشرين أن يلقاني في ألندي وأنصرفت..

قال ا. ش. وهو يُنبئني: فما غَبَتَ عَنَّا حتى أخذَ المَجنونُ يشكو ويتوجَّعُ
ويقول: لقد حاقَ بِي الظُّلم، وإنَّ (الرافعي) رجلٌ عَسوفٌ ظالم، لأنِّي أكتبُ لَهُ كُلَّ
مقالَةٍ التي ينشرُها في (الرسالة)... وأجمعُ نفسي لَهَا، وأجهدُ في بيانها، وأذيبُ
عقلي فيها، وهو مستريحٌ وادعٍ، وليسَ إلَّا أن ينتحلَهَا^(١) ويضعُ توقيعَهُ عليها،
ويبعثُ بها إلى المجلَّة، ثُمَّ هو يقبضُ فيها الذَّهَبَ وينالُ الشهرةَ، ولا يدفعُ لي عن
كُلِّ مقالَةٍ إلَّا قرشين...

قال ا. ش: فما يمنعُكَ أن تُرسلَ أنت هذه المَقالاتِ إلى المجلَّة فتقبضَ فيها
الذهب؟ قال: إنَّ هناك أسراراً أنا مُحصِنُها وكاتمُها، ولا ينبغي أن يعلمَها أحدٌ فإنَّها
أسرار... قالَ لَهُ: فدعِ (الرافعي) وأكتبَ لي أنا هذه المَقالاتِ، وأنا أعطيك في
كُلِّ مقالَةٍ ذهبيْن لا قرشين.

قالَ هذه أسرارٌ ولا أستطيعُ أن أكتبَ إلَّا للرافعي، لأنَّ (نابغةَ القرنِ العشرين)
لا يجوزُ أن يدَّعيَ كلامَهُ إلَّا أستاذُ نابغةِ القرنِ العشرين، ولو ادَّعاهُ غيرهُ لكانَ هذا
خطأً من قدرِ نابغةِ القرنِ العشرين، وهذا بعضُ الأسرارِ لا كُلُّ الأسرار...
قلت: ثُمَّ جاءَ المَجنونانِ في العشيَّةِ إلى ألندي.

(١) يتحلها: ينسبها لنفسه.

المجنون

٣

وكنّا في النّديّ ثلاثة: أنا، وا. ش. وس. ع؛ وقد هيّأت تدبيراً توافّقنا عليه لتحريك هذين المجنونين، وتدوين ما يجيء منهما. فلما أقبلّا تحقّقنا^(١) بهما وألطفناهما، وقفنا ثلاثتنا ببسطيهما وإكراميهما، حتى حَسِبَا أنّ في كلمة «مجنون» معنى كلمة أمير أو أميرة.. ورأيتُ في عيني «نابغة القرن العشرين» - وهو أعينُ أنجل^(٢) - ما لو ترجمته لما كانت العبارة عنه إلاّ أنّه يعتقد أنّ له نفساً أنثى أعشقها أنا.. فكان مسدداً^(٣) فكّة اللسان، تُستملحُ له النادرة، وتُستطَرَفُ منه الحركة.

ولما تمكّن منه الغرور، واحتاجَ الجنونُ كما يحتاجُ الجمالُ إلى كبريائه إذا حاطته الأعينُ - أدارَ بصره في المكان، ثمّ قال: أفّ لكم ولما تصبرون عليه من هذا النديّ في ضوضائه ورُعايه وغوغائه. إنّ هؤلاء إلاّ أخلاطٌ وأوشابٌ وحُثالة. هذا الجالسُ هناك. هذا الواقفُ هنالك. هذا المستوفز. هذان المتقابلان. هؤلاء المجتمعون. هذا كلّهُ خيالٌ حقيقة في رأسي. ما هي؟ ما هي؟

هذا التصايحُ المنكر. هذا الضّربُ بحجارة التّرد. هذه الرّحمةُ التي أنغمسنا فيها. هذا المكانُ الهائجُ من حولنا. هذا كلّهُ خيالٌ حقيقة في رأسي. هي، هي، هي.

فأنزعجَ المجنونُ الآخر، ووقعَ في تهاويلِ خياله، ونظرَ إلينا تدورُ عيناه، وتوجّسَ^(٤) شراً، ثمّ زاعَ بصره إلى ألباب، واستوفزَ وجمعَ نفسه للقيام؛ فلما رأى صاحبه ما نزلَ به، قهقهةً وأمعنَ في الضحك وقال: إنّما خوفُ الصبيانِ والضّربُ ليثبتَ لكم أنّه مجنون..

(٣) مسدداً: موقفاً.

(٤) توجّس: احتسب الشرّ قبل وقوعه.

(١) تحفنا: رَحَبْنَا.

(٢) أعين أنجل: واسع العين أنجلها.

فحرِدَ الآخِرُ وأَغْتَاطَ وجعلَ يُتِمِّمُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ .

قالَ «الأنابغة»: ما كلامٌ تَطِنُ بِهِ طينَ الذبابةِ أيُّها الخبيثُ؟

قالَ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أنَّ من علاماتِ الأحمقِ أَنَّهُ إذا أَسْتَنْطِقَ تَجَلَّفَ، وإذا بكى خارَ، وإذا ضَحِكَ نَهَقَ. كما فعلتَ أنت الساعةَ، تقول: هاءَ، هوءَ، هيءَ... فتغيَّرَ وجهُ «الأنابغة»، ونظرَ إليه نظرةً منكرةً، وهمَّ أنْ يَتَحَجَّمَ عليه، وقالَ: أيُّها المجنون، لِمَ إذا تُضْطَرُّنِي إلى أنْ أَجيبَكَ جوابَ مجنون... لا نجوتُ إنْ نجوتُ مني!

فأسرعَ ا. ش، وأمسكَ به؛ وأَعترضَ مِنْ دُونِهِ س. ع، وقالَ لَهُ: أنتَ بدأتَهُ والباديءُ أَظلمَ.

قالَ: ولكن - ويحَهْ - كيف قالَ هذا؟ كيف لم يقلْ إلَّا هذا؟ كيف لم يجدْ إلَّا هذا يقولُهُ؟ أنابغةُ القرنِ العشرينِ أحمقٌ، وقد أوحدهُ اللَّهُ في القرنِ العشرينِ؟ لَهُمَمْتُ - والله - أنْ أكسِرَ الَّذِي فِيهِ عَيْنَاهُ؛ فما يقولُ إلَّا أَنِّي أحمقُ القرنِ العشرينِ...

قلتُ: إنْ كانَ هذا هوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ مِنْهُ؛ ففي الحديثِ الشريفِ: «ليسَ من أحدٍ إلَّا وفيهِ حَمَقَةٌ، فَبِهَا يَعِيشُ». والحياءُ نَفْسُها حِمَاقَةٌ منظَّمةٌ تنظيمًا عاقلًا؛ وما يُقْبَلُ الإنسانُ على شيءٍ من لذاتها إلَّا هوَ مقبَلٌ على شيءٍ من حماقاتِهِ، وأمتعُ اللذَّةِ ما طاشَ فِيهِ العَقْلُ وخرَجَ من قانونِهِ؛ ولولا هذا الأحمقُ في طبيعةِ الإنسانِ لما أحتَمَلَ طبيعةَ الحياةِ، أليسَ يُخَيَّلُ إِلَيْكَ أنَّ أكثرَكَ غائبٌ عن الدنيا وأقلُّكَ حاضرٌ فيها، وأنَّ يَقْظَتَكَ الحَقِيقَةَ إنَّما هيَ في الحُلُمِ وما يُشَبِّهُ الحُلُمَ، كأنَّكَ خُلِقتَ في كوكبٍ وهبطتَ مِنْهُ إلى كوكبنا هذا، فما فيكَ لِلأَرْضِ ولا فيها لك إلَّا القليلُ يَلْتَمِّمُ بعضُهُ ببعضِهِ، وأكثرُكما مُتَنَافِرٌ أو مُتَنَاقِضٌ أو مُتَراجِعٌ؟

قالَ: بلى.

قلتُ: فهذا القليلُ هوَ الحَمَقَةُ الَّتِي بها تعيشُ، وهوَ أرضِيَّةُ الأَرْضِ فيكَ؛ أما سَمَويَّةُ السَّمَاءِ فبَعِيدَةٌ لا تَحْتَمِلُها طبيعةُ الأَرْضِ؛ ولِهذا يعيشُ أَهْلُ الحَقِيقَةِ عِيشَ المِجانينِ في رأيِ المِغْرورينَ الَّذينَ غَرَّتْهُمُ الحياةُ الفانيَّةُ، أو المِخدوعينَ الَّذينَ خَدَعَتْهُمُ الظُّواهرُ الكاذِبَةُ؛ فَكَلِّمُوا عَمَلًا مِنَ الأَعْمَالِ السَّامِيَةِ أَنْتَهَى إلى الحَمَقَى

معكوساً أو مُحَوَّلاً أو معدولاً به؛ ولعلَّ هذا أصحُّ تفسيرٍ للحديثِ الشريف: «أكثرُ أهلِ الجنةِ البُله».

قالَ المَجْنُونُ الآخرُ: «مِمَّا حفظناه»: أكثرُ أهلِ الجنةِ البُله.

فقالَ (النابغة): ألمصيبةُ فيكَ أنَّكَ أنتَ هو أنت؛ ألا فلتعلمِ أنَّكَ من بُلْهَاءِ البيمارستانِ لا من بُلْهِ الجنةِ...

قلتُ: ثُمَّ إِنَّ المَوْتَ لا بدَّ آتٍ على الناسِ جميعاً، فيسلبُهُم كلُّ ما نالوه مِنَ الدُّنيا، وَيُلْحِقُ مَنْ نالَ بِمَنْ لَمْ يَنَلْ؛ فَمَنْ ذا الَّذِي يُسَرُّ بِأَنْ يَنَالَ ما لا يبقى لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ سرورُهُ من حِمَاقَتِهِ؟ وَمَنْ ذا الَّذِي يَحْزَنُ على أَنْ يَفُوتَهُ ما لا يبقى لَهُ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ حُزْنُهُ حِمَاقَةً أخرى؟ وأيُّ شيءٍ في الحُبِّ بعدَ أَنْ يَنْقُضِيَ الحُبُّ إِلَّا أَنَّهُ كَانَ حِمَاقَةً ضَرَبَتْ في الحَوَاسِّ كُلِّهَا مَلَأَتْ النَفْسَ؛ ثُمَّ مَلَأَتْ النَفْسَ حَتَّى فَاضَتْ على الزَّمَنِ؛ ثُمَّ فَاضَتْ على الزَّمَنِ حَتَّى خَبَلَتْ العَاشِقَ تَخِيلاً لذيذاً تَصْغُرُ فِيهِ الأَشْيَاءُ وتَكْبُرُ، ويجعلُ الواقعَ في النَفْسِ غيرَ الواقعِ في دُنْيَاها؟ يُشْبَهُ كُلُّ عاشِقٍ حَبِيبَتَهُ بالقَمَرِ: فَهَبِ القَمَرَ سَمِعَ هذا وفَهَمَهُ وَعَنَاهُ أَنْ يُجِيبَ عَنْهُ، فَمَازَا عَسَاهُ يَقُولُ إِلَّا أَنْ يُعْجَبَ من هذا الحِمَقِ في هذا التَّشْبِيهِ؟

فهذا (النابغة) وسكنَ غضبُهُ وقال: صدقتُ، ولِهذا أنا لا أَشْبَهُ حَبِيبَتِي بالقَمَرِ.

قلتُ: فبِمَاذا تُشَبِّهها؟

قال: لا أقولُ لك حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذا تُشَبِّهُ أَنْتَ حَبِيبَتَكَ. قلتُ: وأنا كذلك لا أَشَبِّهها بالقَمَرِ.

قال: فبِمَاذا تُشَبِّهها؟ قلتُ: حَتَّى أَعْلَمَ بِمَاذا تُشَبِّهُ أَنْتَ..

قال: هذا لا يُرْضَى مِنْكَ وَأَنْتَ أَسْتَاذُ (نابغةِ القرنِ العَشرين)، ولكِ حَبَائِبُ كَثِيرَاتٌ عَدَدَ كَتَبِكَ، وقد أعْجَبْتَنِي مِنْهُنَّ تِلْكَ الَّتِي فِي (أوراقِ الوردِ)، وَأَظُنُّكَ أَحَبَّيْتَهَا فِي شَهْرِ مايو من سَنَةٍ.. من سَنَةٍ..

قالَ المَجْنُونُ الآخرُ: من سَنَةِ ١٩٣٥؛ هُناذَكَ قد نَبَهْتُكَ.

قال: يا ويلَكَ! إِنَّ (أوراقَ الوردِ) ظَهَرَتْ مِنْ بَضْعِ سَنِينَ، إِنَّمَا أَنْتَ مِنْ بُلْهَاءِ البيمارستانِ لا مِنْ بُلْهِ أَوَاقِ الوردِ.. ماذا كُنْتُ أَقُولُ؟

قال ا. ش: كنت تقول: هذا لا يَرْضَى منك ولك حبايب كثيرات.

قال: نعم، لَأَنَّكَ إِذَا شَبَّهْتَ واحدةً مِنْهُنَّ بِالْقَمَرِ، انتهى الْقَمَرُ وْفَرَّغَ التَّشْبِيهُ فيظَلُّ الْأَخْرِيَاثُ بِلا قَمَرٍ.. ثُمَّ إِنَّ كَلِمَةَ الْقَمَرِ لَا تُعْجِبُنِي، فَلَوْنَهَا أَدَكُنْ^(١) مُغْبِرُ يَضْرِبُ أحياناً إِلَى ألسود... فَإِذَا عَشِيقْتُ زَنْجِيَّةً فَهِنَا محلُّ التَّشْبِيهِ بِالْقَمَرِ.. أَمَّا الْبَيْضُ الرَّعَائِبُ فَتَشْبِيهُهُنَّ بِالْقَمَرِ مِنْ فسادِ الذُّوقِ.

قال س. ع: وَلِلْأَلْفَاظِ أَلْوَانٌ عِنْدَكَ؟

قال: لو كنت نابغةً لَأَبْصَرْتَ فِي دَاخِلِكَ أَخِيْلَةً مِنَ الْجَنَّةِ؛ أَلَمْ يَقُلْ أَسْتَاذُنَا أَنْفَاءً عَنِ (نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): إِنَّهُ هَبَطَ مِنْ كَوْكَبٍ إِلَى كَوْكَبٍ؟ ففِي كَوْكَبِنَا أَلَوِلَّ يَكُونُ لَنَا سَمْعٌ مَلَوْنٌ؛ وَجِسٌّ مَلَوْنٌ نَسْمَعُ قَرَعَ الطَّبْلِ أَرْقَ، وَنَفْخَ الْبُوقِ أَحْمَرَ، وَزَيْنَ النَّعَمِ الْحُلُوِّ أَخْضَرَ، وَالْوُجُودَ كُلَّهُ صَوْرَ مَلَوْنَةٍ، سِوَاةٍ مِنْهُ مَا يُرَى وَمَا يُحَسُّ، وَمَا هُوَ مُسْتَخْفٍ وَمَا هُوَ ظَاهِرٌ.

ثُمَّ أَوْماً إِلَى الْمَجْنُونِ الْآخِرِ وَقَالَ: وَأَسْمُ هَذَا الْأَبْلِهِ كَلْفِظِ الْجَبْرِ: لَا أَسْمَعُهُ إِلَّا أَسُود..

وَسَكَتَ «النَّابِغَةُ» وَسَكُنَّا؛ فَقَالَ لَهُ س. ع. مَا لَكَ لَا تَتَكَلَّمُ؟ قَالَ: لِأَنِّي أُرِيدُ أَلْسَكُوتَ. قَالَ: فَلِمَاذَا تُرِيدُ أَلْسَكُوتَ؟ قَالَ: لِأَنِّي لَا أُرِيدُ أَنْ أَتَكَلَّمُ..

وَتَحَرَّكَ فِي نَفْسِهِ الْغَيْظُ مِنَ الْمَجْنُونِ الْآخِرِ، فَرَمَى بَعِيْنَهُ الْفَضَاءَ يَنْظُرُ أَلَلَّاشِيَّةً وَقَالَ: إِذَا أَصْبَحَ كُلُّ النِّسَاءِ ذَوَاتٍ لِحَيٍّ أَصْبَحَ هَذَا عَاقِلاً.. فَدَقَّ الْآخِرُ بَرَجْلِهِ دَقَاتٍ مَعْدُودَةٍ؛ فَتَارَ (النَّابِغَةُ) وَقَالَ: مَنْ هَذَا يَشْتُمُنِي؟

قال: س. ع: لَمْ يَشْتَمْكَ أَحَدٌ، هَذَا خَفَقَ رِجْلِي عَلَى الْأَرْضِ.

قال: بَلْ شَتَمَنِي هَذَا الْخَبِيثُ، وَسَمْعِي لَا يَكْذِبُنِي أَبَداً، وَأَنَا رَجُلٌ ظَنُّونُ، أَسِيءُ الظَّنَّ بِكُلِّ أَحَدٍ، وَعَلَامَةُ الْحَازِمِ «الْعَاقِلِ» سُوءُ ظَنُّهُ بِالنَّاسِ. فَهَبْهُ كَمَا قُلْتَ قَدْ خَفَقَ بِنَعْلِهِ، أَوْ خَبَطَ بَرَجْلِهِ؛ فَهُوَ مَا يَعْنِي مِنْ ذَلِكَ، وَأَنَا أَسْمَعُ مَا يَعْنِيهِ. لَقَدْ طَفَحَ^(٢) الشَّعْرُ عَلَى قَلْبِي فَلَا بَدَّ لِي مِنْ هِجَائِهِ، وَلَا بَدَّ لِي أَنْ أَذْبَحَهُ وَلَوْ بِالْكَلَامِ، فَإِنِّي إِذَا هَجَوْتُهُ رَأَيْتُ دَمَهُ فِي كَلِمَاتِي، وَأُرِيدُ أَنْ أَجْعَلَهُ كَالْعَنْزِ الَّتِي كَانَتْ عِنْدَنَا وَذَبَحْنَاهَا.

ثُمَّ أَنْتَزَعَ قَلَمَ س. ع، وَقَالَ: هَذِهِ هِيَ السَّكِينُ. وَلَكِنْ أَسْأَلُكَ يَا أَسْتَاذِي أَنْ

(٢) طَفَحَ: فَاضَ.

(١) الدُّكَّةُ: اللَّوْنُ مَا بَيْنَ الْحُمْرَةِ وَالسَّوَادِ.

تَذْبَحُهُ أَنْتَ بِكَلِمَتَيْنِ وَتَصِفَ لَهُ جَنُونَهُ، فَقَدْ عَزَبَ^(١) عَنِّي الشَّعْرُ... إِنَّ خَفَقَةَ رَجُلٍ
عَلَى الْأَرْضِ تَسْتَطِيرُ الْأَرَانِبَ فَرَعَاً؛ فَيَنْفِرُونَ إِلَى أَجْحَارِهِمْ وَيَتَهَارَبْنَ، وَمَا كَانَتْ
أَبْيَاتُ الشَّعْرِ فِي ذِهْنِي إِلَّا أَرَانِبٌ..

أَنْتُمْ لَا تَعْرِفُونَ أَنَّ مَنْ كَانَ حَصِيْفًا^(٢) ثَبِيْتًا مِثْلِي، كَانَ دَقِيقَ الْحِسِّ؛ وَمَنْ كَانَ
فَدْمًا^(٣) غَبِيًّا مِثْلَ هَذَا، كَانَ بَلِيدَ الْحِسِّ غَلِيظًا كَثِيْفًا؛ فَإِذَا أَنَا أَسْتَشْعِرْتُ الْبَرْدَ رَأَيْتُنِي
قَدْ سَافَرْتُ إِلَى الْقُطْبِ الشَّمَالِيِّ؛ أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ فَهُوَ إِذَا أَسْتَشْعَرَ بَرْدًا سَافَرَ إِلَى
عَبَائِهِ أَوْ لِحَافِهِ.. إِذْ هُوَ لَا يَعْرِفُ جُغْرَافِيَا، وَلَا يَدْرِي مَا طَحَّاهَا.

قُلْتُ: هَذَا مِنْكَ أَظْرَفُ مِنْ نَادِرَةِ أَبِي الْحَارِثِ. قَالَ: وَمَا نَادِرَةُ أَبِي الْحَارِثِ؟
وَهَلْ هُوَ نَابِغَةٌ؟

قُلْتُ: جَلَسَ يَتَغَدَّى مَعَ الرَّشِيدِ وَعِيسَى بْنِ جَعْفَرٍ، فَأَتَانِي بِخَوَانٍ^(٤) عَلَيْهِ
ثَلَاثَةُ أَرْغِفَةٍ، فَأَكَلَ أَبُو الْحَارِثِ رَغِيْفَهُ قَبْلَهُمَا، وَالرَّشِيدُ مَلِكٌ عَظِيمٌ: لَا يَأْكُلُ أَكْلَ
الْجَائِعِ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّشْعِيبُ مِنْ هُنَا وَهَنَآكَ؛ فَكَانَ رَغِيْفُهُ لَا يَزَالُ بَاقِيَاً؛ فَصَاحَ أَبُو
الْحَارِثِ فَجَاءَهُ: يَا غَلَامُ، فَرَسِي. فَفَزَعَ الرَّشِيدُ وَقَالَ: وَيْلَكَ مَا لَكَ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ
أَرْكَبَ إِلَى هَذَا الرَّغِيْفِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْكَ..

قَالَ (النَابِغَةُ): وَلَكِنْ فَرَقَا بَيْنَ أَبِي الْحَارِثِ وَبَيْنَ (نَابِغَةِ الْقُرْنِ الْعَشْرِينَ)، فَإِنَّ
مَنْ الْعَجَائِبِ أَتَى رُبَّمَا نَظَرْتُ إِلَى الرَّجُلِ وَهُوَ يَأْكُلُ فَأَجَدْتُ الشَّبْعَ، حَتَّى كَانَتْهُ يَأْكُلُ
بِطْنِي لَا بِيْطْنِهِ، وَلَكِنْ مِنَ الْعَجَائِبِ أَنَّ هَذَا لَا يَتَّفِقُ لِي أَبَدًا حِينَ أَكُونُ جَائِعًا...
أَمَّا هَذَا الْمَجْنُونُ الَّذِي أَمَامَنَا، فَرُبَّمَا أَبْصَرَ الْجِمَارَ عَلَى ظَهْرِ الْجِمْلِ، فَيَشْعُرُ
كَأَنَّ الْجِمْلَ عَلَى ظَهْرِ هُوَ لَا عَلَى ظَهْرِ الْجِمَارِ.

قَالَ الْآخَرُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: أَنَّهُ سَرَقَ لِأَعْرَابِيٍّ جِمَارًا، فَقِيلَ لَهُ أَسْرَقَ حِمَارُكَ؟
قَالَ: نَعَمْ، وَأَحْمَدُ اللَّهِ. فَقِيلَ لَهُ: عَلَى مَاذَا تَحْمَدُهُ؟ قَالَ: عَلَى أَنِّي لَمْ أَكُنْ عَلَيْهِ
حِينَ سَرَقَ.. فَأَنَا إِذَا رَأَيْتُ جِمَارًا مَثْقَلًا الظَّهْرِ، حَمَدْتُ اللَّهَ عَلَى أَنَّ الْجِمْلَ لَمْ
يَكُنْ عَلَيَّ، لَا كَمَا يَقُولُ هَذَا. ثُمَّ دَقَّ بِرَجْلِهِ دَقَاتٍ..

فَأَسْتَشَاطَ (النَابِغَةُ) وَقَالَ: أَسْمَعْتُمْ كَيْفَ يَقُولُ إِنَّنِي مَجْنُونٌ، ثُمَّ لَا يَكْتَفِي بِهَذَا
بَلْ يَقُولُ إِنَّنِي جِمَارٌ عَلَى ظَهْرِ الْجِمْلِ؟

(٣) فَدْمًا: جَبَانًا غَبِيًّا.

(٤) خَوَان: مَائِدَةُ الطَّعَامِ.

(١) عَزَبَ: غَرِبَ.

(٢) حَصِيْفًا: عَاقِلًا رَزِينًا.

قلت: ينبغي أن تتكافأ، وهذا لا يعيبك منه ولا يعيبه منك، فإن من تواضع «النوابغ» أن يشعروا ببؤس الحيوان، فإذا شعروا ببؤسه دخلتهم الرقة له، فإذا دخلتهم الرقة صار خيال الجمل جملاً على قلوبهم الرقيقة؛ وقد يصنعون أكثر من ذلك: حكى الجاحظ عن ثمامة قال: كان (نابغة) يأتي ساقية لنا سحراً؛ فلا يزال يمشي مع دابتها ذاهباً وراجعاً في شدة الحر أيام الحر، وفي البرد أيام البرد، فإذا أمسى توضع وقال: اللهم أجعل لنا من هذا ألهم فرجاً ومخرجاً. فكان كذلك إلى أن مات!

قال المجنون الآخر: «مما حفظناه»: ثمرة الدنيا السرور، ولا سرور للعقل، فلو لم يكن هذا عقل العقلاء لما محق سروره في الدنيا هذا المحق إلى أن مات غمًا، رحمه الله!

* * *

قال: س. ع: فأعف الآن عن صاحبك ولا تذبخه بالهجاء.

قال: لقد ذكرتني من نسيان، وهذا المجنون يرى نسياني من مرض عقلي، وكان الوجه - لو تهدي إلى الحقيقة - أن يراه شذوذاً في العقل، أي نبوغاً عظيماً كنموذج ذلك أفليلسوف الذي أراد أن يتثبت في كم من الزمن تسلق البيضة؛ فأخذ بيده الساعة وبيده الأخرى بيضة، ثم نسي نسيان النبوغ، فألقى الساعة في الماء على النار، وثبت عينه على البيضة ينظر فيها على أنها هي الساعة. ولو قد رآه هذا ألبله لزعمه مجنوناً كما يزعمني، فإن المجانين يروون العقلاء مرضى بمواهبهم وأعمالهم التي يعملونها.

وأنا فليس يهيجني شيء ما تهيجني كلمات ثلاث: أن يقال لي مجنون، أو أبله، أو أحمق. فمن رغب في صحتي فليتنجب هذه الثلاث كما يتجنب الكفر والكفر والكفر...

قال ١. ش: فإذا قيل لك مثلاً. مثلاً. أي على التمثيل: مغفل.

فحك رأسه قليلاً وقال: لا، هذه ليست من قدرتي..

قلت: فبعض الكلمات إذا قطعت عندك غيرت الحقائق، كذلك القرن الذي قطع فرد البقرة فرساً؟

قال: وكيف كان ذلك؟

قلت: زعموا أن أعرابياً خرج إخوته يشترون خيلاً، فخرج معهم فجاء بعجل يكوّده؛ فقبل له: ما هذا؟ قال: فرس أشتريته. قالوا: يا مائق^(١) هذه بقرة، أما ترى قرنيها؟

فرجع إلى منزله فقطع قرنيها، ثم قادها إليهم وقال لهم: قد أعدتها فرساً كما تريدون..

قال (النابغة): هذا غير بعيد، فقد رأيتنا حين ذبحنا العنز وكسرنا قرنيها أعدناها كلبه سوداء، فتقدّزتها وعفّت لحمها ولم أطعم منها.

ثم أوماً إلى الآخر وقال: هذا لا يدري ما طحّاها، وهو مثل العنز: تحسب قرنيها للقتال والنطاح ومنهما تمسك للذبح؛ فقل في هذا يا أستاذ (نابغة القرن العشرين).

قلت للآخر: أيرضيك أن أقول في المعنى لا فيك أنت...؟ قال: نعم. فكتبْتُ هذه الأبيات على ما يُريد النابغة:

قُلْ لِعَنْزٍ نَاطِحَاها لِقِتَالٍ سَالِحَاها
مَا لَهَا قَدْ طَرَحَاها فِي يَدَيْنِ ذَبَحَاها؟

شِيْمَةٌ مِنْي نَحَاها عَقْلٌ غِرٌّ^(٢) فَلَحَاها
لَيْسَ يَدْرِي مَا طَحَاها^(٣) بَلْ يَرَى شَمْسَ ضَحَاها
حَجَرًا مِثْلَ رَحَاها وَيَرَى أَلِيلَ مَحَاها
ظُلُمًا طَالَتْ لَحَاها

وسرّ (النابغة) وأزدهى، وجعل يقول: طالت لحاها، طالت لحاها. وما كان هذا إلا السرور الأصغر؛ أما سروره الأكبر فمجيء ساعي (البريد المستعجل) إلى الندی، وفي يده رسالة عنوانها: نابغة القرن العشرين فلان، بندي كذا.

وجعل الرجل يهتف بالعنوان يسأل عن صاحبه؛ فتناولت أعناق الناس، ورفعوا أبصارهم ينظرون إلى (نابغة القرن العشرين) وقد مدّ يده يتناول الرسالة

(١) مائق: أحمق.

(٢) غر: أحمق، لا تجربة له.

(٣) طحّاها: بسطها وسهلها ومدّها.

وكأنَّه مَلِكٌ مِنَ الْقَدَمَاءِ أَسْقَطَ لَهُ كِتَابٌ بِالْفَتْحِ الْعَظِيمِ وَبَضَمٌ دَوْلَةٍ إِلَى دَوْلَتِهِ .
ثُمَّ تَرَكَ الرِّسَالَةَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ يَقْلِبُهَا وَلَا يُفَضُّهَا^(١) وَنَحْنُ فِي دَهْشَةٍ مِنْ أَمْرِهِ ؛
فَنَظَرَ فِيهَا الْمَجْنُونُ وَقَالَ لَهُ : هَذَا عَجِيبٌ يَا أَخِي ، كَيْفَ هَذَا ؟ إِنَّ هَذَا لَا يُصَدَّقُ ؛
إِنَّكَ لَمْ تَلِقْهَا فِي صَنْدُوقِ الْبَرِيدِ إِلَّا مِنْذُ سَاعَةٍ . .

(١) يَفَضُّهَا : يَفْتَحُهَا .

المجننون

٤

وضاق «نابغة القرن العشرين» بحُرقِ المجنون الآخر؛ ورأه داهيةً دَوَاهٍ، كلُّما تَعَاقَلَ أو تَحَادَقَ^(١) لم يأتِ لَهُ ذلك إلا بأن يكشفَ عن جنونه هو: فلا يبرُحُ يُجرِّعُهُ الغيظَ مرةً بعدَ مرةٍ، ولا يزالُ كأنَّهُ يَسُبُّهُ في عقله؛ فأرادَ أنْ يحتالَ لِصرفِهِ عن المجلس، فدفعَ إليه الرسالةَ الَّتِي جاءَ بها (ألبريدُ المستعجلُ) وقالَ له: خذْ هذه فأذهبْ فألقِها في دارِ ألبريد، فسيجيءُ بها الساعي مرةً أخرى، ثُمَّ تذهبُ الثانيةُ فتلقِها، ويعودُ فيجيءُ بها، وتكونُ أنتَ تذهبُ ويكونُ هو يجيءُ، فنضحكُ منه ويضحكون.

قال س. ع: ولكن كم يذهبُ هذا وكم يجيءُ ذاك؟

فغمزَه (النابغة) بعينه أنْ أسكتْ؛ فتعاقَلَ س. ع، وقال: كم تُريدُ أنْ يجيءَ الساعي ليَهْتَفَ بنابغةِ القرنِ العشرين؟

قالَ المجنونُ الآخر: هذا هو الرأي، فلستُ قائماً حتى أعرفَ كم مرةً أذهب؛ فإنَّ الساعي لا يجيءُ إلا راكباً، وأنا لا أذهبُ إلا راجلاً، وإنَّ لي رجلَي إنسانٍ لا رجلَي دابةٍ..

قالَ (النابغة): سبحانَ الله؟ بقليلٍ مِنَ الجنونِ يخرجُ مِنَ الإنسانِ مجنونٌ كاملٌ مُستَلَبُ العقل. بَيِّنْ أَنَّهُ لا يَأْتِي النابغةُ إلا من كثيرٍ وكثير، ومن النبوغِ كُلِّهِ بجميعِ وسائلِهِ وأسبابِهِ على تعدُّدِها وتفرُّقِها وصعوبةِ اجتماعِها لإنسانٍ واحدٍ (كتابغةِ القرنِ العشرين)، فهو الَّذي توافقتْ إليه كُلُّ هذه الأسبابِ، وتوازنتْ فيه كُلُّ تلكَ الخِلالِ. إِنَّهُ ليسَ الشَّأْنُ في العِلْمِ ولا في التعلِيمِ؛ ولكِنَّما الشَّأْنُ في الموهبةِ الَّتِي تُبدِعُ

(١) تحاذق: تذاكى.

الابتكار، كموهبة (نابعة القرن العشرين)، فيها تجيء أعماله منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتميزة مع كونها منسجمة دالة بنفسها على نفسها؛ ومتلائمة مع كونها متميزة دالة بنفسها على نفسها...

هذا س. ع، كان الأول بين خريجي مدرسة دار العلوم، مدرسة الأدب والعربية، والمنطق والتحدث، وبلاغة اللسان وصحة النظر؛ وهو يعرف أن الكتاب يلقي في البريد وعليه طابع واحد، فيصل إلى غايته بهذا الطابع، ثم يرى بعيني رأسه أربعة طابع على هذه الرسالة المعنونة بأسم (نابعة القرن العشرين)، فلا يدرك بعقله أن معنى ذلك أن من حق هذه الرسالة أن تصل إليّ أنا أربع مرات.

فطرب المجنون الآخر، وأهتز في مجلسه، وصفق بيديه، وقال: «مما حفظناه» هذا الحديث: «يحاسب الله الناس على قدر عقولهم». فلا تؤاخذ س. ع، فإن مدرسة دار العلوم تعلمهم: «فيها قولان»، وفيها ثلاثة أقوال، وفيها أربعة أوجه، ولكنها لا تعلمهم فيها أربعة طابع.

ثم ألفت إلى س. ع، وقال له: لا عليك، أنا صاحب خليفته، وحامل علمه ورواية أدبه، وأكبر دعاته وثقاته، وما علمت هذه الحكمة منه إلا في هذه الساعة.

قال أ. ش: فإذا كان هذا، فإن لقائل أن يقول: لماذا لم يضع على كتابه عشرة من الطابع، فيجاء به الساعي عشر مرات.

قال (النابعة): وهذا أيضاً...؟

وما شرُّ الثلاثة أم عمرو بصاحبك الذي لا تصحبن؛ إن الشمعة في يد العاقل تكون للضوء فقط، ولكنها في يد المجنون للضوء وإحراق أصابعه. كم الساعة الآن؟

قلنا: هي التاسعة.

قال: ومتى ينصرف أهل هذا الندى؟

قلنا: لتمام الثانية عشرة.

قال: فإذا كان الساعي يتردد في كل ساعة مرة، فهي أربع مرات إلى أن ينفض المجتمعون^(١) هنا، وبين ذلك ما يكون قد ذهب قوم عرفوا (نابعة القرن

(١) ينفض المجتمعون: يتفرقون.

الْعَشْرِينَ)، وجاء قومٌ غيرُهم فيعرفونه . وأما بعدَ ذلك فلا يجدُ الساعي هنا أحداً؛ فلا تكونُ فائدةٌ من مجيئه .

فصقَّ المجنونُ الآخرُ وقال : هذا وأبيكَ هو التَّهْدِي إلى وجهِ الرأْي وسَدَادِهِ، وهذا هو الكَلامُ الرَصيدُ الَّذِي يَقومُ على أَصولِ الحِساب والجغرافيا . . «ومِمَّا حَفَظْنَاهُ» هذا الحديث : «لا مالَ أَعوَدُ مِنَ الْعَقْلِ» . فأربعةٌ طَوابع ، لِأربعِ مرَّات ، في أربعِ ساعات ؛ وما عدا هذا فإسرافٌ وتبذيرٌ ؛ ولا مالَ أَعوَدُ مِنَ الْعَقْلِ . .

* * *

ورضِيَ (النابعة) عن صاحبه وقالَ له : لَئِنْ كَانَتْ فِيكَ ضَعْفَةٌ إِنَّ فِيكَ لَبَقِيَّةً تَعْقِلُ بها . . . ثُمَّ أَخَذَ مِنْهُ الرِّسَالَةَ ودَسَّهَا فِي ثَوْبِهِ . قلْنَا : وَلَكِنْ أَلَا تَقْضُهَا لِتَعْرِفَ مَا فِيهَا؟

فضحك وقال : أَتَرْنِ جَارِيَتُكُمْ فِي بَابِ الْمُطَايَبَةِ وَالنَّادِرَةِ ، وَجَارَيْتُ هَذَا الْأَبْلَةَ فِي بَابِ جُنُونِهِ وَحُمَقِهِ - تحسبون أنَّ الأمرَ على ذلك ، وأنَّ الرِّسَالَةَ فارغةٌ إِلَّا مِنْ عَنَوَانِهَا ، وَأَنَّ نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ هُوَ [مِنْ] أَرْسَلَهَا إِلَى نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ ، كَمَا قَالَ سَعْدُ بَاشَا : (جورج الخامس يُفاوضُ جورج الخامس) . . . ؟ لَحَقَّ - وَاللَّهِ - أَنَّ الْعَقْلَ الْكَبِيرَ الَّذِي يَأْبَى الصِّغَاثِرَ ، هُوَ الَّذِي تَأْتِي مِنْهُ الصِّغَاثِرُ أحياناً لَتُثْبِتَ أَنَّهُ عَقْلٌ كَبِيرٌ ، وَهَكَذَا تَسَخَّرُ الْحَقِيقَةُ مِنْ كِبَارِ الْعُقُولِ (كُنَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) . .

فغَضِبَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ وَهُمْ أَنْ يَتَكَلَّمُ : فَقَالَ لَهُ (النابعة) : أَنْتَ كَاذِبٌ فِيمَا سَتَقُولُهُ .

قلْنَا : وَلَكِنَّهُ لَمْ يَقُلْ شَيْئاً بَعْدُ ، فَكَمَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ كَاذِباً يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ صَادِقاً .

قال : وَسَيُخْطِئُ فِي رَأْيِهِ الَّذِي يُبْدِيهِ . .

قلْنَا : وَلَمْ يُبْدِ شَيْئاً مِنْ رَأْيِهِ . .

قال : وَلَا يَعْرِفُ الْحَقِيقَةَ الَّتِي سَيَتَكَلَّمُ عَنْهَا .

قلْنَا : وَيَحْكُ ، أَدَخَلْتَ فِي عَقْلِ الرَّجُلِ أَمْ تَعْلَمُ الْغَيْبَ؟

قال : لَا هَذَا وَلَا ذَاكَ ، وَلَكِنَّهُ قِيَاسٌ مَنْطِقِيٌّ يُتَوَهَّمُ أَطْرَادُهُ^(١) . إِنَّهُ سَيَقُولُ : إِنِّي

مَجْنُونٌ . .

(١) أَطْرَادُهُ : استمرارُ حدوثه .

فأخرج الآخر لسانه . . قال: (النابعة): تباً لك، لقد رأيتُ الكلمة في لسانك كأنها مكتوبةٌ بحروف المطبعة. ويحك يا مَرَقَعَان^(١)، ألا تعرفُ أن لك دماغاً مخروقاً تسقطُ منه أفكارك قبل أن تتكلمَ بها، ولولا أنه مخروقٌ لحفظتُ المتن! إن كلَّ تخطئةٍ لي منك هي اعترافٌ لي منك بصواب.

فنظرَ الآخرُ إليه نظرةً كأن تفسيرها في حواجبه، إذ مطَّ^(٢) حواجبه ورقصها. فقال (النابعة): ونظراته خبيثةٌ ملحةٌ الطعم، مزعوفةٌ كماء البحر المرُّ أخذ من البحر وأضيفَ إلى ملحه الطبيعي ملح، أكاد أنهوع^(٣) من هذه النظرة فأقيء.

الآن فهمتُ معنى قولهم: «ملحةٌ في عين الحسود». فإنَّ الملح لا يغلبه إلا الملح، كالحديد بالحديد يُفْلَحُ^(٤). هاتوا كأساً من معتقة الخمر، ثم لينظر فيها الخبيثُ هذه النظرة، فإنَّ الخمر لا بدَّ مستحيلة «شربة ملح إنجليزي» . . . هذا الأبله ثقيلُ الدم كأن دمه مأخوذٌ من مستنقع . . . أهذا الذي لا يستطيع أن يقول لشيء في الدنيا: هو لي، إلا الفقرَ والجنونَ والخرافة - يكذبُ ما في الرسالة التي جاء بها البريدُ المستعجلُ، ولا يُصدقُ أنها رسالةٌ إلى نابغة القرن العشرين من صاحب السمو الأمير؟

هذا الذاهبُ العقل هو كالجبان المنقطع في وخشة الفقر، في ظلام الليل: إذا توجَّس حركةٌ ضعيفةٌ انقلبت في وهمه قصةً جريمةً ماؤها الرعبُ وفيها القتلُ والأذبح؛ ولهذا يخشى ما في الرسالة التي جاءت من صديقي صاحب السمو. هاؤم أقرءوا الرسالة.

وفضضنا^(٥) الغلاف، فإذا ورقتانِ مهورتانِ بتوقيع أمير معروف، إحداهما صكٌّ بآلف جنيه تُدفع (لنابعة القرن العشرين)، والثانية أمرٌ بالقبض على المجنون الآخر . . وإرساله إلى المارستان . . .

وذهبتُ أُصلِحُ بينهما صلحاً فقلت: إن في الحديث الشريف: «بينما رسولُ

(١) المرقع والمرقعان: هو الأحمق الذي يرتج عليه رايه.

(٢) مط حواجبه: رفعها استغراباً واستفهاماً.

(٤) يفلح: يشق.

(٥) فضضنا: فتحنا.

(٣) تهوع القيء: تكلفه.

اللَّهُ ﷻ في أصحابه إذ مرَّ به رجلٌ، فقال بعضُ القوم: هذا مجنون. فقال رسولُ اللَّهِ ﷺ: هذا مُصاب؛ إنّما ألمجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله.

فقال صاحبُ المتن: «مِمَّا حفظناه» إنّما ألمجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله.

قلت: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ الله...

قال ألمجنون: «مِمَّا حفظناه»: وليسَ فيكما مقيمٌ على معصيةِ الله...

قلت: هذا ليسَ مِنَ الحديثِ ولكنه من كلامي...

قال (النابغة): أنبأتكم أنّ هذا الأبلهَ يَضِلُّ في دارِهِ كما يضلُّ الأعرابيُّ في الصحراء؛ وأنَّ الأسطولَ الإنجليزِيَّ لو استقرَّ في ساقيةٍ يدورُ فيها ثورٌ، لكانَ ذلك أقربَ إلى التصديقِ مِن استقرارِ العقلِ في رأسِ هذا الأبله؟...

فأخْتَدَمَ^(١) الآخرُ وهم أن يقول: «مِمَّا حفظناه»، ولكني أسكتهُ وقلتُ (لِلنابغة): إنّك دائماً في دروةِ العالم، فلا غَرَو أن ترى المحيطَ الأعظمَ ساقية. «والنوابغُ» هم في أنفسهم نوابغ، ولكّثهم في رأيِ الناسِ مَرَضَى بمرضِ الصعودِ الخياليِّ إلى ذروةِ العالم. ومن هذا يكونُ المجانينُ همُ المَرَضَى بمرضِ النزولِ الحقيقيِّ إلى حضيضِ الآدميّة؛ فهناك يعملون فتكونُ أفكارُهم من أعمالِهم، ثمَّ تكونُ عقولُهم من أفكارِهم، فيكونُ هذا هو المجنونُ في عقولِهم، وذلك معنى الحديث: «إنّما ألمجنونُ المقيمُ على معصيةِ الله».

قال (النابغة): لَعَمْرِي إنّ هذا هو الحقُّ؛ فنبوغُ العقلِ مَرَضٌ من أمراضِ السموِّ فيه؛ فالشاعرُ العظيمُ مجنونٌ بالكونِ الَّذي يتخيّلُهُ في فكرِهِ، والعاشقُ مجنونٌ بكونِ آخرَ لَهُ عَيْنانِ مكحولتان؛ والفيلسوفُ مجنونٌ بالكونِ الَّذي يدأبُ في معرفته؛ ونابغةُ القرنِ العشرينِ مجنون... لا. لا. قد نسينا. ش، فهو مجنون، وس. ع فهو مجنون.

وكلُّ الناسِ مجنونٌ بليلى وليسلى لا تُقرُّ لهم بذلك ومن حقَّ ليلى ألا تقرُّ لهم، إذ هي لا تقرُّ إلا لِنابغةِ القرنِ العشرينِ وحده؛ وما أعجبَ سحرَ المرأةِ في الكونِ النفسانيِّ للرجال! أمّا في الكونِ الحقيقيِّ فهي أنثى كإناثِ البهائمِ ليسَ غير. وأعقلُ الرجالِ مَنْ كانَ كالِحِمَارٍ أو الثورِ أو غيرهما

(١) احتدم: استشاط غضباً.

من ذكور البهائم . فالجمال لا يعرف الجمارة إلا أنها حمارة ، والثور لا يعرف البقرة إلا أنها بقرة ؛ ولا ينظمون شعراً ، ولا يكتبون «أوراق الورد» . . . وإنات البهائم أمات^(١) لا غير ، ولكن العجيب أن ذكورتها ليست آباء ؛ فهذه الذكورة طفيلية في الدنيا ، والطفيلي لا يأكل إلا بحيلة يحتال بها ، فيكون صاحب نوادر وأضاحيك وأكاذيب . ولهذا كان عشق الرجال للنساء ضروباً من الخداع والأكاذيب والأضاحيك والحيل والغفلة والبلاهة ؛ وإذا نظرنا إليه من أوله فهو عشق ، أما آخره فهو آخر الحيلة والأكذوبة ، وهو قول الطفيلي : قد شغت وقد رويت . . . ويحكم ، أين أول الكلام ؟

قلنا : أوله ما أعجب سحر المرأة في الكون النفساني للرجال ! .
قال : نعم هذا هو . إنه سحر لا أعجب منه في هذا الكون النفساني إلا سحر الذهب ؛ فلو مسخت المرأة الجميلة شيئاً من الأشياء لكانت سبيكة ذهبية تلمع ؛ ولهذا يوجد الذهب للصوم في الدنيا ، وتوجد المرأة الجميلة للصوم آخرين ، فيجب أن يصاب الذهب وأن تصاب^(٢) المرأة .

قلت : ولكن أليس من المال فضة ، وهي توجد للصوم كأذهب ؟
قال : نعم ، وفي النساء كذلك فضة ، وفيهن اللحاس ؛ ولو أنت ألقيت ريالاً في الطريق لأحدثت معركة يختصم فيها رجالان ، ثم لا يذهب بالريال إلا الأقوى ، ولو تركت قرشاً لتضارب عليه طفلان ، ثم لا يفوز به إلا من عض الآخر . . .

ولكن (فورد) الغني الأمريكي العظيم الذي يجمع يده على أربعمئة مليون جنيه ، لا يتكلم عن القرش ؛ و(نابغة القرن العشرين) الذي يملك (ليلي) ، لا يتكلم عن غيرها من قروش النساء . . .

قلت : فإني أحسبك أعلمتني أن اسمها فاطمة لا ليلي .
قال : هل يستقيم الشعر إذا قلت : وكل الناس مجنون بفاطمة ، وفاطم لا تقر لهم ؟ قلت : لا .

قال : إذن فهي (ليلي) ليستقيم الشعر . . . أما حين أقول : أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل ، فهي فاطمة ليصح الوزن .

(١) جمع يقال في غير العاقل ، أمات ، وفي العاقل : أمهات .

(٢) تصان : تحفظ .

قلت: يُشبهه - والله - ألا يكون اسمُها ليلي ولا فاطمة؛ وإنما هي تسمى
حَسَبَ الوزنِ والبحر، فاسمُها فَعُولُنْ أو مُفَاعَلَتُنْ . . .

ثُمَّ قلنا له: فما رأيك في الحب، فإنه ليقال: إنك أعشقتُ الناسَ وأغرزلُ الناسَ؟
قال: إنَّ ذلكَ ليقالُ (وهو الأصح)، ثُمَّ أطرقَ يفكر. وبدأ عليه أنه مدهوشٌ
ذاهبُ العقل، كأنَّه من قلبه على مسافةٍ أبعدَ من المسافةِ التي بينه وبين عقله. وخيلَ
إليَّ أنَّ النساءَ قد حُشِرْنَ^(١) جميعاً في رأسه، ومرَّت كلُّ واحدةٍ تعرضُ مفاتيحَها
وغرلَها، وثلاثُهم هَديانُهُ بهذيانٍ^(٢) من جمالِها، فهو يرى ويسمعُ ويعرضُ ويتخيَّرُ.
ثُمَّ اضطربَ كالذي يُحاولُ أن يُمسكَ بشيءٍ أفلتَ منه؛ فلم ينبَّههُ إلا قولُ المجنونِ
الآخر: «مِمَّا حفظناه» أنَّ أعرابيةً سئلتُ عن العشقِ فقالت: إنَّه داءٌ وجنون . . .

قال: اسكت يا ويلك لقد أطفأتُ الأنوارَ بكلمتِكَ المجنونة. كانَ في رأسي
مرقصٌ عظيمٌ تسطعُ الأنوارُ فيه بينَ الأحمرِ والأخضرِ والأبيض؛ وترقُصُ فيه
الجميلاتُ منَ الطويلةِ والقصيرةِ والممشوقةِ والباديةِ، فجئتُ بالداءِ والجنونِ -
فَبَحَكَ اللَّهُ - فأخرجتني عنهنَّ إليك. أحسبُ أنك لو أنتحزتَ لصلَحَ العالمُ أو
صلُحْتُ أنا على الأقل . . . فإذا أردتَ أن تشقَّ نفسَكَ فأنا أتيكُ بالحبْلِ الذي كنتُ
مقيِّداً فيه أي الحبْلِ الذي عندي في الدار . . . على أنَّ رأسكَ الفارغُ مشنوقٌ فيك
وأنت لا تدري.

قالَ الآخر: ما أنت منذُ اليومِ إلا في شنقي وتعذيبي أو في شنقِ عقلي (على
الأصح). «ومِمَّا حفظناه» قولُ الأحنفِ بنِ قيس: إني لأجالِسُ الأحمقَ ساعةً فأتبيِّنُ
ذلكَ في «عقلي» . . .

فلم يرُغنا إلا قيامُ المجنونِ مُسلِّحاً بحذائِهِ في يده . . . وهو جذاءٌ عتيقٌ غليظٌ
يقتلُ بضربةٍ واحدةٍ؛ فحلنا بينهما وأثبتناه في مكانه. وقُلنا: هذا رجلٌ قد غلبَ على
عقله فلا يدري ما يقول؛ فإذا هو دلٌّ على أنه مجنون، أفلا تدلُّ أنت على أنَّك
عاقِل؟ ما سألناكَ في أنتحارهِ وجنونه، بل سألناكَ رأيكَ في الحب؛ وما نشكُّ أنَّك
قد أطلتَ التَّفكيرَ ليكونَ الجوابُ دقيقاً، فإنَّك (نابعةُ القرنِ العشرين)، فأنظرِ أن
يكونَ الجوابُ كذلك.

(٢) الهذيان: الجنون.

(١) حُشِرْنَ: جمعن.

قال: نعم إنَّ العاقلَ إذا وَرَدَ عليه أَسْوَالُ أَطالَ الْفَكْرَ في الْجَوَابِ . فَأَكْتُبْ يَا فلان (س . ع):

(جلس نابغة القرن العشرين مجلسَ الإِماءِ مُرتَجِلاً فقال: قصةُ الْحُبِّ هي قصةُ آدمَ، خلقَ اللَّهُ الْمَرْأَةَ مِنْ ضِلْعِهِ . فأولُ علاماتِ الْحُبِّ أَنَّ يَشْعَرَ الرَّجُلُ بِالْأَلَمِ كَأَنَّ الْمَرْأَةَ الَّتِي أَحْبَبَهَا كَسَرَتْ لَهُ ضِلْعاً... وكلُّ قديمٍ في الْحُبِّ هو قديمٌ بمعنى غيرِ معقولٍ، وكلُّ جديدٍ فيه هو جديدٌ، بمعنى غيرِ مفهومٍ؛ غيرُ المعقولِ وغيرُ المفهومِ هو الْحُبُّ .

والجَمْرَةُ الْحُمْراءُ إذا قِيلَ إِنَّهَا أَنْطَفَأَتْ وبقيَتْ جَمْرَةٌ فذلك أَقْرَبُ إلى الصِّدْقِ مِنْ بقاءِ الْحُبِّ حيًّا بمعناه الأولِ إذا انطفأ أو بَرَدَ .

والعاشقُ مجنونٌ . وجنونهُ مجنونٌ أيضاً، فهو كالذي يرى الْجَمْرَةَ مَنْطَفئةً، ويرى مع ذلك أَنَّها لا تزالُ حمراءَ، ثُمَّ يُمَعِّنُ في خياله فيراها وردةً مِنَ الْوردِ... وإذا سأَلْتُهُ أَنْ يَصِفَ الْجَمالَ الَّذِي يَهْوَاهُ كانَ في ذلك أيضاً مجنونَ الجُنونِ، كالذي يرى قمرَ السَّماءِ أَنَّهُ قد تَفَقَّتْ وتناثَرَتْ ووقَّعَ في الرُّوضَةِ، فكانَ نِثارُهُ هو أَلْيَاسِمينَ الأَبْيَضِ الْجَميلِ الذِّكِيِّ .

والمجنونُ يرى الدُّنيا بجنونهِ والعاقلُ يراها بعقله؛ ولكنَّ العاشقَ المخبولَ لا ينظرُ مَنْ يَهْوَاهُ إِلَّا ببقيةٍ من هذا وبقيةٍ من ذلك، فلا يخلُصُ مع حبيبهِ إلى جنونٍ ولا عقلٍ .

(والمجهولُ) إذا أرادَ أَنْ يَظْهَرَ في دِماغِ بَشَرِيٍّ لَمْ يَسْغُهُ إِلَّا أَحَدُ رَأْسَيْنِ: رَأْسِ الْمَجْنونِ ورَأْسِ الْعاشقِ... .

ولا صعوبةٌ في الْحُكْمِ على شيءٍ بأنَّهُ خَيْرٌ أو شَرٌّ إِلَّا حينَ يَكُونُ الْخَيْرُ وَالشَّرُّ أَمْرًا مَعْشوقَةً . أمَّا أوصافُ الشُّعراءِ وَالْكَتَّابِ لِلْجَمالِ وَالْحُبِّ فهي كُلُّها تَقْلِيدٌ قد تَوَسَّعوا فيه؛ وَالْأَصْلُ أَنَّ ثُوراً أَحَبَّ بَقرةً فَكانَ يَقولُ لها: يا نَجْمَةُ الْقُطْبِ الَّتِي نَزَلَتْ مِنَ السَّماءِ لِتَدورَ في السَّاقِيَةِ كما دارَتْ في الْفَلَكِ .

قالَ (الْكنايَةُ): هذا رأيي في حُبِّ الْعاشقين؛ أمَّا حُبِّي أنا (نابغة القرن العشرين) فيجمعه قولك: فلّ، ورد، زهر... .

قلنا ما هذه الأَلغاز؟ وهل نلحِبُّ مَثْنً كقولهم: حروفُ الْقَلْقَلَةِ يجمعُها قولك (قُطْبُ جَدٍ)، وحروفُ الزيادةِ يجمعُها قولك (سألتمونيها)؟

فتضاحك (النابعة)، وقال: تكاثرتِ الأطباء على خراش، فلكيلا ننسى... إن
كل حرف هو بدء أسم، الفاء فاطمة، والألام ليلى، وألواو وردة، وألراء رباب،
وألدال دلال، وألزاي زكية، وألهاء هند، وألراء رباب...
قلنا: رباب قد مضت في (ورد).

قال: كنا تهاجرنا مدة ثم أصطلحنا بعد هند...

قلت: هكذا «النوابغ» فإن رجلاً أديباً كانت كنيته (أبا العباس) فلما «نبغ»
صيرها (أبا العير)^(١) وفتق له نبوغه أن يجعلها تاريخاً يعرف منها عمره. قالوا فكان
يزيد فيها كل سنة حرفاً حتى مات وهي هكذا:
أبو العير طاذ طيل طلييري بك بك بك...

(١) العير: الحمار.

المجنون

٥

ثُمَّ إِنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ) أَسْتَخَفَّهُ الطَّرْبُ لِذِكْرِ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ مِنْ فَاطِمَةَ إِلَى رَبَابٍ؛ وَمِنْ طَبِيعِ الْمَجْنُونِ أَنَّهُ إِذَا كَذَبَ صَدَّقَ نَفْسَهُ، فَإِنَّ قُوَّةَ الضَّبْطِ فِي عَقْلِهِ إِنَّمَا مَعْدُومَةٌ وَإِنَّمَا مَخْتَلَةٌ؛ وَكُلُّ وَجْهِ تَخَيَّلٍ مِنْهُ خَيَالًا فَهُوَ وَجْهٌ مِنْ وَجُوهِ الْعِلْمِ عِنْدَهُ، إِذْ كَانَ عَالَمُهُ أَكْثَرُهُ فِي دَاخِلِهِ لَا فِي الْعَالَمِ، فَإِذَا تَوَهَّمْ أَوْ أَحَسَّ أَوْ شَعَرَ، فَإِنَّمَا يَكُونُ ذَلِكَ بِطَرِيقَتِهِ هُوَ لَا بِطَرِيقَةِ النَّاسِ الْعُقَلَاءِ؛ فَلَيْسَ يَحْتَمِلُ عَقْلُهُ إِلَّا فِكْرَةً وَاحِدَةً تَمْضِي مَنْفَرِدَةً بِنَفْسِهَا مُسْتَقِلَّةً بِمَعْنَاهَا كَأَنَّهَا قَدَّرَ غَالِبٌ عَلَى جَمِيعِ أَفْكَارِهِ الْأُخْرَى، فَلَا شَأْنَ لَهَا بِالْوَاقِعِ، وَلَا شَأْنَ لِلْوَاقِعِ بِهَا، وَإِنَّمَا هِيَ تُحَقِّقُ مَعْنَاهَا كَمَا تَخْطُرُ لَهُ، لَا كَمَا تَتِمَّلُ فِيهَا حَوْلَهُ.

فَبَيْنَ كُلِّ مَجْنُونٍ وَبَيْنَ مَا حَوْلَهُ دِمَاغُهُ الْمُتَدَجِّي^(١) بِالْغُيُومِ الْعَقْلِيَّةِ، لَا تَزَالُ تَعْرِضُ لَهُ الْغَيْمَةُ بَعْدَ الْغَيْمَةِ مِنْ اخْتِلَالِ بَعْضِ الْمَرَكَزِ الْعَصْبِيَّةِ فِيهِ، وَفَسَادِ أَعْمَالِهَا بِهَذَا الْاِخْتِلَالِ، وَقِيَامِ الطَّبِيعَةِ فِيهَا عَلَى هَذَا الْفَسَادِ.

وَمِنْ ذَلِكَ تَنْقَلِبُ الْكَلِمَةِ مِنَ الْكَلَامِ، وَإِنَّهَا لِحَادِثَةٌ تَامَّةٌ فِي عَقْلِ الْمَجْنُونِ كَالْقِصَّةِ الْوَاقِعَةِ لَهَا زَمَانٌ وَمَكَانٌ، وَبَدْءٌ وَنِهَايَةٌ، لَا يُخَامِرُهُ فِيهَا الشُّكُّ، وَلَا يَغْتَرِبُهَا التَّكْذِيبُ؛ وَكَيْفَ وَهِيَ قَائِمَةٌ فِي ذَهْنِهِ مِنْ وَرَاءِ سَمْعِهِ وَبَصَرِهِ قِيَامَ الْحَقِيقَةِ فِي الْأَبْصَارِ وَالْأَسْمَاعِ؟

وَلِحَوَاسِّ الْمَجْنُونِ جِهَتَانِ فِي الْعَمَلِ، لِأَنَّهَا بَيْنَ كَوْنَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا الْكَوْنُ الْخَرِبُ الَّذِي فِي دِمَاغِهِ؛ وَفِي هَذَا يَقُولُ (نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ): إِنَّ فِي دَاخِلِ عَيْنِي مِثْلَ مَنْظَارٍ يَرَى بِهِ الْأَشْيَاءَ فِي غَيْرِ حَقَائِقِهَا، أَيْ فِي حَقَائِقِهَا..

وَحَدَّثَنَا أَلَدُكْتُورُ مُحَمَّدُ الْأَرَفِيُّ قَالَ: إِنَّ فِي دَارِ الْمَجَانِينِ بِمَدِينَةِ لِيُونِ بِفَرَنْسَا

(١) المتدجى: المظلم.

نابغة كناية القرن العشرين، ذكّرت أمامه قيصره روسيا وخبر مقتليها، فأحفظه^(١) هذا وأزمضه^(٢) وقال يا ونحهم! كذبوا عليها وعليّ. فسأله الدكتور: وكيف ذلك؟

قال: كان من خبر القيصر أنها رأتني فأحبّنتني، وعلمت من كل وجه يمكن أن يُعلم منه قلبها أنني أنا رجلها لا القيصر؛ فما زالت بعدها تُناكذ^(٣) القيصر وتلتوي عليه ولا تصلح له في شيء حتى يئس منها فطلقها، فحملت كنوزها وحلاها ولجأت إلى حبيبها، ثم تبعها نفس القيصر ولم يطق العيش بعدها فأنحز... ثم طلبها الشيوعيون لما معها من كنوز، فأخفاها هو في مكان حريز^(٤) لا يعلمه إلا هو؛ ثم إنّه هو لا يصل إلى هذا المكان الذي أحرزها فيه إلا إذا نام... كيلا يراه أحد من الشيوعيين فيتعبه فيعلم مقرها؛ ولهذا كان من الحكمة أن ينسى المكان إذا استيقظ... فقد يزل مرة فيخبر به أو يغلبه الشوق مرة على «عقله»... فيذهب إليه؛ فعسى أن يراه من ينم بذلك، فتفتضح الحبيبة وتؤخذ منه.

قال: وإن القيصره هي تحتاط أيضاً مثل ذلك فتراسله كل يوم بالاسلكتي رسائل تقع من الجو في دماغه فيقرأها وحده، وإن أخوف ما يخافه أن يغلبها جنون الحب يوماً فتطيش طيش المرأة، فتزوره في هذا المارستان... فقد تقتل إذا رآها الشيوعيون.

قال الدكتور: وهاك (نابغة) آخر ثبت في ذهنه أن امرأة من أجمل النساء قد استهامت^(٥) به وأنها مبتلاة في حبها إياه بجنون الغيرة، وقد تناهت فيه حتى إنها لتقتل نفسها إذا علمت أن لصاحبها هوى في امرأة أخرى. وخبلته هذه الفكرة، فأعتقد أن حبيبته من جنون غيرتها واقعة بين السلامة والتلف؛ ثم توهم ذات يوم أن شيئاً قد أعلمها أن النساء أفتتن به؛ فطار صوابها، فهي آتية إليه في المارستان لتوبّخه وتشفي غيظها منه، ثم تتحرر أمام عينيه... وأدار (النابغة) الفكر في إقناعها لتعلم أنه لم يخنها بالغيث... فلم يهتد إلى مفتح تستيقن به المرأة أن لا أرب للنساء فيه إلا أن... فعل وجب خضيتيه بيده ليقدمهما برهاناً أنه لها وحدها....

(١) أحفظه: أغضبه.

(٢) أرمضه: ألهبه.

(٣) تناكد: تخاصم.

(٤) مكان حريز: مصون لا يصل إليه أحد.

(٥) استهامت: عشقت.

قلنا: وَطَرَبَ (نابغة القرن العشرين) لِيَذْكُرَ صَوَاحِبِهِ وَجَمِيلَاتِهِ، فَجَعَلَ يَتَرَنَّمُ
بهذا الشعر:

قالوا جُنِثَتْ بِمَنْ تَهَوَّى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لَذَّةُ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمَجَانِينِ
فَقَالَ الْمَجْنُونُ الْآخَرُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ»: مَا لَذَّةُ «الخبز» إِلَّا لِلْمَجَانِينِ . . .
فَضَحَكَ (النابغة): وَقَالَ: مَا أَسْخَفَكَ مِنْ أَحْمَقٍ. إِذَا كَانَ هَذَا هُوَ الْمَعْنَى
فَقُلْ: مَا لَذَّةُ (الْكَعْكَ). أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّ هَذَا الْأَبْلَةَ لَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً خَبَزٍ قَالَ إِنَّهَا ل.
ح. م. وَلَوْ تَهَجَّأَ كَلِمَةً لَحِمٍ لَقَالَ ف. و. ل. . .
إِنَّهُ طِفْلٌ عُمُرُهُ ثَلَاثُونَ سَنَةً وَفِيهِ دَائِمًا غَضَبُ الطِّفْلِ وَنَزَقُهُ^(١) وَحِمَاقَتُهُ، وَفِيهِ
كَذَلِكَ سُورُورُ الطِّفْلِ وَطِيشُهُ وَأَحْلَامُهُ؛ غَيْرَ أَنَّهُ لَيْسَ فِيهِ عَقْلُ الطِّفْلِ. . . وَهُوَ مِنْ
الْأَضْعَفِ، وَشِدَّةُ الْحَاجَةِ إِلَى الْعِنَايَةِ فِي حَيَاتِهِ وَسِيَاسَتِهِ وَالْبَرِّ بِهِ كَطِفْلِ صَغِيرٍ -
بَحِثْ يُخَيِّلُ إِلَيَّ أحيانًا أَنَّنِي أُمُّهُ . . .

قلنا: وَتَسَى فِي هَذِهِ الْحَالَةِ أَنَّكَ رَجُلٌ؟

قال: وَأَنْتُمْ كَذَلِكَ تَتَهَمُونَنِي بِالنِّسيانِ، وَهُوَ شُرْعًا جِهَةٌ مُلْزِمَةٌ لِلْحُكْمِ بِالْجُنُونِ
فَمَا النِّسيانُ إِلَّا الْكَلِمَةُ الْآخَرَى لِمَعْنَى ضَعْفِ الْعَقْلِ؛ وَضَعْفُ الْعَقْلِ هُوَ الْلَفْظُ
الْآخَرُ لِمَعْنَى جُنُونِي؛ وَقَدْ أَعْلَمْتُمْكُمْ مَا أَكْرَهُ مِنْ الْكَلَامِ.

قلت: لَا، النِّسيانُ لَا يَكُونُ مِنْكَ نِسْيَانًا بِمَعْنَاهُ فِي الْمَجَانِينِ، بَلْ بِمَعْنَاهُ فَيْك
أَنْتَ مِنْ تَوَائِبِ الْأَفْكَارِ النَّابِغَةِ وَتَزَاوُجِهَا فِي تَوَارُذِهَا عَلَى الْعَقْلِ. فَإِذَا تَوَائِبَتْ
وَتَزَاوَجَتْ كَانَ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ يُنْسِيَ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَلَا يَنْطَلِقُ مِنْهَا إِلَّا الْقَوِيُّ النَّابِغُ
حَقٌّ نَبُوغُهُ، فَيَجِيءُ كَالْمَنْقَطْعِ مِمَّا قَبْلَهُ؛ فَيُخَسَّبُ ذَلِكَ نِسْيَانًا وَمَا هُوَ بِهِ. وَقَدْ
تَصَطَّلَحُ الْأَفْكَارُ فِي هَذِهِ الْمَعْرَكَةِ الذَّهْنِيَّةِ إِذَا كَانَ النَّابِغَةُ مَسْرُورًا مَجْبُورًا يَرْقُصُ
طَرِبًا. . . فَيَكُونُ أَمْرُهَا إِلَى أَنْ تَجِيءَ كُلُّهَا مَعًا عَلَى اخْتِلَافِ مَعَانِيهَا وَتَنَاقُضِهَا؛
فَيُخَسَّبُ ذَلِكَ ضَرْبًا مِنَ الْذَهْوَلِ عِنْدَ مَنْ يَجْهَلُ الْعِلَّةَ «النَّبُوغِيَّةَ»؛ وَعَذْرُهُ جَهْلُ هَذِهِ
الْعِلَّةِ، وَهِيَ فِي دَلَالَةِ الْعَقْلِ لَيْسَتْ نِسْيَانًا وَلَا ذَهْوَلًا.

قال: فَأَعْلَمْنِي كَيْفَ نِسْيَانُ الْمَجَانِينِ، فَقَدْ خَفِيَ عَلَيَّ أَنْ أَدْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ
الْعَجِيبَ فِيهِمْ، وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَفُوتُهُمْ مَا أَسْتَدْنِي لَهُمْ مِنَ الْفِكْرِ بَعْدَ أَنْ يَكُونَ
قَدْ أَسْتَقَرَّ وَحَصَلَ فِي عَقُولِهِمْ؟

(١) نزقة: طيشه.

قلت: لا يكون النسيانُ نُهْمَةً بِالْجَنُونِ إِلَّا فِي أَحْوَالِ ثَلَاثٍ، جَاءَتْ بِكُلِّهَا
الرَّوَايَةُ الصَّحِيحَةُ الْمَحْفُوظَةُ:

فَأَمَّا الْأُولَى: فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ سَرِيًّا غَنِيًّا وَعُمُرَ حَتَّى أَدْرَكَهُ الْخَرْفُ؛
فَجَاءَهُ كَاتِبُهُ يَوْمًا يَسْتَعِينُهُ عَلَى تَجْهِيْزِ أُمِّهِ وَقَدْ مَاتَتْ، فَدَفَعَ إِلَى غُلَامٍ لَهُ دَنَانِيرَ
يَشْتَرِي بِهَا كَفَنًا، وَدَنَانِيرَ أُخْرَى يَتَصَدَّقُ بِهَا عَلَى الْقَبْرِ، ثُمَّ قَالَ لَغُلَامٍ آخَرَ؛ اِمْضِ
إِلَى صَاحِبِنَا وَغَاسِلِ مَوْتَانَا فَلَا تَفْأَذْعُهُ يَغْسِلُهَا. قَالَ الْكَاتِبُ: فَاسْتَحِينْتُ مِنْهُ وَقُلْتُ:
يَا سَيِّدِي إِبْعَثْ خَلْفَ فَلَانَةٍ وَهِيَ جَارَةٌ لَنَا تَغْسِلُهَا. قَالَ: يَا فَلَانُ: مَا تَدْعُ عَقْلَكَ فِي
حُزْنٍ وَلَا فَرَحٍ. كَيْفَ تُدْخِلُ عَلَيْهَا مَنْ لَا نَعْرِفُهُ؟

قَالَ الْكَاتِبُ: نَعَمْ تَأْذُنُ بِذَلِكَ. قَالَ: لَا - وَاللَّهِ - مَا يَغْسِلُهَا إِلَّا فَلَانُ.

فَضَاقَ الْكَاتِبُ بِهَذَا الْحِمَقِ وَقَالَ: يَا سَيِّدِي كَيْفَ يَغْسِلُ رَجُلٌ أَمْرًا؟

قَالَ: وَإِنَّمَا أَمْلَكُ أَمْرًا؟... - وَاللَّهِ - لَقَدْ أُنْسِيتُ..

وَأَمَّا الْحَالَةُ الثَّانِيَّةُ: فَمَا يُرَوَى عَنْ رَجُلٍ كَانَ نَائِمًا فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ فَخَرَجَتْ يَدُهُ
مِنَ الْفِرَاشِ فَبَرَدَتْ، فَأَدْنَاهَا إِلَى جَسَدِهِ وَهُوَ نَائِمٌ فَأَحْسَّ بَرْدَهَا فَأَيْقَظَتْهُ، فَانْتَبَهَ فَرَعَا
فَقَبَضَ عَلَيْهَا بِيَدِهِ الْأُخْرَى وَصَاحَ: أَلِلْصُوصُ. أَلِلْصُوصُ.. هَذَا أَلِلْصُ قَدْ قَبِضْتُ
عَلَيْهِ، أَدْرِكُونِي لِئَلَّا تَكُونَ فِي يَدِهِ حَدِيدَةٌ يَضْرِبُنِي بِهَا، فَجَاءُوا بِالسَّرَاجِ فَوَجَدُوهُ
قَابِضًا بِيَدِهِ عَلَى يَدِهِ وَقَدْ نَسِيَ أَنَّهَا يَدُهُ...

وَأَمَّا الثَّلَاثَةُ: فَهِيَ رَوَايَةٌ عَنْ رَجُلٍ قَدْ وَرِثَ نِصْفَ دَارٍ، فَفَكَّرَ طَوِيلًا كَيْفَ
تَخْلُصَ أَلْدَارُ كُلِّهَا لَهُ ثُمَّ أَهْتَدَى إِلَى الْوَسِيلَةِ؛ فَذَهَبَ إِلَى رَجُلٍ وَقَالَ لَهُ: أُرِيدُ أَنْ
أُبَيْعَكَ حِصَّتِي مِنَ الدَّارِ وَأَشْتَرِيَ بِشَمَنِهَا النِّصْفَ الْبَاقِي لِتَصِيرَ الدَّارُ كُلُّهَا لِي...

قَالَ (النَّابِغَةُ): لَعَمْرِي إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْجَنُونُ، وَمَا يُذَكِّرُ مَعَ هَؤُلَاءِ مَجْنُونُ الْاِمْتِنِ
وَلَا «غَيْرُهُ»...

فَقَالَ الْآخَرُ: «تَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ (نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَاشِرِينَ) يَرْفَعُ نَفْسَهُ عَنِ الْجَنُونِ
لَجَاءَ فِي الْجَنُونِ بِمَا يُذْهِلُ «العقول»...

ثُمَّ نَظَرَ فَإِذَا النَّابِغَةُ يَتَحَفَّرُ^(١) لَهُ... فَأَسْرَعَ يَقُولُ: «مِمَّا حَفَظْنَاهُ» كُنْ حَذْرًا

(١) يَتَحَفَّرُ: يَسْتَعِذُّ.

كَأَنَّكَ غِرٌّ، وَكُنْ ذَاكِرًا كَأَنَّكَ نَاسٍ. فَهَذَا هُوَ نِسْيَانُ نَابِغَةِ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ، نِسْيَانُ حُكَمَاءَ لَا نِسْيَانُ مُجَانِينَ.

قَالَ (الْنَابِغَةُ): وَلَكِنْ قَدْ فَسَدَ قَوْلُ الْأَشَاعِرِ: مَا لِلذَّةِ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ؛ فَمَا بَقِيَتْ مَعَ الْجَنُونِ لِلذَّةِ.

قُلْتُ: إِنَّ الْأَشَاعِرَ لَا يُرِيدُ الْمُجَانِينَ الَّذِينَ هُمْ مُجَانِينَ بِالْمَرَضِ، وَإِنَّمَا يُرِيدُ الْعُشَاقَ الْمُجَانِينَ بِالْجَمَالِ؛ وَجَنُونَ الْعَاشِقِ فِي هَذَا أَلْبَابِ كَعِيُوبِ الْعِظْمَاءِ مِنْ أَهْلِ الْفَنِّ، وَهِيَ عِيُوبٌ تُدَافِعُ عَنْ نَفْسِهَا بِحَسَنَاتِ الْعِظْمَةِ، فَلَيْسَتْ كَغَيْرِهَا مِنَ الْعِيُوبِ. قَالَ: فَيَجِبُ أَنْ أَصْنَعَ بَيْتًا آخَرَ يَفْسِّرُ ذَلِكَ الشَّعْرَ لِيَسْتَقِيمَ لِي التَّمَثُّلُ بِهِ، ثُمَّ فَكَّرَ وَهَمَّهُمْ، ثُمَّ كَتَبَ فِي وَرْقَةٍ ثُمَّ طَوَاهَا وَقَالَ: إِصْنَعِ أَنْتِ أَوَّلُ، وَسَأَتَّمِنُ س. ع. عَلَى عَشْرِي وَدَفَعُ إِلَيْهِ الْوَرْقَةَ:

فَنَظَرْتُ وَقُلْتُ: يَجِبُ أَنْ يَكُونَ الشَّعْرُ هَكَذَا:

قَالُوا: جُنِثْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لِلذَّةِ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ
الْعَقْلُ إِنْ حَكَمَ الْعُشَاقَ أَثْقَلَ مِنْ فَقِرْ تَحَكُّمَ فِي رِزْقِ الْمَسَاكِينِ
وَنَشْرُ س. ع. الْوَرْقَةَ فَإِذَا فِيهَا:

قَالُوا: جُنِثْتُ بِمَنْ تَهْوَى فَقُلْتُ لَهُمْ مَا لِلذَّةِ الْعَيْشِ إِلَّا لِلْمُجَانِينَ
إِنَّ الْعِيُوبَ مِنَ الْمَجْنُونِ دَافِعَةٌ بَأَنَّهُ «نَابِغٌ فِي الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ»...
وَضَحِكُنَا جَمِيعًا؛ فَقَالَ الْنَابِغَةُ: أَبْعَدَكَ اللَّهُ يَا س. ع. إِنَّ مَنْ أَتَمَّنَ الْمَجْنُونَ عَلَى سِرِّهِ وَقَالَ لَهُ أَكْتَمْتُهُ فَكَأَنَّمَا قَالَ لَهُ: أَنْشُرْهُ...

ثُمَّ قَالَ: وَدِدْتُ - وَاللَّهِ - أَنْ يَكُونَ س. ع. هَذَا «نَابِغَةً»، وَلَكِنِّي سَاجِعُهُ نَابِغَةً، فَقَدْ صَارَ لَهُ عَلَيَّ حَقُّ الصَّدِيقِ وَهُوَ حَقٌّ لَا أَضِيعُهُ وَلَا أُخِلُّ بِهِ. فَإِذَا أَحْتَجْتُ يَا س. ع. إِلَى خِطَابِ رَنَانٍ تُلْقِيهِ فِي حَفْلِ عَظِيمٍ، أَوْ قَصِيدَةٍ تَمْدُحُ بِهَا وَزِيرَ الْمَعَارِفِ، فَالْجَأُ إِلَيَّ فَإِنِّي مَلْجَأٌ لَكَ. وَمَتَى أَنْتَحَلْتُ شِعْرِي كُنْتُ عِنْدَ النَّاسِ الْمَتَنَبِيِّ أَوْ الْبَحْتَرِيِّ. أَوْ أَبْنِ الرُّومِي، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الْقُدَامَى لَمْ يَنْفَعْهُمْ إِلَّا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ، وَلَمَّا لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ أَعْجَبُوا النَّاسَ إِذَا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ فِيهِمْ...

قُلْنَا فَمَا حُكْمُكَ عَلَيْهِمْ فِي الْأَدَبِ؟

قَالَ: إِذَا حَكَمْتُ عَلَيْهِمْ فَقَدْ جَعَلْتُ نَفْسِي بَيْنَهُمْ، فَمِنْ الطَّبِيعِيِّ أَلَّا يُعْجَبَنِي مِنْهُمْ أَحَدٌ. إِنَّ «نَابِغَةَ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ» لَا يَقُولُ لِمَعْنَى هَذَا أَحْسَنُ، فَإِنَّهُ هُوَ فَوْقَ

الأحسن، ولا يقول عن نابغة هذا أشهر، فإنه هو فوق الأشهر.

قلت: كأن الدنيا تحت قدميك وأنت فيها الزاهد العظيم الذي لا يقول في حسن هذا أحسن لأنه فوق الشهوة، ولا في نعيم هذا أطيّب لأنه فوق الطمع، ولا في مال هذا أكثر لأنه فوق الحرص. وأحسبك لو كنت ترعى غنماً لكنت الحقيق في عصرنا بقول تلك الراعية الزاهدة: أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال: وكيف ذلك؟

قلت: حكي عن بعض الصالحين أنه فكر ذات ليلة فقال في نفسه: يا رب من زوجتي في الجنة؟ فأري في منامه ثلاث ليال أنها جارية سوداء في أرض كذا. فجاء تلك الأرض فسأل عن الجارية، فقال له رجل ما هذا؟ تسأل عن جارية سوداء مجنونة كانت لي فاعتقتها؟ قال وماذا رأيتم من جنونها؟ قال: كانت تصوم الأنهار فإذا أعطيتها فطورها تصدقت به، وكانت لا تهدأ الليل ولا تنام فضعزنا منها.

قال: فأين هي؟ قال ترعى غنماً للقوم في الصحراء:

فذهب إلى الصحراء فإذا هي قائمة في صلاتها، ونظر إلى الغنم فإذا ذئب يدلها على المرعى وذئب يسوقها. فلما فرغت من صلاتها سلم عليها فأنبأته أنه زوجها في الجنة وأنبأها أنه بشر بها؛ ثم سألها ما هذه الذئاب مع الأغنام؟ قالت: نعم أصلحت شأني بيني وبينه فأصلح بين الذئب والغنم.

قال (النابغة): هذا كذب لأنه عجيب، وهو عجيب لأنه كذب.

قلت: وأي عجيب في هذا؟ إن الذئب والشاة، والأسد والغزال، والشعبان والعصفور، وكل أكل ومأكول من الأحياء، لو هي دخلت في دائرة الصلاة الحقيقية لا تنظمت كلها صفاً واحداً يركع ويسجد. فهذه الجارية نشرت روح الصلاة والتقوى على كل ما حولها من قلبها الطاهر المطمئن بالإيمان فوق الذئب منها في دائرة مغناطيسية، فسلب وحشيته ورجع مسخراً لفكرة الصلاح والخير إذ تجانست فيه الحياة بما حولها، وأنسجم النوع والنوع في حركة متجاوبة أنسجام الرجل المغناطيسي هو ومن ينومه في إرادة واحدة وفكرة واحدة.

قال (النابغة): فإذا دخل الذئب مسجداً يرتج بالمصلين، أثره يصف أربعة ويقف بينهم للصلاة، أم يصلي صلاته الذئبية في لحومهم؟

قلت: وأين هم الذين يُصلُّون بحقيقة الصلاة، فيخرجون بها من النفس إلى الكون، ومن الزمن إلى الأبد، ومن الأسباب إلى مسببها، ومِمَّا في القلب إلى ما فوق القلب؟ إن هؤلاء جميعاً يُصلُّون بجوارحهم وبين أرواحهم طول الدنيا وعرضها؛ وما منهم إلا من يتَّصل فكره بما يغلب عليه، كما يتَّصل فكرُ اللصِّ بيده، وفكرُ العاشق بعينه، وفكرُ الطفيلي بمعدته. فاسمُها عندهم الصلاة، وحقيقتها عند الله كما ترى.

قال (النابغة): ولكنه ذئب من طبيعته أن يأكل الشاة لا أن يراعها، فلا أفهم شيئاً.

وقال الآخر: «مِمَّا حفظناه» رتَع^(١) الذئب في الغنم، ولم يقولوا صلى الذئب في الغنم، فلا أفهم شيئاً.

قلت: سأزيدكم عدَمَ فهم... إن قلب تلك المرأة العظيمة الطاهرة ملتصق بالله، وليس فيه شيء من طباعها الإنسانية ولا ظل من ظلال الدنيا؛ وقد تجلَّى فيه سرُّ الحياة، وهو السرُّ الذي لا يطعم ولا يشرب ولا يلبس ولا يشتهي ولا يطمع في شيء ولا يحرز شيئاً، وإنما طبيعته أشواقه الكونية، وأتصاله بتفحات القوة الأزلية المسخرة للوجود كله. فانتشرت هذه الموجة الكهربائية الأثيرية حول الجارية من قلبها، وجاء الذئب فالتجَّ فيها وغمرته الروحانية الغالبة، فإذا هو يفتح عينه على كون غريب قد تجلَّى السلام عليه، فليس فيه إلا قوة امرأة أمرها بائتلاف كل شيء مع كل شيء، واجتماع المتنافرين في حالة معروفة لا في حالة إنكار. فصار الذئب مستيقظاً، ولكنه في رُوح النوم، وشُلَّت فيه الذبيبة الطبيعية، فإذا هو يحمل الأناب والأظافر وقد أنسي أفعالها؛ وبقيت حركته الحيوانية، ولكن تعطلت بواعثها فبطل معناها.

ومن كل ذلك أختفى الذئب الذي هو في الذئب، وبقي الحيوان حياً ككل الأحياء، فناسَب الشاة وفزع إليها إذ لم تكن العلاقة بينهما علاقة جسمٍ أأكل بجسم الأكلة، بل علاقة الروح الحي بروح حيٍّ مثله.

قال (النابغة): أمّا أنا فقد فهمت ولكن هذا المجنون لم يفهم. أكتب يا س.

(١) رتَع: أكل وشرب ما شاء في خصب.

ع: جلس نابغة القرن العشرين مجلسه للفلسفة على غير إعداد ولا تمكّن، وبدون كتب ألّبتة... وكان هذا أجمع لرأيه وأذهن له وأدعى لأن يتوفّر على الإملاء بكل «مواهبه العقلية»؛ ولما أن فكر النابغة أعطى النظر حقّه وجمع في عقله ألفد جزالة الرأي إلى قوة التفنن والابتكار، قال مرتجلاً: إن فلسفة الذنب والشاة حين لم يأكلها ولم تنطخه، هي بالنص وبالحرف كما قال أستاذ نابغة القرن العشرين.

(حاشية) وإن مجنون المتن لم يفهم هذه الفلسفة.

فامتعض الآخر وقال «مما حفظناه»:

وبات يقدح^(١) طول الليل فكرته وفسر الماء بعد الجهد بالماء
فقال (النابغة): ويلك يا أبله! أما - والله - لو كنت نطّويه أو سيبويه لما
كنت عندي إلا جحشويه أو بغلويه...

لقد كنت أرى الكلام في تلك الفلسفة طريقاً نزهاً جميلاً حقته الأشجار
والأزهار عن جانبيه، وأندفعت في سوائه (ثمبيلات) الأفكار خاطفة كالبرق. فلما
تكلمت أنت أنتهينا من سخافتك إلى طريق حجري تققع^(٢) فيه عربات النقل
تجرها البغال البطيئة.

فقال: الآخر وهو يعتذر إليه: ما أردت - والله - مساءتك^(٣) ولو أردتها لقلت
وفسر الماء بعد الجهد بالسبرتو... فهذا هو الخطأ، أما تفسير الماء بعد الجهد
بالماء فهو صحيح.

قال (النابغة): ولكنه تفسير مفرط ألسقوط كتفسير المجانين، فهو يقول إنني
مجنون.

قلت: كلا، إن تفسير المجانين يكون على غير هذا الوجه، كالذي حكاه
الجاحظ قال: سمعت رجلاً يقول لآخر: ضربنا الساعة زنديقاً. قال الآخر: وأي
شيء الزنديق؟ قال الذي يقطع المزيقاً. قال: وكيف علمت أنه يقطع المزيقاً؟
قال: رأيته يأكل التين بالخل...

(١) يقدح: يشعل ويعمل.

(٢) تققع: تصدر صوت القعقة.

(٣) مساءتك: الإساءة إليك.

المجنون

٦

تمة

وطالَ المجلسُ بنا وبالمجنونين، والكلامُ على أنحائه يندفعُ من وجهٍ إلى وجه، ويمرُّ في معنى إلى معنى؛ فأردتُ أن أبلغَ به إلى الغاية التي جمعتُ من أجْلِها بين هذينِ المجنونين، بعدَ ما أنطلقنا في القولِ وأنفتحَ القفلُ الموضوعُ على عقلِ كلِّ منهما.

وكانَ قد مرَّ في أَلندي بائعِ رواياتٍ مترجمةٍ «بوليسِيَّةٍ وغرامِيَّةٍ ولصوصِيَّةٍ» يحملُ الرجلُ منها مَزبَلَةً أخلاقيَّ أوريبيَّةٍ كاملةً لينفضَّها في نفوسِ الأحداثِ من فتياتنا وفتياتنا، فقلتُ (لنابغةِ القرنِ العشرين): أتقرأُ الروايات؟ قال: لا، إلَّا مرةً واحدةً ثُمَّ لم أعاوِذْ، إذ جعلتني الروايةُ روايةً مثلها.

قلنا: هذا أعجبُ ما مرَّ بنا منذُ اليوم، فكيف صِرْتَ روايةً؟

قال: أنتم لا تعرفون طبيعةَ النوابعِ، إذ ليسَ لكم جِسْمُهُم المَرهَفُ، ولا طَبْعُهُم المستَحْكَم، ولا خصائصُهُم الغيبيَّة، ولا خواطرُهُم المتعلِّقةُ بما فوقَ الطَّبيعة.

قلت: نعم أعرفُ ذلك؛ وما من (نابغة) إلَّا وهو بينَ عالمين على طرفِ مِمَّا هنا وطرفِ مِمَّا هناك، فهو خَرَّاجٌ ولَّاجٌ^(١) بينَ العالمين؛ ولَهُ نفسٌ مركَّبةٌ تركيبها على نواميسَ معروفةٍ وأخرى مجهولة؛ فهي تأخذُ مِنَ الظاهرِ والباطنِ معاً، ويحصرُها المكانُ مرةً ويُفلُثُها مرةً، وتكونُ أحياناً في زمانِ الأرض، وأحياناً في زمنِ الكواكبِ مِنَ القَمَرِ فصاعداً... ولكن...

فقطعَ عليَّ وقال: أضفَ إلى ذلك أن هذه العقولَ التي تحصرُ مَنْ يسمونَهُم

(١) ولَّاج: دخال.

العقلأ في الزمان والمكان، لا توجد أهلكا إلاً الهموم والأحزان، والمطامع
السافلة، والأفعال الدنيئة، فإنهم يعيشون فوق التراب.

قلت: نعم، وإذا عاشوا فوق التراب فبأضطرار أن تكون معاني التراب فوقهم
وتحتهم ومن حولهم وبين أيديهم، فليسوا يقطعون على هذه الأرض إلا عمراً تريباً
في كل معانيه ولكن...

قال: وزد على ذلك أنهم مقيدون بقييد المجانين، غير أن جبالهم وسلاسلهم
عقلية غير منظورة؛ وبثليلهم تغليل المجانين يسمون أنفسهم عقلاء، وأعقلهم
أثقلهم قيوداً، وهذا من الغرابة كما ترى.

قلت: نعم، أما العقلاء بحقيقة العقل، فهم الذين يضحكون على هؤلاء
ويسخرون منهم، إذ كانوا في حال كحال المنطلي من المقيّد، وفي موضع كموضع
المعافى من المبتلى ولكن...

قال: وفوق هذا وذاك، إنهم لا يملكون السعادة، إذ ليس لهم العقل
الضاحك الساخر العابت الذي خص به النوابغ وكان الأوحّد فيه (نابغة القرن
العشرين).

قلت: نعم، وإذا ملكوا السعادة لم يشعروا بها، أما (النوابغ) فقد لا
يملكونها، ولكن لا يفوتهم الشعور بها أبداً فيجئهم الفرح من أسبابه ومن غير
أسبابه ما دام لهم العقل الضاحك الساخر العابت الذي دأبه أبداً أن ينسى ليضحك،
ولا قانون له إلا إرادة صاحبه، على مشيئة صاحبه، لمنفعة صاحبه. ولكن...

قال: والذي هو أهم من كل ما سبق؛ أن أعظم خصائص هذا العقل
الضاحك الساخر العابت أن يطرد عن صاحبه ما لا يحب ويحبّه أن يخسر شيئاً من
نفسه؛ فهو لذلك يجعل حسابه مع الأشياء حساباً يهودياً لا بد فيه من ربح خمسين
في المائة..

قلت: نعم، وهو دائماً كالطفل؛ وما أظرف بلاهة الطفل وما أجداها عليه!
إذ يضع بلاهته دائماً في أرواح الأشياء وأسرارها فتخرج بلهاء مثله، وتنقلب له
الدنيا كأنها أم تضاحك أبناً وتلاعبه ولكن...

قال: ولكن هذا مبلغ لا تبلغه الإنسانية إلا شذوذاً في أفرادها من جبابرة
العقول (كتابغة القرن العشرين).

قلت: نعم (ولكن) كيف صارَ (نابغة القرن العشرين) روايةً حينَ قرأَ الرواية! قال: هذه نكتةُ النبوغ؛ فلو أن مؤلفها كان نابغةً مثلنا يتلقَّى في نفسه وحي الأثير وإشاراتِ الروح الأعظم؛ لَعَلِمَ مِنَ الْغَيْبِ أن (نابغة القرن العشرين) سيقراً روايته، فكانَ يتحرَّى^(١) معاني غير معانيه ويتوخَّى بهذه القصة وضعا آخر لا تكون فيه حبيبة خائنة، ولا لص عارم، ولا قاتل سفاح، ولا سجن مظلم، ولا محكمة تقول حيث وحيث...

قلت: وما عليك من حبيبة خائنة في الورق، ولص بين الحروف المطبعية وقاتل لا يقتل إلا كلاماً، وسجن ومحكمة على الصحيفة لا على الأرض؟

قال: هذه نكتةُ النبوغ، فما استوعبتُ القصة حتى عمرتني أشخاصها، وأفحمت^(٢) منها على هولٍ هائل، فخائنتني الخائنة لعنَّها الله.. ولولا خوف السجن والمحكمة لقتلتها أشنع قتلة، ومثلتُ بها أقبح تمثيل. ونح الخائنة كيف استمالها ذلك الدميم الطويل العِملاق المشبوح العظام المفتول العضل؟ ولكني لسْتُ عملاقاً ولا مبنياً بناء الحائط، ثم كان مجنوناً بشهوته جنون الفيل الهائج، وكنتُ في شهواتي عاقلاً عقل الإنسان، ثم كان غنياً غنى الجبال، وكنتُ فقيراً فقراً العلماء. والنساء؛ قبح الله النساء. إنهن زينة تطلب زينة مثلها وإن المرأة لتمنح وجهها للقرد يقبله إذا كان الذهب يتساقط من قبلاته. أما من كان مثلي، أمواله الشباب والجمال والعقل والنبوغ، فهو مفلسٌ عندهن إفلاس القرد في الغابة، فهو عندهن قردٌ لهذه المشابهة.

قلت: هذا ليس عجباً فإن اللغويين يُجرون على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى.

قال المجنون الآخر: «مما حفظناه» أن اللغويين يُجرون على الشيء اسم ما يقاربه في المعنى...

فترد^(٣) وجه (النابغة) غضباً وقال: أبي يلعبُ هذا المجنون؟ إنَّه يزعم أن اللغويين يسموني قزداً، فهاتوا القواميس كلها وأرجعوا إلى مادة (قرد) ومادة (نابغة)... سؤا عليك أيها الصبي المعمر.. ألا فدعوني أؤدبه أدب الصبيان فإنَّ اللطمة القويَّة على وجه الطفل المُكابر في حقيقة تلمسه الحقيقة التي يكابر فيها إذ تدخلها إلى عقله من أقرب طريق...

(٣) ترد: تلبد.

(٢) أفحمت: أدخلت.

(١) يتحرى: يبحث.

قال ا. ش: أنت قلت، لا هو. على أنك لست قزداً أبداً إلا عند امرأة جميلة فاتنة متخيلة متماجنة، قد تضع البردعة على ظهر الأمير وتجعله حمارها، فيعجب الأمير أن يكون حمارها. ولست قزداً مع قرادٍ إلى جانب عتري وقلب.

قال: الآن علمتُ السبب، فإنَّ الخائنة كانت متخيلة مؤلفة كتب وروايات، والمرأة التي تُولف الكتب، غير بعيد أن تُولف الرجل أيضاً، وتجعله قصةً هو فيها قزداً. لا وهذا إن كانت جميلة كأمراة الرواية. أما إن كانت دميمةً مجموعةً من المتناقضات، أو عجوزاً مجموعةً من السنين؛ فهذه وهذه كل أيامها كيوم الأحد عند النصارى... يومٌ للعطلة لا بيع فيه ولا شراء ولا مساومة. هذه وهذه كلتاها تجعل الرجل كالماء في سبيل التجمد... لا يشتعل، فضلاً عن أن يستعير، فضلاً عن أن يحترق.

ومؤلفة الكتب لا يكون وجهها إلا إحدى وثيقتين: فإما جميلة، فوجهها وثيقة بأن لها ديوناً على الرجال؛ وإما غير جميلة، فوجهها (مخالصة) من كل الديون...

قلنا: هذا في الخائنة. فكيف سرقت اللص ولست غنياً؟

قال: هذه هي نكتة النبوغ؛ وفي النبوغ أشياء لا ينكشف تفسيرها، وليس في جهلها مضرة على أحد، وجهل لا يضرُّ هو علم لا ينفع، لكنَّهُ علم. والبحث في بعض أعمال (النابعة) هو كالبحث عن سرِّ الحياة فيه، إذ يعمل أعماله تلك بسرِّ الحياة لا بسرِّ العقل، أي بالعقل النابع الخاص به وحده لا بالعقل الطبيعي المشترك بين الناس.

قلت: ومن عجائبك أنك لا تقرأ الروايات، ولكنك مع ذلك تُولفها...

قال: إنَّ ذلك ليكون، وإن لم أُولفها أنا تألفت هي لي. فإذا تقدَّم الليل ونام الناس جميعاً أنتهت أنا وحدي لرواية العالم فأرى ما شئتُ أن أرى. وفي ضوء النهار أجد الناس عقلاً ولكني في ظلمة الليل أبصرهم مجانين. فهذا الليل برهان الطبيعة على جنون الناس وضعف عقولهم إذ هو يثبت حاجة هذه العقول إلى ضرب من النسيان الأبله التام لولاه ما عقلت في نهارها ولا استقام لها أمر.

يضرع الناس في الليل صُرعة المجانين فيغمضون أعينهم ولا يرون شيئاً. أما أنا فأرى العالم في الليل مسرحاً هزلياً يصحُّ بالضحك من الإنسان الأحمق الذي

يقطع سَرَاةَ نهاره، وهو معتقد أنه قابض على الوجود بالأعين والآذان والآناف . .
أئن رأيت الأسد بعينك أيها الأحمق وسمعت في أذنك زئيره، أذعيت الدَّعوى
العريضة، وزعمت أنك ملكته وقبضت عليه، ولا تدري في هذا أنك كالمعتوه إذا
قبض على الظل بيده، وصاح هاتوا الحبل لأقيدته لا يُقْلِت؟ . . .

قلت: فإذا كان العالم كله روايتك فأخرج لنا فصلاً من الرواية.

قال: أيما أحب إليكم، أن أكتب أو أمثل؟

قلنا: بل التمثيل أحب إلينا. فنظر إلى المجنون الآخر وقال: إنَّ المجنون في
طبيعته ينبوع من الأشخاص يفيض حالاً بعد حال، كينبوع الماء يسح^(١) الدفعة بعد
الدفعة، فهنا المسرح، والرواية الآن رواية الطبيب والمجنون . . .

أنت يا س. ع. عمُّ هذا المجنون. فإذا قال لك يا عم. قل له: أنا لست
عمك ولكني أخو أبيك . . . لينظر أيتنبه على الفرق بين الصيغتين أم لا؛ فإنه فرق
عقلي دقيق تمتحن به العقول . .

تعال أيها المريض فإني أرجو أن يكون شفاؤك على يدي، وفي يدي هذه لمسة
من لمسات المسيح، لأنَّ (نابغة القرن العشرين) هو الآن طبيب القرن العشرين . . .

إنقوا أن تغضبوه أو تخيفوه، وأقيموا له كل ما يحتاج إليه، وتحروا^(٢) مسرته
دائماً، فإن إدخال بغض السرور إلى نفس المجنون هو إدخال بغض العقل إلى رأسه .

متى أنكرت يا س. ع عقل أبني أخيك وما كان السبب؟ وكيف غلب على
عقله؟ وهل أ. ش. هو خاله أو أخو أمه؟

لطف الله لك أيها المسكين. قل لي: أتذكر أمس؟ أتذكر غداً؟ . . إنَّ
الأمس والغدا ساقطان جميعاً من حساب المجانين؛ ومن الرحمة بهم أن الدنيا تبدأ
لهم كل يوم فقد استراحوا من ثلثي هموم الزمن في العقلاء. وهم لا يصلحون أن
ينفعوا الناس كالعقلاء، غير أنهم صالحون أكثر من العقلاء للانتفاع بأنفسهم في
الضحك والمرح والطرب، وهذا حسبهم من النعمة عليهم.

قل لي أيها المجنون: أتحس أن الدنيا تصنع لك نفسك، أم نفسك هي تصنع

(١) يسح: يسيل وينهمر.

(٢) تحروا: فتشوا واكتشفوا.

لك الدنيا؟ إنَّ هذه مسألة يحلُّها كلُّ مجنونٍ على طريقته الخاصَّة به، فما هي
طريقتك في حلِّها؟

مالك لا تُجيبُ أيُّها الأبله؟ (هذا من جهةٍ ومن جهةٍ) أعطوه قرشاً لينطلقَ
لسائنه، وآثوا أطيبَ أجره وافيّاً وهو لا يقلُّ عن قرشين . . .

ثمَّ مال (النابعة) على مجنونٍ أمتنٍ وسارّه بشيء. فقلنا ما أمرُ المالِ بسِرٍّ؛
هذا قرشٌ للمريضِ وهذا قرشانٍ للطبيب .

فقالَ المَجنونُ: «مِمَّا حفظناه» كفى بالسَّلامة داءً.

قالَ «الطبيب»: هذا مريضٌ بنوعٍ مِنَ الجنونِ أسمه «مِمَّا حفظناه» وهو جنونُ
النسيانِ الذي يضعُ في مكانِ العقلِ كلمةً ثابتةً لا يتذكَّرُ المَجنونُ إلَّا بها؛ ومن أعراضه
جنونُ الشكِّ فكلُّ ما حولَ المريضِ مشكوكٌ فيه، وقد يترامى إلى جنونِ اللَّمسِ، فلو
لمَسْتَهُ بإصبعك توهمَها عقرباً فخافَ مِنَ الإصبعِ تلمسُهُ خوفاً مِنَ العقربِ تلدغه، ولكنْ
بقيتْ أشياء لا بدَّ مِنَ التَّدقيقِ في فحصِها، فليسَ هذا من مجانيينِ العبقريَّة التي أنحرفتْ
عن طريقها أو شدَّت في قوتها؛ ولا هو مِمَّنْ يتَّجانُ^(١) ويتحامقُ التماساً للرزقِ والعيشِ
كما قالَ بعضهم: حماقةٌ تعولني خيرٌ من عقلٍ أعولُه.

فقالَ المَجنونُ: «مِمَّا حفظناه» حماقةٌ تعولني . .

فضحك (النابعة) وقال: هو كما بيَّنتُ لكم مصابٌ بجنونٍ (مِمَّا حفظناه) وهو
أقلُّ الجنونِ وأهونُه، وعِلاجُه البَسْطُ والسُّرورُ والقِرْشُ؛ والضربُ أحياناً. . فإذا تابَرَ
عليه الداءُ تحوَّلَ إلى جنونٍ (مِمَّا ضربناه). . فيعتدي المصابُ على كلِّ مَنْ يراه أو
يوقعُ به ضرباً، وعِلاجُه حينئذٍ القميصُ المرقومُ^(٢)؛ فإذا فدَحَتْ^(٣) العِلَّةُ أنقلبَ
المرضُ إلى جنونٍ (مِمَّا قتلناه). وعِلاجُه يومئذٍ السَّلاسُلُ والأغلال.

والحقُّ أقولُ لكم إنَّ آخرَ ما أنتَهتْ إليه فلسفةُ الطَّبِّ في القرنِ العشرينِ أنَّ النَّاسَ
جميعاً مجانيينٌ ولكنَّ بعضهم أوفرُ قِسْطاً^(٤) من بعض. كأنَّ سلبَ العقلِ هو أيضاً حظوظٌ
كحظوظِ موهبةِ العقلِ. وأهلُ المريخِ من أجلِ ذلك يسمونَ الأرضَ بيمارستانَ أَلْفَلَكِ .
ولكنْ بقيتْ أشياء لا بدَّ مِنَ التَّدقيقِ في فحصِها؛ وعندي في الدارِ عاطوسٌ

(١) يتَّجانُ: يصطنع الجنون.

(٢) القميص المرقوم هو قميص السجن يلبسه المسجون.

(٣) فدحت: عظمت المصيبة.

(٤) قسْطاً: قدراً، حظاً.

إذا أشممته هذا المجنون عطس به عطسة قوية فخرج جنونه من أنفه . . . قل لي أيها المسكين: أتخاف إذا سرت وحدك في ميدان واسع كأن الميدان سيلتف عليك؟ أتضطرب إذا مشيت في مضيقي كأن المكان سينطبق عليك؟ وإذا كنت في عربة القطار فهل تخيل إليك أن البيمارستان قد جرّه القطار وأنطلق به هارباً؟ وهل شعرت مرة أنه أوحى إليك أن تتحرر؟

ارني هذا القرش الذي في يدك . فمد إليه المجنون يده بالقرش .
قال (النابعة): أنظر الآن هل تحدثك نفسك أن تعصيني هذا القرش أو تسرقه مني؟ قال: نعم .

قال (النابعة): إذن يجب أن أحرره في جيبي . . وأسرع فأخفاه في جيبي . . .

فصاح الآخر وشغب^(١)، وقال سلّبي ونهّبي . قلنا لا ينبغي أن يتصل بينكما شرٌّ في تمثيل الرواية فهذا قرش آخر، ولكن أفي الفلسفة عند (النابعة) إباحة السرقة والغضب؟

قال: فالرواية الآن هي رواية الفيلسوف العظيم أفلاطون وتلميذه أرسطو .
قل لي وبحك يا أرسطو . أعلمت أن في المجانين أغنياء يسرقون الشيء القليل لا قيمة له وهم أغنياء وليس بهم حاجة إليه . فما علّة ذلك عندك وما وجهه في مقولة الجنون؟

أعجزت عن الجواب؟ إذن فأعلم يا أرسطو أن المصاب بهذا الضرب من الجنون إذا اشترى هذا الشيء بدرهم كانت قيمته من الدرهم وحده، وهو غني لا قيمة للدرهم في ماله فلا يحفل بالشراء بيد أنه إذا سرقه كانت قيمته عنده من عقله وحيلته فيجيئه بلذة لا تشتريها كل أمواله ولا كل أموال الدنيا . فهذا جنون باللذة لا بالسرقة، وهو بذلك ضرب من العشق يجعل الشيء إذا لم يسرق كأنه المرأة المعشوقة الممتنعة على عاشقها .

والجوع إذا سرقوا ليأكلوا ويمسكوا الرمق^(٢) على أنفسهم، لا يقال في لغة الفلسفة إنهم سرقوا بل أخذوا . . فبأضطرار جاعوا وبأضطرار مثله أكلوا، والسارق هنا هو الغني الذي منعهم الإحسان والمعونة . .

(١) شخب: أحدث ضجة .

(٢) الرمق: بقية الحياة .

فَالدُّنْيَا مَعكُوسَةٌ مَنقَلِبَةٌ أَوْضَاعُهَا يَا أَرِسْطُو، وَلَوْ أَسْتَقَامَتْ هَذِهِ الْأَوْضَاعُ
لَوُجِدَتْ السَّعَادَةُ فِي الْأَرْضِ لِأَهْلِ الْأَرْضِ جَمِيعاً. وَكَيْفَ لَكَ بِالسَّعَادَةِ وَالنَّاسِ
مَخْلُوقُونَ بِعُيُوبِهِمْ؟ وَيَا لَيْتَهُمْ مَخْلُوقُونَ بِعُيُوبِهِمْ فَقَطْ، وَلَكِنَّ الطَّامَّةَ الْكَبِيرَى أَنَّ
عُيُوبَهُمْ تَعْمَلُ دَائِماً عَلَى أَنْ تَرَى فِي الْآخِرِينَ عُيُوباً مِثْلَهَا.

كُلُّ حِمَارٍ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ جَوْفَهُ تَبْنًا وَفُولًا وَشَعِيرًا، غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَرَ حِمَاراً
قَطُّ يُرِيدُ أَنْ يَمْلَأَ لِنَفْسِهِ الْإِصْطَبِلَ؛ فَإِذَا وَجَدَ حِمَارٌ هَذِهِ هِمَّتَهُ وَهَذَا عَمَلُهُ فَاسْمُهُ
إِنْسَانٌ لَا حِمَارَ.

يَا أَرِسْطُو إِنَّ مُعْضِلَةَ الْمَعْضَلَاتِ أَنْ يُحَاوَلَ إِنْسَانٌ حَلَّ مُشْكَلَةٍ دَاخِلِيَّةٍ مُحْضَةٍ
قَائِمَةٍ فِي نَفْسِ حِمَارٍ أَوْ ثَابِتَةٍ فِي ذَهْنِ الْحِمَارِيِّ... وَمِثْلُ هَذَا أَنْ يُحَاوَلَ حِمَارٌ حَلَّ
مُشْكَلَةٍ نَفْسِيَّةٍ فِي ذَهْنِ إِنْسَانٍ أَوْ فِي قَلْبِهِ، فَلَا حَلَّ لِمَشَاكِلِ الْعَالَمِ أَبَداً مَا دَامَ كُلُّ
إِنْسَانٍ مَعَ غَيْرِهِ كَحِمَارٍ مَعَ إِنْسَانٍ...

وَالْمَعْضَلَاتُ^(١) الْنَفْسِيَّةُ مِنْ عَمَلِ الشَّيَاطِينِ، فَكَانَ يَنْبَغِي أَنْ تَجِيءَ الْمَلَائِكَةُ
لِتُحَارِبَ الشَّيَاطِينَ بِالْبَرْقِ وَالرَّعْدِ دِفَاعاً عَنِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ وَلَكِنَّ اللَّهَ - تَعَالَى - مَنَعَهَا،
وَأَرْسَلَ لِلْإِنْسَانِ مَلَائِكَةً أُخْرَى إِنَّ شَاءَ هَذَا الْإِنْسَانُ عَمِلَتْ، وَإِنْ شَاءَ عَجِزَتْ؛ وَهِيَ
فَضَائِلُ الْأَدْيَانِ الْمَنْزَلَةِ. فَإِذَا مَنَحَهَا الْإِنْسَانُ إِرَادَتَهُ وَقُوَّتَهُ، فَعَمِلَتْ عَمَلَهَا كَانِ
الْإِنْسَانُ هُوَ الْمَلِكُ بَلْ فَوْقَ الْمَلِكِ، وَإِذَا أضعَفَهَا وَمَحَقَهَا كَانِ الْإِنْسَانُ هُوَ الشَّيْطَانُ
وَأَسْفَلَ مِنَ الشَّيْطَانِ.

يَا أَرِسْطُو: «هَذَا الْعَالَمُ عِنْدِي كُتْلَةٌ مِنَ الْعَدَمِ اتَّفَقَتْ عَلَى الظُّهُورِ وَاسْتَخْتَفِي.
وَالْعَالَمُ عِنْدِي ضَعْفٌ رُكْبٌ وَقُوَّةٌ رُكْبٌ. وَالْعَالَمُ عِنْدِي لَا شَيْءَ. وَالْعَالَمُ بَيْنُ بَيْنٍ.
وَالْعَالَمُ قِسْمَانِ: مِنْهُمُ الْفَلَاحُ الْزَّرَاعِيُّ وَذَلِكَ أَفْضَلُ فِلَسَفَةٍ طَبِيعِيَّةٍ. وَالْعَالَمُ فِي حَاجَةٍ
إِلَى الْمَوْتِ وَالْمَوْتُ فِي حَاجَةٍ إِلَيْهِ. وَالْأَدَبُ هُوَ الْحَيَاةُ وَلَا حَيَاةَ بِلَا أَدَبٍ. وَالْأَدَبُ
ضَرْبَانِ: أَدَبٌ نَفْسَانِيٌّ وَأَدَبٌ مَكْتَسَبٌ، وَقَدْ يَكُونُ طَبِيعِيًّا كَمَا هُوَ عِنْدَ نَابِغَةِ الْقَرْنِ
الْعَشْرِينَ. وَمَنْ هُوَ نَابِغَةُ الْقَرْنِ الْعَشْرِينَ؟ هُوَ شَخْصٌ مَاتَ بِلَا مَوْتٍ، وَيَحْيَا بِلَا حَيَاةٍ».

أَتُرِيدُ يَا أَرِسْطُو أَنْ تَعْرِفَ سِرَّ تَرْكِيبِ الْعَالَمِ؟ الْأَمْرُ يَسِيرٌ غَيْرُ عَسِيرٍ، فَإِنَّ سِرَّ
تَرْكِيبِهِ كَسِرِّ تَرْكِيبِ الْقَرَشِ الَّذِي فِي يَدِكَ، فَدَعْنِي أَظْهَرُكَ عَلَى هَذِهِ الْحَقِيقَةِ وَمُدَّ
يَدَكَ بِالْقَرَشِ لِأَبَيِّنَ لَكَ سِرَّ التَّرْكِيبِ فِيهِ...

(١) المعضلات: المشاكل الصعبة الحل.

ولكنَّ المجنونَ الآخرَ أسرعَ فغَيَّبَ الْقِرْزَشَ في جيبِهِ . فقالَ (النابغة): هذا سياسيٌّ داهيةٌ خبيثٌ . والروايةُ الآنَ روايةٌ سياسيٌّ القرنَ العشرين .

ليسَ في حقيقةِ السياسةِ إلَّا الرُّذُلُ من أفعالِ السياسيِّينَ . والألفاظُ السياسيَّةُ التي تحملُ أكثرَ من معنى هي التي لا تحملُ معنىً . فليحذرِ الشرقُ من كلِّ لفظٍ سياسيٍّ يحتملُ معنيينَ ، أو معنىً ونصفَ معنىً ، أو معنىً وشبهَ معنىً ؛ فإنَّ قالوا لنا (أحمر) قلنا لهمُ اكتبوه بهذا اللفظِ ؛ فإذا كتبوه قلنا لهمُ : أرسموا إلى جانبِهِ معناهُ باللونِ الأحمرِ لِتشهدَ الطَّبِيعَةُ نفسها على أنَّ معناهُ أحمرٌ لا غيرٌ . . . وعلى هذه الطريقةِ يجبُ أنْ تُكتَبَ المعاهداتُ السياسيَّةُ بين أوربا والشرق . . .

إنَّهم يكتبونَ لنا جريدةً بأسماءِ الأطعمةِ ثُمَّ يقولونَ : أكلْتمُ وشبِعْتمُ . . . ولقد رأيتُ (مظاهراتٍ) كثيرةً ولا كالْمَظَاهِرَةِ التي أتمَّناها ؛ فما أتمنى إلَّا أنْ يخرجَ كلُّ ألمجانيينِ في مظاهرةٍ . . .

وهذا الأبلهُ الَّذي أماننا ليسَ وطنياً ولا فيه ذرَّةٌ مِنَ الوطنيَّةِ ؛ فإنَّ كانَ وطنياً أو زعمَ أنَّه وطنيٌّ ، فليُخرجِ الْقِرْزَشَ الَّذي في جيبِهِ . . . ليكونَ فاعلاً حسناً ليُخرجَ جيشَ الاحتلالِ من مصرٍ . . .

ولكنَّ المجنونَ لم يخرجِ الْقِرْزَشَ وتركَ جيشَ الاحتلالِ في مكانِهِ . فقالَ (النابغة): الروايةُ الآنَ روايةُ الشرقيِّ والِّلصِّ . وبحقٍّ مِنَ القانونِ يكونُ لِلشرقيِّ أنْ يُفتِّشَ هذا الِّلصَّ ليُخرجَ الْقِرْزَشَ من جيبِهِ . . .

غيرَ أنَّ المجنونَ أمتنعَ . فقالَ (النابغة): كلُّ ذلك لا يُجدي^(١) مَعَ هذا الخبيثِ ، فالروايةُ الآنَ روايةُ هارونِ أَرشيدٍ مَعَ أَلبرامكة . ويجبُ أنْ يَنكُبَ أَرشيدُ هؤلاءِ أَلبرامكةَ لِيَسْتَضْفِيَ الْقِرْشَ . . .

بيدَ أنَّنا منعناه أنْ يَنكُبَ «أَلبرامكة» فقالَ : الروايةُ الآنَ روايةُ العاشقِ والمعشوقةِ . ونظرَ طويلاً في ألمجنونِ وصعدَ فيه عينُهُ وصبَّ فلم يرَ إلَّا ما يُذكرُ

(١) لا يجدي : لا ينفع .

بأنه رجل، فتهدّى^(١) إلى رأيٍ عجيب. فوقع على قدميه وتوهّمه امرأة في
حذاءها... وجعل يُناجي الحذاء بهذه المناجاة:

إن سخافات الحب هي أقوى الدليل عند أهله على أن الحب غير سخي؛
فكل فكرة في الحب مهما كانت سخيّة، عليها جلال الحب؛ وللحذاء في قدميك
يا حبيبتي جمال الصندوق المملوء ذهباً في نظر البخيل، وكل شيء منك أنت فيه
سرّ جمالك أنت. والحذاء في قدميك ليس حذاء، ولكنه بعض حدود جسمك
الجميل، فلا أكون كل العاشق حتى أحيط بكل حدودك إلى الحذاء..

إن جسمك يا حبيبتي كالماء الجاري العذب؛ في كل موضع منه روح الماء
كله؛ وحيثما وقعت القبلّة من جسمك كان فيها روح شفتيك الورديتين، هذه قبلّة
على قدميك يا حبيبتي؛ وهذه قبلّة على ساقك؛ وهذه قبلّة على ثوبك وهذه قبلّة
على جيبك..

وكادت يد (النابعة) تخرج بالقِرْش؛ فعضّه المجنون في كتفه عضّة وحشيّة،
فجأه الخوف منها فطار صوابه؛ فصرخ صرخة عظيمة دوى لها المكان وترددت
كصرصرّة البازي^(٢) في الجوّ، ثم اعتراه الطيف، وأطبق عليه الجنون فأختلط
وتخبط..

(والرواية الآن؟)... رواية عربية الإسعاف...

(١) تهدى: اهتدى وتوصل.

(٢) صرصرّة البازي: صوته.

فهرس المحتويات

٥	الإشراقُ الإلهي وفلسفة الإسلام
١٢	حقيقةُ المسلم
١٧	وحيُ الهجرة
٢٣	فلسفةُ قصة
٢٩	فوقَ الآدمية الإسراء والمعراج
٣٦	الإنسانية العليا
٤٤	سموُ الفقيرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم
٥٠	سموُ الفقيرِ في المصلحِ الاجتماعيِّ الأعظم
٥٧	درسٌ من النبوة
٦٣	شهرٌ للثورة فلسفة الصيام
٦٩	ثباتُ الأخلاق
٧٥	قُلْتُ لِنَفْسِي وَقَالَتْ لِي
٨٢	الانتحار ١
٩١	الانتحار ٢
٩٩	الانتحار ٣
١٠٧	الانتحار ٤
١١٤	الانتحار ٥
١٢٣	الانتحار ٦
١٢٣	تتمة
١٣٢	وحيُ القبور
١٣٦	عروسٌ تُزَفُّ إلى قبرها
١٤١	موتٌ أم
١٤٦	قصةُ أب

١٥٢	السَّمكة
١٦١	الزاهدان
١٦٧	إبليسُ يُعلِّم
١٧٤	الدنيا والدرهم
١٨٠	دُعابةُ إبليس
١٨٧	الشیطان . . .
١٩٧	تاریخٌ يتكلَّم . . .
٢٠٠	المجلدُ الأول
٢٠١	المجلدُ الثاني
٢٠٢	المجلدُ الثالث
٢٠٢	المجلدُ الرابع
٢٠٣	المجلدُ الخامس
٢٠٤	المجلدُ السادس
٢٠٤	المجلدُ السابع
٢٠٥	المجلدُ الثامن
٢٠٥	المجلدُ التاسع
٢٠٥	المجلدُ العاشر
٢٠٧	كُفْرُ الذُّبابة . . .
٢١٥	يا شبابَ العرب!
٢١٩	لَوْ . . . !
٢٢٥	في محنةِ فلسطين
٢٢٥	أيُّها المسلمون!
٢٢٩	قصةُ الأيدي المتوضئة . . .
٢٣٥	نجوى التمثال
٢٣٨	فاتحُ الجوّ المصري
٢٤٢	أجنحةُ المدافع المصرية
٢٤٦	أحاديثُ الباشا:
٢٤٦	الطماطمُ السياسي . . .

٢٥٠	البك والباشا
٢٥٤	ساكنو ألياب . . .
٢٥٨	الأخلاقُ المحاربة
٢٦٢	خضعَ يخضع . . .
٢٦٦	فلتتعبْ . . . !
٢٧١	وزنُ الماضي
٢٧٥	المعجمُ السياسي
٢٧٩	اللسانُ المُرَقَّع
٢٨٣	سرُّ القُبَّة
٢٨٧	سعد زغلول
٢٩٠	حماسةُ الشعب
٢٩٤	الجمهور
٢٩٩	المجنون ١
٣٠٦	المجنون ٢
٣١٣	المجنون ٣
٣٢١	المجنون ٤
٣٣٠	المجنون ٥
٣٣٨	المجنون ٦
٣٣٨	تتمة